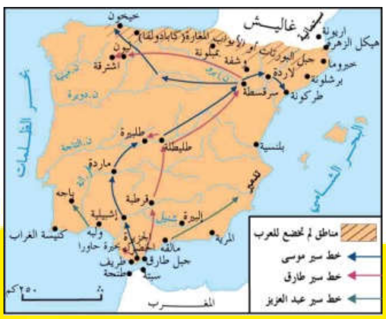
الحضارة والمأساة

فى تاريخ الاسلام

من الاندلس الى افريقيا جنوب الصحراء

والبعد الاسلامى فى سياسة مصر

الخارجية



يـا غافـلاً ولـه فـي الدهـرِ موعظـةٌ   إن كنـت فـي سِنَـةٍ فالدهـرُ يقظـــــــانُ

الشاعر الاندلسى   أبي البـقاء الرنـدي

واذا فاتك التفات الى المـاضـــــى   فقد غـــــاب عنك وجه التـــــــــأس

احمد شـــــوقى   -- أمير الشعراء

السفير محيي يوسف

[Type text]

موضوعات الكتاب

الحضـــارة الاسلاميـة ومنـارتها فى الاندلـــــــس .
مد الاسلام وحضارته فى افريقيا جنوب الصحـــراء.
البعد الدينى فى صراعــــــات القـــــارة الافريقية.
البعد الاسلامى والافريقى فى سياسة مصر الخارجية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم الكاتـــــــــــب

يتعامل هذا الكتاب مع فترة نضال شرس من تاريخ الاسلام ؛ نضال عم عالمه الممتد من الاندلس الى جنوب الصحراء الافريقية الكبرى ؛ وانتقاءنا المنطقتين موضوعا لهذا الكتاب يأتى من منطلق ما تعرضتا له من هجمة شرسة استهدفت بالمحن البشر والعقيدة واحالت حياة شعوبها جحيما ، وكان القاسم المشترك الذى تأسست عليه عدوانية هذه الهجمة وشراستها هو إنتماؤهما للاسلام ؛ فمأساة المورسكيين التى توجت الملحمة الاندلسية شكلت مأساة ابدية فى تاريخ الاسلام لن تندمل جراحها ابدا ، تلك المأساة التى فقد فيها الاسلام زهرة منائره فى غرب العالم ؛ ذلك الغرب الذى حملته تلك المنارة من غياية قرونه الوسطى لتلمس طريق الحضارة الحديثة .

وعبقرية هذه المنارة الصرح تنبع من انها قامت وعلت وهى تغالب محنة الاحتضار، محنة لم تمنعها من العطاء لمن استهدفوا وجودها ، فأعطتهم رحيق الحضارة من منبع حضارة قادت الانسانية فترة ما من تاريخها ؛ ودائما ما شكلت عبقرية الاندلس عُقدة عند اوروبيي عهد النهضة بفضلها المباشرعلى الحضارة الاوروبية ، فعندما بلغت بهم نشوة انطلاقتهم الحضارية مبلغا من الزهو اصبح لايمكنهم معه تقبل ان يذكرهم احدا بماضى مُظلم تبدد بفضل حضارة دين يناصبونه شديد العداء والكراهية ؛ فإستفزت تلك العقدة مخزون العداء للاسلام منفجرا شره مستطيرا فى الاندلس وانتثرت روافده على سلوك الهيمنة الاوروبية القبيح فى افريقيا المسلمة .

اما تاريخ حضارة الإسلام فى افريقيا فإنه يمثل فصلاً فريداً ليس فقط فى صرح الحضارة الافريقية وانما أيضا فى تاريخ حضارة الإسلام ، فبالإسلام انفتحت جنوب الصحراء علي الحضارة الإنسانية ؛ وبه إنفلتت من براثن الجمود وكوابح التقدم فتجاوزت العزلة التى احكمت قبضتها على المنطقة لقرون استكانت لها خالدة فيها أبدا ؛ فجمود الغرب الافريقى أصبح عُقدة شكلت أزمة حضارة انفكت على يد الاسلام ؛ فمن لغته عرفت المنطقة أبجديتها الاولى وبإندماجها فى عالم الاسلام الكبير تعاظمت مكانتها لمرتبة ما كانت لتتهيأ لها الا من خلال الاندماج فى صُلب حضارة الاسلام فإرتقت لتُصبح خلال قرون قليلة رائدة فى عالم الحضارة ولها خصوصيتها من ذخائر الثقافة ؛ فاقت بها سائر ثقافات جنوب الصحراء حتى ذاع صيت كعبتا علمها " تمبكتو " و " جني " (١) ، وبما إقتبسه من حضارة الاسلام قفز الاقليم بنظامه السياسى لاول مرة ليرتقى لمصاف النظم الامبراطورية بجيد تنظيمه وتوسعها ومبادرتها بالكشوف الجغرافية عبر الاطلنطى الى العالم الجديد سابقة الكشوف الاورورببة ، وإزدهر اقتصادها بتضخم مواردها لاتساع رقعتها من ناحية وإنفتاحها على دائرة التجارة العالمية لاول مرة بفضل إنضمامها الى عالم الاسلام.

واذا ما تقصينا اثر حضارة الاسلام فى الشرق الافريقى ؛ نجد ان ما تحقق فيها قد اذهل " فاسكو دى جاما " وبحارته عندما حطوا على الساحل الشرقى لافريقيا فى السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ، فقد اصابتهم الدهشة وهم يرون مدنا مزدهرة عامرة بالسكان على قدر كبير من التمدن والمعرفة بالعالم الخارجى ؛ مؤسسة على طرز تماثل فى روعتها القليل من مدن اوروبا التى لم تعرف هذا القدر من الحضارة أنذاك ؛ و لم يقتصر هذا الاعجاب على العمران وانما إمتد الى التفوق التقنى لشعوبها فى الملاحة البحرية وادواتها فيشير مؤرخ الاسطول البرتغالى فى معرض حديثه عن بحارة هذه المدن الى معرفتهم الواسعة بطرق الملاحة وحيازتهم لاجهزة الملاحة المتقدمة ؛ فيقول انهم كسائر البحارة العرب على دراية ومعرفة اكبر بالعالم ، وانهم يعرفون جيدا طرق الملاحة الدولية (الهند وما ورائها) ؛ ولديهم من الاجهزة والخرائط الملاحية ما يماثل ما كان فى حوزة البرتغاليين أن لم تكن اكثر دقة (كانت الكشوف البحرية الاورروبية أنذاك ما زالت في بدايتها) ، وادهش ابن بطوطة ما أدهش البرتغاليين عند زيارته المنطقة فى وقت مقارب.

وبالنسبة لاسلوب معالجتى للموضوع فأستميحكم عذرا للتطرق المستفيض لبعض جوانب الحضارة الاسلامية ، فإنما قصدت منه التذكير بتراث نادر للامة غاب عن مناهجها التعليمية ويجهله الكثيرون منا ؛ وليس الغرض من ذلك التغنى بأمجاد الماضى بقدر ما هو إعتصارا للعبر من الالم على مجد أضاعه أهله ولم يستوعب لا هم ولا اللاحقون دروسه عبر القرون ؛ فقد يكون فى التذكرة دواء لإستنهاض الهمم ؛ فإستثارة الشجن على مأساة ضياع أمة مازال مجدها قائما ينعى تاريخها مصيرها اصبح غصة ومرارة فى

---

(١) رشح تراث تمبكتو المعمارى الفريد ؛ المدينة في عام ٢٠٠٧ لتكون ضمن عجائب الدنيا السبع الجديدة للقرن الواحد والعشرون.

حلق كل مسلم ؛ قد ينزع بهذه الامة للوحدة والعمل الجاد يجنبها ما يُحاك لها من مؤامرات لا تموت ولا تخمد ، فالقصد فى المنتهى تعريف الجاهل وتذكير الغافل بعبرالتاريخ وسُنن الغابرين لعلنا لا نعاود البكى اطلالا وفرصا ضائعة ؛ نقعد بعدها ملومين محسورين ننشد الحكمة العربية الخالدة التى جللت تاريخنا الحديث:

" ورُب يوم بكيت منه فلما .. صرت فى غيره بكيت عليه "

وأود أن أنبه بأننى حاولت ان ينحصر دورى بالنسبة للسرد التاريخى وهو اساس الكتاب ؛ بعرض الحوادث وتنسيقها وإعادة صياغتها بما يخدم الموضوع ؛ وإضافةإيضاحات وتعليقات فى اطار من خلاصات عامة جامعة هنا وهناك بعيدا عن المساس بمضمون الحدث ؛ ومن هذا المنطلق فان رؤيتى قد تختلف او تتفق مع هذا او ذاك ، فالتاريخ مادة مرنة تتفاوت بشأنه التقديرات من زمن لأخر ومن شخص لأخر طبقا لاختلاف محددات الفكر ومنظور الرؤى ؛ وهو ما يفرض آثاره بالتبعية على الخلاصات والاحكام .

واسجل ان من يتصدى لرواية التاريخ يصعُب عليه الامر اذا ما حاول لملمة الصورة من مختلف جوانبها لجمع الاحداث فى نقطة مركزة فى نطاق مختصر بمنطق سلس يتكامل فيه العرض بدون تضارب ليصل الى القارئ مفهوما جامعا شاملا ؛ ويزداد الامر صعوبة مع ما لاحظناه من إلتباس الامر على العديد من المراجع الموسوعية فى معالجتها الحدث الواحد حال تعدد مصادره سواء من ناحية مضمونه او تاريخه استنادا لتقاويم مختلفة ما بين هجرى وميلادى وامهرى؛ كما تتضارب فى روايتها للحدث الواحد استنادا لمصدرين متضاربين اذا ما جاء فى موقعين متباعدين دون ان تدركه ذاكرة الموسوعة لمحاولة تحقيقه، وهو ما استغرق منا الكثير من الوقت للتدقيق، كما ان هناك تضارب بين الاسمء فى السجلات العربية والاسبانية فالاخيرة تسمى ملوك الاندلس فى بعض الاحيان بأسماء مختلفة عن مثيلتها العربية فالسيد ابو عبد الله محمد المعروف بالزغل تسميه المراجع الاسبانية محمد الخامس ومن غير المؤكد التوثق من تطابق الشخصيتين .

وحرصا منا على عدم اسقاط ايا من الاحداث ، لما فى ذلك من فائدة عند التدقيق عند ظهورمعلومات او حقائق جديدة ؛ فقد اوردنا الروايات المتعددة للحدث الواحد على اختلافها تسجيلا للمزاج العام للحدث فى سياقه الزمنى والتاريخى ولاستبيان مزاج الرأى العام وتناقضاته ؛ مع ابداء اقتناعاتنا بشأنها وترك الامر لحكم القارئ والى ما يُستجد من معلومات لم ندركها ؛ واضيف ان استفاضتى فى ذكر اسماء مواقع ومدنا فى الاندلس والسودان والحبشة جاءت ليعايش كل من زار تلك البلاد او على دراية بمدنها حركة التاريخ معايشة اهله ؛ وليستشعر القارئ الملم بالخرائط حجم حركة التاريخ وضخامة المسافات وحركة الثقافات والجيوش والشعوب.

وفي ضوء تماس ظلال الدين عند تناولنا تاريخ المنطقتين ؛ فقد يتبادر للذهن ما قد يحتسبه غير الواعون بوحدة العقيدة السماوية أنه صدام بين شريعتا السماء الشقيقتين المسيحية والإسلام ؛ وهو ما ليس له مجال في ضمير الكاتب من منظوره الإيمانى بوحدة عقائد السماء وعدم إكتمال ايمان المسلم ما لم يؤمن بجميع الأنبياء ويُجلهم بحق سمو مقامهم وقدرهم ، وادراكا منه لما تقدم فيرى أن ما يحدث من اصطراع بين اتباع العقيدتين لا علاقة له بإصولهما ولا ينسحب عليهما ، فهو فى حقيقته صدام " سلوكيات " تابعيهما المُترعة بالمصالح الذاتية الضيقة ، فالمذاهب ليست هى مصدر عدم التسامح والاصطراع بل الاشخاص هم مصدر كل هذا الابتلاء ، وصدام اهل العقائد أمر طبيعي لاختلاف وجهات النظر والتفاسير واحيانا يكون مقصودا كمسعى لاستقطاب النفوذ وكسب دعم التابعين ، ومن هذا المنظور فمن الطبيعى ايضا ان تكون هناك صدامات بين اهل العقائد الرئيسية فيما بينهم ولم تسلم منه العقيدة الواحدة ؛ والتاريخ حافل بصراعات من كلا النوعين .

وعندما ينقلب الامر فى مرحلة ما الى الصدام بدافع من المصالح الذاتية للمستفيدين فإن الايمان يتراجع بضغط هذه المصالح وتنشط السياسة واساليبها الماكرة ويتجمع فى ظلها الاضداد وتطغى اخوة المصالح على اخوة الايمان ، ويسوق فيها طرفا الصراع المبررات الكهنوتية التى لا تنطلى الا على الجهلاء لشحذ الصدام ؛ وتقع فى هذا الاطار محاولات " فاسيليدس " ملك الحبشة الذى جمعته المصلحة مع اعداء الامس ضد اعداء اليوم إخوانه فى العقيدة ؛ عندما سعى للتحالـف مع اليمن عام ١٨٤٠م لدفع خطر التبشير الكاثوليكى الذى استشرى فى بلاده ، ناهيك عما يتضمنه تاريخ الأندلس والحروب الصليبية من أمثلة عديدة من هذا النوع .

ودفعا لشبهة التحامل عند معالجة أبعاد التبشير الأوروبى ، أستند الكاتب وبعيدا عن التعصب الى ما ذكره المؤرخين الأوربيين فى هذا الشأن فهُم بطبيعة الحال المرجع الوحيد وشهود العيان ، والحقيقة العلمية جافة لا تجامل ولا تتحامل ؛ وأود أن أسجل تقديرى لاهل التسامح والموضوعية من اهل الكتابة لعدم انحيازهم الا لحقائق الحق وان اختلف مع معتقداتهم ومنهم كتاب مسيحيين ؛ ولا يفوتني أن احيى كُتابا عربا غلبت عليهم تلك الروح وان لم يكونوا طرفا فى موضوعنا ، منهم د/ نظمى لوقا الذى

تحلت كتاباته عن الإسلام بالسماحة والموضوعية أمتعتنى قراءتها ، والكاتب القومى العروبى الكبير جرجى زيدان صاحب الموسوعة الرائعة روايات تاريخ الإسلام وغيرهم كثيرين قد لا تسعفنى الذاكرة فى التعرض اليهم .

وانوه بما لحق اسم الكتاب من تغيير كما هو مدون على الغلاف فى الاصدار الحالي الثالث الموسوعى ؛ عما كان فى الطبعة الاولى المختصرة التى ينقصها كثير من الاجزاء والاضافات والصادرة بمسمى" أفريقيا جنوب الصحراء ـــ قراءة في تاريـــخ الإســـلام وموقع مصر فيه " والاصدار الثانى الالكترونى بعنوان قراءة فى تاريخ الاسلام وحضارته – من منارة الاندلس الى جنوب الصحراء " ، ليأخذ المسمى الحالى فى الاعتبار الاضافات والازادة على نحو ما هو ظاهر على الغلاف ، كما زودناه بعدد كبير من الخرائط لمزيد من الايضاح للمختصين ومن يفهمون حركة التاريخ والمسافات وقد يكون فيها ايضا اختصارا للنص المكتوب وتعفينا من الشرح المطول تسهيلا على القارئ ، واضفنا عددا من الصور التى تمثل تراثا هاما لكل منطقة ووضعنا فى اخرالكتاب فهرس برؤوس الموضوعات .

ولا يسعنا ونحن نستعرض جهاد إخوتنا البربر فى الاندلس واجزاء من اوروبا وتفانيهم فى دفع لواء الدعوة جنوب الصحراء بقوة وإخلاص ومثابرة فى جهاد استغرق قرونا طويلة ناطحوا فيها الجغرافيا والطبيعة ؛ الا ان نسجل لهم بالإجلال والإكبار هذا الدور الذى يطوق بفضله عنق كل مسلم فى تلك الأنحاء ؛ ونأمل أن يكون في تذكيرنا بهذا الدور ما يداوى المحاولات الطائفية بالغة التطرف للبعض منهم بتحريض من اعداء الامة لدفعهم الى اعتزال موروث أمتهم الثقافى حتى وان اقتضى الامر طبقا لهذه المخططات اقتلاعهم من جذور هويتهم الإسلامية (٢).

ولعلنا نستحضر فى هذا المقام ما أُبتُلى به المغرب العربى من بلبلة فى الهُوية رغم مرور حقب طويلة على استقلاله ؛ فقد بقيت دولُه حائرة متأرجحة بين الجذور الاصيلة والقشور الدخيلة ؛ وهذا الوضع هو نتاج لتراجع حال الامة وتُراث من الآثار السلبية لسياسات الاستعمار التى مارسها الفرنسيون بضراوة لاجتثاث الهوية الوطنية للامم التى اخضعوها فإنقلب الحال واختلطت التحالفات ما بين الاصيل والدخيل .

والي نبى الرحمة صاحب رسالة النور والحضارة التى اضاءت بنورها هذا العالم ؛

محمـــــــــــــــــــــــــــد

رسول الله

أُهدى كتابي هذا

كما اهديه الى إخوتنا البـــــــــــــــربر إقرارا بفضلهم فى مد الاسلام فى كلا النطاقين .

والسلام عليكـم ورحمـة اللـه وبركاته

اكتوبر ٢٠٠٨ - مُحدث فى يوليو ٢٠١٤ محيى يوسف

---

[٢]) نظم مركز ديان فى اسرائيل سلسلة دراسات وبحوث عن الاقليات العرقية فى العالم العربى لتنمية وعيها الانفصالى ، واستهدف بالنسبة لمنطقة المغرب العربى عنصر الامازيج (البربر) فعمل المعهد على تقوية الروابط معهم واسس لهذا الغرض لجان صداقة أمازيغية-إسرائيلية ، ونظم ندوات حول المشكلة الأمازيغية ساهم فيها أمازيغ المهجر من المغرب والجزائر في فرنسا وبلجيكا ، ويرعى المركز بالتنسيق مع منظمات اليهود في فرنسا وإسبانيا وبلجيكا والولايات المتحدة وكندا مناسبات ثقافية و سياسية ؛ علاوة على تسويق مواد دعائية (كتيبات ومنشورات) لتعزيز الوعى الانفصالى لدى هذه الاقليات أُزكاء للانفصالية ؛ المصدر ـ دراسة للدكتور حلمي عبد الكريم الزعبي مدير عام "الدار العربية للدراسات والنشر"بالقاهرة عن دور "مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا" في صياغة المشروع الصهيوني لتفتيت الأقطار العربية (ملحق ـ مذكرة مختصرة عن المركز).

الكتـــــــــاب الاول
الحضـــــــــــارة الاســـــــــلامية

الفصل الاول
موقع حضارة الاسلام من الحضارة الانسانية

الحضارة وأنماطها

الحضارة هي مظاهر الحياة بجوانبها الإجتماعية والاقتصادية والثقافية في بيئة معينة وزمن محدد بما يفرز اطارا خاصا من الصفات الذاتية تبلور شخصيتها المستقلة ؛ وبالتالى تختلف هوية كل حضارة من أمة لاخرى ومن زمن لاخر وحتى بالنسبة للامة الواحدة قد تختلف شخصية حضارتها طبقا لاطارها الزمنى ، وبالتالى فالحضارة كائن حى متطور ولها قوتها وإرادتها فهى إما " فاعلة " أو " خاملة " تبعا لقوة تأثيرها فى محيطها .

وتستمد الحضارة فاعليتها من تفوقها وهيمنتها على محيطها إنطلاقا من قدرتها على الابداع وقيادة التطور والاسهام فى دفع حركة التقدم الأنساني ، وينتسب إلي هذا الصنف من الحضارات حضارات قلب العالم القديم بما فيها الحضارة الاسلامية ، أما الحضارة " الخاملة " فهى العاجزة عن الفعل والتفاعل ولا قدرة لها على التجدد والتجديد ولا مجال امامها للتواصل مع غيرها ولا يتجاوز تأثيرها حدود محيطها الضيق فتُصبح كيانا منغلقا غير قابل للتطور يعيش حالة من الجمود وهذا النوع مصيره الافول وثقافات جنوب الصحراء قبل الاسلام نموذج لهذا الصنف .

الجذور العربية للحضارة الاسلامية

وعند سبرغور حضارة الإسلام لا يمكن تجاهل الحديث عن الحضارة العربية بجذورها المتعددة ؛ والحضارة العربية التى نقصدها ليست هى تلك التي ترعرعت نواتها في البيئة الصحراوية بجزيرة العرب عند ظهور الإسلام وإنما هى ذلك الفيض من الحضارات الممتدة بجذورها فى عمق الحضارة الإنسانية والمنتشرة على رقعة كبيرة فى محيط الصحراء العربية فى كل من اليمن والعراق والشام ؛ تلك الحضارات التى ارسى قوائمها بطون العرب المهاجرة منذ القدم والتى كان لها تأثير ممتد وراسخ بالمنطقة وعلى حضارات العالم القديم (٣) ؛ فهجرات العرب عبر الجزيرة الى محيطها موغلة فى القدم ؛ فهاجر الاكاديون عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد الى العراق ولحق بهم العموريون فى نهاية الالف الثالثة ق.م ، وهاجر الاراميون (السريان) الى الشام فى نهاية العصر البرونزى ؛ ومن بعدهم اليبوسيون والكنعانيون (اصل الفنيقيين والقرطاجيين) عام ٢٣٠٠ ق م والمؤابيون فى القرن ١٥ ق م ، وكل هذه العناصر تركت بصمتها اللغوية والابداعية على المنطقة ؛ فقد اثبتت الدراسات ان اللهجات التى سادت المنطقة كالبابلية والاشورية والاكادية والكنعانية والارامية بفروعها المندائية كلها عربية الاصل نشأت فى جزيرة العرب وهيمنت على الشام مثلها فى ذلك مثل لهجات الجنوب فى اليمن المعينية والسبئية ؛ كما غلب الانتشار العربى طابعه ونفوذه الثقافى العربى ولغاته علي الشام منذ عهد الانباط الذين فى ظلهم تزايد النفوذ العربى المؤثر اقتصاديا وثقافيا فى اراض الامبراطورية الرومانية فى الشام للمدى الذى مكن ماركوس يوليوس فيليبوس المعروف بفيليب العربى من تبوأ عرش روما عام٢٤٤ م (٤).

وإن تجاهلنا القرابة الأصيلة للحضارة العربية القديمة بحضارات الرافدين السحيقة فى القدم أو تلك التى شادها الفينيقيون (الكنعانيون) على ساحل الشام ، فلا يمكن أن نغفل صلة النسب المباشر والشديدة الوضوح بينها وبين حضارات بر الشام الزاهرة وعلى رأسها النبطية والآرامية وتدمر التى بلغت العالمية بنفوذها الإقتصادي والثقافي وكانت مصدر الهام للحضارات الأوروبية

---

[٣]) المصدر بالنسبة للهجرات The Phonicians Penguin Books by Donald Harden - وبالنسبة للغات دراسة ناجية مرانى عام ١٩٨١ ، ومقالة "عشيرة اللغات الأفريقية الآسيوية - الطاهر داود من مجلة الفيصل السعوديةالعدد١٠٩ مايو-يونيو ٢٠٠٢.

[٤]) المصدر جوستاف لوبون - كتاب حضارة العرب صـ ٩٣.

القديمة فى كل من اليونان وروما التى يقول روس عن حضارتهما انهما كانتا انعكاسا للحضارة العربية أُم الثقافة الهيلينية " (٥) ، ويؤكد عباس العقاد فى كتابه " الثقافة العربية " سبق الثقافة العربية للثقافتين اليونانية والعبرانية ، الامر الذى يتضح فى تجذر ابجديتها فى اليونانية فيقول " الابجدية اليونانية عربية بحروفها علمها لليونان قدموس الفينيقى الذى يصفه هيرودت بأنه اول من علم الاغريق الصناعات واسماء الحروف ؛ وأن أشكالها ومعانيها (الحروف) شاهدة على اصلها الفينيقى الارامى العربى الجنوبى " .

والكنعانيون من اهم البطون المبدعة فى حضارات العرب القديمة فهم بُناة الحضارة الفينيقية وأبجديتهم ام الأبجديات الاوروبية ؛ فمن الافضال الخالدة لهذا الشعب اهداؤه العالم الابجدية التى تستخدمها الابجديات الاوروبية واللاتينية حتى وقتنا هذا ؛ كما اقاموا الصروح والمدن فى ساحل الشام (صور، صيدا ، جبيل وغيرها) ، وتحولوا بحكم الموقع والبيئة الى شعب بحرى تفوق في مجال بناء السفن والإبحار عبر البحار، قاد رحلات الاستكشاف البحري الاولى فى العالم عندما داروا حول افريقيا بالتعاون مع البحرية الفرعونية ، ومرة أخر عندما حطوا(القرطاجيون) على الساحل الغربى لافريقيا لاول مرة ، وشعب فينيقيا كان شعبا دائم الهجرة اقام المستوطنات والحضارات فى الكثير من ارجاء محيط البحر المتوسط على مر العصور بدءا من اليونان(٦) فـ مرسيليا وقرطاجة (تونس) وسردينيا ومالطة وجزر البليار **Balearic** وقرطاجة الجديدة **Cartago** (تعنى المدينة الجديدة باللغة الرومانية) بجنوب شبه جزيرة ايبيريا ، وهذا الشعب التجارى كان مؤهلا بحكم موروثه المستمد من أصوله العربية التى ملكت نواصى تجارة الصحراء طوال تاريخها ؛ ان يملك هو الاخر نواصى التجارة البحرية العالمية بحكم بيئته الجديدة ، كما اهلته حركته الدائمة وتوطنه الممتد المتناثر فى الاراضى الجديدة للتواصل والتلاقح مع الحضارات العالمية عبر البحار ، ومع تعاظم نفوذ هذه الامة الاقتصادى وسيطرتها على الملاحة البحرية أن أصبحت لغتها الكنعانية لغة دولية سادت البحر المتوسط.

وبخلاف الكنعانيين ازدحمت الشام بالكيانات العربية وأصبحت مهدا لامارات عربية راقية الحضارة ؛ ففى المنطقة التى كانت تُعرف بـ **Romana Arabia** قامت مملكة الانباط العربية فى الفترة ٤٠٠ ق م - ١٠٦ م فى المنطقة الممتدة من دمشق عبر بادية الشام الى الحِجْر بمدائن صالح جنوبا داخل الصحراء العربية (بالسعودية على مبعدة ٧٠٠ كم من العاصمة البتراء بالاردن حاليا) وسيناء ؛ و عاصمة الانباط المعروفة بالبتراء **Petra** (كلمة يونانية تعنى الصخر) مدينة فريدة مسماها يصف حقيقتها الصخرية فمبانيها منحوتة حفرا فى الجبل ، ويشير القرأن الى ذلك فى سورة الحجر اية ٨٢ : وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آَمِنِينَ (٨٢) ، ودولة الانباط كانت ذات حضارة ونعيم مُقيم ومن اغنى دول زمانها بفضل هيمنتها على تجارة الصحراء ؛ ويصف القران فى الآية ١٤٧ وما بعدها من سورة الشعراء ثراء هذه الامارة ".. أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آَمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ، وقد استحقت البتراء رائعة الانباط ان تصبح من عجائب الدنيا السبع من منظور اهل القرن الواحد والعشرين بمزاجهم الجديد ، طبقا للاستطلاع الذى عقدوه لاختياراتهم الجديدة .

ومن ممالك العرب الزاهر فى الشام مملكة تدمر (Palmyrenien ـ مسماها اللاتينى مُستمد من النخيل شجرة الصحراء) ذات النفوذ الامبراطورى والصيت والثراء ناطحت روما فى عهد ملكتها زنوبيا ومدت سلطانها على مساحة متسعة من الارض إمتدت ما بين اسيا الوسطى الى مصر ؛ وكانت تدمر سيدة تجارة الشرق تقف على مفترق طرقها بين آسيا وأوروبا ، وكان نظامها كسائر مستوطنات الكنعانيين شبيها بجمهوريات الاغريق ، إزدهرت المملكة في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، وعكست فخامة أبنيتها الملكية وأبنيتها العامة والخاصة مدى ثرائها وعظمتها الامبراطورية ، بلغت قمة مجدها فيما بين عامى ١٣٠ق م حتى ٢٧٣م ، ومن اشهر ملوكها أذينة وزوجته الملكة زنوبيا وهى التى تحدت روما وبلغت بها منتهى عظمتها وإتساع سلطانها ، ولكن روما لم تمهلها فهزمتها وإنتهى امرها عام ٢٧٣م على يد امبراطورها اوريليانوس .

---

[٥])المصدر: روس.. مجلة الفكر السورى.. نقلا عن جريدة أخبار العرب في ٢٠٠١/٤/٢٥ ، المصدر بالنسبة للممالك العربية د. عصام الدين عبد الرؤوف ـ ألحواضر ألإسلامية ألكبرى .

[٦]) اشارت الاوديسة الى ان الفينيقيون (الكنعانيون) هم من اسسوا اثينا ، فقدموس (كادموس) الفنيقى اسس مدينة طيبة الاغريقية واصبح ملكا عليها ، كما سُميت القارة الاوروبية على اسم اخته "غروبة " وتعنى الكلمة بالفينيقية الغرب لهروبها غربا الى اوروبا والفينيقيون هم من ادخل الابجدية الى اليونان – المصدر: **Black Athena By Martin Bernal , P.xiiii.** .

وأخر إمارات العرب فى محيط الصحراء المعاصرة لظهور الاسلام إمارتا الغساسنة والحيرة الواقعتان على هامش الصحراء فى الشام العراق ، كانتا على نفس النمط الحضرى ولا تقلا عن الامارات السابقة لقرنائهم العرب فى الشام الا انهما كانتا تدوران فى فُلك الروم والفرس ؛ فإمارة الغساسنة بحكم موقعها شمال الصحراء وجنوب الشام تحالفت مع الروم القوى المهيمنة بالمنطقة ، وهذه الامارة عمرت على ما يربوا على ٥٠٠ عام ولا تزال اثارها العظيمة ماثلة فى عاصمتها بُصرى ؛ أما امارة الحيرة فى العراق التى اسسها المناذرة عرب اليمن عام ١٩٥م واستمرت الى ٤٠٠ م ، كانت من الامم العظيمة التى نافست اكاسرة الفرس وقياصرة الروم ترفا وعظمة الى ان اخضعتها فارس فى عهد الدولة الساسانية عام ٦٠٥م ، ورغم العصبية العربية للغساسنة والمناذرة الا ان ولاؤهما كان على طرفى نقيض ، وقع بين الروم والفرس خارج اطار العصبية واحيانا ضدها ، فقد حسمت الجغرافيا انحياز كل منهما بعيدا عن عروبتهما خاصة الغساسنة الذين كانت تربطهم بالروم اخوة العقيدة المسيحية.

حضارة الصحراء

ولا يقلل من شأن عرب الصحراء ما لحق بتاريخهم قُبيل الإسلام من تشويه على أيدى الجهلاء منهم ومن المغرضين من غيرهم ؛ فحضارة عرب الصحراء حضارة فطرة قوية لا يقلل من شأنها إفتقارها لصروح كتلك التى شيدتها بطونهم المهاجرة فى مواطنها الجديدة ، وفارق التطور بين تلك الحضارات وحضارتها الام المتجذرة فى البيئة الصحراوية ؛ امر طبيعى بحكم إختلاف البيئة من منطقة لأخرى ؛ فالاولى تمتعت ببيئة اكثر لطفا وثراء واستطاعت بمهاراتها التجارية وعبور الصحراء ان تبنى اقتصاد قوى وإان تنفتح على حضارات مجاورة اكثر تطورا تفاعلت معها بقوة ؛ بينما بقى عرب الصحراء على بدويتهم فى بيئة جافة قاسية ولكن لم تنقصهم عناصر الإلهام والإبداع الكامنة لديهم بالفطرة مثلهم فى ذلك مثل بطونهم التى استقرت في الشام والعراق ، فمخزون الملكات الكامنة فى النطاق الصحراوى هى التي هيأت بعبقرية بيئة خصبة لقيام حضارة من نوع أخر مشحونة بالعديد من الجوانب طغت عليها روحانية خلاقة فخلفت تراثا أخلاقيا راقيا ما كان ليُصاغ إلا بحكمة وأحكام الصحراء ؛ وتركت تراثا أكثر سموا انتظم فى منظومة الفروسية بأكمل واجمل معانيها مشمولة بتقديس مطلق للحرية وإعتزاز بالذات والفخر بالانتماء وطلاقة التعبير والعدل والفراسة وحدة المنطق وقوام البصيرة والنجدة الي أخره من قيم سامية تحدت عصبية الجاهلية كان من روائع نتاجها حلف الفضول لنصرة الحق وهو ما امتدحه رسول الله لسمو مضمونها ومكونها .

وبيئة بمثل هذه المعطيات الاخلاقية هيأت ظروفا مثالية لترعرع نمط إنسانى لجيل يتهيأ لحمل رسالة روحانيةً إكتمل اساسها الأخلاقى بمجىء الإسلام ؛ وينوه " مايكل هارت " بتلك البيئة فى كتابه " المائة : تقويم لاعظم الناس أثرا فى التاريخ " والذين جاء على رأسهم محمد رسول الله ﷺ بدور الايمان فى اقامة امبراطورية الاسلام فأشاد بمعدن الرجال الذى مكن هؤلاء البدو من أن يُقيموا امبراطورية واسعة ممتدة ؛ هى اعظم امبراطورية فى التاريخ حتى اليوم على حد قوله ؛ واصفا نبى الاسلام بأنه اعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ ؛ لم يعرف العالم كله رجلا مثله قبل ذلك ؛ بهذا القدر من العظمة والقوة الجبارة الذى ما كان ممكنا بغير زعامته ان تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة ، ويقول عن البيئة التى انجبت هؤلاء العظماء بأنها بيئة صقلت الرجال وافرزت أعظم القادة بما يتحلون به من خصال وقوة وصلابة وايمان لا يتزعزع بالهدف والرسالة " (٧) ، ويشاركه د. جوستاف لوبون تقويمه لقدر رسول الاسلام فيقول " واذا ما قيست قيمة الرجال بجليل اعمالهم كان محمدا من اعظم من عرفهم التاريخ ؛ ولكن التعصب الدينى أعمى بصائر مؤرخى الغرب عن الاعتراف بفضله(٨) " .

كما أدرك نابليون بونابرته إبداعية البيئة العربية على نحو جامع فأوجزه بقوله " أذا ما طرحنا جانبا الظروف العرضية التى تأتى بالمعجزات ؛ فلابد وأن يكون فى نشأة الإسلام سرا لا نعلمه فهناك سبب مجهول جعل الإسلام ينتصر وبشكل عجيب على المسيحية ، وربما يرجع ذلك الى أولئك الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحراء وقد صهرتهم حروب طويلة عنيفة صقلت أخلاقهم وخلقت فيهم مواهب عبقرية وحماس لا يقهر أو ربما شئ من هذا القبيل "(٩) .

---

[٧]) ترجمة انيس منصورالطبعة الثامنة عام ١٩٩١ صـ ١٤ ــ ١٨ .
[٨]) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب الصادر عام ١٨٨٤ م صـ ٧ .
[٩]) مذكرات نابليون فى سانت هيلانة ــ جزء ٣ صـ ١٨٣ نقلا عن كتاب محمد رسول الله ـ تأليف ايتين دينيه وسليمان ابراهيم.

عالمية الحضارة الاسلامية

وبإنطلاق الإسلام عبر الصحراء خرج بهذه النواة الاخلاقية من بيئتها البسيطة فى نطاقها الصحراوى إلى مجال حضارى رحب يموج بالتنوع الثقافى والعِرقى إمتزجت فيه هذه النواة اولا بتراثها الأصيل من الحضارات العربية المهاجرة الممتدة فى محيطها فى الشام والعراق ، ثم تفاعلت بعد ذلك مع تراث الأمم التى إنضوت تحت لواء الإسلام وغيرها ؛ فإندمجت هى وتوحدت مع غيرها من الثقافات وافرزت جميعا اطارا ثقافيا موحدا لعالم الاسلام اصبحت فيه اللغة العربية وعاء واطارا عاما مشتركا لتراث امم عديدة ؛ فكانت " حضارة الاسلام " حضارة جامعة عابرة للاعراق اطلق ملكتها "الابداعية" تنوع وتعددية الثقافات ، تمركزت فى قلبها العربية لغة الاسلام الذى بفضله اصبحت لغة عابرة للقوميات واللغات (١٠) .

وعزز توسع الاسلام الجغرافى قدرة الحضارة الجديدة على التواصل والعطاء فأصبحت حلقة وصل بين الثقافات العالمية الكبرى ؛ فانفتاحها كان مكسبا للبشرية كلها فقد تعهدت تلك الحضارة معارف أمم سابقة ومعاصرة بالحفظ ثم اضافت اليها بالإبداع زخما اهدته بدون تعصب او حساسية الي الحضارة الانسانية لتكون بذلك اساسا لحلقة جديدة فى مسلسل الحضارة فحازت بذلك " العالمية " ، ولم تشذ حضارة الإسلام فى دورتها تلك عن سنن الحضارات الفاعلة فلم تكن ابدا كياناً منعزلا وانما تواصلت بالاقتباس وتفاعلت بالإبداع فأخذت من السابقين ونقلت الى اللاحقين جمله ابداعاتها فلا توجد قط حضارة عالمية تفردت بالإبداع دون سند من تراث السابقين أو إسهام في تراث ألاحقين ؛ ومن اهم ما تميزت به الحضارة الاسلامية هو انفتاحها وموضوعيتها والمرونة بين مكوناتها ؛ فلم تكن هناك خصومة بين الدين والعلم مثل تلك العُقدة التى عانت منها أوروبا فى القرون الوسطى وأخرت نهضتها بسبب تكفير الكنيسة للعلم واضطهادها العلماء ومعارضتها الاقتباس من حضارة تعاديها (الاسلامية) .

التراث العلمى وانجازات الحضارة العربية

أفرزت الحضارة العربية طابعا شخصيا مميزا فى مجال العلم والادب والفن والصناعة وتركت اثارها على كل زمان فى العالم ، ونتعرض لبعض ذلك فى الاتى :

أولا العلـــــــــــــــــــــــــــوم

١ المنهج التجريبى

يذكر د. لوبون " ان العرب هم اول من ادرك اهمية المنهج التجريبى فى العالم وانفردوا به زمنا طويلا ، وينقل عن العالم الشهير ازوالد شبنجل " ان العرب ارتقوا بعلومهم الى المرحلة التجريبية وهى ارفع درجات العلم التى كانت مجهولة تقريبا للقدماء " ، ويستطرد لوبون نقلا عن دولنبر فى كتابه تاريخ علم الفلك " إنه بينما كانت قلة من الاغريق هم من مارس الرصد فى علم الفلك فإن كثرة من العرب مارسوا التجريبية (الرصد والمتابعة) ، فبينما قد لا تجد مجربا يونانيا واحدا فى علم الكيمياء تجد بين العرب المئات من التجريبيين، واضفى اعتماد العرب على التجربة دقة وابداع على مؤلفاتهم لا يتوفر لمن تعود على العمل النظرى ودراسة الكتب نظريا فقط ، وأن هذا المنهج أوصل العرب لاكتشافات مهمة تجاوزت فى ثلاثة قرون او اربعة ما يزيد على ما حققه الاغارقة من اكتشافات فى زمن أطول من ذلك بكثير ، ويستطرد بأن فى الوقت الذى نشر فيه العرب علوم اليونان بين الامم بعد ان حولوها خلقا جديد ، كان البيزنطيون قد توقفوا عن الاستفادة بذلك التراث أو نشره لزمن طويل "(١١).

٢ ـ الكيمياء (علم الصنعة) :

وهذا العلم احد دعامات النهضة لاستناده الى البحث العلمى ابو النهضة والتطور ؛ سبقت به مصر القديمة العالم فهى مبتدعته ؛ ومنها انتقل الى اليونان ثم الرومان فأنقلب فى أيديهما الى خرافات بالبحث عما سمى بـ" حجر الفلاسفة بتحويل المعادن الرخيصة الى ذهب وفضة ؛ وتبعهم فى ذلك الوهم لفترة بعض علماء المسلمين استفاقوا بعدها عندما أستعادوا لهذا العلم من جديد

---

[١٠]) رُوى عن رسول الله .. ايها الناس .. فإن الرب رب واحد والاب اب واحد والدين دين واحد وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم إنما هى لسان ؛ فمن تكلم العربية فهو عربى ، ويُعبر هذا عن المنظور الاسلامى العابر للقوميات .

[١١]) حضارة العرب ـ د.لوبون صـ ٤٣٥.

أصالتة العلمية ، ويسجل ديورانت للمسلمين فضلهم فى هذا بقوله " ان الكيمياء بشكلها العلمي انجاز حققه المسلمون .. فأدخلوا عليها الملاحظة والتجربة العلمية المتقنة وفرقوا بين الحوامض والقلويات واخترعوا الانبيق " Alembic" .

واستحق كيميائيو الاسلام بأفضالهم على هذا العلم ان يجيئوا على رأس علمائه ؛ فإستحق جابر بن حيان " (القرن ٨ م) أشهر الكيميائيين المسلمين لقب أبى الكيمياء ؛ بفضل استحضاره " الاحماض " أساس الكيمياء الذى لا يُتصور ان تقوم له قائمة بدونها وهو أول من استحضرها ، واليه يعود الفضل فى ابتداع المنهج التجريبى وطرق تحضير كثير من المواد الكيماوية وتطبيق طرقا محسنة لعمليات التبخر والترشح والانصهار والتقطير والكلور والتبلر.. وقد تُرجمت كتبه " السبعين " و " تركيب الكيمياء " الى اللاتينية فى أوائل القرن ١٢ م ، وتُرجم كتابة "الاستتمام" الى الفرنسية عام ١٦٧٤ م ، وبقيت كتبه مرجعا لاوروبا حتى القرن ١٧م .

ومن أبرز الكيميائيين ابوبكر الرازى الذى يصفه سانتون " بأنه لانظير له فى كل العصور السابقة على فجر العلم الحديث ، فهو صاحب تقسيم المواد الى حيوانية ونباتية ومعدنية وهو أول من اشار الى امكانية وجود الملح والكبريت والزئبق فى جميع الاشياء وهى الفكرة التى طورها فيما بعد "باراسلوس" ، ويُعد كتابه " سر الاسرار" من أعظم انجازاته الذى يتناول فيه العقاقير والآلات والعديد من تجارب الكيمياء ؛ ويضم الكتاب أيضا وصفا للاجهزة اللازمة للمعامل الكيميائية ؛ اما "ابو على الحسين ابن سينا" الفيلسوف الكيميائى والطبيب المعروف بالشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠هـ - ١٠٣٧م) فقد كانت بحوثه ذات أثر كبير فى تطوير هذا العلم فمقالته عن الكيمياء فى كتابه " الشفاء " المترجم الى اللاتينية فى القرن ١٢ م كان لها تأثير عظيم على أوروبا ، وما يميز ابن سينا عن جابر والرازى جهابذة الكيمياء هو انكاره التام لامكانية تحويل المعادن الرخيصة الى معدن نفيس مع امكانية طلاؤها.

ومن عباقرة الكيمياء العربية فى القرن ١١م " أبومنصور موفق " ؛ وهو أول من فرق بين كربونات الصوديوم (النترات) وكربونات البوتاسيوم التى سماها القلى Alcali (القلويات) وهومازال اسمها العلمى ، وتوصل ايضا الى معرفة ماهية اكسيد الزرنيخ وحامض السليكات ؛ وفى منتصف القرن ١١م توصل " مسلمة المدريدى " الاندلسى الى اكتشاف قيم عن تحضير اكسيد الزئبق ؛ تلك المادة التي قدر لها أن تلعب دورا تاريخيا فى يدى " بريستلى " و " لافوازية " على حد قول " هولميار" ، حيث لم يفطن احدا قط الى قاعدة كيميائية أساسية وهامة مثل هذه قبل مضى قرون اخرى.

وفى القرن ١٣ م ظهر كيميائى أخر ذو شأن ، هو " منصور الكاملى " رئيس قسم الكيمياء فى معمل القاهرة وهو صاحب السبق العلمى عن تنقية الذهب والمعادن من الشوائب فى سابقة علمية لم تصل الى علم أوروبا قبل القرن ١٦ م ، ومصر سبقت اوروبا الى معرفة النشادر وصناعتها ؛ وتشير الموسوعة البريطانية فى طبعتها الحادية عشر الى ان اوروبا عرفت اسرار هذه الصناعة سنة ١٧١٩ م بعدما افشاها القنصل الفرنسى فى القاهرة ؛ وظلت اوروبا تعتمد على مؤلفات العرب فى هذا العلم الى العصر الحديث و قيل أن بريستلى عبقرية الكيمياء كان يراجع الكتب العربية فى مجال الكيمياء وبلغتها الاصلية .

٣ - الطـــــــــب

تربع الاطباء العرب بلا منازع على عرش الطب وظلت أوروبا تتعلمه على ايديهم لاكثر من ستة قرون ، ومن أعظم الاطباء " ابوبكر الرازى " (٨٤٤- ٣١٣هـ /٢٥٠ -٩٢٦م) ابا الاطباء الكيماويين فهو أول من طبق الكيمياء على الطب ؛ وأول من ابدع وإبتكر فى جراحة العيون والولادة وأمراض النساء وأول من صنف مقالات فى طب الاطفال ؛ واهم مؤلفاته واضخمها "الحاوى Contents" و " المنصورى " سماهما تيمنا بأسماء حكام خراسان ؛ ومن بين اهم مؤلفاته " الجدرى والحصبة " أول عمل دقيق ومحكم عن الامراض المعدية ؛ ويُعد الحاوى عمل تراثى ضخم فى الطب يضم ستة الاف وستمائة وعشرون صفحة ، قام بترجمته فرج بن سالم اليهودى بناء على رغبة الملك شارل الاول انجو امير نابلى وصقلية وانتهى من ترجمته عام ١٢٧٩م ونُشر عام ١٤٨٦م فى ايطاليا وانتشر فى أوروبا مابين م١٤٨٦ م وعام ١٧٨١ م تاريخ صدور اخر طبعة منه وكانت فى المانيا .

وبلغ الطب الاسلامى أوج مجده أنذاك على يدى " ابى على الحسين ابن سينا " (٩٨٠- ١٠٣٧م) امير الاطباء فى القرون الوسطي وعالم الكيمياء السابق التعريف به ، واهم مؤلفاته الطبية " القانون " وهو مبحث ضخم فى علم التطبيب (الصحة ووظائف الاعضاء والعلاج والصيدلة) ويضم استطرادات فى الفلسفة ؛ وتُرجم فى القرن ١٢م الى اللاتينية ، وكان كتابه القانون واسع الانتشار وأعيد طبعه عدة مرات فى النصف الثانى من القرن ١٥ م ، وكانت كُتبه وكتب الرازى اساس تعليم الطب فى جامعات

فرنسا وايطاليا حتى أوائل القرن١٨م ؛ ومن اهم كتب الطب الأخرى كتاب ابن الخاتمى (المتوفى عام ١٣٦٩م) عن الطاعون الذى انتشر فى الاندلس (١٣٤٨- ١٣٤٩م) ، و يُعد اهم كتاب فى هذا المجال فى القرون الوسطى .

وساهم العرب فى تطوير طب العيون ومن اهم أطبائهم عمار الموصلى (٩٩٦- ١٠٢٠م) ، وعلى بن عيسى (القرن العاشر) وهو أول من استعمل التخدير فى عمليات العيون على حد قول الاستاذ " كازى وود " ؛ وقد تُرجمت كتب عمار الموصلى وعلى بن عيسى الى اللاتينية واستخدمت كمراجع تعليمية حتى بدأت نهضة طب العيون فى فرنسا فى القرن ١٨ م .

أصبحت الجراحة علما حقيقيا له اصول وقواعد على ايدي العرب ، وللجراحين الاندلسيين فى القرن ١٣م سمعة عظيمة فاقت سمعة أقرانهم فى باريس وأدنبرة، فبينما كان الطبيب فى الأندلس يسمى جراحا كان فى الدول الاوروبية يسمى حلاقا على حد ما يذكره الاستاذ " كمبل " ، ومن اشهر الجراحين " ابى القاسم الزهراوى " الاندلسى (المتوفى ١٥١٣م) عميد جراحى ذلك الزمان الذى بلغت الجراحة على يديه قمة ازدهارها ، و اشهر كُتبه " التصريف " يتضمن فصلا عن الجراحة مشتملا على صور لادواتها وألاتها ؛ فأهدى الى اوروبا بذلك اساس علم الجراحة وسهل عليها تطوير الالات الجراحية فى القرن ١٦م ؛ ومن مشاهير الاطباء " علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى الدمشقى " الملقب " ابن النفيس" اعظم علماء وظائف الاعضاء فى القرون الوسطى وهو الذى مهد الطريق أمام " وليم هارفى" لاكتشاف الدورة الدموية عام ١٦٢٨م ؛ استنادا لشرحه الدقيق للدورة الدموية الصغرى فى كتابه " شرح تشريح القانون " بتصنيف دقيق خرج فيه على الاقوال التقليدية لكل من " جالينوس " و " ابن سينا " .

وموسوعات الطب الاسلامية لم يكن لها نظير فى زمانها فكانت منهلا ومرجعا وأساسا لصناعة الطب الاوروبية ، فكتاب " القانون " موسوعة ابن سينا الطبية (القرن الثانى عشر الميلادى) جمعت خلاصة طب العرب والاغريق والهنود والسريان والمصريين ؛ وكتاب ‘‘الحاوى" للرازى عام ١٢٧٩ م الذى لم يتمه فى حياته لضخامته فأكمله تلاميذه من بعده، كانا موسوعتان مرجعيتان معتمدتان فى جامعة " لوفان " حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، كما أصبح كتاب " التعريف لمن عجز عن التعريف " لأبى القاسم خلف بن العباس " فى القرن الخامس عشر الميلادى المرجع الاكبر فى جراحة وتجبير العظام وجراحة المثانة.

ولعلماء المسلمين قصب السبق على الاوروبيين فى وصف أمراض الجذام والجدرى والحصبة وعلاج أمراض العيون ؛ وهم من سبقوا بقرون " فرويد ‘‘ بالتطرق الى علاقة الطب النفسى بالحالة الجنسية كما تعاملوا مع الجنون على انه حالة مرضية طبيعية تحتاج العلاج على عكس الاوروبيين الذين أعتبروه من اصابات الارواح.

٤- الصيـــــــدلة

والعرب هم الذين وضعوا الهيكل العام لهذا العلم (الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشر) ، والاصل العربى للكثير من اسماء الادوية دليل واضح على اسهاماتهم فلهم يرجع الفضل فى إستخدام السكر فى تحليةالادوية لتحسين مذاقها ليصبح مستساغا ، والاصل العربى لكلمة ‘‘ Syrup" اى شراب دليل على تفوقهم فى صناعة الاشربة الدوائية التى شغلت حيزا كبيرا من تجارة العرب مع البندقية، وفى أوروبا أنتشرت مؤلفات العرب فى مجال الادوية فقد ظلت كتب أبن سينا وأبن زهر وأبن وافد (٩٩٧ – ١٠٧٤م) وماسوية الماردينى (توفى ١٠١٥م) وأبن سرافية وابن البيطار (١١٩٠- ١٢٤٨م).. وكتاب " الادوية المفردة ‘‘ لضياء الدين المالقى المعروف بأبن البيطار متداولة كمراجع حتى ١٨٣٠م تقريبا.

٥- الطبيـــــــعة

مهد علماء الطبيعة المسلون الطريق أمام "نيوتن " لكشف قانون الجاذبية عندما إبتدعوا الثقل النوعى لكثير من العناصر في مجال الطبيعة ، ويُسجل " للبيروني " سبقه دراسة السوائل في مصادرها الأرضية والتحكم في حركتها في حالة التوازن والارتفاع ، ويُعد كتاب " الحيل " لأبناء موسى بن شاكر أصلاً من أصول الميكانيكا.

٦- الجغرافيا والفـــــلك
و الرحـــــــــــالة المســـــــــــلمون

يرجع للعرب فضل تقديم علوم " بطليموس " أبى الجغرافيا فى العصور القديمة إلى عالم العصور الوسطى بعد تنقيحها والاضافة إليها، واليهم يرجع الكثير من الفضل في تطوير هذا العلم بفروعه فساهم البيروني برحلاته في آسيا فى الاضافة لهذ العلم ، وساهم " أبن يونس " المصرى بإختراعه الرقاص فى تطوير الفلك (القرن التاسع الميلادي) ، وتمكن " الشريف الأدريسى (١٠٩٩- ١١٦٦ م) " فى عام ١١٦٠ م من رصد منابع النيل فى منطقة البحيرات الكبرى بدقة قبل ان يكتشفها الاوروبيون فى القرن ١٩م ؛ وهو الذي إعتمد عليه " روجر الثانى " ملك نورماندى في عملية نقل العلوم العربية إلى أوروبا في القرن الثاني عشر ، ومن ابرز ما صنعه نموذج للكرة الأرضية ويعد كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ‘‘ من أشهر المؤلفات الجغرافية.

وأكد علماء الاسلام فلكيا ومن خلال الإستدلال الفلسفي كروية الارض ودورانها حول محورها في وقت كانت تسيطر فيه على اوروبا العصورالوسطى فكرة تسطحها بضغط من الكنيسة التى أنكرت الفكرة ؛ رغم ان كروية الارض تبناها علماء الاغريق وعلى رأسهم ارسطو والعالم السكندرى فيثاغورث ، فـ " إبن خرداذبه " (المتوفي عام ٨٨٥ م) قال " إن الأرض مدوره كتدوير الكرة وموضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة ‘‘ ، وقال بذلك ايضا " إبن رشد " المتوفي عام ٩٠٣م " اذ قال إن الله عز وجل وضع الفُلك مستديراً كإستدارة الكرة أجوف دواراً والأرض مصمتة في جوف الفلك " وأتى بالبراهين للتدليل على ذلك على نحو ما هو معروف الآن ، وقد توصل إلى نفس الحقيقة من غير الجغرافيين " إبن سينا " من خلال الإستدلال الفلسفي، وقدم " أبوالفدا " اثباتا فلكيا على كروية الارض ودورانها ؛ وهو من لاحظ أن دوران الارض يؤدى الى زيادة او نقصان يوم بالسنة للمسافر نحو الشرق فى الحالة الاولى والمسافر نحو الغرب فى الحالة الثانية .

ونجح علماء المسلمين فى عام ٨٢٧ م فى عهد المأمون فى قياس محيط الارض بدقة متناهية، وصححوا كثير من أخطاء الأغريق فحددوا بدقة خطوط الطول والعرض و حققوا على نحو صحيح الاعتدال الشمسي وضبطوا التقويم السنوى ، ويذكر " جوستاف لوبون ".. أن التقويم السنوي الذي أصلحه العرب في عهد السلطان السلجوقي " ملك شاه " أصح من التقويم الجريجوري الذي أتمه الأوروبيون بعد العرب بستمائة عام ، فالتقويم العربي جاء بخطأ يومين بينما جاء التقويم الأوروبي بخطأ ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة.

وعرف المسلمون مقياس خط النهار قبل الأوروبيين بألف عام، وكشفوا الإختلاف الثالث في سير القمر الذي أغفله " بطليموس "، وتمكنوا ايضا من تحديد مساحة قُطر بعض الكواكب وتحديد الابعاد بينها وهو ماأنجزه الفرغانى اعظم الفلكيين المسلمين فى القرن ٩م والذى كان تأثيره ملموسا على علم الفلك فى أوروبا حتى القرن ١٥م ، وقياس العرب لمحيط الارض نصر علمى بإعتباره اصح من قياسى ايراتوستينس – وبطليموس السكندرى، فالخطأ فيه يقل كيلو مترا عن مقياس" بيسيل " الذى كان سائدا فى القرن ١٩م الذى قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ مترا ، كما أن قياس البتانى (٨٥٠- ٩٢٩م) لطول السنة الشمسية ٣٦٥ يوما و٥ ساعات و٤٦ دقيقة و٣٢ ثانية اكثر دقة من قياس اليونان حيث كان الفارق دقيقتين بينما كان خطأ اليونان ٧ دقائق، والاسماء العربية لبعض الكواكب والنجوم والمدارات لدليل على الاسهام العربى فى هذا المجال ، ومن علماء المسلمين فى مجال الفلك ثابت بن قرة وابن يونس المصرى وابن يونس الموصلى ونصير الدين الطوسى وأبا الريحان البيرونى وغيرهم.

وللرحالة المسلمين افضال كبيرة على الجغرافيا السياحية بما تضمنته رحلاتهم من وصف جغرافى وتأريخ لهذه البلاد ؛ ومن الرواد العظماء الشريف الأدريسى ومحمد عبد الرحيم المازني الغرناطي مؤلف " نخبة الأذهان في عجائب البلدان " وإبن جبير البلنسي وكلاهما في القرن الثاني عشر ، ويأتى إبن بطوطه (القرن الرابع عشر) صاحب " تحفة النظار في غرائب الأمصار " كأكبر الرحالة جميعاً ، والمسعودى (٩١٢- ٩٥٧م) هو عبد الحسن بن حسين بن على المسعودى من بين الاشهر فى هذا المجال وهو ايضا جغرافى وُلد فى بغداد فى اسرة حجازية سنة ٩١٢ م وطاف مع البحارة العمانيين الساحل الشرقى لافريقيا حتى مدغشقر ، وقام بالعديد من الرحلات قبل ان يستقر به المقام فى القاهرة حيث كتب اخر كتبه ومات بها عام ٩٥٧ م بعد ان انتهى من كتابه بعام تقريبا ويصفه ابن خلدون بعد اربع قرون بانه كان نموذجا رائعا للمؤرخين الثقاة ، ومن كتبه التى اعتمد عليها ابن خلدون كتابه الخالد " مروج الذهب " ؛ وهو من اروع كتب الرحلات فى القرون الوسطى الذى تضمن تفصيلات رحلته لشرق افريقيا ، وتُرجم

الى الانجليزية عام ١٨٤١ والى الفرنسية عام١٨٦٤ (١٢)؛ وجاء البكرى بعده بثلاثمائة عام بكتابه الرائع عن رحلاته فى " ممالك السودان القديم " فى منتصف القرن ١١م ، وغيرهم نسجل إبن حوقل ؛ و ياقوت (١١٧٩- ١٢٢٩م) والبيروني.

٧-الكشوف الجغرافية فى المحيط الاطلسى
ورواد المـلاحـــــــــــــــــة المسلمون

أ ـ إستكشاف الاطلنطى (الاندلس ـ مالى)

والمسلمون هم اول من عرف الامريكتين فقد تعرض الجغرافى ابو الحسن المسعودى (٨٧١ ـ ٩٥٧) فى خريطته للعالم عن امريكا قبل كولمبس بخمسمائة عام تقريبا وسماها الارض المجهولة فى بحر الظلمات (الاطلنطى) ، وذكرها فى كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" المكتوب عام ٩٥٦ ميلادية فى حديثه عن رحلة المغامر الخشخاش بن سعيد بن الأسود من قرطبة فى عهد الخليفة الاندلسى عبد الله بن محمد (٨٨٨ـ ٩١٢) ، وعنه يقول الخشخاش " أنه ابحر من دلبا عام ٨٨٩م وعبر بحر الظلمات مع جماعة من أصحابه إلى أن وصل إلى أرضا مجهولة وراء بحر الظلمات ورجع محملا بكنوز ، وانه (الخشخاش) وصف أناسا وجدهم في الأرض التي وصلها.

وفى عهد عبد الرحمن الداخل (٩٢٩ ـ ٩٦١) ، ابحر الاندلسيون فى بحر الظلمات من ميناء دلبام وعادوا بعد غياب طويل بغنائم كثيرة ، وثمة وثيقة تاريخية أخرى في التاريخ العربي ذكرها المؤرخ ابو بكر بن عمر بن القوطية عن رحلة قام بها ابن فروخ الأندلسي الغرناطى من قادش فى فبراير عام ٩٩٩م فى عهد هشام الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٠٩) فى الاطلنطى وهبط فى جاندو (جزر كناريا "Canaries") وقابل ملكها Guanariga وقدم وصفا لأهلها ، كما زار Caprari وبلوتانا وعاد إلى الأندلس فى مايو ٩٩٩ .

ويذكر العالم الجغرافي الشريف الإدريسي(من سبتة) والذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي بين ١٠٩٩-١١٨٠م ، في كتابه "الممالك والمسالك" ان اندلسيون ابحروا من إشبونة "Lisbon"، فى بحر الظلمات ورجع البعض منهم وقدموا وصفا للأرض التى زاروها وملوكها وأفادوا انهم وجدوا أناسا يتكلمون العربية هناك ؛ والوصف الذي أعطاه هؤلاء المغامرون ينطبق على الجزر الكاريبي كوبا أو إسبانيولا أو غيرهما من جزر البحر.

واثبتت البحوث الموثقة التى اجرتها بعض الجامعات الامريكية ان امريكا كانت معروفة للمسلمين لوجود نقوش بكتابات اسلامية كإسم الجلالة ومحمد رسول الله فى نيفادا وغيرها ويرى البروفيسور Berry Fell الاستاذ بجامعة هارفرد " ان المسلمون وصلوا اميركا فى خلافة عُثمان ومن المحتمل ان يكون بين هؤلاء بعضا من الصحابة ، ويُضيف ان خريطة بيري محيي الدين رايس Piri Reis رئيس البحرية العثمانية سنة ٩١٩ هـ/ حوالي ١٥١٠-١٥١٥م التى رسمها للمحيط الأطلسي أوضحت شواطيء أمريكا بتفصيل دقيق لم يكن معروفا في ذلك الوقت لغير المسلمين ، فقد اوضحت أنهارا وأماكن لم يكتشفها الأوروبيون إلا فى الفترة ١٥٤٠-١٥٦٠م ، وبينت المسافة بينها وافريقيا بدقة .

وهذه الخريطة كما ذكر بيري رايس مستخلصة من حوالي تسعين خريطة لبحارة أندلسيين ومغاربة سابقين له ؛ وتدل بما أظهرته من جزر بالأطلسي بالتفصيل على تقدم المعارف الاسلامية على المعارف الأوروبية بشأن القارة الأمريكية بكثير، فقد اظهرت جزر الرأس الأخضر "Cap Verde"، وماديرا، وجزر الأزور، وجزر كناريا ، سماها رايس "جزر الخالدات" ، كما أظهرت بالتفصيل جبال الأنتس (الانديز) فى تشيلي غرب قارة أميركا الجنوبية التى لم يصلها الأوروبيون إلا عام ١٥٢٧م ، وأظهرت أنهارا في كولومبيا ، ونهر الأمازون ومصبه بالتفصيل بما فيه جزيرة في مصبه يسمونها الآن "ماراجو"، وهي مناطق لم يصلها الأوروبيون إلا آخر القرن السادس عشر ولم تشر اليها خرائطهم قبل هذا التاريخ ، كما ان هناك خريطة للحاج أحمد العثماني عام ١٥٥٩م، تدل على معرفة واضحة بالقارة الأميركية.

وهناك أيضا خريطة اوروبية رُسمت عام ١٥٦٤م رصدت مدنا بفلوريدا مسماة بأسماء مدن فى الأندلس والمغرب مثل ميارقة وواضح أنها تحريف لميورقة احد جزر البليار، ومدينة اسمها كاديكا وهي تحريف لقادس بجنوب الأندلس ، وأخرى اسمها

---

[12]) دافيدسون صـ ٦٥ .

"مارّاكو" اى مراكش...إلخ ، ويشير الاستاذ Salvador Michael Tent الى معرفة العرب لامريكا قبل كولمبس فيقول " ان كولمبس قرأ قبل رحلته كل ما نقله روجر بيكون الاستاذ بجامعة اكسفورد عن العرب من وصف لمدن بأمريكا (انظرالدراستين فى الملاحق) ؛ ومسلمو إفريقيا الغربية كانوا أول من عبر الاطلنطى من ابناء جنوب الصحراء ؛ وقد يكون ذلك فى وقت لاحق لمشوار الاندلس فى هذا المجال ، فذكر شهاب الدين العمري في كتابه "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالي كانكان (منسا موسى) لما ذهب للحج عام ١٣٢٧م أخبر بأن سلفه كان قد أنشأ اسطولا من مائتي سفينة قطع بها المحيط الأطلسي نحو الضفة الأخرى بعدما أنابه في حكم مالي لكنه لم يعد قط .

ومن دلالات الوجود الاسلامى الإفريقي فى الامريكتين ما عثروا عليه بلغة الماندينك (شعب "الفلانى" المسلم من مالى) مكتوبا بحروف عربية كوفية في كل من البيرو والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة ، واثار لغة الماندكيك ظاهرة بين الهنود الحمر إلى يومنا هذا ومازالت تكتب بحروف الماندينك ، الذين انتشروا من البحر الكاريبي إلى شمال وجنوب الأمريكتين.

وإذا ما رجعنا إلى كتابات المكتشفين الأوروبيين الأوائل بمن فيهم كريستوفر كولومبس؛ نجدهم قد تعرضوا بالذكر للوجود الإسلامي في أميريكا ، فـ ليون فيرنيل ألاستاذ بجامعة هارفرد في كتابه "إفريقيا واكتشاف أمريكا"، " Africa and the discovery of America" الصادر عام ١٩٢٠م ، يقول "إن كريستوف كولومب كان على معرفة كاملة بالوجود الإسلامي في أمريكا" ١٣؛ وبنى ليون براهينه على وجود الماندكيك بأدلة زراعية ولغوية وثقافية، فقال بأن الماندكيك انتشروا في وسط وشمال أمريكا وفي البحر الكاريبي جنوب أمريكا، وشمالا حتى وصلوا إلى جهات كندا ، وتزاوجوا مع قبيلتى"إيروكوا" و"الكونكير" من الهنود الحمر في شمال أمريكا ؛ وذكر"جيم كوفين"الكاتب الفرنسي في كتابه "بربـر أمريكـا" " LesBerberes d'Amerique" تنويها بجذورهم الامازيغية ، فيقول أن قبيلة "المامي"، "Almami" التى سكنت أمريكا من الامازيغ ، وكلمة المامي تعنى "الإمام"، وتُطلق على زعماء المسلمين في إفريقيا الغربية ، وأضاف أن أكثريتهم سكنت الهندوراس بأمريكا الوسطى ، ويدلل مانويل إيروسكو إيبيرا في كتابه "التاريخ القديم لاحتلال المكسيك"، " Historia Antigua de la conquesta de Mexico" ، على الوجود الافريقى فيقول "كانت أمريكا الوسطى والبرازيل بصفة خاصة ، مستعمرات لشعوب سوداء جاءت من إفريقيا وانتشرت في أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية" ، وان الراهب فرانسسكو كارسيس اكتشف عام ١٧٧٥م قبيلة من السود مختلطة مع الهنود الحمر في نيوميكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية "المكسيك الجديدة"، واكتشف تماثيل تظهر في الخريطة المرفقة تدل دلالة كاملة بأنها للسود.

ويدلل البروفيسور الأستاذ الدكتور علي بن المنتصر الكتاني المغربى مؤسس علم الأقليات الإسلامية ورائد الدعوة الإسلامية في أوروبا وأمريكا فى محاضرة القاها في جمعية الشرفاء الكتانيين للتعاون والثقافة فى أكتوبر من عام ٢٠٠٠ ان هناك آثار لوجود اندلسى وإفريقي في أمريكا، يُستدل عليه من شيئين وُجدا بها قبل كولومبوس هما الذهب الإفريقي والقطن ؛ فمن السهل الاستدلال على الذهب الإفريقي فمكوناته التحليلة تختلف عن الذهب من مصادر اخرى ، فتركيبته ثابته منذ القرن الثالث عشر وتدل على أصله فلكل ٣٢قسمة من الذهب تنقسم الى ١٨ذهبا و٦ فضة و٨ نحاس ؛ وهى نفس تركيبة الذهب الموجود عند الهنود الحمر ودليل على أصله الإفريقي ، كما ان القطن لم يكن معروفا في أمريكا بل جاء من إفريقيا الغربية، واستغرب كولومبس في كتاباته من "إرتداء الهنود الحمر لباسا قطنيا شبيها باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات" ، وهو ما اكده ابنه ايضا .

واستدل المحاضر على الوجود الاسلامى الافريقى بوجود قبيلة "كاليفونا" "Galifona" السوداء في غواتيمالا ويسمونهم "الهنود الحمر السود"، وهم من نسل المسلمين الماندينكا الذين كانوا هناك وكثير من عاداتهم إسلامية ؛ ويؤكد المحاضران كثير من الشباب المسلم أنشأ علاقات مع الكاليفونا وقاموا بالدعوة الى الاسلام بينهم وقد أسلم العديد منهم وانتشرت المساجد هناك ، وبخلاف ذلك هناك قرائن لغوية فى مسميات النقود لدى الهنود الحمر شبيهة بمسمياتها باللغة العربية واللغات الإفريقية ؛ فقد اشار "ميبرا موس" في مقال بجريدة "ديلي كلاريون"، "Daily Clarion" عام ١٩٤٦م ، الصادرة في "بيليز" إحدى جمهوريات أميريكا الوسطى ، لوجود مسلمين يتحدثون اللغة العربية عندما اكتشف كريستوفر كولومبس الهند الغربية عام

[١٣]) ذكر كريستوفر كولومبس أنه وجد أفارقة في أمريكا كان يظنهم من السكان الأصليين، وانه شاهد مساجد على شواطئ كوبا واماكن اخرى (عندما شاهد المسلمون الغرناطيون من مساعدى كريستوفر كولمبس فى رحلته عام ١٤٩٢ قباب مساجد فى الجزيرة تعالت صيحاتهم بالعربية " قبة - قبة " ومن يومها سُميت الجزيرة كوبا).

١٤٩٣ فيقول "عندما اكتشف كريستوفر كولومبس الهند الغربية، وجد فى البحر الكاريبي عام ١٤٩٣م شعبا أبيض اللون هم "الكاريب" ، خشنى الشعر، يعملون بالزراعة وصيد البحر، يكرهون التعدي والعنف موحدين (بالله) ومسالمين دينهم الإسلام ولغتهم العربية!".

وبخلاف اسهامات المسلمون الماليون (الماندينكا) والاندلسيون فهناك اسهامات الموريسكيون والمغاربة العرب والامازيج فى مجال الكشوف الداخلية بأمريكا الشمالية ضمن الحملات البرتغالية ولاسبانية فهناك مثل ساطع هو مصطفى الأزموري (ستيبانيكو) احد أعظم مستكشفي أميركا الشمالية فى الفترة من ١٥٢٨ الى ١٥٤٠ ؛ وكانت السنوات الإثنتي عشرة التي قضاها كافية لتجعل منه أحد اهم الرواد الأوائل مستكشفوا فلوريدا وتكساس والمكسيك وأريزونا والمكسيك الجديدة رغم انه كان فردا فى احدى الحملات البرتغالية كعبد (١٤).

ب - ريادة الملاحة البحرية

(أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي ٨٢١هـ -٩٠٦هـ)

عمل كثير من الموريسكيين بعد سقوط غرناطة ؛ أدلاء لاسبانيا والبرتغال فى رحلاتهما البحرية فى الاطلنطى ، ويذكرالمؤرخان "النهرواني و"فراند" أن الرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما استعان بابن ماجد كربان في ترحاله خاصة في رحلته من مالندي على ساحل أفريقيا الشرقية إلى كاليكوت في الهند سنة ١٤٩٨م وكان إبن ماجد خبيراً ملاحياً في البحر الأحمر وخليج بربرة والمحيط الهندي وبحر الصين ، ولمهارته كأحد اشهر الملاحين لقبه البرتغاليون **almirante** بأمير البحر و"معلم بحرالهند" ، ومن القابه التى اطلقوها عليه "المعلم أسد البحار" و"ربان الجهازين" .

ولد إبن ماجد في راس الخيمة عام ٨٢١ هـ (توفي عام ٩٠٦ هـ) بمنطقة نجد بالجزيرة العربية ؛ وينحدر من عائلة من الملاحين ابا عن جد ؛ تكلم اللغة التاميلية وألم بالزنجية والفارسية بالإضافة للعربية ،ابحر صغيرا وبرع فى الفلك والملاحة والجغرافيا وكتب العديد من المراجع الملاحية ، ألف أكثر من ثلاثين كتاباً أرسى فيها أسس علم البحار الذي لم يكن معروفاً من قبل ، ومن أعماله "مختصر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" (١٤٨٩م) و"الفصول" و"الملل" ، وكتابين مفقودين هما "مطول كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" (١٤٧٥م) وكتاب "شرح الذهبية" و"حاوية الاختصار في أصول علم البحار" ، وتُرجمت بعض كُتبه مثل "المحيط" إلى التركية ومنها نقل إلى اللغات الأوروبية ؛ وله مخطوطة عربية شعرية من ثلاث فصول كتبها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر ؛ وصف فيها طرق الملاحة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي ، و محفوظ له ثلاث أخريات فى معهد الدراسات الشرقية فى لييننغراد ، وعثرالمستشرق الروسي ثيودور شوموفسكي على أرجوزة لأبن ماجد على شكل مخطوطة في مكتبة أستنبول ، والف عنها كتابا اسماه ثلاث أزهار في معرفة البحار لأحمد أبن ماجد – ملاح فاسكو دي جاما ؛ ولابن ماجد أكثر من أربعين عملاً مكتوباً منها ، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، رسالة قلادة الشموس وأستخراج قواعد الأسوس ، تحفة الفحول في تمهيد الأصول ، العمدة المهدية في ضبط العلوم البحرية ، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر ، القصيدة الهمزية ، الأرجوزة السبعية ، الفصول ، كتاب الملل ، شرح الذهبية ، حاوية الأختصار في أصول علم البحار .

ويعد كتابه "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" أهم ما يذكر في علم الملاحة البحرية ، ففيه يوضح تاريخ علم البحر والملاحة البحرية حتى القرن الخامس عشر الميلادي، ويلقي الضوء على تأثير علم المسلمين وتقاليدهم فى الملاحة البحرية على البرتغال وكذلك على تطبيقاتهم في المحيط الهندي بشكل خاص ؛ وفيه يتحدث عن العلوم والثقافات التي يجب أن يلم بها ربان السفينة فيقول أن لركوب البحر أسباباً كثيرة أهمها معرفة المنازل والمسافات والقياس والإشارات، ورسم الكثير من الخرائط البحرية وقام برحلات عديدة إلى شرق أفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا والصين.

---

[١٤]) يبدو ان اسمه الحقيقى طبقا لبعض الباحثين هوسعيد بن حدوا وان سيده اطلق عليه تصغير مصطفى بالبرتغالية إستيبانيكو، إستيبانو، ومن مُسمياته الاخرى المورو، متكلم العربية أو ستيفن الأسود حسبما يسميه السود فى الولايات المتحدة – المرجع : عبد الهادي عمّار باحث بجامعة غرناطة الإسبانية حول مغربي من القرن ١٦- وبقية دراسات باحثوا ندوة بجامعة غرناطة كلية الآداب / لا كارتوخا بتاريخ ١٠- ١٥ أبريل ٢٠١٢ حول مصطفى الأزموري / ستيبانيكو احد أعظم مستكشفى أميركا الشمالية - ولايتى اريزونا ونيو مكسيكو(تفاصيل القصة فى الملاحق).

ومن انجازاته القياس بالأصابع والبوصلة .. أوجد ابن ماجد صلة بين تقسيم دائرة الأفق إلى ٣٢ جزءاً تماثل أخنان البوصلة وبين استخدام قبضة اليد والذراع مبسوطة في اتجاه البصر أمام الراصد ، فقبضة اليد من الخنصر إلى الإبهام والذراع ممدودة إلى الأمام تمثل ٣٢/١ جزءاً من محيط دائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف، فلو استقبلنا الشمال لأمكن باستخدام قبضة اليد فقط التعرف على أي اتجاه آخر على دائرة الأفق ، ويقول ابن ماجد في كتابه الفوائد في وصف طريقة تحديد القبلة " كذلك دورة السماء ٣٢ جزءاً يقصد دائرة الأفق ، وكل جزء قبضة من الخنصر إلى الإبهام وأنت مستقبلها مادّاً بها ذراعك ، فحط بيت الإبرة أمامك وصل على أيخن جاء في النظم على أي بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار إليها عند عدم وجود الحقة، اي البوصلة،...ولما كانت المسافة بين الخنصر والإبهام واليد مقبوضة، تساوي نحو سبعة أصابع فإن تقسيم دائرة الأفق يصبح ٣٣٤ إصبعاً وهو الأساس الذي بني عليه تقسيم الحقة " البوصلة " العربية ، وهى من اختراعه فيقول «.. ومن اختراعنا في علم البحر تركيب مغناطيس على الحقة بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب».

وهو الذى استحدث من الأدوات الملاحية «البوصلة البحرية» المقسمة إلى ٢٢ درجة والتي ما زالت مستعملة حتى الآن ، و«وردة الرياح» وهي آلة من الخشب تقسم عليها دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية ويقسم كل ما بين جهتين إلى أقسام صغيرة وتستخدم لمعرفة اتجاه الرياح وجهة هبوبها ، وإنذهل "فاسكو دا جاما" من آلات العرب الملاحية والفلكية حين رآها مع أحمد بن ماجد مثل الة «اللوح» آلات «الكمال» و«البليستي» لتحديد خطوط العرض التى صممها العرب معتمدين في ذلك على معرفتهم الدقيقة بمواقع النجوم

٨-الرياضيات

وفى هذا المجال نقل العرب عن الهند الكثير من الرياضيات وابدعوا بوضع الكثير من اسس الرياضة الحديثة فأدخل غياث الدين جمشير الكاشى "الكسر العشرى وهو اول من استعمل العلامة العشرية قبل "ستيفن" باكثر من ١٧٥ عاما ؛ وإبتدع العرب استعمال الصفر zero واسمه اللاتينى يحمل ظلال التسمية العربية بعد ان اقتبسوا فكرتة من الهنود ، وبدون الصفر لما أمكن حل الكثير من المعادلات الرياضية بسهولة ، ومحمد بن موسى الخوارزمى أبو الحساب والجبر ابتدع بتشجيع من الخليفة المأمون جيل جديد من الرياضيات فابتدع علم الجبر Algebra واستخدمه فى حل مسائل هندسية ، و كتابه " الجبر والمقابلة " اول ماكُتب فى هذا ألشأن وكان أول من الف فى الحساب ، وما زالت هُوية علم الحساب فى اسمها اللاتينى Algoritmi (اللوغاريتمات) مدموغة باسم الخوارزمى (الغوريتمى) الذى يعكس حقيقه انتسابه اليه ؛ وكُتبه كانت مراجع دراسية فى أوروبا حتى القرن ١٦ .

وللمسلمين فضل انشاء النظريات الاساسية لعلم حساب المثلثات والاضلاع وهو مايعده سانتون ثورة علمية ، فقد ادخل المسلمون خط المماس إلى حساب المثلثات وتوصلوا إلى حل المعادلات المكعبة وتوسعوا في مباحث المخروطات وأحلوا الجيوب محل الأوتار (١٥) ؛ ويشيد علماء اوربا بعلماء الاسلام فى مجال الرياضيات فيصف " كارل ساخاو " بجامعة فيينا " البيروني " بأنه أعظم العقول التي ظهرت في العالم ، كما يصف الفلكي الفرنسي " لالاند ")القرن الثامن عشر) " البتاني " بأنه واحد من عشرين رياضياً ظهروا في العالمين القديم والحديث .. وفى مجال الهندسة سخر ابن الهيثم هذا العلم فى بحوث الضوء.

٩- الفلسفة والآداب

الهمت القصص العربية خيال الادب الاوروبى فى العصور الوسطى مثل ألف ليلة وليلة وقصص الفروسية ممثلة فى بطولات فرسان الأندلس ؛ ويسجل الكاتب الأسباني " أبانيز " أن أوروبا عرفت الفروسية وآدابها نقلا عن العرب؛ ومن الفلاسفة المسلمين نُعدد " الفارابي " و " إبن سينا " و " الكندي " و " إبن ماجة " و " إبن طفيل " و " إبن رشد " و " إبن زهد " و " الإمام الغزالي " و الفيلسوف الصوفي " محيى الدين بن عربي " و هم لايقلون شهرة عن أقرانهم من اليونانيين.

---

[15]) المرجع: دراسات في الحضارة الإسلامية صـ ٢٩٩ و٣١٤ للدكتور أحمد إبراهيم الشريــــف.

ثانيا الصنـــــــاعـة

١- صناعة الورق

طور المسلمون صناعتين من اهم الصناعات واكثرها تاثيرا على الحضارة الانسانية هما الورق والأسلحة النارية ، فصناعة الورق رغم سبق الصين معرفة هذه الصناعة منذ عام ١٠٥م ؛ إلا ان العرب الذين نقلوها عنهم عام ٧٥٠ م بعد حقب من فتح سمرقند (٧١٢م) عندما وقع بعض الصينيين العارفين باسرارها فى اسرهم ، وفى عام ٧٩٤ م ، فهم اى العرب هم من ادخلها عالم الحضارة بإشاعة استعمال الورق بعد ان كان محدود الانتشار فى عُهدة الصين ؛ فقد أسس " الفضل البرمكى " أول مصنع للورق فى بغداد ، ولإهتمام العباسيين بالنهضة العلمية أنتشرت الصناعة بسرعة فائقة فى جميع انحاء الوطن الاسلامى وهو ما ساعد على نمو مجتمع علمى على اعلى مستوى ؛ وطور العرب نوعا من الورق الرخيص الجيد مصنوعا من القطن ومواد البيئة المحلية الاخرى وكان فتحا كبيرا للحضارة الانسانية حتى يومنا هذا ، وعرفت اوروبا صناعة الورق عن طريق الاندلس واستبدلته فى الكتابة بديلا للجلد مما دفع نهضتها بسرعة فقد كان ارتفاع تكلفة الجلد قد حالت دون التوسع فى استخدامه فى الكتابة الامر الذى قيد من اتساع انتشار العلم والتوسع المطبعى.

وأول مخطوط عربى كُتب على هذا الورق يرجع الى القرن ٩م وقد يكون كتاب " غريب الحديث " عام ٨٦٦م أحد أقدم الكتب الورقية المنسوخة بينما تأخر استخدامه فى اوروبا الى عام ١١٠٩م تاريخ أول وثيقة اوروبية مكتوبة على هذا الورق ، و فى القرن الرابع عشر بُدء فى أستعمال الورق على نطاق واسع فى الاغراض الادبية .

٢- صناعة ألأسلحة النارية

كان إكتشاف البارود وصناعة المدفع عُدة الحرب وعتاده اكتشافا ثوريا ، فرغم ان الصينيون هم ايضا مكتشفوا نترات البوتاسيوم واول من استعملها فى صناعة الحرب باسم النار الاصطناعية ؛ الا أن الفضل الاول فى ابتكار الاسلحة النارية يرجع للعرب فهم أول من عرف كيفية استخراج قوة البارود الدافعة المستخدمة فى الاسلحة النارية بعدما عرفوا كيفية تنقية نترات البوتاسيوم والتى بدونها ماكان ممكنا تفجير تلك المادة ، واستعمال قوة التفجير فى اطلاق القذائف ، وقد جاءت اول اشارة لاستعمال البارود فى القرن ١٣م عندما ضرب به الامير يعقوب اسوار مدينة المهدية بأفريقيا عام ١٢٠٥م ؛ كما استخدمه المماليك المصرية فى معركة المنصورة ضد لويس التاسع " ملك فرنسا أثناء حملته الصليبية على مصر١٢٤٩- ١٢٥٠م ؛ ويصف الامر "جوانفيل " وهو من جنود الحملة ومؤرخها وشاهد عيان عليها بقوله " ان المصريون أطلقوا ثلاث قذائف كانت افظع ما رأته عيناه على الاطلاق دعت زميله للقول (رُعبا) : ايها السادة لقد ضعنا جميعا ولامهرب لنا ؛ ويستطرد المؤرخ فى وصفه هذه النار فيقول " أنها كانت كالبراميل المشتعلة تُخلف ورائها ذيلا طويلا من النار محدثة عند انطلاقها صوتا كالرعد وتشق الهواء كأنها تنين من نار يضئ بقوة حتى اصبح الليل نهارا ، ويضيف " جوانفيل " ان الملك لويس ارتعب من هذه النار فكان يركع والدمع ينهمر من عينه مدرارا داعيا الرب عيسى المسيح لحمايته هو وجميع من معه " ، وإستخدم البارود كما يُشيرابن خلدون ؛ السلطان ابو يوسف عند فتحه سلجماسة عام ١٢٧٣م ، واستخدمها الاندلسيون فى الدفاع عن منطقة الجزيرة ضد ملك قشتالة الادفنش الحادى عشر عام ١٣٤٢م فيقول ان مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثير من الصواعق على الجيش بقنابل كثيرة من الحديد فى حجم التفاح الكبير .

وقد نقل الاختراع كونتا سالسبرى ودربى وكانا قد شاركا فى حصار الجزيرة؛الى بقية اوروبا بعد ان سربه احد الاندلسيين ؛ وتصور مخطوطة " والترميليميت " المحفوظة فى جامعة اكسفورد التى يرجع تاريخها الى عام ١٣٢٦م مسلما من الاندلس اسمر عربي الملامح هو الذى سرب هذا الاختراع الى الاسبان ، وهذه الوثيقة هى أول أشارة عن معرفة الاوروبيون بالمدفع الذى بدأ الفرنسيون فى استخدامه عام ١٣٣٨م للدفاع عن " كامبرجى " فى نفس العام واستخدمه الانجليز من بعدهم فى معركة " كريسى " عام ١٣٤٦م (١٦) .

ومن أدوات الحرب الاخرى التى ابتدعها العرب ما يفترض انه توربيدا بحريا ؛ ففى سنة ١٢٨٠م عُثر على كتاب لسورى

[16] حضارة العرب – جوستاف لوبون صـ ٤٧.

يدعى " حسن الرماح " أورد فيه وصفا ورسما توضيحيا لتوربيد بحري يُعرفه بأنه من أدوات الحرب ويصفه " بـ " البيضة التى تندفع ذاتيا على الماء وتحترق " ومن الواضح حسب قول الاستاذ " سارتون " أن " حسن الرماح " كان يعرف جيدا نترات البوتاسيوم (البارود) ويعتبرها المادة الاساسية فى تكوين الناريات .

الفصل الثانى
منارة الاندلـــــــــــس
وفضلها على اوروبا

وضع اوروبا الحضارى
فى القرون الوسطى
قبل اقتباس علوم الاندلس

عندما فتح المسلمون الاندلس لم يكن للقوط سكان البلاد حضارة يُعتد بها ويصف د. جوستاف لوبون الوضع فى اسبانيا زمن القوط عند الفتح العربى بأنها بلد فقير لا تتعدى ثقافته ثقافة الاجلاف، " ؛ ولم تختلف اوروبا عن ذلك كثيرا أنذاك إذ يصف " جيمس بيرك " حالة التخلف التى عاشتها اوروبا فيقول" كم كان الاوروبيون فى العصور الوسطى قبل عصر كوبيرنيكس اغبياء " اذ ظنوا ان الشمس تدور حول الارض وليس العكس ؛ ولو كان لديهم قدرا ولو ضئيل من الفهم لادركوا ان العكس هو الصحيح "(١٧) ، وفى نفس السياق تقول المؤرخة ألألمانية " هونكه "..." أن المدنية الأوروبية لم يكن لها وجود قبل إحتلال العرب للأندلس ، ويقول د. جوستاف لوبون " قبل التعرف على الحضارة العربية لايمكن أن نتذكر قبل القرن ١٥م أن عالما أوروبيا ابتكر شيئا بخلاف ما أستنسخه من كتب العرب " ، وعن اسبانيا يقول انهاعرفت نور الحضارة على يد حضارة الاسلام منذ قدومه ؛ فلم يكد العرب يتمون فتحها حتى بدأوا رسالة الحضارة .

الاندلس عهود من الحضارة

مرت الحضارة الاسلامية فى الاندلس منذ قيامها بالعهود التالية:

١- العهد الاموى

منذ قيام الامارة الاموية فى قرطبة عام ٧٥٦م على يد عبد الرحمن الداخل بعد إنفصاله بالاندلس عن خلافة المشرق ؛ بدأ اعمال النهضة " وإستطاع عرب الاندلس فى اقل من قرن ان يُحيوا ميت الارضين ويُعمروا خرِب المدن ويوطدوا الصلات التجارية بالامم الاخرى ثم شرعوا فى التفرغ لدراسة العلوم والادب وترجمة كتب اليونان واللاتين ويُنشئون الجامعات التى ظلت وحدها ملجأ للثقافة فى اوروبا زمنا طويلا وحققوا نقلة حضارية معمارية بالاندلس " ؛ ومن ابرز ما انجزه عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة الذى يصفه د. لوبون بانه من عجائب الدنيا ، وقصر الزهراء الساحر بأعمدته الرخامية الاربعة الاف وثلاثمائة عمودا (وصف المسجد وصوره وصور قصر الزهراء فى الملحق) ، وقام الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقّب بالناصر (٩١٢ - ٩٦١) ، ببناء مدينة جديدة اختطها على بعد أميال من قرطبة أسماها الزهراء ولم ينتقص هذا من قدر قرطبة التى وصلت أوج مجدها في عهده ، وتواصل نموها فى عهد ابنه الحكم الثاني (٩٦١ -٩٧٦)، ومع استيلاء الحاجب المنصور بن أبي عامر (٩٨١ - ١٠٠٢)، على مقاليد السلطة في قرطبة وتأسيسه الدولة العامرية ابتنى لنفسه قصراً للحكم في طرف قرطبة أسماه بالمدينة الزاهرة (١٨) .

كانت قرطبة منذ عهد الداخل من أهم المدن في القرن العاشر، فهى منارة العلم والثقافة في أوروبا ، وأنجبت المدينة في هذه الفترة الشاعر ابن زيدون، والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي، والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المدنيات.

كانت عهود الاندلس الامويةبشقيها الدمشقى والاموى حتى نهاية الدولة العامرية ، هى العهد الذهبى للاندلس الموحدة الكبيرة ؛ كانت عصر الفتوح والجهاد فى اوروبا منذ الفتح الى ما بعد شارل مارتل ؛ فأمويو قرطبة لم يهملوا مواصلة نفخ الروح

---

[١٧]) مستقبل أُلحضارة صـ ٩٣- ٩٤ - يوسف كمال.. نقلا عن موجز تاريخ الشرق الاوسط لـ جورج كيرك ترجمة سمير الاسكندرانى.

[١٨]) تنازع حكام إشبيلية وطليطلة فى عهد ملوك الطوائف قرطبة الى ان استقرت بيد ملك إشبيلية المعتمد بن عباد سنة ١٠٧٨ م، ففقدت مكانتها كعاصمة للدولة لصالح إشبيلية ، واستعادت مكانتها لما اعادها الموحدون عاصمة للأندلس من جديد ، ومن شخصيات قرطبة الفيلسوف المسلم ابن رشد، بالإضافة إلى العالم الديني اليهودي ابن ميمون، أشهر فلاسفة اليهودية في العصور الوسط ، وبعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب ("لوس ناباس دي تولوزا" بالإسبانية) عام ١٢١٢ م، سقطت قرطبة عام ١٢٣٦ م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة بعد ما يزيد على خمسة قرون من الحكم الإسلامي للمدينة.

فى شرايين المستوطنات الاسلامية والدفاع عنها للبقاء فى جنوب فرنسا وسويسرا وايطاليا ؛ كما هو عصر بدء كشوف الاندلسيين البحرية الجغرافية فى الاطلنطى سبقوا به الاوروبيين فى معرفة امريكا.

٢- عهد ملوك الطوائف

لم تتوقف النهضة فى عهد دول الطوائف رغم الاضطرابات التى انتابت البلاد فقد عرفت الاندلس فى تلك العهود طائفة من اعظم المفكرين والادباء فى ظل رعاية ملوك من الادباء العلماء الذين يقدرون العلم والنهضة ؛ فإبن رشد وابن طفيل وعبدالله بن ميمون والمعتمد بن عباد كانوا ابناء عصر الطوائف ، ومن العلماء والادباء ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ /١٠٦٤م وابن حيان اعظم مؤرخى الاندلس المتوفى عام ٤٦٩هـ /١٠٧٦م وتلميذه الحميدى المتوفى ٤٨٨هـ /١٠٩٥م ، ومن الادباء الشعراء ابن زيدون المتوفى عام ٤٦٢هـ /١٠٦٩م وابن عبدون المتوفى عام ٥٢٠هـ /١٠٢٦م .

وليس بالغريب ان يكون ملوك الطوائف انفسهم فى طليعة الادباء وكان الكثير منهم على قدر كبير من الادب والعلم مثل الامير العالم عمر بن الافطس صاحب بطليوس مؤلف كتاب كامل المظفرى في التاريخ من خمسين جزءاً ، ومات قتيلا بيد المرابطين عام ٤٨٤هـ والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الشاعرالطموح واعظم ملوك الطوائف الذى اغدق على العلماء والثقافة من ثراء مملكته التى اثارت بحسنها ورغدها واسراف صاحبها حسد اصحاب إبن تاشفين مرابطوا المغرب على الاندلس ، فإقتحموها البلاد لفساد ملوكها واسروهم بمن فيهم المعتمد بن عباد الذى مات فى اسره بالمغرب عام ٤٨٨هـ ، وهناك المعتصم بن صمادح صاحب المرية المتوفى عام ٤٨٤هـ /١٠٩١م .

٣- عهد المرابطين

ورغم تزمت المرابطين وتضييقهم على العلماء وحرية الفكر (حرموا كُتب الغزالى وغيره من مفكرى الشرق)؛ الا ان النهضة لم تتوقف عن إنجاب مزيدا من العلم والعلماء فهناك ابى القاسم بن عباس القرطبى الطبيب الاشهر المتوفى ٥١٦هـ /١١٢٢م وابن باجة الطبيب الفليسوف المتوفى ٥٢٣هـ /١١٢٩م ؛ وابو بكر الطرطوشى الفيلسوف السياسى صاحب كتاب سراج الملوك المتوفى ٥٢١هـ / ١١٢٦م والفتح بن خاقان المتوفى ٥٣٥هـ /١١٤٠م وابن بسام الشنترينى صاحب الذخيرة المتوفى عام ٥٣٥هـ /١١٤٧م وابن قزمان امير الزجل المتوفى ٥٥٥هـ /١١٦٠م ، بخلاف نواحى النهضة الاخرى .

٤- عهد الموحدين

ولما جاء الموحدون اطلقوا حرية الفكر والبحث و أفرجوا عن كتب الغزالى ومفكرى الشرق التى قيدها المرابطون ، وبلغ التفكير الاندلسى قمة نضجه انذاك فى اواخر القرن السادس الهجرى؛ فظهرت طائفة من اعظم اقطاب العلم والادب ففى منتصف القرن الثاني عشر ظهر في قرطبة (والموحدون هم من اعادوا لقرطبة مكانتها كعاصمة للأندلس من جديد) الفيلسوف المسلم ابن رشد والعالم الديني اليهودي ابن ميمون وهما من أشهر الفلاسفة في العصور الوسطى ؛ فالفيلسوف الرئيس الطبيب يوسف بن ميمون من اعظم الاطباء هاجر الى مصر هربا من اضطهاد عبد المؤمن سلطان الموحدين لليهود ، وعمل فى خدمة صلاح الدين وقام بالتدريس بالقاهرة .

وهناك اهل علم مثل بنو زهر الاشبيليين وعميدهم الطبيب الوزير ابو العلاء بن زهر وولده ابو مروان المتوفى ٥٦٤هـ /١١٦٨م ، ويعتبر ابن رشد الوزير ابو العلاء بن زهر اعظم طبيب بعد جالينوس وكتابه التيسير من اعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، ومن اقطاب الفلاسفة ابى بكر الطفيل المتوفى عام ٥٧١هـ /١١٧٦م صاحب رسالة حى بن يقظان ، والامام الفيلسوف ابى الوليد محمد بن احمد بن رشد القرطبى المتوفى ٥٩٤هـ/١١٩٨ وكان بارعا فى الطب والفقه والفلسفة و تولى القضاء فى الاندلس فترة ثم انتقل الى المغرب ليعمل طبيبا للسلطان ابى يعقوب يوسف ومن بعده ولده السلطان يعقوب المنصور الذى نُفاه الى الاندلس لاتهامه بالزندقة باعتبار ان الفلسفة علم خطر فى نظر الموحدين ثم عفا عنه السلطان وعاد الى المغرب.

وهناك الكثير من الشعراء مثل ابن الصابونى الذي يقولون ان الاداب ذهبت بذهابه وختمت الاندلس شعراءها ؛ وفى منتصف القرن ١١م توصل " مسلمة المدريدى " الاندلسى الى اكتشاف قيم عن تحضير اكسيد الزئبق ، ومما يسجل للاندلس انها قامت بأول محاولة للطيران على يد عباس ابن فرناس .

برع الاندلسيون فى الزراعة بفضل ما استحدثوه من اساليب زراعية وادخال الجديد من المحاصيل، وحولوا البلاد من صحراء الى جنان وحدائق واكثروا من انشاء الجسور والطرق ، كما إزدهرت معاهد العلم فى كل من اشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسية وغرناطة الائى كن مقصدا للطلاب من كل بلد وتقدمت الصناعة والزراعة والتجارة الخارجية ، ولما اجتاحت الثورة معظم الاندلس مع بداية القرن السابع الهجرى وتعرضت الاندلس لضربات الاسبان انتكست النهضة لاضطراب الاحوال.

٥- غرناطة والحضارة
(دولة بنى نصر)

وبنو نصر هم من تفوهت عمارتهم بالابداع ؛ فغرناطة دولة ثرية ذاخرة بالخيرات احتشدت فيها كل عوامل النجاح والتطور بعد ان تجمعت فيها ثروة ضخمة من الخبرات المتراكمة من كل ارجاء الاندلس المتساقطة ، فبرعت غرناطة فى استثمارها من مهرة الصناع والمزارعين وما ابتدعوه من تقنيات فى الزراعة والرى ، فتحولت الاندلس الى جنان على حد وصف شعرائها ، وما زالت نظم الرى التى شيدها الغرناطيون تشهد بعبقريتهم ومضربا للامثال وهى تعمل حتى الان مثل نظام رى حدائق الحمراء البديع ؛ فمياة نهر دارو تُنقل الى قصور الحمراء عبر انفاق منحوتة فى الجبال لتغذية المدينة وقصورالحمراء وتصفى من الرواسب من خلال ابيار ويتم رد فائض المياة عن الحاجة الى النهر بأسلوب متطور بديع ويتم تخزينها لاوقات الشح .

وتتفوه قصور الحمراء بالروعة والجمال عن نفسها وعن عظمة معمارى الاندلس ؛ فقاعة العرش وبالذات قاعة السفراء بتصميماتها وأبهتها تعكس عظمة غرناطة المعمارية، وقد انشد فيها فكتور هوجو شعرا يقول : ايتها الحمراء ايها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك اية للتوافق ... الى ان وصل الى وصف قناطرها فيقول " يُسمع لك فى الليل صوت يسحر الالباب (١٩) " ؛ ومن قاعات الحمراء الرائعات قاعة الاسود وغرفة الاختين وحجرة بنى سراج وردهة العدل .

وغدت غرناطة على مدى ٣ قرون ارقى مدن العالم القديم واغناها واجملها واكثرها سكانا (٢٠) ؛ يصفها ابن الخطيب بأنها جنة من جنات الدنيا ، ويقول عنها احد الشعراء (٢١) :

غرناطـــة ما لها نظــــــــــير ما مصــر ما الشــام ما العراق
ما هى الا العـروس تجــــــــلى والارض من جمـــلة الصـــداق

ومهارة اهل غرناطة وثراؤها دعم قدرتها على الابداع الحضارى والصناعى فأصبحت محط أنظار الاوربيين ، فأصبحت مركزا تجاريا هاما فى جنوب اوروبا فبلغت تجارتها المشرق وشمال افريقيا وجنوب اوروبا وكان يهودها وصلت همز تجارية هامة ؛ وفى مضمار العلوم افرزت غرناطة الكثير من اشهر الادباء والشعراء مثل ابن الابار فى الادب والتاريخ وابو الفضل الجليانى الشاعر الاديب فى الطب ؛ واسرة ابن زهر التى برع ابناءها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، والطبيب ابو العباس الاموى المعروف بابن الرومية الاشبيلى وكان حجة فى علم النبات ولد فى اشبيلية عام ٥٦١هـ و توفى بها عام ٦٣٧هـ وله مؤلفات نفيسة فى الطب والنبات منها شرح حشائش دياسقوريدس وادوية جالينوس والرحلة النباتية والمستدركة وكتاب فى الادوية المفردة .

وفى مجال "الفلاحة" سجل الاندلسيون تطبيقاتهم مثل ما كتبه ابن بصال الطليلى فى القرن الحادى عشر ، وابى زكريا ابن العوام الاشبيلى اواخر القرن الثانى عشر وللطغرى الغرناطى ، وفى مجال النبات كان من اشهرهم فى اواخر القرن السادس ابن البيطار المالقى الطبيب والنباتى المشهور الذى عمل بمصر والف كتابين عن الادوية هما الجامع و المغنى فى الادوية المفردة وتوفى فى دمشق عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

ومن البارعين فى مجال الرياضيات والفلك مطرف الاشبيلى ؛ وكان يخفى نتائج ابحاثه خوفا من العقاب لان هذا العلم فى تلك الفترة كان ينتسب للزندقة ، ولم تفرز هذه الفترة الكثير من العلماء بقدر ما افرزت من شعراء من بينهم ابن الخطيب الطبيب الفيلسوف ذوى العديد من المؤلفات.

---

[١٩]) تاريخ العرب ـ جوستاف لوبون صـ٢٩٣ .
[٢٠]) حضارة العرب صـ ٢٧٣.
[٢١]) فى الاحاطة فى اخبار غرناطة جـ١صـ ١٢٢ نقلا عن نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ـ محمد عبد اللة عنان طبعة ١٩٥٨ .

وللجراحين الاندلسيين فى القرن ١٣م سمعة عظيمة فاقت سمعة أقرانهم فى باريس و أدنبرة ، فبينما كان الطبيب فى الأندلس يسمى جراحا كان فى الدول الاوروبية يسمى حلاقا على حد ما ذكره الاستاذ " كمبل " ، ومن اشهر الجراحين فى القرن السادس عشر " ابى القاسم الزهراوى " الاندلسى (المتوفى ١٥١٣م) عميد جراحى ذلك الزمان الذى بلغت الجراحة على يديه قمة ازدهارها ، ويتضمن اشهر كُتبه " التصريف " فصلا عن الجراحة مشتملا على صور لادواتها والاتها ؛ فأهدى بذلك الجراحة الاوروبية اساسها وسهل عليها تطوير الالات الجراحية فى القرن ١٦م .

وفى مجال الكشوف البحرية سبق الاندلسيون الاوروبيين فى استكشاف الاطلنطى ، فقد كانت امريكا معروفة للمسلمين الاندلسيين والماليين بأفريقيا قبل كولمبس بخمسمائة عام كما سبق ان اسلفنا فى فصل العلوم ؛ فالجغرافى ابو الحسن المسعودى (٨٧١ ـ ٩٥٧م) ، ذكر فى خريطته للعالم ارضا فى بحر الظلمات (الاطلنطى)سماها الارض المجهولة ، وذكرها فى كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" المكتوب عام ٩٥٦ ميلادية عرضا فى حديثه عن رحلة المغامر الخشخاش بن سعيد بن الأسود من قرطبة فى عهد الخليفة الاندلسى عبد الله بن محمد (٨٨٨ـ ٩١٢م) ، بأنه ابحر عام ٨٨٩م من دلبا وعبر بحر الظلمات مع جماعة من أصحابه إلى أن وصل إلى أرضا مجهولة وراء بحر الظلمات التقى اهلها ووصفهم ورجع محملا بكنوز.

وفى عهد عبد الرحمن الداخل (٩٢٩ ــ ٩٦١م) ، ابحر اندلسيون فى بحر الظلمات من ميناء دلبام وعادوا بعد غياب طويل بغنائم كثيرة ، وثمة وثيقة تاريخية أخرى في التاريخ العربي ؛ ذكرها المؤرخ ابو بكر بن عمر بن القوطية عن رحلة قام بها ابن فروخ الأندلسي الغرناطى من قادش فى فبراير عام ٩٩٩م (فى عهد هشام الثانى ٩٧٦ ــ ١٠٠٩) فى الاطلنطى وهبط فى جاندو (جزر كناريا "Canaries") ، وزار ملكها Guanariga ووصف أهلها ، كما زار Caprari وبلوتانا وعاد إلى الأندلس فى مايو ٩٩٩.

والعالم الجغرافي الشريف الإدريسي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي بين ١٠٩٩-١١٨٠م ، وهو من سبتة ؛ ذكر في كتابه "الممالك والمسالك" ان اندلسيون ابحروا من إشبونة "Lisbon"، فى بحر الظلمات وتحدثوا عن وجود أناسا يتكلمون العربية فى الارض التى وصلوها ووصفوا ملوكها ، قد تكون جزر الكارابية كوبا أو إسبانيولا أو غيرهما من جزر البحر ، وهناك خريطة رسمها الأوروبيون تشتمل على دلائل عملية على تواجد عربى اسلامى فى أمريكا عام ١٥٦٤م ، احداها خاصة بفلوريدا اوردت أسماء مدن مسماة على اسماء مثيلاتها فى الأندلس والمغرب ؛ وبعد سقوط غرناطة عمل كثير من المورسكيين أدلاء لاسبانيا والبرتغال فى رحلاتهما فى الاطلنطى ، وفى مجال السياحة برز محمد عبد الرحيم المازنى الغرناطى مؤلف " نخبة الأذهان في عجائب البلدان".

تعقيب

ورغم ما كانت تعانيه الاندلس من قلاقل ؛ فقد بنت مؤسساتها ونبغ علماؤها وانطلقت تشع نورا بحضارة الاسلام العريقة فى منطقتها ؛ وحتى نُقدر عطاء هذه الامة للحضارة فى محيطها نرى ان ما عطته للغرب الاوروبى اكثر مما اعطته للمغرب شقيقتها الكبرى ومغيثتها وقت الشدائد والتى تقع فى جوارها المباشر وتربطهما معا الكثير من الاواصر ، والسبب فى هذا فى رأينا يرجع للاطراف صاحبة الشأن ؛ فأوروبا كانت حريصة على التعلم والنقل من الاندلس منفذ العلم الوحيد حتى تلحق بها ؛ وهى تعلم ان الانتصار علي الاندلس والمسلمين يكمن فى اللحاق بحضارتهم ثم تجاوزها كأول ابواب هزيمة المسلمين ، بينما المغرب غاب عنه ما يحدث من تقدم فى الاندلس وبقى معزولا عنها جاهلا بحسنها وثرائها ورغدها رغم تلاصق البلدين الى ان جاء المرابطون ليكتشفوا ما غاب عنهم وهو ما يكشفه حسد ابن تاشفين واصحابه لابن المعتمد وهم فى ضيافته عندما أَخِذَتهم إشبيلية بجمالها، وضايقهم ترف المعتمد وتبذيره وتفريطه وملوك الطوائف بالبلاد وهم الصحراويون الذين شغلهم الجهاد جنوب الصحراء طويلا ، كما ان مركز حضارتهم فى فاس لم يجعلهم يلتفتون للتطور الحادث فى الاندلس الا بعد استولوا عليها فإهتموا بالحصول على ذخائر كتبها من المدن الساقطة ؛ من ملوك قشتالة كلما وافتهم الفرص .

حواضر الاندلس ومراكز حضارتها
من قيامها الى سقوطها

وحواضر البلاد هى انعكاس لحضارتها ، وللاندلس اربع حواضر هى : قرطبة ـ إشبيلية ـ غرناطة ـ طليطة وسنلقى الضوء بنبذة عليها فيما يلى :

أولا قرطـــــــــــــبة

فتحها الأمويون سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م وإتخذوها مقراً لولاتهم على الأندلس ، وقرطبة كلمة رومانية حسب قول ياقوت الحموي تعنى فى العربية العدوُ الشديد وجاءت بهذا المعنى في الشعر العربي :

إذ رآني قد أتيتُ قرطباً وجال في جحاشة وطرطباً

وفي رواية أخرى تعنى صرعه وتعني أيضاً السيف او قطع ، ويرى البعض ان أصلها أيبيري مأخوذ من كلمة كوردوبا Corduba أو Corduva تشير إلى مدينة قديمة ورد ذكرها أثناء الصراع بين روما وقرطاجة عندما اشترك أهلها في حملة هانيبال على روما عندما حكمتها قرطاج ولكنها أصبحت تابعة للامبراطورية الرومانية سنة ٢٠٦ ق.م ، حتى الفتح الاسلامى سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م ، ولم يعل شأن قرطبة إلا مع قدوم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وجعلها عاصمة له عام ٧٥٦ م فكانت بداية عصرها الذهبي فى النشاط العمرانى عندما بدأ الداخل العمل فى جامع قرطبة الكبير ، واصبحت فى القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) مقر الخلافة الاموية الجديدة فى عهد عبد الرحمن الثالث الملقّب بالناصر (٩١٢ - ٩٦١) ؛ الذى لقب نفسه بخليفة المسلمين إستناداً إلى ما اعتبره حق أسرته القديم في الخلافة الاموية ، وبنى بها ضاحية جديدة كمقر لحكومته أسماها الزهراء التى استغرق بناؤها ١٧ عاما ليجعلها مدينته المفضلة وهي تبعد عن قرطبة عدة اميال ، وبلغت أوج مجدها فى عهده بعد القضاء على ثورة الربض ، وتواصل نموها فى عهد ابنه الحكم الثاني (٩٦١ -٩٧٦) ، ولم ينتقص بناء الزهراء من قدر قرطبة التى ظلت المدينة الرئيسية في البلاد.

وكانت قرطبة من أهم مدن القرن العاشر، فهى منارة للعلم والثقافة ، وأنجبت المدينة في هذه الفترة الشاعر ابن زيدون، والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي، والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المدنيات ، وفي العقدين ١٠٢٠، ١٠٣٠ سقطت الخلافة بسبب ثورات البربر الذين دمروا مدينة الزهراء فى عهد الدولة العامرية التى اقامها الحاجب المنصور على انقاض الامارة الاموية .

وبزوال الدولة العامرية قامت على انقاضها ممالك الطوائف التى ورثت ثراء الخلافة فإنقسمت الدولة إلى أكثر من ١٢ دويلة ، منها غرناطة وإشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين وبطليوس ؛ وتنازع حكام إشبيلية وطليطلة المسلمين قرطبة الى ان استقرت بيد ملك إشبيلية الطموح المعتمد بن عباد سنة ١٠٧٨ م، ففقدت قرطبة مكانتها كعاصمة وبزغ نجم أشبيلية.

وفي منتصف القرن الثاني عشر ، استعادت قرطبة مكانتها كعاصمة بعد استيلاء الموحدون على السلطة من المرابطين، وفي هذه الفترة ظهر في قرطبة الفيلسوف المسلم ابن رشد، بالإضافة إلى العالم الديني اليهودي ابن ميمون، أشهر فلاسفة اليهودية في العصور الوسطى ، وبعد هزيمة الموحدين القاصمة في معركة العقاب ("لوس ناباس دي تولوزا" بالإسبانية) عام ١٢١٢ م، تهاوت معظم مدن الأندلس في أيدي قشتالة وسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ م على يد فرناندو الثالث بعد ما يزيد على خمسة قرون من الحكم الإسلامي للمدينة.

ثانيا إشبيلية

كانت معروفة باسم هيسباليس فتحها المسلمون في شعبان سنة (٩٤هـ - ٧١٣م) بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهراً واحداً وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل، وهو أول ولاتها المسلمين ، وكانت تُعرف ايضا انذاك بإسم حمص تمركز جند الشام فيها ؛ واتخذها "عبد العزيز بن موسى بن نصير" عاصمة بعدما خلف أباه والياً على "الأندلس"، وبعد مقتله فيها، نقل خلفه أيوب بن حبيب اللخمى العاصمة إلى قرطبة.

بنى عبد الرحمن الأوسط فيها المسجد الجامع الأول في سنة ٢١٤ هـ ، وأحرقه "النورمان" في سنة ٢٢٦ هـ عند إغارتهم على "إشبيلية" قبل هزيمتهم عند قرية "طلياطة" شمال "إشبيلية" ، وفي سنة ٢٣١ هـ بُنى سور المدينة الأول، ودار

الصناعة التي لا تزال باقية في موضعها إلى الآن ، وفي سنة ٣٠١ هـ هدم ابن السليم أول عُمّال عبد الرحمن الناصر سور إشبيلية ، وجدد بناء قصر الإمارة.

كانت إشبيلية محلا للثورات كثورة بني الحجاج وثورة بني خلدون ، اللتين قضى عليهما عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٠ ، ومع بداية عصر الطوائف سنة ٤١٤ هـ استبد أبو القاسم محمد بن عبّاد قاضي إشبيلية بحكومتها وأنشأ دولة بنى عبّاد الذين بلغت اشبيلية اوج مجدها فى عهدهم وبخاصة فى عهد المعتمد الذى حقق نهضة ثقافية كبيرة لها وحقق توسعت جغرافيا فى جواره ، وفي سنة ٤٨٤ هـ سقطت إشبيلية وقرطبة في يد المرابطين ؛ وانتهى حكمهم لإشبيلية سنة ٥٤٩ على يد القائد الموحدي برّاز بن محمد المسوفى الذى اتخذ إشبيلية عاصمة له.

في غرة شعبان سنة ٦٤٦ هـ حاصر ملك كاستيا وليون فرديناند الثالث إشبيلية ودخلها بعد حصار دام سنة وخمسة أشهر ، وفشل سلاطين بنى مرين بمراكش حلفاء الاندلس في الأعوام التالية فى استرجاع المدينة ، ومن أهم معالمها قصر المبارك لبن عباد ومنارة خيرالدا التي كانت منارة للمسجد الذى بناه السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور سلطان بنى مرين الموحدي تخليدا لنصرالمسلمين فى الارك.

ثالثا غرناطة

تقع جنوب مدينة مدريد، وتعلو ٦٦٩ متراً فوق سطح البحر، عُرفت فى العهد الروماني باسم أليبيري ، ازدهرت تحت حكم أسرة بني الأحمر التى اسسها محمد بن يوسف بن نصر عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ومنذ ذلك الحين أصبحت عاصمة لمملكة بني الأحمر الذين استقر بهم المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من أراضيها وأسموه "قصبة الحمراء"، وأقاموا عنده سداً لجمع الماء، وأنشأوا عدداً من الأبراج المنيعة، وسوراً ضخماً لحمايتهم من الأعداء.

مكانتها العلمية

كانتْ واحدة من حلقات الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ومركزاً علمياً كبيراً،بلغت بحضارة الاندلس منتهاها تجمع فيها صفوة العلماء والحرفيين والصناع ممن اسسوا لحضارة عظيمة تجمعوا فيها بعد هروبهم من مدنهم التى وقعت فى يد الاسبان ؛ انتشرت فيها المدارس التي حاضر فيها الكثير من العلماء والأدباء المشهورين فالمدرسة اليوسفية التى أُنشئت عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م وكانت تهتم بشتى العلوم المعروفة آنذاك، ويقصدها العلماء والطلاب من كل مكان، منهم الفقيه "ابن مرزوق" والكاتب "عبد القادر بن سوار المغربي" وغيرهم كثير. وقد تهدمت هذه المدرسة ولم يبق منها إلا قاعة الصلاة.

ومن اهم معالمها المعمارية روائع البناء التى تتحدث بنفسها اليوم عن عظمة وجمال هذا المعمار فقصر الحمراء ويعد من أروع القصور في تاريخ العمارة الإسلامية ومن أروع أجنحته بهوا الريحان والأسود وهو عبارة عن فناء يحيط به ممر من حوله القاعات والغرف وفي وسطه نافورة لاثني عشر أسداً، أنشأه السلطان "محمد الغني بالله" حين تولى السلطنة عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م ، والقصر مزخرف بزخارف هائلة متناسقة تسُر الناظرين ، أما الحجرات فقد كسيت بحشوات جصية تبدو كالسجاجيد، وتعد غاية في الروعة والجمال ، وقصر جنة العريف وقصر شنيل أو قصر السيد ويرجع تاريخه إلى زمن الأمير أبي إسحاق بن الخليفة ابن أبي يعقوب بن يوسف ، كما اشتهرت غرناطة بتجميل صحون المساجد بحدائق الفاكهة، وماذنهاّ عبارة عن أربعة أبراج مربعة من طابقين يحيط بها سور ويزين أعلاه بكرات معدنية مختلفة.

ومن علماء غرناطة الإمام الشاطبي العالم الأصولي، ولسان الدين الخطيب الفيلسوف، والسرقسطي اللغوي، وابن زمرك الشاعر، ومحمد بن الرقاح المرسي الذي اشتغل بالهندسة والرياضيات، ومارس الطب على أرضي ، ومن الفلكيين أبو يحيى بن رضوان الوادي آشي، وأبو عبد الله الفحام المعروف بأبي خريطة ، ومن الأطباء المشهورين محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف "بابن السراج" الذي اشتهر بعمل الخير، وكان يداوي الفقراء مجاناً ويفرق أمواله على المحتاجين ، والكاتب والطبيب يحيى بن هزيل التجيبي، ومحمد الشقوري وكان طبيب دار الإمارة أيام يوسف الأول ؛ ونبغ من فتياتها حفصة بنت الحاج، وحمدونة بنت زياد، وأختها زينب وغيرهن كثيرات.

رابعا طليطلة

وأسمها اللاتيني "توليدوث" (Tholedoth) وكانت المقر الملكي لملوك القوط وتقع في وسط إسبانيا على بعد ٧٥ كيلو متر من مدريد ، فى موقع حصين على مرتفع منيع تحيط به أودية عميقة تتدفق فيها مياه نهر تاجة الذى يحيط بها من جهات ثلاث ؛ ضمها الرومان عام ١٩٠ ق م وازدهرت في عصرهم وحصنوها بالأسوار ثم دخلها القوط الغربيون وأطلقوا عليها اسم المدينة الملكية ، وأهتم بها المسلمون اهتمامًا خاصًا وشهدت طليطلة كسائر المدن الاسلامية ازدهارا علميا وعمرانيا كبيرا .

مرت طليطلة بعدة فتن حتى اغتصبها ألفونسو من صاحبها القادر بالله بعد حصارها في شهر صفر ٤٨٧هـ / مايو عام ١٠٨٥م وكان الفونسو لاجئا لدى والده المأمون ، وقد أحدث سقوطها في أيدي القشتاليين دويا هائلا في أنحاء العالم الاسلامي وقد حاول المرابطون والموحدون استردادها ولكن جهودهم المتواصلة أخفقت وأصبحت هذه المدينة قاعدة هامة للقشتاليين.

أسهمت طليطلة في الحركة الفكرية في الاندلس إسهامًا بارزًا، فقد كانت الحياة الفكرية فيها خصبة وثرية لمكانتها كمركز علميً مهم افرز جماعة من العلماء كانت لهم إسهامات في شتى العلوم ، نزحوا بعد سقوطها في أيدي الأسبان إلى مدن الأندلس واستمروا في عطائهم الفكري .

ومن اهم معالمها ساحة ثوكودوبير (اصله العربى سوق الدواب) وهو الساحة الرئيسية للمدينة وسوقها في غابر الأزمان وما زال يمثل قلب المدينة ، ومن أهم المساجد الباقية الى اليوم مسجد المردوم وهو الآثر الوحيد الباقي من مساجد طليطلة اذ تحولت جميعا إلى كنائس فى نهاية القرن العاشر بعد أن استباحها الفونسو السادس في عام ١٠٨٥م ، ومن المعالم الاخرى متحف سانت كروثو او الكاثار (القصر)، وتحوي متاحفها الدرر النفيسة من تماثيل الحجر والمرمر والقاعة البلورية التى تزين جدرانها عبارة (لا غالب إلا الله) وعلقت في خزائنها الشفافة ملابس الملوك المسلمين الذين حكموا الأندلس.

النشاط التجارى والصناعى بالاندلس على مر التاريخ

كانت الأندلس منذ الفتح حتى سقوط غرناطة، دائمة الرواج التجاري والصناعي على الرغم من فترات الاضطرابات التي تعتريها من حين لاخر ، نظرا لموقعها الجغرافي بين البحر والمحيط وثرائها من الموارد ، وقوتها في كثير من العهود ، كما شكلا لها ثقلاً إقتصادياً انضمامها الى المرابطين والموحدين بإمتداداتهما الكبيرة فى افريقيا وكانت لهم سيطرة كبيرة على معابر التجارة الافريقية وكذا المتوسطية فى اطار سيطرة العالم الاسلامى على مسار التجارة الدولية.

وأهم صناعات الاندلس الجلد والخشب والأسلحة وضرب العملة وصناعة الخمور والسكر والزيوت والصابون، وصنائعة المعادن مثل الذهب والفضة والحديد والرصاص وصناعة الزجاج والزئبق والرخام والكُحْل والكبريت الأحمر ، والحياكة والخرازة والنسيج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس وآلات الخيل وسرجه والصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم ، وتصدر منها الجلود والفخار والزجاجيات ومَبْرِيات الخشب وأدوات الموسيقى والمصنوعات المعدنية والبسط والورق والكتان والحرير، ومواد الصباغة مثل الزعفران.

ومن اسباب نجاح النشاط التجارى إتسام العلاقات التجارية بثقة كبيرة، إذ كانت المعاملات تنبني على رسم يكتب ؛ وكذا إعتناء الأندلسيون بمراقبة الأسواق وجودة السلع والأطعمة ودقة الموازين وتنظيم المهن ، وقد أعلت فى هذا الاطارمن قدر وظائف المراقبين (الحسبة وصاحب السوق وصاحب الشرطة) واعتبروها من وظائف الدولة الكبرى، واختاروا لها الأكفاء من ذوي الورع ، ومن الأدلة على الأهتمام بالنشاط التجاري كثرة كُتب الحسبة واعتبار القائمين عليها من ذوي المناصب العليا في الدولة ؛ وأدت دقة العمل فى الاسواق وعدالة النظام الى وفود كثير من التجار الاجانب ، فيخبرنا أبو حيان عن قدوم التجار "الملفيين" إلى قرطبة سنة ٩٤١/٣٣٠، وأن قدومهم أصبح عادة متبعة([٢٢]) كما وفد العمال الاجانب فيخبرنا صاحب البيان أن المستنصر استقدم صناع

[٢٢]) أبن حيان، المقتبس ج، ٥، المعهد الإسباني للثقافة- مدريد، كلية آداب الرباط، ص ٤٧٤- ٤٧٨ .

الفسيفساء من الروم لترصيع الجامع الكبير سنة ٩٦٥/٣٥٤([٢٣]) .

وطبق الاندلسيون نظام التخصص فى العمل والتجارة وقسمهم المؤلف المجهول كالاتى :

مهن موالى الحواضر :

اشتغلوا ببعض المهن والتجارة وتقديم الخدمات، فمن صنائعهم الحياكة والخرازة والنسيج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس وآلات الخيل وسرجه ، والصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم ، وكانوا يتجرون في النعال وحياكة الجلاليب واللحم ، أما مجال الخدمات فتمثل في ضرب الطبول والبنود والقيام بالمساجد والآذان ورصد الوقت ودفن الموتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلا وحراسة الفنادق وحمل السلع من بلد إلى بلد .

مهن من أسلم من المعاهدة (النصارى) :

فمن كان من البادية اكتسب البقر والغنم واشتغل بالحرث وتربية النحل بينما إشتغل أهل الجبال منهم بالغرس فى الجنات ويرعون أشجار الفاكهة ويقطعون الخشب ويصنعون الفحم ، ومن ولي البحر منهم امتهن الصيد وجلب الحوت والسردين وصناعة السفن وآلاتها .

مهن من أسلم من اليهود :

فقد امتهن خياطة الملف والثياب وضفر القيطان ونسج العُقُـل والقلنصوات وصبغها والحجامة والدلالة في الأسواق و إصلاح النعال المخروزة ، أما الموالي منهم، فقد اشتغلوا بصناعة الصابون والفانيد وتشبيك الفداوش والشعرياء والترد والمقروض، وتسفير الكتب وتزويق الخشب وتركيب المناسج وضرب الدينار والدراهم وحلي النساء وفرط الجمان وخدمة الزجاج وتصفية المعادن وصناعة القدور ، وتاجروا في الحوت والشحوم والأدوية والأعشاب والصوف والكتان وآلات الطرب والحلي ومواد التغذية ، ومن الخدمات التي كانوا يقومون بها، طبخ الأخباز والإسفنج والشواء وعصر الزيت وحملها وتخليص الرباع وتزليجها وخدمة الحمامات وسقاية الماء وكراء الأواني .

مهن النساء :

كن يعملن في الصناعة وكما يقول ابن حزم فمنهن " الطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصانعة في المغزل والنسيج" .

أخلاقيات الامة الاندلســــــــــــــية

وانجذاب الاوروبيين للتعلم والاقامة الامنة

كانت اخلاقيات الامة الاندلسية النابعة من مكونات حضارتها وقيم دينها وبيئتها وثقافات عناصرها العرقية راقية لا تمييز فيها ولا عنصرية تتعايش مع الاخر وتتقبله جمعت بلا تناقض بين الدين والدنيا وأعلت من قيمة العلم ومكانته ؛ فكان الدين من العلم والعلم من الدين ، وهذا عبقرية حضارة الاسلام العابرة للاعراق والثقافات فلم تختلف عنه منارته فى الاندلس ؛ التى نوه بيرك بتركيبتها الاخلاقيات فيقول " ساد التسامح وألالفة والتعايش بين اهل الاندلس من مختلف الاصول والديانات عربا واسبانا ؛ مسلمين ومسيحيين ويهودا ويرجع هذا الجو الايجابى الى خُلق الاسلام وعدله ، ويُضيف أن الاناشيد الاسبانية القديمة وثقت اخلاقيات هذه الامة ووصفت العرب بأنهم خصوم شرفاء يحترمون تعهداتهم " ويضيف د. جوستاف لوبون الى ذلك فيقول " كان العرب يتفوقون على النصارى خُلقا وعلما وفى مجال الصناعة والمهن ، وتحلوا بالكرم والاخلاص والرحمة والالتزام بالكلمة واحترام العهود وهو ما لا تجده لدى غيرهم ، وان تمسكهم بالوفاء بالعهود يؤدى الى تحملهم كثير من الشحناء والمبارزة ، ومن

---

[٢٣]) إن إتساع مملكتا المرابطين والموحدين، التى أمتدت من الأندلس عبر معظم شمال افريقيا واجزاء من جنوب الصحراء ضمت معابر تجارية هامة منها معابر الذهب القادمة من غرب افريقيا ؛ فقد سيطروا على موانئ منتشرة من فالينسيا إلى طرابلس فى عهد الخليفة عبدالمؤمن ١١٣٠-١١٦٣، كما تحكمتا بالمعابر البحرية الحساسة في جبل طارق ، وساهم تعاون الموحدون مع الأيوبيين فى مصر فى السيطرة على الطرق الرئيسة المتوسطية ، وكان لهذه الدول المغاربية ثقلاً إقتصادياً لا سابقة له فى عالم البحر الأبيض المتوسط حتى إنتشر تقليد دينار المرابطين الذهبى (مرابطون **Murabituns**) فى أسبانيا المسيحية وجنوب أوروبا.

سماتهم ايضا التسامح العظيم والرحمة بالضعفاء والرفق بالمغلوبين ؛ وكثير من هذه الخلال وعلى رأسها الفروسية اقتبستها اوروبا من الاندلس عبر اسبانيا ، وان روح التسامح التى تحلت بها الاندلس وفرت لاساقفة الروم ومطارنة اللاتين من رجال الدين المسيحى الحماية وعصرا من الدعة والطمأنينة لم يعرفونه من قبل" ، ويستطرد " وقاموا ببناء الكثير من الكنائس وعقدوا مؤتمراتهم الكنسية فى اشبيلية عام ٨٢٢ م وكذلك فى قرطبة عام ٨٥٢م ، فى اطار الحرية الدينية التى كفلها لهم المسلمون " (٢٤).

كانت الاندلس البلد الوحيد فى اوروبا الذى تمتع فيه اليهود بحماية الدولة ورعايتها فى اطار الامن والحرية التى كفلها الاسلام لاهل الذمة فكثرت اعداد الوافدين منهم بعدما افتقدوا الامن والحرية فى سائر اوروبا (٢٥) ، كما كانت الاندلس ملاذا للاسبان المعارضين الفارين من بلادهم لاسباب سياسية طلبا للامن والامان سواء كانوا أفرادا او ملوكا ومن بينهم سانشو ملك ليون الذى آواه عبد الرحمن الناصر بعد فراره من اخية الذى ازاحه من عرشه ؛ كما لجأ الفونسو السادس ملك قشتالة الى المأمون بن ذى النون امير طليطلة هربا من اخيه سانشو الثانى الذى استولى على عرشه ، ومن غدر هذا الملك انه بعد ان إسترد عرشه بعد وفاة اخيه انتزع طليطلة من القادر بن ذى النون الذى احسن والده اليه وأواه فى بلاطه (٢٦) وشن حملات صليبية متتابعة على دويلات الاندلس فى تبنيه لاستراتيجية قوية للاسترداد.

إجتذب هذ المناخ طالبى العلم من الاسبان والاوروبيين لتحصيل العلوم التى تحظرها الكنيسة فى بلادهم ؛ فأقبلوا على الاندلس لتحصيل العلوم الحديثة بعيدا عن تضييق الكنيسة ؛ ويؤكد" بيرك " توافق الاسلام مع العلم والعلماء فيقول "حيثما وُجد الاسلام يوجد حب المعرفة لغياب عقدة العداء بين العقيدة والعلم " ، ومنذ عام ١٢٥٥م زاد تدفق طالبى العلم بعد تخلى الكنيسة عن عدائها للعلوم ونقلها عن المسلمين فزادت اعداد الوافدين لنقل العلوم التى كانت محتشدة فى الاندلس(٢٧) ؛ ونعت الرحالة الأوربيون الذين زاروا مناطق "الموريسكيين " maures فى تطوان بالمغرب بعد الخروج من الاندلس بأنهم ظرفاء متحضرين متسامحين مع المسيحيين لطفاء معهم .

إقتباس اوروبا التراث العلمى للحضارة الإسلامية

حركة الترجمة الاوروبية للعلوم العربية

ان نفائس الكتب تصبح عديمة القيمة ان لم تُتِداول كما انها تفقد فعاليتها إن بقيت فى لغتها الاصلية وتقل قيمتها لانعزالها ومحددودية الاطلاع عليها ، والترجمة هى المفتاح لتداول المعرفة على نطاق واسع واداة لإحياء الثقافات ووسيلة لإزدهارها ؛ فـ بالترجمةا استنقذ العرب الثقافات القديمة من الاندثار عندما قاموا فى العهد الاول لامبراطورية الاسلام عهد بنى امية باول حركة ترجمة كُبرى فى التاريخ لنقل معارف الامم القديمة فى اليونان والهند وفارس وغيرها التى مهدت الطريق للحضارة العربية الاسلامية .

وعلى غرار حركة الترجمة العربية الأم قامت حركة الترجمة الاوروبية الابنة ، فقامت المراكز الاوروبية فى كل من اسبانيا وجامعة طولونيا "بايطاليا" وصقلية على نحو مماثل باكبر حركة ترجمة فى العصور الوسطى لنقل العلوم من العربية ،

وقد مرت تلك العملية بالمراحل التالية :

---

[٢٤])حضارة العرب صـ ٢٨٢.

[٢٥]) حضارة العرب صـ٢٧٧ ـ ٢٧٨ـ ٢٨٢ .

[٢٦] (Dr Lea , History of Inquisition In Spain -- v.i.p٦٢,٦٤,٥١ نقلا عن نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين صـ٥٥و٦٩و٧٢ ـ محمد عبدالله عنان.

[٢٧])تحررت الكنيسة من العداء للعلوم على يد احد الاسبان الشماليين من تلامذة ابن رشد فى١٩مارس من هذا العام بسماحها بادراج مؤلفات ارسطو الى البرامج الدراسية " المصدر عندما تغير العالم ـ صـ٥٠ ـ صـ ٦٨ .

المرحـــــــــــــــــــــلة الاولى

القرن الثامن وحتى منتصف القرن ١١م

وتقع بين سنة ٧١١م وحتى منتصف القرن ١١م ، وهى فترة احتكاك الاوروبييون بالمسلمين خلال التغلغل العابر لجيوش المسلمين فى اوروبا او اقامة عناصر اسلامية فيها ؛ وخلال هذه المرحلة اقتبس الاوروبيون العديد من مؤثرات الحضارة الاسلامية ؛ وقامت مدرسة " سالرنو" بترجمة اعمال بيت الحكمة ومدرسته الطبية فى القيروان بتونس التى كانت بفضل رعاية حكامها الاغالبة فى الفترة من ٨٠٠ – ٩٠٩ م مركزا ثقافيا للجزء الغربى من العالم الاسلامى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، و بذلك كانت مدرسة " سالرنو"، اللبنة الاولى لحركة نقل العلوم العربية الى اللاتينية .

بالرغم من ان اعمال الترجمة كانت محدودة فى البداية وغير منظمة الا انها إزدادت كثافة فى القرن ١٠ الميلادى مع ذيوع صيت العلوم العربية بفضل جامعة قرطبة الاسلامية التى أصبحت بالنسبة لاوروبا اعظم منهل للعلوم والمعارف فى ذلك الوقت ؛ وممن ساهموا فى دفع عملية الترجمة فى تلك المرحلة وبالتقريب عام ٩٥٣م الراهب الفرنسى " جربير" Gerbert of Aurilac الذى قاد حملة ضد عداء الكنيسة للعلوم الطبيعية بعدما ادرك اهميتها بفضل احتكاكه بالاندلس ، وكانت لجهوده سواء فى الترجمة او للتصدى للكنيسة الفضل الاكبر فى انطلاق عملية امتصاص العلوم العربية وإن كانت لم تنجح فى دفع الكنيسة للتراجع كلية عن موقفها من العلوم والنقل عن العرب حتى ذلك الحين .

وساعد تساقط مراكز الثقافة الاندلسية فى ايدى الاسبان على حصولهم على كنوز الكتب العربية مما وفر معينا لا ينضب للترجمة ؛ ويقول بيرك عن سقوط توليدو (طليطلة) وكنوزها من الكتب " ان لحظة تاريخية مذهلة كانت ضربا من الحظ دفعت عملية النقل والترجمة بقوة ؛ اذنت باعادة اكتشاف المعرفة عندما سقطت قلعة توليدو العربية عام ١٠٨٥ م بكنوزها الادبية فى ايدى الاسبان الذين وجدوا فى تلال المخطوطات كنزا ادبيا كان ابعد ما يكون عن كل الاحلام " ، علاوة على ما سبق وما لحق ان جمعوه من المناطق العربية الاخرى التى تلاحق سقوطها فى ايديهم ".

المرحـــــــــــــــــــــلة الثانية

عصر الترجمة الذهبى

وتركزت بشكل واسع فى صقلية التى تعهد ملوكها المتعاقبين ميراثها من الحضارة الاسلامية ، وتعهدت طليطلة فى الاندلس عملية ترجمة واسعة على نحو مماثل ؛ وقد أستغرق هذا العصر الذهبى ألفترة من منتصف القرن ١١م وحتى منتصف القرن ١٣م ؛ ففى صقلية أطلق وليم الفاتح عام ١٠٧٦م عملية الترجمة عقب استيلائه علي البلاد من أيدى العرب مدفوعا بشغفه واحتكاكه القوى بالحضارة الاسلامية القائمة فى صقلية ؛ وسار على نفس الدرب ملك صقلية روجر الثانى (١٠٩٦- ١١٥٤م) الذى سار على درب ملوك المسلمين فى رعايتهم للعلم فحشد العلماء المسلمين فى بلاطه ومن ابرزهم " الشريف الادريسى " اعظم الجغرافيين فى العصور الوسطى ، وأضاف الامبراطور فريدريك الثانى ١١٩٤- ١٢٥٠م وريث العرش الصقلى والامبراطورية الرومانية المقدسة زخما الى حركة الترجمة مدفوعا بميراثه من الحضارة العربية بحكم ما نشأ بينه وبينها من روابط أثناء حملته الصليبية على الشام (٢٨) وما لها من نفوذ قديم في صقلية ، علاوة على تمكنه من اللغة العربية .

ومن الذين ساهموا فى عملية الترجمة " شارل انجو " شقيق الملك لويس التاسع ملك فرنسا الذى أمر بعد تربعه على عرش صقلية عام ١٢٦٦ م بترجمة المؤلفات العربية على أيدى مترجمين عرب ، كما قامت جامعة " بادوا " فى شمال ايطاليا

---

[٢٨]) توج ملكا على صقلية عام ١١٩٨ م ، وعلى المانيا عام ١٢١٥ م ثم امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٢٢٠ م والت اليه القدس بعد زواجه بـإيزابيلا وريثة جون اوف بريين (Gohn Of Brienne) ملك القدس وكان هذا سببا في مشاركته فى الحروب الصليبية ؛ وكان فريدريك يُجيد اللغة العربية وعلى معرفة كبيرة بالاسلام وكانت له عادات اسلامية تخالف المسيحية كتعدد زوجاته وعزلهن فى حرملك منفصل على الطريقة الشرقية ؛ مما عرضه للاتهام فى دينه وانزال عقاب الكنيسة به مرتين ، و قد استطاع ان يتحلل من العقاب فى المرتين الا ان هذه المخالفات استعدت عليه البابا جريجورى التاسع فشن عليه حربا مقدسة فى صقلية لم تنجح ، ولعل ميله للاسلام كان السبب فى قبول الملك الكامل ملك مصر اجراء صفقة مهادنة معه قبل نزوله الشام وافق بمقتضاها على تسليمه القدس وديا حتى يفرغ للصراع مع اخيه المعظم عيسى سلطان سوريا ، ولكنه لم يتراجع عن الصفقة حتى بعد موت اخيه وفاجأ الجميع مسلمين وصليبيين وقبل وصول فريدريك بعقد هدنة عشر سنوات يتخلى فيها طواعية عن القدس فى اطار معاهدة يافا الموقعة في فبراير ١٢٢٩م ودخل فريدريك القدس في ١٨ مارس ١٢٢٩ ، المرجع :

Chronicles of The Crusades ;P ٢٥٨ – ٢٦١ ; by Elizabeth Hallam

بدور هام فى عملية الترجمة ، وفى طليطلة اسس " ريموند " اسقف " توليدو" عام ١١٣٥ م رابطة المترجمين الحرة التى بفضلها تنامت عملية الترجمة ، وكانت مجموعة " دومنجو جونزاليز " رئيس شمامسة أشبيلية اكثر المجموعات انتاجا ؛ وكان الايطالى جيرار الكريمونى (١١١٤- ١١٧٨ م) أبو حركة الاستعراب أعظم مترجمى العربية فى تلك المرحلة بعد ان استقر فى طليطلة بعد زوال الحكم العربى عنها .

المرحـــــــــــــــلةالثالثة

طُليطلة كمركز للترجمة

استغرقت تلك المرحلة قرنين من الزمن من منتصف القرن ١٣ م وحتى منتصف القرن ١٥م ، قامت فيها طليطلة بدور رئيسى بعد ان تحولت الى مركز للترجمة اضافت زخما لعملية الترجمة ، كما كان تأسيس الفونس الحكيم جامعة أشبيلية لتعليم العربية واللاتينية علامة بارزة فى هذه العملية ، واشترك بعض العرب واليهود فى اقامة مدرسة للترجمة فى "مونبليه" .

امتصاص اوروبا للعلوم العربية

حصيـــــــــــــــلة الترجمة

أسفرت حركة الترجمة عن ذخيرة هائلة من المعرفة فى مختلف مجالات العلم الطب، الفلك، التنجيم، الصيدلة، الفسيولوجى، علم النفس ،الاحياء ، علمى الحيوان والنبات ،التعدين والبصريات ، الكيمياء والفيزياء ، الرياضيات ، الجبر، الهندسة ،الحساب والمثلثات ،الموسيقى ، الارصاد ، الميكانيكا ، الهيدروستاتيكا ،الملاحة البحرية ، التاريخ ، وقد بلغ عدد الكتب المترجمة من العربية حوالى ٣٠٠ كتاب فى مجال الطب وحده ؛ منها مائة كتاب منقولة عن اليونانيين ، وقد تركت الترجمات اثارا ايجابية هائلة على نهضة اوروبا ويقول " جيمس بيرك " " ان هذا الكم الهائل من المعرفة لو كان استوعبه الأوروبيون لكان كافيا ليحدث تحولا حاسما فى تاريخ نهضتهم " (٢٩).

وقد استغرق امتصاص اوروبا للعلوم العربية واستيعابها القرنين ١٥- ١٦م ، وهى الفترة التى وضعت اوروبا على طريق النهضة ثم الانطلاق على طريق النهضة الحديثة على نحو ما فعله العرب من قبل .

مكانة اللغة العربية كلغة للعلوم

بدأ نفوذ اللغة العربية منذ ان إعتمدتها الامبراطورية الاموية فى دمشق عام٧٠٠م لغة رسمية وحيدة فى دوواوين الحكومة ، واكتسبت هذه اللغة نفوذا كبيرا خارج موطنها الاصلى مع الفتوح العربية وانتشار الاسلام فى كافة الارجاء فتعربت شعوب بأكملها فى اسيا وافريقيا وكتب بها كل علماء المسلمين فى فارس وأسيا الوسطى وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس قرطبة وطليطلة وغرناطة بالاندلس ومراكز العلم الاسلامية فى افريقيا تمبكتو وجنى.

وزاد اللغة العربية نفوذا ؛ محوريتها فى عالم المعرفة كوعاء لتأليف الكتب حتى اقبل على تعلمها كل من رغب من الاجانب فى إقتباس العلوم العربية فإكتسبت العالمية ، ويقول " جورج سارتون " أنها كانت فيما بين القرن ٨ م وحتى نهاية القرن ١١م لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، وكل من أراد أن يُلم بثقافة العصر كان ينبغى عليه أن يتعلمها " (٣٠) ؛ فتعلمها الاوروبيون حتى اتقنها الكثيرون ؛ ويحدثنا " دوزيه " في كتابه " مسلمو الأندلس " عن الانتشار الواسع لتعلم العربية بين الاوروبيين حتى وان جاء على حساب تعلمهم اللغة اللاتينية مما اثار اسى وغضب الكاتب الأسباني " الفارو " فإنتقد تبحر الأوروبيين في دراسة وتذوق الآداب العربية وبراعتهم فى كتابة العربية نثراً وشعراً كأبنائها اعجابا بتراث العرب فى الوقت الذى نسوا فيه لغتهم " ؛ وممن عرف العربية وقرأ بها من العلماء الاوربيين بريستلى عبقري الكيمياء الذى كان يراجع الكتب العربية بلغتها الاصلية ، و " روجر بيكون " الذى تعلم العربية ونقل من كنوز العرب الكثير.

---

[٢٩]) عندما تغير العالم ـ صـ٥٠ جيمس بيرك.

[٣٠]) الحضارة الاسلامية ص ٣٠ جلال مظهر.

تأثير الحضارة الاسلامية على عالم اليوم

كيف غير المسلمون العالم

كان لابد وان يكون لتراث بعمق الثقافة الاسلامية افرازاته على الحياة اليومية لاجيال فقد إمتدت اثاره الى عالم اليوم ؛ وقد سجلت صحيفة الاندبندنت تقريرا فى هذا الصدد نُشر فى ١١ مارس ٢٠٠٦ م بعنوان " كيف غير المسلمون العالم " اوردت فيه إسهامات المسلمين وتأثيرهم الذى لا حدود له على الحياة اليومية لعالم اليوم على النحو التالى :

" فالقهوة التى يبدأ كل فرد فى العالم يومه بإحتسائها ؛ عربية المنشأ إكتشفها خالد عندما لاحظ تأثيرها على اغنامه ، ونقلتها تركيا الى انجلترا عام ١٦٥٠م عندما أُفتتح اول مقهى فى لندن للقهوة ، واشار التقرير الى اختراع ابن الهيثم للكاميرا (اصل اسمها العربى القمرة اى **الحجرة) وهو من نقل الفيزياء من الانشطة الفلسفية الى العلم التجريبى .**

وفى مجال الطيران اشار التقرير الى سبق الاندلسى عباس ابن فرناس الاخوين رايت فى محاولة ألطيران ، والى فضل العالم العراقى الاصل على بن تافى الملقب بالطائر الاسود لاختراعه النظارة المكبرة ؛ وهو الذى وصف وجبة متكاملة للصحة الجسدية تبدأ بالشوربة ثم اللحوم او الاسماك وتنتهى بالفاكهة ، كما اشار الى اختراع المهندس الجذارى اول آلة لنقل المياة بغرض الرى وتضمن كتابه رسوم ميكانيكية للصمامات والمكابس التى تُستخدم فى الساعات الميكانيكية التى تعمل بالماء و هى التى جعلته ابو الروبوت (الانسان الالى) ".

" و اخترع مسلمو ايران عام ٦٣٤م طاحونة الهواء التى استخدمها العرب فى الصحراء قبل ان تعرفها اوروبا بخمسمائة عام ، وإخترع العالم الزهراوى العديد من ادوات الجراحة التى ما زالت تُستخدم حتى اليوم .

ويُشير التقرير الى ريادة تركيا لتطعيم الاطفال الذى نقلته زوجة السفير الانجليزى الى بلادها ، وإقتباس الصليبيون الاغتسال بالصابون وصناعته عن المسلمين الذين كانت النظافة والاغتسال مبدأ هام لديهم ، وان خبرة المسلمون فى هذا المجال جعلت البلاط الانجليزى يُعين عام ١٧٥٩م مسلما هنديا يمتلك محلا لبيع مستلزمات النظافة فى مدينة بريتون للقيام بمتطلبات النظافة للملكين جورج ووليام الرابع ، كما اقتبست اوروبا صناعة الغزل عن الشرق".

" ويشير التقرير الى ان المسلمون هم اول من استخدم نترات البوتاسيوم فى الاغراض العسكرية فى حربهم ضد الصليبيين مثل الصواريخ ذاتية الحركة (المنجنيق) والطوربيد البحرى .

وفى مجال الكيمياء اشار التقرير الى فضل جابر بن حيان ابو الكيمياء الحديثة فى اختراع العديد من العمليات الكيمائية وما تركته اعماله من اثر فى تاريخ العالم ، وان المسلمون هم اول من استخدم الشيك (مشتقا من كلمة الصك) فى المعاملات التجارية ولهم اسهاماتهم فى مجال البناء فهم اول من وضع نظاما للارتفاع وتضخيم المبانى (٣١)" ، ونسى التقرير الاشارة الى صناعة السجائر التى ابتدعها جنود الحملة المصرية على الشام فى عهد محمد على عندما قام جنود ابراهيم باشا بلف التبغ فى لفائف لعدم وفرة الغليون .

سبق ابن حزم اكتشاف استمرار اشراقة الشمس على جزء من الارض قبل ان يكتشفها جاليليو بخمسمائة عام .

ومن اختراعات المسلمين التى ابهرت اوروبا الساعة المهداة من هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا فى اوائل القرن ١١م ؛ والتى ادهشته وحوارييه البرابرة على حد وصف لوبون (٣٢) ، و نُذكر بجهاز العد الحسابى Abacus وجهاز الاصطرلاب لقياس المسافات بين الكواكب وتبيان مواقعها ، ودولاب نقل المياة التى استخدمها الاندلسيون فى الرى وهى من اسباب تفوقهم الزراعى ؛ التى نقلها عن الاندلس " جيربرت أوف اوريلاك " Gerbert of Aurilac (تولى فيما بعد كرسى البابوية باسم سلفستر الثانى ٩٩٩ -١٠٠٣م).

---

[٣١]) روزاليوسف العدد ١٨٠ فى ١٢ مارس ٢٠٠٦ .
[٣٢]) حضارة العرب صـ ١٧٢.

فضل حضارة الاسلام على أوروبا

ما بين النُكران والعرفان

كان وضع اوروبا الحضارى فى العصور الوسطى مذريا على حسب ما اوردناه آنفا ولما كنا فى معرض نُكران اوروبى لفضل الحضارة الاسلامية عليهم فى مجال العلم يستوجب الامر وقفة لاعادة التذكير بحالة اوروبا الثقافية قبل احتكاكها بالمسلمين فى المشرق والمغرب والاندلس لجمع صورة شاملة (٣٣)فـ " هونكه " المؤرخة ألألمانية تقول." أن المدنية الأوروبية لم يكن لها وجود قبل إحتلال العرب للأندلس ؛ ويقول جورج كيرك " بلغت الاندلس تحت يد العرب شأنا عظيما فاقت به أوروبا ، وان قرطبة كعبة الثقافة كانت أعظم منهل للعلوم لأوروبا التي كانت مدنها آنذاك بما فيها لندن وباريس مازالت على الهمجية "وكانت الاندلس صاحبة الفضل الأكبر في تقدم اوروبا التى عاشت حالة من التدني حتى القرن التاسع قبل إحتكاكها مع مسلمي الأندلس ، وبينما كانت الحضارة العربية قبلة ومنهلا للاوروبيين للحصول على المعرفة ، كان مسلموا الاندلس وهم يستشعرون قدر حضارتهم وسموها ينظرون بتدنى الى الاسبان ليس فقط لجهلهم الثقافى وإنما ايضا لقذارتهم وتدنى ثقافة النظافة لديهم على نحو ما كانت عليه سائر انحاء أوروبا ؛ وكانت غيرة الاسبان جلية من التفوق الاندلسى فى المجالات المختلفة خاصة مملكتا ليون وتافارى اللتين إعتمدتا على قرطبة فى تلبية احتياجاتها من الاطباء والجراحيين والمهندسيين والمعماريين وصولا الى مصففى الشعر على حد قول جيمس كيرك ، بينما لم يُخف أخرون اعجابهم بالحضارة الاسلامية فالفونسو العاشر ملك قشتالة الملقب بالعالم او الحكيم اقام صلات وثيقة بعلماء الاندلس وكان يُقدر علمهم ورفيع ثقافتهم وتأثر بمناهجهم ".

ولما حقق الاوربيون ثورتهم الصناعية وإنبهروا بإنجازاتها ، تملكتهم روح التعالى العنصرى وتبنوا فى القرن ١٨ سياسة الزهو العرقى وإلاعتزاز بالانتماء للهندوجيرمانية وإعلاء كل ما ينتسب لهذا العنصر الهندوجيرمانى Indogermanisch وثقافته ؛ وبالمقابل الحط بثقافات وأعراق الارض ، فتنكرت اوروبا المزهوة بتفوقها لافضال الحضارة الإسلامية أساس نهضتها ؛ وحاولت وهى فى خضم طمس كل الاثار الدالة على ذلك؛ التطاول على ابداعات هذه الحضارة ذاتها فأخذوا يكيلون للعرب الاتهام بأنهم هامشيون يعيشون فى ظلال اطلال الحضارات القديمة ؛ و هم ليسوا الا مجرد نقلة حضارات وليسوا لها مبدعون ؛ و يصف لنا دريبر " تحايل الأدب الأوروبى على طمس مآثر المسلمين العلمية الا أنه ككاتب منصف يرى " أن هذا الجور المبنى على الحقد الدينى والغرور الوطنى لايمكن أن يستمر إلى الأبد " .

وتصدت المستشرقة الألمانية " د. سيجفريد هونكه " لتلك المحاولات فتقول: " إن العرب لم يستنقذوا فقط علوم الإغريق من الزوال ، وإنما قاموا بتنظيمها وترتيبها ثم أهدوها إلى الغرب ومعها ما أسهموا به كمؤسسين للطرق التجريبية وأساليب البحث العلمى في مجالات العلوم والرياضيات والاجتماع ؛ بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات التي نُسب أغلبها لآخرين ؛ وآست هونكه لضياع حضارة الأندلس العظيمة بزوال حكم المسلمين ، فتقول " أن العرب جعلوا من الأندلس خلال مائتى عام بلداً عظيماً يقدس العلم والثقافة بعدما كان بلداً فقيراً مُستعبداً ؛ قادت فيهما الاندلس أوروبا إلى النور بعد تأخير طويل نتيجة عزلتها عن الإسلام " .

ومن المنصفين د لوبون الذى يشير الى التأثير السلبى لمعركة بواتييه (بلاط الشهداء)على مد الحضارة الاسلامية الى اوروبا فيقول " ان تلك الهزيمة التى ادت لانحسار المد العربى عن اوروبا حرمتها من اللحاق بنصيب من الحضارة الزاهرة التى نهلت منها اسبانيا (٣٤)" ، ويتآسى المفكر " كلود فارير" بقوله .. " في عام ٧٣٢ م حدثت فاجعة من أشأم نكبات الإنسانية في القرون الوسطى ، هى الإنتصار البغيض " لشارل مارتل " علي العرب المسلمين بقيادة " الغافقي " ، ففي ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون فغرق الغرب في الهمجية والتوحش ؛ ويكفي المرء أن ينظر الى الأندلس وحضارتها الخالدة ليستخلص ما قد عسى أن تكون عليه فرنسا لو دخلها الإسلام العمراني الفلسفي المتسامح " ، ويُقر يوسف هل بفضل الحضارة

---

[٣٣]) يصف " جيمس بيرك " بقوله " حال اوروبا فى العصور الوسطى بقوله " كم كان الاوروبيين فى العصور الوسطى قبل عصر " كوبيرنيكس " اغبياء اذ ظنوا ان الشمس تدور حول الارض وليس العكس ؛ ولو كان لديهم قدرا ولو ضئيل من الفهم لادركوا ان العكس هو الصحيح " - مستقبل ألحضارة صـ ٩٣- ٩٤ - يوسف كمال.. نقلا عن موجز تاريخ الشرق الاوسط لـ جورج كيرك ترجمة سمير الاسكندرانى- ونكرر وصف جوستاف لوبون وضع اوروبا الثقافى قبل مجئ العرب فيقول " لايمكن أن نتذكر قبل القرن ١٥م ؛ قبل التعرف على الحضارة العربية أن عالما أوروبيا قد ابتكر شيئا بخلاف ما أستنسخه من كتب العرب " ، وتقول المؤرخة ألألمانية " هونكه ".." أن المدنية الأوروبية لم يكن لها وجود قبل إحتلال العرب للأندلس

[٣٤]) حضارة العرب - صـ ٢٧٠ وصـ ٣١٧.

العربية على الحضارة الإنسانية عامة وبما قدمته للنهضة الأوروبية ركيزة الحضارة الغربية ام الحضارة الحديثة خاصة ، ذلك الفضل الذى لا يقل فى رأيه عن فضل الحضارات الأولى علي العالم.

ولم ينكر العديد من العلماء دور الاسلام كعقيدة فى تشكيل تلك الحضارة فيقول هل.. "لم يتهيأ لدين أن يحدث تغييرا سريعا ومباشرا حرك الدنيا سوى الاسلام ؛ ويكفى الحضارة الإسلامية فضلاً أنها أول حضارة عالمية انضوت تحت لوائها الإنسانية بمختلف الألوان والأعراق والديانات" ، وشاركة القول الفيلسوف ازوالد شبنجل فى كتابه " سقوط الغرب " الصادر عام ١٩١٧ بإمتداحه قدرة الاسلام على استيعاب كل الثقافات تلك القدرة التى كانت سبب نجاحه فيقول " لم يكن لغز النجاح الخارق للاسلام بسبب اندفاعه الحربى بقدر ما كان بسبب استيعابه كل الديانات ".

ويعقب "Philip hitti" على ما قدمته الحضارة الاسلامية للانسانية بقوله "لايوجد شعب ساهم فى تقدم البشرية فى العصور الوسطى مثلما ساهم به العرب والشعوب المتحدثة بالعربية "، ويذكر " جيمس بيرك " أن أديلارد ألانجليزى الذى تحصل العلم والمعرفة من سوريا وفلسطين وصقلية وجد كثير مما كان يبتغيه من العلم فى ألاندلس ، وانه إكتشف ألمزيد من العلم والمعرفة كلما توغل جنوبا عند العرب ؛ الذين بفضلهم تحرر من عقدة الخصومة بين الدين والعلم ، وأخذ عنهم المذهب العقلى والمدخل البحثي التجريبى للعلوم الطبيعية" ، ويستطرد بيرك "بأن علوم الاندلس فجرت ثورة معرفية وفكرية في أوروبا حتى صار تعلم اللغة العربية مطلب كثير من طالبى العلم لينقلوا من علوم العرب ؛ ومنهم " روجر بيكون الذى الذي تعلم العربية ونقل عن العرب الكثير كالمنهج التجريبى والإستقرائى أدوات التطور وقام بتدريس علوم الأندلس في جامعة إكسفورد ، كما ان سجلاته عن كشوف الاندلسيين فى الاطلنطى ساعدت كولمبس قبل رحلته الاطلنطية(٣٥)" .

[٣٥]) مستقبل ألحضارة صـ ٩٣ـ ٩٤ ـ يوسف كمال.. نقلا عن موجز تاريخ الشرق الاوسط لـ جورج كيرك ترجمة سمير الاسكندرانى.

الفصل الثالث
الامـــــة والجهـــــاد
فى منظومة الحضارة الاسلامية

هناك عنصرين من المفردات المُميزة لشخصية حضارة الاسلام وتختص بهما دون سائر الحضارات ؛ هما عُنصرا الامة والجهاد ، فهما من مقوماتها الشخصية ومتممات منظومتها التى لا يستقيم فهمها بدونهما ؛ فمضمون أُمة الاسلام يعنى الوحدة والتضامن بين أعراقها المختلفة من مشرق الارض الى مغربها فى اطار من وحدة الامة الاسلامية ؛ وحدة لا محل فيها للتمييز العرقى محكومة فى علاقة مكوناتها البينية ؛ بالتقوى بسموها الالهى وعدالتها وقسطها اى انسانيتها ومساواتها بين البشر بلا فضل لعربى على اعجمى بسبب العرق وانما بالعمل وهو التقوى .

ومن علامات رُقى هذه الامة انها ساوت بين أعضائها جميعا مسلم وغير المسلم تأسيسا على ما يجمعهم معا من اخوة فى الانسانية قبل ان تجمعهم اخوة العقيدة فالدين لله والوطن للجميع ، وهو اقرار بمدنية الدولة حسب المفهوم العصرى ؛ التى أخذ بها رسول الله(ص) فى ميثاق دولة المدينه عند قيامها ؛ وساوى فى الحقوق بين المسلمين وغيرهم من اهل الذمة الذين يعيشون بين ظهرانى المجتمع الاسلامى رغم الاختلاف العرقى والثقافى فما بالك بإخوة الدم والثقافة وان اختلفا فى العقيدة وهى حقوق لم تعرفها فى ذلك الزمان غير مجتمعات الاسلام .

وبتجاوزالاسلام للاعراق أصبح عابرا للقوميات وأصبحت حضارته اسلامية موصومة بدلالة انتمائها الاكبر "الاسلام" قبل ان تكون عربية ؛ فأصبحت اسلامية قبل ان تكون عربية النسب والانتساب وهو ما جعلها تقيم توازنا بين مكوناتها دون تمييز دفعا للتعصب وما يتطلبه من انسجام وتعايش وتسامح بين ابنائها يقبل فيه الواحد الاخر على اساس من التفاهم والتعاون ، فتشكلت بمفهوم الاسلام وسطية هذه الامة فى كل الامور بما فيها حضارتها بتعدداتها الثقافية التى توحدت من تاج محل المغولى الى حمراء الاندلس وما بينها من قطوف رائعه فى مختلف ارجاء عالم الاسلام فى مجال العلم والبناء والابداع الفنى.

ويقتضى تماسك هذا التراث العظيم فى اطار من وحدة الامة الدفاع المشترك عن مصالحها دون ان يتقاعس مسلم عن نُصرة مسلم اخر بروحه وماله وان بعُدت الشقة ، كما حُرم الاقتتال بين ابنائها الا لنُصرة المظلوم او رد الظالم عن ظُلمه ، وحضارة اليوم إقتبست مثل هذه المكونات بإقامة التحالفات العسكرية وتجمعات التعاون الاقتصادى لنُصرة بعضها البعض فى رد العدوان او لمكافحة الفقر والكوارث.

ومن هنا اصبح الجهاد ضرورة للدفاع عن تماسك الامة ووحدتها وعقيدتها واصبح عنصرا من عناصر هذه الحضارة ، وكان له فى بداية عهد الاسلام فضل انتشاره هو وحضارته ؛ تبادلا فيما بينهما بعد ذلك دورة تبادلية من النشأة والانشاء ، فالجهاد نشر الاسلام وحضارته على امتداد مساره واقام دولا افرزت نصيبها من العلم والعلماء فى اطار من حضارة الاسلام ؛ شاركت هى الاخرى (الدول)فى دورة الجهاد لنشر الاسلام ، والجهاد هو الذى دافع عن منارات الحضارة الاسلامية وحسم مصيره مصيرها ايجابا او سلبا ، ولذلك فالاسلام مشروع حضارى بدأ بإقرأ والسعى للعلم ولم ينتهى ، وسنعالج موضوعى امة الاسلام والجهاد بالفكر والمنظور التالى:

اولا : امــــــــــة الاســـــــــــــــــــــلام

ومفهوم الامة فى الاسلام لاينبنى على رابطة العرق او وحدة الدم وانما ينبنى على مفهوم نفسي قائم على التوحد فى اخوة تجب كل الحواجز والفروق العرقية واللغوية ، تتمثل قوته فى تحرره من العصبية قائم على تضامن ابناء الامة فى اخوة والفة صادقة فى اطار روحى مترابط يتجاوز حدود الوطن والجنس ؛ ويقول الكتاب الكريم فى سورة الانفال ٦٣اية " وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ؛ وهذا الرباط الروحى اسمى من تلك الروابط الفردية القاصرة ، وبمعنى أخر رابطة تجتث الوعى العرقى وعصبيته بين المسلمين ليتوحدوا تحت مظلة الجماعة بما يولد مجالا للوعى المشترك بدافع من فيض الايمان ؛ وهو أهم انجازات الاسلام على حد قول تونبى .

والتضامن اى الوحدة هى روح امة الاسلام ومضمون قوتها ؛ وهو تضامن يدعمه النص المقدس والاحاديث النبوية ، فالنص القرأنى يقول(الانبياء ٩٢) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) " ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

فَاتَّقُونِ (٥٢)(المؤمنون ٥٢) " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) (ال عمران ١٠٣) ، والحديث النبوى يقول " انما المسلمون أخوة فى توادهم وتراحمهم ؛ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى ".. فالمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعض ، وعلى هذا النحو يقول الحديث النبوى " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ..." .

ومفهوم الامة بهذا الشكل يشكل مضمون قوة وتماسك يفضى الى التضامن والتكافل بين عناصر عرقية وثقافات مختلفة تجمع مفرداتها فى وحدة واحدة تندمج فى كيان واحد لاينفصل يجتمع فى تماسك ووحدة عابرة للاعراق ؛ هو جوهر روح أمة الإسلام ، وإقتضت وحدة الامة توازنا فى علاقات اطرافها البينية مثُل فى وسطية منهجها وإعتدال أطرها (السياسية والاجتماعية والاقتصادية) وتسامى جوهرها الاخلاقى (الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) فأصبحت خير أمة أُخرجت للناس كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠).

والامة هى القبلة التى يلوذ بها المسلمون وقت الشدة إستنهاضا لتضامنها ووحدتها؛ فإجتماعها على امر ما لهو من الحكمة ؛ يقوى به الفرد ويطمئن لما فى الاجماع من خير ؛ لقول الرسول الشريف " لاتجتمع امتى على ضلالة " فما اجتمعت عليه لابد وان يكون حقا .

وسمات هذه الامة كما اشرنا اليها اضفت صلابة وقوة على جهاد المجاهدين الأوائل رغم قلتهم فجعلت منهم قوة لاتقهر أجهزت فى سنوات قليلة على أعتى إمبراطوريتين فى العالم القديم الفرس والروم وخلصت شعوبا مقهورة من ظلمهما وجورهما .

وحدة الامة الاسلام بمشمولها من عناصر من غير المسلمين

ووحدة أمة الاسلام لاتعنى ان تكون وحدة بين المسلمين دون غيرهم ؛ وانما وحدة كافة طوائفها ، فالامة تضم بين جنباتها طوائف من غير المسلمين يتحدوا معا فى العرق والثقافة ويختلفون فى العقيدة فلا يمكن اسقاطهم من عضويتها ، فهم جزء من نسيجها وتراثها لا فرق فى ذلك بينهم وبين المسلمين ، فاختلاف العقيدة لا يلغى الوشائج المشتركة ووحدة الوطن وحقوق طوائفه كافة فيه والمساواة بينهم ؛ فألاسلام قرر لهم المساواة فى الحقوق والواجبات المدنية مع المسلمين ، تأسيسا على حق المواطنة للجميع وبالجميع ممن يعيش بين ظهراني الامة ، فإرتباط عناصر الامة مسلميها مع غيرهم يمتد من الماضى الى المستقبل فى وحدة للولاءات والامال والطموحات فى رباط ابدى لا ينفصم .

والرسول عليه الصلاة والسلام اقر بذلك فى وصاياه المتكررة والمشددة للقبط قبل الفتح الاسلامى لمصر مستنهضا لدى المسلمون العرب روابط العصبية معهم منوها بالفوائد التى يجنونها من التعاون معهم تشجيعا للمسلمين على حُسن معاملتهم فقال" استوصوا بالقبط خيرًا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدوّ " ، كما يقول" إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم ؛ فاستوصوا بهم خيرًا فإنهم قوّة لكم وبلاغ إلى عدوّكم بإذن الله " ، وفى حديث اخر سألوه فقال " قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوّكم وأعوانكم على دينكم " ؛ وكلمتا اخوال واصهار اقرار بوحدة العرق وبالوشائج المباشرة التى تربط نبى الله (ص) شخصيا بالقبط وهى مؤكدة وظاهرة من خلال انتماء جدته الكبرى السيدة هاجر ام العرب وزوجته مارية القبطية عليهما السلام ،أما بقية العبارات الواردة فى الحديث فتشير للتعاون والتضامن والعمل المشترك مع الاقباط لصالح أمة الاسلام .

وقد أدهش الأوروبيون معدن أمة الإسلام ومضمون روحها ، فعبر "Roy" عن ذلك بالسرعة التى بنى بها المسلمون إمبراطوريتهم الضخمة فى وقت قصير ، وهى التى تجاوزت فى إتساعها الامبراطورية الرومانية رغم الفارق الزمنى الذى استغرقه كليهما فى بناء الامبراطوريتين فما حققه الروم فى قرون حققه العرب فى حقب معدودة رغم امكانياتهم المادية والبشرية المحدودة بالمقارنة بالروم ، وأرجع Roy الفضل فى ذلك الى معدن أمة الإسلام وقوة مضمونها (٣٦) ؛ وتساءل لو أدرك المسلمون قوة وحدتهم لأصبحوا قوة لايستهان بها فى خدمة التقدم والبشرية" ، وفى ذلك يؤيده " هارولد سميث " بقوله " لو أمكن إطلاق

---

[٣٦]) الحضارة الاسلامية ص ٣٠ جلال مظهر.

التماسك الاسلامى عبر الحدود لأمكن أن تصير وحدة الأمة قوة إيجابية فى العالم " ، وقد المح توينبى الى ايجابية مضمون الاخوة والجماعة ومشموله القائم على عدم التمييز بين الاعراق والالوان وهى عناصر يعتبرها توينبى من اهم انجازات الإسلام فيقول " إن الفاتحين العرب زوجوا بناتهم من السود الذين أسلموا ؛ والمسلمون اليوم جميعا زنوجا وعربا وهنودا يتعبدون معا فى إطار أى جماعة إسلامية فى أى مكان فى العالم على قدم المساواة وهو ماليس موجودا بين المسيحيين(٣٧) .

اوضاع غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى
(اهل الذمة - التوصية المشددة بالقبط)

من الطبيعى فى ظل ضمانة الاسلام لحرية العقيدة والعبادة لغير المسلمين ان يبقى عديد من الناس فى البلاد المفتوحة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا على على ما يعتقدون دون أن يمُسهم ضُر تحت حكم الاسلام ونتيجة لذلك نرى حاليا ديانات غير سماوية ما زالت قائمة فى المجتمعات العريقة فى الاسلام بالعراق وايران واندونيسيا وماليزيا وغيرها، كما بقيت كتلة ضخمة من الملايين على وثنيتها فى الهند التى حكمها المسلمون فترات طويلة ، فـلا إكراه فـ "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ...." (البقرة ٢٥٦) .

وحث القرآن المسلمين على التعامل بالحسنى مع غيرهم وعدم مجادلتهم ؛ وان تقوم الدعوة إلى الاسلام على أساس الحكمة والموعظة الحسـنة " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (العنكبوت اية ٤٦)" ، و" ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...." (النحل١٢٥) ، كما أمر الحق ببرهم والقسط إليهم " لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (الممتحنة أية ٨) ، وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ "(التوبة ٦) .

وفى إعلان قيام الدولة الإسلامية الجديدة فى المدينة بيّن ميثاق دولة الاسلام أسلوب معاملة أهل الذمة بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، فنص على موادعة اليهود والمساواة معهم رغم الانفصال الثقافى والعرقى والمكانى فيقول الاعلان "... بأن من اتبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولامتناصرين عليهم ... ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... " فالاسوة هى المساواة والنصرة هى الدفاع عنهم ، وغير مظلومين (العدالة) ، ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم) ضمان حرية التعبد.

وحذر النبى الكريم من المساس بأهل الذمة في سيل من الاحاديث " اتقوا الله فى ذمتى فمن آذى ذمياً فقد أذانى وكنت خصيمه يوم القيامة " و " من قتل معاهدا لم يُرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما " ، و " من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة " ؛ كما أُمر المسلمين بصيانة ما للمعاهدين من حق الجيرة وخص القبط فى إطار عصبيته بهم من ذمة ورحما فشدد فى التوصية ، ونذكر من تغافل عن هذه التوصية بالاحاديث فى الحاشية (٣٨)" ونسوق فى المتن الحديثين التاليين لدلالتهما ؛ فالاول جاء والرسول صلى الله علية وسلم يُعانى سكرات الموت وهو وقت ينشغل المرء فيه بنفسه عن الدنيا ومن فيها ؛ وتذكره لهم هذا الوقت يستوجب من كل مؤمن النظر فى الحكمة من ذلك ؛ فيروى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقي عن رجل من الرّند: أن رسول الله ﷺ مرض فأغمي عليه ثم أفاق فقال: " استوصوا بالأدم الجعد " ثم أغمي عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمي عليه الثالثة فقال مثل ذلك ، فقال القوم: لو سألنا رسول الله ﷺ من الأدم الجعد فأفاق فسألوه فقال: " قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوّكم وأعوانكم على دينكم " ، قالوا: كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله قال: " يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضي بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم ، والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمتنزه

---

[٣٧]) " الاسلام والجماعة الموحدة صـ ١٣٠ ـ عباس العقاد ــ نقلا عن دراسة التاريخ ـ ارنولد توينبى صـ ٣٦٧.

[٣٨]) إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا لان لكم منهم صهرا وذمة " إنكم ستفتحون أرضًا هي ارض يسمي فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما "، " إنكم ستكونون أجنادًا وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم ، فاتقوا الله في القبط لا تأكلوهم أكل الخضر " ، عن مسلم بن يسار: أن رسول الله ﷺ قال: " استوصوا بالقبط خيرًا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدوّ " وعن يزيد بن أبي حبيب: أن أبا سلمة ابن عبد الرحمن حدّثه أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال: الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله " وعن عمرو بن حريب وأبي عبد الرحمن الحلبي أن رسول الله ﷺ قال: " إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرًا فإنهم قوّة لكم وبلاغ إلى عدوّكم بإذن الله " يعني قبط مصر .

عنهم " .

وفى قول اخر " استوصوا بالقبط خيرًا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدوّ " ، كما يقول" إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرًا فإنهم قوّة لكم وبلاغ إلى عدوّكم بإذن الله " (٣٩) ، وكان لهذه الوصية اثرها فقد اكرم الفاتحون العرب اهل المسيحية فى مصر حسبما قاله احد المطارنة المصريين بعد ١٥ عاما من الفتح العربى بقوله " ان العرب الذين اعطاهم الله السلطان فى ايامنا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويُجِلون قسسنا وقديسينا ويقدمون الهبات لكنائسنا واديرتنا (٤٠)؛ وبعد هذه النواهى (الاوامر) ، من مِن المسلمين يملك أن يُخالف أمر الله ورسوله الا ظالم لنفسه " وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "(الحشر ٧) .

وعلى هذا النهج السوى تجاه اهل الذمة سار الخلفاء الراشدون ، فإبن الخطاب عمر رضى الله عنه قرر حصة من بيت المال لفقير من اليهود ؛ وفى موقف اخر استدعى واليه على مصر الصحابى الجليل عمرا بن العاص الى المدينة مُكبده مشقة السفر ليضربه على رأسه مُقتصا منه ومن ابنه ردا لمظلمته لقبطى ، وعمر هو الذى ازاح وجيشه التراب عن كنيس قرب القدس ليُمكن اليهود من الصلاة احتراما منه لعقيدة الاخر ؛ وبفراسته رفض دعوة قُسس كنيسة القيامة له للصلاة بداخلها ؛ خشية أن يتخذها غلاة المسلمون حجة من بعده لاتخاذها مُصلى من بعده ، وعند وفاته لم تشغله آلامه وهو مطعون من أن يُوصى الخليفة من بعده خير وصية بأهل الذمة بأن يوفى لهم ويقاتل من ورائهم والايُكلفوا فوق طاقتهم " .

وفى ضوء منحى الرسول ووصيته ومسلك خلفاؤه ، نصب قادة الجيوش الاسلامية الاوائل من أنفسهم حماة لأهل الذمة ؛ عندما حرصواعلى تأمين اهل الذمة فى معاهدات الصلح مع البلاد التى تصالحوا معها دون ان يحكموها ، فإبن الحباب عاهد البجا سكان الصحراء الشرقية ما بين النيل والبحر الاحمر الى ارض النوبة عام ٧٢٥ م ، على ان يعطواأمانا للذميين أسوة بالمسلمين وضمن اتفاق المصالحة " الا يقتلوا مسلما او ذميا " ، وهو ما اعاد التأكيد عليه من جديد عبد اللة بن الجهم (عهد المأمون العباسى) فى مصالحته معهم عام ٨٤١ م فى اتفاقية جديدة ليس فقط لاهل الذمة وإنما اضاف اليهم العبيد ووسع النطاق الجغرافى فنصت المعاهدة على " ألا يقتلوا مسلما او ذميا حرا او عبدا فى ارض البجا او مصر او النوبة ." (٤١) ، ويسجل التاريخ أمثلة كثيرة عن الالفة والاحترام المتبادل بين الفاتحين المسلمين واهل الذمة فى البلاد المفتوحة ، والمثل الاكبر ما كان بين عمرو بن العاص والمقوقس كبير القبط فى مصر وبين العرب واليهود فى الاندلس .

نموذج لمعاملة اهل الذمة فى الدولة الفاطمية
(مصـــــــــــــــــــــر)

كان العهد الفاطمى فى مصر عصرا ذهبيا لاهل الذمة ، فلم يُحرموا من تبوأ المناصب العلا ؛ ونالوا مكانة مرموقة لم ينالها كثير من المسلمين استثارت حسد الاخرين سجله شعرا اهل ذلك الزمان ، ولم يتعرض اهل الذمة فى المجتمع الاسلامى للتمييز الا فى حالات شاذة تستفزها سلوكياتهم كخروجهم عن العهد كما حدث فى عهد رسول الله عندما خانوا تحالفهم معه فى غزوة الخندق ؛ او

---

[٣٩]) المرجع كتاب فتح العرب لمصر تأليف د. الفرد بتلر الطبعة الثانية ١٩٤٦- صـ ٣١٩ ، والاحاديث "إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما" أو قال: "ذمة وصهرا". "فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها" ، قال: فرأيت عبدالرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة، يختصمان في موضع لبنة، فخرجت منها (الراوي: أبو ذر الغفاري المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٢٥٤٣خلاصة حكم المحدث: صحيح) ، "إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم دما ورحما وفي رواية إن لهم ذمة يعني أن أم إسماعيل كانت منهم " ، الراوي: كعب بن مالك المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ٦٦/١٠ ، خلاصة حكم المحدث: [روي] بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ، أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال "الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا في سبيل الله." ، الراوي: أم سلمة المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ٦٦/١٠ ، خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح ، "إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وإبلاغ إلى عدوكم بإذن الله يعني قبط مصر." ، الراوي: عبدالله بن يزيد و عمرو بن حريث المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ٦٧/١٠ ، خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح "إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم ذمة ورحما" الراوي: كعب بن مالك المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: ٧٧٢ ،خلاصة حكم المحدث: صحيح "الله الله في قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانا في سبيل الله" الراوي: أم سلمة هند بنت أبي أمية المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ٣١١٣ خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح رجاله ثقات.

[٤٠]) د الفرد بتلر صـ ١١٨ – فتح العرب مصر (مقتبسا من كتاب دى جويه **Conquet de Syria** .

[٤١]) د مكى شبيكة السودان عبر القرون صـ ٣١ .

خروجهم على واجباتهم الوظيفية متى كانوا فى مناصب الحكم العليا كالتعسف والإنحياز الى العصبية دون وجه حق وغيرها من سلوكيات تخالف القانون او تضر بالعامة او النظام العام ؛ فالمعز لدين الله الفاطمى اسند الى يعقوب بن كلس وهو يهودى عراقي بعض دواوين الحكومة (منصب الوزير) ، وولاه العزيز بالله الفاطمي الوزارة ثم قبض عليه وسرعان ما أطلقه وأعاده لمركزه ، ويصف الإمام ابن عساكر في "تاريخ دمشق" ابن كلس بقوله "كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء، وفيه فطنة وذكاء" وذكر كيف أسلم طمعاً في الوزارة ، وولى العزيز بن المعز لدين الله يهودى اخر الوزارة بالشام هو منشا بن ابراهيم الفرار كما اسند الى القبطى عيسى بن نسطورس كتابة الدولة فى مصر (رئيس وزراء) بعد وفاة ابن كلس (٤٢) ، ومن جهة اخرى إستخدم حكام الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود ؛ بدأت بـ موسى بن العازار طبيب المعز ، بدأت بطبيب المعز موسى بن العازار ، وإستخدم العزيز بالله ثم ولده الحاكم نصراني يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصري وكانت له منزلة سامية في الدولة.

واكرم الفاطميون منذ قدومهم الى مصر المسيحيين ؛ فبعد وصول المعز قادماً من إفريقية طلب إليه البطريرك أفرهام السرياني أن يمكنه من بناء كنيسة أبي مرقورة بالفسطاط والكنيسة المعلّقة بقصر الشمع، فكتب له سجلا يمكنه من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذا البناء، فتصدى الناس لبناء الكنائس فجاء المعز وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة ، وتعاظم نفوذ المسيحيون في عهد العزيز فغص بلاطه بهم وشاركهم اعيادهم وأعاد بناء كنائسهم وبالغ في إكرامهم لما كان بينه وبينهم من صلة النسب، إذ تزوج من مسيحية انجب منها إبنته "سيدة الملك" ، ولحظوتها رفع أخواها الى أرقى المناصب الكنيسية ، فعين أحدهما بطريركاً للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الآخر مطراناً للقاهرة ؛ رقاه الحاكم بأمر الله بطريركاً للملكانيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ.

أدى تمييز الفاطميون لليهود والنصارى وتحيز من تولي الوزارة منهم الى ابناء ملتهم على حساب حقوق المساواة بالمسلمين الذين ضجوا من تفشى الغلاء واضطرب الأمن وإثقالهم عيسى بن نسطورس بالضرائب حتى أن المؤرخون يذكرون أنه لم يحج أحد في هذه الحقبة من مصر، وبلغ بالناس الجوع مبلغه حتى بلغ عدد الموتى مائة وسبعين ألفاً ؛ ويشير المؤرخ المقريزي الى ان الوزيرين النصراني عيسى بن نسطورس واليهودي منشا آذوا المسلمين ، ولما تجاهل حكام الفاطميين شكواهم عمد أهل مصر الى الفكاهة وكتبوا قصة جعلوها في يد صورة (تمثال)، عملوها من قراطيس (ورق) كتبوا فيها " بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلين بك (العزيز بالله) ؛ ألا كشفت ظلامتي؟! " وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز ؛ فإضطر العزيز أمام تذمّر ألاهالى إلى القبض اليهودى منشا وابن نسطورس الذى غرمه ثلاثمائة ألف دينار ولكنه أفرج عنه بتأثير ابنته سيدة الملك.

وادلى الشعراء بدلوهم فى هذا الصدد فصوروا الدولة وكأنها تحكم بـ "الثالوث": ابن كلس، والعزيز بالله، والوزير الفضل: فيصوغ الشاعر الدمشقي الحسن بن بشر ذلك شعراً، فيقول ساخراً:

تنصّر، فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا ... وعطِّل ما سواهم فهو عطل

ويقول الشاعرالمصري الحسن بن خاقان:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ... ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم ... تهوّدوا، فقد تهوّد الفلك

ويقول ابن الخلال:

إذا حكم النصارى في الفروج ... وغالوا في البغال وفي السروج
وذلت دولة الإسلام طرا ... وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج

وكان الأفضل بن بدر الجمالي وزير الآمر ، يستخدم النصارى بكثرة، فأحاط نفسه بجنود من الأرمن وشجع على هجرتهم

[٤٢]) د محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية فى مصر ـ سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها صـ ٨٦ـ نقلا عن تاريخ يحى الانطاكى صـ ١٤٤ـ١٤٥ .

التي بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر[٤٣] ؛ وعيّن أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني في ديوان التحقيق الذى بقي فيه حتى عام ٥٢٨هـ (١١٣٤م)، وعين أبو الفضل المعروف بابن الأسقف كاتب يُوقّع عنه في امور المال والرجال ويتولي ديوان المجلس، والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة ، وتولى أبو اليمن وزير عبد المسيح الديوان بأسفل الأرض .

وعندما تولى الحافظ لدين الله الحكم بعد الآمر ولّى بهرام الأرمني الوزارة في سنة ٥٢٩هـ (١١٣٥م) ، ونعته بـ "السيد الأجلّ، أمير الجيوش سيف الإسلام تاج الخلافة، ناصر الإمام، غيّاث الأنام" ؛ وبعد أن استقر بهرام في السلطة لم يتردد في تبني سياسة شخصية فقد سأل الخليفة الحافظ في السماح له بإحضار أخوته وأهله من بلاد الأرمن، فأذن له في ذلك حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان ، وولّى بهرام أخاه "فاساك" ولاية قوص في الصعيد ، فاستقوى بأخيه وافسد الامور واستطال الارمن على المسلمين ، وبُنيت فى عهده العديد من الكنائس والأديرة ([٤٤]).

تقلبات الحاكم بأمر الله

ولم يشذ عن هذا الوضع المميز لاهل الذمة الا الحاكم بامر الله المعروف بتقلباته ، فقد عزل بن نسطورس من كتابة الدولة (الوزارة) بضغط من الكتاميين عصب الخلافة ليستبدله بزعيمهم ابى محمد الحسن بن عمار ؛ ولاسترضاء إبن نسطورس منحه الخليفة رعاية ديوانه الخاص ، وفى اواخر عهده انقلب الحاكم بامر الله عليهم لمحاباتهم ذويهم فى العقيدة على حساب المسلمين ولتكسبهم من السلطة ، وزاد من تشدده بمنعهم من الاحتفال بعيد شم النسيم على النيل بدعوى المغالاة فى البذخ وصادر الاوقاف المحبوسة للكنائس وحكم عليهم فى عام ٣٩٥ هجرية بإرتداء لباس خاص تمييزا لهم عن المسلمين ، وكعادته فى التناقض قلد النصرانى منصور بن عبدون الوزارة ، وكان ممالئا له وهو من أشار عليه بهدم كنيسة القيامة والقبر المقدس (٤٥) ، وفى عام ٤١١ هجرية ؛ تراجع الحاكم بأمر الله عن اضطهاده اهل الذمة فأطلق حرية الشعائر ورد اوقاف الكنائس وسمح بتجديدها ومنحهم أمانا على " نفوسهم واولادهم واموالهم واملاكهم ... وألا يُقدم احدا عليهم بسوء."

أستعاد أهل الذمة مكانتهم المميزة فى عهد المستنصر ؛ فولاهم كُبرى المناصب فولى اليهودى أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى ديوانا بالحكومة مجاملة لوالدته التى كانت أمة فى بيت التسترى ؛ وقد أُغتيل التسترى عام ٤٣٩ هجرية لتحيزه الى اليهود ، وامعانا فى المحاباة أسند الخليفة ديوان خاصته الى أبى نصر هارون شقيق التسترى (٤٦) .

مصر واليـــــــــــهود
فى العصـــــــــــــــر الحديث

اما يهود مصر فى العصر الحديث فقد تمتعوا بوضع ممتاز فى المجتمع ، فقد كان لهم دور بارز فى الحياة الاقتصادية والسياسية فى ظل النظام الملكى حتى قيام الصهيونية وإغتصابها ارض فلسطين ، فقد كان نفوذهم مسيطرا على معظم قطاعات الاقتصاد والبنوك والمجالات الكبرى للحياة التجارية مثل صيدناوى وعدس وتسيدوا مجال العقارات ؛ واستمر وضعهم المتميز على نفس المنوال حتى بعد قيام ثورة يوليو الا ان تغير الامر بعد القضية الشهيرة بفضيحة لافون التى حاولت اسرائيل فيها تخريب العلاقات المصرية الامريكية وما تلاها من عدوان اسرائيلى على سيناء فى اطارالعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ الامر الذى ادى لرحيل اغلبهم من مصر .

ومن اليهود من شارك بنصيب وافر فى الحياة السياسية بمصر فقد وُلدت على ايديهم الحركة الشيوعية المصرية وتزعموها ؛ وشاركوا فى الحركة الوطنية المصرية بإصدار عددا من الصحف مثل جريدة ابو نضارة التى اسسها اليهودى يعقوب بن صنوع الاسرائيلى ؛ وكان لها دور فى تأجيج المشاعر الوطنية ضد الاحتلال (٤٧) ، وكان لهم نصيب فى المناصب الوزارية فتولى

---

[٤٣]) تاريخ الفاطميين ص ٣٩٥.
[٤٤]) ص ٢٥٨- ٢٦١.
[٤٥]) تاريخ يحى بن سعيد الانطاكى - صـ ١٩٤ .
[٤٦]) الدولة الفاطمية فى مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها - صـ ٨٦ - ٩٠ - محمد جمال الدين سرور.
[٤٧]) المصدر مركز زايد للتنسيق والمتابعة منشور بجريدة اخبار العرب ٣٠ /٢٠٠١/٤ .

يوسف قطاوى وزارة المالية فى حكومة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ م ؛ واصبح وزيرا للمواصلات فى حكومة احمد زيوار عام ١٩٢٥ ؛ وشارك فى لجنة الثلاثين بوزارة عبد الخالق ثروت عام ١٩٢٢ م لوضع الدستور وقوانين الانتخاب ؛ وأصبح عضوا فى الوفد الرسمى لمفاوضات الجلاء مع الانجليز فى نفس العام (١٩٢٢ م) ؛ وفى عهد ثورة يوليو عينت الثورة المحامى اليهودى زكى عريبى عضوا بلجنة وضع الدستور المؤقت للبلاد عام ١٩٥٢ (٤٨) .

واستقبلت مصر مهاجري اليهود الذين فروا من فلسطين فى الحرب العالمية الاولى هربا من ضغوط تركيا ، وأغدق عليهم السلطان حسين كامل بصرف إعانة يومية لهم قدرها ٨٠ جنيه زيدت الى مائة ؛ وسهر على راحتهم.

الحركة الصهيونية

واوضـــــــــــاع اليهود فى مصر

كان اول ظهور للحركة الصهيونية فى العالم العربى عام ١٨٩٧ بعد عام من صدور كتاب هرتزل " الدولة اليهودية " ، وكان ذلك فى مصر عندما اسس اليهود الغربيين " الاشكنازيم " بزعامة "جوزيف ماركو باروخ " جمعية بركوبا الصهيونية " فى القاهرة برئاسة جاك هارملين وجوزيف ليبوفتش سكرتيرا لها ؛ وقد تمكنت الحركة بعد فترة من تحويل مصر الى مركز للصهيونية فى المنطقة بإجمالى اكثر من ١٢جمعية صهيونية تمركزت فى المدن الكبرى بالاسكندرية وطنطا والمنصورة وبورسعيد ؛ إنضوت جميعها تحت لواء الاتحاد الصهيونى الذى تأسس عام ١٩١٣، وكان اليهود المصريون " السفاراديم " اى الشرقيون قد عزفوا عن الاشتراك فى الحركة ؛ لعدم اقتناعهم بالحل الصهيونى للمشكلة اليهودية ؛ وكانت عائلة قطاوى باشا الاقتصادى المصرى الكبير لا تؤمن بالصهيونية وتسخر منها وقاطعتها .

وكانت الصهيونية بمضونها العدوانى الداعى لاغتصاب فلسطين لاقامة الدولة اليهودية وما واكب ذلك من مذابح ضد الفلسطينيين ؛ قد افسدت علاقات الود التاريخية بين العرب واليهود على ارض العرب والاسلام ، بما خلفته من مأساة اسلامية جديدة تُذكر بالكارثة الاندلسية بفارق بسيط ؛ هو ان اخوة مأساة الامس اليهود والعرب كانا ضحايا المأساة المورسكية بألامها واحزانها ، اما فى المأساة الفلسطينية فقد إنقلب الحال فأصبح اليهود هم الجلادين والعرب هم ضحايا يهود اليوم ، فطرد عرب فلسطين من ديارهم صنوا للخروج الكبير لمسلمى الاندلس ؛ والمأساة الفلسطينية بحجمها وفظائعها كانت السبب الرئيس لتخريب دائرة التعايش التقليدي بين العرب واليهود على مدى تاريخ تعايشهم الطويل وإستبدالها بدائرة من العداء المتفجر،عداء استهلك طاقات الجانبين بدون طائل فى مجاهدة عنيدة استفزت فيها دولة اسرائيل بمطامعها التى لا نهاية لها ؛ مخزون من العداء اللانهائى من العرب والمسلمين فى بقية انحاء العالم عمقه طول امد المأساة الفلسطينية .

جــــــــــــدلية الجــــــــــــزية

قضــــــــــــية بلا قضـــــــــــــية – قضية الجهلاء

يثير جهلاء المسلمون والمغرضون منهم ومن غيرهم الجدل الكريه حول هذه القضية بين الحين والحين سعيا الى الفتنة ، "فـ الجزية " فى اصلها ضريبة دفاع يُعفى منها من يؤدى الخدمة العسكرية ، فُرضت فى بداية الامر على سكان المناطق المفتوحة اذا ما رفضوا الاسلام مقابل قيام جيش الاسلام بالدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم ، ومن اداها يُعفى من الخدمة العسكرية ؛ اما من اسلم فتسقط عنه الجزية لان الجهاد اصبح فرضا عليه.

وإعفاء اهل الذمة من الاشتراك فى الحرب تأسس على اعتبار انهم ليسوا طرفا فى الجهاد ولا يعنيهم امره ، فحروب الفتح كانت تهدف انذاك الى اشهار العقيدة والتعريف بها وتحرير ارادة الاختيار لدى الناس من ضغوط واستبداد امبراطوريات ذلك الزمان التى ما كانت لتسمح بالخروج على عقيدتها وهو ما كان جليا فى الامبراطورية الرومانية على نحو ما سنتعرض له.

فالجهاد بمشقته وما يتضمنه من التطلع للشهادة فى سبيل الله كانت امرا يخص المسلم دون غيره ، فغير المسلم ليس ندا لمشقة جهاد يتأسس على ايمان هُو ليس طرفا فيه ، ومن الناحية العملية فمهمة بتلك القداسة لا يمكن فيها اشراك عناصر غريبة لا

[48]) المصدر مركز زايد للتنسيق والمتابعة منشور بجريدة اخبار العرب ٣٠ /٢٠٠١/٤ .

تؤمن بأغراضها ؛ فجيش مركب من قوات مختلفة العقيدة لا تماسك بينها ولا انسجام يصبح هش الولاء لان هذه العناصر التى لا تؤمن بالاسلام تصبح دخيلة كالمرتزقة تفتقد الحماس والولاء وبالتالى فمن الحكمة ألا يشاركوا فى هذا الامر على ان يُستبدل بضريبة فى اطار المساواة العامة بين طوائف المجتمع يتحمل فيه المسلم مسئولية الدفاع وعبئ ضريبة الدم بجانب ما يدفعه من ضرائب ممثلة فى الزكاة ، بينما يقوم غير المسلم بدفع ضريبة دفاع فى هيئة جزية تتقرر فى ضوء المقدرة وتستثنى الغير قادر على تحملها .

وفى ضوء الجزية كبدل دفاع ؛ فتسقط عن اهل الذمة وتُرد اليهم عندما يعجز المسلمون عن أداء مهمة الدفاع ؛ وهو مافعله المسلمون عندما ردوا الجزية الي اهل حمص عندما اضطروا للانسحاب منها تاركين المدينة بلا دفاع للتصدى للروم فى مكان اخر؛ قائلين " شُغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم وامركم " ، وهو ما اثار اعجاب الحمصيين فقالوا " لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والتضحية ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم " (٤٩) ؛ هنا هم لم يسلموا إنما شاركوا فى الدفاع عن المدينة لانها مصلحة مشتركة فسقطت الجزية .

والجزية كضريبة او عقوبة او غُرم امرا متعارف عليه بين دول ذلك الزمان يفرضها القوى على الضعيف والمنتصر على المهزوم ؛ كإتاوة يتجنب بها الضعيف عدوان القوى ، او كنوع من المساهمة فى اعباء الادارة ، فالروم وفارس قررتا على الشعوب الخاضعة لهما مثل هذه الاتاوات والضرائب ، وملوك الطوائف فى الاندلس ومن بعدهم بنى نصر(بنو الاحمر) ملوك غرناطة كانوا عند انحطاطهم يدفعون الجزية الى الاسبان ، وكذلك دفعها مسلموا شرق افريقيا الى الحبشة والبرتغال ، و" الجزية " والزكاة صنوان فهما شكلان من اشكال الضرائب ؛ الاولى على غير المسلمين كبدل للخدمة فى الجيش ؛ يُستثني منها فقرائهم مثلما فعل عمر بن الخطاب مع يهودى فقير ، وهى مبلغ ثابت قليل فى عمومه يأخذ الوضع الاقتصادى والاجتماعى لدافعى الجزية فى الاعتبار بينما الزكاة المفروضة على المسلمين حقا للفقراء بما فيهم فقراء اهل الذمة توجه لخدمة المجتمع ؛ كما انها اكبر فى القيمة وتصاعدية النسبة تتحدد بالعائد اى يزيد مبلغها مع زيادة العائد وهى فى هذا تختلف عن الجزية التى لا يزيد مبلغها لثابت قيمته .

ويشيد جوستاف لوبون بمراعاة المسلمون الفاتحوُن للحالة الاقتصادية العامة للبلاد ولطبقات المجتمع عند فرض الجزية ، فقد أشاد " برفق عمرو ابن العاص بالمصريين الذين منحهم الحرية الدينية وعدلا مطلقا وامانا للاموال وجزية سنوية ثابته لا تزيد عن ١٥ فرنكا عن كل رأس ؛ وهى كانت اقل كثيرا من الضرائب التى كان يفرضها الرومان والفرس على الشعوب التى قهروها ،فتقبلها المصريون برضاء طائعين شاكرين (٥٠) " ؛ والامر ذاته فعله مسلموا الاندلس عندما فرضوا دينارا على الاعيان الاحرار ونصف دينار على غير الاحرار .

واذا ما احلنا الجزية الى طاولة المهاترات والجدل النظري ، فالزكاة والجزية صنوان لطائفة من طوائف الضرائب ، واذا ما تناولناهما من ناحية العدالة الضريبية والمساواة بين الطوائف نجد فى الجزية بقلتها وثبات قيمتها محاباة لاهل الذمة على حساب المسلمين فالزكاة اكبر قيمة من الجزية وتتصاعد مع تصاعد الدخل ؛ ويتحمل معها المسلم عبئ ضريبة دم اضافية (الدفاع) يدفع فيها بحياته على المحك بينما يُعفى منها اهل الذمة .

وامر الجزية قابل للاسقاط ومتروك للحاكم ومزاج الامة على نحو ما فعله مسلمو الفتح فى مصر ؛ فقد راعوا وصية الرسول الكريم (ص) الملزمة التى اوصى فيها مشددا بقبط مصر على نحو ما اسلفنا لما لهم من ذمة ورحما وقُربى ،فأسقطوا الجزية عن اهل مسقط رأس السيدة هاجر والسيدة مارية القبطية بمصر كرامة لرسول الله .

واذا ما كانت الجزية تثير الحساسية فى النفوس لرمزيتها كعلامة خضوع فلا ضرر من استبدال المسمى ؛ فـ عمر بن الخطاب نزل على رغبة نصارى العرب من بنى تغلب الذين طالبوه بتسميتها صدقة عندما قالوا له " اننا قوم عرب نأنف من كلمة جزية ونريد ان تأخذ ما تأخذ بإسم الصدقة (تشبها بالزكاة المفروضة على اغنياء المسلمين لفقرائهم) (٥١) ؛ ولم تكن هناك مشكلة لدى عمر للنزول عند رغبتهم ، عموما ضربنا هذا المثل تدليلا على المرونة وحُسن التصرف ، وعلى اية حال لم تعُد هناك حاجة لمناقشة هذا الموضوع بعدما تساوى المواطنون فى الحقوق والواجبات فى ظل نظام ضريبى يشمل الجميع ، كما ان الخدمة

---

[٤٩]) د يوسف كمال – مستقبل الحضارة١٥٣ -١٥٧ .

[٥٠]) حضارة العرب صـ ١٣٥ .

[٥١])الوطن والمواطنة فى ضوء الاصول العقدية والمقاصد الشرعية – الشيخ يوسف القرضاوى – صـ ٤١-٤٢ .

العسكرية سبب الجزية يؤديها الجميع بروح وطنية وكفانا مهاترات ؛ يرفض المزاج العام للعقلاء من المسلمين والاقباط الخوض فيها .

ويؤكد البطريرك كيرلس الرابع روح الوطنية عندما أصدر الخديوى سعيد أمرا عاليا بتطبيق التجنيد الاجبارى على المواطنين جميعا بما فيهم أقباطا ومسلمين ؛ فقد رحب البطريرك بالامر رغم رفض الأقباط ؛ فقد رأى الا يحرم القبط من شرف الجندية وشرف المساواة فى المواطنة كما انه مُبررًا لرفع الجزية التي كانت تدفع بدعوى الدفاع عن المسيحيين ، فيرد على شائعات اتهمته بطلب اعفاء القبط من الخدمة العسكرية قائلا " يقول البعض انى طلبت من الباشا ان يعفى اولادنا القبط من الخدمة العسكرية ؛ فحاشا لله ان اكون جبانا بهذا القدر فلا اعرف للوطن قيمة او افترى على اعز ابناء الوطن بتجريدهم من محبة وطنهم وعدم الميل لخدمته " بل الاكثر من ذلك ما عبر عنه الزعيم القبطى مكرم عبيد فتجاوز الوطنية المصرية الى القومية العربية (قبل عبد الناصر) والهوية الاسلامية فكتب عام ١٩٣٩ " المصريون عرب .. والوحدة العربية من اعظم الاركان التى يجب ان تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى.. لتصير اوطاننا جامعة وطنية واحدة ، وفى موضع اخر يقول " نحن مسلمون وطنا ونصارى دينا ؛ اللهم اجعلنا نحن نصارى لك ؛ وللوطن مسلمين"([٥٢]).

ثانيا الجهـــــــــــــــــــــاد

الجهاد أساسه الدفاع عن الامة والعقيدة ومضمونه قتالى (٥٣)، بينما هناك جهاد اعتبارى مضمونه العمل النفسى السلمى ، واعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام الجهاد الاكبر جهاد النفس ، وأعلى من شأن مجاهدة جور السلطان على سائر انواع الجهاد فيقول " افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " ، وفى نفس النطاق تجئ الدعوة للعقيدة فهى جهاد كلمة ونفس تتعلق فى بعض الاحيان بتلابيب الجهاد القتالى او بهامشه فهى ليست له هدفا اصيلا ولا اساسا .

والجهاد للدفاع عن الامة والعقيدة قرره الخالق فرض على كل مسلم فتقول " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)"التوبة ؛ ويُعد الجهاد فى حُكم اركان الاسلام ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " ماترك قوم الجهاد الا وسلط الله عليهم الذل لاينزعه عنهم الا بعودتهم الى دينهم " ، " كل من لم تُحدثه نفسه بالجهاد مات على سمة من النفاق" .

والجهاد ركن حى لا يموت ذو طبيعة مستمرة لاتنقطع ؛ ولا ينقطع غرضه فأموره متجددة طبقا للاحاديث المتقدمة وقول الرسول (ص) " ... الجــهاد ماض الى يوم القيامة " ، ومن دواعى الاذن بالجهاد رد فتنة الناس او افتتانهم فى دينهم وهى متجددة الطابع والطبيعة ، وبالتالى فالمسلم جندى على أُهبة الاستعداد مكلف بالجهاد فى كل وقت حسبما ينبهنا رسولنا الكريم " كل مسلم جندى فى ثغر".

والجهاد فى الاصل تكليف له اصوله ، فالحديث الشريف يقول " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم واموالهم ؛ إلابحقها وحسابهم على الله " ؛ وسأل على رضى الله عنه الرسول ﷺ عندما امره بالزحف على خيبر قائلا " يارسول الله على ماذا اقاتل الناس ، قال " قاتلهم حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله ؛ فاذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دمائهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله " ؛ والجهاد حسب المنطوق الكريم جهاد مطلق الغاية والمكان والموضوع ، فهو تكليف من الخالق لرسول الله تجاه كل الناس فى كل الارض بغرض الايمان حتى يقولوا لا الله الا الله ، فكلمة " الناس " تعنى الناس كافة فالدعوة ساحتها كل الارض وكل الناس ؛ وهو ما يعنى عالمية الدعوة وعالمية الأبلاغ ، و كلمة "حتى" تعكس الاصرار علي الغاية والاستمرارية فى سبيل تحقيقها ، ورغم ما يعنيه المنطوق من قتال بإصرار وصولا الى الغرض وهو الايمان ؛ الا ان رحمة الرسول الكريم الرءوف الرحيم التقت مع رحمة الرحمن وجمدتا التكليف المشدد بالقتال حتى منتهاه الطبيعى إما الايمان اوالنصر او الصلح او غيره .

فالحكمة النبوية مدعومة بالرحمة النبوية والسماوية غلبت الرسالة لا القتال فى إبلاغ الدعوة ؛ فلم يُطبق النص الخاص

---

[٥٢]) سيرة البطريرك ؛ ومقال فقه المواطنة للدكتور عبد الشافى القوصى بمجلة العربى ص ٢٤ ، ٢٩ العدد ٦٨٣ اكتوبر ٢٠١٥.

[٥٣]) اعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام جهاد النفس هو الجهاد الاكبر ؛ واعلى من شأن مجاهدة جور السلطان على سائر انواع الجهاد فيقول " افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ".

بالقتال المشدد حتى تحقيق غايته بإسلام من قصده الجهاد ؛ ولا نجد حادثا واحدا انطبق عليه الحديث المشدد بالقتال والاصرار على مواصلته حتى تحقيق الغاية اى حتى يسلموا ويقولوا لا إله الا الله " كشرط لوقف القتال ، فـ على بن ابى طالب فى حملته على خيبر لم يستمر فى قتالهم حتى يفنيهم رغم عدم اسلامهم ، فتطبيق المفهوم المشدد كان سيؤدى الى ارغام الناس على اظهارالاسلام دون ايمان حقيقى وهذا خطر ليس فقط على العقيدة وإنما ايضا على المجتمع ؛ ولم نعلم ان رسول الله ﷺ أرغم احدا على الاسلام عُنوة ، او ان المسلمون فعلوا ذلك ايضا ، ويعن لنا أن نتذكر رد رسول الله ﷺ المطالبين بتطبيق الحد على المرتدين فرد بقول القران الكريم " لا اكراه فى الدين " ، فالقول البليغ يرفض الاجبار فى امور الايمان ، فروح الايمان تقوم على " التسليم الى الله لا الاستسلام " التسليم بخالص الطواعية والاختيار الحر لا بالاجبار ، فالاجبار فى امور الايمان لاتُجدى إنما هى خطر داهم على العقيدة ذاتها ، فالدخول الى الاسلام جبرا وبدون اقتناع يسمح بإندساس الاعداء متخفين بلباس الباطنية ، فهم خطر خفى لا تدركه الابصار يستغل حقوق المؤمن التى كفلها له الاسلام ليعمل خفيه على تخريب العقيدة وإحداث الانقسام بين اهلها ؛ ومن هنا اصبح أمر الدعوة مجرد رسالة بلاغ مُبين ، تستنفر بلاغتها ارادة الاختيار الحر الرشيد لدى الناس ، والنص القرأنى اوضح ذلك بإختزل الدعوة فى البلاغ والبلاغ المبين فقط .

فالدعوة رسالة لا قتال فيها ولا اجبار ؛ و نصوص القرآن تدور فى هذا الاطار " فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ "(آل عمران أية ٢٠) " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (النحل أية ٨٢)؛ " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (المائدة أية ٩٢) ؛ " قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (النور ٥٤).

أما الجهاد فيما يتعلق بالدفاع عن الامة حال تعرضها لعدوان او تهديد بعدوان درءا للخطر او لحماية العقيدة اذا كان هناك ما يتهددها، فهو واجب يقتضى القتال من اجله ، فهو ليس هوسا بالحرب كما تتقول الدراسات الغربية ؛ وانما هو سياسة الحق فالسلاح لا يواجه الا بالسلاح والظلم لا يواجه بالتمنيات الطيبة والا ضاع الحق ؛ فالردع فى هذه الامور واجب ولا عدوان فيه ، ورغم كراهة البشر للحرب الا ان للضرورة احكامها ؛ ولا عدوان فى الجهاد فالعدوان يخالف الطبيعة البشرية السوية ، والحق تبارك وتعالى يُشير الى هذه الحقيقة ويؤكد النص القرأنى مرارا كراهة العدوان فيقول " " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (البقرة ١٩٠) ، كما نهى الحق تعالى المسلمين عن العدوان فيقول " ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "(المائدة ٢) ؛ ويسير الحديث الشريف على هذا النهج فيقول " لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فأصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " .

قواعد الحـــــــــرب الاســــــــــــــــلامية

معامــــــــــلة اهل البلاد المفتوحة

وطبقا للمفهوم المتقدم فالجهاد القتالى لا عدوان فيه وإنما اصطراع من أجل الحق ورد الظلم وردع العدوان دعما للسلام ؛ فهو كالجراحة لازمة للتخلص من قذى الجسد لضمان سلامته ؛ نستخدم فيه السلبى وصولا الى الايجابى ، وفى مجال الكهرباء فبدون السالب ما كان الايجابى فعال و ما كان وحده يُضى بدون السالب ؛ وهذا لا يعنى أن الاسلام دين حرب وقتال ولا تنتقص الفطرة القتالية من فطرته السلمية والسلامية المتوافقة مع الفطرة الالهية والانسانية ، ويقول الحق تبارك وتعالى "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (الانفال٦١) .

وفى الاسلام دائما ما تسبق نية السلام نية الحرب ، انطلاقا من فطرته فى سبق نية الايجاب نية السلبى ، وفى حملات المسلمين الاوائل التى انفذها الرسول الرحيم كان يوصي امراء الجيوش باستنفاذ كل السبل السلمية قبل بدء القتال ، وان يتحلوا بالصبر المديد الذى لا ينفذ تجنبا للحرب لاقصى مدى ، وامرهم بالا يكونوا البادئين بالقتال اى المشجعين عليه ؛ فقال لمعاذ بن جبل " لا تقاتلوهم حتى تدعوهم (للاسلام) ، فان ابوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فان بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا (كمبرر للحرب) ، ثم اروهم ذلك القتيل(سبب الحرب) وقولوا لهم هل الى خير من هذا سبيل فلئن يهدى الله على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت " ، كما أوصى على بن ابى طالب بنفس الوصية فقال " اذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا فلا تقاتلوهم حتى تُريهم اياه ، ثم تقول لهم هل لكم الى ان تقولوا لا اله الا الله ولئن يهدى الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت " ؛ وهى نفس ما أوصاه به رسول الله عندما أنفذه الى قتال اليهود فقال لعلى " انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أُدعهم الى الاسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير من ان يكون لك حُمر النعم " .

ولما كان الاسلام يريد ضمان هذه الرحمة الغامرة فقد اسس للحرب قواعد حتى لا يحيد محاربوه عنها تحت ضغط اهوائهم الخاصة ، فأوصى الرسول عليه الصلاة والسلام أسامة عندما إبتعثه على رأس الجيش لمحاربة الروم بالا يقتل الاطفال أوالشيوخ أوالنساء ولا يقطع الشجر (فليس الغرض التخريب) ؛ والا يقتل جريحا او يطارد فارا من المعركة (فليس الغرض القتل من اجل القتل) ؛ ويقول نص الحديث " لا تقتل طفلا لا تقتل امرأة لا تقتل شيخا لا تجهز على جريح لا تطارد موليا (دعه يهرب) لا تقطع شجرة مثمرة ، ستجدون اناسا جلسوا فى الصوامع يعبدون ربهم فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له (احترام العبادة والعابدين)" .

واوصى الرسول ايضا بتقوى الله ومعاملة الشعوب المفتوحة اراضيها بالمعروف والابتعاد عن المنكر وينص الحديث " إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينهى عن المنكر" (٥٤) ، وأوصى ايضا بغض البصر ومساعدة الأعمى والأبتعاد عن الظلم ، وينص الحديث " تستفتحون بعدي مدائن عظامًا ، وتتخذون في أسواقها مجالس ، فإذا كان ذلك فردوا السلام وغضوا من أبصاركم واهدوا الأعمى وأعينوا المظلوم " (٥٥) ؛ وإذا ما فُرض القتال على المسلمين إقتضاء لأمر الله فتنص قواعد الحرب ألا فرار او استسلام او خنوع او وهن وانما المضى فيه بقوة تتحلى بالشدة والغلظة وعدم التهاون مع العدو، حسب قول الحق " فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ " (محمد ٣٥) ؛ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (التوبة١٢٣)).

والصمود وعدم التخاذل هى نفس القواعد التى يؤكد الرسول عليها ، لقوله " أنا نبى الملحمة " ؛ والنفس عندما تُسيطر عليها روح الجهاد ؛ تصبح قوة هائلة مجرده من الخوف لاتُقهر ، ولعلنا نرصد هذا فيما قاله هبيرة موفد قتيبه الى ملك الصين عندما

---

[٥٤]) رواه: أبو داود وابن ماجه ، سنن الترمذي الْفِتَنِ (٢٢٥٧) ، مسند أحمد (٤٣٦/١).
[٥٥]) عن وحشي بن حرب رضي الله رواه الطبراني [ج- ١] ص-٣٦٣] .

قال " اما تخويفك إيانا ، فإن لنا آجالا إذا أُحضرت فاكرمها القتل (الاستشهاد) فلسنا نكرهه ولانخافه "(٥٦) .

انتفاء العدوانية فى فتوح الاسلام

إسلام الشام ومصر إختياريا

اذا ما فتشنا عما يدعيه اعداء الاسلام فى الغرب من تجذر الحرب و العدوان فى الاسلام؛ مستندين الى طبيعة الجهاد المقاتل وفتوح المسلمين الاوائل مدعين ان الاسلام إنتشر بحد السيف فى وصف هذه الفتوح ، فلا نجد لهذه الادعاءات سندا فى تاريخ الاسلام المبكر بل على العكس نجد ترحيبا من اصحاب البلاد الاصليين الذين رأوا فى الاسلام مُخلصا من عسف وجور مغتصبى بلادهم فُرسا كانوا او رُوما ؛ وهو ما سجلة المنصفون وتشهد به وقائع مسيرة الفتوح العربية من تخوم الجزيرة حتى الاندلس ؛ ويحدثنا فى هذا السياق د. لوبون عن تنكيل الروم بالسوريين والمصريين وهم تحت أيديهم سواء كانوا وثنيين اوعلى ملتهم ففى مصر فرضوا تنصير قهرى على المصريين بعناد وقسوة بلغت جدع الانف وثلم الاذن وهدم المنازل الامر الذى جعل هؤلاء المعذبين يرحبون بالفتح العربى المخلص ، (فكان تهافت المصريون على اعتناق الاسلام وتخليهم عن المسيحية طواعية) الامر الذى يُثبت حقيقة ارغامهم على الايمان القسرى بالمسيحية التى كانت اوضاعهم فى ظلها شديدة البؤس نتيجة تقاتل مذاهبها ؛ ويستطرد فيقول" نتيجة تمسك المصريون بألهتهم القديمة أُكرهت مصر على إعتناق النصرانية قسرا عندما امر القيصر ثيودور بعدما اتخذ النصرانية دينا رسميا للبلاد عام ٣٨٩م ؛ باعدام كل من يرتد لعبادة الالهة القديمة وهدم جميع تماثيل الالهة المصرية ومعابدها حتى طال التخريب مكتبة الاسكندرية ، ذلك التخريب الذى املاه التعصب والبربرية وما زالت انقاضه تملأ مصر .

---

[٥٦])ومن أخبار تلك الواقعة أعلن قتيبة سنة ٩٦ هـ النفير العام للعبور من فرغانة إلى الصين ضمن الخطة التي رسمها له الحجاج بن يوسف الثقفي الذي خاطب قتيبة وابن القاسم بقوله " أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها وعلى صاحبها" ؛ وقال قتيبة ؛ لا يجوزن أحد نهر جيحون عائداً إلى مرو إلا بجواز ومضى قتيبة وجنده إلى فرغانة وأرسل إلى شعب عصام سلاح الفَعَلَة ليسهلوا له الطريق إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين التى فتحها وعبر بذلك نهر سيحون النهر الذي يشكل الحد الطبيعي الفاصل بين الفرس والترك وبين المغول وعبور قتيبة له كان أول تحد مباشر من المسلمين للشعوب المغولية ؛ويقول ابن كثيرفي البداية والنهاية؛ في سنة ست وتسعين فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين يتوعده ويقسم بالله أن لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم ويأخذ منهم الجزية أو يدخلوا في الإسلام وقد طلب إمبراطور الصين (يوانغ جونغ) بعد فتح كاشغر وفداً يمثل قتيبة وكتب إلى قتيبة كتاباً جاء فيه (ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم) فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً من أبناء القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح الناس فكلمهم قتيبة وفاطنهم (اي اختبرهم) فرأى عقولاً وجمالاً فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوشي واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها ؛ وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مفوهاً بسيط اللسان فقال قتيبة (يا هبيرة كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب وقل ما شئت أقله وآخذ به قال : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم) فسار الوفد وعليهم هبيرة بن المشمرج فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل الثياب الذي يلبس تحت الدروع ثم مسوا الغالية نوع من الطيب وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ما هم إلا نساء ، ما بقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم إلا اشتهى النساء فلما كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة فلما دنوا ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمرين فقيل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا لما دخل قلوبهم من خوفهم فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط فلما أمسى أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم رجلاً فبعثوا إليه هبيرة فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي وإنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في بلادي وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم ، قال : سل قال : لم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال هبيرة : أما زينا في يومنا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا قال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه قال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون بلاد الشام ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك ! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه فقال ملك الصين : فما الذي يرضي صاحبك ؟ فقال هبيرة : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية فقال ملك الصين : فإنا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم ووطئ التراب بقدميه حتى يبر يمينه وتوقف عن غزوهم إلى أن توفي آخر سنة ست وتسعين بتصرف من البداية والنهاية الجزء التاسع من ص ١٤٠ إلى ص ٤٢.

وينفى لوبون دعاوى انتشار الاسلام بالسيف (٥٧)، وهو ما يشهد عليه د الفرد بتلر فيقول " ان اضطهاد الروم الشديد للمسيحيين الشرقيين فى الشام وممارستهم شدة اكبر فى مصر لعدم اعتناق شعوبها المذهب المونوفيسى مذهب الدولة الرومية ، وما صاحبه من فظائع بلغت جدع الانف وثلم الاذن وهدم المنازل ، كان سببا فى كراهية اهل المشرق للروم وترحيبهم بالفتح العربى ؛ ويورد د. بتلر عن ابو الفرج بن العبرى ما قاله فى نفس المعنى الذى ينقل عنه " ولما شكا الناس الى هرقل ولم يرد جوابا ، انجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب " ، ويقتبس بتلر ما جاء فى كتاب دى جويه **Conquest de Syria** ما قاله احد المطارنة بعد ١٥ عاما من الفتح العربى " ان العرب الذين اعطاهم الله السلطان فى ايامنا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويُجِلون قسسنا وقديسينا ويقدمون الهبات لكنائسنا واديرتنا (٥٨).

إخبار السماء بفتوح الاسلام

يجُب الاتهامات الغربية السلبية عن الجهاد ؛ أن فتوح المسلمين الاوائل لم تحركها الرغبات والاطماع الانسانية وانما كانت أمرا أنبأت به السماء رسولها ؛ فالقران أخبر بإنتصار الروم على الفرس قبل الحدث بعشر سنوات ، ونقل الرسول عليه الصلاة والسلام عنها خبر بقية الفتوح قبل وقوعها بإيقاع مسلسل منتظم بعيد المدى على نحو ما اوردنا من احاديث وما سيرد من مزيد ، تجاوزت اخبارها عصره الى المستقبل البعيد أدرك التاريخ منها الكثير وبقى البعض فى علم الغيب ، فقد بشر الرسول ﷺ بالفتوح الاسلامية وحيا من الله في احاديث عديدة تناولت اليمن " ... وبارك الله يمننا وشامنا الى اخر الحديث ... كما بشرت بغزو جزيرة العرب وفتح فارس والشام ومصر ثم القسطنطينية الى اخر ما بشرت به الاحاديث من فتوح لم يأت اوانها بعد ، نورد منها حديثا واحدا نقلا عن نافع بن عتبة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام إذ يقول ؛" تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ثم فارس فيفتحها الله ثم تغزون الروم فيفتحها الله ثم تغزون الدجال فيفتحه الله "(٥٩).

---

[٥٧]) د. لوبون – كتاب حضارة العرب صـ ٥٦٣ و صـ ٢٠٨ و صـ ١٣.

[٥٨]) د الفرد بتلر صـ ١١٨ – فتح العرب مصر.

[٥٩]) احاديث فتح مصر "قال رسول الله ؛ ستفتحون مصر وهي ارض يسمي فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " ، وفى قول " إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا لان لكم منهم صهرا وذمة " ؛ وحديث " إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فذلك خير أجناد الأرض لأنهم في رباط إلي يوم القيامة " وحديث " إنكم ستجدون أجنادا، جندا بالشام ومصر والعراق واليمن، قالوا: فِخِر لنا يا رسول الله! قال: عليكم بالشام، قالوا: إنا أصحاب ماشية ولا نطيق الشام، قال: فمن لم يطق الشام فليلحق بيمنه فإن الله قد تكفل لي بالشام " ، وحديث " اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا ، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا قال: اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا ، قال في الثالثة: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان " ، وحديث " إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة " وحديث " لاتزال عصابة من أمتى يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله وعلى أبواب المقدس وما حوله ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة" وفى قول اخر " لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لايضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا وأين هم ؟ قال : ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس" ، وحديث " عليكم بالشام، فإنها صفوة بلاد الله يسكنها خيرته من خلقه، فمن أبى فليلحق بيمنه، وليسق من غدره، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله " وحديث "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الامير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " ، وعن فتح فارس وعد سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني بسوار كسرى لما تتبع الرسول وابوبكر فى طريق هجرتهما الى المدينة فقال له الرسول " كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى " ، وهو وعد تحقق عندما وصل السوار الى المدينة من بين الغنائم بعد فتح فارس فأرسل عمر بن الخطاب اليه ليتسلم السوار تنفيذا لوعد الرسول ، وحديث فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا أبدًا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلفه قرن، أهل صخر وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر هم أصحابكم ما دام في العيش خير وحديث إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله ، وفى فتح الحيرة حديث عن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "تمثلت لي الحيرة كأنياب الكلاب، وإنكم ستفتحونها". فقام رجل فقال: يا رسول الله، هب لي بنت بقيلة. فقال: "هي لك" فأعطوه إياها ، وبعد الفتح جاء أخوها فقال: أتبيعها ؟ قال: نعم قال: فاحتكم ما شئت قال بألف درهم. قال: قد أخذتها بألف قالوا: لو قلت ثلاثين ألفًا ؟ قال: وهل عدد أكثر من ألف ؟ ، وحديث أبشروا، فوالله لأنا لكثرة الشيء أخوف عليكم من قلته، والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح لكم جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن، حتى يعطى الرجل المائة فيسخطها. قال عبد الله بن حوالة : ومتى نستطيع الشام مع الروم ذات القرون ؟ فقال رسول الله ﷺ: "ليفتحها لكم ويستخلفكم فيها حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلقة أقفاؤهم قيامًا على الرويجل الأسيود منكم، ما أمرهم بشيء فعلوه، وإن بها اليوم رجالًا لأنتم أحقر في أعينهم من القردان في أعجاز الإبل ، وحديث وعن أبي سكينة (رجل من المحررين) عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: لما أمر النبي ﷺ بحفر الخندق؛ عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر... (فذكر الحديث، وأن النبي ﷺ ضربها ثلاث مرات حتى ذهبت، وفيه:) قال سلمان رضي الله عنه: يا رسول الله ! رأيتك حين ضربت ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة ! قال له رسول الله ﷺ: "يا سلمان ! رأيت ذلك ؟ !". فقال: إي والذي بعثك بالحق يا رسول الله قال: "فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني". قال له من حضره من أصحابه: يا رسول الله ! ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ويخرب بأيدينا بلادهم. فدعا رسول الله ﷺ بذلك ، "ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها، حتى رأيتها بعيني". قالوا: يا رسول الله ! ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ويخرب بأيدينا بلادهم. فدعا

الاسباب الاستراتيجية للفتوح
ودور عرب الشام والعراق
فى دعم الروم والفرس

ورغم البشارة الربانية بتكليفاتها الجهادية ، كان لحركة الفتوح اسبابها الكونية ومبرراتها العملية فى اطر إستراتيجيات الحرب (٦٠) ؛ فتحُرك المسلمون بداية فى النطاق المباشر لدولة الاسلام بالجزيرة ، إستهدف تأمين الجبهة الداخلية وحشد قوى العرب على اساس من العقيدة الصُلبة لتعزيز قوة الدولة الفتية ؛ فبعد الانتهاء من رد عدوان قريش وتوجيه ضربات اجهاضية لكيانات اليهود المتأمرة ؛التفتت الدولة الى وأد الانقسام الذى اثارته حروب الردة تعزيزا للسلطة المركزية ثم جاء فتح تخوم الجزيرة فى الخليج ، وكلها حروب دارت فى ارض العرب ، أما الجهاد خارج هذا النطاق فقد استهدف مدافعة عدوانية الفرس والروم ومن والاهم من العرب ؛ فالفرس الاكثر تطرفا فى عداء الاسلام والتطاول على نبيه اعدوا العدة فى اليمن بأمر من كسرى لغزو المدينة لقتل النبى ﷺ ، وهو ما لم يتحقق لموت كسرى ؛ ثم جاء تحرك المسلمين بعد ذلك لتخليص عرب التخوم ؛ المناذرة من موالاتهم للفرس والغساسنة من موالاتهم للروم ، لحرمان القوتين الاعظم أنذاك من استقطابهما ضد دولة الاسلام الصغيرة (٦١) ، فتاريخ عرب العراق والشام ملئ بالموالاة للامبراطوريتين ؛ فقد ساعدت القبائل العربية كسرى فى انتزاع الشام ومصر من الروم فى سنوات الاسلام الاولى ، وحارب عرب الشام مع جيوش الامبراطورية الرومية فى اسيا الوسطى وشاركوا فى الدفاع عن القسطنطينية ضد القوط ، وتولوا حراسة طرق الصحراء فى المشرق لحساب الروم (٦٢) ؛ و استخدم الروم العرب فى حروبهم مع الاسلام ؛ فقد شكل العرب معظم جيش الروم فى معركة مؤته ، ودفع الروم مسيحيى العرب لمحاصرة جيش المسلمين بقيادة ابو عبيدة بن الجراح فى دمشق وفيه خالد بن الوليد ، واثناء تقدم القوات الاسلامية فى مصر حارب فى صفوف الروم عشرون الف فارس من نصارى العرب المقيمين فى مصر بقيادة ابو طور العربى حاكم تنيس المصرية([٦٣]).

وكان الصدام مع الروم أمرا محتوما بعدما لفظوا محاولات المسلمين للتقارب معهم على اساس من اخوة الايمان ، فى وقت ما كان الروم فيه لا يرضون وهم مزهوون بإنتصارهم على الفرس بأن تناجزهم موقف التحدى قوة صغيرة صاعدة فى جوارهم ؛ فحشدوا قوة كبيرة لغزو المدينة ، ولم يكن امام دولة الاسلام الا ان تقبل التحدى الاستراتيجى الكبير ؛ بمهاجمة القوتين الاعظم استباقا فى عقر دارهما المكين فى وقت واحد ؛ لاجهاض استعداداتهما العدوانية ضدها ؛ فلم يكن هدف قوات الاسلام الصغيرة ؛ العدوان فليس هناك عاقل يفكر بمنازلة عملاقين بقوات محدودة العدد والعتاد وفى ان واحد ، فمنازلة قوات امبراطورية على هذا النحو بمثابة انتحار ؛ وكان الخيار الملائم لقوة الاسلام الصغيرة الخروج لقتال العدو على ارضه فى اطراف الصحراء بعيدا عن المدينة قلب الدولة وأخذ زمام المبادرة بمزاياها وكان خيارا عمليا موفقا ؛ فالمبادأة تعوض قلة العدد ، وتجنب سلبيات التخندق والانتظار فى المدينة لنوازل الروم والفرس ؛ من إحباط وضيق الخناق على القوات الاسلامية ، وهى دروس مستفادة من خلاصات غزوة الخندق.

أسلحة قوات الاسلام
الايمان بما فيه من نيات تُغنى عن كثرة العدد
وقلوب تُغنى عن حصانة الدروع

استمدت جيوش المؤمنين القوة من قلوب تذخر بايمان الهمها صمود لا يلين وثقة فى النصر، فأصبحت قوات الاسلام الصغيرة قوة لاتقهر زادتها الطبيعة البدوية الصلبة قوة على قوة ؛ وأدركت فراسة شارل مارتل ملك الفرنجة مصدر قوة المسلمين

رسول الله ﷺ بذلك. "ثم ضربت الثالثة، فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني" قال رسول الله ﷺ عند ذلك: "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم - [ج- ١] ص-٣٥٥] سنن النسائي الجهاد (٣١٧٦) ، سنن أبي داود الملاحم (٤٣٠٢).

[٦٠]) المرجع صحيح مسلم جزء ٤ صـ ٢٢- ٢٥ .

[٦١]) المرجع كتاب فتح العرب لمصر تأليف د. الفرد بتلر الطبعة الثانية ١٩٤٦- صـ ١١٢ و١٢٠و ١٤٧و ٢٥٩ .

[٦٢]) Italy and Her Invaders by Hodgkin - V ١, P٢٨٤

[٦٣]) ورغم هذه الموالاة انشقت بعض القوات العربية عن مساندة الروم ففى الشام ثارت القوات العربية العاملة فى جيش الروم عندما انقطعت رواتبها وانقلبت الى مساعدة عمرا فى فتح مصر ومعهم من اسلم من الروم وفُرس اليمن .

الاوائل عندما استنهضه قومه للتصدى لجيوشهم الغازية التى تقدمت فى ارض الغال فرنسا بقوله " ان لهم نيات تُغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تُغنى عن حصانة الدروع "؛ والتاريخ اثبت ان البدو بصفة عامة سواء الصحراويين منهم كالعرب أو بدو السهول والبرارى مثل المغول والتتار والترك كانوا مقاتلين عنيدين (٦٤).

الفتح والدعوة

كان لابد لدولة قامت من اجل رسالة السماء ، ان تحمل حركتها وفتوحها إطلاقا للرسالة الى الشعوب المفتوحة ؛ بعد تحرير ارادة انسانها من قهر الروم والفرس ليتبين بضميره الحر الحق من الباطل فيما يتعلق بالاسلام ؛ وهو ما عبر عنه المجاهدون الاوائل زهرة بن الحوية وربيعة بن عامر وحذيفة بن محصن والمغير بن شعبة عندما سألهم رستم قائد الفرس في معركة " القادسية " ، ماالذى جاء بكم ؟ قالوا " الله الذى ابتعثنا ؛ وهو الذى جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ؛ ومن ضِيق الدنيا الى سِعتها ومن ظُلم الاديان الى عدل الاسلام ؛ فأرسلنا الى خلقه لندعُوهم الى دينه فمن قبل منا قبلنا ذلك منه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه حتى نصل الى موعود الله وهو الجنة لمن قُتل والظفر لمن بقى " (٦٥).

الجهــــــــــــــــــــاد

بين الحقيقة وافتراءات الدراسات الغربية

تتهم الدراسات الغربية الجهاد على غير الحقيقة بأنه عنصر إستعداء للمجتمعات غير الاسلامية بإستباحته قتالها ، وتجاهل المنددون بالجهاد الأثار الفظيعة للحروب الصليبية (الجهاد المسيحى الاوروبى) التى لم يسلم من فظائعها مسيحيى الكنائس الشرقية اخوتهم في العقيدة سواء فى القسطنطينة او القدس او صقلية ، كما تجاهلت تلك الدراسات فظائع ديوان التفتيش التى روعت متنصري الاندلس من اليهود والمسلمين وهى تدقق فى ايمانهم بمعتقنهم الجديد ، وتناست هذه الدراسات ان الجهاد إنما هو حرب ضد عدوان او لاجهاض عدوان ، وان أصول السياسة والدبلوماسية التى يتشدق بها الغرب تعتبر الحرب احد ادوات تحقيق الغايات السياسية وإحدى وسائل الدبلوماسية ؛ ولا حرج علي المسلمين فى تطبيق هذا الفهم شأنهم في ذلك شأن سياسات العالم فى كل العصور .

والقتال لم يكن أبدا الخيار الوحيد الذى يطرحة المسلمون فى فتوحاتهم ؛ فدائما ما كانت دعوتهم تخييرا للطرف الاخر بقبول الاسلام او دفع الجزية وهى خيارات السلام ولا تدخل بعدها فى شئونهم ، وتركهم وشأنهم فى ديارهم فإن رفض هذا الطرف كليهما فلا مناص من القتال لفرض الارادات فإن كان نصرا يُقيم الاسلام حُكمه وتكون الجزية لمن لم يرتض الاسلام دينا بإختياره الحر بعدما حرر المسلمون بصيرته وارادته ، وهو ما يتفق مع معنى الرسالة فى التبليغ واعلام الاخر إما تقبلها او رفضها .

والجهاد حسبما صنفناه ليس سبيلا للدعوة ؛ فالدعوة لها سُبلها وليس منها ابدا الجهاد وان كان قد يؤسس لها ؛ طبقا لمنهج سلوكيات البشر وليس العقيدة ؛ فجهاد رسول الله كان للدفاع عن العقيدة ورد العدوان وليس لفرض الايمان على الناس ، فالجهاد موقوت بزمن محدد وقصير لكن الدعوة عملية طويلة ممتدة ، الجهاد يتعامل بالسيف والقوة أما الدعوة فلا مجال للقوة فيها فهى عملية نفسية وعقلية صرفة يتفاعل فيها العقل مع الروح على مدى زمنى قد يطول أو يقصُر .

ومن هذا المنطلق ارسل رسول الله الرسل الى ملوك الفرس والروم والمقوقس وغيرهم يدعوهم الى الاسلام بعدما تأكد له ان مبادئه قد نمت الى علمهم ولم يُهدد بالقتال اذا لم يستجيبوا ، لانه على وعى بحقيقة الايمان العقلية والروحية ، ولذا أمرنا ان نُبلغ عنه ولو اية تفتح باب التفكير والمراجعة تُقدم لتقبل الايمان عند المرء ، نص الحديث " بلغوا عنى ولو أية ".

ولو كان الجهاد اساس الدعوة وسبيلها لما استثنى ﷺ ، ومن بعده الخلفاء الراشدون الحبشة من الجهاد (التوسع) لكرامة النجاشى عند رسول الله رغم عدم انتشار الاسلام بها ؛ ولكان المسلمون أيضا قد فرضوا الاسلام عنوة على البلاد التى فتحوها وهو ما لم يحدث ؛ ولكنهم على عكس ذلك كانوا إذا أنتصروا اقاموا منهج الاسلام (الحكم) ، وتركوا امر العقيدة حرا للدعوة والبيان دون أن يرغموا أحدا على الاسلام ؛ ولم يثبت التاريخ حالة واحدة أرغم فيها المسلمون الاوائل أحدا على الاسلام ؛ فلم يكن من سياسة

---

[٦٤]) المصدر : تاريخ الاسلام السياسى صفحة ٣٤٧ ، د. حسن ابراهيم حسن.

[٦٥]) الطبرى صـ٤٩٧.

الاسلام ابدا فى اى وقت فرض الايمان قسرا وجبرا ؛ فلا اكراه فى الدين لان الايمان رهن بالمشيئة الالهية ، ولو كان الامر جبرا ؛ لما وُجد فى الارض التى يحكمها المسلمون منذ أيام سطوتهم طوائف لا تُؤمن بالاسلام بما فيهم الوثنيين مثل تلك الطوائف المنتشرة الان ، وما كان اسلام بعض الامصار التى فتحوها قد تاخر الى ما بعد مائة عام او اكثر من فتحها كحالة مصر التى استغرق اسلام اغلبية اهلها ما يقرُب من قرنين من الزمان ، ولكانت اوروبا العثمانية قد تحولت الى الاسلام وهى فى قبضة العثمانين طوال مدة تزيد عن الخمسمائة عام (الفترة من ١٣٥٠ تقريبا الى ١٨٧٨) ؛ بل ان محمد الفاتح سمح لسكان ميلودرازفو الكاثوليك بالقدوم من خارج الارض العثمانية لتعمير الاراضى المهجورة فى البوسنة ، ولولا ذلك المرسوم "عهد نامة" ما كان فى ارض البوسنة غير اهلها المسلمين .

والامثلة على عدم قسرية الرسالة عديدة فى تاريخ الاسلام ؛ فيذكُر جوستاف لوبون فى اكثر من موضع فى كتابه حضارة العرب " ان الاسلام لم ينتشر بالسيف ، بل اشار الى مقدار الرفق العظيم الذى كان يُعامل به العرب امم البلاد المفتوحة مما شجعها على الاسلام ؛ وضرب امثلة بموقف الخليفة عمر بن الخطاب من اهل القدس ، وسلوك عمرو بن العاص الذى لم يقل رفقا عندما منح المصريين الحرية الدينية وعدلا مطلقا وجزية سنوية ثابتة (٥١ فرنكا) عن الفرد كانت فى متناول اليد فتقبلها المصريون شاكرين طائعيين وهى اقل كثيرا من الضرائب الباهظة التى كان يفرضها عليهم القياصرة النصارى ؛ الذين لم يمنعهم الإخاء المسيحي من التنيكل بالمصريين ولما وجد المصريون معاملة كريمة من العرب وتشددا منهم فى احترام التزاماتهم أقبل المصريون على اعتناق الدين الاسلامى ولغته ، رغم انه كان معروفا عن المصريين انهم من اشد شعوب العالم مقاومة للمؤثرات الاجنبية ، وان اهلها من اكثر الناس تشددا فى التدين ، فقد قاوموا من قبل فرض المسيحية عليهم قسرا رغم شدة الرومان فى ذلك الامر.. ويستطرد لوبون ورغم عناد مصرا فى مقاومة كل ما هو اجنبى نسيت مصر بعد اقل من قرن واحد من الفتح العربى ماضيها الحضارى القوى الذى دام سبعة الاف سنة ولغتها لتعتنق دينا جديدا ولغة جديدة ؛ اعتناقا متينا دام بعد توارى حكم الامة التى جاءت به ".

الداعية وفنون الدعوة

ومعطيات الحضارة الحديثة

اخذت الدعوة الاسلامية منحا إيجابيا جديدا فى ظل معطيات المدنية الحديثة ؛ بإختصرها المسافات فسهلت الاتصال والتواصل ؛ وفتحت العقول لفهم مشترك بين الناس ، ومن الحكمة الاستفادة بكل ما هو جديد لتحقيق أقصى منفعة للدعوة ؛ والرسالة فى ظل التقنيات الحديثة ليست بحاجة للفتح كوسيلة إبلاغ ، فالامر اصبح جهادا إعلاميا للوصول الى المستمع والاستيلاء على حواسه وتفكيره ، ومن وسائل العصر ما يفعل فعل السحر فى مجال الدعوة ، فالتقنيات الفائقة اهدرت حدود المكان والزمان امام رسالة " التبليغ " التى تستمد قوتها من جوهر الاسلام وقوته الذاتية .

ومن اسباب نجاح الدعوة إتباع أساليب المحبة والرفق واللين وحسن الاسلوب والمنطق وليس بالعنف وتغييب العقل ، وهذا هو المنطق القويم الذى يجمله الرسول عليه الصلاة والسلام فى الاشادة بمحاسن الرفق واللين ، ويدعونا الى اتباعهما فى كل امر من امور الدنيا والدين ، فالرفق واللين اقوى من القوة والعنف ويحققا فى التعامل بين البشر مالاتستطيع القوة تحقيقه .

والدعوة فى تعاملها مع النفس بتعقيداتها لا يستميلها الا اللين والحب والرفق لا التعنت والتكبر وقهر النفس والعقل ؛ والرسول يقول" ان الله لم يبعثنى متعنتا ، وانما بعثنى معلما ومبشرا" ؛ ويذكرنا عليه الصلاة و السلام وهو الرؤوف الرحيم بالرفق فى كل الامور فيقول الاثر النبوى " ما دخل الرفق فى شىء الا زانه وما مُنع من شىء الا شانه ، وقال ايضا " ان الله رفيق و يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لايعطى على سواه " وقال " ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر" ، وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه يقول عن الرسول " من يُحرم الرفق يُحرم الخير" .

وتقتضى الدعوة الناجحة انتهاج الموضوعية والنظرة الجامعة الشاملة التى تأخذ فى الاعتبار الظروف السائدة فى بيئة الدعوة ومحيطها وتكوين شخصية المدعو ؛ وهذه النظرة ليست وليدة اليوم وانما سبق وان بين الله ورسوله خُلق الدعوة والداعى طرفى معادلة الدعوة ، فعلاوة على ما تقدم نبه الاثر النبوى الى الاخذ فى الاعتبار تكوين عقلية المدعو وشخصيته فيقول " حدثوا الناس بما يطيقون ، وما انت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة " ونوه" بالبعد عن العنت كله " ، فالعلم بخبايا النفس البشرية عنصر رئيسى فى نجاح الداعية الذى يجعل من التبليغ علاقة مودة ومحبة مع المدعو .

وهذا يستلزم أن يبتعد الداعى عن التطرف والايغال ، وان يُيسر و لا يُعسر ، ويُبشر ولا يُنفر ، وان يبدأ بالايسر فيُقدم السهل قبل الصعب وان يسهل الامر ويهونه ، واوجز الاثر النبوى هذا كله فى اقواله " يسروا ولا تُعسروا ، وبشروا ولا تنفروا " وقوله " انما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين " ، وعن عائشة رضى الله عنها تقول " ما خُيررسول الله بين امرين قط الا اخذ ايسرهما ما لم يكن إثما " ، وقال ﷺ " يا ايها الناس ان فيكم منفرين فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة " ، وقال " الا اخبركم بم يُحرم على النار أو بمن تُحرم عليه النار ؛ تُحرم على كل قريب هين لين سهل " رواه الترمذى .

كما دعى ﷺ الى الاحسان فى كل شىء حتى فى قتل الحيوان فعن ابى يعلى شداد بن اوس عن رسول الله انه قال " ان الله كتب الاحسان على كل شىء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد احدكم شفرته وليُرح ذبيحته " رواه مسلم ، فإن كان هذا حق الحيوان علينا من الرحمة فما بالك بحق الانسان علينا منها .

وهذه التوجيهات تُعلمنا فلسفة رائعة تصلح لكل زمان ومكان ، فالجيد المفيد يستمر ويدوم ويمكن تطبيقه فى كل العصور، وعلي كل من يتصدى للدعوة ان يأخذ بها ويتلاءم والمتغيرات التى لحقت المزاج البشرى فقد اختلف الزمن والناس ، وهما عنصرا الدعوة وعليهما تتقرر مداخلها واساليبها وفنونها المتجددة فى اطار ما اتاحه الاعلام الحديث .

والمسلك الطيب له اثارا ايجابية على المدعو ؛ فعدل الخليفة الورع " عمر بن عبد العزيز " مع اهل " صفد " بسمرقند كان دافعا لاسلامهم عندما أمر بخروج قوات الإسلام منها بعد أن دخلها المسلمون بغتة ودون سابق انذار خروجاً على مبادئ الحرب الإسلامية ؛ ويُروى فى هذا الشأن أن أهل سمرقند شكوا الى عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة ، دخول " قتيبة " قائد الجيش الإسلامى مدينتهم بغتةً وأسكنها المسلمين بغير حق ، فنَصب عمر " جميع بن حاضر الباجى " قاضياً ، فحكم بخروج المسلمين وجيشهم من المدينة على ان يقوم قائد الجيش بإنذار أهلها ولا يأخذهم بغتة ،مما كان له أكبر الأثر ليس فقط في إسلام أهل سمرقند وانما اندفاعهم بالمشاركة فى الجهاد الاسلامى (٦٦) ، وللخليفة مأثرة انسانية أُخرى تعبر عن سماحة الاسلام عندما امر بعد توليه الخلافة برفع الحصار الذى فرضه سلفه على القسطنطينية رافضا اجاعة وإعطاش اهلها من ألاطفال والشيوخ والنساء .

فالاسلام ليس جامدا ، ومن نِعم الله على المسلمين ان منحهم حق إعمال المنطق والحكمة والمرونة إستجابة للمتغيرات والظروف ووجوب مراعاة الظروف عند النظر فى الامور واعلاء مصلحة الامة فوق كل اعتبار ، ولولى الامر التصرف بما يتفق مع العقل والمنطق اذا ما استثار امرا من امور الدين بلبلة العامة ، او شق على الامة فى زمن ما الوفاء به او عاد عليها بوبال او عداء الاخرين وبتبعات لا قبل للمسلمين بها ، فقد يرى ولى الامر امرا اخر حتى وان اختلف مع فتاوى البعض ؛ فليس كل من أُفتى عالما فقيها ، فالمسلم يستطيع دائما وبأريحته الربانية ان يستشعر بمطلق إيمانه الصحيح ما يقترب به من الحكم الصحيح للامور؛ وهو ما أكده الحديث الشريف فعن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال اتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال " أجئت تسأل عن البر والاثم " قلت نعم ؛ قال استفت قلبك ؛ البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وان افتاك الناس وافتوك " .

وتجاوز الاحكام مكفول لولى الامر فله عند الضرورة اذا ما ارتأى فى وقته وظروفه ضررا سيلم بالامة وبالاسلام فعندئذ عليه بمقتضى الحكمة والحنكة والمسايسة ان يعمل بما يراه صالحا ، قياسا على ما فعله عمر بن الخطاب بعدم اقامة الحدعلى السارق الفقير الذى دفعته الحاجة ايام القحط الى السرقة.

المضمون الروحى للاسلام
و تاثيره على الاوروبيين

تبنت اوروبا لفترة وجيزة توجها إيجابيا نحو الحضارة الاسلامية بتأثير سحر الشرق الذى استهوى الكثير من الاوروبيين فى العصر الحديث ، فأصبحوا أكثر قربا وتفهما لثقافة الاسلام ، ومن أبرزهؤلاء نابليون بونابرت الذى أدرك بفراسته قوة المضمون الروحى للاسلام فحاول أن يستغله لتحقيق أهدافه السياسية ؛ فعلى حد قوله فى مذكراته " أنه درس الاسلام قبل حضوره الى مصر ، وشعر بالطُمأنينة تستقر فى نفسه الى صدق تعاليمه ، ورأى فيه اساسا ملائما لبناء الدولة التى يطمح فى اقامتها " ، وان

---

[٦٦]) د/ مصطفي السباعى – من روائع حضارتنا صـ ١٤٦ .

احاديثه مع علماء الازهر بعد ذلك أكدت له أن الاسلام عقيدة وجوهر وليس رسوما وظواهر (٦٧) ، فبات مقتنعا بأنها توفر قاعدة صالحة لبناء أعظم دولة فى التاريخ ، وإن هذا الاقتناع اختمر لديه عند إعداد الحملة الفرنسية الى الشرق التى كانت على حد قوله تمهيدا لاقامة دولة إسلامية يكون على رأسها ، وأعرب نابليون عن أمله فى ان يأتى الوقت الذى يتمكن فيه من توحيد العلماء والحكماء من جميع البلدان فى نظام يقوم على مبادىء القرآن التى هى فى رأيه وحدها حق وبها وحدها تتحقق السعادة للانسان " (٦٨) .

ومن هذا المنطلق كان نابليون يعتقد انه رجل الاقدار المعنى بإحداث تغيير فى العالم العربى فيقول " تتمنى ولايات الدولة العثمانية التى يتحدث اهلها العربية وقوع تغيير عظيم وتنتظر الرجل الذى يُحدث هذا التغيير " ، واتساقا مع هذا التفكير لم يكن مشروع نابليون عسكريا صرفا وانما حضاريا فقد استقدم معه مؤسسة استشراقية تضم جيشا من الخبراء والفنيين والمؤرخيين والعلماء والمهندسيين والرسامين كأساس لبناء دولة حديثة ؛ وكانت لمصر مكانة خاصة فى مشروعه فقد كان يرى " القاهرة والاسكندرية أجدر من عواصم أوروبا لتكونا على رأس العالم كله " ، ويستطرد نابليون فى القول بأنه كان يُعد لاعتناق الاسلام رسميا عندما يصل الى بغداد ويعلن انفصاله عن عقيدته الاولى ، غير أنه لما فاتح معاونيه بدخيلة نفسه اعترض عليه البعض مبينين له وعورة الطريق ، فرد عليهم بأن هنرى الرابع ملك فرنسا السابق تحول من العقيدة البروتستانتية الى العقيدة الكاثوليكية فى سبيل المصالح العليا ، ولا يوجد مايمنعه هو بدوره من التحول الى العقيدة الكاثوليكية او الى الاسلام وأنه يستطيع التدرج فى بناء الدولة التى يؤمن بها واظهار صورتها الاسلامية شيئا فشيئا ؛ واستغلالا لسطوة الايمان على اهل المشرق ، إستخدم نابليون ظلال الدين لخدمة اغراضة السياسية فذكر فى بيانه الاول " ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون ؛ وانهم اصدقاء حقيقيون للمسلمين ؛ مدللا على ذلك بتخريبهم كرسى البابا فى روما الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام " .

ويُقدرالاستشراقيون **Orientalist** الذين تميزوا بالرصانة العلمية والموضوعية الاسلام وحضارته ؛ ويجئ على رأس هؤلاء الالمان والروس ، ومن الالمان يوسف هل الذى تعرضنا انفا لبعض ما اورده فى هذا الشأن والشاعر جوته الذى اعد قصيدة عام ١٧٧٤ تقديرا للرسول (ﷺ) ، ونيتشة والفيلسوف الشهير هيجل و الفيلسوف ازوالد شبنجل الذى انصف الاسلام فى كتابه " سقوط الغرب " الصادر عام ١٩١٧ .

ومن الروس الامبراطورة كاترين التى اصدرت طبعة للقرأن على نفقتها الاديب الكبير تولستوى الذى قدم مبادئ الاسلام فى كتابه " احاديث الرسول " دفاعا عن الاسلام فى مواجهة مهاجميه ؛ ويرى فى رسول الاسلام احد كبار المصلحين بهدايته أُمة بأكملها الى نور الحق والجنوح بها الى السلام ، فكفت عن النهب وسفك الدماء ، ويقف معه فى نفس الصف اخرون من الادباء مثل الكسندر بوشكين ومن قصائده "قبسات من القرأن " و " الرسول " ، ولميخائيل ليرمنتوف قصيدة عن الرسول.

ويُعد كتاب المستشرق الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى " تاريخ الادب الجغرافى العربى " من بين الكتب الاستشراقية العظيمة من ناحية الموضوعية والامانة العلمية .

وهناك اخرون غير من سبق ذكره مثل الراهبة كارين ارمسترونج والمستشرق الفرنسى موريس بوكاى الذى اسلم ودافع عن الاسلام ، وعالم الطبيعة الفرنسى رينيه جينو ، والفرنسى د جوستاف لوبون وقد اوردنا سابقا بعضا مما كتباه ونُضيف الى هؤلاء الكاتب الامريكى مايكل هارت .

اما مروجوا الافتراءات فللاسف اثرت كتاباتهم على نظرة الغربى العادى للاسلام ؛ فإنحرف فكره الى عداء اعمى لا بصيرة فيه ، تضخم بتأثير مناخ الكراهية والعداء المتبادل الذى يولد التطرف بما فيه من تحيز مضل وعنف وتعصب ينعكس على عقول الافراد فى الجانبين ؛ يؤجج سلبياته اعلام الجانبين لاسباب سياسية ؛ فيتخير عمدا أحداث التطرف ذات الطبيعة الفردية لتعميمها والترويج لها لتأجيج العداء فى العقل الغربى ضد الاسلام ومُعتنقيه ، بدواعى لا صلة لها بأصل العقيدة يأخذ ظواهرها الفرد الغربى على انها مسلمات يدمغ بها الاسلام والمسلمين دون ان يعنيه التدقيق فيها طالما توافقت مع اتجاهاته السلبية والمعادية للاسلام ، ويزيد الطين بلة تصرفات غير مسئولة لبعض المنتسبين للاسلام.

---

[٦٧]) الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا صـ١٠ ، للشيخ محمد الغزالى .
[٦٨]) مذكرات نابليون فى سانت هيلانة – جزء ٣ صـ ١٨٣ نقلا عن كتاب محمد رسول الله - تأليف ايتين دينيه وسليمان ابراهيم.

ولما كان من السهل الهدم وبناء العداء والكراهية ؛ فإنه من الصعب تصحيح الصور المغلوطة لدى المواطن الغربى الذى تضغط عليه أموره الحياتية الخاصة جدا ؛ ولا يهمه أن ينشغل بأمور بلدان بعيدة عنه طالما لم تضغط عليه ظروف قاهرة لاعطائها قليلا من اهتمامه خاصة وان هذه البلدان مغلوبة على امرها وغير فاعلة او فعالة فى عالم اليوم ، ويتطلب تصحيح الامر لصالح الجانبين وللحضارة الانسانية ؛ الدعوة لفكر متسامح ذو نظرة رشيدة بدون تعصب او تطرف ، يجتهد فيه المسلمون وهم الطرف الضعيف المتخلف لأعادة بناء دولهم وتوحيد كلمتهم وقوتهم لبناء جبهة دولية قوية تُفيدهم وتُفيد العالم على نحو ما ذكرة " هارولد سميث "" لو أمكن إطلاق التماسك الاسلامى عبر الحدود لأمكن أن تصير وحدة الأمة قوة إيجابية فى العالم " وذلك لن يتحقق الا بفهم متصالح من الغرب وعمل عربى ايجابى يرعى مصالح الجانبين لا غالب فيه ولا مغلوب.

البُعد الاسلامى فى تاريخ الاندلس
جهاد ممالكها

الفصل الاول
الاندلس وفتوحها الاوروبية

فتح الاندلس

اولا العصر الأموي (الدمشقى - الاندلسى)

معركة شذونة (رمضان ٩٢هـ / يوليو ٧١١م)

بعد ان اتم العرب فتح المغرب ، كتب موسى بن نصير الى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق يستأذنه فى فتح شبه جزيرة إيبريا ، فأذن له ان يقوم بحملة استطلاعية ، فبعث موسى بسرية بقيادةا ابي زرعة طريف بن مالك ؛ فنزل في جزيرة "بالوماس" التى تسمت بإسمه جزيرة طريف Tarifa وعاد محملاً بالغنائم ، وبدأ موسى الغزو بعدما استوثق من مساعدة يليان حاكم سبته فى شمال افريقيا التابع لملك القوط الغربيين فى ايبيريا ، وإختار لقيادة حملة الفتح البربري طارق بن زياد ومعه سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر من رهائن المصامدة .

أبحرت الحملة من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ أبريل سنة ٧١١ م ؛ في سفن وضعها "يليان" تحت تصرف المسلمين وبعض السفن التي أنتجتها دار الصناعة بتونس، ونزلت الحملة على الشاطىء الجنوبي لاسبانيا ، ما بين شاطىء طنجة وجبل كالبي الذى تسمى منذ ذلك الحين بجبل طارق؛ وخلال عدة ايام أقامت الحملة سوراً أحاط بموقعها سُمى بسور العرب وأعدت قاعدة عسكرية بجوار الجبل فى مدينة بالجزيرة الخضراء Algeciras (اسمها عربى) على الساحل لحماية ظهرها في حال الانسحاب ؛ وسُمي الموقعَ بجزيرة أم حكيم على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ثم تركها في هذه البلدة فنسبت اليها.

وهذا الميناء ذو موقع استراتيجي مُحصن بالطبيعة يؤمن حشد القوات ، ينفتح بدون عوائق على مدينة سبته فى الساحل الافريقى المقابل ويسهُل الاتصال بها ؛ بينما ينعزل بالمرتفعات عن باقى الجزيرة الايبيرية ، مما يوفر للحملة الأمن وإستمرار تدفق المؤن والمدد من سبتة .

وأقام طارق قاعدة اخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك النخعي ؛ ويقول ابن خلدون "فصيرهما عسكريين احدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق ، والآخر على طريف بن مالك ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به، وأداروا الأسوار على انفسهم للتحصن" .

ولما علم رذريق Rodrigo ملك القوط وكان منشغلاً بإخماد ثورة البشنكس فى نافارا بأقصى الشمال؛ بنزول المسلمين فى إسبانيا وبلوغهم بحيرة لاخندا "Laguna de la Janda" في شذونة ، (٦٩)، أسرع لملاقاتهم بحشود ضخمة ، فانزعج لهذا الخبر طارقا وبعث الى موسى بن نصير طالبا الغوث ؛ وفى هذا كتب ابن قتيبة قائلا "وكتب طارق الى مولاه موسى ان الأمم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث" ، و قال في هذا المعنى صاحب كتاب اخبار مجموعة "وكتب طارق الى موسى يستفذّه ويخبره بانه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وان ملك الأندلس قد زحف اليه بما لا طاقة له به" ؛ فإمده موسى بخمسة آلاف جندي فصار مجموع المسلمين حوالي اثني عشر الفاً خطب فيهم طارق يستحثهم على القتال "أيها الناس أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر.. وإني لم أحذِّركم أمراً أنا عنه بنجوة.. واعلموا إنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفهِ الألذّ طويلاً .. وإن حملتُ فاحملوا وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه أو أُقتَلَ دونه ، فإن قتِلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولّوا الدبر

---

(٦٩) يرى المؤرخ "سافدرا" ان هذه الثورة قامت بإيعاز من اعداء الملك وفيهم عامله على سبتة لشغل انظاره عن نزول المسلمين .

لعدوّكم فتبدّدوا بين قتيل وأسير"(٧٠).

وقعت المعركة فى شذونة بجنوب غرب إسبانيا ، وتُعرف الموقعة في المصادر العربيه والاسبانيه بأسماء متعددة منها موقعة وادي لكة تعريب لكلمة "Lago" أو Locus ومعناها البحيرة وعند بعض العرب سموها معركة البحيرة لقربها من احدى البحيرات ، او معركة وادي البرباط RIO Barbate ، او معركة شريش Jerez ، او معركة السواقي وحُرفت للفظ Segoyueda ، ودامت المعركة ثمانية ايام من الاحد ٢٨ رمضان الى الاحد ٥ شوال سنة ٩٢ هـ / ١٩-٣٦ تموز سنة ٧١١م ، وكانت طبقا للمصادر قاسية اقتتل فيها الطرفان قتالاً شديداً ؛ تخلف عنه عظاما كثيرة بقيت في ارض المعركة دهراً طويلاً ، وإنتهت بإنتصار المسلمين ومقُتل رذريق ملك القوط ".

ولما بلغ موسى بن نصير فُتوح طارق بن زياد إغتم من الحسد على حد قول المقري نقلا عن ابن حيّان ؛ وتهيّأ موسى للمسير إلى الأندلس في جيش من ١٨ الف مقاتلاً أغلبهم من العرب، ونزل بالجزيرة الخضراء في رمضان سنة ٩٣ هـ/ يونيو ٧١٢م ، وتوجّه إلى إشبيلية وفتحها سنة ٩٤هـ بعد حصارها أشهراً، ثم فتح ماردة حيث علم إشبيلية بتمرد إشبيلية وبمقتل نحو ثمانين رجلاً من المسلمين فيها على يد القوط ، فوجّه جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز بن موسى أعاد فتحها هى ولبلة ، بينما واصل موسى تقدمه عبر جبال جلّيقية والتقى طارق بن زياد بمدينة استرقة وسارا إلى طليطلة وفى قول اخر التقاه فى طليطلة وحدث الصدام بينهما ؛ وتنازع هو وموسى الذى كانت فى نفسه غُصة من إنتصارات طارق وبدلاً من أن يُهنئه بفتوحه للاسلام أهانه ووبخه وعزله وسجنه ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخّل الخليفة الوليد الذى استدعاهما الى دمشق(٧١)، ويروى المؤرخون ان خلافا حدث بينهما عندما طالب موسى بن نصير طارقا بأداء ما عنده من مال الفيء ومغانمه من ذخائر الملوك والبلاد ، ومنها المائدة المنسوبة إلى النبيّ سُليمان عليه السلام ، ولما إستعجله أتاه بها بدون إحدى أرجلها وقد إحتفظ به عنده ،

توجه موسى وطارق الى دمشق بناء على استدعاء الخليفة، وبصحبتهما جموع من الأسرى والعبيد والعديد من النفائس وأفراد الأسرة الملكية القوطية ، ولما وصل الركب طبريا في فلسطين ؛ أرسل اليهما سليمان ولي العهد ؛ وكان الخليفة يصارع الموت؛ طالبا منهما التأخّر إنتظارا لموت الخليفة الوليد لرغبته فى أن يُنسب اليه الفتح ويستحوز على الغنائم لنفسه ، ولكنهما تابعا المسير خلافا لرغبته ، فغضب عليهما وعندما تولّى الخلافة بعد اربعين يوما عزل موسى وأهمِلَ طارق بن زياد الذى مات معدماً فى دمشق سنة ٧٢٠ م.

التطور التاريخى لعهود الاندلس

سنستعرض تاريخ الاندلس طبقا لتسلسل العهود الموضحة بالجدول التالى (٧٢) ؛ والذى يُوضح فى نفس الوقت تأكل مساحة دول الاندلس المتعاقبة بعد الفتح :

العصـــــر	التـــــاريخ بالتقريـب	المســاحة بالكيلومتر٢
اولا - الدولة الاموية فى دمشق	٧٤٠م	٧٠٠,٠٠٠

(٧٠) اورد المؤرخ القركبى ابن الكردبوس ان طارقا احرق اسطوله حتى يحرص جنوده على النصر ولم يرد هذا على لسان غيره من المؤرخين مما يُضعف القصة ويشكك فى الحدث فقد كانت المغرب قريبة جدا من الساحل الاسبانى ومن السهل العودة الى المغرب ارضا كما ان ليس معقولا ان يحرق اسطولا مستعارة معظم مراكبه من يوليان حاكم سبته القوطى المتعاون مع المسلمين ، كما ان المدد جاء تباعا بناء على طلب طارق وما كان هذا ليحدث دون وجود الاسطول.

(٧١) نفح الطيب ج١ ، ص٢٦٩-٢٧٢ .

(٧٢) ويلاحظ تناقص مساحة الاندلس من ٧٠٠ الف كيلومتر عند الفتح الى ٣٠ الفا عند سقوط دولة غرناطة.

ثانيا - الامارة الأموية (عبد الرحمن الداخل واسرته)	٩٤٠ م	٤٤٠,٠٠٠
ثالثا - الدولة العامرية (المنصور بن أبي عامر واسرته)	١٠٠٠ م	٥٨٠,٠٠٠
رابعا - ملوك الطوائف	ـــــــ	ـــــــ
خامسا - المرابطون	١١٠٠م	٢٥٠,٠٠٠
سادسا - الموحدون	ـــــــ	ـــــــ
سابعا - الدولة النصرية	١٤٥٠م	٣٠,٠٠٠

ولاة الأندلس
منذ الفتح (العهد الأموى الدمشقى) الى دخول عبد الرحمن الداخل

ألفاتح أمير الجيش طارق بن زيـــــاد ٧١١ ٧١٢
١ موسى بن نصير اللخمي ٧١٢ ٧١٣
٢ أبو عبد الرحمن بن مو ٧١٣ ٧١٤
بن نصير
٣ عبد العزيز بن موسى بن نصير ٧١٤ ٧١٦ - قُتل
٤ أيوب بن حبيب اللخمي ٧١٦ ٧١٦
٥ الحر بن عبد الرحمن الثقفي ٧١٦ ٧١٩
٦ السمح بن مالك الخولاني ٧١٩ ٧٢١
(فتح سبتمانية بجنوب فرنسا وإستُشهد بالقرب من طولوشة)
٧ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ٧٢١ ٧٢١ (الولاية الاولى)
٨ عنبسة بن سحيم الكلبي ٧٢١ ٧٢٦ قُتل عام ٧٢٦ اثناء التقدم فى شمال فرنسا
٩ عذرة بن عبد الله الفهري ٧٢٦ ٧٢٦
١٠ يحي بن سلمة الكلبي ٧٢٦ ٧٢٨
١١ حذيفة بن الأحوص القيسي ٧٢٨ ٧٢٨
١٢ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ٧٢٨ ٧٢٩
١٣ الهيثم بن عبيد الكناني ٧٢٩ ٧٣٠
١٤ محمد بن عبد الملك الأشجعي ٧٣٠ ٧٣٠

١٥	عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى	٧٣٠	٧٣٢	أستشهد عام ٧٣٢ في معركة بلاط الشهداء قُرب بواتييه
١٦	عبد الملك بن قطن الفهري	٧٣٢	٧٣٤	إستولى بلج بن بشر بن عياض على الأندلس وقتل بن قطن عام ٧٣٤
١٧	عقبة بن الحجاج السلولي	٧٣٤	٧٤٠	تُوفى عام ٧٤١
١٨	عبد الملك بن قطن الفهري	٧٤٠	٧٤١	
١٩	بلج بن بشر القشيري	٧٤١	٧٤٢	قُتل قُرب قرطبة عام ٧٤٢
٢٠	ثعلبة بن سلامة العاملي	٧٤٢	٧٤٣	
٢١	الحسام بن ضرار الكلبي	٧٤٣	٧٤٥	ثار عليه الصميل بن حاتم الكلبي وخلعه ثم قُتل بعدها عام ٧٤٧
٢٢	ثوابة بن سلمة الجدامي	٧٤٥	٧٤٦	تُوفى فى ٧٤٦
٢٣	الصميل بن حاتم الكلبي	٧٤٦	٧٤٧	تُوفى فى٧٥٩
٢٤	يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفــــــهرى	٧٤٧	٧٥٦	
٢٥	عبد الرحمن بن معاوية	٧٥٩		

إستغرق عهد الولاة حوالي اثنين وأربعين سنة من عام ٩٥ الى١٣٨ للهجرة ، وتوالي بعد موسى بن نُصير اثنان وعشرون والياً ، احدهم ابنه والاخر ابن اخته ، وإتسم عصر الولاة عموما بعدم الاستقرار كحال الاندلس فى معظم عصورها لكنه كان كافيا لانتشار الإسلام وتوطن العرب والبربر سواء فى الاندلس أو فى ارض الغال ، فقد كان جهادهم خالصا وعهد فتوح ما وراء الاندلس للتغلغل فى قلب أوروبا ، وبدأ عهدهم بتحول القوط الى الاسلام بالزواج المختلط بين العرب والبربر بالقوطيات ، وجاء من نسلهن جيلا من الموّلدين كان منهم علماء مشهورين في تاريخ الأندلس ؛ وضُربت العملة باسم موسى بن نُصير كأول والى عربي يحكم الأندلس ، وصدرت العملة باللغة اللاتينية فلم يكن قد تم إدخال اللغة العربية بعد فى دار سك العملة ، وفى بداية عهدها كانت الأندلس جزءا تابعا لولاية المغرب الى ان فصلها عمر بن عبد العزيز والحقها مباشرة بالعاصمة الأموية دمشق وكانت طليطلة مقرا للحاكم بإختيار موسى بن نُصير ، ومن الجدير بالذكر ان بعض المناطق داخل الدولة الاسلامية فى الاندلس بقيت مستقلة ودفعت الجزية حتى ذابت فى المجتمع الاسلامى الخريطة بالمراجع).

وتوالى من بعد موسى ولاة من بينهم اقارب له هم :

ــ عبد العزيز بن موسى بن نصير تولى عام ٩٥هـ - ٧١٤م ؛ ولاه اباه قبل استدعاء الخليفة له ولطارق بن زياد إلى دمشق ، وقد أتم عبد العزيز خلال سنتين ٧١٤م-٧١٦م فتح ما تبقي من الجيوب القوطية في الشمال الغربي (البرتغال) فدخل يابرة وشنترين وقلمرية واستورقة وفتح قواده مدن الشمال الشرقي كطرطوشة وجيرونة وأرغونة، وكانت ولاية عبد العزيز مشحونة بالاضطرابات والفتن تارة بين العرب والبربر وتارة بين العرب انفسهم بين القحطانيين والعدنانيين .

تزوج عبد العزيز بأرملة لذريق ملك القوط ؛ التي أسلمت وتكنت "بأم عاصم"، ومات مقتولاً وهو يصلي في مسجد بإشبيلية في رجب سنة ٩٧ هـ بعد أن دامت ولايته سنة وسبعة أشهر([٧٣]) ، وتولى من بعده أيوب بن حبيب اللخمي عام ٩٧هـ - ٧١٦ م وهو ابن أخت موسى بن نصير ؛ وهو من نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، وتعاقب الولاة من بعده ومعظمهم من المجاهدين الفاتحين .

[٧٣]) يحكى جرجي زيدان أن أرملة لذريق لما تزوجت عبد العزيز بن موسى لم تدخل الإسلام ، بل إنها أثّرت عليه فتنصر من أجلها وما زالت به حتى ألبسته تاجاً كتاج النصارى فقتله بن عذرة البلوي في المسجد بعد صلاة الفجر في ٦ رجب ٩٧هـ/٧١٦م ، ولا توجد مصادر عربية تؤكد ذلك انما تذكر ان من قتله هو حبيب .

فتوح الاندلس ومستوطناتها
فى غرب ووسط أوروبا

اصبحت الاندلس فى الفترة ٩٦ هـ - ١١٤هـ قاعدة رئيسة لدفع المد الاسلامى الى جنوب أوروبا ، وفي ظرف ٢٠ سنة استطاع الإسلام أن ينصب راياته على منطقة سبتمانيا: أربونة، آجده، ماغيولون ونييمس، قبل أن يغامروا في اتجاه الجورا عبر سهول الرون ، فقد إستهل موسى بن نُصير الغزوات الإسلامية لأراض الغال(فرنسا) سنة ٩٦ هـ عقب فتح الاندلس ، فأرسل حملة إلى طرطوشة وبرشلونة وأربونة (Narbonne) أقام في الاخيرة مسجداً ، وواصلت الحملة تقدمها إلى بلدة ابنيون (Avignon) على نهر الرادنة (الرون Rhône) ؛ وتتالت الحملات على يد عبدالعزيز بن موسى بن نُصير ، والحر بن عبدالرحمن الثقفي ، والسمح بن مالك الخولاني الذى قاد حملة من برشلونة إلى مدينة طلوشه (تولوز) (Toulouse) وأُستشهد على يد جنود أودو عام ٧٢٢ م في تولوز ، وكانت هزيمته التى ضخمتها المرجعيات التاريخية ؛ الاولى بهذا الحجم وقد خلفت أصداء قوية فى منطقة أقطانيا (الأكيتان)، واستطاع خلفه القائد عبد الرحمن الغافقي جمع شمل ما تبقى من المسلمين ليرجع بهم إلى نربونة ، وقد بالغ الدوق أودو في رسالته إلى البابا غريغوار الثاني من حجم هزيمة العرب، ومن الغريب ان هذا الدوق تحالف مع المسلمين بعد ذلك ووافق على خطبة ابنته لـ مانوز حاكم نربونة وهو بربري مسلم ([٧٤]) .

وبعد سنة من هزيمة المسلمين فى طولوشة (تولوز)، تعرضوا لهزيمة أخرى فى كوفالونغا بأستوري ، ولكن هذا لم يوقف الفتح وإنما إستأنفه عنبسة بن سحيم الكلبي بعد ذلك بسنتين وإستولى على ساردينيا، كورسيكا، جزر الباليار، كركاسون، نيم (Nîmes)، ليون (Lyon)، قبل أن يصل إلى أبواب أوتون التي أحرقها عن آخرها، فيما استسلمت له مدينة سانس (Sens) من دون معركة وهى على بعد ١٥٠ كيلومتر من باريس ، ولكنه أُستشهد في طريق العودة عند نهر الرون عندما أصابته نبلة أردته قتيل ؛ واستمرت الحملات بعد ذلك من عذرة بن عبدالله الفهري ، والهيثم بن عبيد الكلابي ، والغافقي فى ولايته الثانية (فتح طولوشة) ؛ وفى حملته الاخيرة عبر جبال البرانس اتجه إلى مدينة برديل (Bordeaux) وهزم جيش الفرنجه ، ثم اتجه إلى بواتييه (Poitiers) على نهر اللوار بوسط فرنسا حيث هُزم وأُستشهد في معركة بلاط الشهداء الشهيرة في رمضان سنة ١١٤هـ (معروفة عند الاوروبيين بمعركة بواتييه) .

توقف الفتح بعد الغافقى وكان المد الاندلسى قد غطى نصف مساحة فرنسا الحالية من ليون وغرونوبل ووادى الرون ودوفينيه الى بورجونيه ، وتواصل هذا المد بجهود فردية في القرن الثالث الهجري بدعم خلافة غرناطة الاموية عندما استطاع البحارة الأندلسيون الاستيلاء على مدينة نيس وأقاموا مستوطنة أندلسية في جنوب فرنسا إمتدت حتى سويسرا إستمرت ٨٢ عاماً ، ثم جاء الحاجب المنصور محمد بن ابي عامر العامري مؤسس الدولة العامرية ليختتم عهود التغلغل فى اوروبا عبر الاندلس بغزوة ليون فى فرنسا حيث هزم القوات الأوربية ، ومن بعده تداعت الاندلس ومستوطناتها الاوروبية ومعها تداعت طموحات الفتح فى اوروبا (٧٥).

معركة بلاط الشهداء (بواتييه) وما بعدها

وهى المعركة الحاسمة التى مكنت الغاليون وحلفاؤهم الاوربيون من عرقلة المد الاندلسى ؛ فعندما استولى المسلمون على نربونة عام ٧١٩ ثم كركاسون ونيم عام ٧٢٥ فى بداية الاختراق الاندلسى لجنوب فرنسا هال الغاليون سرعة تقدم المسلمين فى

---

[٧٤]) اقلق هذا الحدث شارل مارتل لتخوفه من التألف مع السلمين وتذرع بالفرصة لكي يبعث جيشا لإخضاع منطقة الأكيتان ؛ كما هاجم وأحرق العديد من أراضي الدوق أودو، ثم تحالفا لاحقا ضد الجيوش الإسلامية.

[٧٥]) وبخلاف الفتوح الاندلسية فى اوروبا فى عهد الامارة الاموية والعامرية وهى اخر فتوح الاندلس فى اوروبا ، كانت الاندلس مصدرا لهجرة سلمية اخرى من المورسكيين ذوى الاصول المسلمة إستقرت فى جنوب فرنسا بعد فرارهم من اسبانيا الكاثوليكية بعد سقوط غرناطة في القرن السادس عشر الميلادي يُقدر عددهم بحوالى مائة وخمسون الفا ؛ اشترطت عليهم فرنسا ان أرادوا البقاء فى اراضيها الاستمرار على الكاثوليكية فإندمج الكثيرون منهم مع تعاقب الأجيال في المجتمع الفرنسي _ المصدر

اسبانيا وجنوب الغال فحثوا شارل مارتل على التصدى لهذا المد وهو فى بدايته قائلون : ماهذا الخزي ؛ سمعنا بالعرب وخفنا من مجيئهم من الشرق فإذ بهم يأتون من المغرب ويستولون بجموع قليلة العدد والعدة التى لا دروع فيها ؛ على بلاد الأندلس رغم عظم عددها وعتادها فأجابهم : إن لهم نيات تغني عن حصانة الدروع ، والرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه وهم في بداية أمرهم فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم بالغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا علي الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر (٧٦) ، وقد كان محقا وحصيفا فى نظرته للعرب بما فيهم من إنقسام وحرص على المغنم وكانا سببا إنتكاساتهم طوال تاريخهم وليس فقط فى بواتيية (٧٧) .

وفى نفس الوقت عمل شارل مارتل على حشد قوة يضمن بها النصر فلم يتعجل لقاء المسلمين قبل ترتيب اوضاعه فبدأ بلملمة الامبراطورية التى لم تكن قد توحدت بعد تحت قبضته ؛ وفى عام ٧٣٠ كانت الاوضاع بالنسبة لشارل مارتل قد اصبحت مواتية بعد حسمه معركة بافاريا وإنتصاره على ألمانيا والصوابيا ، وهو نفس العام الذى دخل فيه المسلمون أفينيون ، وكان الغافقى (فى ولايته الثانية للاندلس) كان قد استأنف الحملات على فرنسا لتقوية قاعدة "أربونة" الإسلامية ، فعبر جبال البرانس واتجه لفتح مدينة "آرل Arles" التي توقفت عن دفع الجزية للمسلمين واسترجعها بعد معركة عنيفة ثم توجه نحو بوردو عاصمة دوقية أقطانية وهزم حاكمها الدوق "أودو" هزيمة قاصمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordongne والجارونGaronne ؛ فإنسحب "أودو" شمالا مستغيثا بـ شارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية حُكام الفرنجة ، بينما إستمر الغافقى فى التقدم على طول نهر اللوار فاتحا المناطق إلى مدينة تور Tours .

ولما أدرك شارل مارتل أن هدف جيوش المسلمين أراضي دولة الفرنجة ذاتها، بعث يستقدم الرجال من حدود الرين حتى تجمع له جيش ضخم من الألمان والسكسون والسويف وتجهز بقوة جرارة لمواجهة الغافقى والتقى الجمعان عند بواتييه ؛ وحين أراد عبد الرحمن الغافقي اقتحام نهر اللوار لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى عند بواتييه فاجأه شارل مارتل بجيشه الهائل ، فاضطر الغافقى إلى الارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور ؛ ولما لاحظ شارل ارتداد المسلمين عبر بقواته النهر وعسكر بجيشه على بعد أميال قليلة منهم .

ودارت المعركة في رمضان ١١٤ هـ/أكتوبر ٧٣٢م ، وفى اليوم الأخير للمعركة التى احتدم فيها القتال العنيف على مدى ايامها العشر ؛ أرسل شارل فرسانه لمهاجمة معسكر المسلمين حيث غنائمهم وهو يعلم مسبقا لخبرته بهم مدى حرصهم على الغنائم وانهم سيهجرون ميدان لاستنقاذها ، وهو ما حدث فعلا فترك معظمهم ساحة القتال لرد الهجوم عن المعسكر بينما صمد عبد الرحمن الغافقى وقلة من جيشه فى ميدان القتال فإستُشهد وعدد كبير ممن معه فتخلى الباقون عن استكمال المعركة وإنسلوا هاربين تحت جنح الظلام تاركين غنائمهم المهولة سبب هزيمتهم ؛ وعادوا الى أربونة قاعدتهم في سبتمانية ، وفوجيء الإفرنج في الصباح بخلو معسكر المسلمين ورحيل جنوده بعد ان تخلوا عن غنائمهم .

لم يطارد شارل مارتل فلول جيش المسلمين الفارة من المعركة فقد اكتفى بدحر القوى العربية الرئيسية الغازية وانطوائها فى ناربون ، ورأى ان هناك من الاقاليم الفرنسية ما هو اكثر خطرا من المسلمين ويستوجب الالتفات اليه مثل Hunald دوق اقطانيا الذى يهدد خطوط اتصاله بالشمال ، وانشغل لفترة بضم الدوقية بعد وفاة الدوق أودو سنة١١٧هـ/٧٣٥م ؛ فى تلك الاثناء تحالف الدوق الثائر مورونت Maurontius دوق مارسيليا وحاكم اقليم بروفنس مع يوسف عبد الرحمن الفهرى حاكم اربونة (ناربون) للتصدى لحملة شارل مارتل بالجنوب الفرنسى لقمع البرجنديين والفريزيين التى دمر فيها فى طريق عودته من اقليم Septimania سلسلة من المدن والحصون منها افينونAvignon التى رفضت مساندته ضد العرب .

---

[٧٦]) تاريخ الاسلام السياسى - صفحة ٣٤٧ ، د. حسن ابراهيم حسن ؛ وهو ما اتضح صحته بعد ذلك فان تناحر المسلمون فى الاندلس من اجل السلطة كان سبب ضياعها .

[٧٧]) يقول الدكتور عبد الحليم عويس في دراسته حول سقوط ثلاثين دولة إسلامية: "قصة الغنيمة في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تلقيه علينا - كذلك – أغرب ؛فقد بدأت أولى هزائمنا بسبب الغنيمة ، ولقد وقفنا مرغمين عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا بسبب الغنيمة ، فقصة الغنيمة هي قصة الهزيمة في تاريخنا ؛ ففى معركة أُحد خالف الرماة أمر الرسول عليه الصلاة والسلام قائد المعركة الأولى ، لخوفهم من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة، فإستشهد بسبب الغنيمة سبعين رجلاً من خيرة المسلمين ، وأُستشهد بسبب الغنيمة أيضا عبدالرحمن الغافقي وهُزم المسلمين فى بلاط الشهداء أخر معركة لجيش إسلامياً منظم إجتياز جبال البرانس لفتح فرنسا والتوغل في قلب أوروبا ، وتداعت معها أحلام المسلمين في فتح أوروبا .

وبعد إنتصار شارل مارتل فى معركة افينون عام٧٣٧ م ، حاصر ناربون فى نفس العام وكان تحت يد يوسف بن عبد الرحمن حاكمها التابع للخليفة الاموى فى قرطبة ، ولكنه عجز عن اسقاطها رغم نجاحه فى هزيمة أسطول النجدة الأندلسي فى المعركة التى دارت فى مدخل نهر بير **Berre** على مسافة سبعة أميال من ناربون ، والتى أُستشهد فيها قائد الاسطول عمر بن خالد الذى حاول فك الحصار عن المدينة التى صمدت فى وجه شارل مارتل .

قام شارل مارتل بحملة ثانية عام ٧٣٩ بعد تحالفه مع **Lombards** ، للسيطرة على اقليم بروفنس وطرد الكونت **Maurontius** من مرسيليا والتصدى لحلفائه العرب وقد نجح شارل مارتل هذه المرة فى قمع الدوق مورونت بعدما تخلى عنه العرب عندما ادركوا ضعف موقفهم للدخول فى معركة مفتوحة مع هذا التحالف .

لم تسقط ناربون فى حياة شارل مارتل الا فى عهد ابنه ببين الثاني "ببين القصير" الملقب **Pepin le Bref** الذى تمكن من الاستيلاء عليها سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م ، وتابع شارلمان ابن ببين القصير سياسة التخلص من المسلمين فشن العديد من الحملات على اراضيهم فى بروفانس وشيد الأبراج والحصون عند مصبات الأنهار واعد أساطيله لمواجهة هجماتهم البحرية ، وتصدى لتقدمهم على شواطئ نيس **Nice** ومقاطعة بروفانس عام ١٩٧هـ/٨١٣ م اى قبل وفاته بعام ، إنتهز مسلمو جنوب فرنسا الحرب الاهلية التى اعقبت وفاة لويس التقى (١٩٨-٢٢٦هـ /٨١٤- ٨٤٠م) عام٨٤٠ م ، ليفتحوا معظم بلدان الجنوب الفرنسي ، وعام ٢٥٦هـ /٨٦٩م اتخذوا من منطقة كامرج **Camargue** قاعدة لعملياتهم العسكرية ، وانتهى بهم المطاف فى مقاطعة بروفانس وخليج جريمو .

وبينما قيدت معركة بواتييه عام ٧٣٢ تقدم الاندلسيين فى فرنسا فإن هزيمتهم اللاحقة فى ناربون عام ٧٥٩ وضعت حدا لتقدمهم من ايبيريا عبر البرانس الى داخل اوربا وانحصر نشاطهم فى بروفنس فى الفترة التالية حتى القرن العاشر ، الذى واكبوا فيه موجة التوسع البحرى الاسلامى فى المتوسط ، بإيجاد منفذ اخر عبر البحر تسللوا من خلاله الى اوروبا عندما تقدموا من جديد الى منطقة فراكسينيت ومحيطها فى الغرب الشرقى لفرنسا الذى اهل الاندلسيين للعب دورا فعالا فى جنوب فرنسا وممرات الالب الحاكمة للاتصالات بين فرنسا وايطاليا وسويسرا، استمر فى الفعل والتأثير ختى نهاية وجوده بعد ٢٤٠ عاما من انتصار شارل مارتل فى بواتييه.

الاندلسيون واختراق اوروبا

مستوطنة فراخ شانيت Fraxinet (الخريطة فى الملحق)

فى اواخر القرن التاسع الميلادى فيما بين عامى ٨٨٧ او ٨٨٩ ، حطت مجموعة من ٢٠ بحارا اندلسيا على ساحل بروفنس بجنوب فرنسا فى منطقة خليج "سان تروبيز**St. Tropez** بإقليم الـ" فار” **"Var"** وهى منطقة جبلية حصينة لا يمكن إختراقها الا من معبر وحيد شديد التحصين عبر الجبل ، تُعرف في القرون الوسطى باسم "فراكسينيتوم **"Fraxinetum"** وتُعرف اليوم باسم "فرينيه **Frainet"** ، ويسميها جغرافيو العرب([٧٨]) بجبل القلال اى جبل الغابات او الاشجار وحاليا يُسمى جبل الـ"مور” **Massif des Maures** " (٧٩)، والمنطقة من ناحية اخرى قريبة من سواحل الاندلس وجزر البليار ، بما يُسهل الاتصال بين المستعمرة والاندلس .

تمكن الوافدون من رد الهجمات المحلية على الموقع بفضل جبل الـ"مور” **Maures** " (٨٠)الذى شكل حجر الزاوية في منظومة دفاعهم ، وفى البداية استنفروا مدداً بشرياً فإنضم اليهم مئة شخص من مسلمى صقلية وشمال افريقيا ، ولحقت بهم اعداد اخرى من الاندلس رغبة فى الجهاد والغنائم ، وسيطروا على محيط المنطقة فإستولوا على مستوطنة **Freinet** وقلعة على الجبل تُعرف بإسم **Fraxinetum** ، وكانت هذه التحصينات اساس مستوطنتهم التى حملت اسم فاراخشنيط **Farakhshanīt** او فاراخسه **Farakhsh** اوفراخ شانيت وهى الاقرب الى الاسم الفرنسى **Fraxinet** .

---

[٧٨]) العالم ابن حوقل فى كتابه صورة الارض و الاصطخرى فى كتابه المسالك والممالك.

[٧٩]) سُمى الجبل المورإنتسابا لاهل الأندلس وكان الأوروبيون يطلقون عليهم المور.

[٨٠]) سُمى الجبل المورإنتسابا لاهل الأندلس وكان الأوروبيون يطلقون عليهم المور.

ورغم قلة الاعداد الا انهم تمكنوا من التقدم فى المنطقة بسبب الفوضى التى عمت الامبراطورية الكارولنجية ففتحوا البلدان المجاورة فى شمال بروفانس ودوفينيه وجرونبل وإكس ومرسيليا ، وتلاحق المدد الاندلسى كل صيف فيما عُرف بالحملات الصيفية ، وتمكنوا خلال عشرون عاما من إخضاع بروفنس واجزاء من بيدمونت ثم توسعوا فى إغاراتهم لتمتد لابعد من ذلك وصولا الى جنوب سويسرا وغرب ايطاليا وشمالها والمانيا و **Rhaetia** شمالا و **Grenoble** غربا ولمباردى شرقا ، واحتلوا **Acqui** وهددوا **Novalesa** عام ٩٠٦.

وساهمت مهارة الاندلسيين الجبلية التى اكتسبوها من طبيعة الاندلس الجبلية فى تمكنهم قبل عام ٩٣٩ من عبور جبال الالب والسيطرة على ممراتها الأساسية الثلاث بين فرنسا وإيطاليا وهي "سان برنارد **St. Bernar** "، وجبل "سانيس **Mt. Cenis** " وجبل "جنيف **Mt. Geneve** "، وأشرفوا بصورة مباشرة ولمدة قرن تقريباً على الممرات الألبية الاستراتيجية في الغرب والشرق على حد سواء ؛ وتحكموا فى طرق المرور والتجارة بين مناطق الشمال والغرب المؤدية الى وروما ؛ ولما بلغت المستوطنة اوج قوتها بنت العديد من الحصون (الفراكسونات طبقا للحصن الام) ، لاحكام السيطرة على الممرات ومع الوقت هيمنت المستوطنة على ممالك " بورغوندي ، و**Piedmont** الإيطاليتين المجاورتين ؛ واقتحم مسلحوها مدينة "أستي **Asti**" و "آكوي **Acqui**" في الشرق، و"نوفاليز **Novalise**" و"أولكس **Oulex**"، و"أمبرون **Embrun**" "وفيينّا **Vienne**" و"فالنسيا **Valence** " في الغرب، وشنوا هجمات على عدد من المدن "اكس أون بروفانس **Aix-en-Provence** "، و"مرسيليا " في الجنوب ، وتمكن الاندلسيون من محاصرة جنيف ولوزان وسيطروا على شمال ومناطق بغرب إيطاليا بحرا.

وفى عام ٩٣٥ خرب مسلموا صقلية جنوا بمشاركة اندلسيى الفراكسينيت ، كما خرب الفراكسينيتون عام ٩٤٠ ميناء **Fréjusin** بإقليم بروفنس وتجاوزت غاراتهم جبال الالب ، وقد ضايق المسيحيون تحكم المسلمين فى الممرات الالبية التى يستخدمونها لاداء الحج الى بيت المقدس ، فعزم "هيج" **Hugh of Ivrea** كونت بروفانس وملك لمبارديا (ايطاليا) على إجلاء المسلمين عن جنوب فرنسا وغربي إيطاليا ، فإستدعى اسطولا بيزنطيا من لدن ملك بيزنطة **Romanus Lecapenus** لمهاجمة فراكسينيت بحرا على ان يهاجمها هو بقواته برا ، وعندما اوشكت القلعة على السقوط بعد ان اغرق البيزنطيون اسطولها بالنار الاغريقية (هناك روايات بأن القلعة قد سقطت فعلا سنة ٣٣٠هـ /٩٤٢م فى ايدى قواته) ؛ اوقف الملك الهجوم لما بلغه نية غريمه **Berengar of Ivrea** ومنافسه على عرش ايطاليا فى عبور الالب ومهاجمة ايطاليا بالتعاون مع حلفائه الصوابيين **Swabia** ، وبدلا من التخلص من المستوطنة إضطر ملك ايطاليا مرغما الى إبرام اتفاق سلام وتحالف معها لتكون دويلة فاصلة **Etat Tampon - buffer state**)() بينه وبين غريمه ، وفوضها فى التحكم بالمضايق من جديد لما اثبتته فراكسينيت منذ عام ٩٢١ من قدرة على التحكم فى الممرات بين فرنسا وايطاليا ومنعها عبور الجيوش من خلالها ،وذلك لمنع غريمه من اجتياز مضايق جبال الألب ونيس وجبل القديس برنار ، وهذا الاتفاق هو الذى نفث الحياة من جديد فى المستوطنة بعد ان سقطت ودعمها اقتصاديا من حصيلة عائدات العبور بالممرات الالبية ([٨١]).

وهكذا أتيح للمسلمين البقاء فى فراكسينيت لما يزيد عن أكثر من ثلاثة عقود واصلوا خلالها فتوحاتهم وهجماتهم على المناطق الواقعة شمال الألب فى شور **Chur** أكثر من مرة، وسان غالين **St. Gallen** بالقرب من بحيرة كونستانس عام ٩٥٤ م وهو العام نفسه الذي وقعت فيه أيضاً مدينة غرينوبل **Grenoble** في الغرب بأيديهم ؛ ويبدو أن فراكسينيت قد بلغت في تلك الفترة أوج قوتهم فقد إتسعت رقعة الاراضى التى تسيطر عليها بشكل كبير تجاوزت شمال الألب وإلى الدير الشهير في سان موريس **St. Maurice** في وادي الرون وشمال وادي الرون ، وغنموا مواقع المطرانية في شير ريتيا **Chur in Rhaetia** ؛ وسيطروا على سان برنارد وفرضوا ضريبة على سان مأيولوس **St. Maiolus** في كلوني **Cluny** عام ٩٧٢م .

---

(٨١) **Mohammad Bailan FRAXINETUM: AN ISLAMIC FRONTIER STATEIN TENTH-CENTURY PROVENCE.**

اتصالات فرنسا بالاندلس

لاحتواء نشاط المستوطنة

طوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العاشر حتى عام ٩٣٠ ميلادية ، حافظت فراكسينيت على علاقات هادئة بمحيطها فى معظم الاحوال بما فيها البلدان التى اخضعتها لعدم مساسها بالتركيبة الدينية والادارية لهذه البلدان واكتفت بتحصيل الجزية ، وهو ما جعل جيرانها يتقبلونها بل انهم سعوا للتحالف معها فى كثير من الاحيان عندما إستقوي بها عدد من الأمراء والنبلاء فى المنطقة ، وهو دليل على قوتها .

انقلب الحال وتوتر الوضع مع اتساع نشاط المستعمرة الحربى وتجاوزها فى حق الاديرة ورجال الدين المسيحى فقد هاجمت دير القديس St. Gall ودير Aguane فى Valais وعدد من الأديرة في "نوفاليز Novalise" ، كما ضايق المسيحيون تحكم المسلمين فى الممرات الالبية التى يستخدمونها لاداء الحج الى بيت المقدس ، وهاجمت قافلة رئيس الأساقفة روبرت مطران تور Tours دون اعتبار لمكانته وسط محيطها المسيحى ، حيث قُتل وهو في طريق عودته من روما عبر أحد الممرات الغربية التى تتحكم فيها المستعمرة .

واثار نشاط فراكسينيت فى محيطها وخاصة تمددها على الارض الفرنسية (مهاجمتها الراين الاعلى) حفيظة اوتو الاول Otto I امبراطور فرنسا ، وكانت دولته وقرطبة انذاك القوتين الاكبر فى غرب اوروبا ، فأرسل الامبراطور فى عام ٩٥٣ سفيره Jean de Gorze الى الخليفة عبد الرحمن الثالث فى قرطبة يناشده وقف نشاط المستوطنة فى مجال القرصنة ووضع حد لمحاولاتها غزو الاراضى الفرنسية وغربي إيطاليا وطالب الاندلس بالإمتناع عن دعمها .

ومن الواضح ان الامبراطور وهو يناشد الخليفة فى قرطبة كان يعتبر فراكسينيت (فراخ شانيت Farakh shanit) تابعة للخلافة الاموية فى الاندلس ، وهو مُحق فى هذا الى درجة ما فالاندلس كانت مصدر مدد الرجال الوحيد للمستوطنة كما انها كانت الداعم الاقتصادى لها من خلال عمليات التبادل التجارى معها ، فالاندلس كانت مصدر المدد البشرى الرئيسى للمستوطنة بضخها بمدد من الرجال كل صيف فيما كان يُسمى بالهجمة "الصيفية" ، وكان باعثهم فى ذلك الرغبة فى الجهاد من ناحية والتكسب من ناحية اخرى بالالتحاق بنشاط المستوطنة التجارى ومغانم عمليات الاغارة والقرصنة ، كما ان فراكسينيت والاندلس كانتا طرفان رئيسيان لتجارة المستعبدين الصقالبة ، وهى التجارة التى تنظمها دوائر أوروبية بالتنسيق مع يهود براغ وقرنائهم يهود الإندلس ، للعمل فى حرس السلطان او بيعهم فى اسواق النخاسة بشمال افريقيا ، وكان يتم تجميعهم عبر فراكسينيت ؛ ويشير المؤرخ الاندلسى الكبير ابن حيان القرطبى (القرن الحادى عشر) فى كتابه "المقتبس" الى مدلول العلاقة بين الخلافة فى قرطبة والمستوطنة فيذكر ان عبد الرحمن الثالث ارسل نسخا من اتفاقيات سلام عقدها عامى ٩٣٩ و ٩٤٠ مع عدد من حكام الفرانكش (فرنسا) الى ناصر بن احمد حاكم المستوطنة ملقبا اياه بحاكم the commander فراخ شانيت ، وأرسل نسخا منها ايضا الى محافظى جزر البليار وموان الاندلس ، وهو ما يعنى ان المستوطنة كانت على علاقة بقرطبة بشكل ما ، علاوة على ان الاخيرة كانت راضية ضمنيا عن نشاط المستوطنة من منظور الجهاد الفاتح ، ولم يعبأ الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢/٩٦١م) بطلب أوتو الأول وفشلت المحاولات فى تحقيق غاياتها ، لكن موته عام ٩٦١م حسم مصير المستوطنة عندما إمتنع خليفته وابنه الحَكَم الثاني لطبيعته المسالمة عن دعم الحملات "الصيفية" ومنع إنطلاقها من الارض الاندلسية الى فراكسينيت (٨٢) .

الحملة الصليبية على فراكنيسيت

وسقوطها ومصير اهلها

بعد ان تخلص الاوربيون من تهديد Magyars عقب هزيمة الاخرين فى ليشفيلد عام ٩٥٥ ، تفرغوا للاجهاز على المسلمين فى المنطقة وإستعدوا للانقضاض على فراكسينيت ، وكانت المستوطنة قد توقف تمددها منذ عام ٩٥٤ ودخلت مرحلة جمود حاد في أواخر عام ٩٦٠ م لتخلى الاندلس عنها لتغير مزاجها السياسى بموت الخليفة عبد الرحمن ، ويبدو أن سكان فراكسينيت لجأوا لاعمال القرصنة وقطع الطرق بعد ان ضاقت بهم السبل، فتحولت المستوطنة فى نهاية الامر الى مجموعة من

---

[٨٢]) يمكن الاطلاع على تفاصيل البعثة التي ترأسها الراهب جأن دي غورز Jean de Gorze إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث حوالي العام ٩٥٦م، في Ponpardin صفحة٩٤-٩٦. ويبدو من تلك الوقائع أن البعثة لم تُؤثر على سلوك الخليفة، ولا يوجد ذِكر لها في المراجع العربية.

المرتزقة ، وحدث تطور مؤسف حسم نهاية الوجود الاسلامى فى المنطقة فقد أُسر المسلحون الاندلسيون القديس مايول **Saint-Mayeul** ومرافقيه عام ٩٧٢م أثناء عبورهم ممر سان برنارد مجتازا الألب عائداً إلى دير **Cluny** قادما من روما ، وقداسته كان بمثابة قديس حى لمسيحيى غرب اوروبا ، وطلب الاندلسيون لإطلاق سراحه ومرافقيه فدية قدرها ألف جنيه من الفضة (جنيه فضي لكل خاطف)؛ الامر الذى اضطر الدير إلى بيع معظم موجوداته لدفعها .

وما ان تم اطلاق سراح مايول حتى قاد حملة شبه صليبية للقضاء على المسلمين بالمنطقة ([٨٣]) ، وخطط كونراد المسالم **Conrad le Pacifique** (٣٢٥-٣٨٣هـ/٩٣٧-٩٩٣م) مستغلا وضع المستعمرة المتدهور وتخلى الاندلس عنها فأعد خطة للتخلص من المسلمين انتهت بإستخلاص سافوا **Savoie** من السيادة الإسلامية ، وإجلاء المسلمين عن مضايق سان برنار وغرينوبل ودوفينيه ، وفى اواخر عام ٩٧٢ قاد الدوق وليهام الاول **Guillaume** او **Duke Wilhelm** حاكم بروفنس حملة بمشاركه تحالف من نبلاء شمال ايطاليا وسبتمانيا هزمت المسلمين فى تورتور **Tourtour** فى بروفنس الاعلى وسقطت فراكسينيت بعد حصار قصير وتم تخريبها وقُتل مسلمو بروفنس او استرقوا او طُردوا وحُوّل من تبقى بالقوة إلى المسيحية وذابت هذه الاقلية فى المجتمع المحلى بمضى الزمن (٨٤).

ونجمل فيما يلى تطور المد الاندلسى لمستوطنة فراكسينيت فى اوروبا منذ قيامها:

عام ٨٨٩ ابحر عشرون اندلسيا من المولدين الذين يتحدثون العربية واللاتينية من المرية فى الاندلس فى خليج **St. Tropez** واسسوا مستعمرة **Farakhshanīt** ، فى الموقع المعروف حاليا **Massif des Maures** .

- عام ٩٠٦ عبر الاندلسيون مضيق **Dauphiné** وجبل..**Mont Cénis** .
- عام ٩٠٨ احتل الاندلسيون وادى **Susa** .

عام ٩١١ استولى الاندلسيون على ممرات الالب **the Alpine passes** .

عام ٩٢٩ تقدمت قوات مستوطنة فراخشنيط الى حدود **.Liguria** .

- عام ٩٣٥ معركة **Acqui** .
- عام ٩٤٠ إحتل الاندلسيون واستوطنوا طولون **Toulon** .
- عام ٩٤٢ استقروا فى نيس **Nice** و جرينوبل **Grenoble** .
- عام ٩٧٠ اخلى الاندلسيون جرينوبل وسافوى **Savoy** وجاب **Gap** .
- عام ٩٧٢ اعتقل الاندلسيون **Majolus of Cluny** فى ممر **St Bernard** .
- عام ٩٧٣ سقطت فرخشنيط بعد هزيمة الاندلسيون فى معركة **Tourtour** .
- عام ١٠٤٧ اغار الاندلسيون على جزر **.Lérins Islands** .

تأثير المسلمون على جنوب اوروبا

(فرنسا – سويسرا)

ترك مسلموا الاندلس أثرا كبيرا فى المناطق التى استوطنوها عرقيا ولغويا ؛ تأثيرا لم تُنكره القرون حتى اليوم ، تلحظه

---

[٨٣]) فى حملة شبيهة بما فعله **Pope John VIII** الذى ناضل لطرد العرب من جنوب ايطاليا ونادى بأهمية التصدى للمسلمين الذين هددوا روما عام ٨٧٨ ولم يتمكن فى حياته من تحقيق رغبته الا ان البابا جون العاشر **Pope John X** جمع الفرسان تحت قيادته وتخلص من المسلمين فى جبل جاريجليانو **Monte Garigliano** عام ٩١٥.

[٨٤])G. de Rey, Les Invasions des Sarrasins en Provence Marseille: Typographie Marius Olive, ١٨٧٨, p.p. ١٩٢-١٩٣

أثاره فى المجتمعات التى اندمجوا فيها فهناك مناطق وأسر ما زالت تشير اسماؤها لاصلها العربى(٨٥) ، والعادات الاسلامية ملحوظة فى إمتناع سكان وادي الساس **Saas** عن تربية الخنازير، وفى مجال الزراعة والاندلسيون هم سادتها بتجاربهم فى الاندلس (٨٦) أدخلوا زراعة القمح الأسود **Ble noir** أو قمح السراسين أي القمح العربى في منطقة الفار **Var** بفرنسا ، وأدخلوا زراعة البلوط في المنطقة المحيطة بمنطقة فرينيه **Freinet**، وأدخلوا الطريقة العربية في تحويل لب خشب الصنوبر إلى قطران لتصنيع المراكب البحرية وكلمة **Goudron** الفرنسية مشتقة من كلمة قطران بالعربية ، وفى مجال التعدين حفروا المناجم في تاند **Tende** ولافيرييه **La Ferrier** قرب برشلونة بحثا عن مواد لصنع الأسلحة ، وفى سويسرا ادخلوا زراعة نوع معين من العنب فى وديان الرون **Rhone** ما زال يزرع هناك حتى اليوم .

زوال الخلافة الاموية بدمشق (وسقوط أخر ولاتها فى الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري)
و قيام الامارة الاموية المستقلة فى الاندلس إمارة عبد الرحمن الاموى (الداخل) واسرته

اجتاحت الخلافة الأموية الاضطرابات على إثر مقتل الخليفة الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م ، ولم تسلم الأندلس من ذلك وبعد قيام الخلافة العباسية (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) ازداد الوضع تدهوراً إذ إنشغلت بالمشرق واهملت أمر الأندلس بفوضاها فى مواجة الإسبان الذين استغلوا الوضع وأستولوا على بعض مقاطعات الأندلس ، بعد وفاة ثوابة بن سلامة الجذامي ، إشتدت الاضطرابات واختلف أهل الأندلس فيمن يلي الأمر الذى استقر ليوسف بن عبد الرحمن الفهري ([٨٧])في ربيع الأول ١٢٩ هـ بدعم من حليفه الصميل بن حاتم لمدة عام على أن يتناوبوا المنصب سنة بعد الاخرى، وكان يوسف قد تولى سابقا ولاية أربونة في عهد عبد الملك بن قطن ، وكانت له معارك مع الإفرنج استولى فيها على آرل وأفينيون ،وتحالف مع مورونتوس دوق بروفنس ؛ ولم يتخلى يوسف عن المنصب بعد انقضاء السنة لاضطراب الامر بسبب ثورة يحيى بن حُريث الجذامي لاستبداد الفهرى بالامر ؛ فهاجم السجن المعتقل فيه أبي الخطار الكلبي الوالي الاسبق الذي سجنه ثوابة الجذامي وحرّره وتحالفا معا وجمعا معهما العرب اليمانية ، بينما ساند العرب العدنانية يوسف وحليفه الصميل .

واقتتل الفريقان عام ١٣٠ هـ في شقندة ، فانهرمت اليمانية وقُتل أبي الخطار وابن حريث ، وبعد النصر ولى يوسف الصميل على الثغر الأعلى ومعظم أهله من اليمانية ليحكم سيطرته عليهم ، وبدأ يوسف في ضبط الشئون الداخلية فأعاد تقسيم الأندلس إلى خمس ولايات كبرى كما كانت في عهد القوط قواعدها قرطبة وطليطلة وسرقسطة وأربونة وماردة ، كما نظم الجيش وأرسل الحملات لقتال البشكنس والقوط الذين غلبوا على بعض المناطق أثناء الاضطرابات واستولوا فيها على كورة أستورياس ثم جليقية كلها، إلا أن جيشه انهزم أمام قوات الإفرنج في سبتمانيا التي سقط معظمها عدا أربونة.

التصدى لموالي العباسيين

واجه يوسف عددًا من الثورات الداخلية نجح في قمعها ، أخطرها ثورة عامر بن عمرو العبدري الذي سيطر على الجزيرة الخضراء، وكاتب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ليليه الأندلس للعباسيين، واستطاع أن يجمع حوله عددًا كبيرًا من المضرية واليمانية وعندما هم يوسف بمطاردته، فر العبدري إلى الشمال وتحالف مع الحباب بن رواحة الزهري وتميم بن معبد الفهري ؛ وإستطاعوا في عام ١٣٦ هـ السيطرة على سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى وهزموا الصميل الذي فر إلى طليطلة وظل عامر العبدري مسيطرًا على الثغر زهاء عامين ، الى ان حاصره يوسف فى سرقسطة حصارًا شديدًا أرهق أهلها مما دفعهم إلى تسليم العبدري

---

[٨٥]) من فتوح المسلمين فى اوروبا ما قام به الاغالبة حكام تونس الذين فتحوا كل من كورسيكا – صقلية - جنوب ايطاليا ، احتلوا كورسيكا سنة ١٩١هـ ٨٠٦م وظلّوا فيها ١٤٢ عاماً ، وفتحوا صقلية عام ٢١٢هـ ، وتابعوا فتوحاتهم في جنوب إيطاليا وسردينيا (انظرالخرائط)، وأخضعوا كل مدن الساحل الغربى ، ووصلوا حتى اسوار روما ولم يرجعوا الا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثانى بدفع الجزية .

[٨٦]) جوستاف لوبون - حضارة العرب صـ٣١٧.

[٨٧]) وهو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ؛ حفيد عقبة بن نافع فاتح المغرب العربي ووالي إفريقية أيام معاوية بن أبي سفيان و مؤسس مدينة القيروان ، وحفيد حبيب قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير،وأباه عبد الرحمن دخل الأندلس في جيش بلج بن بشر القشيري، وحاول أن يصل إلى سدة الإمارة ، ولما فشل فر إلى إفريقية واستولى على حكمها من واليها.

والزهري وتميم الفهري إلى يوسف لإنهاء الحصار فقتلهم ، وظل الفهرى واليًا على الاندلس إلى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وهزمه مؤسسًا بذلك الدولة الأموية في الأندلس .

العهد الثانى إمارة وخلافة بنى امية القرطبية

إمارة عبد الرحمن (الداخل) صقر قريش

لما سقطت الدولة الاموية فى دمشق على أيدي العباسيين عام ٧٥٠ م ، أفلت الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية من قبضة العباسيين وفر إلى الأندلس عبر رحلة طويلة فى افريقيا بمساعدة قبيلة والدته بها ؛ وفى عام ١٣٦ هـ ارسل مولاه بدر إلى الأندلس، لاستنفار زعماء موالي بني أمية لدعم ولايته بالأندلس والتمهيد لدخوله اليها ؛ فأجابوه ومعهم اليمانية الذين ايدوه رغبة في الثأر لهزيمتهم أمام الفهرية والقيسية في موقعة شقندة ، بينما رفض الصميل بن حاتم حليف الفهرى تأييد عبد الرحمن خشية من ضياع نفوذه.

وصل عبد الرحمن بنى امية الى ثغر المنكب في ربيع الثاني سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م ، على مركب ارسله زعماء الموالى ، والتقى انصاره فى حصن طرش منزل أبي عثمان مركز تجمعهم ، ولما بلغ يوسف الفهرى الخبر وتجمع الناس حوله، وعدم قدره عامله على إلبيرة على تفريقهم ، نصحه الصميل بسرعة التصدى له .

وكان عبد الرحمن قد أخضع كافة المدن في طريقه الى إشبيلية وبايعه أهلها فتجمع له ثلاثة آلاف مقاتل سار بهم الى قرطبة، وقبلها بـ ٤٥ ميلاً وكان يفصل بين القوتين نهر الوادي الكبيرحاول يوسف أن يغري عبد الرحمن لينصرف بجنده مقابل الاموال وأن يزوجه إحدى بناته إلا أن عبد الرحمن رفض وأسر خالد بن يزيد أحد رسل يوسف لإغلاظه القول.

وفي الليل حاول الجيشان الاستباق إلى قرطبة وسارا بمحاذاة النهر إلى أن انحسر الماء عند المصارة يوم الأضحى لعام ١٣٨ هـ فعبره جيش عبد الرحمن ودارت المعركة التي انتهت بانتصاره ودخل قرطبة وأدى الصلاة في مسجدها الجامع حيث بايعه أهلها على الطاعة ، وبذلك انتهى عهد الولاة وتأسست إمارة أموية إستمرت حتى عام ٣١٦هـ.

فر يوسف والصميل بعد هزيمتهما في المصارة أمام الداخل ، وعملا على اعادة حشد القوات بمساعدة هشام بن عروة الفهري عامله علي طليطلة وحشد الصميل من جيان ، وخططا لجر عبد الرحمن لقتالهما فى جيان على ان يتسلل عبد الرحمن ولد يوسف الفهري الى قرطبة ليحتل قصر الإمارة ونجحت الخطة واسر ولد يوسف الفهري قائد القوة الصغيرة التى تركها عبد الرحمن معاوية فى قرطبة أبا عثمان وبعض نساء عبد الرحمن بن معاوية وفر بهم الي إلبيرة قبل وصول عبد الرحمن الذى عاد مسرعًا لانقاذهم ، فتابعه عبد الرحمن وحاصر يوسف والصميل بالبيرة ، وتصالحا في عام ١٤٠ هـ على أن يعترفا بإمارته ولا ينازعانه مقابل أن يؤمنهما وحلفائهما ويسمح لهما بسكنى قرطبة .

عمل عبد الرحمن علي إكرام يوسف تقديرًا لمكانته ، غير أنه لم يمض عام حتى هرب يوسف الى ماردة ولقنت عام ١٤١ هـ بعد ان راسل اهلها واطمأن الى تأييدهم له ، ثم اعلن الثورة على عبد الرحمن الداخل ، وحاصر إشبيلية فإستنجد واليها عبد الملك بن عمر المرواني بإبنه والي مورور ، وطاردا يوسف إلى حليفه والي طليطلة وهزماه ، وأدركه قى الطريق قبل وصوله طليطلةا بأربعة أميال عبد الله بن عمر الأنصاري وقتله وبعث برأسه إلى عبد الرحمن الداخل.

حركتا اليحصبى والصقلبي العباسيتين المناوئتين

اولا حركة اليحصبى

سادت الأندلس فى بدء حكم عبد الرحمن الداخل فترة هيجان شديد بدعوة العلاء بن مغيث اليحصبي (حضرمي) للعباسيين سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م في لقنت أحد أعمال باجة غرب الأندلس (جنوب البرتغال حالياً) ودعى إلى طاعة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي وإدعى انه أرسل اليه بولاية الأندلس ، وانضمت اليه القبائل اليمانية التي انقلبت على عبد الرحمن الداخل ؛ لعدم رضائها عما كانت تُنشده مقابل مساعدتها له ، وتمكن عبد الرحمن الداخل في النهاية من القضاء عليها بعد مواجهات عديدة وقتل العلاء بن المغيث.

ثانيا حركة الصقلبي

فشلت محاولة المنصور العباسى فى القضاء على الإمارة الأموية الخارجة في الأندلس بمقتل العلاء وانتهاء حركته ، وأعاد العباسيون الكرة من جديد بمجيء الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٥٥ ـ ٧٨٥م) ، بعبور عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي من أفريقيا إلى تدمير في جنوب الأندلس ؛ وتختلف الروايات في تحديد سنة عبوره وحركته، فالبعض يشير إلى سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م، والآخر إلى سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٩م أو سنة ١٦٣هـ/ ٧٨٠م ، ولبس السواد واتخذه شعاراً لحركته ودعا للعباسيين ، وحاول إجتذاب سليمان بن يقظان الأعرابي عامل سرقسطة لسوء علاقته بالداخل ، لمحاربة عبد الرحمن الأمويّ والدعاء إلى طاعة المهدي العباسى ، ولما فشل توترت العلاقة بينهما ووصل الامر إلى الصدام العسكري قرب برشلونة انهزم فيه الصقلبي وعاد منسحباً إلى تدمير ، فهاجمها عبد الرحمن الداخل وأحرق مراكب الصقلبي لمنعه من العودة إلى أفريقيا ، واعلن عن مكافأة ألف دينار جائزة لمن يأتيه برأسه فاغتاله رجل من البربر سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٩م وحمل رأسه إلى عبد الرحمن وحصل على مكافأته ، وتصدى الداخل لثورة سليمان بن يقظان الأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة.

وبعدها شهدت الامارة الاستقرار وبدات اعمال ، وكان عهد الداخل بداية العصر الذهبي للاندلس عامة وقرطبة خاصة التى شيد صروحها واهمها الجامع الكبير ؛ وأخذ عبد الرحمن الداخل يبني ويقوي دعائم دولته أكثر من ثلاثين سنة، ولما مات عبد الرحمن سنة ١٧٢هـ ترك وراؤه دولة قوية توارثها أبناؤه من بعده، فتولاها ابنه هشام ومن بعده عبد الرحمن الثاني ولكن البلاد فقدت استقرارها وتعرضت للمحن الى أن وصل الأمر إلى عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر(٩١٢ – ٩٦١ م) (القرن العاشر الميلادي ـ الرابع الهجري) الذى إستعاد السيطرة على الامور وأعاد للأَنْدَلُس وحدتها وقوتها ومكانتها بعدما نجح في القضاء على الفتن والاضطرابات وقضى على المتمردين ووضع حداً لتحرشات الدول الإسبانية بالأندلس .

وتأكيداً لقوة الأندلس على الصعيدين الداخلي والخارجي اعلن عبد الرحمن الناصر احياء الخلافة الأموية في الأَنْدَلُس سنة (٣١٦هـ ـ ٩٢٩م) إستناداً إلى ما اعتبره حق أسرته القديم في الخلافة بدمشق ، وتلقَّب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين الناصر لدين الله وتخلى عن لقب الأمير بعدما حمله للفترة من ٣٠٠ إلى ٣١٦هـ ؛ وقام بنقل حكومته إلى مدينة جديدة اختطها على بعد أميال من قرطبة أسماها الزهراء ولكن هذا لم ينتقص من قدر قرطبة التى ظلت المدينة الرئيسية في البلاد ، وقد وصلت الزهراء أوج مجدها في عهده بعد القضاء على ثورة الربض ، وتواصل نموها فى عهد ابنه الحكم الثاني (٩٦١ ـ٩٧٦ م).

وأعتبر عهد الناصر الذي دام نصف قرن قمة ما وصلت إليه الأندلس الأموية من ازدهار وتقدم وقوة لا تضاهيها دولة في أوروبا آنذاك في القرن العاشر ؛ فقد أصبحت قرطبة من أهم المدن ومنارة للعلم والثقافة ومقصد العلماء وطلاب العلم ، وأنجبت في هذه الفترة الشاعر ابن زيدون والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المدنيات ؛ وبموت الناصر سنة ٣٥٠هـ أعقبه على عرش الأندلس ولده الحكم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦ م)، وكان ضعيفا فخضع لحاجبه المنصور بن أبي عامر (٩٨١ – ١٠٠٢ م) الذى استولى على مقاليد السلطة في قرطبة بمعونة أم الخليفة ، وصيّر الخليفة الأموي سجيناً في قصوره بالزهراء وابتنى لنفسه بقرطبة قصراً للحكم أسماه المدينة الزاهرة واسس دولة العامرية (إنتسابا لاسمه) لفترة وجيزة .

الدولة العامرية

اسسها أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، ولد سنه ٣٢٦ هجري بجنوب الأندلس ، جاء من الجزيرة الخضراء "حصن طرّش" إلى قرطبة طالبا للعلم ، وتطوع في الجيش وأصبح قائدا لشرطة قرطبة لشجاعته ثم أصبح مستشار للخليفة الاموى تولى رئاسة الشرطة وخزانة الدولة في عهد المستنصر بالله لحُسن بلائه في غزوات الحكم في المغرب الأقصى ، انتدب ليكون قائما على أملاك الأمير هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر،واستطاع بذكائه وحنكته أن يصل إلى سدة الحكم في الأندلس فأخذ الوصاية على الأمير هشام ، وأصبح في عهده حاجب الدولة ثم المتصرف في كل شئونها ؛ ومن بعد استولى على الحكم ولقب نفسه بالملك المنصور وكان من أبرع رجال الدولة فأعاد للبلاد قوتها ووحدتها ، وكان فقيها حكيما ومجاهدا ، بدأت البلاد فى ظله عهدا مشرقا في مجال العلوم والحضارة والاقتصاد ؛ خاض عده حروب فتح فيها ليون وبطريوس ولشبونة وغيرها من بلاد الفرنجة فى شمال شرق الأندلس ؛ غزا إثنين وخمسين غزوة إنتصر فيها كلها ، فسقطت في يد المسلمين شنت ياقب في ولاية جليقة ، وتُعتبر مكانا مقدسا لمسيحيي أسبانيا فهم يعتقدون ان القديس يعقوب دفن فيها ، كما انتصر

على ملوك قشتالة و نفارا وقطالونيا ، وأنزل ببلادهم خسائر فادحة واستحصل منهم على غنائم عظيمة .

واعظم انتصاراته غزوة ليون فى فرنسا حيث هزم القوات الأوربية، وأمر برفع الأذان للصلاة في المدينة ، ؛ ومن سير حروبه أنه سيّر جيشا لإنقاذ ثلاث من النسوة المسلمات محتجزات فى احدى كنائس مملكة نافار التى كانت على عهد معه تدفع له الجزية وألا تأسر أحدا من المسلمين أو يستبقوهم في بلادهم ؛ فحررهن واعتذر ملك نافار بأنه لم يكن يعلم بشأنهن ، و من معاركه التى لا تخلوا من الفكاهة معركته مع البشكنج Basques الباسك على الحدود المشتركة مع فرنسا فعند عودته من وراء جبال بلاد البشكنس ؛ سد القوط عليه مضيق العودة ، فلم يقتحم المنصورطريقه عنوة وقرر الاقامة بالمنطقة يحرث ويزرع وبعث بجنده يقتلون ويأسرون ويغنمون حتى ضج القوط من غاراتهم ؛ فأرسلوا إلية أن أعبر المضيق فماطل بدعوى طيب المعيشة والبقاء إلى الصيف القادم للغزوة، واخيرا قبل بشرطين - أن يحمل النصارى ما معه من الغنائم على دوابهم و يمشون أمامه وأن يقوم النصارى بإزالة الجثث التي ألقاها جنوده في فم الوادي، فرضوا تخلصاً منه .

ومن سيرته فى معاركه انه كان يجمع غبار ملابسه بعد كل معركة وبعد كل ارض يفتحها ويرفع الأذان فيها ويجمع الغبار في قارورة وأوصى أن تدفن معه لتكون شاهده له عند الله يوم يعرض للحساب وقد وافته المنية وهو في مسيرة لغزو فرنسا .. وكان عمره حين مات ٦٠ سنه قضى منها ٣٠ سنه في الجهاد والفتوحات.

ومما يؤخذ عليه تجنيده اعداد كبيرة من فرنسا وإيطاليا وشمال أوروبا ومماليك الصقالبة فى جيشه بعد ان اعتنقوا الإسلام عند وصولهم إلى الأندلس فأضاف وقودا للطائفية والانقسام العنصري الذى تعانى منه البلاد اصلا بين عناصرها المسلمة العرب والبربر والإيبيريون المسلمون ومماليك الصقالبة ، ومن وفرة جنده ان أصدر مرسوما عام ٣٨٨هـ بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو اكتفاء بعدد الجيش المرابط وقرأ الخطباء على الناس ذلك المرسوم وفيه (بأن من تطوع خيراً فهو خير ، ومن خف اليه فمبرور ومأجور ومن تثاقل فمعذور) فسُرّ لذلك الناس سرورا بالغاً.

تزوج ابنة سانشو ملك نفارا التي اعتنقت الإسلام وتسمت باسم عبدة وأنجبت للمنصور ابنه عبد الرحمن وتوفي ابن ابي عامر في قرطبة ودفن فيها سنة ٣٩٢ هـ .

عبدالملك بن محمد العامري

وتولى الحكم بعده ابنه عبدالملك بن محمد العامري الذي سار على نهج والده فى الجهاد ضد الافرنج فحقق اَنتصارات مشهودة ونعم الأندلسيون في عهده بالرخاء والاستقرار ، وتوفي عبد الملك سنة ٣٩٩ هـ ، وبوفاته انتهى عهد الاستقرار الذى حظيت به البلاد خلال حكمه وحكم والده الذى قال فيهما الفتح بن خاقان بأنهما " كانا آخر سعد الأندلس وحد السرور بها والتأنس " .

عبد الرحمن المعروف بشنقول

ومع تولى أخيه عبد الرحمن المعروف بشنقول الحكم بدأت فصول إنهيار الاندلس ، فقد اخطأ عبد الرحمن عندما اراد ان يقلد اخيه وابيه من قبله حيث جهز جيشا ليغزوا به الممالك النصرانية دون ان يقوم بتثبيت حكمه فاستغل ذلك محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي الملقب بالمهدي فأعلن الثورة ، وخلع دولة العامريين لتبدأ البلاد عهدا من الاضطرابات.

ثالثا دويلات الطوائف

إنهارت دولة الخلافة فى الاندلس بعد ان اعتراها الضعف بسبب الخلافات المستمرة بين طوائفها المختلفة وبالذات العرب و البربر ، وكانت ثورات البربر في العقدين الثانى والثالث من القرن الحادى عشر الميلادى من اسباب سقوط الدولة التى قام على انقاضها أكثر من ٢٣ كيانا تفرَّقوا شيعاً يصفها الشاعر بقوله :

وتفرَّقوا شيعاً فكل محلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

دويلات الطوائف الرئيسية

- الأدارسة الأفارقة أو بنو حمود أصحاب مالقة وكانوا يحكمون جنوب الأَنْدَلُس، فضلاً عن حكم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب ، وقد تحالفوا مع أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة.

- بنو عباد أمراء إشبيلية أقوى ملوك الطوائف ، وتحالف معهم بنو جهور في قُرْطُبَة وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأَنْدَلُس.

- بنو ذي النون أمراء طُلَيْطِلَة وحكموا أواسط إسبانيا ، وكانوا يتنافسون مع بني عباد ، والتماساً للعون ضدهم إستعانوا بملك قشتالة ودفعوا له الجزية.

- بنو عامر وحكموا شرق الإندلس وبسط نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصبِّ نهر أبرة سنة ١٠٥١م في بلنسية ومرسية ، وكانوا يتحالفون طبقًا لظروفهم مع الأدارسة تارة ومع بني عباد تارة وبني ذي النون تارة أخرى.

الانقسام الطائفى وضعف ملوك الطوائف

ومن دويلات الطوائف ما هو عربي كبني عباد في إشبيلية وبني هود في سرقسطة ، ومن هو من البربر كبني الأغطس المكناسيين في بطليوس، وبني ذي النون الهواريين في طليطلة ، ومنها ما هو صقلبي كبني مجاهد وبني غانية في شرق الأندلس (٨٨) ، كان هذا الانقسام مدعاة لتأجج الوضع وليس استقراره فى ارض الاندلس فمطامع حكام تلك الدويلات فى توسيع نطاق سيطرتهم لم يكن لها حدود فإنفجرت الحروب بينهم وإنشغلوا عن مواجهة الخطرالآسبانى بخلافاتهم وإقتتالهم ؛ بل إنهم تحالفوا مع الاسبان إن وجدوا نفعا يحقق اطماعهم ؛ ويقول ابن حزم عن هؤلاء الحُكَّام "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المُسْلِمِين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفًا من سيوفه" ، ولم يكن العامة أيضا راضون عن تخاذل الحكام ؛ وقد عبر عن ذلك احد الشعراء بقوله:

مما يزهدني فـي أرض أَنْدَلُس ... أسمـاء معتمـد فيها ومعتضـد
ألقاب مملكة في غير موضعهـا ... كالهرَّ يحكى انتفاخًا صولة الأسد

وقال عنهم ابن المرابط:

ما بال شـمل المُسْلِمِين مُبدَّدٌ ... فيها وشمل الضد غيـر مبـدد
ماذا اعتذاركم غـدًا لنبيكـم ... وطريق هذا الغـدر غيـر مُمهَّد
إنْ قال لِمَ فرَّطتم فـي أُمَّتي ... وتركتموهـم للعـدو المعتدي
تالله لو إن العقوبـة لم تُخَف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيدِ

وانتقل تخاذل الحكام للبعض من الامة الذين أثروا السلامة بالاستسلام فعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة ؛ فكانت وقعة بطرنة التي إنتقدها شعرا الشاعر أبو إسحاق بن معلي:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ... حُلَلَ الحرير عليكم ألواناً
ما كان أقبحهم وأحسنكـم بها ... لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ويصف المُعْتَمِد بن عباد صاحب إشبيلية واقوى حكم الطوائف فى رسالته الى يوسف بن تاشفين مؤرخة سنة ٤٧٩هـ هوان حال الاندلسيين فيقول :

"فإنَّا - نحن العرب - في هذه الأَنْدَلُس قد تلفت قبائلنا، وتفرَّق جمعنا، وتغيَّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ نصرنا وكثر شُمَّاتُنا ، وتولَّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا

---

[88]) - دولة بن عباد بإشبيلية (٤١٤هـ إلى ٤٨٤هـ)- بنو جهور في قرطبة (٤٢٢هـ إلى ٤٤٩هـ) -- بنو حمود بمالقة (٤٠٧هـ إلى ٤٤٩هـ) -- بنو زيرى بغرناطة (٤٠٣هـ إلى ٤٨٣هـ) - بنو هود بسرقسطة (٤١٠هـ إلى ٥٣٦هـ) - بنو رزين بالسهلة (٤٠٢هـ إلى ٤٩٧هـ)- بنو ذى النون بطليطلة (٤٠٠هـ إلى ٤٧٨هـ).- بنو الأفطس في بطليوس (٤١٣هـ إلى ٤٨٧هـ).

بطُلَيْطِلَة ووطأها بقدمه وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأَنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال" ...." ويستغيث به لنجدة الاندلس فيستطرد " نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد...".

وادلى ملكا قشتالة ألفونسو السادس وألفونسو الثامن بدلوهما فى وصف حالة الخنوع التى اصابت مسلمى الاندلس فيقول الاول فى تعقيبة على طلب ابن تاشفين له قبل موقعة الزلاقة بالاسلام او الجزية بقوله " أبمثل هذا يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل مِلَّته منذ ثمانين سنة" ([٨٩])، وفى رسالة ألفونسو الثامن التى صاغها له وزيره المسلم ابن الفخار الى المنصور الموحدى يُشير لحالة التخاذل الاندلسى فيقول " .. وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأُمَثِّل بالرجال ".

وكانت مصيبة الاندلس ما سجله اهلها شعرا :

أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ ... حتى خَلَت منه أقطارٌ وبُلدانُ
يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ ... أحال حالهمْ جوراوطغيانُ
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفرِ عُبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ ... عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ ... لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ
يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما ... كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت ... كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً ... والعينُ باكيةُ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

المستعربون (Mozarabes)
والمولـــــــــــــدون
وإضعـــــــــــــاف الاندلس

ومن اسباب ضعف الاندلس القوى غير الاصيلة فى بنية المجتمع الاندلسى التى تنقسم ولاءاتها كالمسيحين المعاهدين (الاسبان المستعربين) ، والمسلمين المولدين مختلطى الاصول انصاف الاسبان او من يمكن تسميتهم بالعنصر الثالث ، فالمعاهدين هم اولا واخيرا اسبان ولاؤهم كله لعنصرهم بثقافته وطموحاته اما ما يربطهم بالاندلس فهو مجرد علاقة تعايش مادية لا روح فيها ، والمولدين رغم رابطهم القوى بالاندلس بحكم النسب والانتساب والمعايشه الا ان إنتماؤهم يتأرجح بين عنصرى انتمائهم الاسلامي والاسبانى بما لهم معهما من ارتباط مشترك ومودة ورحما وتكمها فوق ذلك المصلحة ؛فولاء المستعربين الاسبان او المسيحيين الاندلسيين (المعاهدين) دائما ما يرتد الى اصله ويصبح خطرا كامنا فى السلم والحرب ، فقد غلبت عليهم العصبية وانحازوا الى بنى جلدتهم ودينهم وناوءوا دول الاسلام المتعاقبة كلما بدت بوادر ضعفها وظهرت بارقة امل فى التوحد مع أترابهم من بنى جلدتهم

---

[٨٩]) عندما ضعفت الاندلس فى عهد الطوائف ؛ طبق رامون برنجر الأول صاحب كتلونيا منذ سنة ١٠٤٠نظام الباريا (الجزية) على بعض دول الطوائف المجاورة لحدوده ، وغدتَ ظاهرة الباريا فيما بعد واسعة الأنتشار عندما التجأ ملوك الطوائف فى اقتتالهم الداخلى الى عون قشتالة التى قويت ففرضت عليهم الجزية الثقيلة بالرغم من انها كانت إستنزافاً لخزائنهم ، وكانت بعض دول الطوائف تدفع جزيات متعددة لكل دول الاسبان القوية المجاورة لها ؛ فمملكة سرقوسة Zaragoza كانت تدفع جزية لممالك كتلونيا وأرجل ونافار وقشتالة وأراجون التى تشترك معهم فى الحدود ، فى حين أن الدول الطائفية المعزولة الحدود تدفع جزية واحدة فقط للمملكة الاسبانية التى تحدها ؛ وبفضل التجارة الخارجيةهود للأندلس فى أواسط القرن الحادى عشر، خاصة صادراتها من الحرير تمكنت من توفير الموارد الرئيسية للوفاء بدفع جزيتهم (الباريا) .

وملتهم ؛ فعند انحلال دولة المرابطين انتهزوا فرصة استيلاء الفونسو الاول ملك اراجون على سرقسطة ودعوه الى غزو بقية الاندلس ، وعندما اخترقت جيوشه عام ٥١٩هـ/١١٢٥م اراضي غرناطة وحاصرت المدينة هبوا لمساعدته بالاقوات والمؤن وشاركوا بالالاف فى جيشه ، وإستاء المرابطون من تصرف المعاهدين وأخذ اميرهم على بن تاشفين بفتوى القاضى ابو الوليد ابن رشد بوجوب تغريبهم عن الاندلس لنقضهم العهد والخروج على الذمة ؛ فهجر عدة الاف منهم الى المغرب .

وهذه الطائفة تمتعت بمعاملة كريمة فى الاندلس فى مجال حرية المعتقد وحقوق المواطنة وعدم المساس بأملاكهم او لغتهم او ثقافتهم او التمييز ضدهم وكانت لهم مكانة فتزوج من نسائها الخلفاء ومن نسلهن الخليفة عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد والسلطان محمد بن اسماعيل النصرى وابو عبد الله محمد ابا الوليد اسماعيل ، ومن رجالها من تولى مراكز القيادة والوزارة وانتظم الكثيرون منهم فى حرس السلاطين فى الاندلس والمغرب (٩٠) .

وولاء طائفة المسلمين المولدين انصاف الاسبان عادة ما يتوزع بين فرعى اصوله عند المحن وفى بعض الاحيان قد يُعلى مصلحته الخاصة بما يهدد استقرار البلاد ، الا اذا انحاز الى اسلامه واستقرعلى أندلسيته وقررالدفاع عنها وان غلبته المنفعة المادية انحاز لمن غلب وتأرجح هواه بين ولاءاته ، وهؤلاء لهم ميزة وقت السلم والحرب فهم قادرون بعلاقاتهم المتشعبة بفرعى اصولهما ان يقومون بدور الوسيط لمعالجة المشاكل .

اما المسلمون المولدون من اصول مختلطة انصاف الاسبان فكانوا عنصر قوة فى المجتمع الاندلسى لما لهم من حظوة مع مجتمع الاسبان وممالكها مما اتاح لهم القيام بدورهمزة وصل واتصال قادرين فى بعض الاحيان على تسوية الامور بين الاندلس والممالك الايبيرية خاصة وانهم فى معظم الحالات من عِلية القوم القادرين على أعباء الزواج المختلط ، ومما يؤخذ عليهم ثوراتهم المتكررة التى كان لها اثر فى اضعاف البلاد مثل ثورة الربض وثورة طليطلة ايام الحكم بن هشام وثورة بنى قسى فى الثغر الاعلى وينحدر من الكونت قسى القوطى ؛ وثورة بن حفصون اخطر ثوار الاندلس وهو الذى استطاع تأسيس دولة مستقلة فى منطقة رندة اواخر القرن ٩ م وثورة محمد بن سعد بن مرديش امير بلنسية ومرسية ضد المرابطين وكان يجند فى جيشه الكثير من النصارى ، وتنازعت ولاء البعض منهم الانتماءات المختلطة فتأرجح طبقا للمصلحة الشخصية ، فعندما جاء قرار طرد الموريسكيين برز تأثير عامل الانتماء المشترك على مسلك كل من المولدين والسلطات الاسبانية بتعاطفهما معا فى المعاملات الخاصة بهم او قبول السلطات شفاعتهم بشأن إخوتهم من المسلمين ، وإستخدمتهم السلطات احيانا فى تسوية بعض فى الاضطرابات وثورات الموريسكيين ، ومنهم من استجاب بسهولة الى التنصير والاندماج فى المجتمع الاسبانى لضمان التمتع بما يوفره لهم هذا من حقوق مدنية اسوة بالاسبان كالاحتفاظ باملاكهم ؛ ومنهم من رفض الاغراءات وتمسك بالاسلام وتقبل بعزم المصير المنتظر لكل من تمسك بدينه وقوميته ، اما السلطات فعاملتهم على انهم مواطنين اصلاء وعاملت من استجاب منهم للتنصير برفق.

صراع ملوك الطوائف

صراع طليطلة وقرطبة وتوسع اشبيلية

اضعفت الحرب الطويلة بين قرطبة وطليطلة كليهما وباتا مطمعا لاشبيلية اقوى الامارات الطامحة للتوسع ، والتى بلغت اوج قوتها فى عهد المعتمد بن عباد (٩١) ، وكانت الاطماع التوسعية لاشبيلية قد بدأت فى ولاية أبو عمرو المعتضد ابو المعتمد عندما أرسل ولديه المعتمد وجابر على رأس جيشٍ لفتح مالقة من بني زيري، فإستعصت وبحسب إحدى الروايات سقطت في أيدي المعتمد وأخيه لفترةٍ قصيرة ، لكن أغاثها باديس الصنهاجي بقوَّة خاضت معركة شديدة قتلت وأسرت فيها الكثير من الجيش ، وفرَا إبنا المعتضد وبقية الجيش إلى رندة .

وفي عام ٤٣٥هـ/١٠٤٣م تولَّى المأمون بن ذي النون إمارة طليطلة وكان متحالفاً مع مملكة قشتالة لتمكنه من الاستيلاء

---

[٩٠]) يُشير دافيدسون الى جوهر قائد الجيش المغربى الذى قضى على مملكة صنغى الاسلامية فى افريقيا بانه كان من الاندلسيين ؛ ومن غير المعروف ما اذا كان يقصد الاسبان المستعربين الذين خدموا فى جيش السلطان او الاندلسيين.

[٩١]) وهم سلالة عربية من مدينة العريش في شبه جزيرة سيناء ويرجع اصلهم الى النعمان بن منذر حاكم الحيرة ، قدم بني عباد إلى الأندلس مع طالعة بلج في بداية القرن الثاني الهجري، وفي مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) استقلَّ أبو القاسم محمد بن عباد اللخمي بإشبيلية، ثم خلفه ابنه أبو عمرو المعتضد عباد وأخيراً حفيده المعتمد في عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٦م) .

على قرطبة من اميرها محمد بن جهور ، وعندما علم المعتضد حاكم إشبيلية وبنو الأفطس حكام بطليوس بالأمر سارعوا لانقاذ قرطبة من بنى ذى النون ، وسرعان ما إنضم اليهما باقي ملوك الطوائف فى حلف كبير، لكن المعتضد الذى يطمح الى التوسع استغل إنشغال باقي ملوك الطوائف ولم يرسل الى قرطبة سوى قوة صغيرة وسير بقية قواته الى لبلة وولبة وشلطيش واستولى عليها ، واستمر فى توسعه فإستولى بعد ذلك بأعوامٍ على قرمونة.

إستيلاء إشبيلية على قرطبة

توفّي أبو عمرو المعتضد في ٢ جمادى الآخرة عام ٤٦١ هـ (١٠٦٩م)، وترك لابنه المعتمد بن عبَّاد إمارة قويَّة تولَّى حكمها وعمره ٣٠ عاماً ، ولما تعرضت قرطبة التى اضعفتها حربها الطويلة مع طليطلة للحصار، أرسل إليها المعتضد على الفور جيشاً فك الحصار واستولى عليها وأسقط إمارة بني جهور، وبات المعتضد أقوى ملوك الطوائف في الأندلس.

توسع طليطلة وحربها على إشبيلية
وتحالفها مع قشـــــــــــــتالة

تحالفَ المأمون بن ذي النون الذى تولَّى حكم إمارة طليطلة عام ٤٣٥هـ/١٠٤٣م مع مملكة قشتالة لتمكنه من الاستيلاء على قرطبة من اميرها محمد بن جهور كما اسلفنا، وإستدعى إنقاذها تحالف ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتضد حاكم إشبيلية وبنو الأفطس حكام بطليوس ، تخوَّف ملك طليطلة من نوايا إشبيلية وحاول التحالفٍ مع صهره عبد الملك المظفر أمير بلنسية لكنه رفض ، فتحالف مع ملك قشتالة فرديناند الأول واستوليا معاً على بلنسية عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م) ، وكان من المخطط الاستيلاء على إشبيلية ، إلا إنَّ وفاة فرديناند المفاجئة ونشوب الحرب بين أبنائه على حكم قشتالة تسبَّبا بإيقاف خطة الهجوم على بني عباد.

وفي عام ٤٦١هـ (١٠٦٩م) أخذ المأمون حاكم طليطلة فى التوسع ، فإستولى عام ١٠٧٣م على مرسية وأريولة ، وعقد حلفاً وثيقاً مع ألفونسو السادس حاكم قشتالة الجديد بعد انتهاء صراع أبناء فرديناند ، كما تحالف مع بني الأفطس حكام بطليوس وبني هود حكام سرقسطة إستعدادا لمعركته مع بنى عباد فى إشبيلية فشن عليها الحرب عام ٤٦٨هـ وإستولى على قرطبة التابعة للمعتمد بن عباد بمقاومة بسيطة بعد أن تسلَّل إليها ابن عكاشة قائدُ المأمون في الليل مع رجاله، وقُتلَ في المعركة عبَّاد سراج الدولة ابن المعتمد ، وأخذ البيعة من أهل قرطبة للمأمون.

توقَّفت الحرب لوفاة المأمون بن ذي النون في عام ٤٦٨هـ (١٠٧٤م)، وبعدها بثلاث سنوات في عام ٤٧١هـ ، استعاد المعتمد قرطبة من جديد وقتل ابن عكاشة قائد جيش ابن ذي النون انتقاماً لابنه وإستولى على طليطلة لضعف حاكمها الجديد القادر بالله ولد المأمون بن ذي النون الذي خلف والده على الحكم كما نجح فى الاستيلاء على الكثير من المدن التابعة لها ومنها بلنسية.

توسع إشبيلية (المعتمد) وتحالفه مع ملك برشلونة
فى محاولة غزو مرسية الفاشلة

في تلك الفترة خطط المعتمد للتوسع وبدأ بمرسية وهى تحت حكم أبي عبد الرحمن بن طاهر، وقدَّم ابن عمار كبير وزرائه إغراءاتٍ ووعود لبعض وجهائها تشجيعا لهم على الثورة ؛ وفى نفس الوقت عقد ابن عمار حلفا مع ملك برشلونة الكونت ريموند برانجيه لمساعدة المعتمد فى فتح مرسية مقابل عشرة آلاف مثقالٍ من الذهب وإتفقا بدون علم المعتمد إرتهان ابن أخ برانجيه لدى المعتمد لضمان مساعدة ملك برشلونة وإحتجاز قائد الحملة الرشيد ابن المعتمد عند برانجيه إذا لم يصل المال الذي وُعِدَ به ، وبعد حصار جيشا المعتمد والبرتغال مرسية ، عاد المعتمد إلى قرطبة ومعه الرهينة لكنه تأخَّر بإرسال المال عن الموعد المُحدَّد ، فظنَّ كونت برشلونة أنه خُدع فقبض على ابن عمار والرشيد ، ولما فشل جيش إشبيلية فى تحريرهما ، سجن المعتمد ابن أخ الكونت فى إشبيلية ، وطالب كونت برشلونة بمضاعفة مكافأته ثلاث مرات لتصل إلى ثلاثين ألف مثقالٍ من الذهب، ولم يكن المعتمد يستطيع تدبير هذا المبلغ فصنع عملة زائفة من خليط من الذهب والمعادن ، ولم ينتبه الكونت لذلك وتم مبادلة الرهائن الملكية بفك اسر ابن أخ ريموند والرشيد ومع هذا فشل الاستيلاء على مرسية .

حاول ابن عمَّار ثانية غزو مرسية فاستولى علي مدينة مولا مركز تموين مرسية ، وسرعان ما سقطت مرسية تحت وطأة الحصار والمجاعة وفتحت أبوابها بالخيانة، وأُخذت البيعة للمعتمد ، وغضب المعتمد من ابن عمَّارٍ لتماديه في تجاهله أوامره بإطلاق

سراح ملك مرسية أبو عبد الرحمن بن طاهر ، وكاتبه شعراً يهجوه ، فكتب ابن عمار قصيدة أحرقها ولم يرسلها شتم فيها المعتمد وزوجته وأبناءه ، أرسلها يهودي من المياسير فى حاشية ابن عمَّارٍإلى إلى حاكم بلنسية الذي أرسلها بدوره إلى المعتمد ، فغضب الاخير غضباً شديداً، لكنه لم يُقْدِم على أيِّ إجراءٍ اتجاه ابن عمار لما كان بينهما من صداقة وود شديد.

ثار جند عمار فى مرسية لتأخُّره في دفع رواتبهم ففرَّ هارباً إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة لمساعدته فى استعادة المدينة إلا إنَّه طرده ، فتوجَّه إلى بني هود في سرقسطة وأغراه بغزو حصن شقورة شمال مرسية ، فزوده بجيشٍ صغيرٍ قاده إلى الحصن وهناك غُدِرَ به وقبض عليه بني سهيل أصحاب الحصن وسجنوه وفرَّ جيشه عائداً إلى سرقسطة ، وعرضوا بيعه لمن يدفع أكبر ثمنٍ له من ملوك الأندلس فشراه المعتمد وأرسل ابنه الراضي ليحضره إلى قرطبة مَهيناً وزُجَّ به في سجن إشبيلية الى ان قتله المعتمد بنفسه فى السجن .

مسيرة الاسترداد

قشتالة والاستيلاء على طليطلة

الهدف الثمين الاول

اسس لعدم استقرار الاندلس فى المدى الطويل نتائج موقعة بلاط الشهداء التى أثمرت عن تحالفاوروبى لصد مد الاسلام فى اوروبا ، وهو التحالف الذى باشرته الكنيسة مما اضفى عليه صبغة مقدسة تضمن له الحشد المستمر، وكان اول ضحاياه المستوطنات الاندلسية فى اوروبا التى كان مصيرها نذيرا أطلقه بزوغ صحوة اوروبية مشحونة بالتحدى الصليبي للاندلس بأن ذات المصير فى انتظارها ما دام كيانها هشا ([٩٢]).

وامام قوة الوحدة الاوروبية وإنسياق مسلموا الاندلس وراء خلافاتهم وإقتتال طوائفهم ؛ تجمعت الممالك الاسبانية بقيادة قشتالة فى وحدة كيانات حرب استغلت كل مناسبة وفرها لها ملوك الطوائف لتخريب تماسك البلاد ووضعت بذور خراب الاندلس ومأساة شعبها التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا (٩٣) .

وكان فرناندو الأول الملقب بالعظيم هو من وضع لبنة الوحدة الاسبانية الاولى بتوحيد قشتالة ومملكة ليون ، وكان يرصد الوضع فى اندلس الطوائف ويقاتل المسلمين كلما سنحت الفرصة ؛ وبعد وفاته تولي ابنه الملك ألفونسو السادس الذى استطاع ان يدفع المسلمين جنوبا بعدما استولى على عدد من الحصون والمدن الصغيرة ؛ وتشجع بتخاذل المسلمين للتفكير فى استخلاص الارض الاسبانية من أيديهم فإنتهج منحا إستراتيجيا قويا فى حربهم بعدما خبرهم واستخف بهم ، فشن هجمات قوية على طليطلة بعد حصارها في شهر صفر ٤٨٧هـ / مايو عام ١٠٨٥م ، واستولى عليها من صاحبها القادر بالله بن ذى النون الذى احسن والده المأمون بن ذى النون اليه وأواه فى بلاطه عندما لجأ اليه هاربا من اخيه سانشو الثانى الذى استولى على عرشه (٩٤).

وكانت طليطلة اول هدف ثمين لألفونسو السادس فموقعها إستراتيجى ذو تحصينات طبيعية قوية صمدت لأكثر من خمسة أعوام للغارات والحصار كما ان مكانتها التاريخية كعاصمة للقوط وللدولة الأموية يعنى الكثير للاسبان والعرب ؛ كما انها ثالث أكبرالقواعد الاندلسية وتلى فى الاهمية قرطبة واشبيلية ، والمحزن انه عندما هاجمها ألفونسو السادس لم يهب احدا من ملوك الطوائف لنصرتها سوى المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس باداخوز Badajoz (٩٥) ؛ الذى أرسل جيشا بقيادة ابنه الفضل فشل فى نجدتها ، ومن المؤسف ان المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية وأعظم أمراء الأندلس قدرا كان قد شارك فى حملة الفونسو على

---

[٩٢]) وهو ما جعل مؤرخو الاسلام يدقون ناقوس الخطر ويدمغون حكامها بعدم المسئولية فقد كان تاريخهم سِفرا من التناحر الطائفى والانتحار القومى ؛ اعمتهم دنياهم الصغيرة عن الخطر الرابض على رأس البلاد ، ويبدوا ان الخلاف والاختلاف كان سُنة وتقليد بين عرب وبربر الاندلس ؛ أسس له الخلاف الاول بين الفاتحين العظام طارق بن زياد وموسى بن نصير منذ بداية الفتح ، وزاد الامر سوءا تحول الخلافات لثورات منذ الفتح ففى ولاية عبد الرحمن الغافقي اخر الفاتحين العظام فى الاندلس حدثت ثورات كثيرة بين العرب والبربر وأعلنت بعض الأقاليم مثل قطالونيا استقلالها عن الدولة الإسلامية ولكن تم إخمادها .

[٩٣]) تعمدنا الاستطالة فى سرد مأساة الاندلس لما فيها من عبر لعرب كل العصور تُبين ان ضعفهم فى تفرقهم وان الاستقواء بالغرباء كارثى النتائج ينتهى بضياعهم ، والاندلسيون الذين استعانوا باعدائهم على اخوانهم واستخدمهم اعدائهم ضد اخوانهم ذهبت ريحهم الى غير رجعة وقدموا درسا لعرب كل العصور وعبرة خالدة وتدور الدوائر على من لا يعتبر ، والتاريخ العربى يتكرر وكأنها دورة حتمية تلاحقهم فى تاريخهم.

[٩٤]) Dr Lea , History of Inquisition In Spain -- v.i.p٦٢,٦٤,٥١ نقلا عن نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين صـ٥٥و٦٩و٧٢ – محمد عبدالله عنان.

[٩٥]) المتوكل بن االافطس الوحيد من حكام الطوائف الذى رفض الخضوع لالفونسو او دفع الجزية له .

طليطلة بجيش من ثلاثين الفا فى إطار تحالفهما المخزى ، وأحدث سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين عام ٤٧٨هـ بعد ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً من حكم المسلمين منها ٧٨سنة فى ظل بنى ذو النون ، دوياً عنيفا فى الاندلس والمغرب العربى وأنحاء العالم الاسلامي ، وأصبحت المدينة قاعدة هامة للقشتاليين.

قصة تحالف قشتالة والمعتمد
وتصادمهما واستدعاء المرابطين
للجهـــــــــــــاد فى الاندلس

وهى قصة جديرة بالتسجيل للتعرف على ابعاد تصرفات كلا الطرفين ، فبعد وفاة المأمون بن ذي النون أمير طليطلة السابق على سقوطها ؛ عقد المعتمد حلفاً مع قشتالة تدعمه فيه للاستيلاء على باقي إمارات الطوائف مقابل جزية يؤدّيها إليها وإشترطت بشأن ضمُّه قرطبة أن يحصل ألفونسو السادس على أموالها وثرواتها (٩٦)، والا يقاوم قشتالة فى حربها على طليطلة ، ولما حاصرت جيوش ألفونسو طليطلة وحاول المتوكل عمر بن الأفطس أمير بطليوس السير لفك الحصار عنها حاصره المعتمد فى مدينته ومنعه من نجدة طليطلة ، فسقطت في ٢٧ من محرم عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) ، وارتكب ألفونسو السادس بالمدينة التى استضافته هاربا من اخيه سانشو الثانى الذى استولى على عرشه فى عهد المأمون بن ذي النون والد حاكمها القادر بن ذى النون ؛ المذابح فذبح كل اهلها بأمر من البابا القديس Gregory VII ([٩٧]) ولم ينجوا منها طفلا ولا امرأة.

ومسلك المعتمد بن عباد فى خلط التحالفات كان بمثابة انتحار بطئ لم يدركه او قد ادركه متأخرا كبقية ملوك دول الطوائف التى إعتادت هذا المسلك الذى اصبح ديدنا لاهلها ؛ ولما إستدرك سوء تحالفه مع الفونسو وإستشعر خطره على اشبيلية ، طلب اليه ألا يتقدم فيما وراء طليطلة وإلا إنتهي تحالفهما ، وهو التهديد الذى لم يكترث له ملك قشتالة الذى رأى ان ساعة الاستيلاء على إشبيلية ذاتها من يد المعتمد قد حانت ، فصعد ضغطه عليه وطلب منه التنازل عن بعض القرى الحدودية ، وحدث ان أرسل ألفونسو عام ٤٧٥هـ (١٠٨٢م) إلي المعتمد وفد جباية الجزية وعلى رأسه "ابن سالب" اليهودي (٩٨) الذى رفض استلام الجزية بدعوى أن الذهب غير صافى مشككا فى ذمة الامير ([٩٩]) ؛ وزاد بتهديده بإحتلال " إشبيلية " إذا لم يحصل على الذهب من عيار حسن ، ولم يحتمل المعتمد ما أعلمه به اليهودى بأن زوجة الفونسو السادس ترغب وهى على وشك الولادة بأن تلد في جامع قرطبة لمكانته ككنيسة في السابق حسب نصيحة القسس ، فأخذ المعتمد محبرة كانت بين يديه وأنزلها على رأس اليهودي فألقى دماغه في حلقه ، ثم أُمر به فصلب منكوساً بقرطبة وسجن مرافقيه ؛ ولما علم ألفونسوالسادس وكان فى طريقه لمحاصره قرطبة حسب مخططه لتقويض الاندلس خطوة خطوة طبقا لاستراتيجية التحالف الذى ضمه وسانشو الأول ملك أراغون ونافارا ، وبرنغار ريموند كونت برشلونة ، إتجه إلى إشبيلية وقام بتدمير ونهب كل القرى والمدن التي مرَّ بها ، وأثناء حصاره إشبيلية أرسل للمعتمد رسالة تهكم يقول فيها "لقد ألم بي ذبابكم بعد أن طال مقامي قبالتكم (خارج الاسوار) واشتد الحر، فهلا أتحفتني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي وأبعد الذباب عن وجهي" ، فأخذ المعتمد الرسالة وكتب على ظهرها "قرأت كتابك وفهمت خُيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوِح من الجلود اللمطية في أيدي جيوش المرابطين تُروِّح منك لا تروح عليك إن شاء الله تعالى" يقصد أنه سيستعين بقوات

---

[٩٦]) استعانَ أميرَ قرطبة عبدالملك بن جهور بالمعتمد بن عباد ليدفعَ عنها مَنْ أغارَ عليها، فجاءتْ جيوشُ المعتمد ورابطَتْ بظاهر قرطبة ، ولما انصرفَ العدوُّ غدر المعتمد بابن جهور فقبض علي عبدالملك بن جهور وإخوتِه وأهلِ بيته وضم اليه قرطبة " - المصدرالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

[٩٧]) List of most evil crimes Type Year Crime Of crimes against humanity (١٠٨٥ CE) That the Christian King Alfonso VI of Castile did capture the Muslim city of Toledo murdering all its inhabitants, including women and children, upon the orders of Pope Gregory VII, also known as St. Gregory. That the former possessions of the Muslim people murdered by the church reveal a far more advanced culture of riches and knowledge compared to the ٦٠٠ year enforced Stone Age of Europe imposed by the Roman Catholic Church. Rumours spread across the courts of Europe of the fabulous wealth held by the Muslims, thereby creating desires among Christian leaders to ransack their lands.

[٩٨]) الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين ١٩٧٩- صـ ٣٥شوقي أبو خليل دار الفكر، دمشق - سوريا.

[٩٩]) قد يكون هذا الموقف أخذ فى الحسبان ما قدمه المعتمد الى ملك برشلونة الكونت ريموند برانجيه من ذهب غير صافى لما بالغ الاخير فى مطالبه لقاء تحالفهما معا .

سمراء يقصد مرابطي المغرب (١٠٠).

ترك ألفونسو حصار إشبيلية بعد ثلاثة أيام وإستمر فى حملته على باقى إمارات الأندلس، فأسقط إمارة بني هود في سرقسطة وبني ذى النون في بلنسية وأخيراً بني صمادح في المرية واستمر فى مسيرته حتى بلغ نابار بالقربَ من غرناطة ؛ ولما تساقطت مدن الأندلس فى ايدى قشتالة واصبحت اشبيلية مُهددة اجتمع فى قرطبة كبار القوم من الفقهاء والقضاة ووجهاء المدينة لمناقشة الوضع المتردى ، واتفقوا على الاستعانة بعرب إفريقية الزيريين او بنى هلال لمساعدة ملوك الطوائف وعرضوا هذا المقترح على القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم ففضل المرابطين قائلا «أخاف أن يخرّبوا (الزيريون او بنى هلال) الأندلس كما فعلوا بإفريقيَّة ، ويتركوا الإفرنج ويبدأون بكم ؛ والمرابطون أقرب إلينا وأصلح حالاً» ، وكانت فكرة استدعاء المرابطين تدور في خاطر المعتمد منذ مدة ، لذا بادر إلى عقد اجتماع مماثل لملوك الطوائف في قرطبة ثم في إشبيلية أيدوا فيه طلب النجدة من يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ووقَّع علي رسالة الاستغاثة ١٣ أميراً من أمراء الأندلس، ولم يعارضها الا عبد الله بن سكوت والي مالقة ، وممن اعترضوا على اللجوء الى المرابطين "الرشيد" ابن المعتمد وولي عهده ؛ وكان رد والده المعتمد "والله لا يُسمع عني أنني أعَدتُ الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري" ، وقال " إن دُهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر الملثمين – لقب المرابطين - ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج " ؛ ولما خوّفه بعضا من حاشيته من ابن تاشفين وقالوا: "المُلك عقيم ، ولا يجتمع سيفان في غمد واحد" ؛ أجابهم ابن عباد "تالله إنني لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أؤدي له الجزية، إن رعي الجمال خير من رعي ال"خنازير" ؛ وتشكّلت البعثة المرسلة من قبل ملوك الطوائف من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي، ومعهم وزير المُعْتَمِد أبو بكر بن زيدون، وحملت معها رسالة مكتوبة من المُعْتَمِد إلى الأمير يوسف مؤرخة بسنة ٤٧٩ هـ، وهذا نصُّها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدِّين ومحيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشَّاكر لأجلالها، المعظِّم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها، المنقطع إلى سمُّو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد، سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية فى غرة جمادى الأولى ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م، وإنَّه أيَّد الله أمير المُسْلِمِين ونصر به الدِّين، فإنَّا - نحن العرب - في هذه الأَنْدَلُس قد تلفت قبائلنا، وتفرَّق جمعنا، وتغيَّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ نصرنا، وكثر شُمَّاتُنا ، وتولَّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطُلَيْطِلَة ووطأها بقدمه وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون .

ونحن أهل هذه الأَنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وكثر شُمَّاتُنا ، وتولَّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطُلَيْطِلَة ووطأها بقدمه وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأَنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك ؛ وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال ، وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" ، وتسهيلا على قوات المغرب فى ان تكون لهم قاعدة فى الجزيرة كطلب إبن تاشفين ؛ أرسل المعتمد الى ولده يزيد والي الجزيرة ليُسلّم الثغر إلى المرابطين الذين ارسلهم ابن تاشفين لاستلامها.

(١٠٠) لاحظ بعض الباحثين عدم وضوح تسلسل الأحداث التاريخية بين المعتمد بن عبَّاد وألفونسو، مثل وقت حصار ألفونسو لإشبيلية، وبلوغه بعد ذلك في غزواته جزيرة طريف، ووقت حدوث قصة وفد ابن سايب، وكذلك بعض الأحداث الأخرى.

المرابطون ونجدة دول الطوائف

(يوسف بن تاشفين ونصر الزلاقة (Sagrajas)

عام ٤٧٩ هـ - اكتوبر ١٠٨٦م)

ولما عبر ابن تاشفين الى الاندلس أرسل كتابًا الى الفونسو السادس يعرض عليه الإسلام أو الجزية أوالحرب طبقا لقواعد الحرب الاسلامية ([١٠١])، ومما جاء في الكتاب "بلغنا يا ألفونس أنَّك نحوت الاجتماع بنا ، وتمنيَّت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: ١٤، غافر: ٥٠، ولما قرأ ألفونسو الكتاب غضب وقال: "أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم أهل ملته الجزية منذ ثمانين سنة ، وقال لرسول الأمير يوسف "قُل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك".

وكان الفونسو قد أرسل منذرا ملوك وأمراء أوروبا لما ادرك انها الحرب ، بأنهم إن لم يتداركوه بالعون فسوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ويتركهم أحراراً في عبور جبال البرانس ليدخلوا قلب أوروبا ، وكاتب فى هذا الخصوص "شانجة" ملك أرغون وملك فرنسة وما وراء جبال البيرينية ، وجيليقية ونافارة والبابا الذى أعلنها حربا صليبية مقدسة وأرسل كبار الرهبان والقساوسة لدعم القوات فى هذه المعركة الفاصلة، فجاءته الإمدادات والمتطوعون والجنود من كل مكان من إسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ؛ وبلغ جيشه مئة ألف من المشاة وثمانين ألفاً من الفرسان ، منهم أربعون ألفاً من ذوي العدد الثقيلة والباقون من ذوى العدد الخفيفة ، وقدرتهم مصادر أخرى بثمانين الفا الى مائة الف(١٠٢)، مما اثلج صدره حتى قال سأقاتل الجن والإنس وملائكة السماء .

وأرسل إلى المعتمد بن عباد رسالة يستهزئ فيها به وبابن تاشفين (١٠٣) يقول " إن صاحبكم يوسف (إبن تاشفين) قد تعنّى من بلاده وخاض البحور وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم " ، ووجهة نظره فى ذلك حسبما قال لأهل ودّه ووزرائه " إني أرى إن أمكنتهم من دخول بلادي وناجزوني بين جدرها ربما كانت الدائرة عليَّ فيكتسحونها ويحصدون مَنْ فيها في غداة واحدة ، ولكن مناجزتى لهم في حوز بلادهم إن كانت عليَّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاَّ بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صونٌ لبلادي وجبرٌ لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خِفْتُ أنا أن يكون منهم فيَّ إذا ناجزوني في وسطها " .

ولما اجتمع جيش الفونسو أعجبته كثرته ؛ فإستدعى مفسر الرؤيا المسلم الذى سبق ان فسر له ما كان قد رأه في منامه وأنذره بهلاك جيشه (١٠٤) ، فقال له " بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم " ، فانصرف المعبّر وقال لبعض المسلمين هذا الملك هالك وكل من معه ، وذكر قول رسول الله ﷺ " ثلاث مهلكات .. وفيهن إعجاب المرء بنفسه ".

لبث ابن تاشفين في " إشبيلية " ثمانية أيام يرتّب القوات ويعدّ العدّة ، وكان مكثراً من التعبّد والصيام والقيام وأعمال البر ، ثم غادر " إشبيلية " إلى " بطليوس"، وكان ألفونسو في أثناء ذلك مشغولاً بقتال ابن هود أمير " سرقسطة " ، فلما بلغه الخبر ترك حصار المدينة وتوجه للقاء ابن تاشفين وعسكر الجيشان المتحاربان في سهل تتخلله الأحراش تسمى بالزلاقة يفصل بينهما نهر

---

[١٠١]) يذكر البعض (ابن خلكان في وفيات الأعيان ، ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ص٩١؛ و الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ابن الخطيب ، د. سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص٧٨، ابن أبي زرع الأندلسي: روض القرطاس ص٩)ان الفونسو السادس ارسل الى بن تاشفين سلطان المرابطين الذى هدده به المعتمد يستخف به قائلاً: "فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتني فتلك نعمة جُلِبت إليك، ونعمة شملت بين يديك،وإن غلبتك كانت ليَّ اليد العليا عليك واستكملت الإمارة والله يتم الإرادة ."يلاحظ ان نص هذه الرسالة مماثل تماما لنص رسالة ألفونسو الثامن للسلطان يعقوب المنصور سلطان الموحدين بالمغرب قبل موقعة الارك ولا نعرف عما اذا كان المؤرخون العرب مروجوا هذه الرسالة وقعوا فى هذا الخطأ ام ان الفونسوا الثامن اقتبس الرسالة من رسالة الفونسو السادس وعندنا فإن الرسالة كانت من الفونسو الثامن الى السلطان الموحدى ابى يوسف المنصور ، ولم نجد فى المراجع الاجنبية نصا للرسالتين للتحقق منهما .

[١٠٢]) كان جيش المسلمين في هذه المعركة ثمانية وأربعين ألفاً نصفهم من الأندلسيين ونصفهم من المرابطين .

[١٠٣]) الروض المعطار.

[١٠٤]) رأى الفونسو فى منامه أنه راكبٌ فيلا ، وهو ينقر علي طبلٌ صغير بين يديه ، فقصّ رؤياه على القسيسين فلم يعرف أحد تأويلها ، فأحضر مسلماً عالماً بتعبير الرؤيا ، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه ، فقال " تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله العزيز قوله تعالى " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " ، وقوله تعالى " فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير " ، ويقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه " .

صغير، وكان معسكر ابن تاشفين وراء ربوة عالية بينما عسكر الأندلسيون أمام النصارى الذين كان إمتداد جموع فرسانهم لا تدرك نهايتها الأبصار فبعثت ضخامتها في قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النصر والظفر .

وبقى الجيشان ثلاثة أيام دون قتال لا يفصلهما سوى النهر ، وكان الموقف لا يحتمل تأجيل المعركةُ فهذه الجموع الهائلة للجيشين ليس لديها ما يكفيها من المؤن إذا طال مكثها ؛ فأرسل ابن تاشفين إلى ملك النصارى كتاباً يُخيّره بين ثلاث إما أن يعتنق الإسلام أو يؤدي الجزية للمسلمين فإذا أبى الاثنتين فعليه أن يستعد للقتال ؛ فكتب ملك النصارى إلى ابن تاشفين قائلاً له " إن غداً يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولا أراه يصلح للقتال ويوم الأحد يوم النصارى، وعلى ذلك فإني أقترح اللقاء يوم الاثنين ، فوقع هذا الاقتراح من يوسف موقع الرضى، وتحدد اللقاء يوم الاثنين الخامس عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربع مئة للهجرة، بيد أن المسلمين ارتابوا فى نيّات ملك قشتالة وتحوطوا ضد أية مفاجأة ، لاسيما أن المعتمد بن عباد قد خبر خداعه في الحروب ، فبعث عيونه بالليل ليرصدوا حركة معسكر النصارى فعادوا مسرعين ليخبرونه بأنهم سمعوا ضوضاء جيوش النصارى وقعقعة السلاح إستعدادا للهجوم .

وعندما ترآى الجمعان عام ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦م ، هال ابن عباد منظر فرسان النصارى في دروعهم الحديدية ومعهم القسس والرهبان يحرضونهم على القتال ورفعوا صلبانهم وأناجيلهم وتبايعوا على الموت ، ففرّ بعض الأمراء الأندلسيين قبل خوض المعركة بعد أن أيقنوا بالهزيمة ؛ وسارت المعركة فى البداية لصالح قشتالة التى هاجمت فرسان المعتمد بن عباد بضراوة لبسالتهم فى القتال ، ولما اشتد الوطيس فاجأت القوات الرئيسية لابن تاشفين معسكر الاسبان ودمرته وقتلت من فيه ثم انقضت على بقية القوات الاسبانية وعندها أدرك ألفونس أنها الهزيمة فبادر وهو جريح بالهرب تحت جنح الظلام مع قلة من فرسانه لم تتجاوز الأربعمائة جرحى مات معظمهم في الطريق ولم ينج منهم إلا مائة فارس فقط ، وأسر المسلمون ثلاثة عشر ألفاً وغنموا مئة ألف خيمة ، ومن الخيل ستة وأربعون ألف ومن البغال مئة ألف بغل ومن الحمر مثلها، ومن السلاح التام سبعون ألفاً، ومن العُدد شيء كثير ، وبعد المعركة استمرَّ المعتمد بقيادة جيشه لاستعادة الأراضي التي كان قد خسرها لقشتالة، ففتح حصوناً في ولاية طليطلة، إلا أنه تراجع بعد ذلك نتيجة هزيمةٍ تلقاها في مرسية.

عودة ابن تاشفين إلى المغرب
وفكرة الاستيلاء على الاندلس

كانت نية ابن تاشفين بعد نصر الزلاقة أن يتابع غزوته لإستعادة طليطلة وإخضاع قشتالة ، لكن وفاة ولده أبي بكر وأحداثا خطيرة وقعت في المغرب جعلته يعود ، وقبل مغادرته جمع أمراء الاندلس ونصحهم بالتوحد والاعتصام بحبل الله ، وفى طريق عودته مرَّ بإشبيلية فدعاه المعتمد إلى النزول عنده فقضى هناك ثلاثة أيام أُخِذَته فيها إشبيلية بجمالها، ورأى ترف المعتمد في المأكل والمشرب والعيش (١٠٥)، فعلق على ترفه قائلاً: «الذي يَلُوح لي من أمر هذا الرجل (المعتمد) أنه مُضَيِّعٌ لما في يديه من الملك، لأن هذه الأموال التي تُعِينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أربابٌ لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل فأَخَذَهُ بالظُّلم، وأخرَجَهُ في هذه الترَّهات، وهذا من أفحش الاستهتار» ، وتحرى عن رضا معاوني المعتمد كعلامة لحسن عمله ؛ فإنزعج ابن تاشفين من عدم رضاهم ولم يؤثر هذا على احترامه للمعتمد وكان يقول عنه «إنَّما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت إمرته » ، وقد كانت هذه الضيافة وبالا على المعتمد بعدما كشفت مجون تبذيره لاموال الامة(١٠٦) .

---

[١٠٥]) زعم أبو بكر بن اللبانة شاعر المعتمد انه امتلك في الأندلس ٢٠٠ مدينة وحصن، وله ١٧٣ ولدا ـالمصدر ـ سير أعلام النبلاء لـ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - الجزء التاسع عشر ـ ص٦١ ـ مؤسسةالرسالة ناشرون، بيروت ـ لبنان.

[١٠٦]) المصدر ـ المعتمد بن عبَّاد ـ علي أدهم ٢٠٠٠ الإدارة العامة للثقافة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ـ كان للمعتمد زوجة مغرم بها وكانت أقرب زوجاته إلي قلبه فقد كان يغدق عليها الكثير من الأموال لإرضائها ، ومن أشهر قصص تبذيره عليهاٌ انها اشتهت المشي في الطين لما رأت الناس يمشون فيه فأمر المعتمد فسحقت كميات من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمَّته ثم نصبت الغرابيل وصُبّ ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيادي حتى أصبحت كالطين وخاضتها الرميكية مع جواريها ، وقصة هذه المرأة جديرة بالاشارة لانها اغرقته فى اللهو والتبذير ، فقد كان المعتمد شاعرا وبينما كان يتنزَّه مع ابن عمار في مرج الفضة ـ أحد متنزهات إشبيلية المطلة على نهر الوادي الكبير ـ قال «صنع الريح من ماء الزَّرد» فتقاعست بديهة ابن عمار صديق عمرة وكبير وزراؤه عن إستكمال بقية بيت الشعر وكانت بقربهما امرأة تغسل الملابس في النهر، فقالت: «أيُّ درعٍ لقتال لو جمد» ، وقد أُعجب

ألفونسو وإعادة الحشد

وعودة ابن تاشفين الى الاندلس

عاد ألفونسو إلى طليطلة، وبدأ فى جمع المقاتلين الذين تشتتوا في شمال الأندلس بعد هزيمة الزلاقة، لإستئناف الاسترداد وفي عام ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧م أي بعد عام واحد من معركة الزلاقة وبنى حصناً جديداً لقواته قرب مدينة "مرسية" حصن "لُيَيْط" ليكون منطلقاً وقاعدة لعملياته حشد فيه ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ فتخوف المعتمد بن عباد وسعى الى ابن تاشفين من جديد عام ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩م وشرح له الأوضاع فإستجاب له وعبر بقواته المضيق فى نفس العام ، وحاصر الحصن حصاراً شديداً لكنه فشل بسبب قلة العتاد والسّلاح ، وإختلف يوسف والمعتمد مع أمراء مرسية بسبب نيتهما متابعة الزحف ضد النصارى وإعترض عليهم الأمير عبد العزيز بن رشيق أمير مرسية الذى أشهر سيفه على المعتمد ، فإعتقله إبن تاشفين فتسبب في ثورة جند الأمير الذين إنسحبوا وصاروا يقطعون طرق المؤن على الجيش المرابطي ، وانسحب معهم بعض ملوك الطوائف ، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب تاركاً وراءه حامية مرابطية ، وفي نفسه من الأندلس "الكثير المقعد" كما يقول المراكشي .

رغب ابن تاشفين فى الاستحواز على الاندلس فقال لمعاونيه «كنتُ أظنُّ أني قد ملكت شيئاً، فلمَّا رأيت تلك البلاد صَغُرَت في عيني مملكتي، فكيف الحالة في تحصيلها (أخذها)؟»، وشجَّعه أعيانه طمعا فى خيرات الأندلس ، وأشاروا عليه بأن يتمركز بعض رجال المرابطين في حصون الأندلس، ليساعدوا في انتزاعها ، وبعد موافقة المعتمد تمركزت قوة من المرابطين وعليهم "بُلُجّين" أميرا في حصون الأندلس.

وبعد استفتاء عددٍ من الفقهاء والعلماء منهم أبي حامد الغزالي ، قرَّر يوسف بن تاشفين أن يضمُّ إمارات ملوك الطوائف إلى الدولة المرابطية بالقوة، وكان أغلب مثقّفي الأندلس والكثير من أهاليها يدعمونه في ذلك ويتأمَّلون قدومه،فعبر إلى الأندلس مرة أخرى وحاصر غرناطة واستولى عليها من أميرها عبد الله الزيري وفوجئ المعتمد بن عبَّاد بذلك ، فأرسل إلي ابن تاشفين يستفسر ويطلب مقابلته إلا أنَّ الاخير رفض فعقب المعتمد للمتوكل أمير بطليوس « بأنه لا بدَّ أن يسقينا من الكأس التي أسقى بها عبد الله امير غرناطة» ؛ وصدق حدسه فقد سير يوسف بن تاشفينَ الجيوش الى الاندلس ، وطلب من قائدها سير بن أبي بكر أن يطلب من ملوكها الرحيل، فإن لم يفعلوا فليحاصرهم وليقاتلهم .

و في عام ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) اجتازت جيوش المرابطين مضيق جبل طارق ،وانقسمت إلى أربع فرق منها جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه إلى إشبيلية، وثانٍ بقيادة أبي عبد الله بن الحاجّ توجه إلى قرطبة، والثالث بقيادة جرور اللتموني توجه إلى رندة، وكلُّها من مدن بني عبَّاد، وأما الجيش الأخير فقد اتَّجه إلى المرية ، وبقي ابن تاشفين في سبتة بالمغرب ليتدخَّل إذا ما اقتضت الضرورة ؛ وكانت طريف أول مدن المعتمد التى سقطت في أيدي المرابطين ، و سلَّم أهل قرطبة المدينة لجيش ابن الحاج في شهر صفر من عام ٤٨٤هـ ، وقُتِلَ واليها الفتح بن المعتمد المعروف بالمأمون وهربت زوجته زائدة الأندلسية إلى قشتالة، وقتل ابن المعتمد الراضي في رندة، وسقطت قرمونة في شهر ربيع الأول، ولم يتبقَ في يد المعتمد بن عبَّاد الا إشبيلية .

إشتبك المعتمد بن عبَّاد مع المرابطين في معارك صغيرة متكرّرة آملاً فى استنزاف قواهم إلا أنَّه فشل ؛ وحاصره المرابطون فى إشبيلية التى إندلعت بها الثورة ضده الا انه أبى إخمادها بالقوة ، ولما أصيب باليأس راسل ألفونسو السادس ملك قشتالة وطلب منه إنقاذه ؛ فتغاضى الاخير عن خلافاتهما السابقة وأرسل جيشاً كبيراً إلى قرطبة لمساعدته هزمه المرابطون بالقرب من حصن المدور.

أخذت المؤامرات تُحَاك داخل إشبيلية لتسليم المدينة للمرابطين ، وفي النهاية نجح الثوار فى مساعدة المرابطِّين فى اقتحامها بحفر ثغرةٍ في سور المدينة اقتحمها المرابطون ثم تراجعوا الى ان تمكنواً فى عصر نفس اليوم ذاته من اقتحامها ، واشتدَّت المعركة، وأصيب الأهالي بالهلع وأخذوا يقفزون من على الشرفات ويفرُّون إلى النهر وقتل أربعة من أبناء المعتمد خلال المعركة ، وسقطت إشبيلية في يوم الثلاثاء من منتصف شهر رجب عام ٤٨٤هـ بعد مقاومة عنيفة ، وقيل كذلك في يوم الأحد ٢١

المعتمد بموهبتها بالشعر وفتن بجمالها، وكانت جارية رميك بن حجاج فإشتراها وتزوجها، وعُرِفَت بعد ذلك باعتماد الرميكية نسبة لمالكها السابق ، ومما يُظهر تعلقه بها انه غير لقبه من "المُؤَيَّد بالله"، إلى المعتمد على الله تيمُّناً باسمها "اعتماد".

من رجب.

وقبض المرابطون علي المعتمد وقادوه وأغلب ملوك الطوائف أسرى إلى مراكش(١٠٧) وضموا الاندلس إلى دولتهم ؛ وتوقفت عملية الاسترداد لفترة قصيرة بسبب تواجد المرابطين الاقوياء على ارض الاندلس ، وتوفي يوسف ابن تاشفين في بيته بمراكش يوم الاثنين الثالث من شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ (خمسمئة للهجرة) بعد حياة طويلة من الجهاد وجلائل الأعمال.

عودة الزخم لعملية الاسترداد

تساقطت الحصون الاندلسية بفارق زمنى بسيط ومتتابع فسقطت سرقسطة عام ١١١٨م ثم تطيلو عام ١١٣٠ ؛ ولارده وافراغة وطرطوشة عام ١١٤٨م ، وفى الغرب على ارض البرتغال الحالية سقطت أشبونه وشنترة وشنترين عام ١١٤٧م ؛ وباجة عام ١١٦١ م ويابرة عام ١١٦٥م (٥٦١هـ) (١٠٨) ؛ واخذت العملية فى اواخر القرن الثانى عشر زخما بتوحد الممالك الايبيرية فقد ابتلعت كل من قشتالة واراجون الممالك الاخرى بالحرب تارة وبالوراثة تارة ؛ وركزتا منذ بدايات القرن الثالث عشر بالقتال ضد الاندلس ؛ وقامت قشتالة بالدور الاكبر فى عملية الاسترداد فاستولت على ميوركة عام ١٢٢٩م ، ثم استولت فى معاركها مع ابن هود على ماردة و بطليوس عام١٢٣٠م وابدة شريش عام ١٢٣٣م ، وعلى قرطبة عاصمة الخلافة الاموية فى الاندلس عام ١٢٣٦م وكان لسقوطها وقع شديد فى العالم الاسلامى لمكانتها التاريخية ، واستسلمت مرسية صلحا عام ١٢٤٣م بعدما آثر واليها محمد بن على بن هود الدخول فى طاعة فرديناند ؛ واتبع حُكام لقنت و اوريوله و قرطاجة و جنجالة وغيرها منهج محمد بن على بن هود فى الاستسلام ودفعوا الجزية لقشتالة ، و تنازل ابن الاحمر الى قشتالة عن جيان وارجونة وبركونة وقلعة جابر وبيغ والحجار والفرنتيرة فى ١٢٤٥م فى اطار تحالف وهدنة سعى اليها ابن الاحمر .

وفى سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧م نال فرديناند سبعة مدن تنازل له عنها ابن محفوظ فأصبحت جميع الحصون الواقعة حول إشبيلية فى يده مما ضيق الخناق عليها وجعل سقوطها مضمونا فإستسلمت له فى العام التالى عام ١٢٤٨م بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا وكانت فى عُهدة امير من الموحدين.

مملكة اراجون والاســــــــــــترداد

لم تكن مملكة اراجون منغمسة فى عملية الاسترداد بنفس قوة إنغماس قشتالة ؛ فأراجون انشغلت بأملاكها فى ارجاء اوروبا خارج الجزيرة الايبيرية التى تعرضت لتهديدات شتى فى صقلية ونابلى واجزاء من فرنسا آلت اليها بالوراثة عن طريق المصاهرة مع الاسر الملكية الاوروبية ، ثم إنشغلت بمحاربة الالبيين والملاحدة فى جنوب فرنسا حتى عام ١٢٢٤ م ، وبالحرب الاهلية التى دامت لفترة وجيزة حتى عام ١٢٢٧ م وانتهت بفوز خايمى وحزبه على الثوار، ولذلك لم يكن امامها متسعا للمشاركة فى عملية الاسترداد الا فى نطاق ضيق بداية بإستيلاء الفونسو الاول على سرقسطة عام٥١٩هـ/١١٢٥م .

وفى عام ١٢٢٩م دفع خايمى بقوة بحرية استولت على جزر البليار القريبة من شواطئ المملكة عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م ، وبسبب استمرار المقاومة الاندلسية التى تحصنت بشعاب الجزيرة اضطر خايمى للعودة لاخضاعها مرتين ولم يستقر له الامر الا

---

(١٠٧) أورد ابن الطوسي في كتابه الاستبصار فيما اختلف من الأخبار أن المعتمد نُقل إلى قلعة فازار في جبال المغرب، وهو ما لم يرد في معظم المصادر ، ثُم نُقِلَ مع غيره من ملوك الطوائف السابقين إلى أغمات لإبعاده عن سواحل الأندلس ليصعُب فرارهً وهناك قضى آخر أيام حياته في الأسر فى ظروفٍ مزرية ،وممَّا ساهم في إساءة معاملته على عكس أمراء بني زيري أن ابنه عبد الجبار حاول شنَّ ثورة على المرابطين بعد سقوط إمارة بني عباد ، وله بيت شِعر يصف حاله "قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إنْ تَأْمُرهُ مُمْتَثِلاً *** فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مَنْهيًّا وَمَأْمُورَا" ، وكانت بناتِه الأميرات قد تبدَّل بهنَّ الحالُ، فصرْنَ يغزِلْنَ للنَّاس بالأجرة فى المغرب .

(١٠٨) ومن المستغرب ان الأندلسيون لما استشعروا ضعف المرابطين فى اواخر عهدهم ثاروا بزعامة القضاة والعلماء ، واستعان بعضهم بالاسبان وسط معمعة الاسترداد وتساقط مدن الاندلس ، فإستعان القاضي ابن حمدين وهو من القبائل العربية العريقة فى صراعه مع يحي ابن غانية المسوفي المرابطي سنة ٥٤٠هـ /١١٤٤م ؛ بالملك القشتالي الفونسو السابع ومكن النصارى من الدخول إلى شرق قرطبة وخربوا المساجد بما فيها المسجد الجامع ، وفي مالقا استعان القاضي أبو الحكم بالاسبان فى صراعه مع المرابطين، فثار عليه الاهالى وحاصروه في قصره فإنتحر فقطع الأهالي رأسه وصلبوا جثته.

عام ١٢٣٣م ، ومن الواضح ان التحركين لم يكن لهما علاقة بالاسترداد بقدر ما كان خدمة لاغراض جيواستراتيجية تخدم الربط بممتلكاتها الخارجية ؛ ومع الفوضى التى عمت الاندلس عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م اثر وفاة الثائر ابن هود وانهيار دولته ؛ حاصر خايمى بلنسية فاستغاث اميرها ابو جميل زيان سليل آل مرديش (حكام بلنسية قبل الاسلام) بالحفصى امير تونس ؛ ولما لم تدركه المعونة إضطر للاستسلام بشرط تأمين اهل بلنسية على انفسهم واموالهم وحريتهم فى مغادرتها متى شاءو ؛ وفى سنة ١٢٤١م استولى على شاطبة وثغر دانيا ، ورغم العهود التى قطعها خايمى للاندلسيين الا انه تنصل منها وقرر طرد سكان البلاد التى افتتحها فهاجرت جموع منهم الى غرناطة واخرى الى افريقيا وبقى القليل كمهجنين .

انشغلت المملكة بنزاعاتها الخارجية من جديد عندما نشب نزاع بين شارل دانجو ابن ملك فرنسا وبيدرو الثالث (الاكبر) ملك اراجون سنة ١٢٧٤م حول ملكية صقلية و نابولى اللتين آلتا الى زوجه ابنة مانفرد ، واستطاع بيدروا ان ينتزع صقلية من يد الفرنسيين ورد محاولاتهم غزو قطالونيا فى اراضى اراجون ومد سيادته الى بروفنس فى جنوب فرنسا قبل موته عام ١٢٨٥م.

الموحدون ونجدة الاندلس

انتصـــــار الارك

٩ شعبان سنة ٥٩١هـ / يوليو عام ١١٩٥م

اختلت أحوال الأندلس فى القرن السادس الهجرى وثارالأندلسيون بزعامة القضاة والعلماء لما استشعروا ضعف المرابطين ، واستقل الثوّار كل منهم بناحية وطردوا عمّال المرابطين الذين ضعفت قبضتهم على البلاد بعد تداعى دولتهم المركزية فى المغرب وقيام دولة الموحدين على انقاضها ، واستعان بعض الثائرين بالنصارى فإستعان القاضي ابن حمدين وهو من القبائل العربية بالملك القشتالي الفونسو السابع فى صراعه مع يحي ابن غانية المسوفي المرابطي سنة ٥٤٠هـ /١١٤٤م ومكن النصارى من الدخول إلى شرق قرطبة وخربوا المساجد بما فيها المسجد الجامع ، وفي مالقا استعان القاضي أبو الحكم بالاسبان فى صراعه مع المرابطين، فثار عليه الاهالى وحاصروه في قصره فإنتحر فقطع الأهالي رأسه وصلبوا جثته.

الموحـــــــــــدون

والجهـــــــــاد فى الاندلس

فى تلك الاثناء كانت دولة الموحدين قد بلغت فى عهد عبد المؤمن مدا أعظم مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ فهو الذى استرجع الثغور الإسلامية في تونس من يد الفرنج بعد ان هزم أساطيلهم بعد معارك بحرية هائلة ، ومع اشتداد ضربات الاسبان وبالاخص قشتالة استثاره تدهور حال مسلمى الاندلس فسير سنة ٥٤٠ هـ جيشاً بقيادة أبي عمران موسى بن سعيد فيه عشرون ألفاً من المشاة، وعشرة آلاف من الفرسان للسيطرة على الأندلس وفتح غرناطة ؛ ولما جاءته الوفود الأندلسية تستنصره للجهاد ضد عدوان ملك البرتغال الذى أخذ حصن القصر وقتل حاميته، فعبر عبد المؤمن بنفسه للجهاد عام خمس مئة وست وخمسين ٥٥٦هجرية ، وجعل من غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً تمركز فيه حامية قوية مشتركة من جند الموحدين والأندلسيين ، ونقل العاصمة من اشبيلية إلى قرطبة.

وحاول ابن سعد أمير بلنسية استرداد غرناطة من الموحدين بعد عودة عبد المؤمن إلى مراكش، وتجمع حوله الأندلسيون المعارضون لحكم الموحدين ، وتحالف ابن سعد لهذا الغرض مع الاسبان لقاء جزية كبيرة يؤديها لهم ، ولكنه انهزم على مقربة من غرناطة ثم هزموه ثانية .

وعزم عبد المؤمن أن يعبر إلى الأندلس للجهاد ثانية فجهز جيشا كثيفا وحشد لنقله أربعمائة سفينة كبيرة لكن المنية سبقته في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ قبل انفاذ حملته.

جهاد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

تولى الحكم ولده أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وانصرف إلى الجهاد بالأندلس فإبتدأ بزعمائها وهزمهم وعلى رأسهم

أمير بلنسية ابن سعد ؛ فلجأ الاندلسيون للتحالف مع الاسبان ضد الموحدين ، فرد أبو يعقوب يوسف بعبور مضيق جبل طارق إلى الإندلس في صفر سنة ٥٦٦ هـ وواصل مسيرته حتى اشبيلية عاصمة الأندلس آنذاك، ثم سار إلى بلنسية وإستولى عليها ومكث في الأندلس أربعة أعوام نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ثم عاد إلى مراكش عام ٥٧١ هـ بعد أن بنى جامع اشبيلية.

عبر يعقوب يوسف إلى الأندلس مرة أخرى في صفر سنة ٥٨٠هـ لرد البرتغاليين فسارعلى رأس الجيش معتزماً حصار لشبونة وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولى على قلعة شنترين ، وبعد أحد عشر يوماً من حصارها ضربها بآلات الحصار، ولم تمض ثلاثة أيام حتى سقطت ، واستشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الثاني عشر من ربيع الأول ٥٨٠ هـ فى قتاله مع البرتغاليين .

جهاد أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور
ونصـــــــــــــر الارك

خلف أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور والده أبو يعقوب يوسف المنصور الموحدي ، وفي سنة ٥٨٥هـ قام ملك البرتغال سانشوالأول عام ١١٩١ م بغزو مدينة شلب المسلمة - سلفش (faro) بمساعدة قوات صليبية وعندما علم السلطان الموحدي يعقوب المنصور بذلك جهز جيشه وعبر البحر الى الأندلس وحاصر مدينة شلب وأخذها وأرسل في ذات الوقت جيشا من الموحدين والعرب فغزا أربع مدن مما بأيدي المسيحيين من البلاد التي كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين عاما.

ويروي عبد الواحد المراكشي الحدث بتفصيل فيقول: «قَصَدَ بطرو بن الريق مدينة شلب من جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس والشواني، وكان قد وَجَّه إليهم يستدعيهم إلى أن يُعِينُوه على أن يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة، ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها وسبوا أهلها، وملك ابن الريق البلد، وتجهَّز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر، ولم يكن له هَمٌّ إلا مدينة شلب المذكورة ، فنزل عليها، فلم تطق الروم دفاعه، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها، ولم يكفِهِ ذلك حتى أخذ حصنًا من حصونهم عظيمًا يقال له: طرش ثم عاد يعقوب المنصور إلى عاصمته مراكش ، ونتيجة لذلك طلب ألفونسو من السلطان الهدنة والصلح فهادنه ٥ سنين وعاد إلى مراكش عاصمة بلاد المغرب.

هجمات الممالك الاسبانية

بعد أقل من خمس سنوات عاث الفرنج فى الاندلس عيثًا شديدًا فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا ، وإنضم اليهم ألفونسو الثامن بعد انقضاء مدة الهدنة التي كانت بينه وبين المنصور الموحدي، فبعث إلى جميع الثغور الإسلامية يُنذر بانتهاء الهدنة وكان المنصور منشغلاً بمعاركه في المغرب ضد الخارجين عليه من بني غانية ، فعدل عن عزمه وبدأ في التفكير فى العبور إلى الأندلس.

.

ارسل ألفونسو خطاب استهزاء وسخرية للسلطان يعقوب المنصور يدعوه فيه إلى مواجهته وقتاله :
نص الرسالة

" بإسمك اللهمَّ فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح، أما بعدُ فإنه لا يخفى على ذي ذهنٍ ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية.

وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأُمَثِّل بالرجال، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحد منكم، فالآن خَفَّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفًا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا.

وقد حُكِيَ لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عامًا بعد عام تُقَدِّم رِجْلاً وتؤخِّر أخرى، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربُّك، ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلَّةٍ لا يسوغ لك التقحُّم معها.

وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وتُرسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة

كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَثَلَتْ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملَّتَيْنِ والحُكم على البرَّيْنِ، والله تعالى يُوَفِّقُ للسعادة ويُسَهِّل الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلاَّ خيره، إن شاء الله تعالى" .

فلما قرأ السلطان المنصور الخطاب اشتد حنقه وكتب على ظهر رقعة منه :أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون الجواب ما ترى لا ما تسمع، وأمر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، فثار الناس للجهاد ودوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب ؛ وسير قواته إلى الأندلس، وعبر إلى الجزيرة الخضراء في ٥٩١/٧/٢٠هـ، ولم يسترح بها إلا قليلاً ، ثم بادر المنصور بالسير الى إشبيلية ومكث بها مدة قصيرة نظم فيها جيشه وتزود بالمؤن وانضمت إليه الجيوش الأندلسية فتجمع له جيش ضخم من ٢٠٠الف حسب الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٣١٩/٢١، بينما تقدره مصادر اخرى ١٠٠ ألف مقاتل ويقول المؤرخون أن المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته كانت مسيرة ٣ أيام بينما يذكر آخرون أن العدد بين ٦٠ و٨٠ ألف مقاتل فقط ، بينما كان جيش ألفونسو الثامن ملك قشتالة قوامه ٢٢٥ الفا (خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف)، ويضم فرسان قلعة رباح وفرسان الداوية وقوات من مملكتى ليون ونافار ومعهم جماعة من اليهود لشراء أسرى المسلمين لبيعهم في أوربا (١٠٩).

وبادر المنصور بالسير إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة فبلغه أن ألفونسو حشد قواه في مكان بين قلعة رباح وقلعة الأرك فغير مساره إلى هناك وعسكر في مكان يبعد عن موضع جيش ألفونسو مسيرة يومين ، وكان ذلك في الثالث عشر من يونيو عام ١١٩٥ الموافق ٤ شعبان ٥٩١ هـ ؛ وعند إقتراب المعركة أرسل الأميرُ الموحدي رسالة إلى جيشه يقول فيها اغفروا له وتغافروا فيما بينكم فإنَّ هذا موضع غفران ، وطَيِّبُوا نفوسكم وأخلصوا لله نيَّاتكم ، وقام الخطباء يخطبون عن الجهاد ، ووقعت المعركة عند حصن الأرك جنوب طليطلة على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس ومحلُّها اليوم (Sta Maria de Alarcos) غرب (giadad real) المدينة الملكية الحديثة ، وانتهت المعركة بنصر المسلمين .

أحاط المسلمون بحصن الارك بعد المعركة وهم يظنون أن ألفونسو الثامن تحصَّن فيه فدخلوه عَنوة وأضرموا النيران في أبوابه، وإستولوا على ما كان فيه من الأموال والذخائر والأرزاق والأسلحة والعدد والأمتعة والدواب والنساء والذرية من زعماء الروم بلغت أربعة وعشرون ألف فارس أسارى ؛ إمتنَّ عليهم أمير المؤمنين السلطان يعقوب المنصور بالحرية ، فعزَّ ذلك على الموحدين والمسلمين وحُسِبَوا ذلك سقطة من سقطات الملوك .

واصل ألفونسو هروبه إلى طليطلة ، فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه ، وآلى على نفسه الا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسًا ولا دابَّة حتى يأخذ بالثأر، وطارده السلطان إلى طُلَيْطِلَة وحاصرها ورماها بالمجانيق وضيَّق عليها ، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبَكَيْنَ بين يديه ، وسألنه تركهن فى البلد وشأنهم ، فرقَّ السلطان الى حالهن ومَنَّ عليهن بها ووهبهنَّ من الأموال والجواهر ما جَلَّ وردَّهُنَّ مكرماتٍ وعاد إلى قُرْطُبَة ، فأقام شهرًا يُقَسِّم الغنائم بمقتضى الشرع وخصص خُمسها لبناء جامع في إشبيلية تخليدًا لذكرى الأرك.

ومن نتائج النصر ان استطاع الاندلسيون استرجاع تروخلو وبلاسينسيا وكوينكا وقلعة رباح وبينافينتي ومالاغون وكاراكويل وتالفيرا وكلها تقع بالقرب من طليطلة عاصمة قشتالة ثم اتجه السلطان بجيشه إلى العاصمة وضرب عليها حصارا واستخدم المسلمون المجانيق ولم يبق إلى غزوها ويخبر المقري عن نتائج ذاك الحصار فيقول«فخرجت إليه(يعني للمنصور) والدة الأذفونش (ألفونسو) وبناته ونساؤه وبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقّ لهن ومنّ عليهن بها، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ، وردهن مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قرطبة، فأقام شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش (ألفونسو) بطلب الصلح ؛ فصالحه بهدنة عشر سنوات بناء على طلب قشتالة ، وأمّن الناس مدّته».

ويختلف مؤرخو المسلمون في نتائج المعركة فيخبر المقري في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب «وكان عدّة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مئة ألف وستّة وأربعين ألفاً، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفاً، وعدّة الخيام مائة ألف وستّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربع مئة ألف، جاء بها الكفّر لحمل أثقالهم لأنّهم لا إبل لهم، وأمّا الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين

---

[١٠٩])ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٣٧/١٠، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٢٤٥/٦، ١٨٢/٤، ١٨٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ٨٤/٢.

المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفنش (ألفونسو) ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة، حتى يأخذ بالثأر». أما ابن خلدون فيذكر أن عدد القتلى ٣٠ ألفا ويجعلهم ابن الأثير ٤٦ ألفا و١٣ ألف أسير.

موقعة العُقاب

وهزيمة الموحدين

إتهمت قشتالة ليون ونافار بأنهما كانتا سبب الهزيمة لإبطائهم المدد (١١٠) وإستغل ألفونسو الثامن هدنة السنوات العشر فى الاستعداد للحرب فهادن منافسيه السياسيين في أيبيريا ملوك البرتغال ونافارة وأراجون وحصن مملكته وبعث إلى البابا إنوسنت الثالث يدعوه لإعلان حرب صليبية على الاندلس فإستجاب البابا وأعلنها حربا صليبية لا يحل الغفران على من لا يساهم أو يشارك فيها ، ومدته الدويلات الإيطالية وفرنسا بحشد من القوات والمؤن ؛ ولما اطمأن للوضع نقض الهدنة عام ١٢٠٩ م باقتحام حصن رباح وسط الأندلس والإغارة على جيان وبياسة وأجزاء من مرسية ؛ فأعلن السلطان يعقوب المنصور الجهاد وأمر بتجهيز الجيوش ويذكر بعض المؤرخين المسلمين أن تعداد الجيش الإسلامي وصل لثلاث مئة ألف مقاتل لكثرة المتطوعين فيه ، ووقعت المعركة في ١٦ يوليو ١٢١٢ م في واد يسميه الإسبان نافاس قرب بلدة تولوسا وهذا سبب تسميتها بمعركة لاس نافاس دي تولوسا حسب التأريخ الاسبانى ؛ ووقعت قرب حصن أموي قديم يسمى العُقاب ولذلك تسمى في التاريخ العربي باسم معركة العُقاب أو معركة حصن العُقاب وانتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين .

ومن أسباب النكبة إساءة وزير السلطان للقواد الأندلسيين وحبسه أعطيات الجنود المغاربة حسب تبريرمؤلف كتاب المعجب بقوله " أنهم لم يسلوا سيفا.. بل انهزموا عندما حمل عليهم الإفرنج ، وعلى اية حال فبعد سبعة عشر عاما من انتصار المسلمين فى الارك تمكن الاسبان عام ١٢١٢م من هزيمة الموحدين فى موقعة العُقاب فكانت ضربة شديدة بدأ معها انحلال قواهم وزوال دولتهم ومعها الاندلس عامة ؛ وهو ما استشعره اهل الاندلس فأنشد الشاعر ابن الدباغ الإشبيلي مشيرا إلى هذا الحدث بقوله :

فقلت لها أفكر في عقاب ** غدا سببا لمعركة العقـــاب

فما في أرض أندلس مقام ** وقد دخل البلاَ من كل بـاب

الاندلس (بعد هزيمة العُقاب)

اولا – نهاية دولة الموحدين

وثورة الاندلس بزعامة ابن هود

ودعوته للخليفة العباسى

بعد وفاة السلطان ابو يعقوب المنصور سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م دون عُقب يخلفه ؛ اعلن العادل والمأمون ابنا شقيقا السلطان نفسيهما وريثا عرش الموحدين فى كل من الاندلس والمغرب ، وإقتسم الاخوان السلطة فى الاندلس فى البداية ، فإستولى السيد ابو عبد الله محمد (الملقب بالعادل) امير غرناطة على بلنسية بينما أستولى المأمون على حكم اشبيلية وبعض الانحاء المتبقية من الاندلس .

فى هذا التوقيت ثار الاندلسيون بزعامة ابن هود على الموحدين فى أواخر عهدهم ، وزاد النقمة علي الاخوين تحالفهم مع قشتالة للقضاء على الثورة مقابل التنازل لها عن عدد من الحصون ، فإغتال الثوار العادل كعقاب له على خضوعه لملك اراجون فألت غرناطة التابعة له إلى أخيه المأمون الذى اصبح سلطانا على المغرب .

كانت الاحوال فى المغرب مضطربة بسبب ثورة القبائل على المأمون رفضا لاستبداده ، وكان سلطانه فى الاندلس أيضا يتداعى منذرا بزوال دولة الموحدين فى كلا البلدين ، ففى الاندلس ثارت المناطق التابعة لمرسية عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م بزعامة

---

(١١٠) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/٩٥، وليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية ص٢٣٨.

ابن هود الذى دعى الى تخليص الاندلس من الموحدين والاسبان معا ، ولم يتمكن المأمون من وأد ثورة الاندلس واستفحل امر ابن هود الذى تمكن من الاستيلاء على مرسية واعلن طاعته للخليفة المستنصر العباسى ودعا له على المنابر وكاتبه بذلك فأيده ، وتمكن ابن هود من ضم جيان وقرطبة (عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) وماردة وبطليوس ؛ ولما لاحت فى الافق بوادر ثورة جديدة فى المغرب قرر المأمون الرحيل اليها لينقذ ملكة هناك لكنه مات فى الطريق عام ١٢٣١م ، وبموته انهارت دولة الموحدين فى الاندلس ، ولم يتبق فى ايدى فلولها من الامراء الا اشبيلية وما جاورها ، وآلت الى ابن هود مرسية وشرقى الاندلس والولايات الجنوبية وشواطئها فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية وفيما بين قرطبة وغرناطة .

ثانيا ـ ظهورابن الاحمر
وتأسيس الدولة النصرية فى غرناطة

فى تلك الفترة ظهرعلى الساحة محمد بن يوسف الاحمر النصرى ، وهو من مواليد ارجونة عام ٥٩٥هـ /١١٩٨م وسليل سادة حصنها وهم من اعرق البطون العربية ويتصل نسبهم للصحابى الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج ، عمل محمد بن يوسف على نشر نفوذه فى الانحاء الوسطى وبعض القواعد الجنوبية ودخلت فى طاعته قرمونه وقرطبة واشبيلية حتى اواسط عام ٦٢٩هـ ؛ واستولى على بعض مدن الموحدين من اهمها جيان وشريش ومالقة عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م ؛ ولكنه خسر اشبيلية وقرطبة لفترة آلتا فيها الى ابن هود الذى كانت علاقة إبن الاحمر به متقلبة فكان يصانعه تارة ويُقاتله اخرى ؛ فإنحاز اليه (ابن هود) عندما دعمته الخلافة العباسية ثم انقلب عليه وتحالف مع عدوه ابو مروان الباجى الذى انتزع منه اشبيلية بعد ان هزماه معا فى بعض المعارك (١١١) .

وبعد وفاة ابن هود وانهيار دولته سعى ابن الاحمر لفرض سيطرته على انحاء الاندلس فانتهز دعوة ثوار غرناطة له لتولى حكمها بعد اغتيالهم عتبة المغيلى والى ابن هود الراحل ؛ فدخلها فى رمضان عام ٦٣٥هـ ١٢٣٨م بعد اشهر قلائل من وفاة ابن هود واتخذها حاضرة ومقرا لحكمه ، وبدأ يتوسع فى ارض الاسلام فأستولى على المرية بعد هروب حاكمها الرميمى وزير ابن هود الى تونس ، وأيدته عامة الناس فى الجنوب الا بعض الامراء الذين رفضوا الانضواء تحت حُكمه وفضلوا الخضوع لملك قشتالة صلحا مقابل الاحتفاظ بمناصبهم وهو ما كان يُشجعه اسبان قشتالة واراجون بكل الاغراءات (١١٢) ؛ وممن استسلموا عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م حاكم مرسية محمد بن هود وحكام لقنت واوريولة وقرطاجة وجنجالة.

مناجزة ابن الاحمر قشتالة

استفادت امارة غرناطة من سقوط المدن الاندلسية بإنضمام فلول المسلمين الفارين منها بثرواتهم وخبراتهم ، فتجمع بها ذخائر العلم والثروة وصفوة الخبرات ؛ وإزدادت قوتها العسكرية وجيشها قوة بمن انضم اليه من جنود تلك المدن ، واصبحت غرناطة من القوة لتهزم قشتالة فى مرتش ، وكان بنى اشقيلولة وكبيرهم ابو الحسن من اهم دعامات ابن الاحمر العسكرية سواء ضد ابن هود او قشتالة ؛ وتجاوزت العلاقة بينهما حدود السياسة الى الاصهار والمشاركة فى السلطة فمنح ابن الاحمر ابو الحسن اشقيلولة حُكم وادى آش ومنح ولده الاخر محمد حكم مالقة ، ولكن الامور لا تدوم فتهيب ابن الاحمر من اطماعهم فى الحكم واخذ جانب الحذر فتوترت العلاقة بينهما .

---

[111]) نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين صـ٢٦ ـ بعد فترة دس ابن الاحمر على حليفه من قتله ليخلوا له الجو ؛ وحاول ان يستظل بأحد الحكام الظاهرين فدعا لابى زكريا الحفصى صاحب افريقيا (تونس) وتلقى منه بعض العون وقيل انه دعى بعد ذلك لبعض الوقت للخليفة العباسى ، وفي هذه الأثناء عقد ألفونسو حلفاً مع سانشو الأول ملك أراغون ونافارا، وبرنغار ريموند كونت برشلونة للقضاء على ما تبقَّى من دويلات الأندلس ، فزحفت جيوشهم إلى قورية وطريف حتى ضواحي إشبيلية ، فأحرقوا ودمَّروا القرى والمزارع المحيطة بها. (عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) .

[112]))نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين صـ ٢٤ـ ٣١ .

ضغوط الاسترداد

ما بين قشتالة واراجون

انتهز فرديناند الثالث اقتتال المسلمين ووضعهم المفكك بعد موقعة العُقاب المشار اليه عاليه (نهاية دولة الموحدين ـ ثورة الاندلسيين وإقتتالهم) ، وسارع بغزو بعض المعاقل الاسلامية فسقطت أوبيدا بعد معركة العُقاب مباشرة وقُتل ٦٠ ألفا من أهلها وفى الغرب سقطت فى هذه الموجة بطليوس عام ١٢٢٨م وميوركة عام ١٢٢٩م ، ثم هزم ابن هود وانتزع منه ماردة وبطليوس عام١٢٣٠م وابدة عام ١٢٣٣م ، واستمر فى الضغط عليه بإعتباره زعيم الاندلس الحقيقى والاشد خطرا ؛ فهزمه ثانية فى شريش عام ١٢٣٣م رغم التفوق العددى لجيش ابن هود وقرطبة عام١٢٣٦ وشلب ١٢٤٢م وجيان عام١٢٤٦ وإشبيلية عام ١٢٤٨ وشنتمرية الغرب ١٢٤٩م ([١١٣]) وولبة ١٢٥٧م ، وسقطت قادس عام ١٢٦٢م وشريش عام ١٢٦٤م وسقطت كل من آركوس وصيدا الأندلسية .

وقام ملك أراغون وكونت برشلونة جيمس الأول باحتلال جزر البليار، بين عامي ١٢٢٨ م و١٢٣٢ م ومدينة بلنسية عام ١٢٣٨ م ، ولم ينقض القرن الثالث عشر الميلادى حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت فى يد الاسبان ، ولم يتبق فى يد المسلمين سوى بضع ولايات صغيرة فى الجنوب ولاح شبح الفناء واستئصال شأفتهم من شبه الجزيرة الايبيرية لولا تدخل القدر بإنشغال الاسبان بنزاعاتهم وحروبهم الاهلية لفترة.

مهادنة ابن الاحمر قشتالة

التحالف المهين والخسران المبين

لما إستعصت غرناطة على فرديناند بوضعها الجديد تركها الى حين ، وركز جُهده فى إخضاع الثغور الشرقية التى اصبحت هدفه الاول الاكثر اهمية وهى فى محصلتها النهائية ستخنق غرناطة حصارا بعزلها وقطع وسائل اتصالها بالمغرب مصدر إمداداتها لاختزال المدى الزمنى فى عملية الاسترداد ؛ وبعدما تحقق غرضه التفت الي غرناطة فاستولى على عدد من حصونها وحاصرها عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ولكنه رُد بخسائر فادحة ، وفى العام التالى حاصر حصن ارجونة ، ولما رأى ابن الاحمر قوة قشتالة قرر مصانعتها فذهب الى معسكر فرديناند ووقع معه (٦٤٣هـ/١٢٤٧م) اتفاق سلام لمدة عشرين سنة يحكم بمقتضاه ابن الاحمرغرناطه باسم الملك وتابعا له على ان يحضر ابن الاحمر اجتماعات مجلس الكورتيس المجلس النيابى القشتالى ، وان يدفع جزية سنوية ١٥٠ الف قطعة ذهب للملك ، ويتنازل الى قشتالة كعربون حُسن الطاعة عن جيان وارجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر والفرنتيرة ؛ والاخطر في هذا الاتفاق موافقة ابن الاحمر على معاونة قشتالة فى حروبها ضد اعدائها بمن فيهم من المسلمين ؛ وكان اول تطبيق عملى لهذا البند تقديمه العون الى قشتالة فى الاستيلاء على قرمونة ، ومساعدتها فى تثبيط همة الجهاد لدى حكام القلاع بإقناعهم بتسليمها مقابل شروطا سخية لسكانها المسلمين .

وبهذا الاسلوب تمكنت قشتالة حتى عام ٦٤٥هـ /١٢٤٧م من وضع يدها على جميع الحصون المحيطة بأشبيلية ثم هى ذاتها وقعت ضحية الحصار بمشاركة قوات ابن الاحمر فى اغسطس عام ١٢٤٧م وكانت فى يد احد حكام الموحدين ، واستسلمت المدينة بعد ثمانية عشر شهرا مقابل تأمين اهلها على انفسهم وتأمين حريتهم فى البقاء او الهجرة.

ودخل القشتاليون المدينة فى ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦هـ / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٨م ، وكان فتح اشبيلية اخر فتوح فرديناند الثالث قبل موته عام ١٢٥٢م ، وساعد ابن الاحمر القشتاليين فى الاستيلاء على ثغر قادش عام ١٢٦٢م بعد وفاة فرديناند الثالث بعشرة اعوام .

---

[١١٣]) كان فريديناند الثالث يطمح بعد هذه الانتصارات الى عبور مضيق جبل طارق وضرب دولة الموحدين في عقر دارها إذ كانت فى حالة من الضعف والانقسام والثورات ولم يمنعه من ذلك سوى موته في إشبيلية عام ١٢٥٢ .

تمرد ابن الاحمر على قشتالة
والاستنجاد بمغرب بنى مرين

ومع اشتداد عود ابن الاحمر آمل ان يتخلص من الاتفاق المهين ، فتمرد على القشتاليين وهزمهم مرة وانهزم عدة مرات على يد دون نونيو دى لارا قائد ملك قشتالة ؛ فعاد ابن الاحمر من جديد فى اواخر سنة٦٦٥هـ (١٢٦٧م) الى مهادنة القشتاليين مقابل التنازل لهم عن عدد كبير من البلاد والحصون يُقدر عددها بمئة حصن ومدينة معظمها فى غرب الاندلس ، وتفرغ ابن الاحمر لتنظيم مملكته واصلاحها ؛ ودبت الخلافات بينه وبين اصهاره بنى اشقيلولة ، فإستقلوا بحكم مالقة فحاصرها عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ومعه قوة من قشتالة ، لكنه فشل فى استعادة المدينة بعد ثلاثة شهور من حصارها ، كما فشلت محاولته الثانية لاستعادتها عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م .

عاودت قشتالة من جديد تحرشها بغرناطة رغم الاتفاق الموقع بينهما ، فإستنجد ابن الاحمر بسلطان المغرب ابى يوسف المرينى اوصى ابنه بالتحالف مع بنى مرين لمواجهة خطر الاسبان عند موته عام ٦٧١هـ (١٢٧٢م) قبل ان يشهد نتيجة هذه الاستغاثة .

شخصية الاحمر او ابن الاحمر

يصف ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية فى كتابه مملكة بنى الاحمر ابن الاحمر الكبير مؤسس الدولة فيقول " كان يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والاقدام والتواضع الجم وسلامة الطوية والجمهورية ، شهما عظيم التجلد رافضا للدعة والراحة مؤثرا للتقشف والاجتزاء باليسير بعيدا عن التصنع ، شديد العزم مرهوب الاقدام يلبس الخشن ويستشعر الجد فى اموره شغوف بالجهاد وله مقدرة على التنظيم ، اما الغربيون " فيرونه ابرع الامراء فى الدفاع عن الاسلام والمسلمين وقت العصور المضطربة ، جريئا ماكرا لا يرجع فى ذلك الى طبيعة خبيثة وانما الى الخلق السائد لدى خصومه الذين كان مرغما على مقارعتهم نقائصهم واخلاق عصره المنحلة ، فقد كانت العهود والمعاهدات وشروط السلم الشريف ومجاملات الفروسية تُفهم بطريقة خاطئة فى العصور الوسطى وكثيرا ما تنتهك عن عمد ، وأن خضوعه لاعدائه سياسة حكيمة التدبير اقدم عليها لصيانة ملكه وتوطيد سلطانه فقد كان الغزو المستمر يرهق مملكته التى كان عليها ان تستفيد بخبرات ونشاط وتراث وقيم وحضارة المهاجرين من اللاجئين الاندلسيين لدعم حضارتها وهو ما كان اثمن مما لديهم من الثروة (١١٤)" .

جهاد بنى مرين فى الاندلس
(الجهاد العظيم ـ ولاية ابن الاحمر الفقيه)

قامت دولة بنى مرين فى المغرب على انقاض دولة الموحدين، وكان اول احتكاك لها بالاسبان عندما هاجمت اساطيلهم عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م ثغر سلا المغربى وقتلوا وسبوا كثيرا من اهله ، ولما وصلت استغاثة ابن الاحمر سلطان المغرب ابى يوسف المرينى وهو فى طريقه لغزو تلمسان عام ٦٧٠هـ ؛ استشعر السلطان ابى يوسف المرينى خطورة الموقف فى الاندلس ، ووجد ان الجهاد فيها اكبر من إقتتال المسلمين ، فبعث الى يغمراسن صاحب تلمسان يصالحة للتفرغ للجهاد فى الاندلس ، لكن الاخير رفض طلب السلطان فقاتله (٦٧٠هـ /١٢٧٢م) وهزمه الى ان فر ، ولكن وقت النجدة كان قد فات بوفاة ابن الاحمر عام ٦٧١هـ (١٢٧٢م) .

وبعد عامين من استغاثة ابن الاحمر ، جدد ولده ابو عبد الله محمد بن يوسف بن الاحمر الملقب بالفقيه الاستغاثة بالسلطان وتنازل له عن طريف ورندة وثغر الجزيرة لتخدم عمليات انزال القوات المغربية واقامة قواعد الاقامة والامدادات ، ووصلت الى سلطان المغرب رسائل استغاثة مماثلة من بنى اشقيلولة فى وقت كانت فيه دولة بنى مرين قد بلغت عنفوانها انذاك .

فأرسل السلطان ابى يوسف الى امير تلمسان يصالحه للمرة الثانية للتفرغ للجهاد فوافق الاخير ؛ فبادر السلطان بإرسال ولده أبا زيان مصحوبا بخمسة الاف فارس فنزل فى ذى الحجة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥م الى طريف فى الاندلس وهاجم شريش واغتنم

---

[١١٤] المرجع السابق صـ ٤٧ نقلا عن The Moorish Empire in Europe p ٤٣٣-٤٣٤

وعاد الى الثغر ولحق به السلطان فى صفر٦٧٣ هـ / ١٢٧٥م فى جيش كثيف من البربر.

ومما يؤسف له ان علاقات ابن الاحمر الفقيه والسلطان شابها التوتر منذ البداية بسبب اجارة السلطان لبنى اشقيلولة ، الامر الذى اعتبره ابن الاحمر الفقيه محاولة لفرض المصالحة ، فأوجس خيفة وغادر مغاضبا السلطان مفكرا معاودة مهادنة قشتالة.

تقدم السلطان مجاهدا ومعه قوات بنى اشقيلولة حتى بلغ ضواحى قرطبة ، فخرج له القشتاليون فهزمهم فى ربيع الاول ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا صهر الملك الذى سبق له هزيمة غرناطة عدة مرات ، وأرسل رأسه الى ابن الاحمر الفقيه فأرسله معطرا فى مجاملة لملك قشتالة تحسبا لما قد يخبئه له المستقبل من تدهور محتمل فى علاقته بالسلطان بسبب تقريبه بنى اشقيلولة كما اسلفنا ؛ وكان انتصار السلطان اول نصر باهر للمسلمين منذ هزيمتهم فى معركة العقاب ، يماثل انتصارهم فى الزلاقة والارك.

وبعد اسبوعين من هذا النصر خرج السلطان ابو يوسف غازيا للمرة الثانية وتجاوز إشبيلية بعد تحصنها خلف ابوابها ؛ متقدما الى شريش فحاصرها ثم تراجع عنها استجابة لطلب رهبانها الامان والصلح ، وقفل عائدا الى المغرب فى رجب ٦٧٤هـ بعد خمسة اشهر قضاها فى الاندلس ، وبعد وفاة حاكم مالقة المنشق تنازل ابنه محمد بن اشقيلولة عن حكمها الى سلطان المغرب ورحل للاقامة فى المغرب ؛ فتهيب ابن الاحمر الفقيه من ذلك وقرر الاستيلاء على مالقة قبل ان تصل اليها يد السلطان فلم ينجح فى ذلك ، واغضب تصرف ابن الاحمر السلطان.

وبعد عدة اشهر ٦٧٧هـ/١٢٧٨م قام السلطان بالعبور الى الاندلس ونزل بمالقة ثم سار ومعه بنو اشقيلولة غازيا حتى اشبيلية لكن القشتاليون إجتنبوا التصادم معه ، وحاول السلطان اثناء وجودة فى الاندلس تصفية الامور مع ابن الاحمر الفقيه فاستدعاه للقائه لكن سعيه لم ينجح فعاد الى المغرب .

لم يلبث ابن الاحمر الفقيه ان اثار من جديد غضب السلطان بعدة اجراءات عدائية فى اواخر عام ٦٧٧هـ ؛ بمحاولته من جديد انتزاع مالقة قاعدة السلطان فى الاندلس بعدما اقنع صاحبها بمبادلتها بثغرى المنكب وشلوبانية من املاك غرناطة على المتوسط ؛ كما تحالف مع قشتالة من جديد ضد المغرب التى منع قواتها من النزول الى الجزيرة بالاندلس ، وسمح لقوات قشتالة بالنزول فيها ؛ وارسل الى خصم السلطان الامير يغمراسن فى المغرب الاوسط يسأله العون ضد السلطان ، ولم يتمكن السلطان من الرد على هذه التجاوزات بسبب سوء الوضع فى المغرب حتى واتته الفرصة عام ٦٧٨هـ /١٢٧٩م ، أرسل ابنه ابا يعقوب على رأس اسطول ضخم الحق هزيمة شديدة باسطول الاسبان فى معركة هائلة فى بحر الزقاق دمر فيها سفنهم واستولى على بعضها واجلاهم عن الجزيرة .

واراد الامير ان يُعاقب ابن الاحمر الفقيه بنفس منطقه بالتحالف مع قشتالة ضده ، الا ان السلطان انكر علي ابنه ذلك لمخاطره على المسلمين ، فقام الامير بالزحف على ثغر مربلة من املاك غرناطة للاستيلاء عليه فإمتنع عليه الثغر .

انتهزت قشتالة تأزم الموقف بين ابن الاحمر الفقيه والسلطان فزحفت على غرناطة عام ٦٧٩هـ فإستعصت عليها ، وعندها ادرك ابن الاحمر الفقيه دقة موقفه فسعى الى مصالحة السلطان فتقبل الاخير تقديرا لدقه موقف المسلمين فى الاندلس ؛ واشترط على ابن الاحمر الفقيه ان يتنازل له عن مالقة لتكون قاعدة لعبور قواته الى الاندلس لاحقا ، لكن احداث الخوارج فى المغرب اقعدت السلطان لفترة عن جهاده .

ومن حُسن الحظ ان انشغلت قشتاله بخلإفاتها الداخلية عن غرناطة التى استقطبت هى والمغرب اطراف قشتالة المتنازعة فلجأ اليهما طلبا للمساعدة الانفانت فيليب واعوانه سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م ؛ طالبا عونها ضد اخيه الفونسو العاشر الامر الذى كاد ان يفجر الحرب بين المسلمين وقشتالة لولا تدخل فيولا ملكة قشتالة لارضاء المنشقيين ، ثم لجأ اليها ايضا الملك الفونسو العاشر عام ١٢٨٢م / ٦٨١هـ بعد ان انتزع ابنه العرش منه ؛ فأرسل وفدا من الاحبار الى سلطان المغرب يستغيث به فلم يتوان السلطان فى نصرته فعبر اليه فى الاندلس والتقاه فى الجزيرة وامده بمائة الف من الذهب ليستعين بها على حشد القوات ، وقدم اليه الفونسو تاجه رهنا لمعونته ؛ ودعمه السلطان بمحاصرة قرطبة وهى تحت يد قشتالة أنذاك وواصل زحفه الى طليطلة حتى وصل حصن مجريط .

وقد اثار دعم السلطان الفونسو العاشر خيفة ابن الاحمر الفقيه فإتجه كعادته الى التفاهم مع الملك الجديد سانشو ، وحاول استفزاز السلطان من جديد فهاجم ثغر المنكب وهى تحت يد السلطان ، فارتد السلطان لقتاله لولا تراجع ابن الاحمرذى ساعده الحظ

فى استرداد قمارش بعد وفاة حاكمها وصهره وعدوه ابا اسحاق بن ابى الحسن بن اشقيلوله عام ٦٨٢هـ ، ولكنه لم يتمكن من استرداد وادى آش لرفض ابى الحسن (ولد ابا اسحاق) التنازل عنها مستقويا بتحالفه مع قشتالة ، ولما تصالحت الاخيرة مع المسلمين انضوى ابا اسحاق تحت لواء المغرب كبديل لقشتالة.

بوفاة الملك المخلوع الفونسو العاشر إنتهت الحرب الاهلية فى قشتالة عام ١٢٨٤م/٦٨٣هـ بعد عامين من اندلاعها ؛ وكان هذا نذيرا بتجدد عدوانها على غرناطة فتحسب السلطان ابو يوسف وابنه ابا يعقوب لذلك فعبر فى عام ٦٨٤هـ الى الاندلس للمرة الرابعة وغزى اراض قشتالة و طارد اساطيلها فى بحر الزقاق ، مما اثلج صدر ابن الاحمر الفقيه فبعث الى السلطان مددا من غرناطة تصالحا معه .

ولما رأى سانشو ملك قشتالة عقم المقاومة ؛ صالح السلطان الذى طالبه بالامتناع عن العدوان على الاندلس ونبذ الدس بين امرائها ورفع الضرائب عن تجار المسلمين بدار الحرب ، فوافق سانشو وحضر الى معسكر السلطان محملا بالهدايا ووافق على طلب السلطان تسليم فاس ذخيرة الكتب العربية المغتنمة من الاندلس بلغت ثلاثة عشر حملا.

اقام السلطان قبل عودته الى المغرب ابنه أبا زيان حاكما على الثغور الاندلسية واوصاه بعدم التدخل فى شئون الفقيه ، وترك بعض قرابته من مشاهير الغزاة لدى ابن الاحمر هم بنو العلاء المرينى الذين تولوا قيادة الجيش الغرناطى وكانت لهم مواقف جهادية مشكورة ، وادركت المنية السلطان فى محرم ٦٨٥هـ وهو فى الجزيرة بالاندلس ، وكان ابو يوسف من اعظم ملوك المغرب ومن اعظم مجاهديها ومن عظيم صفاته الصفح الشديد كثرة العفو حليما متواضعا كريما سمحا جوادا يُحسن الى اعدائه وهى الصفات التى جعلته يصبر على تجاوزات ابن الاحمر الفقيه.

جهاد السلطان أبو يعقوب
(ولاية ابن الاحمر الفقيه)

كعادتها حنثت قشتالة بعهدها وهاجمت الثغور الاندلسية التى تحت يد السلطان فى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، فإشتبكت معها قوات المغرب المتمركزة هناك وحاول سانشو منع المؤن عنها فأرسل اسطوله الى بحر الزقاق ليحول دون قدوم الامدادات ، فبعث ابو يعقوب سلطان المغرب الجديد الذى سارعلى نهج والده (المجاهد العظيم ابو يوسف المنصور) باسطول للتصدى لقشتالة ، لكنه إنهزم فى اغسطس ١٢٩١م فأرسل اسطول أخر انسحبت قشتالة امامه ، كما عبرالسلطان بجيشه وغزا فى ارضها ثم عاد الى المغرب عام ٦٩١هـ.

حاول ملك قشتالة الدس لابن الاحمر الفقيه محذرا من نوايا المغرب وتفاهما على انتزاع ثغر طريف مدخل الجزيرة من يد السلطان ، واشترط ابن الاحمر الفقيه استلام الثغر عقب استعادته مقابل ما تنازل عنه من اراض لقشتالة ، وحاصرت قواتهما طريف بحرا بإسطول قشتالة وبرا بعسكر ابن الاحمر الفقيه الذين عسكروا بمالقة لمعاونة الاسبان ؛ وسقط الثغر بعد اربعة اشهر لكن ملك قشتالة رفض تسليمه لابن الاحمر الفقيه ؛ فصالح الفقيه السلطان الذى رحب بإستقباله فى ارض العدوة بالمغرب اواخر عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م ، وتنازل له ابن الاحمر الفقيه عن الجزيرة ورندة والاراضى الغربية وغيرها من الحصون التى كانت من قبل فى يد المغرب ، وارسل معه السلطان حملة لغزو طريف لم تنجح فى مهمتها ، وفى ظل هذا المناخ من المودة تنازل السلطان ابا يعقوب طوعا لابن الاحمر الفقيه طبقا لطلبه عن وادى آش التى ادخلها من قبل ابى الحسن ولد ابا اسحاق بنى اشقيلولة فى طاعة المغرب وبذلك اصبحت كل الاندلس تحت يد ابن الاحمر.

قام الفقيه إثر وفاة سانشو بالزحف على قشتالة عام ٦٩٥هـ /١٢٩٥م واستولى على قيجاطة وعلى الحصون التابعة لها واسكن بها المسلمين ، وفى صيف ٦٩٩هـ /١٢٩٩م فعل نفس الشئ مع مدينة القبذاق ، وسعى من ناحية اخرى الى تحييد اراجون فوقع مع خايمى الثانى فى٣١ ديسمبر عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م (قبل وفاته) تجديدا لمعاهدة الصلح والتحالف الموقعة قبلا عام ٦٩٥هـ /١٢٩٩م ؛ التى تنص على عدم اضرار احدهما بالاخر ، وان تعادى اراجون اعداء غرناطة مسلمين كانوا ام قشتاليين ، وبالمقابل يتعهد ملك غرناطة بمعاونة اراجون ضد ملك قشتالة والا يعقد معه صلحا الا بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك اراجون لسلطان غرناطة على نحو مماثل وان يقدم السلطان الى حليفه المعونة من الفرسان فى ارض مرسية اذا احتاج مثل هذا العون والا يعترض على ما يأخذه ملك اراجون من اراضى قشتالة الا ما كان لغرناطة اصلا فيرد اليها ، وان يفتح كلا منهما بلدة امام تجار البلد الاخر امنين على اموالهم وانفسهم .

مات ابن الاحمر الفقية فى شعبان عام ٧٠١هـ/ مايو ١٣٠١م بعد توقيع الاتفاق بثلاثة اشهر ، وبعد ثلاثون عاما من الخطوب قضاها حاكما ، نجح فى اقرار الاستقرار ، وخلفه ابنه ابو عبد الله محمد الملقب المخلوع .

أبو عبد الله محمد الملقب المخلوع

التمرد على بنى مرين

تولى عبد الله محمد الملقب المخلوع حكم غرناطة ، وكان ضريرا ذا نباهة وعزم ، محبا للاصلاح والانشاء ومن بين انشاءاته المسجد الاعظم بالحمراء ، اضطربت الامور فى عهده القصير بسبب سطوة واستبداد وزيره ابو عبد الله اللخمى ، كما اضطربت علاقته بسلاطين بنى مرين فى المغرب لغزوه سبتة فى اراضيها الافريقية ؛ رغم انه كان فى بداية عهده على علاقة وثيقة بالسلطان ابا يعقوب وساعده فى حصاره تلمسان بإرساله بعض الجند خبراء حصار الحصون بناء على طلب السلطان ادوا مهمتهم على احسن وجه ،الا انه انقلب وعاد الى محالفة قشتالة كعادة اسلافه مما اغضب السلطان فرد اليه جنده عام٧٠٣هـ .

تمادى عبد الله محمد المخلوع فى غيه فحرض عمه ابى سعيد فرج بن اسماعيل حاكم مالقة على ان يستثير اهل سبته فى المغرب للخروج على طاعة السلطان ؛ فجهز ابى سعيد فرج عام ٧٠٥هـ/١٣٠٦م قوة بحرية قادها عثمان ابن علاء المرينى وهو من الذين تركهم السلطان السابق ابو يوسف فى بلاط ابن الاحمر لمساعدة جيشه ؛ استولت علي سبتة من املاك السلطان وارسلت حاكمها ابو سعيد اسيرا الى غرناطة .

وإستباقا لرد فعل السلطان فكر ابن الاحمر المخلوع فى العبور للمغرب والسلطان مشغول بحصار تلمسان ، فغضب السلطان لهذا الغدر وارسل قوة بقيادة ابنه ابى سالم لاسترداد سبتة من الغرناطيين فشلت وطاردها عثمان المرينى قائد قوة غرناطة متوغلا فى انحاء سبتة عام ٧٠٦هـ ، فقاد السلطان عملية استرداد سبتة الا انه مات قتيلا ٧٠٦هـ/١٣٠٧م قبل القيام بمهمته ، واعقب مصرعه حربا بين ولديه ابى ثابت وابى سالم على العرش .

كان ابى العلاء المرينى قد هزم تجريدة السلطان ابا يعقوب لما تصدت لتوسعه فى ارض المغرب قبل وفاة السلطان ؛ حتى بلغت به الاطماع ان دعى لنفسه بالملك مدعوما من بعض القبائل ؛ لكن ابو ثابت السلطان الجديد قاد جيش ضخم فى سنة ٧٠٧هـ استرجع به من الخارجين عليه عدة حصون وطارد عثمان بن ابى العلاء الى سبتة وحاصرها ؛ وامر ببناء مدينة تطوان لنزول عسكره لاحكام حصار طويل ، لكنه مرض ومات عام ١٣٠٨م اثناء الحصار ؛ وخلفه اخوه سليمان ابو الربيع الذى فك الحصار عن سبته ورجع بجيشه الى فاس فلاحقه عثمان بن ابى العلاء لكنه انهزم فى معركته مع السلطان الجديد ، وقُتل من جنده الكثير ففر عائدا الى الاندلس .

ثورة ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه وعزل المخلوع

استرداد المغــرب سـبتة

وسقوط ثغرا المرية وجبل طارق فى يد الاسبان

دبر ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه الثورة على اخيه ابو عبد الله المخلوع لطغيانه ، وقتل الثوار المخلوع ووزيره المستبد ابن الحكيم فى عيد الفطر ٧٠٨هـ /١٣٠٩م ، وتولى ابو الجيوش الفقيه عرش غرناطة ، وفى العام التالى ٧٠٩هـ بعث اهل سبتة الى سلطان المغرب يدعونه لتخليصهم من حكم الاندلسيين ، فارسل لهم حملة بقيادة تاشفين ابن يعقوب دخلت المدينة بعد نجاح الثورة فى طرد الغرناطيين منها .

كان وضع غرناطة متأزما بسبب تصرفات ابن الاحمر فقد تدهورت علاقته مع المغرب ففقد الحليف الوحيد القادر على نُصرته فإستغلت قشتالة انقسام الحليفين المسلمين ، فغزى فرديناند الرابع ارض غرناطة فى اوائل عام ٧٠٩هـ ووصلت جيوشه الى الجزيرة الخضراء ، كما بعث اسطوله لحصار جبل طارق إستكمالا لمخططه فى تطويق الاندلس لضمان قطع الامدادات القادمة من المغرب ، وكانت قشتالة قد مهدت لهذا المخطط باستيلائها على طريف بتواطؤ مع ابن الاحمر الفقيه كما اسلفنا الذى غابت عنه المخاطر والنوايا الاستراتيجية لقشتالة ؛ ومن السذاجة ان نقول انها غابت عنه وهى واضحة للعيان من البسطاء ولم تغب قط عن سلاطين المغرب او الاندلس على مدى الصراع .

ولضمان نجاح الحصار وسقوط جبل طارق حث خايمى ملك قشتالة ملك اراجون على المشاركة فى المخطط بمحاصرة ثغر

المرية لشغل قوات الاندلس ، فإستجاب له ملك اراجون رغم معاهدة التحالف التى تربطه بغرناطة .

لكن المخطط لم يكتمل فقد نجحت المرية فى افشال الحصار ، وتمكنت من هزيمة قوات اراجون التى حاولت التسلل الى المدينة عبر انفاق تحت اسوار المدينة ، بينما ألحقت قوة اندلسية صغيرة جاءت لنجدة الثغر بقيادة عثمان بن ابى العلاء هزيمة فادحة بقوات اراجون الاخرى المتأهبة بالقرب من الثغر رغم ما بذلته اراجون من جهود جبارة فى القتال .

لكن قشتالة نجحت من ناحية اخرى فى الاستيلاء على جبل طارق نهاية عام ٧٠٩ هـ / مارس ١٣١٠م بعد عدة اشهر من الحصار الضارى رغم انتصار المسلمين فى المعارك الاولى ، وكان سقوط جبل طارق لحظة حاسمة فى تاريخ الاندلس ادرك عندها ابن الاحمر فداحة خطأه وضرورة استحضار قوة المغرب الى الاندلس وعودة التحالف معها ، فأرسل فى مصالحة السلطان وتنازل له عن الجزيرة ورندة وحصونهما ترغيبا له فى الجهاد واقترن باخت السلطان الذى ارسل له المدد ، ولما رأى ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه بعدما ضاقت به السبل بسقوط جبل الطارق وانشغال المغرب بامورها ، ان الوضع لا يمكن اصلاحه اتجه الى مهادنة قشتالة من جديد ودفع لها الجزية مما اثار السخط عليه وبدأت بوادر ثورة فى الافق ، فاعلن ابن عمه الرئيس سعيد فرج صاحب مالقة (صاحب غزوة سبته) العصيان وقاد الثوار فحازوا القواعد الجنوبية حتى غرناطة ، وتمكن من هزيمة الملك نصر الذى قبل التنازل عن العرش مقابل حكمه وادى آش فقط وبقى عليه حتى توفى عام ٧٢٢هـ/١٣٢٢م ، واقام الثوار ابا الوليد اسماعيل حفيد اسماعيل اخو ابن الاحمر الكبير راس الاسرة النصرية ملكا .

ابا الوليد اسماعيل
والجهاد ضد قشتالة

تولى ابا الوليد اسماعيل حفيد اسماعيل اخو ابن الاحمر الكبير راس الاسرة النصرية) عرش غرناطة عام ٧١٣هـ/١٣١٤م وهو يتمتع بخلال باهرة وكان متشددا فى امور الدين فأخمد البدع وأقام الحدود وحرم المسكرات وطارد الفساد الاخلاقى وحرم جلوس الفتيات فى ولائم الرجال وكان مجاهدا نشطا لم يمهله العمر لاستكمال جهاده الذى بدأه فى اوائل عهده بمهاجمة قشتالة التى هزمته هزيمة شديدة فى وادى فرتونة ٧١٣هـ واستولت منه على عدد من الحصون ، وتجهزت لمهاجمة الجزيرة لمنع الامدادات عن غرناطة الا ان تعجيل ابا الوليد بتحصينها واعداد الاساطيل لحمايتها ، رد قشتالة عنها فهاجمت بدلا منها غرناطة المدينة ، فإستنجد ابا الوليد بالمغرب لكن السلطان ابى سعيد الغاضب رفض المساعدة وطالب بتسليم عثمان بن ابى العلاء لما فعله فى بنى مرين فى غزوة سبتة ، ولكن غرناطة رفضت طلبه .

وجد أبا اسماعيل نفسه وحيدا فى مواجهة قشتالة فبادر بملاقاتها ورد عدوانها فهزم قواتها بما فيها المتطوعين الانجليز هزيمة شديدة فى البيرة عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م ، وقُتل فى المعركة اوصياء العرش الدون بيدرو والدون خوان ، وكان الفضل فى نصر غرناطة رغم قلة قواتها يعود الى شجاعة ابو سعيد عثمان بن ابى العلاء المرينى شيخ الغزاة .

وبهذا النصر افتتحت غرناطة عهدا جديدا من القوة ، واكبه طلب خايمى الثانى ملك اراجون (عام ٧٢١هـ/١٣٢١م) مصالحتها لمدة خمسة اعوام ، وتضمنت الاتفاقية بخلاف النصوص المعتادة نصا جديدا يضمن خروج المدجنين بأهلهم واموالهم من الاراضى المستردة الى ارض المسلمين ، مما كان له اكبر الاثر في تعزيز وضع غرناطة اقتصاديا وثقافيا وعسكريا لتنوع خبرات هؤلاء المهاجرين .

تعاقبت غزوات غرناطة فغزى ابا اسماعيل سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م مدينة بياسة وحاصرها حصارا شديدا واطلق عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدفع حتى استسلمت ، وفى عام ٧٢٥هـ استولى على مرتش وكانت اعظم غزواته لكنه قُتل غيلة بباب قصره بعد عودته بثلاثة ايام الى غرناطة فى٧٢٥هـ/ يونيو ١٣٢٥ م على يد ابن عمه صاحب الجزيرة محمد بن اسماعيل بسبب جارية رائعة الحسن من السبى انتزعها منه .

ابو عبد الله محمد
واستعادة جبل طارق

خلف ابا الوليد اسماعيل ولده ابو عبد الله محمد وكان فى الحادية عشر من عمره وهو من ام اسبانية ، ومن اول اعماله تجديد معاهدة الصداقة مع اراجون بناء على طلب خايمى الثانى فى ٧٢٦هـ/١٣٢٦م لانقضاء اجلها ؛ وقاتل اسرة المرينى وعلى

رأسهم عثمان بن ابى العلاء ومعهم عم السلطان محمد بن فرج ابن اسماعيل الذين اعتصموا بالمرية وبعض ثغور الجنوب ، وكان القتال بين الفريقين سجالا .

إنتهزت قشتالة الفرصة فإستولت على ثغر البيرة وعدة حصون ولما تفاقم عدوانها تصالح ابو عبد الله مع هؤلاء الخوارج وترك لهم حكم وادى آش ، وسعى للاستنجاد بابى سعيد سلطان بنى مرين عام ٧٢٩هـ واعاد له الجزيرة وحصونها التى سبق ان تخلت عنها المغرب عام ٧١٢هـ عندما انشغلت بامورها الداخلية لابن الاحمر ، وفى نفس العام (٧٢٩هـ) اوشى بقتل وزيره ابن المحروق لاستبداده بالحكم .

استلزم معاودة نجدة الاندلس استعادة جبل طارق باى وسيلة ، فطلب ابو عبد الله محمد عام ٧٣٢هـ مساعدة المغرب وذهب الى عدوة مستنجدا بالسطان ابى الحسن على بن عثمان بن ابى يعقوب الذى كان شغوفا بالجهاد ويدرك ان خطر الاسبان لا يقتصر على الاندلس وانما يطول المغرب ايضا ؛ فبعث ولده ابى مالك بالامداد فحاصرت قواته وقوات غرناطة جبل طارق برا وبحرا ، فسارع الفونسو الحادى عشر للتصدى لهم بقوة اضافية ، لكنه فوجئ قبل وصوله بهزيمة القوة الاسبانية امام جبل طارق واستسلام حاميتها فى ٧٣٣هـ /١٣٣٣م بعد حصار مشدد ، فانتهى للتصالح مع المسلمين ورجع الى حاضرته ، فاستردت غرناطة جبل طارق من يد الاسبان بعد ٢٤ عاما ، واثناء عودة ابو عبد الله محمد الى غرناطة أُغتيل بتحريض من بنى ابى العلاء فى ذى الحجة من نفس العام٧٣٣هـ /١٣٣٣م لتوجسهم منه لتضرره من تدخلهم فى شئون الدولة ، وتولى اخوه ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد.

ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد

انتكاسة جهاد بنى مرين

تولى ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد عام٧٣٣هـ /١٣٣٣م وكان فى السادسة عشر من العمر ومن اول اعماله مطاردته قتلة اخيه بنى ابى العلاء بمباركة من سلطان المغرب ابى الحسن ونفاهم الى تونس ، فارسلهم سلطانها ابى يحي بدوره الى ابا الحسن فى المغرب متشفعا فيهم ، فعفا عنهم الا انه اودعهم السجن لتأمرهم عليه من جديد .

ولكثرة غزوات الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى ارض غرناطة جدد ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م معاهدة التحالف مع الفونسو الرابع ملك اراجون ، واستنجد بالسلطان ابا الحسن فأرسل له ولده الامير ابن مالك الذى تقدم فى اراض قشتالة حتى سهل بجانة وحصد الكثير من الغنائم فسيرت قشتالة واراجون والبرتغال اساطيلها المشتركة الى جبل طارق بقيادة الدون جوفرى تنوريو لقطع الامداد عن جيش المغرب ، وفاجأت القوات الاسبانية جيش المسلمين وهزمته هزيمة شديدة قُتل فيها ابن السلطان فى اواسط ٧٤٠هـ/١٣٣٩م ، وواصلت القوات الاسبانية تقدمها فى اعماق غرناطة حتى الجزيرة الخضراء وحاصروا طريف وتغلبوا على حاميتها .

وفى محرم عام٧٤١هـ/يوليو ١٣٤٠ م عبرالسلطان فى اسطول من ١٤٠ سفينة وقوة كبيرة للثأر لابنه ، فنزل سهل طريف ولحق به ملك غرناطة ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد ، وفى ٣٠ اكتوبر وقعت المعركة غربى طريف على مقربة من نهر سالادو ونجح المغاربة فى البداية فى صد الفونسو الحادى عشر ، وقاتل الاندلسيون القوة البرتغالية مستخدمين الانفاط فى المعركة ولكن الخلل دب فى صفوف المسلمين عندما اقتحم الاسبان معسكر السلطان وذبحوا نسائه واولاده ، واستطاع السلطان ابو الحسن العبور الى المغرب مع جنوده ، وارتد ابو الحجاج يوسف الى غرناطة وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون لها مثيلا منذ هزيمتهم فى العقاب ، و بعد الهزيمة واصلت قشتالة غزواتها فاستولت على حصن بنى سعيد ٧٤٢هـ .

اعد السلطان ابو الحسن نفسه للانتقام وارسل عام ٧٤٣ هـ/١٣٤٢م اسطوله الى بحر الزقاق وسار بجيشه الى سبته وبادرت قشتالة للقائه ونشبت معركة بحرية انهزم فيها المسلمون ومُزق اسطولهم ، وحاصر الاسبان ثغر الجزيرة الخضراء وسار اليهم ملك غرناطة يوسف لفك الحصار الا انه فشل رغم استخدامه الالات القاذفة ، واستسلم الثغر فأصبحت الجزيرة وطريف فى ايدى الاسبان ولم يتبق غير جبل طارق همزة الوصل بين الاندلس و المغرب .

السلام مع اراجون

وحصار قشتالة جبل طارق

فى اواخر عام ٧٤٥هـ/١٣٤٥م جدد ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد سلطان غرناطة مع بيدرو الرابع ملك اراجون اتفاق الهدنة الموقع عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م مع الفونسو الرابع ملك اراجون للمرة الثانية لتحقيق هدنة فى البر والبحر لمدة عشر سنوات ، واخذ موافقة سلطان المغرب ابو الحسن فى صفر عام ٧٤٦ هـ/ يونيو ١٣٤٥م عليه .

وفى عام ١٣٤٨م تعرضت المنطقة لوباء انتشر فى حوض المتوسط وفتك باهله وفقدت خلاله الاندلس الكثير من سكانها وخيرة علمائها ، وفى عام ٧٥٠هـ١٣٤٩م حاصرت قشتالة جبل طارق لمدة عام صمدت فيه القوة المغربية واضطر القشتاليون الى رفع الحصار عام ٧٥١هـ /١٣٥٠م بفضل هذا الوباء الكبير الذى حصد تلك السنة كثير من جُند الحملة كان من بينهم الملك .

وبعد اعوام من الهدوء اغتيل ابو الحجاج يوسف وهو فى السابعة والثلاثون من عمره اثناء صلاته عيد الفطر عام٧٥٥هـ /اكتوبر ١٣٤٥م على يد معتوه ، وقد شهد عهده بناء البرج الاعظم بالحمراء بافخم اجنحته و ذاعت شهرة العلماء المسلمين لا سيما فى الفلك والكيمياء .

ويصف لنا ابن بطوطة الذى زار غرناطة فى عهده ما شاهده فى الاندلس من خيرات وصناعات فريدة ويصف غرناطة برياضها وبساتينها بعروس الاندلس واشار الى ما بها من نهضة ادبية زاهرة ووجود جمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والفقهاء والشعراء من ابرزهم ابن الخطيب اعظم كتاب وشعراء الاندلس الذى كان وزيرا للحجاج ابو يوسف .

مراسلات المغرب ومصر

بخصوص الوضع فى الاندلس

خاطب سلطان المغرب ابو الحسن ؛ الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام حول احداث الاندلس ؛ يخبره بجهوده لنصرة الاندلس ومساعدة صاحبها بالمال والرجال ؛ واشار لاستطالة الحرب ونفاذ الاموال والاقوات وخسارته اسطول النجدة الذى ارسلة واضطراره عقد الصلح مع النصارى وتسليم الجزيرة لهم مبديا نيته فى الاستمرار فى الجهاد ، ولم يطلب شيئا محددا فرد عليه قلاوون برسالة مؤرخة رمضان ٧٤٥هـ بكلام عام يعزيه فى فقد الاسطول وما لحقه من هزائم قائلا ان الحرب سجال وان الله قد يمن عليه بالنصر مرة اخرى (١١٥).

انقطاع جهاد المغرب فى الاندلس

وترك غرناطة لمصيرها

بوفاة السلطان ابو الحسن عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م بدأ انحلال دولة بنى مرين ، فانقطع عبورها الى الاندلس الا مرات قليلة اخرها عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م فى عهد محمد الملقب بالغنى بالله ملك غرناطة ؛ عندما ارسل ابو عنان سلطان بنى مرين ابنه ابا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان الى جبل طارق لتأمينه وتجديد تحصيناته بعد ثورة حاكمها عيسى بن الحسن الذى قبض عليه الاهالى وارسلوه ومعه ابنه الى المغرب حيث أُعدما ؛ وترك بنى مرين الاندلس الى مصيرها لانشغالهم بامورهم الداخلية فقد كانت دولتهم على اعتاب الانهيار .

محمد بن يوسف بن اسماعيل الملقب بالغنى بالله

خلف محمد الملقب بالغنى بالله ولده ؛ وكان يافعا صغير السن وفى اول عهده امنت غرناطة شر قشتالة التى انصرفت عنها بحروبها الداخلية ، وفى ٢٨ رمضان عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م فر الغنى بالله الى وادى آش اثر ثورة اطاحت به واقامت اخوه المعتقل اسماعيل ملكا مكانه ؛ تدخل سلطان المغرب ابى سالم ابو الحسن لدى سلطان غرناطة الجديد اسماعيل متشفعا فى اخيه المخلوع الغنى بالله لجميلة سابقة عليه عندما لجأ الي الاندلس فرارا من اخيه السلطان ابوعنان ، وتمكن من إحضاره الى المغرب ومعه وزيره ابن الخطيب عام ٧٦١هـ .

---

[١١٥]) السلوك فى دول الملوك للمقريزى صـ ٤٤٧و٤٤٨ نقلا عن كتاب نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين صـ ١٢٠ _ محمد عبد الله عنان .

وحاول الغنى بالله ان يستعيد ملكه بمساعدة بيدرو الثانى(١١٦) ملك قشتالة طبقا لاتفاقه معه ؛ لكن الاخير تجاهله وآثر التعاون مع سلطان غرناطة الجديد للتفرغ للاضطرابات داخل مملكته ، فعول الغنى بالله على مساعدة وزير الدولة المغربية عمر بن عبد الله الذى قام بشئون البلاد بعد مصرع السلطان ابى سالم .

وواتت الغنى بالله الفرصة بمقتل اخيه اسماعيل فى ثورة غرناطة على يد سعيد حاكم مالقة الذى سبق ان قاد الثورة ضدة ؛ فجاز ومعه الوزير ابن الخطيب الى الاندلس واستولى على مالقة التى فر منها ابوسعيد الى حماية ملك قشتالة ، ثم تقدم الى غرناطة واستعاد ملكه عام ٧٦٥هـ/١٣٦١م .

وفى ولايته الثانية بعد ان استرد عرشه زاره ابن خلدون فى الاندلس لعلاقة وطيدة ربطتهما معا فى المغرب اثناء عمل الاخير فى بلاطها ، واثناء وجوده فى الاندلس ارسله السلطان الغنى بالله عام ٧٦٥هـ/١٣٦٣م مبعوثا الى بيدرو ملك قشتالة الذى اعجب بإبن خلدون وطلب منه البقاء فى خدمته لما عرف انه من مواليد اشبيلية لكنه اعتذر .

وفى عام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م تمكن الغنى بالله من إفشال انقلاب ضده وزاده هذا قوة، وفى عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م عقد صلحا مع بيدرو الرابع ملك اراجون لمدة ثلاثة سنوات بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن ابى فارس سلطان المغرب ، يحق فيه لهما بمقتضاه الاتجار المتبادل فى اراض البلدين والتجول دون اعتراض او مغارم ، وان تطلق اراجون حرية الهجرة للمهجنين والامتناع عن مساندة اعداء كل للاخر او الاضرار به ، اما علاقته بقشتالة فقد غلب عليها التهادن الا قليلا من المناوشات ، وقدم خلالها الحماية الى ملكها المخلوع بيدرو القاسى.

العلاقات مع مصر

كانت علاقاتة مع مصر متواصلة وهناك رسالة كتبها وزيره ابن الخطيب " من امير المسلمين بالاندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله الى الاشرف شعبان سلطان مصر" يعرب فيها عن اغتباطة لتلقى رسالة سلطان مصر ويهنئه فيها بنصره فى موقعة الاسكندرية على لوسنيان ملك قبرص عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، ملمحا الى ما يذكيه هذا النصر من اشفاق وعطف على الاندلس التى يدهمها الاعداء بلا انقطاع ؛ مذكرا إياه بجهاد غرناطة وتعرضها الدائم لهجمات العدو (١١٧).

جهاد الغنى بالله
ضد قشتالة

حرر محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله موقعين حصينين فى برغة ورندة الشرقية من ايدى قشتالة بعد معارك طاحنة فى شعبان ٧٦٧هـ/١٣٦٦م ؛ كانت تقطع بهما الطريق على ثغر مالقة ؛ وتابع غزواته فى مدينة اطريرة وفتح حصن اشر فى ضواحى اشبيلية عاصمة قشتالة ، واقتحم مدينة جيان فى ٧٦٩هـ/١٣٦٧م ودمر مدينة ابدة وعاد الى غرناطة ؛ وفى اواخر ٧٦٩هـ أرغم الاسبان على اخلاء الجزيرة الخضراء بعد قتال مرير وهدم اسوارها ، وفى عام ٧٧١هـ /١٣٧٠م زحف على اشبيلية وحاصر قرمونة واقتحم مرشانة ، وكانت المملكة فى عهده فى اوج قوتها ؛ وكان عهده عهد رخاء فعنى بالانشاءات فبنى المارستان الاعظم وعنى بتجديد الحصون وبث روح الجهاد ، وتوفى فى عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م وتولى ابنه يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى).

يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى)

تولى يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى) عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م واستهل عهده بمهادنة قشتالة وحدثت خروقات من الطرفين وهزم قشتالة هزيمة شديدة ؛ وثار عليه ولده محمد لايثاره اخيه الاكبر لولاية العهد ولكن الثوار تفرقوا بعدما وبخهم سفير المغرب وطلب منهم الوحدة ضد الاسبان ، ومات عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م بعد حكم ثلاثة سنوات وتولى ابنه محمد العرش بعد ان اقصى اخيه الاكبر يوسف .

---

[١١٦]) كان بيدرو اثناء حروبه الاهلية ضد اخيه هنرى يستخدم فرقة من حلفائه المسلمين سنة ١٣٦٨ م ، المرجع السابق صـ ١٣٢.
[١١٧]) المرجع السابق صـ ١٣٥

محمد بن يوسف

جهاده قشتالة وتهادنه مع اراجون

تولى محمد بن يوسف العرش عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م بعد ان اقصى اخيه الاكبر يوسف وسجنه ؛ وابتدأ عهده بمهادنة قشتالة ولكنها لم تلتزم بالعهد فهاجم ولاية الغرب وخربها ؛ واستولى على حصن ايامونتى ، وراسل ملوك العدوة وتونس لمساعدته ، فادركه ملوك تونس وتلمسان بنجدة بحرية انهزمت تجاه جبل طارق ، فعاود مهادنة هنرى الثالث لمدة عامين وعقد لجنة تحكيم لتقدير الاضرار فى ٦ أكتوبر ١٤٠٦م.

وبعد وفاة هنرى فى اخر العام نقض فرديناند الوصى وعم ولى العهد الهدنة وهاجم غرناطة واستولى على عدد من الحصون فرد محمد ابو يوسف بغزو ارض قشتالة وبعد عدة معارك انتهى الامر عام٨١١هـ/ ١٤٠٨م بهدنة جديدة لمدة ثمانية شهور ، واثناء قتاله قشتالة عقد صلحا فى عام ١٤٠٥م لمدة خمس سنوات مع مرتين ملك اراجون وابنه ملك صقلية ونص الاتفاق على ان تعاون غرناطة ملك اراجون او ملك صقلية فى الحرب على اعدائهما متى كانوا من غير اصدقاء غرناطة بأربعمائة او خمسمائة فارس ؛ ويقوم ملكا البلدين بإعانة غرناطة بخمس سفن محملة بالرجال والعتاد على ان يتكفلا بالنفقات على الا يكون عدو غرناطة صديقا للملكين ، وان تمتنع الاطراف عن مساعدة الخوارج والثوار من الجانبين ، وضمان حرية الانتقال والاتجار بين رعايا الاطراف فى ارض كل للاخر امنين على انفسهم واموالهم وان يسمح باصلاح السفن المعطوبة لكل طرف فى موانئ الاخر متى لجأت اليها ، والا يُسمح لسفن الاعداء التى استولت على بضائع اى طرف ان تبيع ما غنمته فى موانئ الطرف الاخر وان يُسمح لرعايا كل طرف او سفنه متى كانوا فى اسر العدو وتم الاستيلاء على هذه الارض بفك اسرهم بمالهم مقابل مائة دينار ذهبا عن الشخص الخ ، وتوفى السلطان عام٨١١هـ/ ١٤٠٨م وتولى اخوه يوسف الثالث الذى كان سجينا طوال عمره فى احدى القلاع الحصينة .

يوسف الثالث

ثورة اهل جبل طارق

خلافه مع المغرب ووفاقه مع قشتالة

سعى يوسف الثالث فى اول عهده الى مد الهدنة مع قشتالة لمدة عامين لكن القشتاليون ابوا تجديدها وطلبوا اليه الخضوع لسلطانهم ان اراد السلم ؛ فرفض ولما انتهت الهدنة حاصرت قشتالة مدينة انتقيرة فتصدى لها فانهزم واستسلمت المدينة عام ١٤١٢م وتم بعدها الصلح مقابل اطلاق غرناطة لاسرى قشتالة ، وفى عهده ثار اهل جبل طارق ودعوا سلطان المغرب ابا سعيد المرينى لاحتلال الثغر باعتباره الاقدر على حمايتهم فبعث اليهم اخاه عبد الله تخلصا منه فهزمته غرناطة واسرته ثم ردته الى المغرب بعد ان زودوه بالمال ليناهض اخاه فاستطاع بمساعدة القبائل ان ينتزع الملك من اخيه ، وبعد ذلك ساد الوفاق بينه وقشتالة فاستقرت الاوضاع مثلما لم تشهد له غرناطة مثيلا من قبل ، فكانت غرناطة تغص بالفرسان والاشراف من الاسبان الذين اجتذبتهم ابهة بلاطها وفروسيتها ، حيث كانت تعقد حفلات المبارزة بين فرسان البلدين فى اعظم ساحات المدينة ، فى احتفالات مبهرة تحضرها الفتيات سافرات ؛ وتمتعت غرناطة فى عهده بالرخاء والامن ، وتوفى السلطان عام ٨٢٠ه/١٤١٧م بعد حكم دام تسعة اعوام وخلفه ابنه الايسر .

الايسر (الانقلابات ودعم قشتالة وفتنها)

تولى الايسر عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م ؛ وكان سئ الخلال متعاليا ؛ خفف من سوء خلاله لين وزيره يوسف بن سراج زعيم اسرة من اعرق البطون العربية فى غرناطة ، ثارت عليه غرناطة وخلعته عدة مرات لكنه استرد عرشه كل مرة ، وكان عهده مضطربا فتربص به الاسبان مستغلين ضعف مركزه بين الاندلسيين ، وكانت قشتالة تشجع الثوار الذين يستلهمون وحيها ثم هاجمته عام ٨٣١هـ/١٤٢٨م فزادت الامور اضطرابا ، فزحف الثوار على غرناطة لاهماله رد عدوانها ، فهرب الايسر الى تونس ليحتمى بسلطانها ابا فارس الحفصى .

أقام الغرناطيون محمد بن محمد بن يوسف (الثالث) الملقب بالزغير ملكا و تتناقض الروايات حول قرابته من الايسر فقائل بأنه ابن اخيه وقائل بأنه ابنه ، وهرب يوسف ابن سراج وزير الايسر الى قشتالة من بطش الزغير ، ونجح بالاتفاق معها على اعادة

الايسر للعرش بمعونة سلطان تونس الذى زوده بفرقة من الفرسان التونسيين وهدايا لملك قشتالة ، فعبر الايسر الى الاندلس و نزل فى المرية فاستقبله الشعب بحفاوة ، و لما علم الزغير بقدومه ارسل للقبض عليه ، فإنضم معظم الجند اليه، فتقدم الايسر وحاصر غرناطة بشدة فسلمها اليه انصار الزغير ، ودخلها عام ١٤٣٠م وسط ترحيب شعبى ، وقبض على الزغير وقطع رأسه وانتهت ولايته بعد حكم عامين وبضعة اشهر.

بعدما نظم الايسر الامور حاول تجديد الهدنة مع قشتالة فرفض خوان الثانى الا بعد ان يسدد لقشتالة ما انفقته لاسترداد عرشه وفوقه جزية سنوية اعترافا بالطاعة ؛ فرفض الايسر ولم يعبأ بتهديدات قشتالة التى ما كادت تنتهى من الفتنة الداخلية حتى هاجمت غرناطة ، لكن الايسر تمكن من ردها فعاود ملك قشتالة الهجوم على عدد من الحصون وسبى وغنم .

الحجاج يوسف بن المول

الاستعانة بقشتالة لاغتصاب الحكم

ومع تدهور الوضع وانقسام غرناطة شيعا متنافسة ؛ بدات الفتن من جديد والتف خصوم الايسر حول الحجاج يوسف بن المول وام ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله ، وهو امير قوى وافر الثراء انتهز وجود خوان الثانى ملك قشتالة معسكرا بالقرب من غرناطة يراقب الاحداث فلجأ اليه طالبا العون ووقع معه معاهدة فى ٧ محرم سنة ٨٣٥هـ / ١٦ سبتمبر ١٤٣١م بأن يحكم بإسمه وتحت طاعته وعقد معه وثيقة خضوع ، يقر فيها بأنه من اتباعه وخدامه ، وانه سيحضر جلسات الكورتس بنفسه ان كان منعقدا جنوب طليطلة او بمندوب ان انعقد فى قشتالة ، وأن يدفع له عشرون الف دينار من الذهب جزية سنوية ويمده بالف فارس لمحاربة اعدائه نصارى كانوا او مسلمين ؛ وتعهد لخوان الثانى بتحرير الاسرى النصارى اذا حاز العرش ، وبالمقابل تعهد ملك قشتالة بالصلح معه وابنائه من بعده وأن يكون فى عونه ضد اعدائه من المسلمين او النصارى والا يحمى من يلتجئ اليه من الاعداء.

وتنفيذا للاتفاق ارسل الملك خوان الثانى قوة غزت مرج غرناطة وهزمت الايسر هزيمة شديدة ؛ ومد يوسف بقوة قشتالية مكنته من غزو بعض القواعد وهزم الايسر ودخل غرناطة فى يناير ١٤٣٢م ؛ وفر الايسر الى مالقة التى بقيت على طاعته .

و بعد ايام من دخوله غرناطة وقع يوسف عهد الخضوع لقشتالة فى ٢٧ يناير ١٤٣٢م على غرار ما فعله وندم عليه رأس الدولة النصرية من قبل ؛ ولم يمتد العمر به فمات بعد ستة اشهر لكبر سنه ومرضه ، فردت الاحزاب الايسر الى عرشه.

عودة الايسر للحكم

مهادنة ومجاهدة قشتالة

وطلبه معونة مصر

بعد عودة الايسر الى العرش بادر بعقد السلم مع قشتالة لمدة عام ، وكعادتها لم تحترمها وجاست فى اراض غرناطة فهزمها المسلمون وقتلوا واسروا عدد كبير من القشتاليين عند مدينة ارشدونة عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م ، وتمكن الايسر فى العام التالى من هزيمة قشتالة اكثر من مرة فى اهواز غرناطة ووادى آش ؛ فعندما اغار القشتاليون على وادى اش واستولوا على بعض الحصون وهاجموا جبل طارق ؛ باغتهم الاهالى وهزموهم وقتلوا قائد الحملة وكثرة من جنودها ٨٤٠هـ /١٤٣٦م ؛ وتقاتل الفريقان قرب كازورلا واصيبا بخسائر فادحة لكن النصر كان حليف المسلمين ، وساد الهدوء بعد ان هدت الخسائر الجسيمة الطرفين .

الاتصال بمصر

ولما اشتدت قشتالة من جديد أرسل الايسر فى اواخر عهده سفارة الى سلطان مصر الظاهر جقمق فى رجب عام ٨٤٤ هـ/ ديسمبر عام ١٤٤٠م (١١٨) طلبا للعون والانجاد فوعده بمخاطبة ابن عثمان (يقصد العثمانيين) لنجدة الاندلس ؛ ولما اكد سفراء

---

[١١٨]) اختلفت الرواية المصرية فى اسم سلطان غرناطة فيسميه السخاوى /عبد الله بن محمد ابن نصر و يسميه المقريزى / الغالب بالله عبد الله بن ابى الجيوش نصر وليس الايسر وحسب رأى محمد عنان كاتب نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين يرى ان المقصود هو الامير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله الذى تولى اوائل ١٤٤١م .

الايسر له ان الطلب موجه الى مصر اعتذر عن تقديم عون عسكرى لبُعد الشقة ، ولما طلبوا دعما ماليا وعتادا وعدهم ولكن الاخبار لم تُفد بوفائه بذلك (١١٩).

خلع الايسر والتنازع على المُلك

رغم بلاء الايسر فى الجهاد الا ان سوء ادارته الداخلية اثار غضب سادة غرناطة ؛ وإنقسموا الى فريقين لجأ الاول منهم الى ملك قشتالة ومنهم الامير يوسف بن احمد حفيد السلطان يوسف الثانى وابن عم الايسر ، والفريق الاخر ناصر بزعامة الامير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله الملقب بالاحنف الذى افلح فى دخول غرناطة سرا هو وعصبته واخذ فى تأجيج الثورة ؛ ولما وجد الفرصة مواتية هاجم الحمراء وقبض على الايسر وزج به فى السجن ونادى بنفسه ملكا فى اوائل ١٤٤١ م ، الا ان الامور لم تستقر له فقد كانت معظم الاسر الكبيرة تعارضه لقسوته وتُؤيد الامير يوسف بن اسماعيل اللاجئ الى قشتالة ؛ وكان من مؤيديه الوزير ابن عبد البر بنى سراج الذى تمكن من السيطرة علي قرطبة لعدة اشهر ، فى الوقت الذى تمكن فيه الامير يوسف من مغادرة قشتالة وإستقطاب بعض البلاد والحصون فى غرناطة الى جانبه.

ولما استرد الاحنف غرناطة فى اوائل ١٤٤٦م تحالف مع اراجون للتفرغ لتعقب يوسف بن اسماعيل وحليفته قشتالة فتمكن من هزيمتها هزيمة شديدة قرب جنجالة سنة ١٤٥٠م ؛ أدت بملكها خوان الثانى الى تسوية خلإفاته مع اراجون وتعزيز مساعدته للامير يوسف بن اسماعيل وزوده بقوات للتصدى للاحنف فهزمه ووصل الى العرش سنة ١٤٥٤م .

تبدل الملوك على غرناطة
وسقوط جبل طارق
وتداعى دولة بنى مرين داعمة الجهاد

تناوب على حكم غرناطة فى فترة زمنية قصيرة العديد من الملوك يتبدلهم المعارضون من الامراء وزعماء الطوائف الاقوياء ومعهم قشتالة احيانا او ورائهم فى فترة تردى فيها الوضع الداخلى نتيجة الإصطراع بين زعماء الطوائف بما هدد كيان الدولة خاصة الإصطراع بين بنى سراج وبنى الثغرى ، فتولى الامير سعد بن على حفيد يوسف الثانى لمدة اربعة اعوام ، وأُعيد السلطان يوسف الخامس بن اسماعيل للحكم وكان عادلا محبا للاصلاح والانشاء ، وفى اول عهده هادن خوان الثانى ملك قشتالة واعلن خضوعه له وأدى له الجزية اغتناما للسلم للتفرغ للوضع الداخلى وعندما حاول القضاء على بنى سراج تفجرت فتنة خطيرة.

وبعد موت خوان الثانى عام ١٤٥٤ رفض السلطان ابن اسماعيل اعلان الطاعة لـهنرى الرابع ملك قشتالة الجديد واغار عليها ؛ فرد هنرى بغزو اراض غرناطة بجيش كثيف وعاث قتلا وسبيا ؛ الحق به المسلمون خسائر فادحة ؛ وكان اخطر حدث فى تلك الاثناء سقوط جبل طارق عام ١٤٦٢م عندما فاجأ الدوق مدينا سيدونيا حامية بنى مرين المغربية ، فكانت ضربة قاسية عزلت غرناطة وسدت طريق تواصلها مع المغرب التى تضاءل مددها لتداعى دولة بنى مرين (١٤٦٤م) التى تعهدت دعم الاندلس على مدى قرنين .

الفصل الثانى
السقــــــــــــــــــوط

---

[١١٩])نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين صـ ١٤٧و١٤٨ .

(٨٦٨ -٨٩٧هـ /١٤٦٣-١٤٩٢ م)

انقسام غرناطة

نزاع اسرة المستعين بالله على العرش

فى عام ١٤٦٣م هاجم الامير سعد المستعين بالله (إبن الاحمر) الحمراء وإستولى على العرش بعد فرار السلطان اسماعيل ، وما كاد يقعد على العرش حتى ثار عليه ابنه ابو الحسن بتحريض من بنى سراج واخرج والده من غرناطة وتولى حكمها وهو فى الثلاثين من العمر ، ولما اشتد ضغط النصارى علي ابو الحسن صالح والده عام ٨٦٨هـ ؛ وفى اخر العام مات المستعين بالله ، ودب الخلاف من جديد حول العرش بين أبنائه أبو الحسن الحاكم الفعلى واخويه ابى الحجاج انتهى بوفاة الاخير بينما استمر الصراع مع اخيه الاخر السيد ابو عبد الله محمد المعروف بالزغل (اى الشجاع) والي مالقة ؛ (١٢٠) ؛ فى وقت قويت فيه شوكة الاسبان بتوحد قشتالة واراجون تحت عرش واحد ؛ فلجأ الزغل الى قشتالة عام٨٧٤هـ/١٤٦٩م وطلب العون من هنرى الرابع ملك قشتالة عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م لمعاونته ضد اخيه ، فبادر السلطان ابو الحسن بالاغارة على قشتالة عام ١٤٧٠م ثم فى العام الذى يليه وانتزع بعض أراضيها.

فى تلك الاثناء ثار الفرسوطى حاكم مالقة على السلطان واستدعى الثوار ابو عبد الله محمد الزغل اخو السلطان من قشتالة واقاموه ملكا ، فإنشغل السلطان الذى لم يفلح فى استعادة الثغر بمقاتلة اخيه عن مناجزة قشتالة لمدة ثلاثة اعوام انصرفت فيها هى ايضا الى معالجة خلافاتها الداخلية حتى عام ١٤٧٤م ، وبذلك انقسمت المملكة شطرين متناحرين انتهى الامر بينهما بهدنة تعترف بالامر الواقع ، وفى نفس الوقت وقعت هدنة بين المسلمين و قشتالة التى تفرغت للتصدى لغزو ملك البرتغال ارضيها فى الفترة ما بين ١٤٧٥م و حتى فبراير ١٤٧٦م ارتد بعدها البرتغاليون .

وحدة قشتالة واراجون

ومحاولات ابو الحسن التفاهم مع قشتالة

فى تلك الاونة ١٤٧٤م ، مات هنرى الرابع ملك قشتالة وال حكمها الى اخته الاميرة ايزابيلا زوجة الامير فرديناند ابن عمها وريث العرش الاراجونى ؛ وفى عام ١٤٧٩م تولى زوجها عرش اراجون بعد تنازل ابيه ، وبذلك توحدت المملكتين لاول مرة تحت عرش واحد واصبح النضال موحدا ضد غرناطة المنقسمة والضعيفة امر واقع خطير وادرك الاسبان ان تشديد الضغط فى هذه الاونة (١٢١) التى يقتتل فيها الغرناطيين سيثمر بنجاح الاستراتيجية طويلة المدى التى اتبعوها للاسترداد .

فرفض فرديناند وايزابيلا وهما يقدران الوضع فى غرناطة على وجه صحيح؛ محاولات ابو الحسن عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م تجديد الهدنة الا بإعلانه الخضوع لهما وتأدية الجزية السنوية التى كان يؤديها السلاطين قبله فرفض ، فأغارت قشتالة على حصن بللنقة واستولت عليه ؛ فرد ابو الحسن باسترداد حصن الصخرة وقتل حاميتها وسبى سكانها فى ديسمبر عام ١٤٨١م .

فى تلك الاونة إحتدم الصراع بين زوجتا السلطان لاقتناص السلطة كل لاولادها ؛ مما أوصل السلطان لإعتقال زوجته الحرة وولداه منها بتحريض من محظيته الاسبانية التى سعت لاغتنام العرش لابنها ، لكن الاسيرين الملكيين تمكنا من الهروب الى وادى آش ونازعا والدهما السلطان.

هاجمت قشتالة انذاك فى فبراير ١٤٨٢م / محرم ٨٨٧ هـ غرناطة واستولت على المنطقة الواقعة بين غرناطة ومالقة وعجزالسلطان عن استردادها بالرغم من هزيمته قشتالة امام لوشة فى ٨٨٧هـ يوليو ١٤٨٢م واستولى منهم على بعض الانفاط

---

[١٢٠]) وهذا التأريخ ورد على لسان رحالة مصرى زار البلاد عام ٨٧٠هـ وتابع احداثها الى عام٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى فى كتابه الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ـ المرجع السابق صـ١٥٣ .

[١٢١]) لم ينشأ عن زواج فرناندو ملك اراجون وإيزابيلا ملكة قشتالة توحيد المملكتين فى إسبانيا موحدة ، فقد ظلتا عرشين مستقلين ويوقعان معا على الرسائل ويخاطبهما رؤساء الدول الاخرى ثُنائيا، ورغم تصريف فرناندو امور الحرب مع غرناطة وحده الا ان إيزابيلا ظلت الملكة الحاكمة ، وعكست وصيتها عام ١٥٠٤ هذا المعنى فقد حددتً أنه حال موتها على فرناندو تسليم تاج قشتالة لخوانا وريثتها المباشرة وهوالوضع الطبيعي الذى ارادت به الملكة الحاكمة لقشتالة حرمان زوجها من ارتقاء العرش .

التى تستخدم فى حصار المدن .

وعند عودة السلطان غرناطة فوجئ بثورة مؤيدى ابنه ابو عبد الله بسبب مفاسده وتعسفه هو ووزيره ، ففر السلطان الى اخيه الزغل فى مالقة وهى تحت حصار قشتالة ، وفى اواخر عام ٨٨٧هـ تربع ابو عبد الله على العرش وهو فى العشرين من عمره فأطاعته وادى آش بينما بقيت مالقة وغرب الاندلس على طاعتها لابيه السلطان.

ولما كان الجهاد فى الاندلس له تقديره بين اوساط الشعب الذى يستشعر الخطر المحدق به ؛اجتاح ابو عبد الله عددا من الحصون ٨٨٨هـ/١٤٨٣م وهزم قشتالة فى عدة معارك لكنها أَسرته اثناء عودته ، فاعادت احزاب غرناطة السلطان ابو الحسن الى العرش لكنه لكبر سنه وكفاف بصره (مات ابو الحسن عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) تنازل عنه لاخيه الزغل.

تمكن الزغل من تكبيد الجيش القشتالى خسائر فادحة فى صفر ٨٨٨هـ/١٤٨٣م فى معركة الشرقية ؛ كما إنتزع بمساعدة مؤيديه المرية من يد يوسف ابو الحجاج ابن اخيه السلطان السابق ؛ ويقال ان ذلك تم بايعاز من اخيه السلطان نفسه بسبب توسع المد القشتالى (الإستيلاء على رندة عام ٨٩٠هـ/ ابريل ١٤٨٥م وتهجير اهلها رغم وعد الامان ، ومحاولة الاستيلاء على ماكلين لكن الزغل الذى كان بالمدينة يجدد حصونها هزمها فى ٨٩٠هـ/يوليو ١٤٨٥م.

بعد انتصار المسلمون فى ماكلين ، رأى فرديناند ملك قشتالة ان يستفيد من اسيره الملكى ابو عبد الله فى تأجيج الموقف فى غرناطة بين الفريقين المتنازعين وليروج الانهزامية بين المسلمين ويحرضهم على الاستسلام ليفت عضد المسلمين ؛ فأطلق سراحه بعد ان إطمأن الى تعاونه وحصل منه على عهد بالخضوع ؛ فأعلن ابو عبد الله نفسه ملكا واخذ يدعوا للسلام مع قشتالة ودخول الامان معها بضمانته ، وعمل على تأجيج ثورة حى البيازين الشعبى داخل غرناطة عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م واهل الحى معروف عنهم انهم دائما عنصر فتن ؛ وانتهت الفتنة بعد شهرين بإتفاق يحكم فيه ابو عبد الله المناطق الشرقية تحت طاعة الزغل .

وفى ٨٩١هـ/١٤٨٦م كان ابو عبد الله متحصنا بـ لوشةعندما إستسلمت بعد دفاع مجيد الى قشتالة مقابل الامان والرحيل باموالهم ، فأخذه فرديناند واطلق سراحه بدون سبب واضح بعد ان أمده بالسلاح والرجال لمناجزة عمه ، فى وقت إزدادت الفتنة اشتعالا بين اهل البيازين لانشغال الزغل إنشغل عنها بمواجهة هجوم قشتالة على بلش مالقة فى ربيع ٨٢٩هـ/ مارس ١٤٨٧م التى سقطت فى ايدى القشتاليين ، وعند عودته من المعركة علم الزغل بدخول ابو عبد الله غرناطة فى ابريل من نفس العام بناء على رغبة اهلها ؛ طمعا فى ان تنقذهم محالفته الاسبان من النهاية المأسوية المحتومة ، فإرتد الزغل الى واد آش وتحصن به وانقسمت المملكة بذلك الى شطرين .

توالى بعد ذلك سقوط المدن الاندلسية ، واستولى الاسبان على سلسلة من الحصون المحيطة بغرناطة رغم مقاومة اهلها الباسلة بفضل استخدام الانفاط (١٢٢)؛ وكان مصير اهلها الطرد ، وهاجمت قشتالة مالقة اخر ثغور المسلمين واستولت عليها بعد ثلاثة شهور من الحصار الشديد وذلك فى اواخر شعبان ٨٢٩هـ/ اغسطس ١٤٨٧م ؛ بعد ان حصل اهلها على امانا حنث به فرديناند بعد ذلك عندما قرر إستعبادهم اوافتداء انفسهم ، وقدم السفن لمن شاءالرحيل الى المغرب ؛ ولم يُسمح للاخرين منهم بالاقامة فى غرناطة وان كان قد إستثنى البعض وسمح لهم بالاقامة فى قشتالة .

إستغاثة الاندلس بدول الاسلام
هوان امة على امتها

---

[١٢٢]) استخدم العرب الانفاط ضد لويس فى المنصورة على نحو ما سيرد لاحقا واستعمله الموحدون فى حصار لبة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ضد جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة ؛ واستخدمها الاندلسيون فى حصار بياسة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م فى عهد ابو الوليد اسماعيل وفى وادى لكة ١٣٤٠م وفى الدفاع عن الجزيرة ٧٤٢هم ١٣٤٢ فى عهد ابى الحجاج يوسف ،و لم يتمكن الاندلسيون بعد سقوط ثغورهم من الحصول على موادها فى الوقت الذى استخدمها الاسبان بكثرة بعد ان استنسخوها من الاندلسيين وتوفرت موادها لديهم .

موقف سلاطين بني مرين

كان مسلمو الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغرب أيا كانت دولهم سواء المرابطين والموحدين والمرينيين ، فنصرهم المرابطون فى معركة الزلاقة والموحدون فى معركة الارك وانهزموا والاندلس فى معركة العُقاب التى اذنت بزوال الاسلام من اسبانيا ، اما بنو مرين فقد استماتوا فى الدفاع عن الاندلس وهى تنازع الرمق الاخير الا انهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك ، ويرجع هذا إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله ، فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور (٨١٥ هـ/١٢٨٦م) عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة بل إلى مدريد وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس، فأطال عمر غرناطة وإنقاذها من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة وأرغون .

ومهما كان فإن بني مرين ساهموا بدور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطرابات الداخلية والخارجية مع جيرانهم من جهة ثانية بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص ، والتي حالت دون تمكن المرينين أو الوطاسيين ليس فقط من إنقاذ الأندلس بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الإسباني والبرتغالي ؛ ويصف الرحالة المؤرخ المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي أوضاع المغرب في هذه الفترة من خلال مشاهدته خلال زيارته شمال إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، فيقول " ووقع بفاس وأعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد وهلاك عباد ، وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العدوة مثل طنجة وأصيلا وغير ذلك.. ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا" ؛ ويقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة عن عدم قُدرة المغرب الرد على إستغاثة أهل الأندلس بملوك المغرب، فيقول "إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم ، فلم يأتنا أحد منهم ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا ، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لنا..."

موقف سلاطين الحفصيين

وعندما لا يجد أهل الأندلس من ملوك المغرب أذانا صاغية ؛ كانوا يستغيثون بملوك بني حفص فى تونس فعندما سقطت بلنسية أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدون منه النجدة والمدد ، وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبَّار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها قد درسا

ولجأ اليه كذلك أهل إشبيلية وأهل المريَّة طلبا للمدد ولكنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من اقتحام الأندلس والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف ، وإنما اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالمؤن والسلاح والمال لم يصل إلى المحصورين في بلنسية ، وأرسل مددا آخر أثناء حصار إشبيلية استولى عليه الاسبان ، وأثناء حصار غرناطة وهى فى الرمق الاخير لم يكن بمقدور الدولة الحفصية التى كانت تعيش أخر أيامها كات عاجزةا عن صد أي عدوان داخلى او خارجى بل أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الإسباني.

موقف ملوك الدولة الزيانية

وممن لجأت اليهم الأندلس ملوك بني زيان ؛ فعندما ضيق الإسبان الخناق على غرناطة أستنجد أبو عبد الله ملكها بأبي حمو الزياني بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها :

هل من مجيب دعوة المستنجد   أم من مجير للغريب المفرد

وبرسالة من إنشاء الوزير ابن الخطيب يذكر فيها أنهم :"... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شدة، وضيقا أشدّ مما هم عليه الآن ؛ وذكر بأن ملك النصارى جمع لهم جيوشا من سائر الأمم النصرانية وقاموا بإحراق الزروع ، و ليس للمسلمين مغيث يلجأون إليه – بعد الله – سوى إخوانهم في الدين ؛ وذكر أنهم أعلموا المرينيين بهذا الخطر وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة ولا يملكون غير أنفسهم وقد بذلوها في سبيل الله وهم ينتظرون نجدتكم " .

ولما كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتدهورة كبقية دول المغرب العربى ولا تؤهلها ظروفها حتى للدفاع عن نفسها وتعذر عليها تقديم أي دعم جدي لأهل غرناطة ؛ قام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة والخيل والطعام ؛ وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول.

موقف مصـــــــــــــــر

بعثة الزغل الى مصر

أثناء حصار قشتالة مالقة فى يونيو ١٤٨٧م ارسل السلطان الزغل استغاثة الى ملوك الاسلام فى المغرب وتونس ومصر والقسطنطينية ، ولم تكن دول الاسلام بعيدة عن اخبار الاندلس ، فقد كانت شعوب الاسلام تتابع نضال شعبها شغفا وجزعا وحسرة على عدم القدرة على نجدتهم ، وروج شعر ابن الخطيب الوزير والعالم الاندلسى الشهير اخبار المأساة الاندلسية ، والشعر عند العرب من اهم وسائل تداول الاخبار، كما تتبع ابن اياس المؤرخ المصرى اخبارها اولا باول ، كما اذاعت رحلات كل من ابن بطوطة وابن خلدون اخبار الاندلس ، وتناقلها التجار المصريين الذين كانوا على علاقات تجارية وثيقة مع ثغور الاندلس فى مالقة والمرية ا كشهود عيان ومنهم عبد الباسط بن خليل الحنفى المصرى فى كتابه الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ؛ الذى زار البلاد فى عام ٨٧٠هـ وتابع احداثها الى عام٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م .

وصلت سفارته الى مصر فى نوفمبر عام ١٤٨٧م بعد سقوط مالقة ؛ وتسلمها السلطان الاشرف قايتباى وتضمنت طلب تجريدة لان غرناطة على وشك السقوط ، ولما كانت الظروف فى مصر غير مواتية بسبب تربص الاتراك والوضع الداخلى وكانت مالقة قد سقطت ؛ إكتفى قايتباى بتقديم عون دبلوماسى (عون العاجز) يستمد فعاليته من سيطرة مصر على الاراضى المقدسة فى بيت المقدس ، فأرسل سفارة من راهبين من رعاياه النصارى احدهم القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس الى كل من البابا انوسان الثامن وفرديناند ملك نابل (نابولى) ، و فرديناند وايزابيلا ملكا قشتالة واراجون المتحدتين بصفتهما المعنيين الرئيسيين يعاتبهما فيه لما يحدث على ايديهم للمسلمين فى الاندلس ، وطالبهم بالكف عن ذلك ورد الاراضي التى حازوها من المسلمين ، وهدد بمنع الحج والتنكيل بكبار الاحبار وهدم جميع الاديرة فى الاراضى المقدسة .

وصلت السفارة الى مقصدها الاخير اسبانيا عام ١٤٨٩م بعد عام ونصف من انطلاقها ، و جاء رد فرديناند وايزابيلا اصحاب اليد العليا فى الامر وديا مصحوبا ببعض الهدايا انكرا فيه الاتهامات فيما يحدث للمسلمين وانهم يتمتعون بحقوق المواطنة كالمسيحيين ، واكدا بقوة على اصرارهما على استرداد الاندلس لانهما لايستطيعان صبرا على ترك ارض الاباء والاجداد فى يد الاغراب (١٢٣) .

وتُردد بعض المصادر الغربية أن دول المشرق التى اثارها السقوط السريع للقواعد الاندلسية قررت نجدة الاندلس ، وان بايزيد الثانى سلطان الترك والاشرف قايتباى سلطان مصر تهادنا رغم المعارك الدموية بينهما واتفقا على انجاد الاندلس بان تقوم تركيا بإرسال اسطول قوى لغزو صقلية الخاضعة لمملكة اراجون لشغل فرديناند وايزابيلا وان تبعث مصر وافريقية (تونس) جندا كثيفا يعبر الى الاندلس لنجدتها ، ويبدوا ان الامر ليس الا شائعة اكثر منها حقيقة .

كرر الأندلسيون الاستغاثة فى عهد الملك الأشرف قانصو الغوري (١٥٠١-١٥١٦) سلطان المماليك فى مصر والشام ، داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين فرديناندو وإيزابيلا لاحترام معاهدة الاستسلام ووقف أعمال الاضطهاد ضد المورسكيين ، فأرسل الغوري وفدا إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام ، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما وبين المسلمين .

فأرسل إليه الملكان فرديناند وايزابيلا ردا حمله الحبر بيترو مارتيرى دى انجلريا فى اغسطس ١٥٠١م ، ينوها فيه بحُسن معاملتهما للمسلمين فى اراض الاسبان ، ووصل الحبر القاهرة اواخر يناير ١٥٠٢م واستقبله الاشرف جان بلاط الذى انهى اللقاء بعد اعتراض البعض ومنهم مهاجرين اندلسيين على استقبال رسول ملك استولى على ارض المسلمين ، وعاد الاشرف تحت الحاح

[١٢٣]) نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين صـ ٢٠٤

الحبر وإستقبله سرا فى ٦ فبراير ١٥٠١م وتلقى منه شهادات الموانى المغربية تُفيد بوصول الاسر المسلمة اليها دون مشاكل كما انه ليس هناك تنصير اجبارى ، و لم يكن السفير الحبر صادقا فيما يتعلق بالتنصير الاجبارى الذى كان قد بدأ فعلا ومعه محاكم التفتيش التى استأنفت مهامها منذ عام ١٤٩٩م والادهى ان الحبر حصل من قانصو الغوري على اعفاء نصارى بيت المقدس من الفروض والمغارم اى الضرائب .

موقف الدولة العثمانية

فى عهدى السلطان محمد الفاتح وابنه السلطان بايزيد الثاني

ارسل أهل غرناطة في منتصف سنة ١٤٧٧ قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاما ؛ سفارة الى إستانبول وجهت فيه نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم ، لكن الظروف لم تساعد السلطان الفاتح لأنه كان هو الآخر يواجه تحالفا صليبيا ضم البابا سكست الرابع Sixte (١٤٧١-١٤٨٤)، وجنوة ونابولي والمجر وترانسلفانيا وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية.

وبعد وفاة الفاتح عاود الأندلسيون الكرة مع إبنه السلطان بايزيد الثاني (١٤٨٠-١٥١١م)، الذى تزاحمت عليه ألازمات الداخلية والخارجية (صراعه مع أخيه جم (١٤٨١-١٤٩٥م) - حربه مع المماليك في أدنة فى الفترة ١٤٨٥-١٤٩١ وحربه مع التحالف الصليبى (الذى ضم ترانسلفانيا والمجر والبندقية وفرنسا والبابا يوليوس الثاني) التى أسفرت عن تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم ، ورغم ظروفه الصعبة لم يهمل السلطان بايزيد استغاثة أهل الأندلس فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة والتضييق عليهم ، وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال ريس إلى الشواطئ الإسبانية سنة١٤٨٦؛ قام بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا ، ولكن عمليات الاسطول العثمانى لم تثن الملكين الإسبانيين عن استراتيجيتهم فى إنهاء الوجود الإسلامي فى إسبانيا .

تطويق غرناطة وسقوط اخر الثغور

قررت قشتالة الضغط على الزغل باعتباره الخطر الحقيقى الذى لم يتم ترويضه ؛ فحاصرت بسطة منذ رجب ٨٩٤هـ/ يونية ١٤٨٩م لمدة ثلاثة شهور صمدت خلالها المدينة بإستبسال ، و لما ايس قائدها يحي النيار من النصر قبل اغراءات الاسبان السخية مقابل الاستسلام ووقع اتفاقا معهم فى ديسمبر يضمن له ولاهله (ولده وابناء عمه) حقوقا مميزة ، ويقضى الاتفاق بقبول فرديناند وفيما يلى النص " .... والا تدفع انت واهلك واعقابك وحشمك اى جزية او مغرم ابدا فى سائر مملكتى ، واذا تنازل صهرك ملك وادى اش(يعنى الزغل) عن نصف الملاحات التى اهبها اليه ادفع لك خمسمائه وخمسون الف مرافيدى فى ملاحات دلاية ، واذا تم تسليمى وادى اش فى الموعد المحدد اكافئك على جهودك فى خدمتى بعشرة الاف ريال ، واذا صحت عزيمتك على التنصر وعلى خدمتى فسوف اكتم ذلك خلال الفتح حتى لا يتقول عليك رجالك ، وسوف تستقبل التعميد سرا فى غرفتى حتى لا يعرفه المسلمون الا بعد تسليم وادى اش (١٢٤) " .

وبناء على هذا الاتفاق استسلمت بسطة فى ديسمبر من نفس العام وغادر معظم اهلها الى وادى اش ؛ وخلال نفس الشهر (ديسمبر) سقطت بقية الحصون اما بعد معارك شديدة او بالاستسلام بشروط سخية ، وكان الغرض من تقديم مثل هذه الشروط هو تشجيع غيرها على الامتثال لمثل هذه الاغراءات ، واثمرت خيانة يحي النيار بالتدخل لاقناع الزغل فإستسلم بشروط مناسبة من الامتيازات معاش مناسب ونصف دخل الملاحات واحتفاظه باملاكة بشرط موافقة البابا على هذه العهود ؛ ودخل الاسبان وادى اش فى ٣٠ ديسمبر ١٤٨٩م ، الا ان كرامة الزغل منعته من الاستمرار فى هذه الاتفاقية ، فنزل عن حقوقه لقاء مبلغ ضخم ورحل الى المغرب ومعه كثير من الكبراء ووصل وهران واستقر فى تلمسان.

---

[١٢٤]) المرجع السابق صـ ٢١٢

وبذلك جاء الدور على الجزء الخاضع للسلطان ابو عبد الله وهو جزء صغير متبقى من غرناطة لم تلتهمه قشتالة بعد ، فتقدم الاسبان للاستيلاء على ثغور المنكب والمرية المنفذ البحرى المتبقى مع المسلمين الذى يعتمدون عليهما للحصول على المؤن ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما لاحكام الطوق على الاندلس فإستسلمت الاولى فى ديسمبر ١٤٨٩م/٨٩٥هـ واستسلمت الاخيرة فى فبراير من العام التالى .

الفصل الثالث

نهايـــــــــــــة الاندلـس

ســـــــــــــــقوط غرنــاطـة

وزوال حــــــــــــكم الاســلام

سقوط الحمراء

واستسلا م ابو عبد الله

طلب فرديناند من ابو عبد الله تسليم حصن الحمراء لكنه ماطل وارسل الرسل اليه يثنيه عن هذا المطلب ، ولما فشلت جهوده قامت الحرب وتقدم فرديناند حتى حاصر غرناطة فى ١٤٩٠م لكنه انسحب بعد معارك دموية ؛ خرج بعدها السلطان ابو عبد الله ليسترد بعض الحصون فإستولى على اندرش ٨٩٥هـ (استردها الاسبان بعد اسابيع) وعلى همدان فى رمضان ٨٩٥هـ / اغسطس ١٤٩٠ م وغنم منها ذخيرة واطعمة كثيرة واسر مئتين من جنودها ، ثم توجه الى ثغر المنكب فى اخر رمضان لاعادة الصلة مع المغرب فتحرك الاسبان لانجادها .

شجع هذا الخروج الجهادى اهل البشرات ووادى اش للانتفاضة ضد الاسبان ، وبعث الثوار الى السلطان طلبا للعون والنجدة ، وخرج اهل وادى اش الى الروابى خوفا من القتال فنقلهم ابو عبد الله الى غرناطة و لحق بهم اهل المرية وبسطة؛ هنا قرر فرديناند ان الوقت قد حان للاجهاز على غرناطة فقد اصبحت منهكة وضعيفة بما يكفى لاسقاطها ، فهى فى رمقها الاخير ولا حليف ينجدها ؛ فالمغرب حليفها التاريخى الوحيد بات فى حالة من الضعف غير قادر معها على التحرك او حتى تقديم النجدة ؛ لخشيته من بأس اسبانيا البحرى فى وقت إنشغل فيه بمواجهة البرتغال التى احتلت معظم ثغوره بما فيها سبتة وطنجة.

أعد فرديناند خمسون الفا من الرجال مزودين بالمدافع ، وخرج اوائل عام ١٤٩١م واتلف ما حول غرناطة من مزارع وهدم قراها وقتل واسر اهلها استعدادا لحصار غرناطة حصارا طويلا ؛ فأقام مدينة امامها لايواء جنده فى الشتاء ؛ وشدد فرديناند حصاره برا على غرناطة وطوق جبال سييرا نيفادا لمنع وصول المؤن عن طريق البشرات ؛ واطلق سفنه لمراقبة التحركات البحرية لضمان عدم تسرب المؤن من الشمال الافريقى ؛ ومع اشتداد الجوع والمرض بأهل غرناطة نتيجة للحصار الممتد ، كانت فرسانها تخرج من حين لاخر للاغارة على جيش قشتالة لرفع الروح المعنوية وكان موسى بن ابى الغسان يقود المسلمين فى هذه الاغارات ، وهذا القائد الشجاع تزعم المحرضين على القتال وعدم استسلام المدينة حتى الشهادة ؛ وحث السلطان على رفض مطلب فرديناند تسليم الحمراء ، وكان ناقما على السلطان لانهزاميته والقى فى ذلك خطبة عصماء تنبأ فيها بالمصير فقال " اتعتقدون ان القشتاليين يحفظون عهودهم ، وان يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ! لشد ما تخطئون انهم جميعا ظمئون الى دمنا والموت خير ما تلقون منهم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة لتجعل منكم حطاما هشيما " .

وبعد ثمانية اشهر من الحصار دب اليأس بين العامة فخرجت الجماهير الصاخبة تنذر بالفوضى ، ورغم رفض العامة ومعهم موسى بن ابى الغسان الاستسلام الا ان السلطان ازاء الوضع المتردى مال ومعه زعماء اخرون الى الاستسلام فأرسل يتفاوض سرا مقابل شروط سخية لاشخاصهم لا نصيب للشعب فيها .

وثيـــــــقة إنجـــــــــــــــــليزية

تكشف معاناة غرناطة قبل سقوطها

كشف الدكتور خوسيه غوميث سولينيو في المؤتمر الثامن عشر للغة والادب والمجتمع الأسباني في مدينة مالقة بجنوب إسبانيا عن وثيقة إنجليزية تؤكد ان الحصار الذي عانت منه مدينة غرناطة «كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن ان «اهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال اعوام الحصار عندما قامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة مما تسبب في مجاعة رهيبة بين السكان ، ولهذا السبب اضطر الاهالي إلى أكل الكلاب والقطط ، وان العرب دفعوا ثمنا باهظا للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوروبا ؛ ويذكر المؤلف ان عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد القوات الغرناطية.

وتستعرض الوثيقة أيضا للكنوز الهائلة التي حصل عليها الأسبان بعد الفتح «ففي مسجد غرناطة كان هناك ٣٠٠ مصباح من الذهب والفضة.. وعثر ملك إسبانيا على كميات هائلة من الذهب وبها بنى الكنيسة مكان المسجد» ، ويذكر المؤلف الإنجليزي ان «الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين الا بما يستطيع كل واحد منهم ان يحمله على ظهره من حاجات، ما عدا الذهب والفضة

والسلاح»، ولهذا فان الجيش الأسباني وجد عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق؛ ويقول د. غوميث سولينيو ان انهيار الحكم العربي في هذه المدينة كان له صدى كبير وواسع جدا ليس فقط في إسبانيا وانما في كل أوروبا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق.

مفاوضات الاستسلام

تولى القائد ابو القاسم عبد الملك والوزير يوسف ابو كماشة التفاوض منذ بداية سبتمبر الى ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م ، وتم التوقيع علي اتفاقا يضم ٥٦ مادة تنص على " تسليم المدينة خلال ستين يوما على ان يرتهن السلطان قبل تسليم الحمراء بيوم خمسمائة رهينة من بينهم ابن السلطان واخوة وابناء الزعماء لدى قشتالة لمدة عشرة ايام لإصلاح قصر الحمراء ، ويتعهد فرديناند ومن يخلفه الى الابد بترك الشعب (الاندلسى) بالاحتكام الى شريعتهم وان تترك لهم مساجدهم ، ويُترك للمسلمين سلاحهم الا المدافع كبيرها وصغيرها ، ويحق لمن يشاء مغادرة البلاد الى المغرب ان يبيعوا اموالهم المنقولة لمن شاءوا ويحق للملكين (فرديناند وايزابيلا) شراؤها ، كما يتعهد فرديناند بتوفير السفن لنقلهم الى المغرب خلال عشرة ايام ولمدة الثلاث اعوام اللاحقة بدون اجر ، والا يُرغم مسلم على اعتناق النصرانية ولا تُجبر مسيحية اسلمت على الارتداد الا بعد سؤالها ؛ وضمنت الاتفاقية حقوقا لليهود منها حقهم فى المغادرة الى المغرب أوغيرها ؛ وضمان امن السفن المغربية القادمة لتقل المهاجرين بين البلدين(١٢٥) ، وتم فى الوقت نفسه توقيع خطاب الامتيازات الخاصة باقطاع السلطان بعض الاراضى والحصون واحتفاظه واولاد واهله بممتلكاتهم ، واعفائهم من الضرائب ، ومنحه هبة بعد تسليم الحمراء مقدارها ثلاثون الف جنيه قشتالى من الذهب وتوفير السفن لنقله واهله واتباعه واموالهم نتيجة بيع اراضيهم الى المغرب ان شاء .

وتم تسليم الحمراء فى ٢ يناير ١٤٩٢م ؛ بعد تسع وثلاثون يوما من توقيع الاتفاق وقبل موعد الستون يوما المنصوص عليه لتسليمها ؛ خوفا من عواقب الامور بعد غضب العامة لما علموا بالنصوص السرية للسلطان وخاصته ، وتفشت حالة من الصدمة والحزن بعد معرفة نصوص الاتفاق وتعالت الاصوات الغاضبة على السلطان واسرته واصحابه ؛ منادين بالمقاومة حتى النفس الاخير ؛ وترك ابو عبد الله غرناطة وهو فى الثلاثين من العمر حزينا باكيا ، فأثار سُخط والدته عائشة فأنشدت البيت الشهير :

أجل فلتبك كالنســــــاء مُلكا لم ... تستطع ان تدافـع عنه كالرجـــــــــال

وانطلقت المراثى لسقـــــوط الاندلـس ؛ منها مرثية اندلسية مجهولة المصدر :

احقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وفى مقطع اخر يقول :

فوا حسرتا كم من مساجد حُولت ... وكانت الى البيت الحرام شطورهـا
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... واياتها تشكو الفراق وســـــورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... اذا اسفرت يسبى العقول سفـورهـا
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستـــورهـا

الى ان يقول عن التخلى عن الدين ...

وكم من صغير بدل الدهر دينه ... .الى ....
وجاءت الى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج هبت دبـــــــورها

وللايجاز نستأثر بمرثية امير الشعراء احمد شوقى التى جاء فيها :

حسبهم هذا الطلول عظات ... من جديد على الدهـــور ودرس
واذا فاتك التفات الى المــــــــــــاضى فقد غاب عنك وجه التـــأسى

---

[125]) النصوص كاملة ص ٢٣٦ من كتاب نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين .

استقر ابو عبد الله واسرته وخاصته من سادة الاندلس في بلدة اندرش فى منطقة البشرات التى وهبها له فرديناند ، يقضى وقته فى الصيد ؛ ولم تغمض عينا فرديناند وايزابيلا عنه وعصبته خاصة وان الامر لم يستقر لهما بعد مع المورسكيين بسبب تذمرهم من اوضاعهم الصعبة التى يعايشونها بعد سقوط دولتهم .

وكان فرديناند وايزابيلا يفهمان جيدا قدرة هذا الشعب على تجاوز المحن والشدائد ونهوضه من بين نكباته التى خبراها فى نضال قشتالة معهم ؛ فوضعا ابو عبد الله تحت رقابة مشددة لضمان عدم تجمع الاندلسيون حوله لاثارة القلاقل ، وسعيا الى ارغامه على الرحيل الى المغرب وجرت مفاوضات من وراء ظهره فى هذا الخصوص مع وزيره فى مارس ١٤٩٣م بعد عام من مغادرته الحمراء وكاد ابو عبد الله يفتك بالوزير لما علم بألامر .

ويقضى الاتفاق بتنازل السلطان المخلوع عن كافة املاكه مقابل عشرون الف جنيه قشتالى من الذهب وتنازله عن اختصاصه المدنى والجنائى ، وقيام ملك قشتالة بشراء املاك الاميرات و مرافقيه على ان يغادروا جميعا الى المغرب فى موعد اقصاه اكتوبر ١٤٩٣م.

ورحل ابو عبد الله ومعه الف ومائة وثلاثون شخصا من كبراء الدولة الى المغرب حيث استقر نادما ينفى عن نفسه تهمة الخيانة والتفريط فى الاندلس قائلا شعرا :

ولا تُعاتب على اشياء قد قُدرت — وخُط مستورها فى اللوح بالقلم
وعد عما مضى اذ لا ارتجاع له — وعد احرارنا فى جملة الخـــدم

الفصل الرابع
ما بعد السقوط
المأساة الاسلامية

(الهوان المورسكى)
المأساة والنضال
(٨٩٧ -١٠١٨هـ /// ١٤٩٢-١٦٠٩م)
(التنصيرالاجبارى ــ محاكم التفتيش ـــ الخروج)

معاملة الاسبان للمدجنين

(المورسكيين "الموروس" maures)

أثناء حرب الاسترداد ؛ وفى وقت ما زالت غرناطة قادرة على النضال ويُعمل لها حساب ، ولم يكن فى الافق ما يشير الى قُرب زوال دولة الاسلام فى الاندلس ؛ عامل الاسبان المسلمين (المدجنين) الذين اضطرتهم ظروف الحياة للبقاء تحت حُكمهم بلا تطرف فى معظم الاحوال ؛ ولم يبال ملوكهم منذ عام١٢٤٨م بإلحاح البابا انوسان الرابع بإسترقاق او تنصير المدجنين ، ولم يكن ذلك مرجعه الرحمة الاصيلة وانما المصلحة ، فكانوا يقصدون من حُسن المعاملة تشجيع بقية المدن المسلمة على الاستسلام سلما تجنبا لعناء الحرب واعبائها .

فالضغط على هؤلاء المدجنين وما زال فى ايديهم سلاحا لم يُنتزع ؛ عملا خطيرا يؤدى الى القلاقل والثورة ، كما ان ترحيلهم وهم ائمة المهن وعصب الحياة الاقتصادية سيقوض إقتصاد البلاد وهى ما زالت فى حاجة ماسة لخبراتهم فى جميع المجالات ، فقد كانوا يستأثرون بالتفوق فى العلوم والمهن والفنون والزراعة والطب والهندسة والبناء والصناعات الدقيقة ، وعليهم صيانة مشاريع الرى التى سبق ان اقاموها والاستفادة بخبرتهم فى زراعة المحاصيل التى سبق ان استحدثوها علاوة على ان نشاطهم الاقتصادى مصدر هام للضرائب .

وإتبع خايمى الفاتح ملك اراجون نفس المنهج المعتدل فى البداية فمنح مسلمى وادى اوشوا امتيازات كثيرة نص عليها اتفاق الامان " بأن يقيلهم من الجرائم التى أُرتُكبت في الوادى ومن الديون التى عليهم لليهود وان يستمروا فى تطبيق شريعتهم وان يُعلموا اولادهم القرآن جهرا والقيام بسائر شريعتهم ويعفون من الضرائب فى السنة الاولى ويدفعون ما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين " الى اخرة من قرارات سمحة مقابل تعهدهم بعدم الاقتراب من مناطق الحروب والا يساعدوا اعداء اراجون " .

بيد انه كانت هناك طوائف من المدجنين اقل حظا فى المناطق الاخرى؛ ففى بعض الحالات كان هناك حظرا على ممارسة العبادات فى العلن ، و فى حالات اخرى حصلوا على حرية التعبد وضمان الاملاك لكن فُرضت عليهم قيود ؛ فحُرم عليهم الاكل والاستحمام مع الاسبان او علاج النصارى او إتخاذهم رقيقا او خدما ، والا يتخذوا مسائل الدين المسيحى موضعا للمناقشة(١٢٦) ، وهناك حالات من التطرف فى سلوك الاسبان كانت انتقامية فى حال تكبُدهم كثير من القتلى فى المعارك ، فكانوا يصبوا جام غضبهم على الاسرى واهل المنطقة.

وفى اواخر القرن الخامس عشر لما لاحت نهاية غرناطة ، تغيرت معاملة الاسبان للمدجنين الى الاسوء إستجابة لضغوط الكنيسة ، وتزايدت سوءا بزوال حكم الاسلام نهائيا ولم تعد هناك قوى يُحسب لها حساب ، فتأكلت العهود فتعرض المسلمون للمحن بدأ من منعهم من مزاولة مناسكهم مرورا بإرغامهم على التنصر وانتهاءا بفظائع المحن على ايدى محاكم التفتيش وبالترحيل ، وهى محن ليس لها مثيل فى التاريخ يسجلها د. جوستاف لوبون فيقول " رغم ما عاهد عليه فرديناند العرب بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ؛ على حرية العقيدة واللغة فقد حل الاضطهاد والتعذيب مع حلول عام ١٤٩٩م ، ودام ذلك قرونا ابتداء بالتنصير ثم الاحالة الى محاكم التفتيش الرهيبة التى احرقت المسلمين بما فيهم كثير من المتعمدين والمتنصرين .

التنصير الاجبارى وديوان التحقيق

---

[١٢٦] (٦٦-٦٧ dr. leap . ، وعن ١٣-١٤.p ١٨٥٧ condicion social de los moriscos de espana (madrid .. نقلا عن نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين صـ٥٥ .

" محاكم التفتيش La Inquisision "

بعد سقوط غرناطة اقبل بعض المسلمون الاندلسيون من ذوى الاصول الاسبانية على اعتناق المسيحية طمعا فى عطف الاسبان وضمان عدم المساس باملاكهم وضياعهم ، ومن هؤلاء سعد ونصر ولدا السلطان ابى الحسن من زوجته الاسبانية ومُنحا لذلك ضياعا فى ارجبة وتسمى احدهما الدوق فرناندو والاخر دون خوان دى جرانادا اى صاحب غرناطة وخدم قائدا فى جيش قشتالة ، وتنصر سيدى يحي النيار قائد المرية (ابن عم الزغل وسليل الاحمر) وتسمى الدون بيدروا دى جرانادا وزوجه مريم بنت بنغيش وابنه ، وتنصر الوزير ابو القاسم بنيغيش ومعظم افراد اسرته وعادوا لاسم الاسرة القديم Los Venegas ، وتنصر الوزير يوسف بن كماشة الذى اصبح راهبا ؛ كما تنصر اغلب سكان غرناطة من بادية وحاضرة فرارا من تعسف وتنكيل السلطات الاسبانية ان لم يكن طمعا فى الاغراءات المقدمة ، كما عم التنصير بقية الانحاء بالترغيب والترهيب تحت ضغط الاسبان.

حتى ذلك الحين لم يكن التنصير قد فُرض كسياسة اجبارية بسبب مقاومة فرديناند لضغوط الكنيسة فى هذا الشأن ، لكنه استسلم فى عام ١٤٩٩م وبدأ بإستخدام الترغيب كما حدث فى البشرات ووادى الكرين ولانخرون عندما اعفى اهل هذه الانحاء الذين تنصروا او يتنصرون بمرسوم فى يوليو عام ١٥٠٠ م من جميع الالتزامات والضرائب المفروضة على المورسكيين بالنسبة لاملاكهم الثابتة والمنقولة واعفاهم من الغرامات التى فرضت لمشاركتهم فى الثورة وقدرها خمسون الف دوقية وغيرها من منح واعفاءات .

و فى سبتمبر من نفس العام حصل سكان مدينة بسطة المتنصرين على مثل ذلك من مزايا ، وايضا سكان حى Morria فى غرناطة المخصص لسكنى المسلمين (جيتو) ؛ وكان فرديناند قد اصدر مرسوما بالزام المسلمين بسكنى احياء خاصة كاليهود وكانت هذه الاحياء تسمى Morria اى المور اوالمورسكيون ، وكانت تفصلها عن احياء المسيحيين اسوار عالية ؛ ثم تحول موقفه من التنصير بالترغيب الى التنصير الاجبارى فأصدر مرسوما فى ٢٠ يوليو عام ١٥٠١م بتطبيق التنصير العام الاجبارى على امة بأسرها من الاندلسيين المسلمين ووضعهم تحت إشراف ديوان التحقيق" La Inquisision " المعروف بمحاكم التفتيش ليتم التحقق والوثوق من صحة اعتناقهم المسيحية .

وديوان التفتيش مؤسسة قديمة شكلتها الكنيسة مع بداية القرن الثالث عشر ؛ من الاساقفة الدمينيكان والفرنسيسكان لتعقب المارقيين على الدين فى المانيا وايطاليا وفرنسا ، واخذت بتطبيقه مملكة اراجون فى اوائل القرن ١٣م فى ملاحقة الملاحدة الالبيين ، وتوسعت مهمة المحاكم لتشمل تعقب السحرة والمهرطقين واحراق كتبهم ومعها كتب الدين الاسلامى والعلوم التى اعتبرتها من كتب الهرطقة ؛ واستخدمت الدواوين اساليب رهيبة فى تعذيب المتهمين وقضت بإحراق واعدام المارقين ومصادرة املاكهم ، ومن بين التنكيل الذى فرضته هذه المحاكم انها كانت تغطى مصاريف سجن المتهم من املاكه حتى تُبدد امواله ولا ينتفع بها ذويه (١٢٧) ؛ وفى قشتالة طبق هنرى الرابع لاول مرة محاكم التفتيش عام ١٤٦٥ م على المتنصرين اليهود ، و لم يلتزم بها فرديناند حتى سبتمبر ١٤٨٠م لمكانة اليهود المالية الكبيرة عندما اعادها من جديد ضد اليهود ومن بعدهم المسلمين بضغوط البابا الشديدة .

وينتقد دون لورينتى الحبر المؤرخ ؛ اهوال محاكم التفتيش واساليبها القاسية ضد المسلمين ويصفها " بألقسوة الشائنة التى جعلت المسلمون ينفرون من اعتناق المسيحية بينما كان ممكنا بيسر تحقيق التنصير باساليب انسانية ؛ ادى تجاهلها الى إزدياد مقت المسلمون لدين حملتهم القوة على اعتناقة ، وهو ما كان سببا لقلاقل واضطرابات ادت عام ١٦٠٩م الى نفى هذا الشعب البالغ المليون ، ويقدر عدد من انتزعهم ديوان التحقيق فى مائة وتسع وثلاثين عاما بثلاثة ملايين ما بين يهود ومسلميين مورسكيين " ، بينما يصف الكاردينال والحبر الفرنسى ريشليو المأساة " بأنها اشد ما سجلت صحف الانسانية جرأة ووحشية " .

ومن أنواع التعذيب إملاء البطن بالماء حتى الإختناق وإستخدام الأسياخ المحمية وتمزيق الأرجل و فسخ الفك وكانت أغلب الأحكام بالإحراق.

وبعد إحتلال نابليون لأسبانيا ألغى محاكم التفتيش ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب هذه المحاكم إستمروا فى القتل والتعذيب سرا ؛ فأرسل الماريشال سولت الحاكم العسكرى لمدريد الكولونيل (ليمونكى) ومعه ألف جندى وأربعمائة مدفع وهاجم دير الديوان وبعد تفتيش الدير بدقة عثر على سلم يؤدى إلى باطن الأرض ، ويصف الكولونيل فى مذكراته الوضع فى الاتى :

---

[١٢٧]) المرجع السابق صـ ٣٣٩.

" فإذا نحن فى غرفة كبيرة مربعة وهى عندهم قاعة المحكمة ؛ فى وسطها عمود من رخام به حلقة حديدية ضخمة رُبطت بسلاسل كانت تُربط الفرائس بها وهم رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) وهو عبارة عن دكة يجلس عليها رئيس المحكمة وإلى جواره مقاعد أخرى أقل إرتفاعا لبقية القضاة ؛ وتوجد ألات لتعذيب وتمزيق الأجساد البشرية ، وتمتد تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض ، وما رأيته فيها إستفز نفسى ويدعوا إلى التقزز ما حييت ؛ رأينا غرفا صغيرة فى حجم الإنسان بعضها عمودى وبعضها رأسى فيبقى سجين العمودية واقفا فيها على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ويبقى سجين الأفقية ممددا بها حتى الموت وتبقى الجثة بالسجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم ، ولتصريف الروائح الكريهة المنبثقة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا زالت فى أغلالها سجينة والسجناء كانوا رجال ونساء وأطفالا وشيوخا ما بين الرابعة عشر إلى السبعين وزيادة فى النكاية بالسجناء كانوا يستبقوهم عراة ، ورأينا ما تقشعر لهوله الأبدان فى الغرف الأخرى من ألات لتكسير العظام وسحق الجسم ومما عثرنا عليه صندوق فى حجم الرأس تماما يوضع فيه رأس المعذب بعد أن تُربط يديه وقدميه بالسلاسل حتى لا يقوى على الحركة ويقطرون على رأسه الماء البارد من أعلى الصندوق نقطة نقطة ، وقد ادى هذا اللون من التعذيب الى جنون الكثير وعثرنا على ألة تسمى السيدة الجميلة وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه و خناجره فإذا أغلق الباب مزق الشاب إربا كما عثرنا على ألة لسل اللسان ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين العراة حتى يتناثر اللحم من العظم".

الثورة ضد التنصير العام

اثار التنصير الاجبارى وقسوة ديوان التحقيق تذمر المسلمين ، فتفجرت ثوراتهم من حين لاخر ، وتحول الامر فى بعض الحالات الغاضبة الى القتال ؛ ففى مارس عام ١٥٠١م احتشدت بعض البطون الورسكية فى منطقة رندة بالجبال الحمراء واستطاعت اقتحام الجبل والفتك بعمال الحكومة ؛ فسير فرديناند حملة قوية انهزمت هزيمة شديدة وقُتل قائدها دوق قرطبة ، فهرع فرديناند الى غرناطة للثأر لكنه جنح للهدوء وعفى عن الثوار بشرط اعتناقهم النصرانية فى ظرف ثلاثة اشهر او مغادرة اسبانيا ومصادرة املاكهم ، فهاجرت على الامان جموع كثيرة الى المغرب قدمت اسبانيا لهم السفن وهى مغتبطة بالتخلص منهم بإعتبارهم اشد العناصر الاندلسية جنوحا للثورة .

ولاضعاف المورسكيين اتخذ الاسبان عدة اجراءات فى فبراير عام ١٥١٥م لحرمانهم من قوتهم الاقتصادية ، واضعاف قدرتهم على الحشد والتجمع لوأد اى تمرد مسبق ، ومنعهم من تهريب ثرواتهم الى المغرب اذا ما فكروا فى الهرب ؛ فحرموا على المتنصرين والمدجنين المقيمين فى قشتالة التوجه الى غرناطة خشية الاحتشاد فيها تحسبا من الثورة ، وحظروا عليهم بيع املاكهم بدون ترخيص ومن يفعل ذلك يُعاقب بالموت ومصادرة املاكه حتى يضمنوا عدم هروبهم الى المغرب بثرواتهم والعودة الى الاسلام حسبما ذكره المرسوم فقد كان الاسلام شاغلهم (١٢٨) ، علاوة على اجراءات اخرى لاحقة كنزع السلاح وحرمان المتنصرين من الهجرة الى المغرب منعا لارتدادهم الى الاسلام ، وتشدد الاسبان فى معاقبة المورسكيين بعقوبة الاعدام ومصادرة الاملاك والاسترقاق .

وفى عام ١٥٢٤م اصدر الامبراطور شارلكان خليفة فرديناند وحفيده (فترة حكمه امتدت من ١٥١٦ الى ١٥٥٥م) ، مرسوما يجدد فيه ضرورة تنصير كل من بقى على الاسلام واخراج من يأبى من اسبانيا ومُعاقبة كل من لم ينفذ ذلك خلال المدة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، ونص المرسوم على تحويل ما تبقى من المساجد الى كنائس فى الحال ، وفى عام ١٥٢٦م تظلم المورسكيون من قرار الترحيل فأحال الامبراطور امرهم للتحقيق ، وبعد تدخل كبار المورسكيين من اصول اسبانية اصدر الامبراطور مرسوما يلغى الترحيل ، مفاده أنه " طالما ان تنصير المورسكيين كان صحيحا بمسارعتهم بقبوله بمحض ارادتهم اتقاء لما هو اشر منه ، وبإعتبارهم نصارى يمنعون من مغادرة اسبانيا ، وان يُنصر كل اولادهم فإذا ارتدوا قُضى عليهم بالموت والمصادرة .

---

[١٢٨]) المرجع السابق ٣١٠

في نفس الوقت حاول نبلاء اراجون مع الامبراطور لاستثناء الجالية المسلمة من التنصير على اساس انه لم تبدر منهم خطيئة سياسية او دينية وان إخراجهم ومعظمهم من العاملين في ارضه خسارة اقتصادية فادحة له ولهم وخرابا لضياعهم ومزارعهم ، فالجالية المسلمه تشكل قوة العمل في المنطقة فهم المزارعون والصناع المهرة ، ولكن الامبراطور اصر على قراره وكلف محاكم التفتيش بالمهمة وتم تنصيرهم عام١٥٢٦م .

ثارت ثائرة الموريسكيين المسلمين في بلنسية وسرقسطة ومعظم الانحاء مع استمرار تنكيل الاسبان بهم وبسبب القرارات الظالمة ، لكن الاسبان تمكنوا من قمعها تباعا الا بلنسية ذات الكتلة المسلمة الكبيرة (تضم سبعة وعشرين الف اسرة) ، فقد تمكنت من الصمود وساعدها على ذلك سهولة تلقيها العون من المغرب لوقوعها على البحر .

ولما اشتدت الثورة جردت الحكومة قوة كبيرة مزودة بالمدافع وارغمت المدينة على الاستسلام على ان يمنحها الامبراطور الامان مقابل التنصر ، وعُدلت عقوبة الاسترقاق بالنسبة للثوار الى الغرامة ، ولما تكرر تذمر اهل بلنسية قرر الامبراطور طرد المسلمين منها وحظر على النبلاء إستبقائهم في ضياعهم ، فعاد المسلمون الى الثورة لكنها ما لبثت ان أُخمدت ؛ وإنصاع اهل المدينة امام عدم الحيلة في النهاية ، وطلبوا مقابل الدخول في النصرانية الا تمتد اليهم يد ديوان التحقيق لمدة اربعين سنة ، وان يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية وبعض حقوق الميراث والزواج ويسمح لهم بحمل السلاح وتخفيف الضرائب ، وأُستخدام اوقافهم على الانفاق على الفقهاء وما تبقى من ريعها بعد ذلك يُرصد لبناء الكنائس ؛ وقد رُفضت مطالبهم الا فيم يتعلق بمهلة استخدام الملابس واللغة فسمح لهم الامبراطور بعشرة اعوام فقط ومنحهم بعض الامتيازات بالنسبة للضرائب والزواج ، فاقبلت اغلبية اهالي بلنسية على التنصر الا اقلية فضلت المقاومة فمزقتها جند الامبراطور بعد قليل .

تقدم مسلمو غرناطة الى الامبراطور اثناء زيارته للمدينة عام ١٥٢٦م بطلب تخفيف قيود محاكم التفتيش ومطاردتها لهم ، فاحال مطالبهم الى التحقيق الذى اوصى بتخلي الموريسكيين عن لغتهم وثيابهم القومية واسماؤهم العربية والا يتسمون بها بعد ذلك ، والا يستخدمون الحمامات وان تُفتح منازلهم ايام الجمع والسبت للتأكد من انهم لا يمارسون الاسلام سرا ، وأُرجئ تنفيذ هذه القرارات عدة مرات ، وتمكنوا بعد دفع مبلغ طائل الى الامبراطور من قبول حقهم في ارتداء ملابسهم القومية والاعفاء من مطاردة محاكم التفتيش اذا أُتهموا بالردة فأصدر عفوا عن مخالفاتهم السابقة .

ولما لم تتحقق وعود الامبراطور بالمساواة بين المسلمين وبين رعاياه ؛ وشعورهم بالاستعباد وإثقالهم بالضرائب فباتوا يفرون الى المغرب عبر بلنسية ، ولما ادرك ذلك الامبراطور حظر عليهم الامبراطور عام ١٥٤١م النزوح الى بلنسية او ايا من الثغور أو تغيير مساكنهم الا بموافقة ملكية نظير رسم فادح لعرقلة هجرتهم الى المغرب ، ونتيجة هذا الحظر غير الموريسكيون مسير الهجرة للتمويه على السلطات فاصبحت تمر عبر الثغور الايطالية حتى لا تلتفت اليهم عيون محاكم التفتيش التي ركزت مراقبتها على منع الهجرة الى ارض الاسلام في المغرب ، ومن ضمن الاجراءات الاخرى الهادفة الى عدم تسرب الثروات من اسبانيا وحرمان الفارين من الهروب بأموالهم ، حظر الامبراطور شارلكان على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلي والاحجار الكريمة حتى لايستطيعون استبدال املاكهم بما خف حمله وغلى ثمنه ويفرون بثرواتهم الى المغرب ، ومنعهم من حمل السلاح حتى ما استصغر منه منعا للثورة وعقوبة المخالف الجلد ، وأُمر المسلمين بالسجود في الشوارع عند مرور كبير الاحبار وان يحمل المسلم شارة زرقاء في قبعته حتى يُمكن التعرف اليهم لمراقبة سلوكهم .

وفي بعض الاحيان اتخذ الامبراطور مواقف معتدلة ففي عام ١٥٤٣م اصدر عفوا عن اهل دلكامبو واريفالو عما ارتكبوه من كُفر ومروق والاكتفاء باعترافهم بذنوبهم امام الديوان ورد املاكهم التي صُودرت الي الاحياء منهم ، وسمح لهم بتزويج اولادهم الى النصارى الخلص والا تُصادر المهور التي دفعوها للخزينة بسبب ذنوبهم بل ترد الى نسلهم من هذا الزواج وتؤل الاملاك الى الزوجات النصرانيات الخلص سواء برسم الزواج او الميراث .

تحريم حمل السلاح

حرم فرديناند على الموريسكيين حمل السلاح وجرد اهل بلنسية بعد ثورتهم منه بالجملة ؛ ورخص فقط بحمل الاسلحة المنزلية الصغيرة ، ولكن السلطات تشددت في منح التراخيص ، وفي عام ١٥٤٥م صدر تحريم انواع السلاح كافة ، نُفذ بشئ من اللين .

وفي عهد فيليب الثاني (١٥٥٥-١٥٩٨م) اتُخذت تدابير اشد فحُرم علي المسلمين عام ١٥٦٣م حمل السلاح الشخصي

الذى كانوا يستخدمونه للدفاع عن تجارتهم فى الاماكن النائية واشترط لذلك موافقة الحاكم العام ، الذى اثار بتشدده فى منح التراخيص غضب الموريسكيين المقيمين فى النواحى النائية الذين لا يمكنهم التخلى عن السلاح الشخصى فى الدفاع عن سلامتهم .

وفى الاحتفال بالعيد القومى لسقوط غرناطة فى يناير عام ١٥٦٧م ؛ جدد فيليب قانون تحريم استخدام اللغة والثياب العربية السابق صدوره عام ١٥٢٦م فى عهد والده ، وحدد ثلاث سنوات ينتهى بعدها استخدام اللغة واوقف صناعة الملابس العربية ، وسمح باستخدام الموجود منها عامين بالنسبة للملابس الصوفية وعام للحريرية ، وحرم عليهم الاستحمام بالحمامات واكد على وجوب هدم الحمامات العامة والخاصة (١٢٩)، وطلب من المسلمين فتح منازلهم ايام الجمع والاعياد ليستطيع القسس ورجال السلطة مراقبة ما يقع بداخلها وغيرها من قرارات تتعلق بالكف عن العادات الاسلامية وغيرها لمضايقة الموريسكيين .

الثورة الموريسكية الكُبرى وإعلان الاستقلال

اثار هذا القانون غضب الموريسكيين فهبوا لتعديله لكن الامبراطور اصر على التنفيذ مستثنيا بلنسية لوجود كتله اسلامية كبيرة بها تغلب عليها روح التمرد فوافق بعد وساطة على معاملة اهلها برفق فى شئون الردة فلا تُنزع املاكهم على ان يدفعوا اتاوة سنوية قدرها الفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق ؛ وعزم اهل غرناطة على الثورة بزعامة فرج بن فرج وهو صباغ ينتسب لبنى سراج من اشراف غرناطة ومن فرسانها ايام الدولة الاسلامية ، فخطط مع اهل البشرات على مهاجمة غرناطة يوم احتفال الاسبان بالخميس المقدس من ابريل ١٥٦٨م ، لكن تسرب الاخبار ارجأ التنفيذ الى ديسمبر من نفس العام ، واستغل فرج الوقت فى بث روح الثورة فى انحاء الاندلس ؛ وجاءته الفرصة عندما هاجم بعض الموريسكيون مجموعة من القضاة والمأمورين الاسبان كانوا فى طريقهم الى غرناطة وجردوا القوة التى رافقتهم من كمية كبيرة من البنادق ، فسار بها فرج ومعه مائتى فرد الى غرناطة فأبى سكان البيازين مساعدتهم خوفا من رد فعل السلطة الاسبانية واكتفوا بتقديم مساعدات مادية ، فإرتد فرج بمجموعته وتحصن فى جبل سييرا نفادا ولحقت به الجموع وعمت الثورة الارجاء وهاجم الموريسكيون الاسبان .

اعلن الثوار الاستقلال وتوجوا فى ديسمبر ١٥٦٨م فتى فى العشرين من عمره من بنى اميه هو الدون فرناندو دى كردوبا ابن السلطان ابى الحسن من زوجته الاسبانية ، وسموه محمد بن امية وكان يعمل مستشارا فى بلدية غرناطة ، واتخذ عمه فرناندو الزغوير (الصغير) واسمه العربى ابن جوهر قائدا عاما للقوات ، وابن فرج كبيرا للوزراء ؛ وناشد الموريسكيين بخلع طاعة الاسبان والعودة الى الاسلام ؛ ووقعت نقمة الثوار اول ما وقعت على مضطهديهم خاصة عمال الحكومة وقسس محاكم التفتيش وتمادى ابن فرج فى الانتقام وجعلها مذبحة عامة وجل منها المسلمون والنصارى فعزله محمد بن امية ، فنزل راضيا الى صفوف المجاهدين .

مفاوضة الاسبان الثائرمحمد بن امية واغتياله

عمت الثورة معظم الاندلس ونجحت فى التغلب على معظم الحاميات الاسبانية الاخرى عدا مربلة و مالقة ورندة لوجود حاميات اسبانية قوية بها ، فتوجهت قوة اسبانية بقيادة منديخاور حاكم غرناطة فى٢ يناير١٥٦٩م الى آكام بوكيرا حصن الثوارالذين تصدوا لها رغم نقص الاسلحة والعتاد وبعد معركة عنيفة تقهقروا الى سهول بطرنة فنكل الاسبان بمن تخلف منهم لا سيما النساء والاطفال .

حاول منديخاور التفاهم مع الثوار على العفو مقابل السكينة ، ووسط فى الامر بنيغيش من كبار الموريسكيين وسليل الاسرة الغرناطية العريقة ، فكاتب بنيغيش ابن امية مؤنبا اياه لتعريض اهله وامته للهلاك ناصحا له بالتوبة والتماس العفو ، فمال ابن امية للتصالح وارسل اليه فى امر التسليم لكن المتطرفون من المتطوعين المغاربة رفضوا الاستسلام فإستمرت المعارك واصابوا الاسبان بهزيمة شديدة فى آكام جواخاريس وقتلوا منهم مائة وخمسين جنديا وضابط لكنهم اثروا الارتداد بعد قتال شديد .

فر ابن امية ولم يظفر الاسبان به انما اسروا امه وزوجه واخواته ، واسترق الاسبان من اختاروهم من الاسرى وقتلوا من تخلف بعد ان نكلوا بهم ، ومن بين الاسرى الزمار زعيم الثوار وابنته الصغيرة ، وكان مصيره فظيعا لاستبساله فى المعارك فأرسلوه الى غرناطة حيث عذبوه بوحشية وإنتزعوا لحمه من عظامه حيا ثم مزقوه اشلاءا .

[129])ينتقد المطران جريرو الموريسكيين (سنة ١٥٦٥م) بأنهم يستحمون فى ديسمبر ، - المرجع السابق صـ ٣٦٣ وهو مايدل على انهم اكثر نظافة من الاسبان .

أعاد الثوار احتشادهم من جديد فى شرق البشرات فى حشود عظيمة واخذوا يهددون المرية ، فسار المركيز لوس فيليس على رأس جيش كبير تمكن بعد معارك شديدة من هزيمتهم ونكل باسراه من المقاتلين واسرهم ، كما ذبح الاسبان مائة وخمسون من اعيان المورسكين فى غرناطة كانوا رهيئة فى سجنها عندما تردد ان الثوار قادمون لتحرير المدينة .

صدر قرار بتشتيت المورسكيين فى النواحى الشمالية لاضعافهم ووأد ميلهم للثورة ؛ فكانت مأساه جديدة فرقت الاسرة الواحدة وافقدتها املاكها بالاضطرار ببيعها بأبخث الاسعار للانتقال للاماكن الجديدة ، وأهاجت هذه الاجراءات المورسكيون فانقضوا على الحاميات الاسبانية فى البشرات ومزقوها واحتشدت جموعهم فى ثورة من جديد فى الهضاب والسهول ، وإنضم اليهم ابن امية لقيادة الثورة وقرر التوجه الى العالم الاسلامى طلبا للعون فبعث اخاه الى القسطنطينية فلم ياتيه ردا واعتذرت الجزائر مكتفية بالتشجيع ووعد سلطان مراكش بالغوث ، ولم يُغثهم سوى عدد من مجاهدى المغرب وفرقة من المرتزقة الترك .

سار المركيز لوس فيليس لمقاتلة الثوار لكنه فشل فى حسم المعارك ، فألقى بفشله على منديخاور حاكم غرناطة قائد قطاع من القوات متهما إياه بالتعاطف مع المورسكيين وعزله ؛ وفى تلك الاونة اغتال المرتزقة الترك ابن امية بخديعة حاكها ديجو بن الجوازيل (الوزير) انتقاما منه لاستيلائه على جاريته الحسناء ؛ فزور بالتعاون مع تلك الجارية خطابا ممهورا بإسم ابن امية الى ابن عبو قائد الجيوش يتوعد فيه الترك وقام بتسريبه اليهم فقاموا باقتحام المعسكر وإغتيال ابن امية .

مفاوضة الاسبان الثائرمحمد بن امية واغتياله

اختار الثوار ابن عم الملك القتيل ابن عبو (اسمه المورسكى ديجو لوبيز) الذى تسمى بمولاى عبد الله محمد ؛ واعلنوه ملكا على الاندلس وكان اكثر فطنة وروية وتدبرا فكون جيشا مدربا واكثر تنظيما من عشرة الاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر وجلب السلاح من المغرب ، وسار عام ١٥٦٩م الى ارجبة مفتاح غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير وذاعت شهرته فأعلن المورسكيون الطاعة له وكثرت غاراته على ضواحى غرناطة .

القتال والتفاوض

تفاقم الموقف بعد عجز الاسبان عن قمع الثورة ، فعين الملك فيليب الثانى اخوه الدون خوان قائدا عاما لغرناطة ، وبعثه فى ديسمبر على رأس جيش لانهاء الثورة ، فحاصر جليرا فى وادى آش وهى من امنع قواعد المورسكيين ، وكان يدافع عنها ثلاثة الاف مقاتل منهم فرقة تركية ، فسقطت فى فبراير عام ١٥٧٠م بعد معارك هائلة استبسلت فيها النساء وقُتل فيها عدد كبير من كبراء الاسبان ، فإنتقم الاسبان بقتل كل من فيها نساءا واطفالا .

فاجأ عدة الاف من الثوار بقيادة الحبقى الدون خوان فى شعب الجبال قُرب بسطة فى سيرون ومزقوا بعض سرايا الاسبان وقتلوا عددا كبيرا منها ، فاعاد خوان تنظيم قواته بصعوبة وسار حتى اندرش فى مايو ١٥٧٠م ولما استعصى عليه الامر ؛ ارسل فى ملاينة الحبقى ووعده بالعفو التام ان اعلن فى ظرف عشرون يوما الخضوع على ان يتقدم بظلاماتهم للنظر فيها ومن لم يعلن خضوعة سيُقتل عدا النساء والاطفال دون الرابعة عشر ، فرفض الثوار لعلمهم خيانة الاسبان للوعود فعاد خوان الى قتالهم .

ارسل فيليب قوة اخرى بقيادة دون سيزا قاتلت مولاى عبد الله فى شمال البشرات لم تتمكن من حسم الموقف ، وبعد فترة مال الجميع للمفاوضات بوساطة الدون فرناندو دى براداس ، وهو من اهل وادى آش وله صلات طيبة بزعماء المورسكيين ، فوافق الحبقى على الخضوع لفيليب مقابل العفو عن الثوار ، ولكن مولاى عبدالله وبقية الزعماء رفضوا الاتفاق لما تضمنه من نفيهم ، ولما رأوا اصرارا الحبقى على الترويج للاتفاق استدرجوه الى معسكرهم وقتلوه ، ولما ارسل خوان الى مولاى عبد الله للصلح رفض الاخير مُصرا على القتال حتى النهاية ولن يموت الا مسلما ، وبذلك تأججت الثورة حول رندة من جديد ، فسير الاسبان ثلاثة جيوش فى اتجاه البشرات والثانى الى وادى اش والثالث الى بسائط رندة ، واجتاحوا كل شئ فى طريقهم وامعنوا فى القتل وهدموا الضياع والقرى وخربوا الحقول ، فأخذت الثورة فى الانهيار امام هذا الجبروت ، وفر كثير من المورسكيين الى المغرب ، وبقى مولاى عبد الله وجيشه الصغير الذى امتنع عن الاسبان .

تشتيت المورسكيين فى الداخل

اصدر فيليب فى ٢٨ اكتوبر ١٥٧٠م امرا بتشتيت الموريسكيين من معاقلهم خصوصا اهل البيازين حتى ينضب معين الثوار من مدد الرجال ، ونكل بالمورسكين فصادر عقاراتهم ونهب جنوده اموالهم وفتكوا بالنساء والاطفال فهلك الكثير خلال عمليات الترحيل ، فهرب المورسكيون الى السهل وهاجموا وقتلوا الكثير من الجند المثقليين بالغنائم ؛ واستطاع الاسبان كشف مخبأ مولاى عبد الله بوشاية قائد مغربى مقابل وعد بالعفو عنه ورد زوجته وابنته الاسيرتان لديهم ان سلمهم عبد الله حيا او ميتا ، مستغلين حنق هذا المغربى على عبد الله لمنعه إياه من العودة للمغرب ، فقام ومعه شرذمة من الجند وقتلو الملك والقوا بجثته الى الاسبان الذين مثلوا بها ؛ وعلى اثر ذلك استسلم كثير من الثوار وانتهت ثورة المورسكيين الكُبرى.

استمر الاسبان فى مناقشة مشروع قرار فيليب الثانى تشتيت المورسكيين فى الفترة من عام ١٥٨٢م حتى وفاته عام ١٥٩٨م ، وتراوحت الاراء ما بين الاسترقاق وهو موقف الاحبار المتطرفين وعلى رأسهم المطران ربيرا وبين ارسال الالاف منهم كل عام للعمل فى السفن ومناجم الهند حتى يفنوا ، وذهب البعض الى قتلهم دفعة واحدة او قتل البالغين واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ورأى بعض الوزراء اغراقهم فى البحر.

ثوار المورسكيين يستنهضون روح الجهاد المغربى

قشتالة تعاقب بنفى المورسكيين (مأسى الرحيل)

فى اوائل عهد فيليب الثالث وضع الدوق دى ليرما عام ١٥٩٩م مشروعا متطرفا للتخلص من المشكلة المورسكية ، يقضى بإعدام الشبان والكهول ما بين الخامسة عشر والستين أو إسترقاقهم ونفى النساء فوق الستين الى المغرب وايداع الاطفال معاهد كنسية ، ونزع املاكهم واقر مجلس الدولة المشروع ، وحدث انذاك (عام ١٦٠٨م/١٠١٧هـ) ان لجأ الشيخ مأمون بعد هزيمته امام اخيه السلطان زيدان فى المغرب الى فيليب طلبا لعونه مُتعهدا منحه ثُغر العرائش نظير معاونته.

فارسل فيليب معه عدد من السفن استولت على الثغر ولكن مؤيديه انفضوا من حوله لخيانته ولم يساندوه فى معاركه فانهزم وقُتل بعد ذلك ؛ ولما علم المورسكيون بخيانة الشيخ ارسلوا الى السلطان زيدان يبدون استعدادهم لتزويده بمائتى الف مقاتل ان اقدم على احتلال احد ثغور اسبانيا ، ولكن السلطان رفض القتال خارج اراضيه واستمر فى معاركه مع الاسبان فى المغرب حتى وفاته عام ١٦٢٧م/١٠٣٧هـ .

وفى عام ١٦٤٤م ، ثار "طاهر الحر" وجماعة معه ، لم تعط الوثائق اسمه النصراني ، وهو من المرية وينسب نفسه إلى بيت بني الأحمر ، وكان يخطط لتحرير الاندلس وإستعادة الدولة الإسلامية بالتعاون مع مورسيكي الرباط حيث كان مقررا أن يبحروا من المغرب الى إشبيلية ويدخلوها من مصب الوادي الكبير بالسفن ويحتلوها بمساعدة ملك البرتغال الذى يسعى للانفصال عن إسبانيا التى سبق ان ضمنتها بعد هزيمة بلاده في معركة وادى المخازن ، ويمهد لهم الامر فى الداخل دوق مدينة سيدونيا حاكم منطقة الأندلس ، ولكن لم نجد مصدرا متاح يشير الى ذلك (١٣٠).

ولما علم الاسبان بتحريض المورسكيين سلطان المغرب واستعدادهم للعودة الى الثورة ، إجتمع مجلس الدولة فى اوائل عام ١٦٠٨م للنظر فى مصير المورسكيين من جديد ، واقترح المطران ربيرا النفى كأرفق حل وايده معظم الاعضاء للتخلص من المورسكيين الذين يهدد تناسلهم السريع بمعدلات تزيد عن معدل توالد النصارى التركيبة السكانية للبلاد ويهدد امنها ، وأمهل المجلس المورسكيين شهرا لبيع املاكهم وتدبير امورهم للرحيل ، ومن تخلف عُوقب بالموت ومصادرة امواله .

وصدر مرسوم بالنفى النهائى فى ٢٢سبتمبر١٦٠٩م وإحتشدت عشرات السفن فى مياه ميورقة تم جمعها من نابلى وصقلية وميلان لنقل المنفيين ، وقلص المرسوم المهلة بالنسبة لاهالى بلنسية من شهر المسموح به الى ثلاثة ايام فقط للتجمع ؛ وضيق عليهم فيما يحملونه من متاع بمقدار ما يستطيعون حمله على ظهورهم فقط ، وشدد عليهم عقوبة التخلف بأن من يضبط بعد ذلك تكون عقوبته الموت اذا ما ابدى مقاومة وما عدا ذلك تُصادر امواله ويُحاكم ، وقرر المرسوم عقوبة جماعية لجميع سكان الناحية

---

[١٣٠])من وثائق كتاب"من إفريقيا إلى أميركا" الصادر في نهاية سنة ٢٠٠٠ بالاسبانية ، لدوقة مدينة سيدونيا سليلة حاكم الاندلس المسلم ، ان جدها الاكبر احتفظ سرا فى قصره بمسجدا سريا.
.

بالموت اذا ما أضرم احدهم نارا فى املاك المرحليين من المزارع او المنازل او اخفى متاعا؛ ووهب القرار تلك الممتلكات الى النبلاء الاسبان وشدد عقوبة اخفاء الموريسكيين المرحليين ؛ بينما أُعفى من الترحيل ٦% من الموريسكيين بغرض القيام بأعمال صيانة المبانى وتشغيل مصانع السكر والعناية بمحصول الارز وتنظيم شئون الرى .

ادت هذه الاجراءات الى كارثة انسانية كانت اول ما أُبتلى به الموريسكيين على طريق الالام الطويل فأنقسمت وتشتت الاسر وتفرقت الاسرة الواحدة اذا كان من بين ابنائها نصارى ؛ فيتم ترحيل الطرف المسلم دون الطرف النصرانى مع استبقاء الاولاد ، وسمح القرار بعودة عشرة مرحلين من الذين وصلوا الى المغرب مع السفن العائدة لطمأنة الاخرين على سير العملية.

تـــمـــرد الموريسكيون

روع القرار بحيثياته المجحفة الموريسكيين ؛ وترددوا فى الرحيل لمعرفتهم بمشاكل الهجرة الجماعية المتعجلة فهى بمثابة الانهيار الذى سبق ان خبروه على مدى تاريخهم بعد تساقط مدنهم ، حيث يتبدد الاستقرار وتضيع الممتلكات والاموال ومُعاناة الانتقال الى المجهول ، وفى ظل هذا التردد إجتمع فقهاء الموريسكيون وأقروا الرحيل واعتبروا من يبقى مرتدا مارقا ؛ ولصعوبة الامر ثار الموريسكيون فى بعض المناطق فتم اخماد الثورة بعد ان اسفرت عن عدد كبير من القتلى ؛ وتعذر إخماد ثورة وادى اجوار لضخامة اعداد الثوار الذين تحصنوا بها وهم خمسة عشر الفا ، ولكن الحكومة نجحت فى النهاية فى الفتك بالالاف منهم وسبي النساء والاطفال وباعوهم رقيقا ونُقل الباقون قسرا الى الموانى ، بينما تعذر اخماد ثورة مويلا دى كورتيس الا بعد عام لتحصن تسعة الاف ثائر بها تبقى منهم حوالى ثلاثة الاف عند الترحيل.

كان الترحيل الى الموانى يتم فى حراسة الجند لضمان عدم فرارهم ولحمايتهم من عصابات الاسبان التى تعترض مسيرتهم للنهب والقتل احيانا ، ومن الموانئ تنقلهم السفن الى وهران التى كانت بيد الاسبان ومنها الى تلمسان ، وفى ١٥ ديسمبر بدأ تنفيذ القرار على المقيمين فى قشتالة ومنحهم شهرا مهلة ، وحاول من لديه اطفال السفر إختياريا بدون ترحيل للاحتفاظ باولادهم الصغار بدعوى السفر داخل اسبانيا ، فسافر عشرة الاف الى قرطاجة ثم تسربوا الى المغرب ، وقصد سبعة عشر الفا الى فرنسا عبر اراضى قشتالة ، وتوجه ٢٥ الفا من اراضى اراجون الى نافار الفرنسية بعدما سمح لهم هنرى الرابع بالتوطن فيما وراء نهر الجارون بشرط بقائهم على الكاثوليكية ومن لا يرغب فقد ُهيأ لهم السفن للسفر الى المغرب .

وفى غرناطة صدر قرار الترحيل بنفس النصوص مع إباحه بيع املاكهم المنقولة مقابل بضائع اسبانية ، ولا يُسمح لهم بإصطحاب الذهب او الحلى او النقود الا ما يكفى نفقات الرحلة ، وصُودرت عقاراتهم لصالح العرش ، ونزح من اهلها مئة الفا ، وإستغرقت عملية الترحيل خمس سنوات حتى يناير ١٦١٤م .

الخروج الثانى

الهروب عبر الاطلنطى

وطرد الموريسكيين من المستعمرات الاسبانية فى امريكا

خلال فترات المعاناة وتضييق الاسبان على طرق الملاحة الى المغرب لمنع هروب الموريسكيين ، فرت بعض العناصر الاندلسية من اسبانيا والبرتغال الى جزر الاطلنطى والامريكتين فقد كانت لهم سابق معرفة بدروبها قبل ان يكتشفها كريستوفر كولمبس ، ولحقت بهم عناصر اخرى من احفاد الموريسكيين طردهم شارل الخامس ملك اسبانيا من اراضى الدولة ومستعمراتها بعد قراره الصادر عام ١٥٣٩ (أقر عام ١٥٤٣) بطرد احفاد المسلميين الذين أُحرقتهم محاكم التفتيش من غرب الانديز (١٣١) ، وتطور الامر لعملية واسعة لطرد الموريسكيين من الممتلكات الاسبانية فى الامريكتين بدعوى انهم ينشرون الاسلام ، وقد وصلت هذه العناصر الى اماكن اخرى فى شمال امريكا .

---

(١٣١) استقر الموريسكيون الفارون من البرتغال فى جبال الأبالاش بشرق الولايات المتحدة ، ويُسمون أحيانا "The white of the Appalachians"، طبقا لـ "Brand Kennedy" فى كتابه "The Malingers" عن أصول المالينجرز بتمويل من جامعة فرجينيا الغربية، يقول انه تبين أن أصول هؤلاء إسلامية فهم من أندلسيي البرتغال ، وما زالت عاداتهم الإسلامية باقية إلى الآن ، ومنهم ينحدر "أبراهام لينكولن"، المصدر محاضرة الدكتور علي بن المنتصر الكتاني عن المسلمون الافارقة والموريسكيون في الأمريكتين قبل كريستوفر كولومبس الإسلامية في أوروبا وأمريكا والمحاضرة مرفقة بالملاحق .

مأسى الطريق (نهب المنفيين والاعتداء عليهم)

تعرض المنفيون خلال رحلة الالام لملاحقة العصابات الاسبانية او البدو فى افريقيا ، ويقول د.لوبون ان اكثر المهاجرون قُتلوا فى طريق الترحيل على الارض الاسبانية ، و يقدر الراهب بليد القتلى بثلاثة ارباع المنفيين وكان راضيا بذلك فقد قتل هو واعوانه مئة الف من بين ١٤٠ الفا كانت تضمهم قافلة واحدة على الارض الاسبانية (١٣٢) " ؛ كما لم يرحمهم الاعراب فى المغرب فنهبوهم وسبوا نسائهم ، ويعلق الكونت اجيلار حاكم وهران بان كثير من الموريسكيين فضلوا البقاء فى وهران خوفا من اعتداءات الاعراب ، وفى فرنسا تعرض الكثيرون ايضا للعدوان والنهب الامر الذى كان مثار احتجاج احمد سلطان الترك الى مارى دى مديتشى الوصية على العرش طالبا منها حماية المنفيين .

ويتردد ان ثلثا المنفيين أهلكتهم الامراض والاعتداءات وعاد الكثيرون منهم ممن وصل الى المغرب الى الموانى الاسبانية بعد الشدة العظيمة التى اصابت اهل فاس من الجوع والغلاء والوباء عام ١٦٢٨م ملتمسين التنصر والعبودية لدى اسر يعرفونها ، ولكن مطلبهم رُفض ، وتمكن البعض منهم من التسرب الى داخل اسبانيا ؛ ويُقدر المؤرخ نافاريتى اعداد المنفيين الموريسكيين خلال الترحيل بحوالى خمسة ملايين بينهم مليونا يهودى ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق المرحلين بمليون مسلم ويهودى هم تعداد هذا الشعب عام ١٦٠٩م من اجمالى سكان اسبانيا البالغ ثمانية ملايين حسب تقُدير سفير البندقية عام ١٥٩٥م .

وعمن مات خلال عصور الاضطهاد تشير بعض التقديرات الى ان اجمالى من مات منذ فتح فرديناند لغرناطة بحوالى ثلاثة ملايين مسلم ، بينما يقدر الحبر دون لورينتى مؤرخ ديوان التحقيق من انتزعهم ديوان التحقيق خلال ١٣٩ عاما (مائة و تسع و ثلاثون عاما) بحوالى ثلاثة ملايين ما بين يهود ومسلمين (١٣٣).

ويصف الكردينال الفرنسى ريشليو المأساة " بأنها اشد ما سجلت صحف الانسانية تجاوزا ووحشية " (١٣٤) ، ويراها د. جوستاف لوبون مأساة حضارية لاسبانيا فيقول " مما يؤسف له ان ذلك حرم اسبانيا عمدا من هؤلاء الملايين الذين كانت لهم الامامة الثقافية والصناعية فى وقت افتقر فيه الاسبان الفاتحون لكفاءات مماثلة ، فعانت لقرون من الفراغ الذى خلفه مصرع وهجرة هؤلاء الملايين .

الموريسكيون

خصالهم ومقوماتهم

هذا الشعب خليط من البربر والعرب المولدين مع القوط ، يقول فيهم ابن الخطيب أن انسابهم عربية فيهم كثير من البربر والمهاجرين ، شعب طيب الخصال حسن الصورة ذوى انوف معتدلة ، الوانهم بيضاء شعورهم سوداء متوسطى القد باعتدال لسانهم عربى فصيح ، يتسمون بنضرة اللون واناقة الملبس وحُسن الطاعة والإباء ؛ ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ونُبل الخلال مُبالغن فى الزينة والتبرج ، وهناك من يصف نساؤهم بالجمال والسحر واعتدال السمن وحسن المحاورة يندر فيهن الطول يسرفن فى الزينة والتعطر ، ورجالهم تخلوا عن لبس العمامة واستبدلوها بالقلنسوة الا القضاه احتفظوا بعمامتهم .

ويصف سفير البندقية الموريسكيين سنة ١٥٩٥م ؛ بأنهم مجتمع متماسك وشعب ينموا بإطراد عددا وثروة يكرسون نشاطهم فى التجارة ؛ وعنهم يقول ثرفانتس الكاتب الاسبانى " انهم يتكاثرون فجميعهم يتزوج وهم اغنى طوائف اسبانيا يقتصدون فى الانفاق ويكتنزون المال ولا يشترون العقارات ، ولا يُدخلون اولادهم الجيش او سلك الكهنوت ، ويصفهم دى بدرانا المؤرخ الحبر بانهم شعب ذو اخلاق متينة اشراف فى معاملاتهم ليس بينهم عاطل يعطفون على فقرائهم .

وتنعت مؤلفات الرحالة الأوربيين "الموروس" maures المقيمين فى تطوان بالمغرب بأنهم ظرفاء ومتحضرين ولطفاء مع المسيحيين.

بلغت اعداد الموريسكيين ما بين ثلاثة الى خمسة ملايين جملة سكان مملكة غرناطة عند الخروج ، فقد احتشدت فيها الامة

---

[١٣٢]) حضارة العرب صـ ٢٧١.

[١٣٣]) حضارة العرب صـ ٢٧٢ .

[١٣٤]) المرجع السابق صـ ٣٣٩.

الاندلسية المتداعية من كافة الارجاء على مدار قرون التراجع منذ القرن السابع الهجرى ، منهم نصف مليون سكان مدينة غرناطة وحدها .

هجرات الاندلسيين والموريسكيين الى المغرب
على مر التاريخ الاسلامى(١٣٥)

هجرة الاندلسيين بإتجاه المغرب عادة فرضتها الاخوة فى العرق والدين والجوار منذ قيام الاندلس، ولعل أقدمها تلك التي كانت في سنة ١٣٣ هـ، بسبب الفتنة والمجاعة، حينما «خرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين»، وكان لهذه الهجرة المبكرة «آثار إيجابية على عمران الشمال وتعريبه»([١])، مثلها في ذلك مثل هجرة الربضيين المشهورة إلى فاس أواخر القرن الثاني/ الثامن الميلادي، على عهد الحكم بن هشام الأموي، والذين استقروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلس) ؛ وتوطّدت عرى الاخوة بين المغرب والأندلس في القرون اللاحقة عندما أصبحت الأندلس جزء من الإمبراطورية المغربية على عهد المرابطين والموحدين وحصصن الجهاد فى الاندلس ، وقد اتخذ توافد الأندلسيين الى المغرب أحيانا شكلا رسميا كهجرة أهل شرق الأندلس الذين استقروا برباط الفتح بناء على ظهير للخليفة الموحدي الرشيد سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م.

واستمرّت هجرات الأندلسيين إلى المغرب في العصر المريني ، لتصل إلى مداها عقب سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م، بحيث توافد الأندلسيون على المغرب واستقروا في مُدنه وبواديه، في تطوان وأحوازها، وشفشاون، وبادس، وطنجة، وقبائل غمارة الريفية، وأصيلا، وسلا، وآسفي، وآزمور وأنفا ، بيد أن أهم فترات الهجرات الأندلسية الاضطرارية هي تلك التي أعقبت قرار طرد الموريسكيين من إسبانيا المتخذ في مجلس الدولة يوم ٤ أبريل ١٦٠٩ م، وتميزت بكونها هجرات جماعية تمت تحت ضغط الاسبان وارهاب محاكم التفتيش ، حيث أقتُلِعت مجتمعات بأكملها من محيطها الاجتماعي الأندلسي لتغرس في عدد من مدن المغرب وبواديه. وقد تنوّع استقرار هؤلاء الأندلسيين بالمغرب تنوعاً كبيراً، إذ لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل مناطق عدّة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاد سوس. على أن أهمّ تجمعات الأندلسيين هي تجمعات مصبّ أبي رقراق وتطوان .

استقرار الموريسكيين فى تطوان

مما لا شك فيه أن الهجرة المعروفة والأكثر أهمية من الأندلس إلى مدينة تطوان، هي تلك التي حدثت سنوات قليلة قبل سقوط مملكة غرناطة، آخر معقل للإسلام بشبه الجزيرة الإيبيرية بيد المسيحيين نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي حينما هاجر أبو الحسن علي المنظري نحو هذه المدينة التي كانت آنئذ مدينة مخربة ومهجورة خلال قرن تقريبا ؛ وقد هاجر بصحبة القائد المنظرى عدد من العائلات الغرناطية التي تولت إعادة بناء تطوان حوالي سنة ٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤ م، واستقرت بها بعيالها وتقاليدها وعاداتها، مجسدة بذلك الحياة الجديدة للأندلسيين المغاربة في هذه المدينة التي أضحت تعرف منذ تلك الفترة بـ"غرناطة الصغيرة" وبـ"أخت غرناطة"، نظرا لطابع الحياة الذي كان يحياه سكانها الجدد، والمطبوع بروح غرناطية.

ولقد استمر تدفّق المهاجرين الأندلسيين على تطوان بوتيرة متباينة، فهم لم يهاجروا من غرناطة وأحوازها فقط، بل من جميع أرجاء إسبانيا، وخاصة من قشتالة وأرغون، وكان هؤلاء الموريسكيون الذين تنصّروا في الظاهر يدينون بالإسلام سرا، ولم تشملهم قرارات النفي الأولى في ١٥٦٦-١٥٦٧ ، أما عملية الطّرد الكبرى التي أمر بها فليب الثالث سنة ١٦٠٩ م فقد شملتهم جميعا. واستقبلت تطوان كذلك مهاجرين أندلسيين كانوا قاصدين مدنا ونواحي أخرى من المغرب. ولعل أبرز مثل على ذلك، جماعة بأسرها، وهي جماعة الهرناتشيين التي مرّت بتطوان قبل أن تتابع طريقها نحو الرباط حيث استقرت بصفة نهائية.

وكان هؤلاء المهاجرون المتأثرون بالمجتمع السائد الذي عاشوا فيه منذ الأسلاف الأوائل قد وجدوا صعوبة أكثر للتكيف مع المجتمع المغربي، إلا أن هذه الصعوبات كانت أقلّ في تطوان (كما في الشاون)، وكان الاندماج الاجتماعي للمهاجرين سهلا نسبيا نظراً

---

١٣٥) البيوتات الأندلسية - الموريسكية بتطوان - الجذور والامتدادات - الدكتورة سلوى الزاهري - أستاذة باحثة - تطوان

أولا لأواصر القرابة التي كانت تربطهم بالسكان المستقبلين، ونظراً أيضا للتشابه بين الوطن الأصلي وبلد الاستيطان، الشيء الذي لم يتوفّر في مناطق أخرى من المغرب (بالنسبة لهورنتشيي الرباط مثلا).

نالت تطوان حظا وافرا من حصة المهاجرين الأندلسيين لأسباب كثيرة، أهمها قربها من الأندلس، والذي مكنهم «استنشاق هواء إسبانيا»، كما قال Rojas([١٣٦]) إذ يكاد المهاجر يقطع بوغاز جبل طارق حتى يجد تطوان في مقدمة المدن التي تستقبله، فيفضل الإقامة بها على مواصلة الترحال إلى مدن أخرى، ولسبب آخر بالغ الأهمية هو أن مجددها أبا الحسن علي المنظري، قائد أندلسي، جددها على الصورة التي كانت عليها غرناطة بما تثيره لديهم من اشجان ، علاوة على عدم تعرّضهم للنّهب مثلما حدث في جهات أخرى وحُسن استقبال الوافدين الأندلسيين بتطوان([١٣٧]) ، وعناية آل النقسيس ذوي الأصول الأندلسية ([١٣٨])، وعلى رأسهم أحمد بن عيسى النقسيس الذي تلقّت المدينة خلال حكمه (١٦٠٨-١٦٢٢ م) الهجرات الأولى بعد قرار الطرد ؛ فقد عُرف بتعاطفه مع المورسكيين القادمين من اسبانيا، وبإشراكهم في اجتماعاته واستشارتهم في قراراته·

وتعلق الدكتورة سلوى الزاهري الباحثة بإختلاف التقديرات بالنسبة لعدد المهاجرين الذين استقبلتهم تطوان خلال فترة الطّرد، فقد أشار المورسكي أحمد بن قاسم الحجري إلى سبعين ألفا مورسكي، وهذا التقدير اعتبره المهتمون مبالغا فيه. وقد قدّم دوق مدينة شذونة إحصائية أكثر توازنا، وذلك بحصر هذا العدد في عشرة آلاف مورسكي كانوا بمدينة تطوان سنة ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣ م وفى تطوان تعايشت العائلات الأندلسية والإسبانية خلال فترة الحماية الإسبانية وبعدها ؛ فلقد احتلت إسبانيا تطوان مرتيْن متتاليتيْن، الأولى خلال حرب تطوان سنة ١٨٦٠ م، والثانية خلال فترة الحماية (١٩١٢-١٩٥٦ م)، أعائلات مسلمة وعائلات مسيحية تحمل نفس الإسم العائلي، ، وقد تكون منحدرة من نفس السلف([٣٠]) ؛ مثل عائلات: أرغون، بايزة، برميخو، بوير، قشتيلو، لوقش، مرشينة، مرين، مرتين، مْدينة، مُلينة، مُراليش، بايصْ، روكاش، الرويز، صَلاص، الطريس، الزكري ، بيلين، بلاشكو، قبريرة، قردناش، شابيس، كونشة، فيديريكو، غارسية، الغراندي، ليون، مادونادو، مندوصة، مونطميور، بريدة، راميريز، رامون، الرضوندو، الرينة، رودريكو.

مساهمة العائلات الأندلسية

في الحياة المغربية

التحق أهل الأندلس بمجالات العمل المختلفة فى المغرب الأقصى... فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وعلموا أهل المغرب أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات، ومال أهل الحواضر إلى المدن فاستوطنوها ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم أتباعاً لهم ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد»([٥١]) ؛ واعترف المؤرخ الإسباني بالدور الإيجابي للمورسكيين بالمغرب، وكتب قائلا: «لقد سال الدّم المورسكي بسخاء في المغرب، وقد غمر المورسكيون مساجد المغرب بالفقهاء ومدارسها بالأساتذة، وحكوماتها بالوزراء، وكل وظائفها بمستشارين وقادة وفنانين وصناع وجنود وتجار وبحارين وأدباء وقضاة، إلخ، حتى تشربت حضارة إفريقية ببريق أندلسي»([١٣٩]).

عائلات اشتهرت بالعلم والأدب والتدريس مثل - بْريدة Pareda وسكيرج، أو السكيرج ، و أسر اشتهرت في ميدان التوثيق والقضاء وعائلات امتهنت الفلاحة والحرف الصناعية الرويز Ruiz «كانت صنعتهم صنعَ الأسرة للمكاحل البلدية وغيرها»([١٢٩]) ، زرقيق عائلة أندلسية جلها فخارون، لا زالوا إلى الآن ، البنزي عائلة تصنع الحديد» ؛ فدريكو تخصصت في صناعة الورق، يذكر اسمها في المثل التطواني الذي يقول: «الله يرحم عمي فديكو اللّي خلا كل شي في طريقو»، ومن أشهر أفراده عبد الرحمان بن أحمد

---

١٣٦) Hossein Bouzineb; Gerard Wiegers, «Tetuán y la expulsion de los moriscos», *op. cit.*, p. ٧٧.

١٣٧) المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ج ٢، ص. ٦١.

١٣٨) حسن الفكيكي، "تطوان وحصيلة توثيق الهجرات الأندلسية: نموذج من الأرشيف العام بسيمنكاس"، ضمن أعمال ندوة تطوان والتوثيق، منشورات كلية الآداب بتطوان، ٢٠٠٧، ص. ٢٣.

١٣٩) الإسباني غييرمو كونثاليث بوسطو كتابه: "المورسكيون بالمغرب" ٨٩ ، عمدة الراوين، ج ٣، ص ١٧٦؛ معلمة المغرب م ١٣ ص ٤٤٩٨.

فدريكو، كان يصنع الورق حسب تقنية ورثها عن أجداده، وعلمها لابنه عبد السلام، وكان بقيد الحياة سنة ١٠٣٥ هـ/ ١٦٢٦ م ؛ قاسم بن أحمد فدريكو، كان يصنع الورق حسب تقنية ورثها عن أجداده وعلمها لابنه عبد القادر، وكان بقيد الحياة سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣١ م ؛ وهناك أسر اشتغلت بالوظائف العسكرية منها أسرة أخَطّاب واشتهر أفرادها بمهارتهم في الرمي بالمدافع، ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢١ م ، وعبد الكريم أطّاب يرأس فرقة المدفعية بتطوان عام ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م. ، و أسرة فرتلة من أشهر أفرادها الحاج محمد فرتلة، كان من فرقة البحرية التابعة لحامية تطوان سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م. ، و أسرة الشّولو عرف منها الشولو عبد الرحمان، الخبير في المدفعية، بعثه السلطان في ٥ ماي ١٨٦٢ م لتطوان لشراء المدافع للمدينة من طرف الباشا عبد القادر أشعاش. وبالإضافة إلى عمله كرئيس لفرقة المدفعية بحامية تطوان، كان الخبير الشولو يعمل ميقاتيا بالمسجد الأعظم التطواني من سنة ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٣ م إلى حين وفاته سنة ١٨٧٠ م.

إستنقاذ المورسكيين فى القرن ١٦م

جهـــــــــــاد القراصـــــــــــــــنة

بعد سقوط غرناطة مهدت اسبانيا لمخططاتها بالتوسع فى المغرب العربى ؛ فإحتلت ثغر وهران عام ١٥٠٥م ، ولكن ظهور القراصنة الاتراك بدعم من العثمانيين فى المياة المغربية وعلى رأسهم القرصان التركى الشهير عروج (بارباروسا او ذى اللحية الحمراء) ومن بعده اخيه خير الدين افشل الكثير من مخططات الاسبان البحرية فى المنطقة ؛ فقد نزل عروج بالجزائر عام ١٥١٧م وإتخذها قاعدة للاغارة على الارض والسفن الاسبانية ، لكن القدر لم يمهله كثيرا فقُتل فى احدى المعارك فى العام التالى ، وبعد مقتله قاد عمليات القرصنة اخيه خير الدين الذى استولى على معظم الثغور المغربية وكان لديه نخبة من امهر الربابنة الاتراك الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة وتألق اسمه كأحد امراء البحر، وعينه السلطان سليم العثمانى حاكما عليها وامده بالسفن والجند فتوسع بنشاطه فى المتوسط .

ولما استشعر المورسكيون ثُقل القبضة الاسبانية إندفعوا يفرون الى المغرب ، ولما ضيق عليهم الاسبان سُبل الهجرة الى المغرب ، استعانوا بالقراصنة الترك والمغاربة لتسهيل فرارهم والتف حول خير الدين المجاهدون المغاربة والمورسكيون ، وبدأوا إغاراتهم على الشواطئ الشرقية لاسبانيا لمدة ثلاثة شهور اسروا خلالها كثير من الاسبان وعاثوا في المنطقة وجمعوا عددا كبيرا من المورسكيين الفارين من البقاع الساحلية .

وفى عام ١٥٢٩م قامت سفن خير الدين بعملية إنزال برى لقواته فى اوليفا شمال غربى دانية امام مصب نهر التيا ، استطاعت فيها تجميع واجلاء ستمائة شخص من من بلنسية ، وبعد اتمام المهمة طارد الاسطول الاسبانى سفنه حتى جزرالبليار ، وهناك إنقلبت سفنه للهجوم واغرقت بعض السفن الاسبانية واسرت بعضا منها ، وعادت بأحمالها من المورسكيين والاسرى الاسبان سالمة الى الجزائر ، وتتابعت اغارات خير الدين على السواحل الاسبانية وتُقدر اعداد من إستنقذهم فى اغاراته بحوالى سبعين الفا (١٤٠) .

وبعد وفاته خلفه امير البحر التركى غرود الذى قام عام ١٥٥٩ م بغارة كبيرة استطاع ان ينقل فيها الفى وخمسمائة مورسكي ؛ وفى عام ١٥٧٠م استطاعت سفن القراصنة ان تحمل جميع المورسكيين فى بالميرا ، وعام ١٥٨٠م حمل اسطول من الجزائر الفين وثلاثمائة من بلنسية ، وفى العام التالى قامت سفن مماثلة بحمل جميع سكان كالوسا .

وشارك تونسيون فى الاغارة على اسبانيا ، ومن اشهر المغيرين عمر محمد باي فى الفترة ١٠٠٧-١٠١٩هـ/ ١٥٩٨-١٦١٠م من عهد عثمان داى ، وفى عام ١٦٠٢م شارك فى الاغارات قرصان انجليزى بتشجيع من بحارته المغاربة ركز فيها على اقتناص الاسبان وبيعهم فى اسواق الرقيق بالمغرب .

وساهم بقدر كبير فى عمليات الاغاثة زعماء المورسكيين فى المغرب مثل الريس بلانكيو والريس احمد ابو على (من اشونية) ومراد الكبير جواديانو من المدينة الملكية ثيوداد رويال ، وغيرهم من المورسكيين الذين ابلوا بلاء حسنا و كانوا خير مرشد للقراصنة لاحكام غاراتهم ، وبلغت أغارات الاغاثة فى الفترة ١٥٢٨- ١٥٨٤م حوالى ثلاثة وثلاثين غارة عدا إغارات السفن

---

[١٤٠]) حضارة العرب صـ ٣٧٠ نقلا عن **The Barbary Corsairs** _ للاستاذ لاين بول الذى يتناول هذه الغارات ، وكتاب غزوات عروج .

الصغيرة ، ومن اهم من وقع فى اسر القراصنة فى تلك الفترة الكاتب الاسبانى ثرفانتس الذى أُسر عام ١٥٧٥م ونُقل الى الجزائر وإفتُدى عام ١٥٨٠م ، وللاسف تواطأ بعض امراء الثغور فى شمال افريقيا مع الاسبان ضد قراصنة الترك الذين ضايقوهم بفرض الاتاوات ، ولم تكن مأساة اخوانهم الموريسكيين متأججة فى اسبانيا بعد ، فقد خاطب ابى عبد الله محمد الحسن سلطان تونس الامبراطور شارلكان فى ١٣ اغسطس ١٥٣٥م /١٢صفر ٩٤٢هـ يطلب حمايته من الترك مقابل تسليمه مدينة بونة مما سمح لسفن الاسبان بالخوض فى مياه تونس بعد انضواء اميرها الحفصى المعزول تحت لوائهم سنة ١٥٣٥م ، كما كاتب ابى عبد الله محمد بن القاضى صاحب حصن كوكو بالمغرب الاوسط الامبراطور شارلكان سنة ٩٤٩هـ/١٥٤٢م يستحثه على قتال الترك واراحة الناس منهم.

ولم تستطع اسبانيا سيدة البحار انذاك النيل من القراصنة امام استشراء إغاراتهم فى القرن السادس عشر ، وتحول القراصنة من اعمال الاغاثة بعد انتهاء ترحيل الموريسكيين الى النهب والقرصنة وسمح لها الولاة الاتراك فى طرابلس وتونس والجزائر باستخدام شواطئهم مقابل ضريبة على الغنائم كما استخدمتهم بعض الدول الاوروبية فى مضايقة بعضها البعض والاضرار بتجارة الاخر ، وقاومت اغاراتهم كل من انجلترا وفرنسا وهولندا فى القرن السابع عشر ولم تنقطع الا بعد احتلال فرنسا للجزائر .

قضية الموريسكيين اليوم

المطالبة بالحقوق

عقد أحفاد الموريسكيين في بلدان المغرب العربي عام ٢٠٠٢ مؤتمرا بمدينة شفشاون في شمال المغرب ، دعوا فيه إسبانيا إلى الاعتذار عن الفظائع التى اقترفتها محاكم التفتيش بحق اجدادهم وطالبوها برد الجنسية الاسبانية للراغبين اعمالا بحق المساواة بينهم وبين أحفاد اليهود الموريسكيين .

وتبنى خوسي أنطونيو بيريث تابياس عضو الحزب الاشتراكي الحاكم فى اسبانيا والناطق باسمه في ١٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٩ مطالبهم ، فتقدم الي مجلس النواب الإسباني بمشروع قانون للإعتراف بالظلم الذي لحق بأكثر من ٣٠٠ ألف موريسيكي ممن طردوا من إسبانيا في القرن السابع عشر ، اسوة بما تم بشأن اليهود السفارديم الذين طردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢ ، وطالب بالاعتذار لأحفاد الموريسكيين فى المغرب وتعويضهم بأن تتخذ الحكومة الإسبانية كل الإجراءات الكفيلة بتعزيز الصلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية معهم .

تعـــــقـــــــــيب

ان يتم طرد شعب بكامله من ارض عاش فيها اكثر من سبعة قرون ، لهى مأساة الاسلامية ليس لها مثيل فى تاريخ البشرية ؛ مأساة تسبب فيها قادة غضوا الطرف عن مصالح امة وضعت قدرها فى ايديهم فلم يصونوا الامانة وانصرفوا للهو والتنافس على السلطة والجاه والاستقواء فى سبيلها باعدائهم على اخوانهم وهم مدركون للخطر المحدق بامتهم فاستحقوا ان تذهب ريحهم ويرحلوا الى غير رجعة ؛ ولكن النتائج تجاوزتهم فجروا معهم امة بحسرتها وألامها الى الهاوية ، كان فيها الشعب شاهدا[١٤١] لا فاعلا على مذبحها وتركهم يلعبون بمقدراته وهو يرى قدره المحتوم يقترب ، امة رفضت فلولها القهر وثارت لدينها وقوميتها ، ولم يثنيها عن المضى فى الثورة الا انقطاع المدد وانصراف قادة المسلمين عن نصرتها الا بما تيسر لديهم من الدعاء والاسى وهى ذخائر لا تنفع فى رد عدو فاستسلمت مقهورة لقدرها .

ان اجبار امة عزيزه بحضارتها ؛ على ترك موروثاتها التى اضاءت دنيا ذلك الزمان قسرا وطردها من وطن عاشت فيه مع غيرها فى تسامح لهو حقا فاجعة أبدية ؛ ولا مجال للمقارنة بين فتح العرب للاندلس وفتح الاسبان لغرناطة ، فالعرب عندما فتحوا الاندلس لم يخرجوا عن نحل ذلك الزمان الذى كانت فيه الحدود والدول تتغير مدا وجزرا والقبائل تتحرك فى كل اتجاه عبرالقارات ؛ ولم يكن الفتح إغتصابا لارض فلا هم صادروا أملاكا ولا طردوا شعبا او غصبوه على الهجرة من بلاده وارضه ولا ارغموه على ترك عقيدته لاعتناق الاسلام .

(١٤١)

فالقوط اهل الجزيرة الاصليين لم يعانوا من حكم الاسلام فهم على علاقات وثيقة بالمغرب العربى منذ عهد الرومان عرقيا فالبربر لهم انتدادات عرقية بينهم كما ان القرطاجيين لهم امتداداتهم العرقية والثقافية القديمة فى ايبيريا ، ولما جاء المسلمون تعايشوا معا بتسامح ورضى ومنافع متبادلة ولم يغتصبوا حقوقه وارض سكانه ، وهو ما فعله المسلمون من قبل عندما دخلوا حمص عام ٦٣٦/٦٣٧م فقد تصالحوا مع اهلها على تقاسم الدور والحدائق الشاغرة (١٤٢) ، ولم يستولوا على المساكن العامرة وهو ما حدث مع اهل كل البلاد التى فتحوها بما فيها ايبيريا .

واعتدال المسلمون وعدلهم من اسباب سرعة فتوحهم واستقرار حُكمهم فقد كانوا اقل جباية من البيزنطيين والساسانيين للضرائب ، ولم يعمدوا للتخريب انتقاما من الشعوب التى افتتحوها اذا ما قاومتهم وكبدتهم خسائر كبيرة كما فعل المغول والاسبان ، وإنما كان العرب مخلصين لهذه الشعوب.

ولعل السهولة والسرعة التى اجتاز بها العرب جزيرة القوط ودخلوا مدنها الكبرى صلحا وبدون مقاومة بفضل وساطة الامير يُليان ورئيس اساقفة اشبيلية ؛ يعكس مدى تقبل القوط للمسلمين لما راوْا فيهم عدلا وعدم جور او انتهاك لمقدساتهم وموروثاتهم فضلا عن عدم المساس بأوضاعهم وممتلكاتهم ، ويؤكد د لوبون على ان اهل الجزيرة الايبيرية الاصليون كانوا ينظرون للعرب على انهم مخلصين لهم من استبداد حُكامهم الغرباء ، والذين بسبب ذلك فترت القوطيين فى الدفاع عنهم أمام المسلمين ، فتغيير حكام غرباء بأخرين لا يعنيهم طالما احسن الحكام الجدد معاملتهم ولم يتدخلوا فى شئونهم ؛ وهو ما فعله العرب فأحسنوا معاملة سكان البلاد وتركوهم واموالهم ، واعتدلوا فى مقدار الجزية بما ارتضاه اهل البلاد الاصليين وهو دينارا سنويا عن الحر، ونصف دينار عن المملوك (١٤٣).

ان سقوط غرناطة فى اخر عهدها استغرق اقل من خمسين عاما أضاع فيها حكامها ثغور النجدة بإهدار علاقتهم بدولة بنى مرين المجاهد الاعظم لاستحياء الاندلس ، وإنشغلوا بالهزل عن الجد وبالاصطراع حول الصغائر عن التصدى للكبائر والاعداء ، وانقلبوا على من ساعدوهم فخسروا كل شئ ؛ وافسدوا سنن التغيير ومحاسن التبديل بطول البقاء فى السلطة ولم يتركوها لمن هم اهل لها ، فأُسرة الاحمر رغم عجزها عن مواجهة قشتالة تركت صغارا عديمى الخبرة يتناوبون على حكم البلاد عجزوا عن تقدير الموقف الصحيح فى المدى الطويل ، وكانوايعملون لذر الرماد فى اعين شعبهم مجرد انتصار هنا وانتصار هناك ومعركة هنا واخرى هناك تعلن مواصلة الجهاد دون ان يكون هناك خط ثابت لاسترداد ما خسروه من ارض ومعهم من السلاح والمال والحضارة ما تفوقوا به على الاسبان ، لم يكن هناك الناصح الامين ولا القوى القادر الذى يلتف حوله العقلاء والمجاهدون لتسيير الامور على نحو صحيح وللاسف تنعموا ففترت همتهم ؛ وحال العرب اليوم يُذكر بتاريخ الامس فتاريخهم بمأسيه دورة تتماثل كل حين وتتكرر ولا مجيب واع .

الكتاب الثالث
البعد الاسلامى
فى افريقيا جنوب الصحراء
الفصل الاول
الحضارة والجهاد فى السودان الغربى

إفريقيا الغربية قبل الاسلام

---

[١٤٢]) الفتوح العربية الكبرى ـ هيو كينيدى ، ترجمة د قاسم عبده قاسم .
[١٤٣]) د.جستاف لوبونً ـ ٢٦٤ .

إقتضت تجربة الكاتب العملية فى غانا وسيراليون فى غرب إفريقيا ، البدء من تلك المنطقة لاسباب إرتآها ، فتاريخ الإسلام فيها يمثل فصلاً فريداً فى تاريخ حضارة الإسلام من جهة والمنطقة من جهة اخرى ، فهو الذي حررها من عزلتها وفك عُقدة جمودها وخلصها من أزمة تطورها ، فانفتح بها علي الحضارة الإنسانية لتستلهم طريق النهضة ، فأصبحت المنطقة خلال قرون قليلة منطقة رائدة من مناطق المد الحضاري ؛ فالغرب الافريقى رغم حداثة عهده على عالم الحضارة أحرز مكانة مميزة وتعاظم شأنه بالتحاقه بعالم الإسلام ، فدائرة تجارة الاسلام العالمية هيأت له مكانة اقتصادية لم يكن بالغها الا من خلال هذا الانتماء ، وتراكمت لديه ثروة ذاخرة من الثقافة فاقت مثيلاتها في سائر جنوب الصحراء وبلغ صيت " تمبكتو " و " جني " كعبتا علمه الافاق (١٤٤)، وقامت بالاسلام إمبراطوريات لأول مرة فى تاريخه لم تضاهيها امبراطوريات الاسلام فى شرق القارة .

ولكن بيئة من الظروف الصعبة حلت وتجذرت فى غرب إفريقيا ، تركت تداعيات خطيرة وسلبية على مد الإسلام ومجتمعاته لقرون ؛ بدءا من " الاضطراب العظيم " ، الذى إغرق الساحل الغربى فى فوضى دموية وهمجية وحشية فى الفترة من منتصف القرن ١٥ م الى منتصف القرن ١٩ م نتيجة اعمال قنص البشر لصالح تجارة النخاسة الأوروبية / الامريكية واسعة النطاق ؛ زاده اضطرابا على اضطراب المد الاستعمارى وما احدثه من نهب للثروات وتدمير الثقافات واستعباد البشر وافراغ الشخصية الأفريقية من هويتها الوطنية ومضمونها الثقافى وإعادة صياغتها فى اطار من ثقافة المستعمر " الاحلال الثقافي " ليضمن الهيمنة علي تلك الشخصية ، واخضاعها لمشيئته لإقتلاع جذور مقاومتها .

والإستعمار الفرنسي من الرواد الاوائل فى هذا المجال ، فهو اول القوى الإستعمارية التى تبنت هذا النوع من السياسات ، وطبقها بضراوة لا مثيل لها ؛ وأبلغ دليل حي على الأثر التخريبي لهذه السياسة ما تعانيه بعض دول المغرب العربى من بلبلة فى الهوية ، لم تتعافى منها بالرغم من مضي حقب طويلة علي استقلالها .

وساهم التبشير ألاوروبى بدور فى خلق هذا المناخ المضطرب ، عندما خرج عن دائرة الدعوة وظيفته الاساسية ، ليتحالف مع الاستعمار ضد الامال الوطنية للافريقيين فى نيل الحرية فإستفز شعوب القارة ، وكان تطبيقه سياسات تبشيرية واسعة النطاق فى مناطق نفوذ الاسلام التاريخية سببا لوقوعه فى صدام لا مفر منه مع الإسلام الذى هبت مجتمعاته للزود عن هويتها وتراثها ؛ وفي الوقت الذي عانت فيه المنطقة من تلك البيئة الضارية بيد الفرنسيين على وجه الخصوص وبدرجة اقل على يد الانجليز ؛ تعرضت المنطقة الاسلامية فى الشرق على يد البرتغال لضراوة أبشع زادها فظاعة انقضاضها بكراهية على مناطق الساحل الشرقى بحرب ابادة وحشية مشحونة بالعداء والثأر ضد الإسلام ، استنفرت فيه اثيوبيا .

وبالرغم من وحدة المُصاب فى المنطقتين ، إلا أن وقعها فى الشرق خفف من وطأته قُربه من قلب عالم الاسلام الذى عزز صمودها وهب لنجدتها ؛ بينما إعتمدت شعوب الغرب التى عزلتها وحشة الصحراء على الذات في الدفاع عن هُويتها الإسلامية ؛ ومن بين اسباب الاختيار الاخرى غلبة الهوية الإفريقية في الغرب عنها في الشرق ؛ ففى الغرب يمكن تمييز العرق الافريقى بنقاء عما هو عليه فى الشرق ، فرغم ما شهدته المنطقتين من تصاهر عرقي واسع النطاق بين البربر والعرب وبينهم وبين الإفريقيين فى الغرب والوسط ، وبين الافريقيين والعرب على وجه غالب فى الشرق ؛ بقيت بطون هذا الانصهار في الغرب على أصالتها الإفريقية لغلبة عنصرها وطغيانه العرقى فى بحر افريقى صافى ، بينما غلبت فى الشرق الاصالة العربية مشربة بملامح أفريقية ، كانت خلاصته هجينا عرقيا وثقافيا مشتركا (السواحيلية) ؛ وهذا التباين يجعل الحديث عن حضارة إسلامية إفريقية خالصة الطابع في الغرب أكثر وضوحا عما هو عليه الحال في الشرق.

كما أن الغرب خزان بشرى هائل فهو أكثر مناطق إفريقيا إزدحاما بالسكان ؛ تدين غالبيتها بالاسلام وهى مازالت تزاول دورها في دفعه في إقليم لم تُحسم بعد هويته الدينية بشكل قاطع ، وهو ما يفسح المجال امام تقدم الإسلام بفضل حركة الكتل البشرية الإسلامية وإنسياب قبائلها بعرض إمتدادها العرقى عبر حدود الإقليم ، يساعدها على ذلك طبيعة التسامح الأفريقية التى تتحلى بها قبائل تضم بطونها كل العقائد دون حساسية.

ما يحظى به الإقليم من وزن على المستوى الافريقى فرصيده من الثروات الطبيعية ضخم ، وهو بكتلته الإسلامية وبثقله

---

(١٤٤) اهلت روائع تمبكتو المدينة للترشُح ضمن عجائب الدنيا السبع الجديدة في عام ٢٠٠٧.

الاقليمى يمكنه المساهمة فى خدمة الدائرة الإسلامية ، يدعمه فى ذلك جاليات عربية ذات وزن اقتصادي ونفوذ سياسى تقوم بنفس دور تجار الإسلام فى دفع مده ؛ ومن الايجابيات التى رصدناها ان مسيحيو هذه الجاليات يتعاونون بدون حساسية فى خدمة مقاصد قوميتهم العربية بما فيها المحتوى الإسلامي ؛ وهى ظاهرة ايجابية تستمد قوتها من وحدة الانتماء القومي للثقافة الإسلامية ، متجاوزة الانتماء العقيدى ولعل د بطرس غالى كان بليغا فى التعبير عن هذا البعد بقوله اننى ابن الثقافة الإسلامية.

واخيرا ما تضفيه خبرة الكاتب العملية علي الدراسة من صدقية لاحتكاكه المباشر بالمنطقة علي مدار سنوات ثلاث ١٩٨٤ ـ ١٩٨٧ ، اقتضت فيها واجبات وظيفته مسئولية خدمة البعـد الإسلامي في كل من غانا وسيراليون .

ومن هذا المنظور سوف نقسم مبحثنا جنوب الصحراء إلي ثلاث نطاقات يتداخل فيها نطاقا الصحراء والسافانا ، الأول الصحراء وغرب افريقيا او السودان الغربى علي إمتداد المنطقة مابين تشاد وحتى الساحل الغربي وبعمقها جنوبا حتى المحيط لخضوع هذه المنطقة لظروف واحدة ، والثاني يضم الساحل الشرقي وهضبة الحبشة كوحدة لخضوعها لظروف مشتركة وعلاقات متشابكة ممتدة ؛ وبينهما السودان النيلي بإعتباره نطاقا وسيطا له علاقات بالنطاقين .

الاقليم ـ العزلة ومبادرة قرطاجة

لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء بالمكان المألوف لعالم الأمس ، فقد عاشت عزلة طاغية لقرون طويلة عن بقية أجزاء العالم ؛ غابت فيها عن فوران الحضارة الإنسانية فلم تشارك في مـدها بالفعل أو التفاعل وعاشت وكأنها جُرم منعزل في كوكب آخر ، وعندما أطلت عليها تباشـير الحضارة من بعيد ، وصلتها ضعيفة واهية ما لبثت أن تلاشت دون أثر يمكن تقصيه ، بسبب الجمود الذي استكانت له وباتت معه الأوضاع السائدة عقبة كأداء أمام " التطور" ، فأصبح الاقليم اسير دائرة مقفلة من الجمود لا فكاك منها إلا بنظام قادر علي كسر تلك الدائرة .

وكانت ظروف الجغرافيا ممثلة فى الصحراء الكبرى سببا رئيسا فى هذه العزلة ، فقامت الصحراء كحاجز منيع يفصل بين شمال افريقيا وجنوبها ؛ وحالت بإتساعها وقسوتها دون قيام إتصال سلس بين جزئى القارة بشكل دائم وفعال ، فكانت سبباً في بقاء الجنوب بمعزل عن نبض الحضارة الإنسانية فى مربضها فى حوض المتوسط ؛ فلم ينفذ من مدها إلى المنطقة سوى صدي خافت سرعان ما تبدد بفعل ظروف البيئة السائدة فى جنوب الصحراء .

وزاد الامر تعقيدا عدم تطلع أهل الإقليم لكسر سياج العزلة بالاتصال بالشمال ، فعبور الصحراء امرا صعبا لا يمكن تحقيقه الا بشكل جماعى منظم ، كما ان طبيعة الاقليم بمجتمعاته البدوية محدودة المتطلبات وبساطتها ؛ لم تدفعه للمغامرة بمبادرة عبور المجهول لتحقيق تواصل دائم مع الشمال ، الذى كان صاحب المبادرة بالاتصال بدافع من ألياته الحضارية التى تسعى بالفطرة وبحافزه الحضارى لسبر غور الجديد المجهول.

وبادرت قرطاجة رائدة الكشوف بتحسس المنطقة فى بدايات القرن الخامس ق م بحملة تضم ٦٠ سفينة و٣٠ ألف رجل بقيادة "هانو أو حنا Hanno "، وصلت سيراليون والكاميرون والجابون ، وكانت تتردد سفنها على المنطقة من حين لاخر طلبا لإحتياجات محددة ، واخطرها الفيلة التى كانت سببا فى انتصار قرطاجة فى الحروب البيونية (Poeni) الفينيقية باللغة الرومانية وتعنى حروب قرطاجة) التى قادها حنا بعل Hanibal القائد القرطاجى الشهير على روما ، وقد يكون من اسباب فرض قرطاجة سرية على دروب التجارة مع المنطقة هو حرمان الرومان من جلب الافيال (١٤٥) .

وادار بربر شمال افريقيا العلاقات الدائمة مع المنطقة نيابة عن قرطاجة ، وإقتصر الاتصال بين الطرفين على معاملات يضيق نطاقها ليقتصر على ذهب الجنوب وملح الشمال بصفة رئيسية ، وإستمرت العلاقات عبر الصحراء مسئولية البربر في عهد الرومان الذين توقف نفوذهم عند الحدود الشمالية للصحراء ؛ ولم تترك صلات قرطاجة إحدى قوى الحضارة تأثير يُعتد به فى تطور الإقليم من الناحية الحضارية لمحدودية الاحتكاك وسرعته وعدم الاستقرار ، فلم يكن هناك ما يحفزها لترك نواة بشرية تجلب معها الحضارة وتتعهدها .

---

[١٤٥]) المرجع The GoldenTrade Of The Moors P. ٤١ – by E.W.BOVILL

ولكن قرطاجة بالتأكيد هى وولايات البربر الليبية كانت احد منافذ تسريب تباشير الحضارة الى جنوب الصحراء(١٤٦) ، وإن كان " سبنسر ترمنجهام " ينكر على قرطاجة القدرة على نفث الحضارة فى الاقليم لانه يرى ان طبيعتها التجارية عادة ما تحد من القُدرة على خلق نتاج حضارى (١٤٧) ؛ وفي ذلك تجنى على شعب عريق كالفينيقيين (أصل القرطاجيين) ذوي الحضارات المنتثرة على امتداد سواحل البحر المتوسط ، الذين اهدوا الى الانسانية اولى الابجديات التى مازال الغرب يستخدمها حتى الان وسبق ان تعرضنا لنتاجهم الحضارى فى الشرق واوروبا .

وفى رأينا ان قرطاجنه كمستوطنة حديثة العهد في الشمال الإفريقى إنشغلت بتثبيت وضعها فى مستعمراتها المتوسطية وبالذات قرطاجة الجديدة جنوب الجزيرة الايبيرية (اسبانيا) ، فى وقت لم تترك لها حروبها مع الإمبراطورية الرومانية (١٤٨) ، فرصة لتكريس مدها البحرى لاقامة مستوطنات جديدة فى منطقة نائية يكتنفها الغموض والصعوبات ولا تخدم اهدافها الاستراتيجية الملحة ، كما لم تُغرهم طبيعتها المناخية القاسية على التفكير في إقامة مستوطنات ساحلية على أرضها ؛ فطبيعتهم كشعب بحرى إنصرفت بإهتمامهم الى الساحل وتجاهل الصحراء .

إحتجاب الاقليم عن الديـانات السماوية

اسهمت العزلة فى إحتجاب الديانات السماوية عن الاقليم ، فتوقف تأثير اليهودية عند مناطق البربر فى الصحراء دون ان تمتد بينهم او عبرهم جنوب الصحراء ؛ وهم همزة الوصل مع المنطقة ، بسبب غلبة الوثنية بينهم ولاحجام اليهودية نفسها عن التبشير لطبيعتها العنصرية بإنحصارها فى العنصر اليهودى فقط ، ولذا إختفت اليهودية مع اختفاء العنصر اليهودى بذوبانه في المحيط المحلى او برحيله ، تاركا مستعمراته اطلالا كشاهد على سبق وجودهم .

وصفها " إبن خلدون " اثناء مروره بها فى رحلاته جنوب الصحراء وهى مستوطنة " القصور " ، كما أورد المؤرخ المالى " محمود كعت " وصفا لاطلالها في كتابه " الفتاش " ، ويُعتقد انها كانت ليهود فارين من اضطهاد الرومان فى المشرق أو يهود من البربر ، فروا فيما بعد من سبرانيكا "برقة" عام ١١٥م إلى داخل إفريقيا ، وإستقرت في حوض النيجر الأوسط ، وانتقلت الي السنغال وتلاشت في سكانها المحليين دون أن تترك أثرا يذكر.

ولم تنجح المسيحية ايضا فى بث نفوذها عبرالصحراء ، فلم يكن أمامها متسعاً للعبور لارض جديدة ، ولم يتجذر وجودها فى شمال افريقيا على ارض غير صلبة يتنازعها العداء المستحكم بين مذاهبها على مدى قرن من الزمان على غرار مافعله الوندال الآريين ببقية الطوائف(١٤٩) ، واراق القيصر قسطنطين سيول من الدماء لوضع حد للصدامات بين طوائفها دعما المسيحية .

وحسمت كراهية البربر للرومان المستحكمين فى بلادهم رفضهم اعتناق عقيدة اعدائهم ، وبالتالى عدم إمتدادها جنوبا ، وبذلك بقيت منطقة جنوب الصحراء بمعزل عن تأثير الديانات الكتابية حتى وصول الإسلام الى شمال افريقيا وتغلغله عبر الصحراء حاملا الى الجنوب لأول مره عبق الحضارة على نحو غير مسبوق في تاريخ المنطقة ، فتفرد وأنفرد بصياغة حياتها حتى بداية القرن السادس عشر .

أزمـة الحضارة بالاقليم

انتثر البربر على الرقعة الممتدة فى شمال افريقيا ، بين الاسكندرية والمحيط الاطلسى غربا ، وكانوا زمرا منقسمة ومتقاتلة ، لم تتح طبيعتهم المنعزلة والمتنائرة اقامة سلطة مركزية تضمهم فى دولة كبيرة ، وكان الرومان بعد تجربتهم الدامية مع قرطاجة لا يسمحون لهم بتكوين مثل هذا الكيان ؛ ولم تُتح طبيعتهم البدوية لهم حظا من الحضارة (١٥٠) ، فلم تحمل حركتهم الى الجنوب قبل

---

[١٤٦] يقول دافيدسون صـ ٢٥ " تسربت تباشير الحضارة الى القارة عبر ثلاث منافذ كوش التي كانت اعظم حضارات الجنوب في بعض الجوانب ، وقد تولت مهمة نقل الحضارة المصرية في القرن الثامن قبل الميلاد ، والمنفذ الثانى قرطاجة وولايات البربر الليبية ، ثم بلاد البخور في جنوب الجزيرة اليمن وحضرموت.

[١٤٧]) المرجع   History of Islam in West Africa; P ١٤ - Spencir Trimingham

[١٤٨]) استمرت الحروب البونية الاولى (٢٦٤ ـ ٢٤١ ق م) والثانية (٢١٨ ـ ٢٠١ ق م) والثالثة (١٤٩ ـ ١٤٦ ق م) .

[١٤٩]) جوستاف لوبون – حضارة العرب صـ ٢٤٥ .

[١٥٠])جوستاف لوبون – حضارة العرب صـ ٢٥٦.

الاسلام مكونا حضاريا يُعتد به ، فكان اقصى ما بلغته المنطقة من حضارة حتى القرن الحادى عشر الميلادي تقريبا ، هو نموذج مملكة "غانة " حضارة الإقليم اليتيمة ؛ وهو نموذج بسيط لحضارة العصر البرونزي Post –Neolithic ، ينتسب الي عالم الحضارات الخاملة .

اعجز انغلاق الاقليم وتجذر ازمته الحضارية الى عدم قدرته على تجاوزه خاصة وانه غاب عن اللحاق بعصر الحديد (صناعته) معدن الحضارة المتقدمة عن بقية العالم بفارق١٢٠٠ الى ١٤٠٠ عاما تقريبا بعد إكتشافه فى اسيا الوسطى (١٥١) ، وتفيد شواهد اخرى الى مدى زمنى ابعد بفارق ٢٥٠٠ عام تقريبا عندما عرفته عام ١١٥٠م ، فيفيد الزهرى الرحالة والمؤرخ العربى ان غانا استخدمت فى حملاتها عام ١١٥٠م سيوف ورماح من الحديد ، ضد اعداءها الذين كانوا يستخدمون أسلحة من قضبان الابنوس (١٥٢) .

ولعبت البيئة بدورها المهيمن على عملية التطور (١٥٣) ، دورا فى تأخر الاقليم عن ركب الحضارة ، فالمنطقة بطبيعتها الجغرافية تشكل جيبا فضفاضا خاوى الوفاض على اتساعه من البشر ، اغرقته كثافتة السكانية المحدودة بنمطها البدوى في تيه غاب معه الاستقرار والسلطة المركزية ، فعجزت فلول البشر عن تعظيم إمكاناته لافتقادها الاستقرار وادارة معطيات التطور (١٥٤)، فإستطاعت البيئة شرنقة مفردات الحضارة الواردة في أضيق نطاق فى عزله محكمة ، واصبح الجيب " ثقب أسود " يمتص ما فى محيطه ويُفنيه .

ومثل هذه المجتمعات المنعزلة ينتهى بها الامر للاستكانة والخضوع التام لظروف محيطها وضوابط بيئتها ، فتصبح اسيرة دائرة من الجمود لا نهاية لها ، وفى ضوء الخلاصات المتقدمة أثبت التاريخ أن المجتمعات الرعوية المنعزلة عادة ما تكون محدودة التطور واسيرة الجمود ، وفى ظل هذه المعطيات أصبح الاقليم أسير " أزمة حضارة " يتطلب الخروج منها نظام قادر على شحذ عوامل النهضة ؛ وهذه نقطة هامة لصالح الإسلام الذي تمكن بمنظومته الحضارية من فك عقدة جمود الاقليم والخروج به من أزمة الحضارة الى طريق التطور والحضارة الإنسانية.

وإذا ما تقصينا وضع حضارة غرب افريقيا او جنوب الصحراء فى منطقة الانهار التى توفر بيئة الاستقرار اللازمة للتطور (١٥٥) ، لا نجد اختلافا حضاريا يُذكر يتجاوب مع وجود النهر عن بقية المناطق البدوية ، فقد كان من المفترض ان تكون مناطق الانهار اكثر استقرارا وتطورا بزراعتها المستديمة ومجتمعاتها المستقرة وادارتها المركزية التى تدفع الامور وتطورها ؛ فمجتمع الاستقرار نظام معقد اجتماعيا واقتصاديا يفرز مشكلات معقدة تستثير القرائح الابداعية لايجاد حلول مبتكرة لها ، وهو ما يلحق تغيرا محمودا بالبيئة المحيطة تظهر معه من جديد مشكلات اكثر تطورا يتم التغلب عليها من خلال حلول جديدة ايضا ، فى عملية دوارة متجددة تعيد صياغة الاوضاع القائمة للبيئة الحالية فى شكل اكثر حداثة و تطوراً فى صورة بيئة جديدة ، فى دورة لا تنتهى من الفعل ورد الفعل ، ومن اسباب عدم توصل المنطقة بنمط تطورها الى نمط مناطق الانهار العظمى في عالم الحضارات الفاعلة ؛ هو قلة الكثافة السكانية التى عادة ما تضيق تطلعاتها البسيطة بحدود بساطة مشكلاتها ، فعدم وجود مشكلات معقدة مثل تلك التى تستثير مجتمع الاستقرار فى عالم الحضارات لم تستدعى هذه المجتمعات لإستثارة الابداعية وحلولها ، وبالتالى اجهض غياب الابداعية التغيير الذى هو عامل رئيسى للتطور ؛ وبالنسبة لبقية جنوب الصحراء لم يختلف الوضع عما كان عليه الحال في النطاق الغربي ، باستثناء الحبشة والنوبة اللتين سبقتا الي استقبال الديانات السماوية والإحتكاك بالحضارة العالمية ، فتهيأ لهما نمط حضاريً أرقى مما كان لحضارة " غانة " رغم ثراء الاخيرة.

---

[١٥١] اكتشفت أسيا المعدن عام ١٣٠٠ ق.م وكان هذا سببا في تفوق الحيثيين والآشوريين على أعدائهم ، وكانت جنوب الصحراء تستخدم الذهب والنحاس حتى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ووصل الحديد الى غانا من خلال قرطاجة او ليبيا عن طريق البربر فى فترة ما بين القرن الاول الى الثالث الميلادى سابقة الاقليم الغربى كله .

[١٥٢]) افريقيا القديمة تكتشف من جديد – باسيل دافيدسون صـ٤٢ .

[١٥٣]) يخالف بذلك الرأى القائل برد التفوق أو التأخر للخصائص العرقية .

[١٥٤]) معادلة التطور = تفاعل الإنسان مع احتياجاته المتجدده ومعادلتها بثوابت البيئة ومشكلاتها وايجاد حلول ، تؤدى حصيلته كله للتطور فى دائرة متجددة .... وهذا يستلزم الاستقرار لضمان التفاعل طبقا للمعادلة السابقة فيخلق اقتصاديات (انتاج زراعى وصناعى ؛ وما يفضي اليه فائضهما من قيام تجارة مع الاخرين).

[١٥٥]) خريطة الانهار الافريقية فى ملحق الخرائط للتعرف على المناطق المحتملة للحضارات .

دورة المد الاسلامى جنوب الصحراء

المداخـــــــــــــــل

تتابع مد الاسلام فى ظل الخلفاء الراشدين فى القرن ٧ م شرقا وغربا تحت سقف البحر المتوسط ؛ ومع تولى الآمويون الخلافة انطلقت الفتوحات فى كل الاتجاهات، ومع تقدم الفتوح عبر الاسلام جنوب الصحراء الى عمق افريقيا عبر المداخل التالية :

١- مدخل باب المندب

وهواقدم مداخل المد الاسلامى الى افريقيا ، فقد عبره المسلمون الاوائل فى القرن السابع الميلادي فى اولى هجراتهم عندما حملتهم الاقدار الى الحبشة للاحتماء بعدل النجاشى من اضطهاد قريش ؛ وكانت طبيعة هذه الهجرات مؤقتة لم يكن هدفها الاستقرار، فلا يُعتد بها فى مجال المد الحقيقي الا بما تركته من ظلال على ملك الحبشة وحده دون بقية البلاد .

تتابعت هجرات المسلمين عبر باب المندب الى القرن الافريقى فقد استهل الفارون من الإضطهاد الآموى فتح باب الهجرة ، وعلى دربهم هاجر شيعية وسنية من فارس واليمن وحضرموت ؛ أقاموا إمارات على الساحل الشرقى كان لها دور بارز فى نشر الاسلام جنوبا على طول الساحل الشرقى وغربا الى الداخل الافريقى سنتعرض لها بتفصيل عند تناولنا هجرات العرب الى المنطقة .

٢- المدخل الشمالى

من مصر جنوبا إلى السودان ، حيث تفرقت طلائع الاسلام على مدى الاجيال نحو عمق إفريقيا جنوبا وغربا حتى ساحل السنغال ، ليلتقى بطلائع المد الاسلامى القادم من المغرب العربى ومن ليبيا إلى تشاد في القطاع الوسيط ومنها تفرق شرقا وغربا.

٣- مدخل الجنوب الاقصي

وهذا المدخل يختلف في طبيعته عن المداخل الاخرى ، فقد عبره الاسلام من الهند وجنوب شرق آسيا (الملايو) قفزا عبر المحيط الهندى ، ومعهما عناصر افريقية من شرق القارة جاءوا جميعا مدفوعون بضغوط الاستعمار فى حوالى القرن السابع عشر ، أى بعد مرور عشرة قرون على الأقل من مد الإسلام في المناطق الشمالية والشرقية واقل من ذلك فى الغرب .

أدوات المــد الإسلامي ودورته

بعد تحلل امبراطورية الامويين ، تعهد العباسيون والدول المتعاقبة فى مصر مد الاسلام عبر النوبة وعبر الصحراء الشرقية حتى البحر الاحمر ؛ وتعهد البربر المد الى شبه الجزيرة الايبيرية وعبر الصحراء الكبرى جنوبا فى القطاع الغربى والوسيط ، وشاركتهم قبائل العرب فى حركتهم للاتجار او للاستقرار ؛ وساهمت دول الاسلام المحلية بعد ذلك فى مد الاسلام ومن بعدها جاءت الجماعات الصوفية ودولها التى كان لها شأن عظيم فى مد الاسلام فى العديد من الانحاء فى أرجاء القارة السمراء .

أخذ المد الاسلامى شكل دورة متكررة لا خروج عنها ، فسار فى ركب التجارة ومع القبائل المهاجرة الى مستقرها الجديد كنواة لمجتمع إسلامى ، يتضخم بالوقت ويتعاظم وضعه الاجتماعى تبعا لتعاظم قوته الاقتصادية ، تُهيئ له ركيزة سياسية تصبح دولة تتعهد مع نموها الطبيعى الدعوة ؛ وعندما تدركها الشيخوخة تختفي تاركة المجال إما لدولة اخرى او لجماعة صوفية تتحول مستقوية بمؤيديها الى دولة تقوم بدورها فى مد الاسلام اما عن طريق الدعوة لتصحيح العقيدة واما عن طريق الجهاد.

<u>اولا :</u> كانت التجارة هى الاساس والمقدمة الاولى في مد الإسلام ، فلم يقتصر دورها ابدا على التبادل السلعى وإنما كان لها بالتوازى دورا ثقافيا ، فالتجار فى حقيقة الامر رُسل ثقافة فعادة ما ينقلون ثقافتهم الوطنية للشعوب التي يحتكون بها او يندمجون فيها ؛ وبفضل قوتهم الاقتصادية وما يستتبعها من مكانة اجتماعية مرموقة ، يتهيأ لهم بمرورالوقت تأثير قوى على الحكام والمجتمع ، ويفرز هذا الوضع المتميز مناخا ايجابيا فى ادراكات المجتمع المحلى نحو هؤلاء التجار وثقافتهم ؛ مما شجع على إنسياب الثقافة الاسلامية بهدوء رائع لتصبح جزء متوحدا فى كيان هذا المجتمع .

<u>ثانيا</u> : حركة القبائل ودورالكيانات الناشئة ؛ ويُعظُم تأثير النواة الناشئة إنصهارها في المحيط السكانى الجديد ؛ وعندما يصبح لها بطون محلية متجذرة الهوية أكثر إندماجا وانتماءً ، تحظى بقبول وتقبلً المجتمع المحلى الذى يعتبرها جزء لا يتجزأ من كيانه ؛ يتعاظم تأثيرها مع تضخم عددها ويتبعه تعاظم دورها بمردود إيجابى على مد الإسلام فى المدى الطويل ؛ وعندما تستشعر النواة المسلمة بمرور الوقت قوتها وتزايد وزنها الإجتماعى والإقتصادى تسعى لإثبات هويتها وقوتها ومكانتها بالقيام بدور سياسى ينتهى اما بالهيمنة او بالانفصال فى كيان متميز (الدولة) ؛ وما حدث فى ممالك غرب افريقيا والنوبة نموذج جلى لهذا المسلسل،

فقد دخلها الاسلام بالتجارة ثم الهجرة وبعد الاندماج والمصاهرة تسلمت البطون قياد الحكم ، ومع تزايد الاسلام قوة اعتنقتة الأغلبية فاصبح يهيمن على صياغة نواحى الحياة .

ثالثا : جهـــــــــاد الدول

ومع تحول كيانات الاسلام الى دول تتعهد نشر الاسلام ، ومع دخول شعوب جديدة الى العقيدة تتداخل عليها مفاهيم غريبة نتيجة اندماج ثقافات جديدة ، ومن سنن التطور أن ينعكس حال الممالك من ضعف او قوة علىً مناحى الحياة بما فيها العقيدة ، فتبادر هذه الدول بالتدخل لتصحيح وتقويم الامر ؛ ولكن فى حالات ضعفها وعدم قدرتها على العمل ، يتقدم الدعاة لهذه المهمة فتتولى الجماعات الصوفية تصحيح مسار العقيدة وحماية الدعوة والزود عن البلاد والامة وان اقتضى الامر الاستيلاء على السلطة ؛ وفي معظم الأحوال فى افريقيا الغربية وشرق افريقيا أخذت هذه الحركات التصحيحية شكل الجهاد في مرحلة ما من تاريخها .

ومن الملاحظ أن أدوات المد الإسلامي الثلاث التجارة وحركة القبائل والكيانات السياسية تعمل بالتداخل أو بالتتابع ، ومن المثير للدهشة أنه كلما إختل دور إحدى هذه الوسائل قيض الله الوسيلة البديلة لتستمر الدعوة فى مسيرتها ، وإذا ما إستعرضنا طبيعة المد الإسلامى جنوب الصحراء ، نلاحظ أنه في بداية عهده تقدم لاجئاً سياسياً إلى الحبشة ، ودخل نطاق الصحراء فاتحا شأنه شأن مده الفاتح في الشمال ، وواصل تقدمه جنوب الصحراء تاجراً ومهاجرا في معظم الأحوال وفاتحا في بعض الأحيان ، وهو نفس النهج الذي سار عليه بإمتداد منطقة " السافانا " ، أما فى أقصى الجنوب الإفريقي فجاء تقدم الاسلام قفزاً برفقة ضحايا الاستعمار من المنفيين والمستعبدين المسلمين من جنوب شرق آسيا من الملايو والهند الذين وصلوا منطقة " الكيب " في القرن السابع عشر الميلادي ، ومعهم العمال المسلمين الذين جلبهم الإستعمار من الهند وزنجبار للعمل في حقول السكر بمنطقة " الناتال ".

اسلام البربر

كان البربر أهم العناصر العرقية فى شمال افريقيا عند الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، بحكم انتمائهم الاصيل الى المنطقة وكثافتهم العددية وانتشارهم الجغرافى الذى امتد ما بين الاسكندرية وحتى ساحل الاطلنطى ، ويليهم من الناحية العددية الافريقيون اهل تونس (١٥٦) ، وهم اخلاط من الفينيقيين واليمنيين والفلسطينيين وبعض اللاتين علاوة على الروم طبقة الحكام الوافدين الذين كانوا أقلية مكروهة قاسى الجميع من سطوتها واذاها واضطهادها الدينى ، الذى لم يسلم منه مسيحيو المذاهب الاخرى المختلفة .

كان أول احتكاك للبربر بالاسلام عندما بعث " عمرو بن العاص " والى مصر ، إبن شقيقته "عقبة بن نافع" الي "برقة" عام ٢٢ هجرية للاتصال بزعمائها تمهيدا لفتحها ، وقد نجح عقبة فى مهمته بسبب رغبة البربر في التخلص من حيف الروم وجورهم ، فعاهدوه على الاسلام ودعم جيشه عند قدومه ؛ وبعد قيامه بفتح الساحل الليبى تقدم داخل الصحراء عام ٢٣هجرية وفتح "فزان" و "ودان" ، في نفس الوقت الذى تقدم اليها " يُسر بن أرطأة " وتوقفت قوات الاسلام عن فتح افريقيا (تونس) بأمر الخليفة "عمر بن الخطاب" الذى حذر من فتحها لحكمة إرتأها قائلا "ان افريقية لمفرقة ، غادرة مغدور بها لايغزوها أحد مابقيت" ؛ فإستقر "عُقبة" عندئذ فيما بين اعوام ٢٣ - ٢٧ هجرية فى برقة واشتغل بدعوة البربر الى الاسلام فأسلم على يديه الكثيرون ، وفى عهد الخليفة عثمان ما بين ٢٨- ٤٠ هجرية ، عرقلت الفتنة الكبرى الفتوح الاسلامية الى انتهائها عام ٤٠ هجرية ؛ بعدها استعاد "عمرو بن العاص" ولاية مصر وإستأنف فتح افريقيا ، فأرسل عقبة عام ٤١ هجرية الى قبيلة "لواتة" فاعادها الي الاسلام ومعها ايضا قبيلة " ودان " .

وبعد إسلام العديد من قبائل البربراستجابت اعداد كبيرة منهم لدعوة عقبة للجهاد ولعظم مكانته بينهم إنضموا الى جيشه ،

---

[156]) كانت تونس تُسمى افريقيا ؛ فلم تكن أفريقيا تعني ابدا جنوب الصحراء.

وبعد ذيوع معجزاته لما هو معروف عنه بأنه مُجاب الدعاء(١٥٧) اسلمت اعداد كبيرة منهم ؛ وتسنى له ان يجمع جيشا كثيفا بعدما رد اليه " يزيد بن معاوية " القيادة ، فتوجه به الى " دكرور" لاستلام القيادة من " ابى المهاجر بن دينار" ، وتابع الجهاد ففتح " طنجة " ، ولما راودته فكرة غزو بلاد " القوط " فى شبه جزيرة " ايبيريا " ؛ نصحه " يليان الغمارى" ، ملك طنجة بتجنب الاشتباك معهم لكثرتهم ، واوصاه بدلا من ذلك بمواصلة فتوحه بين البربر الذين خبرهم ؛ وتقدم عقبة فى السوس الادنى (وليلى) والسوس الاقصى حتى بلغ المحيط وتابع تقدمه داخل الصحراء ؛ وفى طريق عودته في قلة من جنوده أُستشهد ومعه المهاجر بن دينار فى كمين قُرب " تهودة " بالصحراء ، دبره لهم "كسيلة بن لمزم" بالتعاون مع " الكاهنة " ملكة جبال " اوراسى " ، بعد هروبه وارتداده عن الاسلام.

ويُسجل للبربر انهم كانوا اسرع عناصر اهل شمال افريقيا اعتناقا للاسلام (١٥٨) رغم انَّ انتشارهَ بينهم قد مرَّ بصعوبات لارتداد كثيرًا من قبائلهم عن الإسلام نحوًا من اثنتي عشر مرة ، فهم كانوا اسرع من إسلام شعوب الشام والعراق ، وضرب " عمرو بن العاص المثل بسرعة اسلام " برقة وزويلة " فى خطابه الى الخليفة " عمر بن الخطاب " ، ويرُدد حسين مؤنس سرعة اسلام البربر الى عدم انضمامهم لاى عقيدة كتابية ، واسلام زعاماتهم ومعاملة المسلمون الكريمة للبربر وحكامهم ، فـ " عثمان بن عفان " رضى الله عنه فك أسر " زمار بن صقلاب " أمير" مغراوة و زناتة " وأقره أميرا على قومه فعجلت تلك المعاملة بإسلامه واسلام اعداد كبيرة من قومه عرفانا بهذه المعاملة الكريمة ؛ وكان اسلام " كسيلة بن لمزم" أبرز زعماء البربر على يد " المهاجر بن دينار " حدثا عظيما استتبعه أسلام عددا كبيرا من قومه ؛ ولايقلل من شأن الحدث ارتداده بعد ذلك لاسباب شخصية بينه وبين "عقبة بن نافع" (١٥٩) .

و يرجع ميل البربر الى الاسلام ، الى رضاؤهم عن سياسة اللين والملاينة التى اختصها بهم ولاة المسلمون دون سائر السكان ؛ فقد ساوى الحكام بين العرب وبين البربر ، على اساس ان ارضهم فُتحت صُلحا لاعُنوة ؛ فشجعت هذه المعاملة البربر على نصرة الاسلام والاشتراك فى جيش الفتح ، مسجلين بذلك أولى خطواتهم على طريق الجهاد ، ويسجل للولاة المسلمين عقبة بن نافع ، والمهاجر بن دينار وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، وموسى بن نصير ، الفضل الكبير فى مد الاسلام بين البربر .

البربر وحمل لواء الاسلام

بعد انتشار الاسلام بين البربر فى القرن الثامن الميلادى ، حملوه معهم فى حركتهم عبر الصحراء سواء للاتجار او فى هجرتهم ، وانفرد البربر بالدعوة عبر الصحراء وهم الذين خبروا مسالكها على مدى القرون فى الوقت الذى انصرف فيه العرب الى الفتح وتعزيز وجودهم فى شمال افريقيا وشبه جزيرة أيبيريا ، وتركوا الصحراء التى خبروها بالفطرة ولم تغرهم بجدبها ومشاقها للمغامرة بفتوحاتهم فيها وتركوها للبربر خبراء الابحار فيها ، الذين ساعدهم استخدام الجمل على نطاق واسع فى تحقيق ثورة فى علاقات الاقليمين ، تدفقت على متنها الحضارة من الشمال الى الاقليم (١٦٠) ، وكان قدوم المولى " ادريس الاكبر " العلوى ، الى المغرب عام ١٧٢ هجرية / ٧٨٩م ، فارا من ملاحقة أبناء عمومته " بنو العباس " ؛ دعما ونصرة للاسلام بين البربر الذين أمنوا البيعة له ولآل البيت لدى قبائل البربر من " أوربة " أكبر قبائل البربر وتبعها بقية القبائل زناتة – زواغة – زواءة – لماية – سودراتة – غياثة – تنزة – مكناسة – غمارة (١٦١) ، ويُسجل لقبيلة " صنهاجة " البربرية العربية الأصل قيامها بتوحيد قبائل

---

[١٥٧]) وهو فى طريقه الى فتح " خاوار" ، فى الموقع الذى سُمى " ماء الفرس " ، تفجر الماء من تحت قدمي فرسه في واد قفر استجابة لدعائه ، حيث حفر المسلمون سبعين بئرا في المنطقة عندما ادركوا وفرة الماء ليرتوى الجيش ، وفى " قمونية " عام ٥٠ هجرية " اخلت الوحوش المكان استجابة لندائه " إنا اصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، إنا نازلون فارتحلوا " ؛ وهو المكان الذى سُمى بعد ذلك "وادي الوحوش" وإتخذه عقبة موقعا لبناء "القيروان" التى انتهى من بنائها عام ٥٥هجرية

[١٥٨]) ويأتى الافريقيين من بعدهم فى سرعة الاسلام .

[١٥٩]) أسلم كسيلة على يد ابن دينار وكانت العلاقة بينهما طيبة ؛ وبعد إستلام عقبة القيادة المرة الثانية من ابن دينار تسببت شِدته مع كسيلة رغم نُصح ابن دينار لاستعداء الاخير وارتداده عن الاسلام وانضمامه الى " الكاهنة " ملكة جبال " اوراسى " ، بعد هروبه.

[١٦٠]) دخل الجمل افريقيا باعداد محدودة لاول مرة عام ٥٢٥ ق.م على يد الفرس عند غزوهم مصر ، وكانت ندرته سببا فى استيلاء قيصر الروم على أعداد منه من مدينة تابسوس عام ٤٦ق .م ، وقد استغرق وصول الجمل الى المغرب الأقصى عدة قرون ومع قدوم العرب تزايد استخدامه على نطاق واسع.

[١٦١] ٢٤) طارد العباسيون ابناء عمومتهم العلويين على يد موسى الهادى العباس منذ موقعة " الفخ " فى الحجاز عام ١٦٩ هجرية فتفرقوا فى الامصار .. المرجع :الامام ادريس مؤسس الدولة المغربية – ص ٣٢ و ٤٠ - مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الاسلامى – الرباط العدد ٣١ لعام ١٩٨٨م.

البربر ونشر الإسلام بينهم ومن بعدهم بين الشعوب الأفريقية بدءا بغانا ، وعندما بلغت صنهاجة مبلغا كبيرا من القوة تمكنت من توحيد معظم القبائل البربرية ، وناجزت " غانة " المملكة الوحيدة ذات الحضارة بجنوب الصحراء ، وإنتزعت منها " أودغشت " عام ٢٢٢ هجرية / ٨٣٦م واتخذتها حاضرة لها لكن غانة استعادتها عام ٩٩٠م بعد ضعف صنهاجة وانحلالها .

وتناقلت قبائل البربر لواء الدعوة الواحدة تلو الأخرى ؛ فسلمته صنهاجة الى المرابطين ومنهم انتقل الى الموحدين (عام ٥١٥هجرية / ١١٢١م) ، الى أن تسلمته الشعوب الأفريقية ذاتها ، لتصبح الدعوة مسئوليتها فى ألمصاف الأول فى نطاق السافانا ، ولم يكن تحمل الشعوب الأفريقية مسؤولية الدعوة يعنى انقطاع دور البربر فقد استمرت مشاعل الاسلام مضيئة فى ايديهم ، تتناقلها قبائلهم فى عمق جنوب الصحراء وعبرها ؛ وكلما اشتدت بهم الاسباب كالجفاف وشظف العيش وتعرضوا للمعاناة على أيدى قبائل " بنى هلال و بنى سليم " العربية ، زادت حركتهم كثافة فكانت معاناتهم من حُسن طالع الاسلام (١٦٢).

مناجزة البربرغانا

تقدم "المرابطون" ، بقيادة عبدالله بن ياسين عام ١٠٥٤م لفتح "أودغشت" مرة ثانية وغانة ، لكن المنية وافته قبل أن يتحقق هدفه ، وبعد وفاته بخمس وعشرين عاما تمكن تلميذه أمير المرابطين " ابوبكر عمر اللمتوني " وأبنه الأمير أبو يحيى ، من دخول العاصمة " كومبى " سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م وأسلم ملكها تنكامين (١٦٣) ؛ فكان فتحا لغانة دخولها عباءة الإسلام ، بعدما كانت اضاءتها من قبل تباشير عابرة بإسلام ملكها تلوتان ابن تكلان سنة ٢٢٢هـ - ٨٣٧م دون ان يعتنقه ملوكها التابعين وان كانوا بقوا على مودة مع المسلمين واستعانوا بهم فى كثير من شئون البلاد وادارتها.

تجارة عبر الصحراء

صاحب تطور تجارة عبر الصحراء تطور مراكزها على طول الطريق الى " غانة " ، كما اسبغ ذلك على غانة تطورا كبيرا من جراء توسع التجارة بإستقرار مجتمع التجار المسلمين فأصبحت مركزا تجاريا عظيما ، إجتذب قطاعات اخرى من المسلمين من العاملين فى قطاع الخدمات المجتمعية اللازمة لهم بما فيهم العلماء لرعاية الجانب الثقافى للجالية المسلمة ،علاوة على الصناع والحرفيين المهرة .

هيأ هذا الوجود بابا لنقل كثير من تطبيقات الحضارة الاسلامية ، فأصبح المجتمع الاسلامى بحضارته الفائقة وثراؤه ونفوذه محل اهتمام ملوك غانة والمجتمع ، فاستعان الملوك بالمسلمين في مجال العلم وإدارة شئون البلاد ؛ واتاحت مكانة التجار المتميزة وقوتهم الاقتصادية نفوذا لدى الملوك والمجتمع الذين أقبلوا على الثقافة العربية الارقى ، فسهل ذلك انتشار الإسلام وثقافته واصبحت غانة اكثر تحضرا ، ومع تمكن الاسلام من ملوك غانة وزعماء قبائلها انتشرت العقيدة لتصبح بعد فترة غانة مملكة اسلامية .

ارتبط مد الاسلام بمد التجارة وارتبطت حركتهما ، فكان تغيرمد حركة التجارة يعنى ايضا تغير حركة مد الاسلام ، فتحركا معا عبرالصحراء الى غرب افريقيا شرقها وغربها وجنوبها ؛ الى الساحل والداخل ، وغير كليهما اتجاهه في القرن الخامس عشر الميلادى عندما افلت تجارة الصحراء بسبب اغلاق بوابتيها الشمالية "سلجماسة " والجنوبية بسبب حروب المراكشيين والأسبان فى الشمال ، والغزو المراكشى فى الجنوب فتحول مسارها الى مناطق الداخل والساحل الغربي الأكثر إستقرارا بإجتذاب من التجار الأوروبيين الذين ظهروا هناك واستتبع هذا افول طريق عبور الصحراء وتدهورت مراكزه الخدمية .

وكان تغيير التجارة وجهتها بمثابة تغيير فى وجهة مد الإسلام على نحو متطابق ، وفى نفس الاتجاه فحركة التجارة والاسلام صنوان ، فبينما كانت التجارة وعاء للإسلام يتمدد على متن حركتها ، اصبح الاسلام هو ايضا وعاء لها تتمدد على متنه فمن قصد الدعوة من اجل الدعوة كان يتاجر ايتعيش فى حركته ؛ وكان تحول مسار طرق التجارة خيرا للدعوة ، فقد بلغت مناطق لم تكن ت بجهاد ممالك الإسلام ؛ فقد إخترقت بالدعوة حاجز الغابات الإستوائية التى عجز الجهاد عن إجتيازها ، وبالمقابل خدم

---

[١٦٢] دفع الخليفة الفاطمى فى مصر بقبائل " بنى هلال و بنى سليم " العربية الى شمال افريقيا لتأديب " المعز بن باديس " (١٠١٦ - ١٠٦٢م) حاكم تونس لخروجه عليه ؛ فقامت هذه القبائل بمحاصرة القيروان و نهبتها بعد سقوطها وخربوها فافل نجمها وانتقل الثقل الثقافى الى الاندلس والمغرب .

[١٦٣]) ابن خلدون صـ

الإسلام التجارة بدفعها داخل دائرة حركة التجارة الدولية لعالم الاسلام بسوقها الواسعة وسيطرته على مقاليد التجارة الدولية (١٦٤) بفضل امتداداته الامبراطورية فى ارجاء واسعة من العالم ، التى وفرت الامن والخدمات لطرق التجارة ومنها غرب افريقيا التى وفرت امبراطورياتها بإتساعها الامن والاستقرار لطرقات التجارة فى اراضيها فزادت التجارة ازدهارا .

هجرات القبائل

وحركة القبائل فى مد الاسلام وثقافته لا يقل عن دور التجارة ، فحركة القبائل كحركة التجارة تحمل فى طياتها الاسلام وثقافته واتاحت الفرصة لامتزاج شعوب المنطقة وأعادة صياغة التركيبة العرقية والثقافية فيها ، فقبائل البربر والعرب بحركتها الدائمة على مدى خمسة قرون إمتزجت مع الفولاني وغيرهم ، فأسست مرتكزا بشريا لبطون إفريقية غالبة فى كامل قطاع السافانا المستعرض كان لها دورا غالبا فى مد الاسلام ، ببلوغها بالدعوة آفاق لم تكن لتبلغها بدون اصالة هذه الشعوب فى المنطقة ، تلك الشعوب التى اصبحت تملك الاسلام ويملكها فرضت حضارته عليها مد متواصل وتدفق متلاحق لتدلى هى نفسها بمساهماتها الفكرية فى دلو تلك الحضارة.

اهم الشعوب إسهاما في الدعوة

& الشعوب السنغـالية

وينتمى إلي هذه المجموعة شعب التكرور، الذي أنجب المجاهد الكبير " عمر الفوتى التكرورى " (عمر تال) ، والفوتى" نسبة الى بلدته فوتا والتكرورى نسبة الى قومه ، وكان عمر الفوتى يسعى الى اقامة دولة اسلامية تضم غرب افريقيا ؛ وتمكن كمقدمة من تأسيس دول سلفية فى الفوتاجالون ، قامت بالتصدى للاستعمار الفرنسي وتجارة الرقيق فى السنغال في القرن ١٩م ، وكان الفولا عصب جهادة .

وإلي هذه المجموعة ينتمى شعب الماندى (الماندينجو أو المالينكا (الماليين) سبق الاشارة اليهم فى كشوف عبر الاطلنطى ، وهم من أرباب التجارة ، غطى نشاطهم مابين النيجر الأعلى والساحل الغربي في السنغال ، ولهم فضل تأسيس مملكة مالى الإسلامية العظيمة ؛ وينتسب اليهم شعب صنغى الذى داخلته بعد الغزو المراكشى عناصر أندلسية ، جاءت الى المنطقة ضمن جيش الغزو ، وإختلطت بقوة مع الفولة والبربر والبامبرا وشعوب أخرى.

وشعوب التكرور والماندينجو هم أبرز من رفع لواء الدعوة في وادى النيجر ، ولهم فضل نشر الإسلام في ساحل العاج وسيراليون وساحل الذهب (غانا المعاصرة) ، والتكرور هم من حملوا لواء الدعوة إلى السودان الغربي وغينيا ، وكان لهم دور رائع في محاربة تجارة الرقيق التى قامت مع بداية المد الاستعمارى في شمال سيراليون، ونجحت جهودهم الى حد ما فى اقامة عهد من الأمن بعد إضطراب ووحشية على حد قول المؤرخ الإنجليزى "كلود جورج" (١٦٥) .

وينتمى إلى المجموعة السنغالية الولوف والهوسا الذين خالطتهم دماء بربرية وعربية منذ القرن ٨ م ، ودخل منهم قطاعاً في الإسلام فى القرن العاشر ، بينما تأخر دخول قطاع آخر حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، وهم أهل تجارة إستقروا في شمال نيجيريا ، وقامت على أرضهم المملكة السلفية للمجاهد الأكبر " عثمان دن فوديو " ، التى شمل جهادها قطاعا كبيرا من الاقليم وكان لها فضل كبير فى نشر الاسلام .

& الفـولا

وهم بدو رُحل يطلق عليهم احيانا "البوهلة" أو " البولة " ؛ وأُختلف علماء الاجناس فى أصلهم فمن قائل أنهم حاميون

---

[164]) يقول جيمس فيرجريف فى كتابه الجغرافيا والسيادة العالمية .. " ان العرب سيطروا على مقاليد التجارة الدولية البحرية وتوسعوا فيها بفضل تقدمهم الملاحى ومعلوماتهم المتقدمة التى اقتبستها عنهم اوروبا وإعتمدت عليها فى الوصول الى الشرق وهو حدث كانت نتائجه افعل تأثيرا فى مجرى التاريخ " ، المصدر الجغرافيا والسيادة العالمية صـ٢١٧ (سلسلة الالف كتاب) ترجمة على رفاعى الانصارى، وهذه الكشوف كانت تستهدف فى البداية الاسلام فقد استهلت البرتغال ريادة الكشوف الاوروبية بدافع عدائى لاقتناص التجارة الدولية من ايدى المسلمين وتحويلها بعيدا عن أرضهم.

[165]) نعيم قداح ص ٨٦ ـ افريقيا الغربية فى ظل الإسلام .

جاءوا من شرق إفريقيا ، وآخرون يقول بأنهم ساميون جاءوا من " برقة " في مطلع العهد الميلادي ، وإستقروا في "تمبكتو " و "ماسينا " ، وتقدموا غربا في القرن التاسع الميلادي إلى بلاد " فوتا " ، ثم ارتدت بعض عناصرهم فى القرن الحادي عشر الميلادي ، فى هجرة عكسية عائدة الى الشرق حتى وصلوا حوض النيل ، تاركين بطونا انصهرت محلياً على امتداد مسيرتهم مابين السنغال و تشاد ، ومن أكثر هجراتهم تأثيرا فى مد الإسلام ، هجرتهم خلال القرن السابع عشر الميلادي ، فقد هاجرت كتل من موطنها في حوض جامبيا لتستقر فى السنغال وفوتاجالون هروبا من مطاردة النخاسة الأوروبية احيانا ومدافعتها احيانا اخرى ؛ و كانت تلك العناصر عصب جهاد الحاج " عمر الفوتى التكرورى " السابق الاشارة اليه .

وكتل الفولا المهاجرة إلى نيجيريا شكلت هى ايضا عصب جهاد " عثمان دن فوديو " مؤسس امبراطورية الهوسا السلفية فى كل من ارض الهوسا (١٦٦) و تشاد ، فى سعيه لإقامة دولة إسلامية موحدة ، وهم من أشد الدعاة حماساً للإسلام فقد تعهدوا بقوة وإخلاص عظيمين لواء الدعوة عقب أفول " مالى " ، ويصفهم الرحالة الإنجليزى " مور " الذي زار بلادهم عام ١٧٣١م بأنهم يشبهون العرب ويتحدثون العربية (١٦٧) .

& العـــرب

تحرك العرب فى صحبة البربر عبر الصحراء المغربية عقب الفتح العربى ، وهاجروا الى كل من تشاد فى القرن العاشر الميلادي ونيجيريا والنيجر فى القرن الرابع عشر الميلادي ، كما وصلت بعض عناصرهم صنغى مع الغزو المراكشى أواخر القرن السادس عشر الميلادي الى ، كما ان لهم بعض الفضل فى نشر الإسلام في وادى النيجر .

& المجموعة التشادية

وموطنها السودان الأوسط ، ومن شعوبها " توبو " الذين يقيمون في المنطقة المعروفة بإسمهم ؛ وهم خليط من الزنوج والبربر والفولة والعرب ، وهناك أيضاً شعب " ودائى " وشعب " كانورى " المقيمون في "بورنو" وهى شعوب قامت بنشر الإسلام في عهد مملكة " كانم وبورنو ".

& الجنود الهنود والعبيد المحررين

قام المسلمون من جند الهند الذين خدموا ضمن القوات البريطانية في "ساحل الذهب" غانا المعاصرة بنشر الاسلام على المذهب الأحمدى ، وقام العبيد المسلمون المحررون والعائدون من أمريكا اللاتينية المعروفون " بالناكوس " بدور كبير في نشر الإسلام مطلع القرن العشرين فى المناطق التى استقروا بها على الشواطئ الغربية لإفريقيا حول خليج غينيا وفي داهومى و بورتو نوفو .

مسيرة مد الاســــلام

المرحلة الاولى .. مرحلة المد عبر الصحراء جنوبا الى مملكة غانة القديمة ، وهى المرحلة التى تحمل فيها البربر المسئولية الرئيسية لدفع نواة المد الاسلامى فى الصحراء و منطقة السافانا ، وكانت ادواتها الرئيسية التجارة وحركة القبائل.

---

[١٦٦]) يقع الموطن الأصلي للهوسا في شمالي نيجيريا وجنوبي جمهورية النيجر الحاليتين، وهي المنطقة التي تعرف في التاريخ بـ"بلاد الهوسا" (Hausa Land) قبل أن يقوم المستعمر الأوروبي برسم تلك الخطوط الوهمية التي أطلق عليها الحدود السياسية لخدمة مصالحه ، وخلال القرون السالفة خرجت مجموعات كبيرة من الهوسا من موطنها الأم بغرض التجارة ونشر الدعوة الإسلامية وأداء فريضة الحج وإستقرت بعدد كبير من الدول (غانا - توجو - الغابون - جمهورية الكونغو - غينيا بيساو - بوركينافاسو - بنين - الكاميرون - تشاد - إفريقيا الوسطى - الجزائر - ليبيا - السودان - المملكة العربية السعودية - إريتريا - إثيوبيا.

[١٦٧]) نعيم قداح ص ٨٨ - افريقيا الغربية فى ظل الإسلام .

والمرحلة الثانية .. مرحلة التمدد فى نطاق السافانا من بحيرة تشاد شرقا الى جبال الفوتاجالون غربا ، وفيها تولت مسئولية هذه المرحلة الشعوب المحلية الافريقية وبطون البربر المتأفرقة وكانت ادواتها الفتح والتجارة والاستيطان ؛ وقد شهدت هذه المرحلة مجد المد الاسلامى الجهادى للكيانات الاسلامية الكبرى غانا ومالى وصنغى .

والمرحلة الثالثة .. مرحلة التمدد نحو الساحل الغربي عبر جبال الفوتاجالون و نحو الساحل الجنوبي عبر حاجز الغابات الاستوائية ، وفي هذه المرحلة افتقد المد الاسلامى الإرادة السياسية بعد اختفاء ممالك الإسلام الكبرى التى طالما دعمته امام ضغوط الاستعمار ؛ واستمر الاسلام فى تقدمه إعتماداً على قوته الذاتية في بيئة معادية بعدما استنفذ التصدى للاستعمار معظم جهاد الصوفية ودولهم السلفية .

و المرحلة الرابعة .. مرحلة المد الذاتى الحر والكثيف فى ظل الاستعمار.
ونتعرض لكل مرحلة على نحو اكثر تفصيلا في الفصل التالى

الفصل الثانى
مسيرة مد الاســــلام
الكيانات السياسية للاسلام

المرحلة الأولى - ممالك الإسلام
من القرن ١٣ وحتى بداية القرن ١٦م

(١) مملكة غانة (١٦٨)

مرت المملكة فى طريقها الى الاسلام بمرحلتين الاولى وثنية لم يسبق لها فيها ان تعرفت على الديانات الكتابية المتقدمة على الاسلام فكان الاسلام فيها ضيفا مُرحبا به اخذا بمكونات حضارته ، والثانية مرحلة الاسلام الخالص ونتناولهما على النحو الاتى :

العصر الوثنى [بين القرنين ٤ - ١٣م]

تأسست غانة في شمال غرب حوض النيجر الأعلى فى القرن الاول الميلادى على ايدى شعب السوننكى احد فروع بربر صنهاجة ، على حد ما ذكره المؤرخ الإسلامي " محمود كعت " في كتابه " الفتاش " ، وفي القرن الرابع لحقت بهم جماعات أخرى من البربر أكثر تطوراً استولت على السلطة ، وبمرور الوقت إنصهرت تلك الجماعات فى شعب السوننكى فنشأ عن ذلك الاندماج جيل جديد تمكن من زمام الحكم سنة ٧٧٥ م ، وبفضل التجارة التى انتعشت على ايدى العرب والبربر ، وجدت غانا دافعا على التوسع لفرض السلام والاستقرار لتأمين طرق القوافل لتعزيز التجارة وبالتالى ازدهارها .

لم يكن القرن التاسع الميلادي أول عهد المملكة بالاسلام فيذكر دافيدسون ان المسلمون وصلوا الى شاطىء المحيط سنة ٦٨١ م ؛ وكانوا قبل ذلك بخمسة عشر عاما قد دفعوا ببعوثهم جنوبا عبر الصحراء واعتادوا فى الاعوام التالية ارتياد السودان الغربى في ارض السافانا بين الاطلنطى وحدود السودان النيلى (١٦٩) ، ويتحدث المؤرخ الاسلامى البكرى عن بشائر إسلامية متقدمة فيذكر أن الأمويون أوفدوا حملة إلى غانة في صدر الإسلام مابين ٧٣٤ – ٧٥٠ م يُعتقد أنها حملة " عقبة بن نافع " ، وأن أحفاد جنودها ذابوا عرقيا وثقافيا فصاروا على دين المنطقة بحكم السنن الغالبة التى بمقتضاها تمتص الأغلبية الأقلية .

استهدفت مملكة البربر المتحدة بقيادة صنهاجة (القرنين التاسع والعاشر الميلادي) غانة ، وإنتزعوا منها " أودغشت " عام ٢٢٢ هجرية / ٨٣٦م واسلم ملكها السوننكي انذاك تلوتان أو بولاتان ابن تكلان حوالي سنة ٢٢٢هـ - ٨٣٧م وحارب جيرانه الوثنيين ، ولكن هذا لم يجعل ملوك غانة من بعده يُسلمون خاصة بعد ضعف دولة البربر التى تعهدت انتشار الاسلام فى غانة وهو ما شجعهم على استرداد أودغشت عام ٩٩٠م ، وفى الوقت الذى استعصت فيه المملكة على السقوط كانت وفود التجار المسلمين تتوافد دون اى حساسية او عدائية من جانب المجتمع الغانى الذى تعايش مع الاسلام واسرت ثقافته ملوكه فقربوا المسلمين واستخدموهم فى ادارة شئون البلاد ؛ وبمرور الوقت تشكلت نواة مجتمع اسلامى ، تضخم بالتوالد واضافت اليه الهجرة الوافدة المعلمين و الفقهاء الذين جلبوهم من العالم الاسلامى لتعليم أبنائهم ، ويشير " المهلبى " إلى وجود تجار مسلمين من مصر والمغرب مستقرين بالإقليم أسهموا في نشر العقيدة ، كما ذكر أن حكام " كاو كاو" (كوكو) إعترفوا بالإسلام نحو عام ٩٨٥ م ، وكانت هذه مقدمة لزيادة كثافة وانتشار المد الاسلامى الذى إعتنقه بعض رؤساء القبائل فى عام ١٠٤٠م .

تعاظم وضع المجتمع الاسلامى الجديد بفضل تميزه الاقتصادى والثقافى والحضارى و ثراء التجار ومكانتهم لدى الملوك فأظهروا مودة وتسامحا نحو الاسلام والمسلمين ، ويقول البكرى " ان الملك رغم وثنيته كان يُؤثر المسلمين الامر الذى شجع كثيراً من الوثنيين على إعتناق الاسلام طمعاً في مثل تلك الحظوة (فالناس على دين ملوكهم) ، فكثرت أعداد المسلمين حتى أصبحت لهم احياء خاصة بهم فى العاصمة " يرسنى " التى انقسمت الى شطرين ؛ أحدهما للمسلمين و به ١٢ مسجدا مزودة بالآبار للزراعةً وخدمة طاقمها من الأئمة والمؤذنين والراتبين والفقهاء وحملة العلم ؛ ويستطرد فى وصف القطاع المسلم المتمدين فيصف مبانيه بأنهاعلى الطراز المراكشى بينما القسم الوثنى متخلف و يشبه الغابة و يضم مسجدا لخدمة من يفد اليه ؛ ويشير"البكرى" الى تأثير الحضارة الاسلامية على مختلف جوانب الحياة الإدارية والإجتماعية فى غانة ، فيقول ان ملوكها إستخدموا المسلمين في

---

[١٦٨])غانة القديمة التي نتحدث عنها هنا تقع في شمال وشمال غرب حوض النيجر الاعلى ؛ ولا علاقة لها بـ غانا الحالية التى هى في الأصل ساحل الذهب والتى اطلق عليها " نكروما عند إلاستقلال اسم " غانا " تيمنا بأولى الممالك الإفريقية .

[١٦٩]) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد – باسيل دافيدسون ص٣٠ .

إدارة شئون البلاد بشكل كثيف فمنهم صاحب بيت المال والوزراء ، ومعظم حاشية الملك وأكثرية الجند والمترجمين والمدونين الذين إستخدمو اللغة العربية في تدوين السجلات الرسمية والعمليات التجارية لعدم وجود أبجدية للمنطقة " ، وهو دليل على عدم سبق معرفة المنطقة للكتابة ومدى تخلفها الحضارى .

العصر الإسلامى

تمكن المرابطون بقيادة " أبو بكر ابن عمر اللمتوني" وأبنه الأمير أبو يحيى من الإستيلاء على العاصمة " كومبى" عام ٤٦٩هـ /١٠٧٦م بعد نضال استمر من ١٠٥٤ الى ١٠٧٦ م ، وخلال بقاء القوات البربرية أسلم الملك تنكامين وعدد كبير من سكان المملكة طواعية ولم يتخلوا عن عقيدتهم رغم انسحاب القوات الإسلامية بعد عامين وتسارعت وتيرة انتشاره بعد ان اعتنقه الملوك ورؤساء القبائل ؛ فإسلام الملك " تنكامين " ومعه عدد كبير من سكان المملكة كان اعلان بانتصار الإسلام السياسى استتبعه أسلام معظم زعماء الأقاليم ورعاياهم ، وإمعاناً في الإسلام إدعى بعض الملوك شرف الإنتساب لآل البيت ، كما راحوا يُوثقون علاقتهم بالخلافة العباسية في بغداد (١٧٠) وبذلك نرى أن المملكة سواء في حقبتها الوثنية أو الإسلامية كانت حلقة من حلقات تاريخ الحضارة الإسلامية وبذلك أصبحت غانة منذ ذلك التاريخ مملكة اسلامية .

(٢) أمبراطورية مــــالى
من ١٢١٣م وحتى نهاية القرن ١٦

ميلاد مالى

استقل شعب الماندينجو فى مملكة " كانجابا " بعد انهيار غانة وتوسع فى اراضى دولة المرابطين فيما بعد ، و فى عام ١٢٠٣ م استولت قبائل الصوصو(غالبيتها انذاك من الوثنيين) بقيادة " سومانجورو " على العاصمة " غانة " واتجهت بعد ذلك للسيطرة على بقية البلاد ؛ فإستولى سوندياتا عام " ١٢٣٧م " على مملكة " كانجابا " المسلمة واخضع ما تبقى من أراضى " غانة " ممهدا الطريق لاقامة إمبراطورية مالى العظيمة ؛ ويقول ابن خلدون ان الملك جور ماندانا كوناتي هو اول ملك يُسلم من ملوك مالى وذلك في القرن الخامس الهجري تقريبا وحج في عام ٤٤٢هـ ، وان قبائل الماندنجو اعتنقت الإسلام حين دخلها جماعة من المسلمين وحج جماعة من ملوكهم أولهم برمندار.

التوسع الامبراطورى

وفى عهد " منسا ولى " [١٢٥٥ : ١٢٧٠ م] تحولت مالى الى امبراطورية مترامية الاطراف ، وبلغت أقصى إتساعها في عهد " منسا موسى بن أبي بكر " المعروف بـ " كانكان موسى" [حكم في الفترة من ٧١٢- ٧٣٨هـ / بينما تشير بعض المراجع انها ١٣٠٧ : ١٣٢٢ م] ؛ حتى غطى نفوذها سهل السافانا الفسيح من تشاد شرقا حتى السنغال غربا وأرض " الهوسا " فى شمال نيجيريا ، وبلغت ضخامتها مسيرة عام حسب وصف كانكان موسى نفسه لاحد قضاة القاهرة اثناء مروره بها في رحلته الى الحج (١٧١) .

الكشوف البحرية لمالى فى الاطلنطى

ولم تتوقف طموحات ملوك مالى فى التوسع عند نطاق البر ، وانما تجاوزته إلى ما وراء البحر فأرسل سلف منسا موسى حملة بحرية لإستكشاف ما وراء الأطلنطي ذهبت ولم تعد ؛ فأعقبها منسا موسى باخرى كان نصيبها الإخفاق ، ويتحدث العمرى في الفصل العاشر من كتابه " مسالك الأمصار " عن رحلات مالى في الاطلنطى قام بها اسلاف كانكان موسى (كما اسلفنا صـ٢٠) ، بالفى سفينة ابحرت غربا ولم تعد ، ويقول العمرى نقلا عن ابن امير الحاجب ان كانكان ذكر له انه صمم على اكتشاف نهاية البحر المجاور فأرسل مائتى سفينة محمل نصفها بالرجال والنصف الاخر بالذهب والمياه وبمؤن تكفيها عامين ، لم يعد منها إلا واحدة

---

[١٧٠]) إفريقيا الغربية في ظل الإسلام –نعيم قداح ص ٦ .

[١٧١]) إفريقيا القديمة تُكتشف من جديد صـ ٤٦ - باسيل دافيدسون - ترجمة نبيل بدر (مجموعة نافذة على الفكر العالمى الحر) نقلا عن ابن بطوطة .

فقط ، ذكر قائدها انه لم يغامر بدخول نهر شديد التيار يصب في البحر اختفت فيه بقية السفن (١٧٢).

ولا تكُمن عظمة ذلك الملك الورع " منسا موسى " بما حققه من توسع ، وإنما فيما بلغته المملكة من رُقي على أيديه ، فقد فتح بمحبته للثقافة والعلم باباً واسعاً اندفعت منه قوى التحضر لتفعل فعلها على نحو غير مسبوق فى الاقليم ، فحققت هذه الدولة اعظم انجاز فى مجال الحضارة فى الاقليم حتى ذلك العصر ؛ فبفضل انتشار ثقافة الإسلام ؛ تجاوزت المنطقة بمراحل أقصى مستوى بلغته الحضارة فيها ممثلة فى حضارة " غانة " ، وهو ما يعنى تحرر الاقليم لاول مرة من ربقة " ازمة الحضارة " .

الإدارة

طور" سوندياتا " البلاد من الناحية الادارية ، فقسمها الى مقاطعات ادارية وعمل على تنظيمها ، وفى عهد منسا موسى بلغ بها مرحلة متقدمة تتلائم واتساعها وقوتها ، فإستكملت " مالى " فى عهده مظاهر دول ذلك العصر ؛ فإستحدث نظام الإحتراف في الجيش لتوفير قوة عسكرية قادرة على حماية الأمن الداخلى والخارجى للإمبراطورية ؛ وقسم البلاد الى أربعة عشر إقليماً إدارياً طبقاً لإصولها العرقية ، جعل لكل منها حاكم يتمتع بسلطات واسعة على غرار الحكم الذاتى ، على ان يقوم الحكام بالمثول أمامه من حين لآخر لإطلاعه على الأوضاع ، وشكل حكومة تضم فريقاً من المستشارين والوزراء كلهم من المسلمين وأنشأ نظاماً للأوسمة والرواتب لمكافأة الحكام وشحذ هممهم الإدارية ، وهو تطورغير مسبوق فى شكل الحكم وفى تاريخ ادارة الاقليم .

وبلغت المملكة في عهده أوج عظمتها وقمة تطورها وهو ما سجله " بوفيل " بالقول بان المملكة كانت تمثل في تاريخ الدول الإفريقية الأصيلة نموذجاً رائعاً لقدرة الزنوج على التنظيم السياسى وتحقيق الرخاء والتوسع (١٧٣).

الإقتصـــاد والتجارة

---

[١٧٢]) المرجع محاضرة الدكتور علي بن المنتصر الكتاني المغربى التى ذكر فيها أن مسلمي مملكة مالي هم اول من عبر المحيط الى امريكا مذكرا بما جاء على لسان شهاب الدين العمري في كتابه "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالي منسا موسى لما ذهب للحج عام ١٣٢٧م ، أخبر بأن سلفه أنشأ مائتي سفينة وقطع المحيط الأطلسي نحو الضفة الأخرى وأنابه عليه في حكم مالي ولم يعد ، وبذلك بقي هو في المُلك " ، ويستطرد الدكتور علي ان كتابات وُجدت في البيرو والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة إما بحروف كوفية عربية او بحروف لغة الماندينك الإفريقية لشعب الماندينك "الفلانى" المسلم ، تدل على إنتشار شعب الماندينك من البحر الكاريبي إلى شمال وجنوب الأمريكتين ، ويُضيف ان لغتهم تركت آثارا حية لدى الهنود الحمر فهناك قبائل هندية مازالت تكتب بحروف لغة الماندينك ، وتشير كتابات المكتشفين الأوروبيين الأوائل بمن فيهم كريستوف كولومب؛ الى الوجود الإسلامي في أميريكا قبل وصول الاوروبيين ، ففي كتاب "إفريقيا واكتشاف أمريكا" "Africa and the discovery of America" للأستاذ ليون فيرنيل بجامعة هارفرد عام ١٩٢٠م ، يقول: "إن كريستوف كولومب كان واعيا الوعي الكامل بالوجود الإسلامي في أمريكا"، وركز في براهينه على براهين زراعية ولغوية وثقافية، وقال بأن الماندينك بصفة خاصة انتشروا في وسط وشمال أمريكا، وتزاوجوا مع قبيلتى الهنود الحمر "إيروكوا" و"الكونكير" في شمال أمريكا ، وانتشروا في البحر الكاريبي جنوب أمريكا، وشمالا حتى وصلوا إلى جهات كندا ، وذكر كريستوف كولومب بأنه وجد أفارقة في أمريكا كان يظنهم من السكان الأصليين ، وذكر الكاتب الفرنسي "جيم كوفين" في كتابه "بربر أمريكا"، "Les Berberes d'Amerique"، بأن قبيلة "المامي"، "Almami"، الموجودة فى أمريكا قبل كريستوف كولومب وتتركز في الهندوراس في أمريكا الوسطى ، ترجع تسميتها الى كلمة المامى المعروفة في إفريقيا الغربية بأنها "الإمام"، وعادة ما تُطلق على زعماء المسلمين ، كما اشار الى ذلك كتاب "التاريخ القديم لاحتلال المكسيك"، "Historia Antigua de la conquesta de Mexico"، لمانويل إيروسكو إيبيرا، فيقول: "كانت أمريكا الوسطى والبرازيل بصفة خاصة، مستعمرات لشعوب سود جاؤوا من إفريقيا وانتشروا في أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية" ؛ واكتشف الراهب فرانسسكو كارسيس، عام ١٧٧٥م قبيلة من السود مختلطة مع الهنود الحمر في نيوميكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية "المكسيك الجديدة"، واكتشف تماثيل تظهر في المرفقات تدل دلالة كاملة بأنها للسود الذين لم يكن لهم وجود في أمريكا اصلا إذا كانوا قادمين من إفريقيا.

ودلل المحاضر على الوجود الإفريقي الإسلامي في أمريكا، من الذهب الإفريقي وتجارة القطن قبل كولومبوس ، فالذهب الإفريقي في أي مكان له دلالة ثابتة على أصله خاصة فى القرن الثالث عشر فقسمته ٣٢ موزعة ١٨ ذهبا ، و٦ فضة، و٨ أقسام نحاس، وهذه التركيبة من الذهب وجدت عند الهنود الحمر ؛ وهناك قرائن لغوية ، فالكلمات التي تطلق باللغة العربية أو اللغات الإفريقية على النقود، شبيهة بمسميات الهنود الحمر كـ غنى، وغنية، وغنيمة أصبحت بلغة الهنود الحمر: "غواني" "Guani"، معناها: الذهب كنقود، ونقية ونحاس، أصبحت بلغتهم: "نيكاي"، بمعنى: حلي من ذهب كلمة "التبر" صارت: "توب"، أي: الذهب ؛ وتجارة القطن جاءت من إفريقيا الغربية وتعجب كولومب نفسه في كتاباته حيث قال: "إن الهنود الحمر يلبسون لباسا قطنيا شبيها باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات"، وابنه أكد ذلك الكلام ، وهناك في غواتيمالا بأمريكا الوسطى قبيلة "كاليفونا" "Galifona" يسمونها "الهنود الحمر السود"، وهم بقايا المسلمين الماندينكا كثير من عاداتها لا زالت عادات إسلامية ؛وقال "ميبرا موس" عام ١٩٤٦في مقال في جريدة "ديلي كلاريون"، "Daily Clarion"، في "بيليز"، وهي إحدى الجمهوريات الصغيرة الموجودة في أميريكا الوسطى، "عندما اكتشف كريستوف كولومب الهند الغربية، أي: البحر الكاريبي، عام ١٤٩٣م، وجد جنسا من البشر أبيض اللون ، خشن الشعر، اسمهم "الكاريب"، كانوا مزارعين، وصيادين في البحر، وكانوا شعبا موحدا ومسالما، يكرهون التعدي والعنف، وكان دينهم الإسلام، ولغتهم: العربية!".

[١٧٣]) .المرجع السابق ص ٤٠.

وفرت مناجم الملح فى الشمال ومناجم الذهب فى الجنوب ثروة للبلاد ، اضافت اليها غنائم الفتوح الكثير ، كما ادى توسع تجارتها بفضل ارتباطها بدائرة التجارة الدولية لعالم الاسلام من ناحية ، ومهارتها فى ادارتها من ناحيةاخرى الى انتعاشها الاقتصادى ؛ ويتحدث إبن خلدون عام١٤٠٠م عن ضخامة قوافلها التجارية التى كانت تضم سنويا مالا يقل عن إثنى عشر ألف جمل الى مختلف الارجاء .

ويعلق باسيل دافيدسون على دقة حركة هذه التجارة ومهارة المملكة فى ادارتها ، فيصفها بانها كانت تتم بصورة رائعة إذا ما قُورنت بحركة التجارة في أوروبا في القرن التاسع عشر ، و قد ذاع صيت ثراء المملكة فى الانحاء بعدما عكسته مواكب حج ملوكها عبر ارض الاسلام ؛ تلك الرحلات التى كان لها الاثر الاكبر في تقديم مالى الى العالم الخارجى وتداول اخبارها.

العمــارة

كان للمغرب بحكم الموقع نفوذا كبيرا وتأثيرا على الغرب الافريقى فى معظم المجالات ، وفى مجال العمارة إقتبست المملكة هندسة وطرق البناء على يد المهندس و الشاعر الأندلسى " أبو إسحاق الساحلى " الذى أحضره منسا موسى معه من مكة ؛ فاستخدم البناء المراكشى بقبابه واسطحه المستوية كما استخدم الكُتَل الكلسية ويعد هذا ثورة في مجال العمارة بالإقليم ، فى بناء قصرا ومدرسة djinguereber ومسجداً بجامعة سنكور في تمبكتو ، وهذه المدرسة احدى المدارس الثلاث بالجامعةَ ، ويقول ابن خلدون انها تكلفت ٢٠٠ كيلوغرامَ (١٢٠٠٠ مثقال) من التبر للتَصميم والبناءِ.

العلم والثقافة الدينية

يسجل " إبن بطوطة " الذى زار المملكة في القرن الرابع عشر الميلادي اهتمام ملوك مالى بالثقافة وتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن ، ومن اكثرهم رعاية للعلم " منسا موسى " الذى عُنى عناية بالغة بالحركة الثقافية وحظى العلماء بمكانة مرموقة فى عهده ، وهو الذى إستحضر حشدا من العلماء البارزين من العالم الإسلامي .

وخصص لهم وللعلماء المحليين والكتبة الرواتب المجزية ليتفرغوا للعلم والابداع وأوفد الطلاب إلى الأزهر و فاس لتلقى العلم ، ولكثرة الدارسون بالازهر اقام لهم فى رواقاً سُمى " رواق التكارنة " نسبة الى بلاد التكرور ، وأقام المدارس ومعاهد العلم وزودها هى والمساجد بالكتب التى شرى منها الكثير أثناء مروره بالقاهرة وهو فى طريقه الى الحج ؛ ويسجل " ليو الإفريقى "الذى زار المملكة فى عهد منسا موسى مدى ربحية تجارة الورق التى كانت تغل ارباحا تفوق أرباح تجارة اى سلعة أخرى، لتزايد الطلب عليه والكتب في أسواق المملكة .

ومن اكبر انجازات منسا موسى فى مجال العلم تأسيس جامعة " سانكور " الإسلامية في"تمبكتو ، التى اطلقت النهضة العلمية فى البلاد بفضل موقعها الاستراتيجى كملتقى لطرق التجارة وثراء المدينة التجارية التى ضخت الموار اللازمة لتلك النهضة ، فأصبحت المدينة فى القرن ١٤م ولقرون مقبلة كعبة العلم والثقافة بالاقليم ، وفى قمة الازدهار العلمى وصل عدد المدارس بالمدينة ١٨٠ مدرسة ضمت ٢٥ الف طالب بخلاف مكتباتها العظيمة المليئة بذخائر الكتب"(١٧٤) ؛ ويصف الكتاب الأوروبيين المدينة التى بلغت مكانة متقدمة من التحضر والمدنية بأنها لا تقل عن المستوى السائد انذاك في أوروبا .

تأثر منسا موسى كما تأثر غيره من ملوك مالى من قبل وبعد بمشاهداته أثناء الحج ومن ابرز ما تأثر به الحركات الإصلاحية التي إنتشرت في العالم الإسلامي في العصور الوسطى فتعمقت مفاهيم الدين وما إستتبعه بالرجوع بالعقيدة الى اصولها في مختلف نواحى الحياة وتطهيرها مما شابها ، فأعلن الإسلام دينا للدولة وطبق الشريعة الإسلامية واطلق الدعوة الى الجهاد .

ويلاحظ حدوث طفرات حضارية في مسيرة تقدم مالى تظهر بعد العودة من معظم رحلات الحج ، من جراء الجديد الذى تقتبسه رغم ان بعض ما اقتبسته كان بلا معنى ، ولا اساس له الا الرغبة فى التشبه بسلاطين الاسلام على نحو ما فعله السلطان " منسى سليمان " بجلب حاشية من ٣٠ مملوكاً من مماليك القاهرة إلى المملكة تشبها بسلاطين مصر.

---

[١٧٤]) كان الطوارق عادة ما يلجأون فى القرن ٥ هجرى ١٠٨٠م الى المنطقة الخصبة حول ثنية نهر النيجر هروبا من الصحراء فى فصل الجفاف ، وكانت بالمنطقة إمرأة تدعى " بكتو" ولما كانت كلمة مكان فى اللغة المحلية " تين " فأدمجوا الكلمتين " تين بكتو" وتحور بمرور الوقت الى تمبكتو .

العلاقات الخارجية والمكانة الدولية

لم يكن للإقليم قبل الإسلام علاقات خارجية يُعتد بها ، ولكن تطورها فى ظل الاسلام وانفتاحها على عالمه واتساعها الامبراطورى وثرائها وتجارتها الخارجية العريضة ، فتح امامها الباب لبناء علاقات خارجية مستمرة ومستقرة وثيقة فى مختلف النواحى .

وبفضل رحلات حج ملوك مالى تبلورت مكانة البلاد الدولية وذاع صيتها فى العالم بروعة مواكبها وكثرة ذهبها وبذخ ملوكها ؛ ووصف مؤرخو ذاك الزمان روعة موكب " منسا موسى " ، وما تضمنه من أحمال الذهب وهداياه إلى سلطان مصر ، وظلت تلك الروعة حديثا يتناقله أهل القاهرة طيلة المائة عام التالية اذ فاق الموكب بروعته مواكب الحج الاخرى التى شهدتها المدينة خلال القرن الثامن الهجرى ، فجذب صيت المملكة وثراؤها إنتباه دوائر الاقتصاد والعلم فشد التجار وأهل العلم الرحال اليها ، كما اولاها المؤرخون الاهتمام فتداولوا أخبارها ، وإهتم الجغرافيون برصد موقعها فأخذت مكانها لأول مرة على خريطة العالم عام ١٣٣٥ م ؛ وإبتعث منسا موسى السفراء إلى " فاس " ليوطد الإتصال بسلطان المغرب "أبو الحسن على المرينى" ، والى مصر وتبادل الرسائل مع سلاطينهما الذين كانوا عادة ما يولون سلاطين مالى الإهتمام والكرم عند مرورهم بمصر فى طريقهم الى الاراضى المقدسة ، مثل مافعله السلطان " بيبرس المملوكى " مع السلطان " منسى ولى " في القاهرة بتوفير المؤن والجمال .

تاثير مالى على حضارة الاقليم

كان ما تحقق على أيدى مالى ، علامة بارزة ومرحلة تاريخية رائدة ارست سنن التطور فى الاقليم لاول مرة ، كأثر يتابعه الاخرون من الدول المتعاقبة ، وكان دور الإسلام وراء النهضة ملموسا ، فالمسلمون هم رواد الحضارة فى الاقليم ؛ فقبل الاسلام لم يهتم الملوك الوثنيين بنشر العلم الذى لم يكونوا على علم بوجوده اصلا الا بعد اتصالهم بالمسلمين ؛ فالثقافة الإسلامية أصبح لها ظلال ساطعة على غانة ومن بعدها امبراطورية مالى وباتت اللغة العربية هى لغة العلم والمكاتبات الرسمية فى غانة قبل اسلامها وفى مالى بعد اسلامها ؛ وبدون الاسلام ماكان انتشار اللغة العربية ولا انتشار الثقافة و العادات والأسماء واللباس العربي .

ويسجل بوفيل مدى التقدم الذى حققته مالى وجعل منها نموذجا لما أمكن تحقيقه لأول مرة من نهضة في منطقة السودان الغربي ؛على حد قوله " ترك كانكان موسى عند وفاته سنة ١٣٥٢ امبراطورية تمثل في تاريخ الدول الافريقية الاصيلة نموذجا رائعا للاتساع والرخاء ، ونموذجا رائعا يعبر عن مدى قدرة الزنوج على التنظيم السياسى (١٧٥) ، ويتحدث ابن بطوطة بإعجاب عن انتشار العدل والامن فى المملكة ويشيد بشعبها الذى يصفه بأنه اكثر الشعوب كراهية للظلم .

أفول مالى

تدهورت أحوال المملكة بعد منسا موسى ؛ نتيجة لإنغماس ملوكها في الترف وافتقادهم الروح العسكرية التى أقامت بها المملكة مجدها ، فأغرى ذلك الطامعون فإستنزفت الحروب الداخلية قواها ، فإستقل الطوارق بالأقاليم الشمالية واستولوا على " والاتا " و " تمبكتو عام ١٤٣٣ م ، و إستقل الموشى والتكرور والولوف ببعض الأقاليم ، وضمت مملكة صنغى الفتية الناشئة الأقاليم المتبقية الى اراضيها في الفترة من عام ١٤٦٨ م وحتى نهاية القرن ، و أختفت مالى تماماً في السبعينات من القرن السادس عشر بعدما أدت رسالتها فى دفع حضارة الإقليم نحو مرحلة أكثر تطورا، إستكملتها مملكة " صنغى " الإسلامية لتصل بالمنطقة الى قمة تطورها فى العصور الوسطى .

(٣) مملكـــة صنغـــى (مطلع القرن١١: نهاية القرن ١٦)

ميلاد صنغى

---

[١٧٥]) إفريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص ٤٨ ـ باسيل دافيدسون ـ ترجمة نبيل بدر (مجموعة نافذة على الفكر العالمى الحر) .

اقام " السوروكو" مملكة " دندى " فى القرن ٧ م ، وفي بداية القرن الثامن الميلادي إندمجت مع مملكة " جبالى في مملكة باسم " الكاوكاو " تحت حكم " ذا اليمين " زعيم قبيلة لمته البربرية (يمنية الجذور) بعد استقرارها فى النيجر ، وجذب ثراء المملكة التجار المسلمون للاستقرار بها ، ونجحت جهودهم فى اعتناق ملكها " ذى القصى" المعروف بـ " ضياء كوسوى " الاسلام عام ١٠٠٩ م [ترتيبه الخامس عشر في سلسلة حكام الأسرة] ، وبعدها بعام أنتقل بعاصمته إلى " جاو " .

وفى الفترة من القرن ١١ م حتى بداية القرن ١٤م خضعت المملكة لحكم غانة ثم اخضعها السلطان منسا موسى سلطان مالى اعتبارا من عام ١٣٧٥ م ، وفى القرن١٤ م تعرضت لغزوات قبائل الموسى السودانية والطوارق ، وبعد تحررها بدأت تتطلع للتوسع ومع وصول " سنى على " عضو الأسرة البربرية الحاكمة إلى السلطة فى عام ١٤٦٤ م (الملك ١٨ في تسلسل الملوك) ، فقد تحولت المملكة الصغيرة على يديه الى امبراطورية عاتية ، فقد كان رجلاً محباً للحرب والغزو ، لا يعرف الإستقرار أو الراحة فوصل بسلطانه الى أرض الهوسا شرقاً الى موطن الطوارق شمالاً ، وإلى بلاد الفولانى والماندينجو غرباً ، اى بحجم قارة اوروبا .

ولا يذكر التاريخ فضلا لهذا الرجل فى مجال الحضارة فلم يكن معروفا عنه حُب العلم أو العلماء الذين عانوا من بطشه ؛ ولم يكن له فضل على المملكة سوى ما حققه من توسع جعلها اقوى دولة في المنطقة بالتوازى مع بورنو ؛ وبوفاته انتزع وزيره " محمد تورى " (١٤٩٢ ـ ١٥٢٨م) " المُلك ، وكان يُعرف باسم " اسكيا محمد " ويُلقب بـ " أسكيا العظيم " ، وهو اعظم ملوك المنطقة وأكثرهم تأثيرا فى تاريخها ، فقد دخلت المملكة على يديه أزهى عصورها تقدما بفضل وعيه وتقواه ؛ فكان ورعا محبا للعلم يتحلى بالعدل والحكمة قام باعمال جليلة لخدمة الاسلام ؛ وبجهاده بلغت المملكة أقصى اتساع فوصلت حدودها صنغى وما بين بحيرة تشاد شرقا حتى الاطلنطى غربا وغطت شمال نيجيريا (فتحها عام ١٥١٣ م) .

ويرجع سر التوسع العظيم لـ صنغى الذى لم تشهد المنطقة له مثيل من قبل ؛ الى قوتها العسكرية وقدرتها التنظيمية الفائقة فقد كانت ألأكثر تنظيما فى المنطقة ؛ وبلغت المملكة فى عهده مبلغا عظيما من الرقى ، وضعها فى مكانة تجاوزت مكانة من سبقها من ممالك العصر الوسيط ؛ ودفعت بحضارة السودان الغربى خطوات ابعد نحو الكمال (١٧٦) ؛ ونستعرض على نحو موجز انجازات المملكة فى عهده :

الإدارة .. أقام أكثر النظم الإدارية تطوراً فى تاريخ الاقليم متفوقا على نظم مالى ، فأنشأ مجلساً للوزراء عين له رئيساً ، عين فيه وزيرا للعدل واخر للمالية والشئون الإدارية ، وعين قائداً عاماً للجيش ، وأعاد تنظيم الإدارة فقسم البلاد أربع أقاليم لكل منها حاكم ، يتبعه عدد من الوحدات الإدارية ، وأقام القضاة بالمدن الرئيسية ومنهم كثيريت ممن اصطحبهم في عودته من الحج ، وعين شيخاً للإسلام مسئولا عن الشئون الدينية مقره تمبكتو .

التعليم .. وهو القطاع الذى شهد أعظم إنجازاته ، فحققت البلاد فى عهده تقدما علمياً لم يسبق له مثيل دفع البلاد على طريق التحضر الزاهر، فأعاد بناء جامعة " سانكور " بعد ان تهدمت في إحدى غارات " سنى على " ، وبنى١٥٠ مدرسة في تمبكتو وحدها واقام المكتبات وشرى الكتب ، وشجع العلماء بالعطايا والرواتب وجلب كثيرين من البلاد العربية خلال رحلة الحج ١٤٩٧م ؛ وذهب " إسكيا محمد " أبعد مما ذهب اليه " منسا موسى " سلطان مالى ، في تكريم العلماء فاقطعهم الارض وخصص الجرايات ليتفرغوا للعلم ، وشهدت ولايات الهوسا " الحوصة " على يديه مدا ثقافيا يُعد الاول من نوعه ، وظهر فى المملكة مراكز علم جديدة فبالاضافة الى تمبكتو ظهرت " كانو " و " كاتسينا " بعدما مدت المملكة سلطانها على شمال نيجيريا ، ومن ابرز علماء المملكة " محمد كعت" المؤرخ الذي عمل وزيراً " لإسكيا محمد " و " عبد الرحمن السعدى " مؤلف تاريخ السودان و" أحمد بابا " خبير الشريعة الإسلامية و " محمد المغيلى " المعروف بالبغدادى وقد كان بمستوى علماء الشرق .

الإقتصاد.. ازدهرت المملكة اقتصاديا بفضل اندماجها فى التجارة الدولية للعالم الاسلامى ، وايضا بما حققه لها تطويرها مناجم الذهب في الجنوب ومناجم الملح في الشمال ، وهما أهم عناصر تجارة عبر الصحراء ، ووفر لها ثراؤها موراد إضافية للانفاق على النهضة واسهمت فتوحاتها لبعض المناطق الخصبة جيدة الرى فى دعم انتاجها الزراعى ، وكعادة دول الاقليم التى تتخذ التجارة ركيزة اقتصادية ، حرصت صنغى على تأمين الطرق وتنظيم الأسواق ، فعينت المراقبين ووحدت الموازين .. وكان ثراء المملكة ملحوظا باديا للعيان مما اكسبها صيتا و مكانة عظيمتين فى العالم الاسلامى على نحو ما كان لمملكة مالى .

---

[١٧٦]) المرجع السابق ص ٤٨ .

تأصُل الاسلام فى مناحى الحياة

تأثر أسكيا العظيم بروحانية الحج ؛ فأغدق وهو كريم الطبع على الحجيج وأهل الحرم ، فتصدق بكثير من الاموال وشرى البساتين بالمدينة المنورة وحبسها على خدمة حجيج صنغى مستحدثا نظام الأوقاف ؛ وبعد عودته حرص على تطبيق قواعد الشريعة وارغم النساء على إتباع قواعد الاختلاط بالرجال والملبس الشرعى ، وأبطل الكثير من البدع ، وبلغت المملكة على يديه قمة حضارتها ، ولعظيم خدماته للإسلام وللحضارة بالمنطقة ، خلع عليه الخليفة العباسى بالقاهرة عام ١٤٩٧م لقب " خليفة السودان " .

أفول صنغى

وبوفاة " إسكيا محمد " ، إنقضى عهد الفتح العظيم ، وبدأ الضعف يحل بالإمبراطورية نتيجة الصراع الذى دار على العرش ، وجاءت نهاية الامبراطورية العظيمة على أيدي المراكشيين ، الذين تقدمت قواتهم لفتح الإقليم عام ١٥٩٠ م حسما لنزاعهم مع صنغى على مناجم ملح " تفازة " ؛ والذى رأى المنصور (توفى عام ١٦١٠) سلطان مراكش المنتشى بإنتصاره على البرتغاليين في معركة القصر الكبير في الشمال الافريقى أن يحسمه عسكريا ، فاستولت قواته على " تفازة " عام ١٥٩١م و العاصمة " جاو " عام ١٦٠٠ م ، بعد قتال ضارى مع قوات " إسكيا إسحق " ، وكانت هزيمة اسكيا اسحق بسبب افتقار قواته العدد والعدة ، وتفوق القوة المغربية بأسلحتها النارية التي لم يكن لها مثيلاً في أيدى قوات صنغى.

انهيار صنغى واضطراب الاقليم

الحق الغزو اضرارا فادحة بحركة التجارة ، نتيجة عدم الاستقرار الذى ساد الاقليم ، فتدهورت الاوضاع الاقتصادية وفقدت صنغى ثرائها وبالتبعية بريقها فى عيون " السلطان زيدان " سلطان مراكش الجديد فتخلى عنها عام١٦١٨ م ، بعدما أدرك فشل الحملة فى تحقيق أغراضها الإقتصادية ، ولم يهتم السلطان باستعادة قواته ، فتركها تتدبر شئونها اعتمادا على نفسها ؛ وكان قادتها قد اقاموا ولاية محلية تدعى " الرماة " ، وكانت ولاية ضعيفة تتبع السلطان اسميا لا عمليا ، تعاقب على حكمها مائة وثمان وعشرون حاكماً في الفترة من ١٦٦٠ : ١٧٥٠ م ، خلال قرن تقريباً تدهورت فيه احوال البلاد فى جميع المجالات ، وفقدت تمبكتو وجنى كعبتا العلم بالإقليم مكانتهما الثقافية ، وتعرض أهل العلم للتنكيل والنفي بسبب مُدافعتهم ظلم الولاة ، وخسر الاقليم ذخيرة كتبه التى نقلها الجيش المراكشى إلى فاس ، وفشلت ولاية الرماة فى ملئ الفراغ بالاقليم لضعفها ، وإمعاناً في الضعف خضعت لملوك " سجو" الوثنيي(١٧٧-١٧٨) ؛ وعجزت المنطقة عن افراز قوى اقليمية بديلة قادرة على احداث التوازن فى الاقليم ، فتفجر الشجار بين الدويلات المسلمة ذاتها الامر الذى مهد الطريق امام مد الاستعمار ليتصيد هذه الامارات المتفرقة واحدة بعد الاخرى .

وفى نهاية هذه المرحلة ظهرت نواه لدولتين ، على مقربة من المنطقة هما مملكة كانم وبورنو وامارة الهوسا ، سيكون لهما شأن فى خدمة الاسلام ، فكلتاهما كونتا امبراطورية ممتدة ؛ الاولى على النمط المعتاد للدول والثانية على النمط الصوفى بزعامة " عثمان دون فوديو " وهو من ابرز القيادات الصوفية التى نجحت فى تأسيس دولة بهذا الحجم ، تمركزت على ارض الهوسا كمركز انطلاق لصحوة إسلامية كبرى اكتسحت معظم الإقليم فى القرن ١٩ م .

(٤) مملكة كانم وبورنو [القرن٨ القرن ١٦]

نشأت المملكة فى وقت متزامن مع مملكة صنغى وهما متداخلتين عرقيا ، فشعب كانم فى أغلبيته خليط من عناصر نيلية و بربرية ، هاجرت إلى شرق بحيرة تشاد ، ويرجح البعض ان العناصر النيلية فى أغلب الظن مصرية ، جاءت من الشرق الى المنطقة قبل الميلاد ولحقتها عناصر مصرية أخرى أو نوبية ، فرت من مملكة مروى الكوشية بعد إنهيارها فى عام ٣٠٠ م على أيدى مملكة

---

[١٧٧]) السعدى –نقلاًعن الإسلام والثقافة العربية د/حسن أحمد محمود.

[١٧٨]) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا د/حسن أحمد محمود صـ ٢٦٨ .

إكسوم الحبشية (١٧٩) ؛ و فيما بين القرنين ٨ و ١٠م التحقت قبائل الساو بالمنطقة واسست دولتها ويعتقد دافيدسون ان الساو ينحدرون من دارفور وبعضهم من ميرو .

وفى عام ٥٥٠ هـ/١١٠٦م ، قدمت إلى " كانم " هجرة مصرية حديثة من فقهاء المالكية فرارا من الخليفة الفاطمى " الظاهر لاعزاز دين الله " ، تبعتها عناصر بربرية من طوارق صنهاجة فى الفترة ما بين ٨٠٠ : ١٢٥٠م فى هجرات متعددة فيما بين النصف الاخير من القرن الحادى عشر والنصف الاول من القرن الثانى عشر ؛ فجاءتها مجموعة بقيادة أسرة " بني سيف " التي يتصل نسبها الى " سيف بن ذي يزل " بطل قبيلة حمير اليمنية تمكنت من إخضاع شعب "زغاوة" الوثني وأسسوا سلطنة " كانم " ، واستحدثت الاسرة نظاما للحكم يقوم على " مجلس عظيم " من اثنى عشر شخصا يرفعون قراراتهم الى السلطان ، وكان الخلاف حول حقوق هذا المجلس سببا في الحروب .

وانتشر الإسلام على يد الملك " أُوقي " أحد أبناء هذه الأسرة بينما يعطى " القلقشندي " هذا الشرف إلي " الهادي العثماني " جد الأسرة ، و أخذت المملكة في التوسع في القرن الثالث عشر على يد الملك " دوناما ديبا لينمى " المعروف بـ دونامة الأول ١٢١٠ : ١٢٤٠ م حتى بلغت حدودها في بعض التقديرات الى النيل الاوسط وحدود مصر وطرابلس ونيجيريا وكانت دارفور وجبل اروى تابعة لكانم اثناء توسعها الشامل في القرن ١٣ ؛ في عهد دونما الذى بسط سلطانه على طرق التجارة التي تربط مالى وبقية دول السودان الغربى حتى فزان شمالا بقلب العالم الاسلامى في الشرق الاوسط (١٨٠).

ورغم قوة دونامة ، انقسمت الامبراطورية في حياته واندلعت الحرب بين اولاده الذين استقل بعضهم بالاقاليم التي كانوا يحكمونها ولكنه استطاع ان يخمد نيران الصراع ، وهدأت الامور فترة وجيزة فى عهد خليفته " سليمان " لكن الحروب لم تنقطع طيلة قرنين تعرضت خلالها لغزو قبائل البولالا (بلالة اوالفولة) التي استقرت حول بحيرة تشاد وادت لانقسام المملكة وظهور " بورنو" ؛ وينقل دافيدسون عن اركل ان قبائل البولالا (البولة) هم ايضا من دارفور من منطقة جبل اورى التي كانت عاصمتهم وقت سيادتهم المنطقة في القرنين ١٤- ١٥ م .

مملكة بورنو

قامت قبائل "بلالة " في عهد السلطان " عمر بن إدريس " [١٣٩٤ : ١٣٩٨ م] بالثورة على الأسرة الحاكمة وإقتحمت العاصمة " جيمى "، وطردوا السلطان إلى " بورنو" غرب البحيرة حيث أقام مملكة جديدة إستطاعت فى عهد الملك " ماى " أن تستعيد " كانم " ووحدة البلاد ، وفي القرن السادس عشر الميلادي بعد إخضاع القبائل الثائرة توسعت المملكة مستغلة الفوضى التي عمت الإقليم نتيجة الغزو المراكشى ، فبسط " ماى على " سلطانه على بقايا صنغى وإمارات الهوسا ، و بلغت المملكة أقصى إتساعها في عهد البطل العظيم " إدريس ألوما (١٥٧١ – ١٦٠٣م) " ، واصبحت كانم / بورنو من جديد اكبر دولة ظهرت في منطقة المراعى بين النيجر والنيل(١٨١) .

وفي القرن السابع عشر، اعترى المملكة الضعف لانغماس ملوكها فى الترف ، فأغرى ذلك قبائل الطوارق للاستيلاء عليها ومن بعدهم قوات الهوسا الفولانية ، بعد ان دحرت سلطان بورنو " محمد بن على " ؛ فى إطار حركة الأمام " عثمان دن فودى " عام ١٨١٨ م ، ولكن بورنو لم تستكن لحكم الهوسا ؛ فقاد الداعية " محمد الأمين الكانمى " حركة تحرير تمكن بها من طرد الفولانيين ، ونصب نفسه سلطاناً عام ١٨٢٦ م ، وإتخذ " كوكو " عاصمة له (١٨٢) .

وفى عام ١٨٩٣ م بسط البطل الافريقى السلطان " رابح بن الزبير " (من اصل سودانى) سلطانه على المملكة ومعها "باقرمى" ، مؤسسا بذلك امبراطورية اسلامية كُبرى فى تسعينات القرن التاسع عشر الميلادى ، حاز فيها اجزاء من نيجيريا أقام فيها عاصمتة " ديكوا " ، ولكن الفرنسيون قضوا على الامبراطورية عام ١٩٠٠م ، عقب انتصارهم على السلطان العظيم فى معركة " قوسورى ".

---

[١٧٩]) اسست مملكة اكسوم عناصر مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية بعد استقرارها فى الحبشة .

[١٨٠])المرجع : افريقيا القديمة تُكتشف من جديد صـ ٥٠ -٥٢ -٥٤ ؛ باسيل دافيدسون ..

[١٨١]) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد صـ ٥٠ ؛ باسيل دافيدسون .

[١٨٢]) ظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى أخضع البريطانيون المملكة.

إنجازات كانم

مرت المملكة بنفس الأطوار التي مرت بها دول الإسلام بالمنطقة من نظام سياسى إسلامي وتطبيق نظم مركزية متطورة في الادارة استحدثتها اسرة سيف تقوم على " مجلس عظيم " ، من اثنى عشر شخصا لاتخاذ القرارات لرفعها للسلطان ؛ والتوسع بالجهاد والاخذ باساليب الحرب والغزو ، النهوض بالتجارة وتوسعها بفضل الانضمام لمنظومة التجارة العالمية للعالم الاسلامى ، والانفتاح على العالم الإسلامي من خلال "رحلات الحج " ؛ وأقتباس ثقافة الإسلام والتواصل مع مراكز العلم فى " تمبكتو – كانو – جنى – جاو " ومع مثيلاتها فى كل من المغرب ومصر .

وللمملكة الفضل الأكبر في نشر الإسلام في محيط بحيرة تشاد وأرض الهوسا كما نجحت في صهر القبائل المهاجرة الى اراضيها ، واعتمد ثرائها على مرور التجارة اراضيها الى البحر المتوسط عبر فزان ، والى حوض النيل شرقا.

العلاقات مع مصر

كانت علاقات كانم بمصر وثيقة بسبب القرب الجغرافي ، وتطورت بعد مرور السلطان " دوناما " بالقاهرة في القرن الحادى عشر الميلادى ، وهو فى طريقه الى الاراضى الحجازية ؛ وعلى نحو اخر تبادل البلدان الهجرات السكانية كما سبق التنويه بالنسبة للمصريين .

وبالنسبة لأبناء كانم فقد استقروا فى مصر على نطاق واسع للاتجار أو للدراسة ، فطائفة كبيرة من تجار كانم استقرت في مدينة " قوص " ، وسيطروا على جزء كبير من التجارة الدولية المارة بمصر فتعاظمت ثرواتهم وأصبحوا مُقرضين لسلاطين مصر وملوك البلاد المجاورة ؛ وكان لطائفة التجار دور كبير فى رعاية الوافدين من كانم لتحصيل العلم ، ولكثرة اعداد الوافدين أقامت رابطة التجار مدرسة بالفسطاط فى الفترة ١٢٤٢ : ١٢٥٣ م ، لتعليم الوافدين من طلبة كانم (١٨٣).

ومكانة مصر عند الكانميين كبيرة ، وتصور حجم هذه المكانة رسالة ملك كانم إلى الظاهر ابى سعيد " برقوق " سلطان مصر عام ١٣٩١م ، يلقب فيها ملك كانم سلطان مصر ، بملك مصر أرض الله المباركة أُم الدنيا (١٨٤) ، ووصفه مصر بأم الدنيا يعكس حقيقة ما تمثله مصر في إدراك الأشقاء الإفريقيين ؛ وتضمنت الرسالة الشكوى من رذائل أعراب قبائل "جذاما" التى قامت بفظائع ضد إخوانهم من المسلمين فى كانم خروجا على الاسلام .. وتفيض الرسالة (سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وصغار الرجال ، وقاموا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً ؛ وسبوا قرابتنا من المسلمين يبيعونهم لجلاب مصر والشام ..... فنبعث الرسل ينظرون (فى مصر) ،فإن وجدوهم فلينتزعونهم من أيديهم) (١٨٥) .

٥) إمــارات الهــوســـا

ينحدر شعب الهوسا من قبائل بربرية هاجرت من واحة " إير " إلى شمال نيجيريا في القرن العاشر الميلادي ، تمكنت من أقامة سبع إمارات اهمها "كانو وكاتسينا" ؛ وكانوا على الوثنية حتى عام ١٣٥٣ م حسبما ذكره إبن بطوطه أثناء زيارته للبلاد ، واتحدت هذه الامارات في دولة كبيرة هى "كيبى" ، استطاعت ان تصمد في وجه محمد تورى المعروف بـ " إسكيا محمد العظيم " سلطان صنغى(١٤٩٢ :١٥٢٨ م) الذى تمكن في النهاية عام ١٥١٣ م من السيطرة عليها .

وقد بدأ مد الإسلام اليها منذ القرن الخامس عشر الميلادي بفضل أربعين فقيهاً من تمبكتو و جنى جاءوا لتعليم ملك " كانوا " الإسلام و ساهم فى جهود الدعوة في الفترة ١٤٣٨ : ١٤٥٠ م بعض فقهاء المغرب أمثال " محمد عبد القادر المغيلى " و

---

[١٨٣]) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا د/حسن أحمــد محمـــود صـ ٢٣٩ – القلقشندى ج ٤ ص ٢٨١ .
[١٨٤]) المرجع السابق نقلا عن القلقشندى.
[١٨٥]) المصدر السابق ص ٢٣٨ نقلاً عن القلقشندى ج ٨ ص١٠٦ : ١١٧.

أهل " بورنو " ، و في عهد محمد تورى سلطان صنغى(١٤٩٢ :١٥٢٨ م) إشتدت الحركة الإسلامية .
وبعدا مائتى عام تقريبا استولت شعوب الفولانى بقيادة الإمام العظيم " عثمان فودى ده " على تلك الامارات فى اطار حركته لانشاء امبراطرية اسلامية عصبها الفولا (سنتعرض لها لاحقا في اطار الحركات الصوفية) ، ورغم ما حققته الامبراطورية بالنسبة لمد الاسلام الا ان كتل وثنية كبيرة استمرت باقية حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

المرحلة الثانية
جهاد الصوفية من اجل الدعوة
ومناجزة الاستعمارفى غرب افريقيا

كان للاسلام تأثير كبير على صياغة الحياة في المنطقة منذ وجوده ، وسار فى مده على نحو طبيعى فى بيئة مستقرة

يتفاعل معها على نحو إيجابى حتى بداية القرن ١٥ م ، وكاد ان ينفرد بالاقليم كعقيدة فى نهاية مسيرة مده الطبيعى ، لولا متغيرات عاتية عصفت بالمنطقة وعرقلت هذا التطور سبق الاشارة اليها فى مرحلة الاضطراب العظيم فقد تفشت تجارة النخاسة الأوروبية بشكل مكثف ووحشى على الساحل الغربي منذ عام ١٤٤٤ م واتسع نطاقها مع عام ١٧٨٨ م لسد الإحتياجات المتزايدة عبر الأطلنطى .

وأجج التجار الاوربيون فى ظل رواج هذه التجارة ، الحرب الشرسة بين الإفريقيين الذين كانوا مادة للقنص وادواتها فى نفس الوقت ذلك الاضطراب الذى أفرزته تجارة النخاسة الأوروبية / الامريكية واسعة النطاق على كل المستويات ، التى غطت بكثافة خمسة آلاف كيلومتراً مابين موريتانيا شمالا والكونغو جنوبا.

وفى مرحلة لاحقة باشرها التجار الأوروبيون بأنفسهم ودفعوا بعملياتها الى عمق الارض الافريقية لضمان مزيد من حصادها ؛ فأوقعوا الإقليم في إضطراب عظيم ليس له مثيل ، ففرت شعوب بكاملها خوفا من الوقوع في ربقة العبودية مما أسفر عن فراغ سكانى هائل تدهورت معه مناحى الحياة من عمران وزراعة ، ويعزوا " ديرك كارتوم " تدهور شعوب إفريقيا عامة أنذاك إلى وحشية التى مورست بها تجارة النخاسة الأوروبية .

و تصاعدت الضغوط على مد الإسلام بمجئ الاستعمار ، فعرقل تطور مسيرته الطبيعى التى كادت ان تجعل فى نهايتها من معظم جنوب الصحراء إرثا طبيعيا للإسلام وجزءً متمما لإفريقيا العربية ، ففى سعيه لإجتثاث جذور المقاومة الأفريقية ، رأى من الضرورى هدم الموروث الثقافى لهذه الشعوب التى تحول دون نفاذه فى اعماقها لاخضاعها ؛ فإنتهج سياسة " الإحلال الثقافي " التى ركن عليها لتخريب الثقافة المحلية وفرض ثقافته على اساس ان روابط الثقافة اقوى واطول مدى فى دوامها ، وكانت مجتمعات الاسلام الاكثر تماسكا وتحضرا ، والاكثر إعتدادا برصيدها الثقافى لانتمائها لعالم ذو حضارة ، هى المعنية بتدمير هويتها التى تُزيد من عناد هذه المجتمعات وتدعم مقاومتها صلابة فى تصديها له، فإندفعت الامور نحو صدام تصاعد بمرور الزمن.

وزادت المواجهة حدة إستعانة المستعمر بالتبشير فى ارض الاسلام ، فإشتعلت المواجهة واندفع الصوفية فى نضال كبير وجدوا فيه أنفسهم في موقع المسئولية للحفاظً على الهوية الإسلامية ، فاطلقوا روح جهاد كانوا هم أبطاله .

التعريف بالطرق الصوفية

تنبنى الصوفية على إلتفاف العامة حول الخاصة ، فى رباط روحى قوى تحت مظلة الجماعة وزعامة الامام ، ومضمونها الروحى هو مصدر قوة الحركات الصوفية ؛ وللصوفية مكانة كبيرة لدى الافريقيين ، فهى عميقة الجذور فى معظم ثقافاتهم القديمة ممثلة فى بعض جوانب النظام الكهنوتى الوثنى من حيث ترابط الجماعة تحت مظلة الكاهن الاعظم .

واهم الطرق الصوفية واكثرها انتشارا فى المجتمعات الافريقية القادرية والتيجانية فى الغرب الافريقى ، والسنوسية فى تشاد والصحراء الليبية ، ونتعرض بإيجاز لكل منها بتعريف بسيط :

القادرية

تأسست في العراق للإرشاد السلمى ، وإمتد نفوذها الي شمال إفريقيا فى القرن الثاني عشر الميلادي ، ومن بعدها إفريقيا الغربية عن طريق شنقيط " موريتانيا " ؛ وتمركزت الحركة في "ولاتا" بجنوب غرب الصحراء .

واصلت الحركة تقدمها في القرن الخامس عشر جنوبا لتصل " تمبكتو " ؛ ولم يمض زمن طويل حتى عجت البلاد الإفريقية بدعاة القادرية فوصلت طلائعهم مدينة " تمبو Timbo " في الفوتاجالون ، وانتشر دعاتها بين الشعوب الوثنية التي رحبت بالدعوة ، ومن أبرز جهودها نشر الإسلام بين قبائل " البامبرا " الوثنية فى مطلع القرن العشرين ، ومع توسع الدعوة ظهرت الحاجة الى تأهيل مزيد من الدعاة ، فأُرسلت الحركة البعوث إلى القيروان و طرابلس و فاس و تلمسان والقاهرة و أقامت المدارس و تعهدتها بالرعاية .

ورغم منهجها السلمى ، ترصدها الإستعمار الفرنسي ودخلت معه فى صدام ثم تهادنت معه ؛ وكانت مهادنة شيخها " عبد الله سيديا " (الموريتانى) الاستعمار الفرنسى سبب انقسام الحركة فإنشق عنها المريدية والتيجانية.

التيجانية

نشأت في الجزائر على يد " أحمد بن محمد التيجاني " (١٧٣٧ : ١٨١٥م) ، المنشق عن القادرية لرفضه تساهل شيوخها مع الفرنسيين ؛ فانتقل فى اواخر حياته الى فاس ، وقدر لفرقته أن تنتشر إنتشاراً واسعاً في إفريقيا الغربية ، وأن تصبح ملهمةً كل الحركات الدينية المكافحة للإستعمار ؛ وهذه الفرقة اتبعت الأسلوب السلمى فى نشر الإسلام كالقادرية .

تبنت الحركة الجهاد ضد الاستعمار ؛ وأسست عدة دول صوفية قصيرة الأجل في إفريقيا الغربية بدأت بحركة " الحاج عمر الفوتى (١٧٩٨ : ١٨٦٥م) السابق الاشارة اليها التى إنطلقت من السنغال ، وكان هدفها الاكبر طرد الفرنسيين وتوحيد المسلمين في ظل دولة إسلامية واحدة ولكنه مات ولم ينجز هدفه ، وفي آواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، إنقسمت التيجانية بسبب خلافات تافهة إلى فرق متعددة في فاس " مراكش " وموريتانيا و السنغال ومالى والفوتاجالون " غينيا " .

السنوسية

أسسها الفقيه الجزائرى " محمد بن على السنوسى " { ١٧٨٧ : ١٨٧٩ م } وهو من مستغانم ؛ درس في جامعة القرويين وفي الأزهر وكان في أول الأمر قادرياً ثم أصبح وهابياً ، بدأ بنشر مذهبه فى عام ١٨٣٧م ، ويقوم على محو البدع ومباشرة الدعوة بكل ضروب الإقناع والإغراء ، ولهذه الفرقة دور هام في نشر الإسلام في المنطقة الواقعة بين وادى النيجر وبحيرة تشاد وحتى شمال نيجيريا .

تعرضت الطريقة لمضايقات الفرنسيين ، مما إضطر " محمد بن على السنوسى " الى الإنتقال إلى واحة " جغبوب " في برقة " ليبيا " ، وإنتشرت الطريقة قبل موته في القسم الشرقى من الصحراء الكبرى " ليبيا " وفي التيبستى وتشاد والأهير ، وحارب السنوسيون الفرنسيين حرباً شديدة ودعموا كل حركات الطوارق التحررية .

ومن أفضال السنوسية دورها في محاربة تجارة الرق فكانوا يشترون العبيد ويعلمونهم اللغة العربية والقرآن والفقه وأصول الدعوة ، ثم يحررونهم ليصبحوا دعاة للإسلام ، وفى عام ١٩١٧ تمكنت فرنسا من هزيمتهم في " أغادس " ولكنها لم تتمكن من القضاء على تصميمهم على الجهاد ؛ فإضطر الفرنسيون للتعاون مع الإنجليز فى شن الحرب عليهم فى رباطات الصحراء بالنيجر وفي واحة جغبوب وغيرها ؛ وانسلخت عن الطريقتين الرئيسيتين القادرية والتيجانية فرق الفاضلة والشاذلية والخلواتية وجماعة الشيخ " سيديا " (موطنها موريتانيا) .

جهاد الصوفية

المرابطون (دولتهم فى الأندلس والمغرب وأجزاء من غرب إفريقيا)(١٨٦) ، وهم أول من استن الجهاد فى الغرب الافريقى ، عندما إستقدم زعيم قبيلة " جدالة " البربرية الفقيه المغربى المالكى " عبد الله بن ياسين " ، لتمكين الإسلام الصحيح من نفوس البربر ودعوة قبائلهم للوحدة ، ولما لم ينجح ابن ياسين فى هذا إعتزل واصحابه في جزيرة نائية ، واقاموا رباطا يُعسكروا فيه وانضم إليهم الكثيرون ؛ ومن رباطهم تسموا " المرابطون " وتحولوا الى الجهاد ، واعد إبن ياسين أتباعه للجهاد ، فشرع يخلق منهم فئة فدائية على أساس دينى صرف ؛ فلما زاد أنصاره عدداً خرج بهم مجاهدا فتمكن من توحيد قبائل البربر ، وتقدم لغزو مملكة غانة كما سبق الذكر ، ومن بعد إستشهاده واصل اتباعه جهادهم ليؤسسوا مملكة كبيرة ضمت الأندلس والمغرب وأجزاء من غرب إفريقيا ، وللمرابطين تدين الحركات السلفية " الصوفية " فى الاقليم بالفضل ، فى اتباع نهج حركتهم فى الجهاد.

حركة الأمام" عثمان فودى ده "

وهو الأمام الشهير " عثمان دن فوديو " ينتمى الى شعب الفولانى المنتشر بالسهل الساحلى لموريتانيا وسهول السودان الغربي ، إستقرت أسرتة في شمال نيجيريا وتفقه في الدين وإشتغل بالعلم ، ثم رحل إلى الحجاز وتأثر بالوهابية ؛ ولما راعه

---

[١٨٦]) أن ياسين والد عبد الله بن ياسين – مؤسس دولة المرابطين – عبرالمحيط الأطلسي مع جماعات من أتباعه وذهب إلى شمال البرازيل وغينيا، ونشر الإسلام ، وأسس منطقة كبيرة تابعة للدولة المرابطية ، وهذا موثق بالوثائق التي تملكها الدوقة المشار اليها ، وإلى يومنا هذ هناك مدن وقرى في تلك المناطق اسمها فاس، مراكش، تلمسان، سلا ، قبل وصول كريستوفر كولمبس .

تدهور حال المسلمين ؛ إنطلق يحارب البدع واستنهاض روح الاسلام ، وبدأ دعوته بالحسنى فإجتذب كثيرا من الأتباع لما رأوا فيه من صلاح وصدق وتقشف ، وسار علي نهجه فى التقشف والورع ولده " السلطان محمد بل " الذى كان يأكل من كسب يديه ويأبى أن يقتات من أموال المسلمين (١٨٧) .

وبعد أن ذاع صيت الامام عثمان وكثر أتباعه ، خطب ود امراء الهوسا فتحالف مع أمير " جوبير " ، إلا أن دسائس العلماء الحاقدين افسدت ما بينهما فرحل إلى إمارة " زنفر " و" كب " حيث أسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين .

أقلق تزايد أتباع الامام امراء الهوسا فأخرجوه مع طائفة من أنصاره من أرضهم فى فبراير سنة ١٨٠٦ م وطاردوه ، فإضطر لاعلان الجهاد ضدهم مستندا لشعوب الفولانى عصب امارات الهوسا ؛ واستطاع في الفترة ١٨٠٦ :١٨١٠ م ، أن يفتح تلك الإمارات جميعاً ، واقام سلطنة فولانية فى " جوبير " واقام بها عام ١٨٠٨ م ، وإنتقل بعد ذلك للاقامة فى " سوكوتو " التى إتخذها عاصمة لدولة المجاهدين وحظى الشيخ " عثمان " بإعجاب كثير من المسلمين من بينهم ملك مراكش.

قسم الامام عثمان الإدارة بين ولديه ليتفرغ للعبادة ، فكانت " سوكوتو " من نصيب " محمد بللو " ، و جواندو GWANDU " من نصيب عبد الله " ، وبوفاته عام ١٨١٧ م بُويع إبنه " محمد بللو " للخلافة واستمر فيها حتى مات عام ١٨٣٧ ، ويسجل الرحالة " كلبرتون " عند زيارته للمملكة في عهد " محمد بللو " مدى إستقرارها ورخاءها.

النظام الادارى والتجارى

أقام الامام عثمان الحكم في هذه الإمبراطورية على أساس الشورى وقواعد الإقتصاد الإسلامي ، فأقام بيتا للمال بمصارفه الشرعية وإستقل بالقضاء عن السلطة التنفيذية ؛ واتبع تنظيما للحكم يقوم على " خلافة " مركزية فى " سوكوتو " تتبعها امارات فرعية ، واعتنقت المملكة الاسلام كقوة سياسية واجتماعية واسلوب حياة قائم على روح التضامن الاسلامى ، وقد ساعدها هذا المنهج على تنجب الاختلافات و شرور العصبية فسهل احكام السيطرة على الاعراق المختلفة .

اقامت امبراطورية الفولانى شبكة جيدة من الطرق ،غطت ما بين كانو وبرنو والكونغو وساحل الاطلنطى ، ونجحت الادارة رغم اتساع المملكة فى توفير الامن على طرق تجارة عبر الصحراء ، وادى نظامها بمكوناته الى ازدهار إقتصادها وامن طرق تجارتها وشبكة مواصلاتها الى ازدهارها تنامى تجارتها ونشاط حركتها الثقافية .

العقيدة

اجتهدت المملكة في نشر الإسلام حتى جنوب نيجيريا ، وساعد ما قدمته من اغراءات اقتصادية واجتماعية الى اجتذاب العديد من الشعوب الى اسلام ؛ ومن الملفت ان بعض الوثنيين الذين لم يُسلموا واكثرهم من التجار كانوا يأخذون بمظاهر الاسلام باعتباره اساسا للتميز فإقتبسوا الملبس والاسماء والعادات ، وكان هدفهم من وراء ذلك تعزيز نشاطهم التجارى ، وقد ساهم هذا الارتباط بشكل ايجابى وسريع فيما بعد فى اندماج تلك العناصر العرقية المختلفة فى الاطار الاجتماعى الاسلامى .

تخاذل مد الاسلام

بمرور الوقت تهاون " الفولة " فى كثير من المعتقدات الاساسية من اجل مآرب سياسية ، وسادت روح التخاذل وتأكل الجهاد باسقاط شروطه الاساسية وأبقوا على شروطه الثانوية ، فأخذوا بنظام " الامانة " الذى يسمح للوثنيين بدفع الجزية دون الاسلام ، فتباطأ مد الاسلام وفى بعض الحالات لم يتقدم خصوصا فى المناطق الجبلية المنعزلة مثل " ماندارا " و " كوتوكو " ، التى بقيت بعيده عن سلطة الفولانى عام ١٨٥٠ م ، فبقيت بها كتل كبيرة على وثنيتها ومعها فئات قليلة من المسلمين ؛ وقضى الأنجليز عام ١٨٩٠ م على الامبراطورية بعد إحتلالهم نيجيريا.

جهاد أحمدو لمبو بن حمد بوبو

---

[١٨٧]) الاسلام والثقافة العربية صـ ٢٦٣ ـ د حسن أحمد محمود.

وهو أيضا من أصل فولانى تزعم حركة إصلاح دينى وسياسى بعد عودته من جهاده مع الامام عثمان دن فوديو إلى مسقط رأسه في " ماسينا " (جمهورية مالى حالياً) ، وفي عام ١٨١٣ م أطلق الجهاد في أعالى النيجر " مالى حاليا " ضد الوثنية ، فهزم " البمبارة " أصحاب مملكة " سجو " وتقدم بقواته ليحتل تمبكتو وجنى ، واقام مملكة سلفية عاصمتها " حمداً لله" .

ضمت سبعمائة مدرسة لتحفيظ القرآن وستين حلقة لتدريس علوم الشريعة ، توفي الشيخ أحمدو تاركا إمارة إسلامية لم تُعمر طويلاً إنتهت في عهد إبنه " أحمدو شيخو " عام ١٨٥٢ م ؛ على ايدى الفرنسيين ، وتعتبر حركة الأمة " الماسينية " بقيادة " أحمدو لمبو " من أكبر الحركات ذات الأثر البليغ في دفع الثقافة الإسلامية في الذراع الغربي لنهر النيجر .

كفاح عمر تال (عمر الفوتى التكرورى) في مالى وغينيا

ولد الشيخ " عمر بن سعيد تال (طال أو فال)" في بلاد التكرور فى " فوته " عام ١٧٨٨ م ؛ اضطرت اسرته وهو صغير الى اللجوء الى المناطق الداخلية الامنة هربا من مطاردة النخاسين وعائلته عائلة مجاهدة قاومت الوثنية والإستعمار بشدة ، تلقى العلوم الإسلامية في الأزهر عام ١٢٣٣هجرى / ١٨٢٥م ، وزار الحجاز ثم مراكش حيث إلتقى الشيخ " أحمد السقالى " خليفة التيجانى .

واعتنق على يديه مبادىء التيجانية التى لاقت نجاحاً عظيماً في السنغال في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان للشيخ عمر مكانة عظيمة لدى سلاطين المناطق التى مر بها فى السودان و"ودائى" (فى شرق تشاد) ؛ واكبره سلطان كانم وقدم له المساعدة ؛ وصاهره سلطان " سكوتو " فى شمال نيجيريا " محمد بللو حفيد المجاهد الكبير عثمان دان فودي " ؛ وبفضل شخصيته الفذة وانتمائه العرقى تعززت التيجانية بين التكرور فى السنغال ، وكان له الفضل فى مد التيجانية الى وادى النيجر " مالى " .

اثارت شعبيته مخاوف الحكام ، فإستقبله الشيخ " حمد " ملك ماسينا أثناء مروره بـ " حمد الله " عاصمته (الفولة) بكثير من الحذر لخوفه على ملكه من شعبية الشيخ الواسعة ، وعززت مخاوفه أفكار الحاج عمر الداعية الى توحيد بلاد غرب افريقيا تحت راية واحدة ، كما إنتابت المخاوف ملك " البامبرا " بمملكة " سيجو " الوثنية ، عند مرور الشيخ بها فسجنه زمناً ثم أطلق سراحه ، وهذه المملكة من الممالك المعروف عنها طول مقاومتها للاسلام ، وفيما بعد غزا الحاج عمر المملكة وقتل هذا الملك ونشر الإسلام فيها .

وفى الفترة ١٨٤٠ : ١٨٤٧ م أسس الحاج عمر بمدينة " الدنكراى " شمال شرق غينيا ، زاوية قامت على نظام عسكرى دينى يشبه الرباط { المعسكر } ، إنصرف فيها إلى تنظيم جيشه لمقاومة الوثنية ونشر الإسلام ، ومحاربة الإستعمار والمتعاونين معه من الأرستقراطية الناشئة ، وعزم على تحقيق وحدة البلاد الإفريقية في ظل الإسلام ، إحياءا لأمجاد ممالك الإسلام الكبرى في الإقليم ، واستعان فى تجهيز الجيوش بجمع أتباعه الذهب من منطقة " البورة " ، واستهل الشيخ نشاطه بنشر طريقته في السنغال عام ١٨٤٧ م ؛ و أُرجأ جهاده ضد تحالف الفرنسين والوثنيين حتى يعيد تنظيم قواته ، فعاد إلى رباطه في " الدنكراى " عام ١٨٥٠م وبنى حصناً ومسجداً .

وباتساع شعبيتة ، بدأ جهاده وقضى فى الفترة ١٨٥٠ : ١٨٥٤م على الإمارات الإسلامية والوثنية الصغيرة الواقعة فى جواره في شمال الفوتاجالون انظر الخريطة السابقة) ، ووجه ضربات شديدة إلى مملكة " سيجو " (فى مالى) الوثنية كما اسلفنا ، وإستخلص منها كثيرً من المناطق ، ونشر بين سكانها الإسلام ؛ ثم تحول إلى مسقط رأسه في السنغال [الفوتاتورو] حيث له كثير من الاتباع ، وإتبعه كثير من الزعماء وإنضموا قواداً في جيشه .

اصطدم الشيخ بالفرنسيين لما استنصرهم عليه بعض القادة فى جيشه من زعماء البلاد المنضمين اليه الذين بدون معاونتهم ما كان يستطيع الفرنسيون تحطيم قوته فى السنغال وضياع حلمه فى اقامة دولة اسلامية موحدة فى الاقليم التى كان قريبا من تحقيقه ، ويقول الفرنسى " مولارد " ، لولا الإستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة إسلامية موحدة في إفريقيا الغربية وهو فى ريعان الصبا " ؛ واستمر الشيخ فى مجاهدة الفرنسيين إلى أن توفي عام ١٨٦٥ م ، ويقول الفرنسيون أن الشيخ عمر بما كان يمثله من حماس وطموح مهد الطريق أمام من أتى بعده من الزعماء الافريقيين لمقاومة الاستعمار ، وبعد وفاته تابع إبنه الجهاد من بعده فى صراع مرير مع الفرنسيين على مدى ثلاثة وثلاثين عاماً ، إنتهت بتغلب فرنسا عليه ، وبذلك خدمت النزعة الحربية للتيجانية .

الحركة و محاربة النخاسة الاوروبية

وللتيجانية دور جليل في مدافعة شرور تجارة النخاسة (قبل عهد الشيخ عمر) ، إتبعت فيها الحركة إستراتيجية ماهرة في محاربة تجارة النخاسة تقوم على تجميع السكان في مستعمرات على الضفة اليمنى لنهر النيجر يمكن الدفاع عنها ، وتصدت الحركة بقوة لكل من حاول عبور النهر من التجار الأوروبيين ، وفى عام ١٧٦٩ م حذر الإمام " عبد القادر حمدي " في رسالة له الى " بلنشو " رئيس التفويض التجارى الفرنسي في السنغال من مغبة هذه التجارة وهددً بقتل كل من يتعامل فيها إذا لم يعيدوا أبناء المسلمين الذين في أسرهم (١٨٨) .

حركة موديبو أداما " الفولانية "

قاد "موديبو عبد الله آداما " آخر الحركات الإسلامية الإصلاحية التي قام بها الفولانى فى شمالى الكاميرون ونيجيريا ، وبذلت حركته جهدا كبيرا فى نشر الإسلام في جبال الكاميرون ، وحركته من أقوى الحركات التي واجهت الإستعمار في غرب إفريقيا ، وإنتهت دولته عام ١٩١٠م بمقتله على يد الجيوش الألمانية الزاحفة .

طـــرق أخـــرى

وهناك طرقا أخرى يحفل بها التاريخ الإفريقى تتضارب بشأنها المراجع ، فخلطت بين الأصول والفروع والقواد والتابعين ، وجعلت من الحركة الواحدة حركات متعددة ، فرأينا إهمال السرد المطول المفصل تجنباً للخطأ ؛ والاقتصار على الحركات التي يعنينا جهادها ، ونضرب مثلا ببعض هذه الحركات أمثال:

المجاهد " أحمد ساموري تورى " الذى دوخ الفرنسيين على مدى ١٨ عاما فى الفترة ١٨٨١ ـ ١٨٩٨ م أعاق فيها تقدمهم فى غينيا وأعالى ساحل العاج وجنوب مالى فاستحق لقب بونابرته السودان الغربى ؛ و بفضل جهوده اسلم الكثير من الوثنيين .

جهاد " المهدى محمد رايرو " الذي ثار عام ١٨٢١ م على امام التيجانية لمهادنته الفرنسيين الذين تقدموا للسيطرة على ساحل السنغال ، وقد إستمر " المهدى " في حربه ضد التوغل الفرنسي ولم يتوقف عن الدعوة للعقيدة وتصحيحها حتى أُستشهد ، فحمل من بعده إبنه " أحمد " راية الجهاد في الفترة ١٨٦٨: ١٨٧٥م .

حركة الحاج " محمدو بيسو " الذي لقب نفسه " محمد الأمين " وجاهد الفرنسيين ثلاث سنوات إستقل فيها بمنطقة بوبو في شمال فولتا العليا ؛ و إنتهت حركته بسجنه عام ١٨٨٧ بعد أن تمكن منه الفرنسيون .

وحركة " محمدو بودو " الذي جاهد الفرنسيين فى الفترة ١٨٩١ ـ ١٨٩٤م ؛ وتابع الجهاد من بعده "فودى أسماعيل تونكارا" ، الذى نجح عام ١٩٠٨م ، في جمع المسلمين ضد الحكم الفرنسي في مالى وغينيا وإنتهى امره بالاعتزال بجبال فوتاجالون ليتفرغ لتعليم تلامذته الإسلام .

البطل " بادمبا " سلطان " سيكاسو " (جنوب مالى)

وهو من المجاهدين الذين استعصوا على الفرنسيين لمدة طويلة فى اواخر القرن ١٩ م ، ولما سقطت سوكاسا فى يد الفرنسيين ، نكلوا باهلها انتقاما لمقاومتها لهم وما تكبدوه من خسائر ، فاستباح قادة الفرنسيين التصرف بنساء السلطان واقتسام الجميلات ، واقتادو اهل المدينة الى الساحل فى مسيرة طويلة تساقطت خلالها النساء قتلى وبيع من تبقى على قيد الحياة رقيقا (انظر ملحق الخرائط بموقع الامارة)

---

[١٨٨]) محمد جلال عباس ـ المد الاسلامى فى افريقياصـ ١١٢

(تقـويم عام)

المد الإسلامى وتأثيره الحضاري على غرب افريقيا

كان للاسلام فضل فى حل عقدة ازمة الحضارة فى الغرب الافريقى وانفتاحه على الحضارة ، وفى القرون الوسطى بلغ الاقليم بحضارة الاسلام قمة نظامه الادارى والسياسى ، واستكملت كياناته السياسية مقومات الدولة داخليا وخارجيا ، وفتحت رحلات الحج ابواب الاقتباس الحضارى فإزدهرت ثقافته ، كما ازدهرت تجارته بدورانها فى حلقة تجارة عالم الاسلام الدولية فعرفت عن طريقها القوافل الإفريقية طريقها الى العالم الخارجى لأول مرة واصبح الاسلام عامل تواصل وثيق بين المنطقة ودول الاسلام.

حقق الإسلام بالتجارة وحركة القبائل انتشارا أكبر مما حققه بالجهاد ، وليس هذا إغماطاً لفضل الجهاد فالأرادة السياسية مطلوبة وبإلحاح في المراحل الأولى لتحقيق إندفاعة فى مد الإسلام قبل إنطلاقته الذاتية .

واثبت التاريخ أن نضوج المد الإسلامي بالتفاعل الحر بإعمال الفكر والايمان يبقى أكثر رسوخاً عما حققه بـ " ضغوط " الفتح والجهاد ؛ فالقسر يفرز بيئة باطنية تُظهر ما لا تُبطن ، ومظهرا بلا جوهر ونماذج هشة من المسلمين اسلمت اما نفاقا او خوفا ترتد فى اول فرصة مواتية ، وان لم تفعل لغرض تراه فقد تنتهج أساليب باطنية وتصبح فرق سرية ، تنقلب الى خطر داهم يعمل على تقويض الإسلام بما تنطوى عليه تلك النفوس من عداء مستتر ، وهو ما وعاه الحكام المسلمون مثل " اسكيا محمد " الذى إضطر امام رفض أهل " ونقارة " الاسلام ، الى تركهم لوثنيتهم خوفا من توقف العمل بمناجم الذهب ، بعد أن هددوا بهجر العمل احتجاجا على ضغوطه عليهم لاعتناق الاسلام ؛ وهناك أمثلة أخرى في منطقة " فوتا تور " و " فوتا جالون " ، وقد أثبت المد الهادئ تفوقه على المد الهادر حتى فى إختراق حواجز الطبيعة فالتجار المسلمون إخترقوا بالدعوة الغابات الإستوائية التي عجزت جيوش إسكيا محمد و إدريس ألوما عن إختراقها.

ويفسر المختصون اليُسر والسرعة التى سار بها مد الإسلام بوجود جذور توحيدية فى بعض العقائد الإفريقية تتشابه مع الإسلام ، مثل فكرة الإله الواحد بمسمياته " إله السموات – الأول والآخر – الموجود بذاته قبل الوجود" ، كما ان فكرة العقاب والثواب والبعث لدى قبائل مالى وغينيا وسيراليون تتشابه مع مثيلتها فى الاسلام ؛ وهى معتقدات إنسابت بالفطرة في وجدان الأجيال منذ آدم وفقدت بمرور الزمن اصلها السماوى ، وساهمت طبيعة الإسلام ، بما تنطوى عليه من قيم تعزز الشعور بالأخوة والجماعة وعدم التمييز بين الأعراق واحترام الاسلام للذات واعتزازه بمعتنقيه بنبذ الضعف والخنوع وتخليصهم من نظم الاستعباد الاقطاعية التى تعبدهم فيها ملوكهم ؛ كما ان الوحدة والتوحيد فى العقيدة خلصت الافريقى من الإضطراب الروحى الذى خلقته زحمة المعتقدات الوثنية وسذاجتها ، قد ساهمت جميعا فى اجتذاب الافريقيين الى الاسلام ، وزاد من اقبالهم عليه توافقه مع العديد من قيم المجتمع الافريقى الجوهرية وعلى رأسها تعدد الزوجات ؛ فى أقبالهم على الإسلام صنو الرقى ، ويقول العالم الفرنسي " رو " " إن الإفريقيين كانوا يذهبون إلى المسجد مع المسلمين ليبدوا بمظهر الرقى والتقدم ، لتعارف المجتمع على أن الإسـلام صنو الرقى (١٨٩)" .

وفتحت طبيعة " التسامح الإفريقية " الطريق امام مد الاسلام ، فقد سمحت بتعايش ديانات متعددة تحت مظلة واحدة فى محبة ودون عداءات ، ليس فقط داخل القبيلة الواحدة بل وايضا داخل الأسرة الواحدة ، ولا نغفل ماأسبغه قيام أبناء القارة بمسئولية الدعوة ،من الفة بين المجتمع والإسلام ، مما كان له الفضل فى تجنب افراز عداءات كتلك التي أفرزها الإستعمار وعنصرية الرجل الأبيض تجاه التبشير ألاوروبى .

أثر حضارة الاسلام

اطلق الاسلام الإقليم الى عالم الحضارة بعد ان اجتاز به عُقدة التطور بحضارة الإسلام ؛ التى استهلت بها المنطقة أول فصول تاريخها الحضاري ويشير الرحالة الالمانى هنريش بارت " Barth " الى فضل الاسلام فى تحضر افريقيا فيقول " من الغريب أن هذه الشعوب (الإفريقية) تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر علي مسرح الأحداث ويدخل تاريخها عهد النور الساطع "(١٩٠).

---

[١٨٩]) نعيـــم قـــداح ـ افريقيا الغربية فى ظل الاسلام صـ ٢٦٥ .

[١٩٠] (الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا صـ ٢٣٥ ـ د. حسن أحمد محمود.

وبفضل حضارة الإسلام التي وصلت المنطقة في العصر الوسيط ؛ استهلت المنطقة أول فصول تاريخها الحضاري ؛ و يقول نعيم قداح " .. " كان إنتشار الإسلام الذي عرف طريقه إلى القارة منذ أكثر من ألف عام ؛ مرحلة حضارية حاسمة إلتقت فيها إفريقيا بآسيا في لقاء وثيق مُجد ومتجدد ؛ فبفضل الإسلام أصبح المجتمع الإفريقى منتسبا للحضارة الإنسانية .

واصبح التأثير العربى العامل الاساسى فى صياغة الحياة العامة للسودان الغربى منذ ايام غانة القديمة " ، ويشير كل من الرحالة الأندلسى " البكرى " والعالم الكبير" إبن خلدون " إلى ماوصله الاقليم من مدنية وعمران فى مطلع القرن ١٤م ، بلغ بها شأنا عظيما فى ظل حضارة الاسلام (١٩١) .

ويذكر دافيدسون " ان بعض دول الاقليم فى بداية العصر الوسيط كانت تفوق اوروبا حضارة في بعض الاحيان ، وينقل عن بالمر تعليقه على هذه النقطة فى معرض حديثه عن غانة فى وقت معاصر لصلاح الدين فيقول " أن الغرب ظل حتى ذلك الحين جاهلا بدائيا متوحشا (١٩٢) .

قاومت مجتمعات الاسلام بعناد وصلابة محاولات الاستعمار امتصاصها ثقافيا ، ووقف وراء صمودها قوة الانتماء للاسلام والاعتزاز به وبذاتها وتراثها ؛ وتصدت الحركات الصوفية لمقاومة الإستعمار الأوروبي منذ وصوله ارض القارة ، ولم يقتصر دور الدعاة على الجهاد بل امتد الى التنمية الاقتصادية والنهوض بمجتمعاتهم لدعم صمودها فى وجه الضغوط الاقتصادية التى استغلها الاستعمار والتبشير للتأثير على صمودهم ؛ فأقام البعض مثل " أحمد بامبا " زعيم " المريدية " في السنغال تعاونيات للزراعة المستديمة فقام أتباعه في الفترة من ١٨٨٩: ١٩١٢ م بإستصلاح الأرض وزراعتها بالفستق تحت شعار " من يعمل ويزرع يأكل " ، وأقاموا من ريع الزراعة منشآت ومدارس تكُفل الفقراء واجتذب النشاط الاقتصادى تجمعات سكنية من حوله فنشأت مجموعة من القرى وتحول المجمع الى مؤسسة إقتصادية كبرى .

الثقافة العربية فى الاقليم

بدأ انتشار الثقافة العربية قبل اسلام الاقليم ، على أيدى مسلمى غانة التى لم تعرف مملكتها ثقافة اوابجدية فى تاريخها لاول مرة الا العربية منذ عهدها الوثنى ، فقد عرفت معنى الكتابة لاول مرة وكانت الابجدية العربية اول ما عرفه الاقليم من ابجديات ، وهو نفس الحال فى بقية الغرب الافريقى الذى لم يعرف مثل غانة معنى الكتابة الا بالاسلام ، ويقول باسيل دافيدسون ان اول سجلات مكتوبة عرفتها غرب افريقيا كانت في القرن الخامس مكتوبة بلغة عربية صحيحة (١٩٣) ، ومع وصول الثقافة العربية فى الاقليم ذروة ازدهارها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين برعاية مراكزها الثقافية المزدهرة فى امبراطوريات الاسلام فى تمبكتو – جنى - اغاديس - كانو – كتسينا ، اصبحت اللغة العربية لغة الدين والثقافة والادارة فى غرب افريقيا وظلت سائدة حتى وصول الاستعمار الذى استبدلها بلغته وثقافته .

وعلى مدى قرون تسربت اللغة العربية إلى مايزيد عن مائة وخمسين لغة محلية فى جنوب الصحراء ، ما بين القرن الافريقى والمحيط الاطلسى ، ويذكر " توماس أرنولد " أن العربية أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة السوداء ، ويشير الرحالة الإنجليزى " مور " في زيارته للمنطقة عام ١٧٣١ م الى أن معظم أهالى جامبيا البريطانية يتحدثون اللغة العربية ، ويؤكد تقرير مجلس العموم البريطانى عام ١٨٠٤ م اتقان قبائل " المالينكة " في سيراليون اللغة العربية وبقوا يتحدثون بها فى الامريكتين .

ويقول بول مارتي ان الآفريقيين كانوا يستخدمون اللغة العربية في الاجتماعات الرسمية ويكتبون بها رسائلهم ، وان المعاهدات زمن الأستعمار كانت تُكتب بالعربية والفرنسية ، وتشير المراجع إلى وجود تراث ضخم للغة العربية ، فُقد معظمه ونُقل بعضه إلى فاس خلال الغزو المراكشى ، ولحسن الحظ عُثر على عدد كبير من مؤلفات كُتاب الاقليم محفوظة فى المعهد الفرنسي في داكار تقدر بثلاثمائة مخطوط عربى بخلاف ماتضمه حاليا مكتبة " كانوا " المليئة بالكتب العربية (١٩٤).

---

(١٩١) المرجع السابق - صـ ٢٦٥ من الاعمال المعمارية التى قام بها المغاربة تخطيط مدينتا " جنى " و "غاؤ " - المصدر نعيم قداح).
(١٩٢) باسيل دافيدسون - افريقيا القديمة تُكتشف من جديد صـ ٤٢ .
(١٩٣) صـ ٣١ من كتابه ؛ كتب ابن منبه فى عام ٧٣٨ اول السجلات العربية عن المنطقة .
(١٩٤) نعيـــم قـــداح - افريقيا الغربية فى ظل الاسلام صـ ١٦٨.

نالت مراكز العلم في الإقليم " تمبكتو ـ جنى ـ كانو ـ كاتسينا " صيتاً وشهرةً وحظاً وافر من المجد ، وكانت مكانة علماؤها تضاهى مكانة قرناءهم فى اى مكان اخر ، ويذكُر السعدى أن الفقيه العربي عبد الرحمن التميمى الذى أحضره السلطان موسى من الحجاز ، هجر تمبكتو بعدما ادرك ان لا مجال له امام تفوق علمائها ؛ ويشير إبن حجر الى عالم تكرورى كان عبداً بمصر وشغف بالعلم من متابعته لدراسة أبناء سيده ، فكاتب (طالب) سيده واشترى حريته بخمسمائة درهم وفرها من عمل يده بمقتضى حق المكاتبة الذى ضمنه الاسلام ، وانتقل الى دمشق وذاع صيته كعالم (١٩٥) .

ولضيق المقام عن سرد كل أسماء العلماء البارزين بالاقليم تخيرنا منهم المؤرخ السعدى عبد الرحمن بن عبد الله (١٥٩٥ : ١٦٥٦م) الذى ترجم سيرة سبعة عشر عالما للفلك في تمبكتو (فُقد كتابه خلال الغزو المراكشى) ومن كتبه "تاريخ السودان " ؛ وأستاذه العالم المؤرخ محمد بن أبى بكر الوانلورى ؛ والمؤرخ أبوالعباس التكرورى (١٥٥٦ : ١٦٢٧م) من أصل موريتانى ويُعرف بأحمد التمبكتى ؛ صاحب كتاب " نيل الإبتهاج بتطريز الديباج " الذي يضم تراجماً لأكثر من مائة مؤرخ وأديب وشاعر وفقيه ممن دونوا أفكارهم بالعربية .

وهناك أبوالثناء محمود بن عمر كاتى الصنهاجى التمبكتى (١٤٦٣ : ١٥٤٨م) وهو قاض وفقيه ومؤرخ لكتاب " التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس " في تأريخ مملكة غاؤ وغيرها من ممالك الاقليم ، والكتاب عبارة عن نقد علمى للبحث التاريخى ، وبعضً ممن ظهروا في القرن التاسع عشر الميلادي وكتبوا باللغة العربية السنغالى كلميا دياكيتا ١٨٥٨م – مالك سى – موسى كالم – والمجاهد عثمان دان فوديو – وإبنه محمد بللو ، وعلماء الفوتاجالون الذين أرخوا باللغة العربية للفاتح المجاهد ساموري تورى ١٨٨١ : ١٨٩٨م المنتسب لشعب الماندينجو .

الوجود العربى

لم تكن اعداد العرب كبيرة ، فلم يكن وجودهم محسوسا الا فى مراكز التجارة ومدنها الرئيسية كاتسينا ـ جوا ـ تمبكتو ـ جينى ـ كانو ـ كاكوا ، وكان من بينهم تجار من مصر والسودان .

تأثير الإسلام على المجتمعات الوثنية

لم يمنع تأخر القبائل الافريقية فى اعتناق الاسلام ، اقتباسهم مجامع حضارته ، فقد اخذت القبائل الكثير من جيرانها المسلمين ؛ فقبائل " الموسىّ ")مملكة ياتنجا) اقتبست قبل اسلامها كثير من العادات والنظم الإدارية والقتالية والصناعات الجديدة من المسلمين رغم عدائها لهم ؛ ووقوفها فى طريق مد الاسلام الى الساحل الجنوبى ، ودخلت معه فى حرب طويلة ، وشنت على المدن الإسلامية بالتحالف مع مملكة البامبرا " سيجو " هجمات فى القرن الخامس عشر الميلادى فى عهد كانكان موسى ، أحرقوا فيها تمبكتو وهاجموا " جنى " و " والاتا " ؛ وإنتهى الصراع بهزيمة " ياتنجا " هزيمة منكرة تحت ضربات" مالى وصنغى وغاؤ " ، وبالذات ضربات الاسكيات فى اعوام ١٤٩٦ م ، ١٥٤٩ م ، ١٥٦١م ، فأنكفأت على نفسها حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

و فى تلك الاثناء الاسلام ينتشر بهدوء فيها " ياتنجا " بفضل التجار ، رغم ما لقوه من عنت حكامها الموسى الذين منعوهم من اداء المناسك علانية لتخوفهم من انتشار الاسلام ، لكن نجاح التجار فى تحويل الاسرة الحاكمة الى الاسلام كان فتحا كبيرا لكلا من الاسلام والموسى فى نفس الوقت ، الاول لصالح انتشاره والثانى بما استتبعه التحاق بلادهم بعالم الاسلام من تفاعل اقتصادى وحضارى .

وكان من نتيجة اسلام الحكام ان توجهوا الى العالم الاسلامى لاستقدام الائمة والمستشارين ، اما بالنسبة لمملكة البامبرا " سيجو " ، فقد قضى عليها المجاهد الكبير عمر تال وتحولت فى نفس القرن التاسع عشر للإسلام .

---

[١٩٥]) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا – د/ حسن أحمد محمود ص ٢٣٦ – ٢٥٢ .

الفرق الحضارى بين المجتمعين الاسلامى والوثنى

كان الفرق شاسعا بين المجتمعين الاسلامى والوثنى ، فالاول مجتمع حضارة ورقى وتنظيم وعدل وتفوق فى مضمونه الروحى والاخلاقي ، موصول برباط يشده الى رصيد خارجى قوى يتواصل ويتفاعل معه ، يشاركة الامه وامالة بروح من الاخوة والتضامن ، ويفتح امامه افاق التقدم ويحميه من الاندحار ، ويشهد واقعه على دور الاسلام الايجابى على مجتمعاته ؛ وهو ما رصده الرحالة الإنجليزى " جوزيف طومسون" الذى توغل في افريقيا الغربية كشاهد فذكر " أن مناطق الوثنية مغيبة لتفشى الخمور ويسودها الوحشية ، بينما مناطق الإسلام تتسم بالمظهر الأخلاقى الوقور والأدب الجم ، وهو ما يشير إلى وجود نواة لمبدأ أكثر رقيا ذو تأثير عميق جعل من الزنجى إنساناً جديداً بفضل الإسلام " ؛ و مع توغله في أرض الإسلام حتى "LOKOAJA" على نهر " بينويه " بالنيجر بمدخل السودان الأوسط ، يقول " انه وجد نفسه في دولة تقوم على العدل ، شعبها متقدم تقدماً عظيم الرقى ، تغص بالتجار والصناع المهرة " (١٩٦).

وأثرالإسلام في إفريقيا الغربية أثرا فريدا يختلف عن أثره فى أى منطقة أخري في عالم الاسلام ؛ فبالإسلام عرف تباشير الحضارة وتواصل معها ؛ ومن لغة أهل الجنة اقتبست أبجديتها الأولي فتعرفت علي القراءة والكتابة ؛ وبروح التضامن ووحدة الأمة الإسلامية تجاوزت شعوبها تحزبات القبلية وانصهرت على إختلاف الوانها واعراقها بدون تمييز أو عنصرية ؛ ومنه وبه أقامت اولى ممالكها الكبرى ذات الحضارة الزاهرة والقوة والسطوة ، وتهيأ لها افاق من التعاون والاندماج اوسع مع الثقافة الإنسانية ؛ ومن أبناء شعوب الإسلام الأفريقية جيلاً بعد جيل من أضاف لبنة بعد الأخرى إلي صرح التراث الإسلامي العظيم ، ويزيد من قدر إنجازات الإسلام أن ما تحقق على يديه من " تطور" تم في وقت قصير لم يتجاوز القرون الثلاثة وهي الفترة التي إستغرقها الخروج من أزمة الجمود اللانهائي الذى ساد على مدى يقترب من الالف عام .

موقع حضارة الإقليم في حضارة الإسلام

يختلف مستوى حضارته عما تحقق فى مناطق الإسلام الزاهرة الكبرى ، فهناك تفاوتا فى الآثار العمرانية للإسلام في كل من مصر وشمال إفريقيا عما عليه في غرب إفريقيا ، ففى الاخيرة لم يخلف الاسلام أثرا فنيا ضخما حتى عام ١٩٠٠ م " كما رصده " توماس أرنولد " (١٩٧) ؛ ويمكن تفسير ذلك بوقوع جنوب الصحراء على هامش مناطق الحضارة الإسلامية ، وعادة ما يصل نبض القلب الى الاطراف ضعيفا ؛ ونستثن من ذلك الاندلس التى كانت مركز نابض ، فحداثة عهد الاقليم بالحضارة جعل تركيزه ينصب أولا على امتصاص الامور المتعلقة بالعقيدة لتثبيت اركانها واكمال بناء دولة الاسلام ، ثم امتصاص جوانب الحضارة الآخرى كالفنون والاداب والفلسفه ، وهى امور لم تشغل اهتمام مجتمع خرج لتوه من طوره البدائى ، ولم تجعله طبيعته الرعوية ذواقاً لها ؛ كما ان الوقت لم يتسع لتشييد الصروح فى وقت يضيق على مثل هذه الاعمال التى استغرقت من المناطق الاخرى الكثير كما انها كانت ذاخرة قبل الاسلام بحضارات اخرى عملاقة فالفارق الزمنى فى عمر الحضارة بالاقليمين كبير ، الذى يمتد بالنسبة للشمال فى عمق تاريخ الحضارة الانسانية بقرون طويلة ، بينما لم يتجاوز هذا فى جنوب الصحراء سوى قرون معدودة وهى ما زالت على سطح الحضارة ؛ ولم تتح لها الظروف التطور بسبب سلبيات القرن السادس عشر التى حالت دون استكمال دورة تقدمها فى ظل إختفاء " صنغى " وانشغال المنطقة بالإضطرابات الداخلية ومناجزة المستعمر الذى جاء ليقطع التواصل بين المنطقة ومناطق الحضارة الإسلامية ؛ بهجمة شرسة إستهدفت الثروة والتراث والإنسان ؛ فقد إنقضت قوى الاستعمار الاوروبى بعداء أصيل للإسلام على تلك المناطق ، مقوضة كياناته السياسية واحكمت السيطرة على مُقدرات القارة البكر التى كان من المفترض إذا ما سارت الأمور سيرها الطبيعي بعيدا عن تحديات الاستعمار أن تصبح إرثا خالصا للإسلام والثقافة العربية .

---

(١٩٦) **المصدر كتاب الدعوة إلى الإسلام – نعيم قداح ص ١٧٦ ، نقلا عن الرحالة الإنجليزى " جوزيف طومسون" في كتابه " القبائل الإفريقية في الإمبراطورية البريطانية ".**

(١٩٧) **نعيـــم قـــداح - افريقيا الغربية فى ظل الاسلام صـ١٤٧ .**

لم تعى المنطقة ومعها إفريقيا كلها وهما فى غيبوبة الصراع الداخلى ما يجرى في أوروبا من ثورة صناعية ؛ وعندما بدأتا فى استيعاب ما يجرى كان اول ما انفتح عليه إدراكهما الجانب السلبى لحضارتها متمثلاً في آلات الدمار التي إستخدمها الأوروبيون لفرض سيطرتهم على القارة .

المرحلة الثالثة
مد الاسلام فى كنف الاستعمار
تحدى المسلمون السلطة الاستعمارية

سياسة الفرنسيين فى مواجهة الاسلام

تفاوت الاستعمار فى تعامله مع قوى الاسلام ، وكان الفرنسيون اكثرهم احتكاكا بالاسلام الذى وقعت اراضيه فريسة لهم حيث تنتشر مجتمعاته بأغلبية كبيرة فى القطاع الفرنسى فى غرب افريقيا او السودان الغربى ؛ وكان الفرنسيون قد اختبروا صلابة

المواجهة مع قوى الإسلام فأثروا فى البداية إحتواء المسلمين ، فإعتمدوا سياسة المهادنة لاستخلاص تعاونهم وخبرتهم فى ادارة البلاد التى كانت فى ايديهم حتى يستقر لهم الامر ، فإتبع Faidherbes حاكم الإقليم هذا النهج في النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما إستعان بالمسلمين في الإدارة بإعتبارهم الفئة الوحيدة المتحضرة بفضل سبقهم الحضاري ؛ ولكن النهج الفرنسى إنقلب الى المواجهة والعداء لما إستمرت المقاومة الإسلامية ، وإجمعت المواقف الفرنسية على عداء الإسلام ، وتفاوتت مواقف حكام الاقليم فيما بين التطرف وأقصى التطرف ، فطالب الحاكم الفرنسي الكاثوليكى "Mangin" بشن حرب صليبية ضد للإسلام ؛ واشتط " Archinard " فى نهجه فدعى الى تنصير المسلمين على نحو ما حدث فى اسبانيا ؛ ودعى " Brevier " لاستعداء العقائد الوثنية على الإسلام ، وهى دعوة لم يُقدر لها النجاح لهشاشة هذه العقائد في مواجهة صلابة الإسلام وقوة مجتمعاته ، بالاضافة لعدم وجود ما يدفع تلك المجتمعات لمعاداة الاسلام وقد تعايشت معه قبلا بلا مشاكل سواء فى جوارها او داخل قبيلتها .

ومع صمود الحركات الصوفية فى وجه الاستعمار فى غرب افريقيا ازدادت مخاوف الاستعمار الاوروبى (الفرنسى والانجليزى) من انفجار الموقف فى افريقيا الغربية فى ظل دعوة السلطان العثمانى عام ١٩١٥ بعد دخوله الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا ، لانتفاضة عامة ضد الانجليز والفرنسيين فى عموم بلاد المسلمين تدعم المحور فى حربه ضد الحلفاء والتى تناقلتها المنشورات فى السودان الغربى ، وتحسبا لصحوة جماعية تنتقل عدواها من مكان لاخر فى العالم الاسلامى تؤلب الاقليم عليهم ظهرت مقدماتها بتحرك جحافل السنوسية لغزو الصحراء الفرنسية فى ديسمبر ١٩١٦ ، وكان فى نية السنوسية غزو سكوتو وبورنو ويولا ، وحشد الصُوفية لدعم احمد الشريف السنوسى الكبير فى مسيرته الى مصر .

عمل الاستعمار على عزل الاقليم بالحد من تواصله مع بقية عالم الاسلام لفصم عرى تضامن امته ، وحاول بلبلة العقيدة بسلخ الاسلام من عالمية سياقه ووحدة اصوليته بالايحاء بتعددية الاسلام وإختلافه من بيئة لاخرى ، فإبتدع اصطلاح " الاسلام الاسود " ، مستوحيا مبررات النفسية الافريقية فى ابتداع المسيحية السوداء لتمييز نفسها وتبرير انفصالها عن المسيحية البيضاء (١٩٨) .

لم تهدأ مخاوف الاستعمار بإنكسار دول المحور واستتباب الامر ، فقد طغت عليه وتجذرت فيه روح العداء للاسلام ، ففى عام ١٩٥٠ دعى الضابط الفرنسي " فيليب فونداس " فرنسا في كتابه " الإستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء " لإنتهاج سياسة عدوائية لمقاومة الإسلام في هذا العالم (يقصد إفريقيا) ، والقى باللائمة على المسئولين الفرنسيين فى عدم تقديرهم خطر الإسلام حق قدره فى ظل الظروف السائدة انذاك في الوضع السياسي والإجتماعي .

سياسة الانجليز

أما الإنجليز فقد تبنوا سياسات تختلف من مكان لآخر ومن زمان لآخر حسب مقتضى الحال ، واتبعوا فى البداية نظام الحكم غير المباشر ثم تراجعوا عنه فى بعض المناطق ، ولم يلجأوا فى البداية لعزل المسلمين عن عالمهم فى شمال افريقيا ، فسمحوا بإستمرار الإتصالات الثقافية للشمال المسلم فى نيجيريا مع مصر والسودان ، ووافقوا على إقامة جامعة إسلامية في " أيبادان " Ibadan اكبر المدن الوثنية في جنوب البلاد .

ولما ساورتهم المخاوف من المسلمين نتيجة للصحوة الاسلامية المشار اليها ، سلكوا المسلك الفرنسى فأوقفوا الإتصال بين مسلمى نيجيريا والشمال الافريقى خشية تسرب الأفكار المناهضة للإستعمار وعملوا على مهاجمة الإسلام وتشويه صورته في التعليم الرسمي وبث الفرقة بين المسلمين.

سياسة الالمان

وإتبع الاستعمار الالمانى نفس الاسلوب فى مستعمراته بوسط افريقيا رواندا وبوروندى وزائير ففى البداية جلب المسلمين العارفين بالقراءة والكتابة من الساحل الشرقى للمساعدة فى الادارة والقيام لعدم وجود من يعرف القراءة والكتابة غيرهم ، ولكن

[١٩٨])الاتصال والانقطاع بين افريقيا والعرب صـ ٢٠ ـ جاكوب ادى اجابى استاذ التاريخ بجامعة ايبادان ورئيس جامعة لاجوس .

شكوى المبشرين من نجاح هؤلاء المسلمين فى نشر الاسلام جعل سلطة الاستعمار الالمانى تُقيد حركتهم داخل الاسوار .

وسائل الإستعمار
فى محاربة الإسلام
وتطويع الافريقيين

بنى الاستعمار استراتيجية طويلة المدى لاخضاع الشخصية الافريقية واضعاف مقاومتها على المستويين الفردى والجماعى بتخريب هويتها وعلى رأسها الهُوية الاسلامية السائدة فى معظم افريقيا الغربية ومحاربة الاسلام كعقيدة لمنع تقدمه بين الوثنيين بما يصعب استقطاب السلطة الاستعمارية لهذه الفئة وتضامنها مع المسلمين فى مقاومتهم لسلطانه ، فى وقت يمكن فيه ايجاد نقاط تلاقى تجمع بين الاستعمار والوثنيين ، فإبتكر وسائل منها :

(١) اعادة صياغة الهوية (مكوناتها اللغة والتعليم والعقيدة)

تستمد الشعوب صلابتها وقدرتها على المقاومة من ثقإفاتها وادبياتها ومعتقداتها الراسخة وهى مقومات لها قدرة هائلة على توحيد الشعوب وتعزيز مقاومتها ، والاسلام له جوهر قوى صقل شخصية شعوبه وعززها بقدرة هائلة على المقاومة والصمود مدعومة بروح التضامن بين الامة جمعاء تتوحد فيها هذه الشعوب التى يشدد بعضها بعضا ، والثقافة بطبيعتها تشد عرى التضامن ولها من التاثير ما يدوم ولا يبلى بين اطرافها ، ومن هذا المنطلق امتطى المستعمر صهوتها للهيمنه على القارة ، فقرر صياغة هوية الاقليم فى اطار ثقافته ليضمن ارتباطا دائما وولاء لا ينقطع.

ولما كانت مقاومة المسلمون عنيفة ضد الاستعمار لعدم ثقتهم به ومعرفتهم مدى الاضرار التى ستلحق هويتهم من جرائه ، فقد عزفت مجتمعات الاسلام عن التعامل مع كل ما يستهدفهم به الاستعمار شرا او خيرا ، ونأى المستعمر من جانبه عن التعامل معهم مخططا لاستدافهم بتخريب شخصيتهم الاسلامية " عقيدة وثقافة" والتضييق عليهم اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .

بدأ المستعمر بتشويه الاسلام وهدم حضارته وهز صورة العرب منبع الاسلام ، فقام بتحميل العرب والاسلام مسئولية بعض القضايا الإجتماعية ذات الحساسية الشديدة لدى الافريقيين وعلى راسها قضية الرق ، وهى ليست قضايا اسلام ولا مسلمين انما قضية إتجار وتجار ، وبث في إدراك الإفريقيين بما فيهم المسلمين أن الإسلام عامل تخلف اذا ما تصدينا للمقارنة بين حضارته والحضارة الاوروبية ؛ وفى هذا النطاق عمل على تقويض التعليم الإسلامي ولغته العربية اداة التواصل بين المسلمين ، وتشدد فى تقييده التعليم الاسلامى على نحو ما سنورده ، وحظر العلاقات من أى نوع بين مسلمى الاقليم واخوتهم فى شمال القارة وجرد المنطقة من وسيلة التواصل بين الاقليمين ، وسعى لاضعاف اللغة العربية العامل الرئيسى فى احياء الثقافة الاسلامية ووسيلة التواصل الممتد مع عالم الاسلام ، فعمل على كتابة اللغات المحلية بالحرف اللآتينى بدلاً من الحرف العربى المُستخدم لقرون .

تشدد المستعمر خاصة الفرنسيون بقوة لا هوادة فيها فى تقييد تعليم المسلمين عامة واللغة العربية خاصة ، تحت شعار " لا مدرسة ولا تاريخ " ، وأخضعوا القليل من التعليم الاسلامى الذى سمحوا به " في السودان الفرنسي " ، لاشراف ورقابة المكتب السياسى ، وضيقوا على المسلمين فرص التعليم العام لحرمانهم من تحصيل العلوم الحديثة ؛ وإشتطوا في محاربة محاولات المسلمين تعليم ابناءهم اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى المدارس الخاصة ويقول " فيليب فونداسى " لما لم يستسلم مسلمى الإقليم لمحاولات الإجتثاث الثقافي وامتنعوا عن الحاق أبناؤهم بمدارس المستعمر ، التى هيمن التبشير عليها وقاموا سرا بإرسال أبنائهم إلى الخرطوم والقاهرة لحرصهم على تحصيل الثقافة العربية الاسلامية ، اجبرالمستعمر من ارسلوا ابنائهم الى مصر والسودان على إستعادة ذويهم من هذه البلاد قبل أن يتموا تحصيلهم العلمى ، وأُودع بعضا ممن اتموا دراستهم السجن عند عودتهم مباشرةً ، ولقد اثبت المجتمع الاسلامى فى افريقيا انه كان الاكثر صلابة فى مقاومة الامتصاص (١٩٩).

عملت الادارة الاستعمارية فى محاربتها للاسلام على بث الفرقة والإنقسامات وتأجيج الإنفصالية فى مجتمعاته لاضعافها ، فقامت بتأليب الأقليات بأنواعها عرقية ومذهبية والفرق الاسلامية المختلفة لاثارة الانفصالية والفتن المذهبية والبلبلة داخل المجتمع

---

[١٩٩]) أفريقيا الغربية فى ظل الاسلام ـ صـ ١٤٧ ـ نعيم قداح.

الاسلامى وبين المسلمين انفسهم على نحو ما فعله " كاردير " مدير المكتب السياسى للشئون الاسلامية التابع للادارة الفرنسية فى داكار عام ١٩٥٧ للوقيعة بين المسلمين بترويج اشاعة كاذبة عن سعى المهديين لهدم قبر الرسول " عليه الصلاة والسلام " مستغلا جهل العامة وحساسيتهم الدينية ؛ وبالنسبة للمجتمعات الوثنية فقد نجح الاستعمار فى إسباغ عصب هُويته (اللغة والعقيدة) عليها ؛ وهى مفردات يمكن فرضها بسهولة على مجتمعات قبلية صغيرة ذات مقوم ثقافى ودينى هش لها كم كبير من اللغات والعقائد ولا تواصل بينها ان تتقبلها وتسعى اليها.

تضمن مخطط تخريب الهوية اولا افراغ الشخصية من محتواها ثم ادخال مفردات الهوية الجديدة ولجأ الى الترغيب فى فرض هويته ، فأقرن إعتناق لغته وعقيدته بالحصول على العديد من الامتيازات واهمها التعليم ، ويوجز الباحث الافريقى " Osie-Mensah Aborampah " القول فى ان اعتناق الافريقى للمسيحية ،كان يعنى التحول الى هوية الرجل الابيض فكرا وقيما ، وهو ما يعنى انتصار العالم الابيض على العالم الاسود وفقدان الافريقى لذاته وخسرانه هويته ، فحضور المبشرين يعنى ان الافريقيين قد ذابوا نفسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا فى عالم الرجل الابيض (٢٠٠) ، كما اشتمل المخطط ايضا على إستبدال اسماء البشر لضمان انتزاع الافريقى من ذاته ومن جذوره ، فكان على الافريقى ان يتخلى عن اسمه ليعتنق إسما اوروبيا ؛ وكل من يرفض ذلك من المسلمين يُحرم من الالتحاق بالتعليم العام البسيط والعديد من الخدمات ، ومن يرفض لغة المستعمر لا يتعلم فاللغة عامل تقارب بين الافريقى والمستعمر ، وبعد ان كادت العربية ان تُصبح لغة توحيد بين الافريقيين كما حدث فى سائر البلاد من قبل اصبح الاستعمار يعمل من اجل هدف مماثل على مستوى القارة ولكن بدلا من لغة واحدة اصبح هناك عدة لغات طبقا لعدد القوى الاستعمارية فتعددت انتماءات الافريقى بتعدد لغات المستعمر بينما كان مسار العربية والاسلام سيؤدى لان يفهم الافريقى ويتكلم لغة واحدة هى العربية يمارس بها عقيدته بلغتها الاصلية الحية ، وبفضل الاسلام استمرت حية فى وجدانه ومناسكه ونقلها معه الى الامريكتين على نحو ما اسلفنا .

وبالرغم من نجاح الاستعمار فى فرض لغته لاهميتها فى المدرسة ، الا ان الامر اختلف بالنسبة للعقيدة خاصة المسلمين لقوة العقيدة وتنظيمها ومواءمتها لطبيعة الانسان وعادات الافريقى ومجتمعه الذى يقبل بتعدد الزوجات لاهميتها كقوى منجبة للايدى العاملة فى مجتمع زراعى يعتنق النظام الابوى ؛ وبالنسبة لغير المسلمين فقد وجد المستعمر صعوبة فى انتزاع الافريقى من الشعوذة التى تحكم عقائده لادخاله فى المسيحية لعدم توافقها مع عاداته المتأصلة فيما يتعلق بتعدد الزوجات ، وهو ما حاولت بعض مؤسسات التبشير التوافق معه فى مرحلة لاحقة بإجراء بعض التعديلات فى جوهر العقــيدة فتقبلت تعدد الزوجات ، وان تنصر لم يتخلى عن الكثير من عقيدته الوثنية ويخلط بينها والمسيحية.

اجتناب المســــــــــــلمين

مدارس التبشير وسلبياته عليهم

ومما يؤخذ على المسلمين أنهم وهم فى دفاعهم عن هويتهم اعتزلوا كل ماهو اوروبى شره وحلوه ؛ فعاقبتهم الادارة الإستعمارية على عدم توافقهم معها بحرمانهم من العلم وتولى الادارة ، مما اسفر عن تجميد أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية ، فساهموا بلا وعى في تداعى وضعهم الثقافي ، وماترتب عليه من نتائج سلبية اهدرت فرصهم فى الترقى العلمى والاجتماعى فى المستقبل ؛ حتى انهم عند الاستقلال لم يكونوا مؤهلين فى بعض الحالات لحكم بلادهم التى يشكلون فيها الاغلبية ، فأقامت الادارة الإستعمارية عليكم حكاما من غيرهم.

وفى الوقت الذى ضيق فيه الاستعمار على المسلمين ، فتح الباب على مصراعيه لمكافأة الوثنيين المتوافقين فى كافة المجالات بإستثناء العلوم الحديثة التى كان يسمح منها بالقدر الذى يلبى احتياجات الادارة الاستعمارية منها ؛ ويصور "عبد الله الالورى" في مقالة له بمجلة حضارة الإسلام المأساة التى خلفها إعتزال مسلمو شمال نيجيريا التعليم العام الذى يتعهده التبشير فيقول.. " تفشت الأمية بين النشء لعدم إقبالهم على العلم ؛ فلا هم مقبلون على العلوم الإنجليزية بسبب التعصب للإسلام ، ولاهم مقبلون على تعلم العربية بجد ونشاط فبات الجهل ممدودا ، وزاد الامر سوءا تعسف امراء المسلمين وعلماء الدين فى مواجهة

---

(٢٠٠) Osieh mensah,The christianization of Akil frica p ١٠٤, - workshop by African society in libya ١٩٨٦.

حملة لواء الاصلاح ، مما كان سبباً في إعتناق عدد من مثقفى الشمال المسلمين للمسيحية " ؛ ونوهت المقالة بجهود نشطاء المسلمين الذين آلمهم الوضع المتردى للمسلمين فسعوا للتغلب عليه ؛ وعلى العكس من ذلك أشاد بمسلمى الجنوب الذين كانوا افضل حالا لسعيهم الى الرقى وتحصيل العلم دون ان يقلل ذلك من نشاطهم فى الدعوة الإسلامية .

(٢) الأفكار التغريبية للدراسات العلمية
للمجتمعات الافريقية

اجرى المستعمر دراسات متخصصة على المجتمعات الافريقية لاستخلاص اساليب احتوائها وإخضاعها لارادته ، واستجلاء نقاط الضعف فيها وفيما بين طوائفها للايقاع بينها وبين المسلمين فى حربة ضد الاسلام ؛ وإعتصرت الدراسات من بعض الحقائق بعد ليها مبررات تساير المنطق فى ظاهرها تصب فى خدمة مخططاته ، فإستخلصت هذه الدراسات عن قصد من بعض سمات الطبيعة الانسانية التى تعايش معها الافريقى ولا تتعلق بالاسلام ، نتائج مغلوطة للاساءة للاسلام ، استخدمها المستعمر لتبرير ممارساته ؛ كإعتياد المجتمعات الإفريقية الاستسلام للغالب فى إطار اطاعة المغلوب للغالب ، وقبول الخضوع للحكام المستعبدين بدون تمرد ليس من طبيعة هذه المجتمعات الذين جمعهم فى حالة الوثنيين وتجار المسلمين تحالف فوقى مستغل للشعوب قائم على المصالح المتبادلة .

وفيما يتعلق بمجتمعات الاسلام اشارت الدراسات الى انها إستسلمت لإستغلال الحكام المسلمين فى اطار حكم الإسلام إطاعة ولى الامر ، والذى استخدمه اولئك الحكام لتكريس نفوذهم على رعاياهم وقهرهم ، وهى جميعا امور لا جديد فيها فى علاقة مجتمعاتهم مع الاستعمار وبالتالى ليس من حق الافريقيين التذمر لعدم تغير الحال عما كان عليه فى ظل نظمهم الاقطاعية القهرية ، وان عليهم ليس فقط القبول بالامر الواقع وانما ايضا العرفان للمستعمر الذى يُدينون له بالفضل لما قدمه اليهم من تعليم راق ومفردات حضارته التى لم تتوفر لهم من قبل .

ورات الدراسات الجهاد بأنه عنصر عداء واستعداء فى العلاقة بغيره من المجتمعات ؛ عندما يفرض (الجهاد) نفسه بالقوة قسراً وقهراً وهو في ذلك لا يختلف عن الإستعمار فى هجومه عليهم ، وحملت الدراسات الاسلام المحارب وزر تجارة الرقيق ، التى غذاها بالاسرى المستعبدين فى المعارك التى فجرها إستباحته قتاله المجتمعات غيرالإسلامية ، وحملت العرب إثم بدء هذه التجارة في القارة الافريقية ؛ وبهذا فلا فرق بين تجارة الرقيق العربية وتجارة الرقيق الأوروبية التي إستبدلت الرق الجماعى بالرق الفردى ، محاولة تبرير فظائع تجارة النخاسة الاوروبية ؛ وإتهمت الدراسات مسلمى شمال الصحراء عربا وبربرا بمسئولية تخريب حضارة غرب افريقيا مستشهدين بإجتياح المرابطون ومن بعدهم المراكشيون دول غرب إفريقيا " الإسلامية" ، (فى ذلك اقرار غير مقصود بوجود الحضارة الاسلامية بالاقليم بعدما كانوا دائما يحاولون نكرانها) .

تركت الدراسات فى مجملها أثار سلبية عميقة على نفسية معظم شعوب جنوب الصحراء ، وتمكنت من بعض مفكريها فتواصلت نظرتهم مع نظرة الإستعمار العدائية للإسلام الى ما بعد الاستقلال ؛ فإعتنق هؤلاء ومنهم زعماء وفلاسفة أفكارا انقسامية تستند الىٍ التصنيف العرقى والجغرافي تتحدث عن " إفريقيا السوداء " و " القومية الزنجية " و جنوب الصحراء او " إفريقيا جنوب الصحراء " لتميزها عن شمال الصحراء وافريقيا الشمالية البيضاء المسلمة ؛ وهى أفكار ان كان لها سند من حقائق الجغرافيا والاثنيات فلا سند لها فى التاريخ وتتجاهل تراث الماضى ، فالإقليم شهد على مدار تاريخه وإمتداده الجغرافى من البحر الأحمر وحتى ساحل الاطلنطى تمازجا عرقيا وثقافيا نشط بين الافريقيين زنوجا وعربا وبربرا على مدى قرون كاد أن يصبح معه جنوب الصحراء جزءاً متمماً لإفريقيا العربية لولا قدوم الإستعمار ليئد ما لم يكتمل .

٣) التبشـــــير الأوروبى
ومحاربة الاسلام ـ الهيمنة على الافريقيين
تطور المد التبشيرى

حتى الحرب العالمية الاولى

لم تعرف افريقيا جنوب الصحراء ؛ المسيحية قبل الإستعمار إلا ما كان لها من رصيد في الحبشة والنوبة ولم يكن لهما دور فى مد المسيحية ابعد من حدودهما ، وبدأ التبشير نشاطه جنوب الصحراء فى منتصف القرن الخامس عشر ، مع قدوم الاوروبيون حيث بدأ على يد البرتغاليين فى الساحلين الغربى والشرقى ، فأقاموا له المراكز في ساحل الذهب " غانا " و نجحوا في تنصير ملكها عام ١٤٩١م ، وأقاموا أُسقفية في أنجولا وكنائساً فى اماكن عدة من بينها " ممبسة " المسلمة فى الشرق ؛ ولم تسلم الحبشة (اليعقوبية) حليفتهم من محاولاتهم التبشير بالكاثوليكية ، وتبعهم الأسبان بالتبشير في " داهومى وغينيا الأسبانية " ، وساهم الفرنسيون بنشاط مكثف في غرب إفريقيا ، والألمان في الكونغو والكاميرون والإنجليز في نيجيريا وساحل الذهب .

لم يحقق التبشير نتائج كبيرة فى الفترة ما بين القرنين ١٥ و ١٩ م لعدم تحمس الافريقيين لتعارض العقيدة الجديدة مع بعض عاداتهم وتقاليدهم الجوهرية ، ويروى الميجور " مونتيرو " الذى ترأس بعثة برتغالية الى بلاط حاكم لواندا جنوب الكونغو عام ١٨٣١ ، ان الاهالى لم يكونوا شديدى الحماس لاعتناق المسيحية ، ولكنهم كانوا يتقبلون التعليم والمعرفة ، وذكر ان ما يشيعه الاوروبيون عن طهى الافريقيين للمبشرين في الاوانى الضخمة ليس الا دعاية اوروبية ، فلم يثبت حتى عام ١٨٨٤ سوى مقتل ستة من المبشرين الثلاثمائة الذين توغلوا في شرقى افريقيا قبل ذلك العام ؛ ويضيف ان كان البعض اعتنقها (المسيحية) مجاملة وتقربا للاوروبيين ، فإن البعض الاخر اعتنقها بإغراءات بسيطة ففى ممالك الكونغو استطاع الاوروبيون اغراء كثير من الملوك بإعتناق المسيحية ببعض الالقاب التي لا تضفى عليهم شيئا حقيقيا من النبالة بمثل ما تمثله للاوروبيين (٢٠١) .

إنقطع التبشير عن معظم مناطق القارة فى الفترة التى إنغمس فيها الأوروبيون فيما بينهم فى حرب المائة عام على أرض القارة الاوروبية ، وانصراف البرتغال الاكثر نشاطا فى هذا المجال الى تجارة العبيد ونهب ثروات القارة السمراء ، وهو ما إستتبعه إنحسار المسيحية بتقلص عدد اتباعها وارتداد معظم من اعتنقها .

وتجربة التبشير البرتغالى فى شرق افريقيا فاشلة ، لان معظم مدن الساحل مدن مسلمة مزهوة بلإسلامها ، ونجاح التبشر فيها حالات محدودة وبضغوط الاستعمار واقتصرت على ابن سلطان مالندى المسلم الذى أخذه البرتغاليون وربوه فى جوا بالهند على النصرانية ، فأصبح متعصبا لها وحاول فرضها بالقوة على شعب بلاده بعدما رجع اليها ، لكنه عاد الى اسلامه بعد مدة وتمكن من طرد البرتغاليين الا انهم عادوا وتغلبوا عليه ففر ومات مشردا (٢٠٢) .

ولم يكن التبشير عندما عاود نشاطه من جديد عام ١٨١٥ م ، بأحسن حالا عما كان عليه الحال من قبل ، فقد تأثر مده سلبا بعدة اسباب منها فجيعة الافريقيين فى التبشير لدوره فى تبرير ممارسات الإستعمار ضد الشعوب الافريقية بتفسيرات تلمودية كشفت الارتباط القائم بينه وبين الاستعمار وضد مصلحة السماء ؛ كما القت عنصرية الكنيسة الاوروبية تجاه القسس السود بظلها على التبشير ؛ ورفض المجتمع الافريقى التخلى عن عاداته الاساسية التى تتعارض مع جوهر المسيحية مثل تعدد الزوجات ومبدأ السلفية الذى يقدس ارواح الاجداد ويحتفل برفاتهم كل عام وكان التخلى عنها يضر بهذه المجتمعات ، فتقييد الزوجية يضر بالانتاجية ومحاربة السلفية تضر بالسلطة الابوية للنظام الاسرى .

نجحت حركات الانسانيون فى تحرير عبيد انجلترا وتوطينهم فى سيراليون عام ١٧٨٧ ، وأُعيد توطين العبيد الامريكيين المحررين فى ليبيريا عام ١٨٢١ ، وازدادت اعداد العائدين مع توقف تجارة النخاسة عام ١٨٠٧ ، فإحتشد عدد كبير من العبيد المسيحيين المحررين فى الغرب الافريقى ، فنشط التبشير فى المنطقة كما تحسن مده فى ارجاء القارة عامة مع استقرار الوضع للاستعمار ، فتقدم الى جامبيا عام ١٨٢١ وغانا عام ١٨٣٤ وارض اليوروبا عام ١٨٤١ والساحل الشرقى وغرب كينيا عام ١٨٤٠ ؛ اما تقدمه فى السودان الغربى (الفرنسى) كان محدودا لتصدى الكتل الاسلامية وعلى راسها قبائل " الفوله " ، وصمدت سيراليون وهى ارض اسلام خالص فى وجه التبشير رغم تعمد توطين العبيد المحررين فيها بهدف اضعاف قوة المسلمين العددية .

وبعد انتهاء المنازعات الاوروبية بين القوى الاستعمارية بتقسيم مناطق النفوذ فى القارة الافريقية فى مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ م ، اصبح المناخ مواتيا للتبشير فقد انقطع تنافس الكنائس التبشيرية المختلفة للقوى الاوروبية ، لكنه لم يحرز تقدما محسوسا اعتمادا على الذات على نحو ما احدثه الاسلام بقوة دفعه الذاتى ، فإتفقت القوى الاستعمارية على دعمه بكل الطرق

---

(٢٠١) إفريقيا القديمة تكتشف من جديد صـ ١٢٢ و صـ ٦١ دافيدسون .

(٢٠٢) إفريقيا القديمة تكتشف من جديد صـ ٥٩ ــ ٦٠ باسيل دافيدسون .

فأوكلوا له الخدمات الاجتماعية والتعليم والصحة وربطوا به العديد من المزايا .

كان الفرنسيون اول من فوض مسئولية تلك الخدمات للتبشير و حذت حذوها بقية القوى الإستعمارية ، ويسجل القس "Schanaham" اهمية هذا الربط بقوله .. " أن التبشير بالله وحده لم يثمر فى نيجيريا ، فكان من الضرورى ربطه بشىء مفيد نافع ودائم اكثر استمرارية بتكليفه بمسئولية التعليم والصحة ؛ فلا يمكن لاحد ان يعترض على المدرسة والمستشفى " .

وعزز هذا الربط موقف التبشير وزاد من نفوذه فى المجتمع الافريقى ، ودعمته الادارة الاستعمارية التى دائما ما كانت تتعاون معه بكل قوة ، فكانت تستجيب لطلباته المتعلقة بالافريقيين ؛ فاقبلت جماهيرهم على التعميد للحصول على قسط من هذه الخدمات والتمتع بمزايا هذا النفوذ .

وحتى نتبين حجم الخدمات التى اوكلها المستعمر للتبشير فى السودان الفرنسى ، نورد هذا البيان بالخدمات الاجتماعية التى قدمها التبشير على سبيل المثال (٢٠٣)

التعلـــــــيم	٨٠٧ مدرســـة	تضم ٤٧ الف طالـــــــب
خدمات طبيـــة	٧٠ صيدليـــة	خدمت ١,٧ مليون شخص
خدمات متنوعة	------	قدمت لـ ٤٦٢ ألف شخص

التبشير فى القرن العشرين(٢٠٤)

فى ظل هذا الربط تقدم التبشير على نحو غير مسبوق فى القرن العشرين ؛ فقد أصبح اعتناق المسيحية عملية جماعية وغير اختيارية فى معظم الاحوال ، بعدما اتخذت الصبغة الرسمية باعتبارها دين يحظى بدعم السلطة الاستعمارية يرتبط الحصول على العديد من المزايا التى يقدمها التبشير بإعتناق المسيحية ، واتبع التبشير وسائل سهله وذكية ذات مردود سريع واكيد ، فقدم فرصا للعمل ودرب العمالة تدريبا مهنيا وقام بتشغيلها فى برامج زراعية تحت شعار " الانجيل والمحراث " ، ونفس الشئ طبقه فى مجال التمريض وغيره من المجالات ، وركز على تنصير الام أولا وهى التى ستجلب بنفوذها القوى داخل الاسرة الابناء ثم الازواج الى المسيحية ، و تنافست المذاهب المسيحية بكل الطرق فى اجتذاب الافريقيين للعقيدة المسيحية .

وسائل التبشير بعد الحرب العالمية الأولـى :

تبنى التبشير المنهج العلمى فى عملياته فقام بـدراسة المجتمعات الإفريقية وعايشها المبشرون ليتعرفوا على نواحى الضعف والقوة فى شخصيتها لاستخلاص أساليب التعامل معها ، فألموا بكل نواصيها ، ولم يعبأ اولئك المبشرون فى سبيل الدعوة بشظف المعيشة وظروف المناخ والأمراض المتوطنة التي عصفت بأرواح البعض منهم ، بل تقبلوها راضون غير متذمرين ، وتاريخ المبشرين ملئ بالتضحيات والمثابرة من اجل تحقيق رسالتهم .

وبناء على هذه الدراسات طور التبشير وسائل الدعوة فنجح فى اجتذاب الافريقيين للمسيحية ، ومن اهم الاساليب ، ترجمة الكتاب المقدس الى اللغات المحلية فى وقت متزامن مع انتشار التعليم بين الافريقيين ؛ وهيأت الترجمة الفرصة لانتشار المسيحية بعدما أصبح من السهل على الافريقى إلاطلاع عليه ذاتيا وفهمه بعيدا عن المبشرين الاوروبيين الذين اثاروا حفيظته بوقوفهم الى جانب الاستعمار ؛ وتطويع بعض المذاهب مبادئ المسيحية لتتوافق مع العادات الإفريقية لتجاوز تعارضهما الذى حال من قبل دون انتشار العقيدة ، فقبلت بعض المذاهب تعدد الزوجات رغم أن التبشير إتخذ من هذا المبدأ منطلقاً للهجوم على الإسلام .

وحابى المستعمر معتنقى المسيحية دون غيرهم فى مجالات التعليم و الوظائف والخدمات التى ما كان يمكن الحصول

---

[٢٠٣] **) أفريقيا الغربية فى ظل الاسلام - صـ ١٤٧ - نعيم قداح .**

[٢٠٤]) Report of The Commission of the missionary council of the church assembly in london " call from Africa " rational , rationality, and techniques of Christian missionary conversion of Africans, by Themba Sono, p. ١٧—٢٥
Christian missionarism and the alienation of the African mind - workshop by African society in libya ١٩٨٦.

عليها من السلطات الاستعمارية بدون نفوذ المبشرين ، فكان الحصول على قسط من هذه الخدمات مشروطا باعتناق المسيحية ، فأغروا بذلك الوثنيين والانتهازيين من المسلمين على اعتناق المسيحية ، وقد أثمرت هذه السياسة في تقدم المد التبشيرى داخل المجتمعات الوثنية التي إنبهرت بالأوروبيين وراقها اعتناق ثقافتهم فأصبح تعميد الوثنيين جماعيا .

علاقة التبشير بالاستعمار

منذ بداية المد الاستعمارى والعلاقة وطيدة بين التبشير والإستعمار بدافع الولاء الوطنى والانتماء العقيدى والعرقى ، فقد كانت مراكز التبشير على الساحل هى نقاط إنطلاق جنود المستعمر ، وكان التبشير يتحرك فى كثير من الأحوال فى ظل الإستعمار الذى يؤمن حركته المدية الى مناطق الداخل ليصل الى الكتل الوثنية ؛ وقد أسدى التبشير بالمقابل الكثير من الخدمات الى السلطة الاستعمارية بإستخدامه العقيدة لتبديد مقاومة المسيحيين الأفريقيين باقناعهم بالرضى بما هم فيه وتقبل الواقع ، والعفو فى اطار التسامح المسيحى عن ممارسات الإستعمار اللا إنسانية خلافا لمبادىء السماء السمحة للمسيحية الحقة التى تملى على المبشرين الدفاع عن المضطهدين.

وهنا علينا التفريق بين طبيعة التبشير المسيحى " كعقيدة " سماوية بنقائها الإلهى وبين " سلوك " المبشرين الذين لم يتمكنوا من الإرتقاء به إلى سمو العقيدة ، فعادة ما تخضع تصرفاتهم كبشر لاعتبارات دنيوية كثيرة تسيطر عليها الأهواء ، وفى ظل هذا الارتباط العضوى اصبحت العلاقة بين الاثنين مصيرية فإستمرار التبشير مرهوناً بوجود قواه الوطنية الإستعمارية .

موقف التبشير من الاسلام

لم يطمئن الاستعمار بعد إستقراره فى القارة الى الاسلام الذى إمتنع عليهم واجهدتهم مجتمعاته بضراوة مقاومتها ، فبدأ يتحسب له ، وقد عبرعن تلك المخاوف العديد من المستشرقين فيقول جاردنر " أن قوة الإسلام الكامنة تخيف أوربا " (٢٠٥) ؛ وُسايره القول " مورو بيرجر " بأن "الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيُسر فى أفريقيا " .

وما زال التخوف والقلق قائما مترسخا في فكر الغرب ، ففي سبعينيات القرن العشرين اشار جين روستو رئيس قسم التخطيط بالخارجية الامريكية ومستشار الرئيس جونسون بكل الوضوح الى ضرورة التصدى للاسلام فيقول " ان هدف العالم الغربى استمرارا لهدف الحرب الصليبية في الشرق الاوسط هو تدمير الحضارة الاسلامية ، وان قيام اسرائيل جزءا من هذا المخطط " ؛ وسبقه في هذا الاتجاه مسئول بالخارجية الفرنسية عبر عن مخاوفه بشكل اشمل عام ١٩٥٢، فذكر ان " العالم الاسلامى عملاق مقيد لم يكتشف نفسه بعد ، حائر قلق ضائق بتخلفه ؛ يعانى من الكسل والفوضى غير انه راغب في مستقبل افضل وحرية اوفر ، وعلينا ان نبذل كل جُهد حتى لا ينهض ؛ وفشلنا يعرضنا لاخطار جسيمة ، فصحوة العالم العربي والقوى الاسلامية الكبيرة نذير بكارثة للغرب وانتهاء لدوره في قيادة العالم"(٢٠٦) ، وتواصلت تلك النظرة المعادية للاسلام الى وقتنا هذا بمسمى صدام الحضارات والعداء للاسلام والتخوف منه .

وجد الإستعمار فى التبشير وسيلة فعالة بما أوكله اليه من خدمات لخلق كتل مسيحية تجمعه بها العقيدة والثقافة ، تدعمه فى محاربة الاسلام واضعاف قواه وهو هدف استراتيجى لكل من الاستعمار والتبشير يتعلق بالسياسة اكثر منه بالعقيدة ؛ وقد عبر القس " سيمون " عن الارتباط العضوى والتعاون الاستراتيجى للسيطرة على القارة فيقول " ان التبشير عامل مهم لكسر شوكة الوحدة الإسلامية التى تهدد السيطرة الأوروبية " (٢٠٧)؛ ويؤكده القس " سبنسر ترمنجهام " بقوله " إن الهدف الرئيسى للكنيسة هو خلق كتل مسيحية تقف في وجه التكتلات الإسلامية في الدول الإفريقية إذا ما إدعت لنفسها حق السيطرة أو النفوذ في تلك الدول " (٢٠٨) .

قام التبشير بدراسة العقيدة الاسلامية لسبرغورها فيعينهم العلم بالشئ على محاربته ، وتعلم المبشرون اللغة العربية

---

[٢٠٥]) التبشير والإستعمار ص ٣٦ الطبعة الرابعة- نقلا عن قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله - سنة ١٩٩٨ تأليف "عبد الودود يوسف " .
[٢٠٦]) الغزو الثقافى يمتد في فراغنا للشيخ محمد الغزالى صـ ٣٠ (نقلا عن الاقتصاد الاسلامى صـ ٣٢).
[٢٠٧]) كتاب كيف هُدمت الخلافة ص ١٩٠ – القس سيمون .
[٢٠٨]) القس " سبنسر ترمنجهام " فى كتابه - الكنيسة المسيحية في السودان بعد الحرب الثانية.

وتغلغلوا بين مسلمى القارة ليشككوهم فى دينهم ويقللوا من شأن حضارته ويثيرون الكراهية ضد العرب اصل العقيدة ، فأثاروا قضايا من قشور الامور لايقاع الحيرة والشك بين المسلمين فيسهل التأثير عليهم وتنصيرهم بالاغراءات لإضعاف كثرتهم العددية.

تأثرت المجتمعات المسلمة سلبا بإحتكار التبشير للتعليم لرفضها التعامل مع مدارس المبشرين خوفاً على عقيدة ابنائها فضاعت منهم فرص تحصيل العلوم المعاصرة ، وإقتصر تعليمهم على التعليم الدينى الذى وفروه بجهودهم الذاتية ؛ وبضياع فرصهم فى تحصيل العلوم المعاصرة التى تؤهل للحياة العامة ضاعت معه فرص الترقى المادى والاجتماعى لانعدام فرصهم فى الحصول على الوظائف الهامة وتقلصت حقوقهم داخل اوطانهم وفقدوا ثقلهم السياسى فإختل التوازن الوطنى بعد الاستقلال لما احدثه هذا من خلل لمدى طويل ، ففى بلاد الاغلبية المسلمة اعتبرهم المستعمر غير مؤهلين لتولى الحكم فسلمه لغيرهم عند الاستقلال ، مثال ما حدث فى السنغال عندما تقلد ليوبولد سنجور الفيلسوف السنغالى المسيحى منصب رئيس الدولة وبقى على رأسها حقبا طويلة ، وهو نفس ما حدث فى تشاد بتولى " فرانسوا تيبنى " ، وفى سيراليون بتولى سياكا ستيفنز .

وحتى نتبين مدى الغبن الذى الحقه التبشير بالمسلمين فى نيجيريا ذات الاغلبية المسلمة في ظل الإستعمار الإنجليزى (٢٠٩) ، نرصد سيطرة التبشير على ٩٩% من مدارس نيجيريا (عام ١٩٤٢) التى تركزاغلبها فى اقليم الجنوب المسيحى الذى حصل منها على ٢٦ مدرسة مقابل كل مدرسة فى الشمال ، اى بنسبة توزيع ٢٦: ١ لصالح القطاع المسيحى ، وتضاؤل عدد الطلبة المسلمون بالمقلرنة بغيرهم فقد بلغ عدد طلبة الجنوب المسيحى عام ١٩٥٧ حوالى ٢,٥ مليون طالب مقابل ١٩٠ألف طالب في الإقليم الشمالى المسلم الذي يتجاوز عدد سكانه ضعف سكان الجنوب .

وبالنسبة للمناطق الفرنسية فى غرب افريقيا حُرم المسلمون من إنشاء المدارس الا من بعض الكتاتيب التى رفضت السلطة الاستعمارية إدخالها في باب تلقى المنح والمساعدات الحكومية على غرار ما قدمته الى مدارس التبشير ، كما وقفت بالمرصاد للمدارس الإسلامية لعرقلة عملها فتارة تغلقها وتارة تعتقل معلميها الوافدين من شمال إفريقيا أو من أبناء البلاد الذين تعلموا فى الدول العربية (٢١٠) .

ورغم هذه الضغوط نجح البعض امثال الشيخ محمود بن عمر باه من فوتاتورو فى انشاء سلسلة مدارس نظامية ، بإسم الفلاح فى غرب افريقيا مالى والكاميرون ووسط افريقيا ، مستلهما نفس النسق لمدرسة الفلاح فى مكة ، وبلغ عدد مدارس هذه السلسلة ٧٧ مدرسة فى الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ ، وتخرجت اول دفعة من الدارسين من مدرسة كاياkaya بمالى عام ١٩٥١ ، وبلغ عدد خريجيها خمسين تلميذا أُبتعث منهم تسعة عشر الى الازهر فى سرية تامة خوفا من ملاحقة سلطات الاستعمار.

ومما يُؤخذ على برامج التعليم الفرنسى ضعفها وتدنيها ، فقد كانت اهداف تعليم الافريقيين فى عمومه محدودة بمصالح الاستعمار ولا تخدم البلاد ، فلم تتجاوز اهدافه سوى تخريج موظفين على قدر محدود من المعرفة لتسهيل اعمال الادارة ، فلم يكن الغرض رُقى مستوى الافريقيين والارتقاء بمعارفهم أو إعداد متخصصين فى مجالات خدمة للبلد ؛ وقد جاء المخطط التعليمى الفرنسى لما وراء البحار لعام ١٩٥٤ معبرا عن ذلك المفهوم ، فركز على التعليم المهنى البسيط رافضا بشدة أى توسع في التعليم الثانوى بالمستعمرات الا فيما يخص تعليم الفرنسيين الذين خُصصت لهم الكثير من المدارس وأُغدقت عليها الأموال ، ويوضح العالم الفرنسي " جورج هاردى" مدير التعليم السابق في الجزائر وسائر إفريقيا السوداء ، اهداف فرنسا التعليمية فى مستعمراتها إذ يقول " إن التعليم في المستعمرات ليس أمراً عادياً ومن الخطر التوسع فيه " .

وهو ما تم تطبيقه عمليا فعدد الطلبة الجامعيين في إفريقيا الغربية لم يتجاوز ألف طالب جامعى فقط عام ١٩٥٦ ، وهى نسبة ضئيلة مقارنة بعدد السكان البالغ عشرين مليون نسمة أنذاك ، و تدنت نسبة الطلبة فى السنغال بعد ثلاثمائة عام من الإحتلال إلى ٩% فقط من اجمالى السكان (٢١١) ، وفى شرق القارة فى ممباسا التى يبلغ مسلموها ٨٥% من عدد سكانها يشغل ابناؤها ٣٦% من الاماكن فى المدارس الابتدائية ونسبة ٨% من المدارس الثانوية .

وفى ضوء تدنى نسبتهم فى الثانوية فقد لا تجد منهم احد فى الجامعة ، وفى اوغندا التى تصل نسبة المسلمين فيها الى ما يزيد على ٤٥% ، نجدهم يشغلون نسبة ٥% فى الجامعة ، وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون نسبة ٨٦ % من سكانها تصل

---

[٢٠٩]) نيجيريا عملاق افريقيا التائه صـ ٧٧ ـ د احمد شلبى . ١٩٥٦ .
[٢١٠]) افريقيا الغربية فى ظل الاسلام – نعيم قداح صـ ٢٤١ ، نقلا عن جريدة لوموند الفرنسية ايلول ١٩٥٦ .
[٢١١]) كتاب إفريقيا الغربية في ظل الإسلام – نعيم قداح صـ ٢٤١ نقلا من جريدة لوموند - أيلول ١٩٥٦ .

نسبتهم فى الجامعة ٥% فقط .

التبشير الاوروبى جنوب الصحراء
(نطاقى الوسط و الشرق)

بدأ التبشير فور وصول البرتغاليين الى الساحل الشرقى للقارة فإستهدفوا الجميع وثنيين ومسلمين ، ولم يستثنى التبشير المسيحيين الشرقيين ممثلة فى المذهب القبطى " اليعقوبى " فى الحبشة ، وتشير التقارير الى نجاحهم فى الفترة ١٥٦١- ١٦٣٠ فى اجتذاب بعض زعماء الوثنيين الى إعتناق المسيحية مقابل اغداق القاب لاقيمة لها عليهم ؛ كما ارغموا بعض المسلمين بالمنطقة الشرقية على اعتناق المسيحية منهم ملك " مونوباتا " وزعيم ممبسة وابن ملك مالندى ، ويشير ترمنجهام الى ان الذين أعتنقوا المسيحية على ايدى البرتغاليين إرتدوا عنها فى فترة خمول التبشير بسبب الحروب الاوروبية البينية ، ولم يتبق على المسيحية فى القرن ١٨ سوى نفر قليل وجدهم التبشير عند استئناف نشاطه ؛ وعدم تزايد اعداد المسيحيين دليل على عدم اهتمام الحبشة بالتبشير بين جيرانها.

بعد احتلال الانجليز لـ " زنجبار " المسلمة عام ١٨٤٠ حولوها الى مركز تبشيرى كبير ليبث نشاطه فى منطقة البحيرات العظمى داخل القارة ، ولم يسلم الصومال المسلم من نشاط تبشيرى واسع النطاق إستثار جهاد " محمد بن عبد الله حسن " ، وتزايدت حدة النشاط التبشيرى فيه مع تقسيم الصومال فى نهاية القرن ١٩ بين الدول الاوروبية فى مؤتمر برلين.

وفى كينيا بما فيها من عرقيات مسلمة من الصوماليين وعرب ممبسة والامارات العربية السابقة ؛ خلع الانجليز حاكمها المسلم بعد أن دخلوها ووضعوا قانونا يقصر الحكم على المسيحيين وتعهدوا التبشير بالرعاية (٢١٢) .

تدنى نسبة التعليم بين المسلمين
فى دول شرق القارة

وفى ممبسة العربية المسلمة وهى الان خاضعة لكينيا يبلغ مسلموها ٨٥% من عدد سكانها لكن نسبة اشغالهم الاماكن فى المدارس الابتدائية اقل من نسبتهم العددية حيث يشغل ابناؤهم ٣٦% فقط بينما تتدنى هذه النسبة فى المدارس الثانوية الى ٨% ، وبالتالى فنسبتهم فى الجامعة لا تُذكر. واوغندا التى تزيد فيها نسبة المسلمين على ٤٥% ، يشغل ابناؤهم نسبة ٥% فى الجامعة وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون بها نسبة ٨٦ % نسبتهم فى الجامعة ٥% فقط ؛ وفى موزمبيق التى كان المسلمون يشكلون نسبة ٣٥% من اجمالى السكان مقابل ١٠ % من المسيحيين والبقية من الوثنيين ، عزل البرتغاليون المسلمين عن العالم الاسلامى لاضعاف هويتهم وعطلوا الدراسات الاسلامية ومنعوا استخدام اللغة العربية وأُعتبر تعليمها جريمة ، وتعرض العلماء للتنكيل والنفى وأخضعوا التعليم عام ١٩٤٠ للتبشير بالاتفاق مع الفاتيكان ، وكادت الكونغو ان تتحول الى أغلبية مسلمة قبل دخولها ربقة الاستعمار ، فقد كان نصف البلاد فى عام ١٨٦٣ تحت سيطرة العرب والمستعربين الافريقيين وشاع انتشار اللغة السواحيلية بين أهلها .

وفى اوغندا حيث كان للاسلام نفوذا منذ عهد متيسا الذى اسلم فترة وارتد ؛ وبلغ مسلموها من القوة أنذاك لدرجة انهم بدلوا الملوك فقاموا بالتعاون مع المسيحيين بخلع الملك موابى عام ١٨٨٨ واقاموا اخيه كيويوا Kiwewa ، ثم خلعوه بعد شهر واقاموا بدلا منه اخوه كاليما ، ولما أعاد المسيحيون الملك المخلوع Kiwewa خلعه المسلمون مرة اخرى بعد اسابيع ولكنه إستعاد عرشه مرة اخرى بمساعدة المسيحيين مقابل التنازل عن كثير من سلطاته لزعماءهم (٢١٣).

وتناوب على اوغندا التبشير الانجليزى عام ١٨٧٧ ومن بعده الكاثوليكى الفرنسى عام ١٨٧٩ ، ورغم النشاط التبشيرى تقدم الاسلام بسرعة منذ عام ١٨٨٤ بسبب اضطهاد الملك موانجا Mwanga خليفة متيسا للمسيحيين فى الفترة ١٨٨٦ الى ١٨٨٨ فقُتلوه .

---

[٢١٢]) مأساتنا فى افريقيا – عماد الدين خليل ص ١١٥ .
[٢١٣]) The New Columbia Encyclopedia ١٩٧٥ , p. ٢٨١٦.

ورغم السلبيات التى يتناقلها الاوربيون عن ممارسات المستعربين خاصة تجارة الرقيق فقد كان من المتوقع أن تصبح الكونغو دولة مستعربة لولا الاستعمار البلجيكى الذى اجتث ذلك التطور فاخضع التعليم بجميع مراحله للمبشرين ، الذين مارسوا ضغوطا على المسلمين فاصبح عليهم اذا ما رغبوا فى الحصول على قسط من التعليم ان يتقبلوا التعميد فى الكنيسة ويتخلصوا من اسمائهم الاسلامية ، والا استحال عليهم ان يسجلوا انفسهم مدنيا وهو شرط ضرورى للحصول على الخدمات (٢١٤) .

ونجح التبشير من خلال برامج التعليم فى إجتثاث هوية البلاد بفرض الفرنسية لغة رسمية بدلا من السواحيلية المنتشرة بحجة انها لغة المستعبدين العرب ، وكلما لاح فى الافق من يحاول إعطاء المسلمين حقوقهم أزاحوه مثلما فعلوا بـ " أدولا " رئيس الوزراء بتهمه انه مسلم متنكر طمس حقيقة اسمه الاصلى" أبدوللا " ليُخفى هويته الاسلامية فجردوه من جنسيته بالادعاء أنه سنغالى ألاصل (٢١٥) ؛ وفى ممباسا التى يبلغ مسلموها ٨٥% من عدد سكانها يشغل ابناؤهم ٣٦% من الاماكن فى المدارس الابتدائية ونسبة ٨% من المدارس الثانوية وبالتالى فنسبتهم فى الجامعة لا تُذكر واوغندا التى تصل نسبة المسلمون فيها الى ما يزيد على ٤٥% يشغلون نسبة ٥% فى الجامعة وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون بها نسبة ٨٦ % نسبتهم فى الجامعة ٥% فقط .

مقارنة بين مد التبشير
ومد الاسلام فى القرن العشرين

رغم التقدم الذى حققه التبشير بوسائله المستحدثة ودعم الاستعمار ، تشير الحقائق الى تفوق مد الإسلام على مد المسيحية رغم كل الظروف المناوئة التى خاض فيها عبر الصحراء والغابات الإستوائية وصولا إلى الساحل الجنوبى لغرب افريقيا بإندفاعةً الذاتية متحررا من مثالب واثقال الارتباط بسلطة سياسية ؛ بينما اثقل حركة التبشير ارتباطه بالاستعمار وتحيزه العنصرى ضد الشعوب التى يعمل على اجتذابها .، ويبرر الاب Gerard Rothe " " تفوق مد الاسلام على مد المسيحية بين الافريقيين الى سهولة اعتناق الاسلام على اعتناق الكاثوليكية فيقول " من السهل ان تصبح مسلما ، فلن يستغرق الامر سوى عدة دقائق بينما يستغرق عدة سنوات لان تصبح كاثوليكيا ؛ ويستطرد فى القول بأن الاسلام فى افريقيا قوى يمتد بسرعة ويخترق الجماهير فى غربها بسرعة البرق فقد تضاعف عدد مسلميها خلال عشرين عاما ؛ من اربعين مليون الى ثمانين مليون مسلم ؛ بينما نجحت الكنيسة الكاثوليكية خلال نفس المدة فى تنصير ١٥ مليونا فقط " .

ويقول " فيليب فونداس " رئيس مكتب الإستخبارات الفرنسية فى كتابه "الإستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء " أن الإسلام تمكن خلال خمس سنوات من إكتساب ثلاثين ألف من قبيلة " الموسى " في منطقة واحدة فقط ؛ بينما لم يتمكن المبشرون خلال خمسين عاماً من تنصير سوى ثلاثة وسبعين ألفا في العديد من المناطق " ؛ ويذكر القس " سبنسر ترمنجهام " أن الإسلام حقق خلال خمسين عاماً مالم يحققه فى القرون الثلاث السابقة ، فقد أقبل على اعتناقه الملايين من قبائل المحاروصا والبهل ومئات الألوف من قبائل ألولوف التى إحتفظت بوثنيتها لقرون طويلة رغم إحتكاكها طوال الوقت بالمسلمين .

ويرى ترمنجهام ان الثورة التى اطلقها تعليم الافريقيين ، وإحتكاكهم بالمذاهب الفكرية كانت سببا فى اختراق مجتمعاتهم وتفسخها لهشاشة مضمونها الفكرى والعقيدى ، وان إعتناق هذه القبائل للاسلام جاء لإقتناعها بأن الوثنية لاتؤهلها حتى في ظل الحضارة الأوروبية لخيار القرن التاسع عشر ؛ بينما مكنهم اعتناق الاسلام من الإحتفاظ بهويتهم الإجتماعية ومؤسساتها .

ويبرر" Cruise O' Brien" إسلام " الولوف " بأنه ثورة إجتماعية توحدت فيها طبقة العمال الزراعيين ضد الأرستقراطية الوثنية الحاكمة ، ويرى تونبى ان شبكة التسهيلات والاتصالات التى اقامها الاستعمار لخدمة اغراضه اصلا فتحت الافاق امام اقتحام الاسلام مجتمعات السود والسيطرة على القارة (٢١٦) ؛ ويذكر جاكوب ادى اجابى استاذ التاريخ بجامعة ايبادان نقلا عن كاتب فرنسى " ان عدد معتنقى الاسلام خلال خمسين عاما من الهيمنة الاستعمارية فى غرب افريقيا ، تجاوز اعداد من

---

[٢١٤]) نجد ان ممباسا التى يبلغ مسلموها ٨٥% من عدد سكانها يشغل ابناؤهم ٣٦% من الاماكن فى المدارس الابتدائية ونسبة ٨% من المدارس الثانوية وبالتالى فنسبتهم فى الجامعة لا تُذكر واوغندا التى تصل نسبة المسلمون فيها الى ما يزيد على ٤٥% يشغلون نسبة ٥% فى الجامعة وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون بها نسبة ٨٦ % نسبتهم فى الجامعة ٥% فقط .

[٢١٥]) مأساتنا فى افريقيا – عماد الدين خليل صـ١٠٣ .

[٢١٦]) المرجع١٩٢-١٩١ Survey Of International Affairs ١٩٢٨ p. :

اعتنقوه طوال تاريخ الاسلام على مدى ١٥٠٠ عاما ، وهو رقم لم يسبق للاسلام أن حققه طوال تاريخه ، فالشعوب التى عُرفت بطول مقاومتها للاسلام مثل كيباوا والبمبارا من سيقو (سيجو) وكارتا اعتنقوا الاسلام بالجملة ؛ وان المسلمون نجحوا بشكل افضل من المبشرين فى استغلال المؤسسات الاستعمارية فى مجال الدعوة كالمدن الجديدة والاسواق والتجنيد (٢١٧) .

ويعتقد توماس أرنولد في كتابه " الدعوة إلى الإسلام " أن الإسلام في تقدم ملحوظ ، بعد ان سجل تقدما كبيراً في القرن العشرين ؛ وهى حقيقة اشار اليها البابا " جون بول الثاني " عرضا في خطابه أثناء زيارته مصر فى مارس ٢٠٠٠ ، بمناسبة مرور ألالفية الثانية على رحلة " العائلة المقدسة " اليها ، فأشار للتأثير القوى للإسلام على إفريقيا بقوله :

"The Advent of Islam brought splendors of ART and learning which have a determining influence on the Arab World and on Africa"

وأوردت نشــرة الفاتــيكان " Redemptoris Missio" لعام ١٩٩١ دعوة نفس البابا " جون بول الثاني" الى الدول الإسلامية لفتح آراضيها أمام التبشير ، كرد على الانتشار السريع للإسلام فى أفريقيا وغزوه المناطق التاريخية للمسيحية بأسرع من انتشار الكاثوليكية " حسب تفسير مساعدو البابا فى الخبر المنشور فى نيويورك تايمز (٢١٨) .

وتحقق كل هذا الانتشار بقوة الاسلام الذاتية وإمكانات دعاته المحدودة وبدون اى تمويل خارجي او دعم سياسى من ايا من الدول ؛ على نحو ما توفر للتبشير من موارد ضخمة قدرتها النشرة الدولية لبحوث الإرسالية المسيحية طبقا لبيانات عام ١٩٩١ بحوالى " ٨١ " مليار دولار للانفاق على التبشير فى العالم ولم تحدد المخصص للتبشير فى افريقيا وان كنا نعتقد انه مبلغا ضخما فهى معقل التبشير الاول فى العالم ، وتعطى ارقام العمل التبشير مؤشرا لحجم المبالغ المخصصة وذلك على النحو التالى ١٦ الف معهد دينى - ٥٠٠ مدرسة لاهوتية - ٦٠٠ مستشفى - ٥٠٠ مستوصف يشرف عليها ١٤ الف مُنصر .

ومن الاسباب التى اثرت سلبا على مد المسيحية لصالح مد الاسلام الموقف السلبى للمبشرين الأوروبيين من الامانى الوطنية للافريقيين ؛ فقد كان تأييدهم السلطة الاستعمارية انطلاقا من الولاء الوطنى ؛ ودعمهم لممارساتها الجائرة ضد الامانى الوطنية للافريقيين سببا عند المقارنة تفضيلهم الاتضمام الى الاسلام على المسيحية ، فالاسلام دين اصيل محلى وطنى الجذور عايشته مجتمعات الوثنية ولم تنقطع صلتها به لقرون طويلة سابقة ، عهدت فيه توافقا مع عاداتها الاجتماعية الجوهرية كتعدد الزوجات ، ودعاته من بينهم وليسوا بيضا غُرباء يذكرونهم بأنه دين الغرباء ، فكانت هذه المجتمعات أقرب الى الاسلام منها الى المسيحية.

وافاد مد الاسلام افرازات العداءات القديمة المستحكمة بين الكنائس المسيحية وتنافس مذاهبها للإستئثار بإيمان الوثنيين الذى وصل بالمشاحنات إلى حد الصدام المسلح فى بعض الاحيان ، كما ادى تمييز الكنيسة فى سلك الكهنوت ضد رهبانها الافريقيين لانقسام العقيدة ذاتها ما بين اوروبية بيضاء وافريقية سوداء .

وزاد الهوة اتساعا ما استشعره الافريقى العادى من ان مفهوم الدين لدى الرجل الأبيض تغذيه نظرته العنصرية ، فأصبح هناك انفصام فى نظرته الى العقيدة ذاتها ، فهناك " دينا للبيض " يجب ان يقابله دينا للسود ؛ الامر الذى اوجد سبباً إضافيا لإنقسام الكنيسة المسيحية بالقارة ، فظهر تيار من الكنائس المستقلة بالغت فى تطرفها بالدعوة الى مسيحية سوداء بكنائسها المختلفة تقبل الرسالة (المسيحية) ولا تقبل الرسول (التبشير الاوروبى) رفضا لعنصريتة ، وبلغ تيار التطرف اقصاه بإعتناق عبادات مستحدثة خروجا على الرؤية المسيحية ؛ فأغلب المبشرون البيض مارسوا تمييزا عنصريا ضد قرنائهم الإفريقيين فى سلك الكهنوت بالتواصل مع النظرة المتدنية لابناء جلدتهم لكل ما هو اسود ، فإحتكر الرهبان الأوروبيين المناصب العليا للكهنوت تاركين الوظائف الدُنيا للإفريقيين الذين أثارت حفيظتهم تلك النظرة الدونية المخالفة لروح المسيحية الرافضة للتمييز بين البشر.

ولما تنبه البابا " بيوس الحادى عشر " الى خطورة الامر على الكنيسة وحركة التبشير ، دعا المبشرين للعمل فقط من أجل ملكوت السماء لا لبناء مملكة أرضية وطالبهم بإتاحة الفرصة للإفريقيين للوصول للدرجات العليا ، وقد لقى الكرسى الرسولى في سبيل تحقيق ذلك عنتاً كبيراً من المبشرين الاوربيين ولم يسلم الأمر من وقوع حوادث عند تطبيق المساواة فقد رفض الكهنة

---

[٢١٧])الانقطاع والاتصال بين افريقيا والعرب صـ١٣ - افريقيا العدد ١ اكتوبر ١٩٨٦

[٢١٨]) نيويورك تايمز في ١/٢٣ /١٩٩١ .

البيض الخضوع لسلطة الكاهن الإفريقى (٢١٩).

اضر بمد المسيحية الموقف السلبى للمبشرين الأوروبيين من الامانى الوطنية للافريقيين بإعلاؤهم الولاء للاستعمار انطلاقا من الولاء الوطنى على الولاء لتعاليم السماء والسيد المسيح " عليه السلام " ؛ بالإصطفاف الى جانب السلطة الاستعمارية وتبرير ممارساتها اللانسانية والعنصرية ضد الشعوب الإفريقية فى قضايا التحرر الوطني وتجارة النخاسة بالمخالفة لضمير المسيحية الحقة ، فقد وجد التبشير ان عليه مضطرا ان يغض الطرف عن الممارسات الوحشية والعنصرية للسلطة الإستعمارية بل وجد ان عليه القيام بتبريرها مستخدما التأثيرالروحى والهيمنة الدينية .

ويصف دافيدسون موقف التبشير السلبى من تجارة العبيد " بالموقف الاشد ايلاما وتعذيبا للنفس فلم يسعى للتصدى لهذه التجارة بالتدخل لدى السلطة الاستعمارية لوقفها ولم يحرك ساكنا لوقف المعاملة الوحشية التى لقيها العبيد ، ويقول إن الأساقفة الأوروبيون كانو يجلسون في أبراجهم العاجية على رصيف الميناء في أنجولا ويمدون أيديهم الرحيمة لتعميد العبيد بالآلاف ، وهم يُساقون مكبلين بالأغلال في طريقهم إلى البرازيل " ؛ وحاولت الكنائس الأوروبية التبرأ من هذه التهم تحسبا لمستقبل تحركها فى القارة بعد الاستقلال فعقدت مؤتمراً في نيروبى عام ١٩٦٣.

كان من نتيجة ذلك أن إنفصلت الكنيسة الوطنية الإفريقية عام ١٨٩١ ، بزعامة الليبيرى " د. أدوارد بليدن " عن الكنيسة الإنجيلية في غرب إفريقيا ؛ " وكان بليدن قد مهد " لهذا الانفصال بالدعوة فى كتاب له عام ١٨٨٧ ؛ لإنشاء كنائس بعيدا عن نفوذ الكنائس الأوروبية على غرار كنائس الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقاد "كاجيا" دعوة مماثلة في كينيا للتخلص من الدين الأجنبى على حد قوله قاصداً المسيحية الأوروبية (٢٢٠).

أسفرت حركة الكنائس الوطنية عن ميلاد كنائس إفريقية تبنت عقيدة مسيحية افريقية اللون تتواءم مع احتياجات المجتمع الافريقى ؛ متسامحة مع تعدد الزوجات اسبغت على السيد المسيح عليه السلام مسحة افريقية سمراء البشرة ؛ كانت هذه الكنائس بروتستانتيه في أغلبها في كل من غانا ونيجيريا وليبيريا إنفصلت عن بعثات التبشير ؛ كما ظهرت عن نفس الانشقاقات كنائس للعبادات المستحدثة خليطا بين المسيحية والوثنية وبعضها الاخر بعيدة عن جوهر المسيحية تجاوزت المضمون الحقيقى للعقيدة ؛ وقد إنتشرت في الأماكن التي لم تستقر فيها المسيحية بعمق ، كما ظهرت كنائس المتنبيين " مُدعى النبوة " وكان من اهم المروجين لها وليم هارس من مواليد ليبيريا عام ١٨٥٠ وتقوم على مفاهيم إفريقية بعيدة عن المسيحية .. ووسط كل هذا خرج تيار رافض يدعو الى العلمانية (٢٢١) .

الكنائس الافريقية الوطنية

ولما كانت الوطنية سبب ميلاد الكنائس الافريقية ؛ فقد غلبت عليها روح القومية فتبنت سياسيات داعية الى " افرقة " مناحى الحياة ومقاومة الإستعمار وعلى رأسها :

- استقلال إفريقيا التام عن السيطرة الأوروبية.
- إلغاء الأسماء الأجنبية والعودة للأسماء الإفريقية.
- إحترام التقاليد الإفريقية .
- تطهير الكنيسة من الرجز الأوروبي الذي قُدم للإفريقيين على أنه جزء من تعاليم المسيحية .

ولم يُرض هذا الانفصال الكنائس الاوروبية ، فلجأت الى السلطة الاستعمارية الوطنية للتصدى لهذا الانقسام فقامت القوات الإنجليزية بملاحقة " كاجيا " وألقت به وبأتباعه في السجون .

تقويم عـــــــــــــــام

مد الاسلام فى ظل الاستعمار

من الملفت للنظر ان الإسلام رغم العراقيل ؛ تقدم منسابا فى مد سلمي هادئ بقوة دفعه الذاتي على الارض الافريقية ،

[219]) إفريقيا الغربية في ظل الإسلام –نعيم قداح ص ١٩٦.
[220]) باسيل دافيدسون صـ٥٩ .
[221](مصر وافريقيا صـ ٢٢٥-د. زاهر رياض .

محققا بانسيابه السلمي أكثر مما تحقق بجهاد كياناته ؛ ولو كانت الامور قد سارت على نحو طبيعى دون هذه البيئة المضطربة التى تعرضنا لها لكانت افريقيا اليوم ليست فقط هى القارة المسلمة حسب تصنيفها الحالى الواقعى وانما كانت مسلمة بكاملها ، ويقول د. جمال حمدان فى تقويمه لمد الاسلام فى تلك المرحلة " إن السلطة الاستعمارية أثقلت خطوات الإسلام ولولاها لكانت خريطة الإسلام اليوم على الأرجح شيئاً مختلفاً عما هى عليه بالقارة " ؛ وإعتراض البعض على القول بأن الاستعمار اضر بمد الاسلام بل يؤكدون على انه أفاده بتسامحه عندما تركه يمارس دوره كقوة تشريعية وسياسية داخل مجتمعاته وبالاستعانة به فى ادارة بعض البلاد فإستغلوها لنشره ، وكذلك الاستفادة بمعطيات الحضارة الاوروبية فى مجالات الاتصالات والمواصلات التى طبقها الاستعمار فى افريقيا لتسهيل حركته ؛ وهو إدعاء مردود عليه فالشريعة منهاج حياة وكيان مجتمع ؛ لا يمنحها او يمنعها احد فهى ممارسة يومية لا تنقطع ؛ اما الادعاء بالتسامح معه كقوة سياسية في بعض المناطق الخاضعة للإستعمار (البريطانى والالمانى والفرنسى) فقد كان مقصدها مصلحة المستعمر عدم استثارة عداء المجتمع لتسهيلا لاعمال الادارة دعما للاستقرار ، وليس حُبا فى الإسلام الذى عانت مجتمعاته حربا شعواء منهم ؛ والمشكلة فى علاقة الاسلام بالتبشير الأوروبي التى شهدتها القارة على مدار القرون ، انعقدت أساسا على تدخل التبشير فى الشأن الاسلامى بإعتراض مده والسعى لاضعافه وتشويه صورته لدى ابناؤه وإستهدفهم بالتنصير .

وخارج هذا الاطار لم تستثر حركة التبشير فى مناطق الوثنية عداء المسلمين وإنما استقبلوه بتسامح بلغ حد التعاون فى بعض الاحيان انطلاقا من منطق ان القضاء على الوثنية سواء بالدعوة اوالتبشير يصبان فى وعاء الايمان بالله على نحو ما حدث فى بعض مناطق الغرب الافريقى ؛ ومن أبرز المتعاونين فى هذا المجال الشيخ "تيرنو أبو بكر الحمالى " الذي تزعم حركة تعاون إسلامى مسيحى فى السنغال وموريتانيا لمجابهة الإلحاد إيمانا منه بوحدة الديانات السماوية .

أما عن علاقة الاسلام بالتبشير الافريقى الوطنى فلم تكن سلبية على النحو المعقد الذى كانت عليه مع التبشير الاوروبى ، فلم يكن هناك رصيد تاريخى من العداء معبأ بينهما على فقد ساد بينهما التفاهم انطلاقا من وحدة الانتماء القومى الافريقى ، وفى سياق طبيعة تسامح الشخصية الافريقية جمعتهم اخوة القبيلة الواحدة ؛ وسجل التاريخ صورا فريدة للتعايش بين المسجد والكنيسة في الكثير من الحالات ويضرب " الفونس غوئى " عالم الأديان الإفريقى المثل بما حدث فى الداهومى(بنين) وداكار للاخوة بين المسلمين والمسيحيين عندما إنبرى الأصدقاء المسلمون لاحد الموتى المسيحيين لقبول التعازي داخل الكنيسة بجانب اهله بينما بقى المسيحيون الأوروبيون خارج للكنيسة على الرصيف المقابل.

مستقبل المد الاسلامى

ويرصد المهتمون بتطور الديانات مدا غالبا للإسلام فى إفريقيا فيرى د/ جمال حمدان في كتابه " العالم الإسلامي المعاصر " " أن الإسلام في إفريقيا في مد زاحف بقوة وإيقاع لم يعرفهما في قارة أخري ، ولا يعرفهما دين سواه " ؛ ويسايره فى هذا الرأى " هانوتر " وزير خارجية فرنسا سابقاً بقوله " أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يميل الناس (فى أفريقيا) إلي اعتناقه بشدة تفوق أي دين آخر ."(٢٢٢).

ويرى تونبى المؤرخ البريطانى مدا اكبر يتجاوز أفريقيا الى متسع العالم فيقول " طالما أن الإسلام قادر على أن يصبح حضارة الجنس الأسود فى أفريقيا فلا يوجد سببا يجعل مده مقتصرا على قارة وحيدة ومحصورا فى إطارها (٢٢٣) ، وتؤيد الاحصاءات هذا المنحى فأفريقيا على اتساعها قارة ذات اغلبية مسلمة وثان اكبر القارات بعد أسيا عددا من حيث عدد المسلمين ، وتضم ٢٦ دولة ذات اغلبية إسلامية و٢٠ دولة بأقليات إسلامية كبيرة ، وتُظهر احصاءات القرن الماضى هذا التطور ـ تقدير وسترمان D.Westerman عن دائرة المعارف الإسلامية – مجلد/٢ صـ ٦٤٩ ، وفيما يلى جدول يبين هذا حسب الاعوام:

المسلمون فى افريقيا

---

(٢٢٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٨ نقلا عن التبشير والإستعمار ص ٣٦ الطبعة الرابعة نقلا عن قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ـ سنة ١٩٩٨ تأليف "عبد الودود يوسف " .

(٢٢٣) Survey of international affairs,١٩٢٨ p ١٩١-١٩٢ .

عـــــام	مليـــــون مسلـــــم	يشكـــــلون نســـبة %	جملة سكان القـــارة بالمليـــــون
١٩٥٠	٤٢	٢١,٢ %	١٩٨
١٩٦٠	١١٥	٤٥ %	٢٤٠
١٩٦٨	١٥٥	٥٧ %	ـــــ
١٩٧٣	٣٠٣	ـــــ	ـــــ
١٩٨٨	٣٢٣	٥٢,٨ %	٦١١
٢٠٠٣	٤١٤	٤٨ %	٨٦١
٢٠٠٥	٤٣٢,٦	٤٧,٨ %	٩٠٥,٦

ويُظهر الجدول زيادة عامة مطردة فى أعداد المسلمين بالقارة وكذلك فى نسبتهم الى جملة السكان ؛ فقد تضاعفت اعدادهم منذ منتصف القرن الماضى (من ٢١,٢% عام ١٩٥٠ إلى ٤٨% عام ٢٠٠٣) ، ويرجع جزءاً كبيراً من هذا النمو الى الدعوة .. وهذا يجعلها أكثر القارات تحولا للإسلام ؛ فهى وتضم حاليا أكثر من ¼ مسلمى العالم، فهى القارة التى تضم اغلبية مسلمة لسكانها والثانية على مستوى العالم .

الفصل الثالث

تجارة النخاسة الأوروبية وتجارة الرق العربية

في إفريقيـا

النخاسة قضية عقيدة أم قضية سلوك ؟

روجت الدراسات الاستعمارية ؛ افتراءات عن مسئولية الإسلام عن فظائع تلك التجارة ، استهدفت التشهير بالعرب والمسلمين مستغلة حساسية الافريقيين تجاه هذه القضية لتعميم سلبيات تجارة النخاسة الأوروبية المستقرة في وجدانهم على نحو متطابق على مثيلتها التى مارستها قلة غير مسئولة من تجار العرب .

ورغم الاقرار بسلبيات تجارة الرق عامة ، فلا يجب أن نضع تجارة الاوروبيين بأفاقها الواسعة وإحترافيتها بالغة المهنية بوحشيتها منذ اقتناص الطرائد واحتجازهم فى الموانئ ونقلهم فى اقفاص الى المراكب لوضعهم فى عنابر تنطبق اسطحها ضيقا علي صدورهم ثم بيعهم سلعا ، وكلها ممارسات جعلت مثالب تجارة الرق لتجار العرب كنقطة فى بحر بالمقارنة الى مثالب مثيلتها الاوروبية ، فلا يمكن وضعهما على قدم المساواة عند المقارنة ، ولا يعنى وجود الرق في المجتمع الإسلامي أن يكون مبررا لتجريح الإسلام فالرق ترفضه كل الأديان ؛ ولكنه نظام عميق الجذور فى النظام العالمى القديم مارسته جميع أمم العالم انذاك أبيضها وأسودها ؛ وهما فى نفس الوقت على السواء كانا مادة تجارتها ، ولم يسلم الأنبياء منها فيوسف عليه السلام أُسترُق .

والحضارات القديمة بما فيها الحضارة اليونانية بفكرها الفلسفى لم تستهجن الرق ، بل إن المجتمع الاثينى بُنى على عرق الرقيق ؛ عاش فيه الأحرار على كد الأرقاء ، وفي الإمبراطورية الرومانية بلغ الرق درجة بالغة من التنظيم والإتساع والوحشية ايضا ؛ وتعكس شراسة ثورات العبيد المتكررة ضد روما مدى معاناتهم ورفضهم الاستخفاف بإنسانيتهم عندما جعلتهم أدوات لهوٍ وإستمتاع وحشيين في ساحات النزال بين الوحوش والبشر ؛ هذا المصير الدامي المليء بألالم والحزن جعل من الموت نعمة كُبرى ومطلبا للعبد للخلاص من نير الاستعباد وحيفه عبر عنه " سبارتاكوس " زعيم عبيد روما الثائر فى قول بليغ " الموت هو الحرية الوحيدة التى يستطيع العبد أن ينالها " ، واوروبا نفسها مارست الرق بين ابنائها فنظم بعض الاوربيون بالتعاون مع يهود براغ إسترقاق الصقالبة وبيعهم للاندلس للعمل كمماليك فى حرس السلطان او بيعهم فى شمال افريقيا ؛ كما ان الدول الاوروبية التى اغارت على الشمال الافريقى باعت اسراها من المسلمين فى اوروبا ، وسترد بعض الحالات فى العرض .

والحديث عن الرق ليس حديث عن " عقيدة " وإنما عن " تجارة " ؛ والتجارة تتعلق بـ " سلوكيات " القائمين عليها ولا تتعلق بمبادىء اخلاقية أو عقائد ، واذا ما تعرضنا لموقف العقائد السماوية من الرق فلا يختلف موقف الإسلام أو المسيحية من أى إستهانة " بالإنسانية " وهما اللتين قد بلغت منهما الرحمة مبلغ العناية بما دون الإنسان ، فما بالك بالإنسان ؛ والفكر الرشيد لا يحملهما وزر سلوك أتباعهما ألمثقله بالظلم والمصالح الضيقة .

الاسلام والرق

وإذا ما راجعنا الإسلام ؛ نجده دعا معتنقية لخطوات لو سارت سيرها الصحيح لانقضى الرق وزال مبكرا ، وهذه الخطوات تعنى التدرج فى الفعل لا الاندفاع فيه لحكمة اقتصادية واجتماعية واخلاقية ، فليس من السهل تحريمه دفعة واحدة وهو جزء من البناء الاجتماعى والاقتصادى الراسخ ليس لدى العرب فقط وانما لدى بقية اجزاء عالم ذلك الزمان ؛ فالاسلام جرم الرق بين المسلمين وحرم استرقاق غير المسلمين الذين يعيشون احرارا فى المجتمع الإسلامي ؛ وبالنسبة للحروب معين الاسترقاق فلا يجوز إسترقاق الأسرى من المسلمين أما غيرهم فمتروك أمره للسلطان إما أن يمن عليهم بالحرية أو يقبل افتداءهم وليس استعبادهم ؛ والاسلام وفر للعبد حق افتداء نفسه من اجر عمله لدى سيده فيما يُسمى المكاتبة ، فإذا ما طلبها فلا يمكن لسيده رد طلبه ايا كان السبب.

ورغم تحريم استرقاق المسلم للمسلم ، لم تستثن عصابات صيد الرقيق العربية مسلمى افريقيا من تجارتها ؛ فقد سجل التاريخ حوادث اقتناص واختطاف مسلمين على نحو ما اشارت اليه شكوى ملك كانم إلى الظاهر ابى سعيد " برقوق " سلطان مصر عام ١٣٩١م عن رذائل أعراب "جذاما" ، التى قامت خروجا على الاسلام بسبى النساء والصبيان وصغار الرجال ليبيعونهم لجلاب مصر والشام.

الاسلام والاحسان
الى الرقيق وعتقهم

حض الإسلام معتنقيه على حُسن معاملة العبيد ، فيأمر النص الالهى بذلك " وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (النساء ٣٦) ؛ وهناك احاديث كثيرة فى هذا الشأن فقد جعل رسول الله ﷺ من العبيد اخوة لسادتهم الاحرار وحرم ضربهم و كلف بمعاونتهم وعدم العنت معهم لقوله " ..... هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت ايديكم ؛ فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ؛ ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه "، كما قال " اذا اتى احدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لُقمة او لُقمتين او أُكلة أو اكلتين ، فإنه ولى علاجه " (٢٢٤) .

والعتق قرره النص القرآنى حسب قول الله تعالى " فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة فك رقبة " ؛ كما أقر سبحانه مبدأ " المكاتبة " كحق لا يرد للرقيق حال مطالبته بحريته ؛" ("سورة النور آية ٣٣") وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣).

وأُمر الاسلام الولي أن يُعين عبده عند طلبه المكاتبة ، فيُمنح الحرية فور طلبها فيُصبح العبد حرا بقوة الامر الالهى ولا يستطيع احد رده فيُؤجر عن عمله عند سيده فور طلب "المكاتبة " ويدفع من اجره ما كاتب سيده عليه لشراء حريته ، وتسهيلا على العبيد المكاتبين خصص الاسلام جزءا من مال الزكاة لعتق الرقيق المكاتبين لإعانتهم على نيل (التوبة آية ٦٠) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) .

كما فرض الاسلام تحرير الرقيق فى كل مناسبة وبشكل واسع ووعد مُعتقوا الرقيق بالخير والثواب ، والرسول عليه الصلاة والسلام (عن ابن عمر رضى الله عنه) يقرر لاقل الاسباب عتق الرقيق مثل الضرب " من ضرب غلاما له حدا لم يأته أو لطمه فإن كفارته ان يعتقه " ؛ وجعل الاسلام عتق الرقيق مثوبة وقربى إلى الله و جزءً من " الديات " ومن باب " الكفارات " .

وشجع الرسول الكريم على عتقهم وتحريرهم فيقول " أيما إمرىء مسلم أعتق إمرءاً مسلماً ، إستنقذ بكل عضو منه عضواً من النار " وفى حديث أخر " ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف .

وفي كتاب سبل السلام للصنعانى الجزء الرابع ـ كتاب العتق ـ ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام أعتق ٦٣ نسمة عدد سنى عمره ، وعبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألفا وذو الكلاع الحميرى أعتق ثمانية آلاف في يوم واحد ؛ وهناك أمثلة على إقبال الناس على عتق العبيد تقربا الى الله حتى ان البعض كان يشترى رقيقا ليعتقها مثل ريطة بنت العباس ، وأوصي الخليفة المعتصم قبل وفاته بعتق ٨ ألاف من مماليكه ، ومنى الخليفة عثمان بن عفان عبيده بالعتق اذا ما وضعوا السلاح عندما هبوا للدفاع عنه أثناء حصاره منعا للاقتتال بين المسلمين .

معاملة الإماء

وفيما يتعلق بالإماء ؛ فقد صان الإسلام كرامتهن ودعى سادتهن الي نكاحهن كالحرائر متى كن مؤمنات بزواج شرعى بصداق لا مخادنة ولا سفاح " سورة النساء آية ٢٥ " وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) وإذا حملت الأمة ولم يتزوجها سيدها فلا يحل له بيعها أو أن يهبها بل تبقى في عصمته حتى وفاته وتحصل على حريتها كاملة بعد موته ؛ وإذا ولدت لسيدها تصبح حرة فوليدها يولد حرا ويحررها (أعتقها وليدُها) " ([٢٢٥]) ، كما قال " من ملك ذا رحم محرم منه فهو حر " .

[٢٢٤]) عن ابا ذر الغفارى والبخارى نقلا عن رياض الصالحين صـ ٥٧٣ ،

[٢٢٥]) كتاب سبل السلام للصنعانى الجزء الرابع ـ كتاب العتق ص٢٣٢.

مكانة الرقيق فى المجتمع الاسلامى

بلغ الرقيق في المجتمع الإسلامي مكانة اجتماعية ، لم يبلغها معظم الأحرار من مواطنى البلدان الإسلامية او فى غيرها من البلاد ؛ فعدد لا بأس به من العبيد البيض والسود على السواء ، كمماليك مصر القوقازيين والاحباش (كافور الاخشيدى) ، بلغوا منازل رفيعة فصار منهم السلاطين والامراء ومن الإماء أمهات خلفاء وأمراء ، ومنهن من جمعن في أيديهن مقاليد الحكم كشجر الدر فى مصر ، ومنهن من أثرت الحياة الفنية فى عصر بغداد الذهبى ومعظمهن من الروميات والتركيات والهنديات والصقلبيات.

وسجل الاوروبيون الوضع الطيب الذى عاشه وحظى به عبيد الشرق فـ " نابليون بونابرت فى معرض مقارنته بين اوضاع الرقيق فى الشرق والغرب فى سيرته الذاتية ، يقول " فى الشرق هى ما نجده فى الكتب المقدسة فالعبد يتزوج إبنة سيده ، والباشوات (فى مصر) كانوا عبيدا ومعظم الوزراء والمماليك ومنهم على مراد بك (كبير المماليك) بدءوا حياتهم بممارسة الأعمال الدنيا فى منازل سادتهم وترقوا إما لجدارة أو لمجاملة ؛ أما فى الغرب فالعبد دائما فى مكانة متدنية وحتى عندما عتق الرومان العبيد لم يمنحوهم المساواة بالأحرار" (٢٢٦) .

ويقول د جوستاف لوبون ان كل من درس الرق فى الشرق دراسة جدية مثل مسيو ايبر ومسيو شارم ومسيو دو فوجانى مدير مدرسة اللغات بالقاهرة وغيرهم ، اثبتوا أن الضجة التى اثارها بعض الاوروبيون حول هذا الموضوع ليس لها اساس من الصحة ؛ فالارقاء فى الشرق افضل حالا من الخدم فى اوروبا فهم فى الشرق يؤلفون جزءا من الاسر ويستطيعون الزواج احيانا من بنات سادتهم ، ويتسنموا اعلى المراتب ، ومتى ارادوا التحرر ينالونه بمجرد إبداء الرغبة امام احد القضاة ، وعلى اية حال فإن عدد الرقيق فى بلاد الاسلام قليل (رأى مسيو ايبر).

وينقل د لوبون عن مسيو شارم ان الرق وان كان وصمة عار فى جبين الانسانية لكنه فى مصر لينا هينا نافعا منتجا والغاؤه مصيبة فمن ينقذ هؤلاء الرقيق اذين أسروا فى الحرب من القتل واكل لحومهم على ايدى اسريهم وحوش افريقيا الوسطى الذين لا يحجمون عن ذلك ان عجزوا عن بيعهم حتى يتجنبوا تكبد اطعامهم ، وادان محبو الانسانية الانجليز الذين يرون انه كان من الاجدر ان يأكلهم أمثالهم من ان يُسترقوا ويتسيدهم الاجنبى.

ويستطرد د لوبون بأن مسيو دو فوجانى يقول ان الارقاء يفضلون الاسترقاق السالم ،الذى يوفر لهم سيد يرعاهم ويقوم بشئونهم ، على الحرية استفادة بحق المكاتبة ، لعدم رغبتهم فى تحمل اعباء حياة التحرر من كد قلق لتكسب اسباب المعيشة ؛ كما يُضيف نقلا عن مسيو دو فوجانى انه فى حالة انجاب الامة من سيدها يتساوى ابنها مع ابن الزوجة فى الحقوق ، فاذا كان بكر ابيه كان له امتياز البكرية .

ويقول مسيو ايبر ان امهات سلاطين آل عثمان زعماء الاسلام كُن من الاماء ولا يرى هؤلاء السلاطين فى ذلك ما يحط من قدرهم ، وكان مماليك مصر يشترون صغار الموالى من القفقاس ويتبنونهم ويعلمونهم ويدربونهم ويزوجونهم بعض بناتهم ، ويفوضونهم فى ادارة شئونهم الخاصة ، وفى القاهرة تجد من اكابر الوزراء والقادة والقضاة من هم كانوا فى الاصل رقيقا تم شراء الواحد منهم بما لا يزيد على الف وخمسمائة فرنك (٢٢٧) .

الرق بين جوهر العقيدة والسلوك الانسانى

رغم ثراء الجانب الروحى للعقيدة الرحيم فى مضمونه تجاه الرقيق ، نجد إنحرافا فى تطبيق المجتمعات الاسلامية فى الواقع العملى ، فيغشى الامر على من اخذ بظاهر الامر ويجهل أصله فى العقيدة ، فيُسئ بجهله وسوء تقديره فى الحكم ، وفى كثير من الاحيان ينحرف سلوك البشر عن المبادئ ؛ وتجب التفرقة بين المنظور الايمانى الصحيح وبين السلوك الانسانى الغير قويم للمجتمع والافراد ؛ فالاول ثابت لايتغير والاخير يتغير طبقا للظروف ونظرة الجماعة ويختلف الموقف من جماعة لأخرى ومن زمن لآخر طبقاً للمصالح السائدة في البيئة الاجتماعية المحيطة ، وعلينا الأخذ فى الاعتبار عند الحكم إختلاف الرُؤى بين منظور الحاضر ومنظور

---

[٢٢٦]) المرجع ميتز ـ الحضارة الاسلامية جـ ذ ـ صـ ٢٧٣ نقلا عن الحواضر الاسلامية الكبرى صـ١٩٢ (١٩٧٦) ـ د عصام الدين عبد الرءوف ، ومن المستغرب ان يعيد نابليون العمل بنظام الرق رغم سبق استهجان الثورة الفرنسية ، .

[٢٢٧])حضارة العرب صـ ٣٧٩.

مجتمع ذاك الزمان ؛ والا نقيس الماضى بمعطيات الحاضر والا اختلت الرؤية وفسد الحكم .

وبخلاف المبررالاقتصادى لاستمرار إلاحتياج للرقيق قوة للعمل ، وهو اساس استمرار هذا النظام فى المجتمع الإسلامي ، فإن البعض يرى فيه نعمة من منظور القرن الرابع عشر الميلادي للرقيق بدخول الاسلام وعتقا لهم من الوثنية (٢٢٨) ؛ وان لا غضاضة فى تكليفهم بالأعمال الدنيا فهم مثلهم فى ذلك مثل الاحرار الذين يؤجرون للعمل بها من أهل البلاد.

مقارنة بين تجارتا

الرقيق الاوروبية والعربية

وعند التدقيق بين تجارة الرقيق العربية وبين تجارة النخاسةالأوروبية ؛ نرصد فروقاً هائلةً فتجارة العرب كانت محدودة الحجم يضيق نطاقها لينحصر فى قلب القارة ، مارستها قلة من تجار لم يشاركوا فى عملية المطاردة ، بينما كانت التجارة الأوروبية عملا مؤسسيا منظما وإحترافيا عال المستوى لها مؤسساتها وأساطيلها وقلاعها وحرسها ؛ إتسع نطاقها ليغطى الساحل الغربى بطول خمسة الاف كيلو متر ما بين موريتانيا والكونغو ، وزادت سفنه عن ثمانية آلاف أقلت علي أقل تقدير حوالى عشرين مليون إرتفعت بها تقديرات أخرى إلى مابين ثمانين ومائة وخمسين مليونا من البشر مات أربعة أخماسهم خلال نقلهم عبر الاطلنطى ، بخلاف من هلك أثناء عمليات القنص داخل القارة اوفى مسيرتهم الحزينة الطويلة نحو الساحل لتصديرهم .

وتصور قلاع الأوروبيين لخدمة هذه التجارة على الساحل الغربى مدى الوحشية التى انغمست فيها هذه التجارة التى تحولت الى عملية إصطياد وحشية للعنصر الأسود ؛ يقول عنها مراسل ماتابيلى تايمز " ان اصطياد الزنوج اصبح وسيلة للتسلية ،فكنا نحرق قرى لمجرد انها للوطنيين ... وكنا نطلق الرصاص عليهم لا لسبب الا لانهم سود "(٢٢٩) ، وكان دفع عمليات المطاردة والقنص فى عمق الداخل بتحريض ومباشرة الاوروبيين يُشعل الحروب والفوضى بين الافريقيين لتلبية احتياجات المجتمعات الغربية المتزايدة ، فكان هؤلاء المطاردون هم الرواد الاول للاستعمار .

ولم تجد معظم دول غرب اوروبا حرجا فى الاتجار بالعبيد ، فالبرتغال رائدة هذه التجارة احتكرتها مدة ليست بالقصيرة فى القرن ١٦ ؛ ثم لحق بها الاسبان والهولنديون فى القرن ١٧ والفرنسيون والانجليز فى القرن ١٨ م ؛ بل الادهى ان تداعت قيم الحرية الفرنسية وتناسى الاستعمار الفرنسى مبادئ الثورة الفرنسية فى استهجان الرق عام ١٧٩٣ وتحريمه عام ١٨٤٨ فى عهد الجمهورية الثانية ؛ وقامت قواته فى نفس عام التحريم ببيع أسراها من ثوار وأهل " سيكاسو " (جنوب مالى) المسلمين بيع الرقيق ، انتقاما من سلطانها المجاهد " بادمبا " ، على نحو ما ورد آنفا.

وكانت للفرنسيين مراكز لبيع الرقيق يرفرف عليها العلم الفرنسي فى غرب افريقيا ، واستشرى الفرنسيون فى شراء العبيد ، وكانوا يدفعون ٣٠٠ فرنك للرأس لتجنيدهم فى الجيش ، لسد احتياجاته من الجنود فى الفترة من ١٨٩٠ الى ١٨٩٥ لاستخدامهم فى حروبهم الاستعمارية ، حتى قيل ان الاستعمار الفرنسى صناعة افريقية تم على ايدى هؤلاء المجندين من العبيد الافريقيين ابناء القارة ؛ وقد كلفت حروب الفرنسيين القارة الكثير من الضحايا ماتوا بأيدى ابنائها الذين حولهم الفرنسيون من طرائد الى قناصين (٢٣٠) ؛ وهلكت خلال تلك الفترة اعداد كبيرة تزيد على ضحايا حروب قرن حسب تقدير المؤرخ الفرنسى كانال .

ويمكن حصر الفرق بين تجارة الجانبين فى الاتى :

* ان التجارة الأوروبية مارست تمييزا عنصريا ضد السود باستهدافها العنصر الافريقىً ؛ وتمييزاً دينياً ضد المسلمين بإسترقاقهم اذا لم يعتنقوا المسيحية للخلاص من ربقة العبودية ؛ ولنا ان نشير الى ما حدث مع حسن بن محمد الوزان الزناتى " البربرى الاندلسى الاصل(مواليد غرناطة) ، المتسمى " جيوفانى ليونى" المعروف بـ " ليو الإفريقى" المؤرخ الشهير الذى سجل رحلاته فى افريقيا فى كتاب اخرجه عام ١٥٢٥م ؛ وتقول القصة ان القراصنة الأوروبيون اسروه عام ١٥١٨ وهو عائد من استانبول الى تونس ، ولم يبيعونه كبقية الاسرى بل قدموه الى البابا ليو العاشر ابن لورانزو دى مديتشى سليل الاسرة الشهيرة المعروفة بإهتمامها بالتجارة العالمية .

---

[٢٢٨]) تتغافل هذه النظرة عن استرقاق المسلمين لمسلمي الاصل .

[٢٢٩]) دافيدسون ـ صـ ١٠٠ .

[٢٣٠] (- L" Afrique Noire , Canal المؤرخ كانال .. نقلا من نعيم قداح صـ ٢١٩ .

فوجد فيه البابا ضالته وضالة كبار التجار لمعرفة مايجرى في قلب القارة المجهولة الواقعة خلف دول الشمال الافريقى المسلمة ، فأعتقه لما تنصر وسماه جيوفانى ليونى المعروف بـ " ليو الإفريقى" ورده الى افريقيا ، ويتردد انه عاد الى تونس ودفن بها مسلما (٢٣١) ، اما تجارة الرقيق العربية فلم تمارس عمدا تمييزا دينيا ابدا ، فقد شملت الابيض والاسود والمسلم والوثنى .

* ان التجارة الاوروبية كانت منظومة عمل متكاملة اعتمدتها مجتمعات فى الغرب وبالذات المجتمع الامريكى جزءا من النظام الإجتماعى والإقتصادى اصبحت فيه هذه التجارة جزء من منظومة اقتصاديات العمل تخضع لاليات السوق يخلق فيها الطلب العرض ، فكلما إزدادت إحتياجات المجتمع شراهة تفاقمت تجارة عبر الاطلنطى .

ولم يكن من السهل على تلك المجتمعات التخلى عن الرق الذى اطلق إبطاله نيران الحرب الاهلية ؛ وبينما كان المجتمع فى الغرب هو الذى يستثير العرض بالطلب ، كان العرض فى الحالة العربية هو الذى يستثير الطلب وبالتالى فإن المجتمع ونظامه هما الجانى فى الحالة الاولى بينمت هو التاجر فى الحالة الثانية بما يوفره من عرض محدود لقلة من الاثرياء يحتاجونهم للمساعدة فى الاعمال الخاصة ، ولم يكن الطلب عليهم بغرض استخدامهم فى منظومة اقتصادية ضخمة كما فى الغرب فكانت هذه التجارة عملا فرديا محدود السوق فى المجتمع الاسلامى لم يستدع الامر التوسع فيها ، وحتى عندما جند محمد على الافارقة فى الجيش اجباريا لفترة محدودة .

ولم يتم هذا عبر التجار العرب وانما دبرهم بالاتفاق مع زعماء قبائل جنوب السودان مقابل هبات من الاموال دون المساس بحريتهم ولفترة محدودة ومعاملة كريمة ، ويلقون عناية فائقة فكان يعتبرهم اغلى من الجواهر على حد وصفه ، وإمعانا فى اراحتهم كان يستجلبهم لهم اسرهم حتى لايشعروا بالغربة ويُؤجروا على خدمتهم بالجيش وكان يتم تحريرهم بعد انتهاء الخدمة واعادتهم الى بلادهم اذا رغبوا؛ فتجارة النخاسة الأوروبية على النحو المتقدم كانت سُبة في جبين الحضارة الأوروبية لا يُبرئهاً منها قرارها عام ١٨٠٧ بمحاربة الرق ، فلم تكن تلك الصحوة صحوة ضمير أو وازع أخلاقى ، وإنما كانت بدافع انتفاء الجدوى الاقتصادية لطاقة الانسان (العبيد) كقوة محركة فى الصناعة ، بعد استبدالها بالالة سيدة الصناعة بتكلفة اقل من إستخدام الانسان ؛ فقد تبين لدول الغرب بعد انتفاء الحاجة اليهم ان من الافضل ردهم الى المستعمرات واستبقائهم فيها لحُسن استغلالها ، وفى الوقت نفسه قطع الطريق على انتقادات جماعات حقوق الانسان ، وإذا تحرينا الاسباب الرئيسية لقرار بريطانيا التصدي لتجارة النخاسة عبر الاطلنطى فلا نجده خالصا لوجه الانسانية ، وانما تشوبة الرغبة فى الإضرار بإقتصاد الولايات المتحدة ثأرا من حركة إستقلالها (عام ١٧٨٠) .

وإذا كان على الأوروبيين أن يتحملوا وزراتساع نطاق تجارة النخاسة واطلاقها فى معظم انحاء القارة السمراء ، فلا نعفي الإفريقيين ومعهم تلك الفئة من تجار العرب من تحمل نصيبهم من اللوم ، فالعبودية كانت فى افريقيا جزءا من النظام الاقطاعى لممالكها ، استعبد فيه الحكام ابناء القبيلة وابناء القبائل المهزومة وكانوا يتعاملون بوحشية مع الاسرى لا مثيل لها يأكلون فيها لحومهم ، واكلوا لحوم البشر من القبائل الافريقية سبق وان هاجموا بعض مدن الاسلام فى الساحل الشرقى بعد ان هاجمها الاسطول البرتغالى .

وينقل دافيدسون صورا عن تلك الوحشية من خلال رؤية شاهد عيان هو الكوماندور بيكون قائد القوات البريطانية عند دخوله " بنين " عام ١٨٩٧ ، الذى يصفها بمدينة الدماء وبقايا البشر المنتشرة فى كل مكان وتاريخها سفر ضخم لابشع انواع العبودية ؛ فعلى يمين مقر الملك شجرة مخصصة لصلب الضحايا وما زال عليها بقايا اثنين من القتلى معلقة ، نجمع تحتها جماجم وعظام بشرية لضحايا كثيرين .

وينقل عن " ايهلى " بأن تجارة العبيد فى الكونغو كانت جزء من الاطار الاجتماعى للدولة ، تحولت مع نموها الى عملية صيد وحشية، وقارن بين الروايات الاوروبية عن ممارسات هذه التجارة فى القرنين ١٥ و ١٦ ، عندما كانت فى بدايتها ، وبين ما يجرى بعد مرور٣٠٠ او ٤٠٠ عاما ، ليدلل على فظاعة ولعنة هذه التجارة " (٢٣٢) .

---

[٢٣١]) المصدر باسيل دافيدسون إفريقيا القديمة تكتشف من جديد صـ ٤١ و٥٤ .

[٢٣٢]) إفريقيا القديمة تكتشف من جديد ـ باسيل دافيدسون صـ ٥٩ ـ٦١

ومن الحُمق الزج بشرائع السماء فى هذا الهراء ؛ فلا الاسلام ولا المسيحية مسئولتان عن هذه التجارة ، فالامر يتعلق بجانب سلبى للسلوك البشرى ، ولا يمكن بحال قبول اى تبريرات عندما تتعلق بالجانب الانسانى ومعاناته ، فالاوروبيون على سبيل المثال برروا تجارتهم بسند بيولوجي وثقافى بدعوى تدنى الافريقى عرقيا وحضاريا وفكريا ، واستغلوا شرائع الله على غير حقيقتها وفسروا الانجيل على غير مقتضاه وفى غير موضعه ، بالادعاء بان الافريقيين ينحدرون من سلالة متدنية هى سلالة " حام " الذى نعته الانجيل بخادم الخدم وان تدنى وضعية الافريقين مرجعها تلك اللعنة .

ولا يمكن بحال تحميل المسيحية وزر سكوت المبشرين على انسياقهم فى تبرير فظائع تجارة الرقيق ودعوتهم العبيد للاستسلام وتقبل ما هم فيه كنوع من الخلاص ؛ فالمسيحية بريئة من كل ذلك ؛ براءتها من دعوة البابا الكسندر السادس الى انتهاج العنف لتنصير الامم البربرية عام ١٤٩٣م ، وما يلى صورا لقلعة الميدا لحجز العبيد قبل ترحياهم عبر الاطلنطى التى اصبحت رمزا للقهر والعبودية.

الباب الرابع
مد الاسلام فى
السودان الشرقى

الفصل الاول
النوبة القديمة والتخوم الشرقية (٢٣٣)

اولا النـــــــــــــــــــــوبة الشمـــــــــــالية
(نوباديا ومقرة)

العلاقات المتجذرة
بين مصر والنوبة

لم تكن كوش بمعزل عن الحضارة العالمية ، فقد كانت طرفا فيها منذ اقام انسانها الاول نظامه الحضارى قبل مولد المسيح بحوالى ١٧٣٠ عاما ، وكانتا مصر والنوبة عمليا فى وحدة فعلية منذ فجر التاريخ فكلتاهما تبنتا منذ العهد الفرعونى لكليهما سواء فراعين مصر او فراعين كوش عقيدة بأن كلاهما جزء من الاخر واحتياطى استراتيجى له ؛ وامتد هذا التوحد الى معظم جوانب الحياة ؛ ثقافة وعقيدة وتداخل عرقى متبادل فى احيان كثيرة ، عندما استقرت فصائل النوبة فى الشمال وعبرت الفصائل المصرية النوبة الى انحاء افريقيا .

وغلب الاصل المصرى لحكام كوش فكر التوحد والاندماج ؛ وكانت العلاقة بينهما قوية تبادلا فى اطارها السيادة من حين لاخر (٢٣٤).

ومن هذا الارتباط القوى بمصر جعل حُكام كوش من انفسهم حماة لعبادة امون ، وظلوا يطلقون على انفسهم ملوك الوجهين القبلى والبحرى حتى بعد خروجهم من مصر(٢٣٥) التى دانت لهم فترة ، وكانوا يرون غزوهم مصر التى يعشقونها فتحا لبلادهم ، وتخليصا للحضارة التى ينتمون اليها من العناصر الاجنبية الدخيلة .

ولاندماجهم القوى بمصريتهم مصروا النوبة ، فصار النوبى كالمصرى قلبا وروحا ، و كان تطلعهم الى مصر امرا تقليديا دائما وما كان يعنيهم التوسع فى اى اتجاه غير الى مصر .

وأستفادت النوبة من هذا الاتحاد القسرى فى مجالات الحضارة والزراعة والعمران والاقتصاد فأخذت من مصر وعنها ما يُفيد ؛ وبالنسبة للمد الامبراطورى لمصر فى أرض النوبة اقتصر فى معظم حركتة على حملات عسكرية لتأمين الحدود واستكشاف منابع النيل وللتجارة ينحسر بعدها عائدا أدراجه ، وفى عصر الدولة الوسطى ضمت مصر النوبة السفلى وجعلت " سمنة " جنوب الجندل الثانى آخر حدودها .

وفى عهد الدولة الحديثة ١٥٥٠ : ١٠٧٠ ق.م غدت النوبة من الجندل الاول عند اسوان الى الجندل الرابع جزء من امبراطورية تحتمس الثالث (انظر الخريطة) ، وتشريفا لمكانة النوبة عند الفراعين كانوا يلقبون نائبهم عليها بابن الملك اعترافا بخصوصية العلاقة معها ، ويقول عالم المصريات سليم حسن ان ميول المصريين الحقيقية كانت مع الكوشيين الذين استأثروا بمصر العليا اثناء الوجود الفارسى فى دلتا مصر .

الاسرة الكوشية
واهتمامها بمصر

جاءت فترة ساءت فيها احوال النوبة وانغلقت على نفسها حتى تأكلت حضارتها ، وقامت على انقاضها حضارة جديدة فى " نباتا" (نوباتا) على يد " ألارا " مؤسس الاسرة الكوشية الاولى ٥٩٣ - ٧٨٠ ق.م ، واستطاع خليفته " كاشتا " أن يضم النوبة السفلى للمملكة ، وفى عهد الفاتح العظيم "بى عنخ " بيعنخى ٧٤٧ ــ ٧١٦ ق.م غزى مصر ثم عاد الى نباتا ؛وتصدت الاسرة الكوشية الحاكمة فى مصر فى عهدى " تانوت أمانى " وطهارقا (تهراقا) للآشوريين الذين حسموا الصراع فى النهاية

---

[٢٣٣]) إعتمدنا فى هذا الجزء على كتاب" السودان عبر القرون " للدكتور على شبيكة بجامعة الخرطوم الصادر عن دارالجيل - بيروت كافضل وادق مرجع فى هذا الشأن بخلاف بعض الكتب الاخرى .
[٢٣٤]) من هؤلاء د مكى شبيكة .
[٢٣٥]) مصر القديمة ج١٢ ص ي من التمهيد - عالم المصريات سليم حسن

لصالحهم ، وبسقوط طيبة ومنف فى أيديهم تقهقر طهارقا الى عاصمته " نباتا " ومات بها عام ٦٤٤ ق م .
وفى الفترة ٣٥٠ : ٥٩٣ ق.م نقل الكوشيون عاصمتهم من نباتا الى مروى جنوبا لوفرة الحديد بها ولاسباب أخرى غير معلومة قد تكون امنية ؛ ومع انتقالهم الى مروى دخلوا مرحلة جديدة من الحضارة المروية ، وكان لها فضل تطوير الكتابة المروية التى تشكلت من ٢٣ علامة ؛ واثناء الاحتلال الفارسى لدلتا مصر قامت ثورة فى الوجه البحرى فى عهد ارتكزركزس (٤٦٤-٤٢٤ق م) ، كانت الاشد خطرا والاكثر عنفا من بين ثورات المصريين لتحرير البلاد ، قادها الامير ايناروس بن بسمتيك وهو حسب عالم المصريات الكبير سليم حسن ، نوبى الاصل من ناحية امه ابنة تهراقا التى زوجها اباها الى نيكاو بن بسماتيك حاكم سايس (٢٣٦) .

قيام ممالك النوبة
(نوباديا - مقرة – علوة)

إنتهت مملكة كوش على ايدى عيزانا ملك اكسوم الحبشية عام ٣٥٠ ق. م ، وقام على انقاضها ثلاث ممالك نوبية هى "نوباديا " فى الشمال وعاصمتها فرس ، والثانية " مقرة " فى اقليم دنقلة وعاصمتها دنقلة ؛ وهاتان المملكتان اندمجتا فى وحدة بعد ذلك ، والثالثة " علوة " وعاصمتها سوبا جنوبى الخرطوم ، واستمرت هذه الممالك حتى دخول الاسلام .

النوبة و العهدين البطلمى والرومانى

غزى بطليموس الثانى بطلمى مصر النوبة ، فرده ملكها " أركامون " على أعقابه وتصالحا على إقامة منطقة محايدة فى النوبة السفلى تفصل مروى عن مصر ؛ امتدت من دابود حتى المحرقة عُرفت بأسم الاثنى عشر فرسخا(Dodekaschoinos) ؛ وخلال العهد الرومانى (استغرق ٣٠ ق.م وحتى ٦٥١م) ، وقع الرومان اتفاقا مع المرويين يبقى سيادة مروى على النوبة مع خضوعها لحماية الرومان ، غير أن الملكة " أمانى زيناس " او ريناس ملكة " كنداكى " النوبية تمردت والحقت الهزيمة بثلاثة فيالق رومانية قادها " بترونيوس " ، وأسرت المئات من قواته واحتلت أسوان ، وكان من نتيجة ذلك توقيع اتفاقية ثانية تُعفى النوبة من الجزية الرومانية .

العهد المسيحى

دخلت المسيحية النوبة على ايدى التجار والرهبان المصريين الفارين من اضطهاد وبطش الرومان في القرنين الأول والثاني الميلادي ، ولكنها لم تسود وبقيت الوثنية غالبة حتى عام ٤٥٣ م وذلك طبقا لشهادة Maximinus قائد الحملة التأديبية الرومانية التى بعثها الامبرطور مرقيانوس ؛ وفى الفترة ما بين القرنين الرابع و السادس الميلادي شاعت المسيحية بفضل التبشير المصرى والرومانى ، فتحولت الممالك الثلاث نباته ومقرة وعلوة إلى المسيحية .
اعتنقت " نوباديا " المسيحية فى عهد الامبراطور البيزنطى جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥م) ، بجهود المبشر جوليان " يوليان " ؛ الذى أقنع سلكو ملك نوباديا باعتناق الدين الجديدعام ٥٤٣م ، ثم تقدمت المسيحية الى " علوة " عام ٥٨٠م ، وبينما انتشر المذهب المونوفيزى فى نوباديا وعلوة بضغط من الامبراطور تيودور ،بينما أعتنقت المقرة المذهب الديوفستى ثم اليعقوبى بعد قيام العرب بطرد الروم من مصر.

تقدم الاسلام الى النوبة

تقدم الإسلام من مصر إلى المنطقة على نفس الطريق الذى سلكته المسيحية ؛ وكان اول احتكاك للنوبة بالاسلام عندما أرسل عمرو بن العاص عام ٢١هجرية ٦٤١ / م ، نفس العام الذى فتح فيه مصر حملة بقيادة "عقبة بن نافع" لإستكشاف

---

(٢٣٦) موسوعة مصر القديمة الجزء ١٢ التمهيد صـ ى وجزء ١٣ صـ ١١١ و ١٢١ .

المنطقة ففوجئ بمقاومة عنيفة من النوبيين فصالحهم وقفل راجعا ، وتوقفت محاولات المسلمين التوغل فى النوبة السفلى حتى نهاية عهد عمرو فى سنة ٣١هجرية ٦٥١ م .

نقضت النوبة عهدها مع المسلمين بعد رحيا عمرو وتولى " عبد الله بن أبى سرح " حُكم مصر ، فقاد عبد الله حملة حاصر فيها "دنقلة" عام ٦٥٢ م ، أظهر فيها النوبيون مقاومة عنيدة ومهارة فائقة فى اصابة عيون المقاتلين بالسهام ؛ وهم معروفين منذ عهد الفراعنه بمهارتهم فى رمى النبال ؛ وينقل البلاذرى عن شاهد عيان ان النوبيون رماة مهرة لايخطئون الهدف ، وقد أُصيبت فى المعركة عيون ثُلة من التابعين منهم معاوية بن حديج ، وهو ما حدا بالعرب لأن يطلقوا علي النوبيين رُماة الحدق (٢٣٧) ، وعن تلك الموقعة يقول الشاعر:

ولم تر عينى مثل يوم دنقلةٌ والخيل تعدو والدروع مثقلة

الصلح بين العرب والنوبة ـ معاهدة البقط

ولما ضاق النوبيون من حصار العرب وضربهم دنقلة بالمنجانيق ، طلب ملكها قليدوروث الصلح وعقد الطرفان صُلحا عُرف بـ " البقط " PACTUM ، وتعنى بالرومية الاتفاق ؛ وتقضى المعاهد بان تقدم النوبة عدد ٣٦٢ من الرقيق سنويا للعرب ، ولوالى مصر ٤٠ عبدا ، ولحاكم كورة اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرون عبدا وخمسة عبيد الى مبعوث الوالى الذى يجىء الى اسوان وعبدا واحدا لكل شاهد من الشهود العدول على المعاهدة وعددهم اثنا عشر ، وتقدم مصر بالمقابل الف اردب من الغلال ويهدى للسفراء ثلاثمائة اردب .

وقضت البقط بحرية المرور لا الاقامة لمواطنى كل طرف فى ارض الاخر مجتازين غير مقيمين مع ضمان الامن لمواطني كل طرف فى ارض الاخر ، كما تضمنت نصا ينظم ايفاد كهنة الكنيسة المصرية الى النوبة وحماية مسجد دنقلة ، والمعاهدة لم تكن معاهدة اذعان وانما مصالحة او هدنة كما يسميها خرداذبة فليست خراجا ولاجزية كما يقول البلاذرى (٢٣٨).

محاولات النوبة التنصل من البقط

حكمت المعاهدة العلاقات على مدى ستة قرون لم تنقطع فيها محاولات النوبة نقضها والتخلص منها ، وتزامنت المحاولات مع تغير الدول فى مصر لتختبر النوبة جدية الدولة الجديدة فى التمسك بها ، لكن الدول المتعاقبة لم تتهاون فى شأن البقط فأخذت النوبة بالحسنى تارة وبالشدة تارات بحملات متعاقبة ووصل الامر ببعض هذه الدول ان دفعت بالعديد من القبائل العربية للاستقرار بالنوبة لضمان خضوعها ، ولما قويت هذه القبائل وإندمجت فى المحيط البشرى زاد نفوذها وتصاهرت مع ملوك النوبة فأل اليها الحكم بالوراثة فتمكن الاسلام من عرش النوبة .

بدأت محاولات التنصل من البقط فى عهد المعتصم العباسى على يد الملك زكريا بن يوحنس بضغط من ابنه جورج ، فمنع النوبة البقط لمدة ١٤ عاما بدعوى صعوبة الوفاء بالتزاماتها فيما يتعلق بتسليم اعداد العبيد المنصوص عليها فى الاتفاق للمسلمين ، فقد كان التزاما ثقيلا بتدبيره من ابنائها ويضر بالاقتصاد لإستنزافه الايدى العاملة (٢٣٩) ، ويستلزم الوفاء به الاغارة على الاخرين حسبما ذكره البلاذرى ، وسعى زكريا بن يوحنس للتفاهم مع الخليفة فأرسل اليه ابنه ليفاوضه ، قاصدا ان يشاهد ولده العنيد بنفسه قوة دولة الخلافة ؛ وكان الخليفة كريما معه فوافق على اعفاء النوبة من سنوية اداء البقط وقصرها على مرة كل ثلاثة اعوام بدلا من كل عام ، على ان يستمر المسلمون فى الوفاء بإلتزاماتهم سنويا ، وزيادة فى الكرم اطلق سراح السجناء النوبيين ، ولكنه رفض مطلبه سحب الحامية العربية من مدينة القصر.

النوبة والسيادة المصرية

---

[٢٣٧]) الثقافة العربية فى افريقيا صـ ٢٧٩ .

[٢٣٨]) المسالك والممالك صـ٢ نقلا من الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا.

[٢٣٩]) السودان عبر القرون صـ ٣٣ ـ د. مكى شبيكة

الدولة الطولونية

وفى عهد الدولة الطولونية هزمت الحملة التى ارسلها احمد بن طولون بقيادة عبد الله بن عبد الحميد العمرى لتأكيد سيادة مصر على النوبة جورج ملك النوبة ، ومدت الحملة مهمتها بإخضاع اقليم البجا للسيطرة على مناجم الذهب وتأمين الحدود ، وشارك فى الحملة قبائل ربيعة وجهينة العربيتين اللتين سيكون لهما شأنا فى مستقبل المنطقة .

الدولة الاخشيدية

ومع قيام الدولة الاخشيدية اغارت النوبة على الواحة الخارجة عام٩٥١م ، ثم على اسوان عام ٩٥٦ م ، فأرسل الاخشيد حملة تأديبية بقيادة ابنه انوجور بن الاخشيد عام ٩٥٧م هزمت النوبيين ثم تقدم حتى ابريم ؛ وفى اواخر عهد كافور أغارت النوبة على مصر وتقدمت حتى ادفوا .

الدولة الفاطمية (تغلل القبائل العربية)

مع قيام الدولة الفاطمية ٩٦٩م على انقاض دولة الاخشيد ، امتنعت النوبة ثانية عن اداء البقط ، ولما علم جوهر الصقلى بإغاراتهم على جنوب مصر فى اواخر عهد الاخشيديين أرسل حملة بقيادة احمد بن سليم الاسوانى اخضعت جورج ملك النوبة .

وفى اواخر عهد الدولة الفاطمية انقلبت العلاقة مع النوبة الى ود ومصالحة رغم عدم اسلام ملوكها ، بينما كان جند النوبة فى الجيش الفاطمى من المسلمين مُحبى آل البيت ومن اكبر المؤيدين لدولتهم بمصر ، وكان الاسلام قد بدأ فى الانتشار بين النوبيين فى العهد الفاطمى مع انتشار القبائل العربية فى المنطقة.

ويذكر المؤرخ ابن سليم الاسوانى وان كثرة من النوبيين إعتنقت الاسلام ويتمسكون بلغتهم ، وان العرب بالمنطقة كانوا في حالة استقرار واستقلال ويتحدثون النوبية ويضيف ان المسلمون توغلوا في الارض السودانية جنوبا حتى سوبا عاصمة علوة للاتجار ولوجودهم الدائم بها اصبح لهم فيها رباط .

دولة المماليك

وفى عهد الدولة المملوكية وتزامنها مع قيام الحروب الصليبية ، غلبت الروح الصليبية على ملوك النوبة فتعاطفوا مع الصليبيين رغم غياب العلاقة بينهما ، ودفعتهم روح التعصب العقيدى للتعاطف مع الاقباط فيما تعرضوا له من إضطهاد بيبرس بعد اتهامه لهم بحرق بعض احياء القاهرة عام ١٢٦٤ م (٢٤٠) ؛ و زاد الامر سوءا ضيق النوبيين من انتشار العرب بمناطقهم واقامتهم دولة اسلامية في النوبة السفلى تحت حكم بنى كنز ؛ وسيطرة المماليك على عيذاب المنفذ الوحيد لتجارة النوبة الخارجية بما فيها سيطرتهم على الطرق المؤدية للاماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين .

لهذه الاسباب اغارالنوبيون على جنوب مصر لشغلها عن الصليبيين فى الشام فهاجموا أسوان وخربوا السواقى واسروا عدد من السكان سخروهم في بناء كنيسة بدنقلة وهاجموا ميناء عيذاب (التابع للمماليك) عام١٢٧٢م وقتلوا القاضى المصري والوالى الحدربى التابع لهم ونهبوا المتاجر والاهالى (٢٤١) .

رد المماليك بعنف فأرسل السلطان " الظاهر بيبرس" عام١٢٧٦ م حملة بقيادة والى قوص ارسل معها شكندة إبن اخت الملك المعارض الفار بالقاهرة ؛ ونصرته على خاله الملك داوود الذى فر الى "علوة " بعد هزيمته ، وتوجت شكندة ملكا بدلا منه .

صادرت الحملة ممتلكات الملك الفار واتباعه وأُرغمت دنقلة على التنازل عن المنطقة الشمالية (نصف أراضيها) الى مصر مع فرض جزية دينارا عن كل عاقل لرفض النوبة عرضا بالاسلام ، ونص الاتفاق مع الملك الجديد شكندة بأن يحكم بإسم السلطان نائبا عنه ويرسل الى مصر نصف ما يجمعه ويطلع السلطان على أحوال البلاد ويمنع الاعراب من الاستقرار في النوبة .

ومنذ ذلك التاريخ احتفظ المماليك بوجود دائم فى النوبة فأبقوا بها حامية ، وبتلك المعاهدة دخلت النوبة في تبعية مطلقة لمصر واصبح ترسيم ملوكها يتم على اساس الولاء المطلق للسلطان المملوكى فى القاهرة ورهنا بارادته ، وتشير المراجع إلى أن

---

[٢٤٠]) المرجع : د. مكى شبيكة _ السودان عبر القرون صـ ٤٢ .
[٢٤١]) السودان عبر القرون صـ ٤٣ د. مكى شبيكة.

المكاتبات السلطانية المملوكية أصبحت تخاطب ملك النوبة بـ "النائب" دليلا على التبعية .

وتعاظمت مكانة السلطان حتى ان انقلابات القصر فى النوبة التى تتم بعيدا عن ارادته ما كانت تستطيع ان تمارس شرعيتها بدون استرضاء الارادة السلطانية ، وإمتد نفوذ السلطان الى علوة (الابواب) ايضا التى كانت تسعى لإسترضاءه وتجنب غضبه ، فعندما لجأ اليها داوود ملك النوبة الفار قبض عليه ملك الابواب وارسله الى القاهرة حيث مات في المعتقل ، وفى ظل التطلع الى مصر كانت خلافات مقرة وعلوة تُحال لتحكيم السلطان بالقاهرة (٢٤٢) .

وفى عهد قلاوون الذى بلغ فى عهده النفوذ المملوكى ذروته ارتقى مسلمو البيت النوبى لاول مرة العرش ، فبعد إغتيال شكندة عام ١٢٧٧ م لم يطمئن قلاوون (خليفة بيبرس) الى " بيرك " (خليفة شكندة) فأرسل اليه حملة بقيادة " ايدمر" قتلته ونصبت "سماسون" ملكا بدلا منه بنفس الشروط المنصوص عليها قبلا مع شكندة ، وكان" سماسون " داهية مارس المكر والخداع منذ اعتلائه العرش متأرجحا ما بين الولاء والتمرد ، وانتهت مؤامراته بسقوطه ، وقصة هذا الملك المخادع هى المخاض الى اسلامية المملكة ، فبعد اعتلائه عرش دنقلة على اسنة الرماح المملوكية شجر بينه وبين ملك الابواب فى علوة الشمالية خلاف إحتكم فيه الاخير الى السلطان قلاوون، وبعد سماع السلطان سفارتا الطرفين تأكد من صحة الشكوى ، فارسل الى ملك " الابواب" مبعوثا مرورا بارض البجا لتجنب العبور فى ارض سماسون لعدم اطمئنانه الى خداعه ، فلما علم سماسون بالمهمة قبض علي مبعوث السلطان عند عودته وكاد ان يقتله لكنه تراجع لخوفه من العقاب واعاده الى مصر ، فارسل السلطان عام ١٢٨٧م حملة بقيادة الامير عز الدين ايدمر والى قوص ؛ شاركت فيها القبائل العربية كنز وبنى هلال واولاد ابى بكر واولاد عمر واولاد شيبان وشريف لتأديب سماسون انتهت بفراره ؛ وقام عز الدين ايدمر بتنصيب ابن اخت الملك طبقا للعرف النوبى ملكا وبقى معه فى النوبة مندوبا ساميا مقيما بأمر قلاوون.

وبعد عودة الحملة انتهز سماسون غياب الامير ايدمر عن دنقلة وحرض النوبيين على الملك الجديد الذى فر الى السلطان فأعاده عام ١٢٨٩ م مع حملة من ٤٠ الف رجل ، لكنه مات فى الطريق فعين السلطان ابن اخت الملك المتوفى " داود " حاكما للنوبة ؛ وعند وصول خبر الحملة الى سماسون فر من جديد بعدما تخلى عنه مؤيدوه ، ودخلت الحملة دنقلة بدون قتال بطلب من الاسقف وعادت بعد ان تركت قوة مقيمة.

ولكن سماسون نجح فى العودة بمعونة مؤيديه الذين سبق ان خذلوه وقتل الملك الجديد وقبض على الامير المملوكى فى دنقلة ورجاله ، وارسلهم الى القاهرة محملين بالهدايا ومعهم الالتزامات التى على النوبة طالبا العفو فوادعه السلطان وثبته لانشغاله بالاجهاز على عكا اخر معاقل الصليبيين فى الشام ، وبوفاة قلاوون امتنع سماسون سنة ١٢٩١م عن الوفاء بالبقط والجزية وطلب من السلطان الجديد خليل بن قلاوون تاجيلها الى العام التالى ، متعللا بخراب البلاد من جراء الحملات المملوكية ولكن تهديد السلطان ووعيده جعله يرتهن والدته واهله فى ضيافة السلطان بالقاهرة حتى يفى بالبقط .

وبعد وقت قصير طلب عودة والدته قائلا " ان ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء " (٢٤٣) ؛ وضمن رسالته شكوى ضد ملك الابواب فى علوة ، فضاق السلطان ذرعا بمراوغته فإستغل ثورة " أنى" احد امراء البيت النوبى وارسل حملة بقيادة الافرم اعادت الامور الى نصابها وفر سماسون واختفى الى الابد ولم يُسمع عنه بعد ذلك ، واستمرت الحملة فى مطاردة الامير الثائر الذى التجأ الى بلاد " الفونج " على مسافة ٣٣ يوما جنوبى دنقلة .

أقام السلطان الامير النوبى " بدمة " المقيم بالقاهرة ملكا خلفا لسماسون ، وحلف النوبيون قسم الولاء له في صيغة ولاء اصيل للسلطان بالقاهرة بقولهم " لولا مولانا السلطان ما اطعناك ومتى تغيرت ازلناك ونحن نرضى ان يقيم مولانا السلطان (علينا) ملكا فلاحا او جبليا فان بلاد النوبة مالها ملك الا مولانا السلطان ونحن رعيته " ، وبذلك إستقرت العلاقات على نحو من الابدية ، واصبحت مصر الملاذ والملجأ للنوبة عند الخطر ، فاستنجد الملك " أماى " بالناصر قلاوون لرد العربان فاغاثه بحملة استغرقت سنتى ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧م لتأديب العربان على ما احدثوه من فوضى فى الاقاليم السودانية ، وقطعهم الطرق على الممتلكات المملوكية

---

[٢٤٢]) المسالك والممالك صـ٢ نقلا من الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ،ـ د حسن احمد محمود صـ٢٨٤.

[٢٤٣]) المرجع : د. مكى شبيكة – السودان عبر القرون صـ ٤٧-٤٨ ، وقد اوردنا هذا النص لمدلوله عن مكانة المرأة فى النوبة ولعلنا نجد فى ذلك تفسيرا للنظام الامومى فى ارث الملك الذى ينتقل الى ابن اخت الملك .؛

فى برية عيذاب وسواكن .

وتوغلت الحملة حتى جبل أُذينات على شاطىء نهر عطبرة وواصلت مسيرتها حتى جبلا كسلان والسوس في بلاد التاكة ، حيث قاتلوا الهلنكة (الحلانقة) في دلتا القاش ، وعادت مجتازة اربينات وبلاد الابواب الشمالية عبورا الى اسوان ثم قوص ، واكرمها ملك الابواب اثناء عبورها دنقلة بمناسبة زوال مخاوفه من وصولها الغريب من وراء حدوده الجنوبية التى كانت سببا فى عدم ذهابه لملاقاتها حسب طلبها لكنه اغدق عليها الزاد فزودها بمئتا (٢٠٠) رأس من الابقار والاغنام وكمية من الذرة كانت في حاجة اليها بعد نفاذ مؤنتها في تلك الرحلة الطويلة ؛ وهذا الملك كان دائما ما يخطب ود السلطان وتجديد الولاء له ودائما ما كان حريصا على ان يخبره بأخبار مطاردة الثائر النوبى انى .

اسلام ملوك مقرة

بعد إغتيال الملك " أماى " ، تولى اخوه " كرنبس " الحكم عام ١٣١١م ، ولما إمتنع عن الوفاء بالبقط عام ١٣١٥ م ، ارسل السطان حملة طاردته الى مملكة الابواب وأقام بدلا منه الامير عبد الله برشمبو المسلم ملكا عام ١٣١٦م ، وعندما علم كنز الدولة المسلم ذوى النسب المختلط بالعرب بما حدث فى النوبة وهو محتجز فى القاهرة ، طالب بالعرش لاحقيته طبقا لمبدأ التعاقب على العرش النوبى بإعتباره ابن اخت الملك المخلوع كرنبس الذى أيده من منفاه فى طلبه مستلهما رغبة السلطان في تنصيب مسلم العرش .

وازاء إصرار السلطان على تنصيب عبد الله برشمبو ، توجه كنز الدولة بدون اذن السلطان الي دنقلة للاستيلاء على المُلك مُنتصرا بالنوبيين والعرب ، فوصل " الدر " عام ١٣١٧م والتف حوله النوبيون ، فحرض السلطان الملك المعين برشمبو للقبض عليه لكن كنز الدولة تمكن من هزيمته وارتقى العرش ، فاطلق السلطان الناصر سراح" ابرام " اخو الملك المخلوع كرنبس، وكلفه بالقبض على كنز الدولة وابن اخته ، ووعده بإطلاق سراح اخيه كرنبس المعتقل فى القاهرة واعادته الى عرشه ، و يُروى ان كنز الدولة استسلم طائعا لترحيله الى القاهرة مقيدا حسب رغبة خاله ابرام لكن موت الاخير والتفاف النوبيون حوله حال دون ترحيله ، وتولى العرش من جديد عام ١٣١٧ م ؛ ولم يستسلم السلطان فبعث الى دنقلة بحملة جديدة عام ١٣٢٣م لاعادة كرنبس الى العرش، لكن موت الاخير فى الطريق قبل ان يصل النوبة ثبت كنز الدول كملك رغم انف السلطان (٢٤٤).

امارات القبائل وزوال السلطة المركزية

بعد تولى بنو كنز العرش وانتشار القبائل العربية فى بلاد النوبة السفلى (مقرة - دنقلة) ، تلاشت سلطة ملوك النوبة تحت ضغط مناكفة تلك القبائل التى اسست امارات صغيرة مستقلة ، ولكن مطاردة المماليك وقبيلة الهوارة للكنوز الذين تركزوا حتى ذلك الحين فى محيط اسوان دعتهم للانتقال الى النوبة السفلى .

هجرة القبـــــــــــــــائل

رغم تقييد البقط هجرة المسلمين الى النوبة وإستثناء التجار من هذا الحظر وعدم حرص النوبيون على التشدد فى تطبيق حظر الهجرة على فئات اخرى لاسباب لانعلمها قد يكون ورائها منافع إقتصادية ؛ اغرى جماعات من بنى امية على الفرار الى النوبة وارض البجا وساحل البحر الاحمر والاستقرار بهذه المناطق عقب سقوط الدولة الاموية .

وبدءا من القرن التاسع الميلادي لحقت بالنوبة بعض قبائل عربية فرت من مصر بسبب تدهور الحال او تحت ضغط النظم فى عهود المعتصم العباسي والمستنصر الفاطمى والمماليك ؛ عندما قرر المعتصم التخلص من القبائل العربية الثائرة فى الجيش وإستبدالها بالترك فدفع بها الى النوبة ، ومثله فعل المستنصر الفاطمى اشد السلاطين عداءا للبدو المشاغبين صعبى المراس ، ويحدثنا المسعودى عن توطن جماعات من عرب قحطان وربيعة وقريش فى ارض اشتروها فى النوبة السفلى ، تنازعوها مع

---

[٢٤٤]) هناك تضارب بشأن عودة كرنبس للملك على يد الحملة وهروب كنز الدولة من دنقلة ثم عودته للملك بعد انسحاب الحملة حسب رواية د مكى صـ ٥١ ؛ وعليه ارتأينا السرد على ما هو عليه طبقا لمراجع اخرى نعتقد انها اقرب الى المنطق فليس من المعقول ان يقاوم كنز الدولة خاله الملك السابق كرنبس عند عودته وهو الذى استسلم لخاله ابرام من قبل دون قتال وهو يعلم انه سيقوم بترحيله مقيدا الى القاهرة .

ملوكها الذين قاوموا الصفقة حتى لايقيم العرب بينهم وفى اراضهم بحجة ان رعاياهم عبيد لايحق لهم بيع الاراضى ، وحسم النزاع حاكم اسوان لصالح قبائل العرب ، ويرصد "إبن سليم الأسوانى " في زيارته للنوبة آخر القرن العاشر الميلادى قوة وضع العرب فى المنطقة ، فيقول " يتصرف المسلمون فيما بين أسوان والشلال الثالث تصرف الملاك وأصحاب البلاد ، بعدما إندمجوا في حياة الناس وتعلموا لغتهم وإعتنقوا عاداتهم ، ويزيد بأن المسلمون توغلوا داخل الارض السودانية حتى سوبا عاصمة علوة لغرض التجارة حتى اصبح لهم رباط خاص بهم فيها " (٢٤٥) .

ثانيـــا التخوم بين الصحـــــــراء الغـــــــربية

مناطق البجا وساحل البحر الاحمر حتى مصوع وزيلع

حملة ابن الحبحاب

منذ القرن ٨ م ، بدأت عناصر البجا العربية وهى غير مسلمة انذاك فى الظهور فى الصحراء بين النيل والبحر الاحمر، وكانت تُهاجم صعيد مصر من حين لاخر ، فارسلت مصر لتأديبهم حملة عام ٧٢٥ م بقيادة ابن الحبحاب ، صالحهم على ان يدفعوا ٣٠٠ رأس من الابل ويجتازوا الريف غير مقيمين والا يقتلوا مسلما او ذميا والا يأووا عبيد المسلمين الفارين ، وترك امر التجارة حرا دون قيد وان يظل وكيلهم فى الريف رهينة فى يد المسلمين.

حملة المأمون العباسى بقيادةعبد الله بن الجهم

ولكن تجدد إغاراتهم على اسوان ، جعل المأمون العباسى يبعث عبد الله بن الجهم على رأس حملة لتأديبيهم عام ٨٤١ م ؛ جعلت بلاد البجا من حد اسوان الى دهلك (مصوع) ومعهم باضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ؛ وجعل رئيسهم كنون بن عبد العزيز واهله عبيدا لامير المؤمنين ، وفرض عليهم خراجا قدره ٣٠٠ دينار ومئة راس من الابل وعاهدهم على ان يحترموا الاسلام والا يعينوا احدا علي المسلمين ؛ والا يقتلوا مسلما او ذميا حرا او عبدا فى ارض البجا او مصر او النوبة ، وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة او الاقامة ؛ وإذا ما دخلوا صعيد مصر مجتازين او تجارا لا يظهروا سلاحا ولا يدخلوا المدائن والقرى ، والا يهدموا مسجدا ابتناه المسلمون بأرضهم فى صبيحة وهجر ، وعلى ملكهم السماح بدخول عمال امير المؤمنين لقبض صدقات من من يُسلم من البجا .

هجرات القبائل العربية الى البجا

واسلام العلاقى وعيذاب وسواكن

اجتذبت التجارة والمراعى والذهب قبائل العرب الى ارض البجا منذ الفتح العربى الى مصر ، فوفدت قبائل بلى وجهينة ولحق بهم عبر البحر الاحمر فريق من هوازن عُرفوا فيما بعد بـ " الحلانقة " اقاموا مع البجا فترة من الزمن ، ثم رحلوا الى اقليم التاكة (كسلا) ، وجاء في اعقابهم امويون فارون استقروا في ميناء باضع ، وتبعتهم قبائل عربية مُهاجرة من مصر في عهدا المعتصم والمستنصر تخلف بعضها فى النوبة .

حملة المتوكل على البجا

ولاغارة البجا على مناجم الذهب فى العلاقى ؛ سلط عليهم المتوكل عام ٨٥٤ م محمد بن عبد الله القمى الذى انتصر عليهم بمساعدة قبائل ربيعة ومضر واليمن التى اصطحبته من العلاقى فانصاع على بابا زعيم البجا للصلح وعرض دفع الخراج ، والا يمنع المسلمين من استغلال مناجم الذهب ، ووافق القمى وارسل على بابا رئيسهم الى الخليفة في سُر من رأى عاصمة العباسيين ليتعرف من مشاهداته خلال الرحلة على قوة المسلمين فأذعن وأكرم الخليفة وفادته .

---

[٢٤٥]) د. مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـصـ ٣٨ .

حملة ابى عبد الرحمن العمرى واستقلاله
(عهداحمد بن طولون)

وفى عام ٨٦٨ م ارسل احمد بن طولون حملة بقيادة ابى عبد الرحمن العمرى اشترك فيها كثير من العرب خاصة ربيعة وجهينة للبحث عن الذهب وتأمين الحدود ، فوصل العمرى اقليم شنقير وهاجم قبائل من الشام مستقرة في منطقة إدندن استقوت بها النوبة ضده ؛ ولما استشعر ابن طولون قوة العمرى الذى اقام هناك ؛ ارسل له جيشا هزمه العمرى الذى رد على الهجوم بمهاجمة ادفو ثم انسحب الى منطقة نفوذه فى المناجم بالعلاقى ليُعيد إخضاع ربيعة التى انشقت عليه ، واغتيل بعد ذلك على يد قبيلة مضر ، وللعمرى دور كبير في نشر الاسلام في منطقة البجا .

امارة ربيعة وتحالفها مع البجا

بعد اغتيال العمرى انفجر خلاف على مناجم الذهب بين عناصر ربيعة وجهينة المنتشرة حول اسوان ؛ حسمته ربيعة بدعم من اصهارها البجا لصالحها ، وكانت ربيعة قد اسست امارة عربية فى منطقة المناجم يشير اليها المسعودى الذى زار مصر عام٩٤٠ م فيقول " ان اميرها ربيعة ابى مروان بشر بن اسحاق بن ربيعة يتحكم فى جيش من ٣٠ الف حدربى (حضرمى) على ابلهم ، و٣ الاف فارس من ربيعة ، وبقوتهما تغلبا على من عاداهم" ، ونتيجة نزاع داخل ربيعة في العلاقى وعيذاب ، قُتل بشر بن اسحق مؤسس الامارة وخلفه ابن عمر محمد بن على المعروف بإسم ابن يزيد اسحق ، ويشير المسعودى الى انتشار الاسلام فى المنطقة حتى جزيرة سواكن .

وكان الفاطميون على علاقة طيبة بهذه الدويلة ، عرفانا بدورها في نشر الاسلام ولمساعدتها لهم فى ردع الاعراب الذين اثاروا الفوضى فى النوبة ، عندما استعان الحاكم بامر الله عام ١٠٠٦م باميرها ابى المكارم هبة الله فى مطاردة متمردى بنى امية الذين قدموا من القيروان بزعامة ابو ركوة لغزو مصر ، وانضمت اليه قبائل كتامة وبنو قرة فى برقة وانتصروا على والي الحاكم بامر الله ، ولكن الجمع تفرق بعد هزيمتهم فى الفيوم لتخلى بنو قرة عنهم ، وفر ابو ركوة الى النوبة حيث اعتقله ابو المكارم ، وتقديرا لهذه الخدمة اسبغ الحاكم بامر الله على ابو المكارم لقب كنز الدولة فتسمت القبيلة بالكنوز منذ ذلك التاريخ .

صلاح الدين والجند السودانية وكنز الدولة

ساند الجند السودانية (النوبية) المتيمين فى حب ال البيت الفاطميين فى نزاعهم مع صلاح الدين وحاولوا اقصائه من الوزارة لخلافه مع الخليفة الفاطمى العاضد (٢٤٦) ، وبعد هزيمتهم عام ١١٧٢م إنسحبوا الى الصعيد ، واستبدلهم صلاح الدين بالترك والديلمية فى الجيش ؛ ورغم تأييد كنز الدولة (النوبة) لصلاح الدين فى حربه ضد الجند السودانية الا ان ذلك لم يشفع له وأخذه صلاح الدين بموقف الجند السودانية ؛ وارسل اخيه تورانشاة ليُقيم فى النوبة للحد من نفوذ كنز الدولة ، ولم يستقر بها تورانشاه لفقرها واقطعها احد قواده وعاد.

ولما ثار كنز الدولة وقتل والى صلاح الدين فأرسل الاخيراخاه العادل على رأس جيش قتل كنز الدولة واجلى قبيلته من البجا الى النوبة حيث اندمجوا في السكان .

حكم المماليك سواكن وعيذاب

اتخذ الفاطميون والمماليك من بعدهم ميناء عيذاب فى ارض البجا معبرا للتجارة والحجيج خلال الحروب الصليبية لتجنب المرور عبر سيناء ، ومع اتساع النفوذ المملوكى عين المماليك بجانب الوالى الحدربى واليا وقاضيا مصريين ، وفى عام ١٢٦٥ م

---

[٢٤٦]) لم يكن ملوك النوبة قد اسلموا حتى ذلك الحين وان كانت هناك قطاع قد اسلم من الاسرة، ، ويبدوا ان هؤلاء الجنود هم من الذين تم استخلاصهم من البقط واسلموا وتعاطفوا مع الفاطميين بإعتبارهم من آل البيت ، ومن المعلوم ان الدولة العباسية والطولونية والاخشيدية استخدمت النوبيين فى الجيش فالمعتصم جند ٤٠ الف جندى ؛ واستكثر كافور الاخشيدى والمستنصر الفاطمى منهم فى الجيش لانتساب والدتيهما الى النوبة .

ارسل بيبرس حملة الى سواكن تركت بها قوة مملوكية ، وكانت هذه الحملة بهدف تأديب حاكم سواكن ودهلك احتجاجا على سوء معاملته للتجار المصريين ومصادرته اموال من توفى منهم .

وفى عام ١٢٧٢ م تمردت النوبة على المماليك وهاجموا عيذاب وقتلوا الوالى والقاضى المصريين ونهبوا وقتلوا عدد من اهلها ومن غير المعلوم رد فعل المماليك ، وفى عامى ١٣٠٦ و١٣٠٧ م استنفر النوبيون الناصر قلاوون ضد فوضى العربان بالمنطقة فارسل حملة واصلت سيرها حتى سواكن وعيذاب ثم حدود الحبشة ودخلوا بلاد الابواب فى علوة في طريق عودتها كما سبق الذكر .

ولاية الكُشاف قوصوة (كوسوفو) فى النوبة

أضحت النوبة نهبا للقبائلية بعدما اضعفتها ضربات المماليك والقبائل العربية ، وعندما قامت الحرب بين قبيلتا الجوابرة والغربية ، والاولى تتبع مملكة عمارة دونقس من ارض الفونج ، إستنجدت قبيلة الغربية بالسلطان العثمانى سليم الاول الذى كان قد احتل مصر انذاك ، فأنفذ حملة عام ١٥٢٠م بقيادة حسن قوصى من قوصوة (كوسوفو الحالية(أحتلت قصر الدر واضطرت الجوابرة الى التقهقر الى اقليم دنقلة ، واستقر القوصوى فى النوبة وحكمها ونسله من بعده حتى الجندل الثالث ، فيما سمى بولاية الكُشاف تحت رعاية الخلافة العثمانية حتى ١٩٠٣؛ ويذكر نعوم شقير أن عمارة دونقس ملك الفونج فى السودان تخوف بعد هذه الحادثة من التوسع العثمانى فى اراضيه ، فنصحه الامام السمرقندى بأن يرسل الى السلطان سليم يعلمه بانهم ينحدرون من قبائل عربية صميمة تدين بالاسلام .

مد الاسلام

رغم أن اهل مقرة كانوا عنيدي المقاومة ويتميزون بالشجاعة والصلابة والشراسة فى القتال ، الا انهم كانوا ميالين بطبيعتهم للاخلاد الى السلم ولا يستنهضوا عداء أحد ، ولذا قاوموا بعناد المد الاسلامى فى البداية عندما تقدم غازيا ، بينما لقى مده السلمى قلوبا مفتوحة مؤسسة على قاعدة من الايمان لعقيدة سماوية هى " المسيحية " فكان من السهل البناء الاسلامى عليها ، وقد استغرق اسلام مقرة وقتا طويلا حوالى ستة قرون بسبب تشدد المملكة أيام قوتها ، مما اثقل هجرة العناصر الاسلامية اليها فى القرون الاولى وأخر معه الامتزاج العرقى والثقافى لقرون الى ان لفظت مصر القبائل المشاغبة الى النوبة فقامت بالمهمة فى نشر الاسلام ؛ وكان الاسلام رغم هذا فى مد هادىء خلال القرون الست الاولى بفضل التجارة الذين استثنتهم البقط من حظر الاقامة وبفضل إستقرار القبائل العربية وما استتبعه ذلك من تزاوج عرقي مع اهل البلاد ، وساهم النوبيون العائدون من مصر بعد انتهاء خدمتهم العسكرية فى جيوشها الدولة فقد كانوا دعاة للاسلام بين اهلهم(٢٤٧) .

ومع وصول مسلمو البيت الملكى النوبى الى سدة الحكم ، اقبل النوبيون على الاسلام بكثافة للتخلص من عبودية النظام الاقطاعى الذى يستعبد الملك بمقتضاه رعيتة ويتصرف فيهم تصرف العبيد ويحرمهم من تملك الارض ، ودخلت المملكة دائرة الاسلام في اوائل القرن الرابع عشر الميلادي واكتمل اسلامها بدخول جمهرة كبيرة فى العقيدة فى القرن ١٥ ، وتحولت " مقرة " الى مملكة إسلامية .

الوضع الثقافى

لم يجتذب الاسلام فى العهود الاولى مكونات حضارته الى النوبة على نحو ما حدث فى الغرب الافريقى ، لاسباب تتعلق بطبيعة العناصر البشرية سواء المقيمة او الوافدة فهما على السواء مجتمعات بدوية رعوية الطابع ؛عاشت على ارض قاحلة جدباء الثقافة ، فالنوبيون أهل البلاد استكانوا لازمة حضارة بعد تردى حضارتهم ، على غرار ما كان عليه الحال فى غرب افريقيا قبل الاسلام ، لتأكل ثقافتهم القديمة حسبما تشيراليه اوراق النسبة النوبية (تأريخ البلاد) ؛ وهو نفس حال القبائل العربية المهاجرة التى كان موروثها الثقافى البدوى اجدب ؛ كما ان تمسك النوبيون بلغتهم وتساهل القبائل العربية فى لغتها وهشاشة الموروث الثقافى للجانبين وغلبة اللغة النوبية وسيادتها فلم يكن هناك مجال لثقافة بل الادهى ان القبائل العربية تنوبت لغة وعرفا من اثر معايشتها الاغلبية النوبية والانصهار فيها ، وانتهى بها الامر الى الذوبان فى محيطها النوبى وإعتناق كل ما هو نوبى طالما ان المشترك هو الاسلام ؛ وهذا دائما مصير الجماعات الرعوية فى الاقاليم المنعزلة ينتهى بها المصير الى الانصهار والتأقلم ، ومن الملاحظ ان عملية ذوبان العناصر العربية فى المحيط النوبى استثنت الاسلام كعقيدة فهو الهوية الوحيدة التى بقيت لتسود كلا الطرفين .

لم يطرأ تغيير فى الوضع الثقافى بعد مجىء الاسلام ، الا فى اوائل القرن ١٤ م على يد الداعية اليمنى " غلام الله بن عائذ " الذى انتقل الى دنقلة وراعه عدم وجود اى مظهر من مظاهر العلم والتعليم فقام بتعمير المساجد ، وبدأ فى نشر العلم مبتدئا باولاده وابناء بعض المسلمين (٢٤٨) .

ويذكر التاريخ بعض العلماء البارزين من النوبيين ، لم يتألق نجمهم على ارض النوبة ولكن على ارض مصر، ويرجع السبب الى ضحالة الوضع الثقافى على نحو ما اشرنا اليه سابقا ، وعلى رأسهم العالم الشهير ابو الغيض ثوبان بن ابراهيم الملقب ذى النون المصرى ، واخرين منهم يزيد بن ابى صيب عالم دين كان والده من سبى النوبة في الحملة الاسلامية الثانية ، وتكاثرت اعداد العلماء النوبيين بعد انتصار الاسلام وغلبته على السودان كله بعد زوال تقسيماته النوبية وتسليم مقدرات الحكم الى سنار راعية العلم والعلماء (١٧٨).

الوضع الاقتصادى

---

[٢٤٧] **) إستخدمت الدولة العباسية والفاطمية والطولونية والاخشيدية النوبيين فى الجيش ، فالمعتصم جند ٤٠ الف نوبى ، واستكثر منهم كافور الاخشيدى والمستنصر الفاطمى بوجه خاص فى الجيش لانتساب والدتيهما الى النوبة .**

[٢٤٨] **) الخطط المقريزى ـ جـ ١ صـ٣٢٦ و صـ صـ٢٠٩.**

ومن الناحية الاقتصادية كانت مقرة أفقر ممالك النوبة ، فهى جدباء قليلة الموارد قليلة السكان تجارتها محدودة ، وهى اسباب تفسر ما جاء فى البقط من تمسك النوبة بحظر هجرة المسلمين المنصوص عليها حتى لا يزاحمونها ضيق المعيشة ، كما تفسر محاولاتها الدءوب للتنصل من اعباء البقط الثقيلة ، ويعكس تحديد البقط سلعا بعينها تقدمها النوبة او تحصل عليها طبيعة اقتصادها الفقير ؛ فما تحصل عليه النوبة هو مواد غذائية وكساء وهى مواد تحتاجها الدول الفقيرة ، وما تقدمه مقابلها من عبيد محدودى العدد لعدم وجود مواد بديلة لديها لهو دليل اخر على قفرها الزراعى وفقرها العام فى كافة الموارد ، وهذا بالذات يجعلنا نلتمس العُذر لعرضها اللا انسانى بجعل العبيد مادة يُقايض بها من ابنائها عبيدا حتى ولو كان لا مندوحة فى ذلك للنظام النوبى الذى يستعبد رعاياه اصلا .

ولم يتكرر ان اخذ المسلمون بمضمون مماثل للبقط فيما يتعلق بالعبيد فى اى اتفاق مع اى طرف اخر فى فتوحهم ، وهو استثناء مصلحة وانسانية فى الصميم رغم ان النظرة السطحية لا تقبل به وسنرى مبرراته فى السطور التالية ؛ فقد قبل المسلمون إستثنائيا عرض النوبة تسليم ٣٦٢ عبدا سنويا الى بيت مال المسلمين لفقرها ولما فيه من جانب انسانى بتخليصهم من استعباد النظام الاقطاعى النوبى الذى يسعبد فيه الملك شعبه وليتبينوا بإرادتهم الحرة فى عالم الايمان بالدين الجديد وما وفره لهم من امكانية التحرر بالمكاتبة والمن عليهم بالاسلام ليكونوا يوما دعاة له فى بلادهم عند العودة وهو ما حدث فعلا ؛ كما انهم كما اتضح من العرض انهم لم يعملوا خدما وانما جندا وهى مهنة لها شرفها وتقديرها.

وبساطة الرقم تخرجه عن حدود الاتجار وعن سوء القصد (اللاإنسانية) ,الدليل على ذلك ان المسلمون قد راعوا الجوانب الانسانية عند انتقاء العبيد فوضعوا شروطا تنظيمية تُحقق لهم التوازن الاجتماعى والنفسى ، فاستبعدوا الاطفال والعجزة والشيوخ اخذا فى الاعتبار خصوصية وضع هذه الفئات ، واشترطوا ان يكون العبيد المنتقين من الذكور والاناث شبابا اصحاء وفى اعمار متقاربة ؛ وهذه الشروط دليل فطنة فصغر السن يضمن القدرة على العطاء ويجعل هناك متسعا من الوقت امام العبد للتشبع بالاسلام والعودة الى بلاده كغرس وفسيلة للدعوة وان لم يعد فقد ضمنوا وجود مجتمع متناغم ومتكامل من الجنسين يخفف عنهم عبء الغربة .

ولا يفوتنا ان نشير الى أن البقط تضمنت نصا غريبا وغير معتاد مشمول بالمجاملة الشخصية لاجبر فيه ، وما كان النوبيين مجبورون عليه ، فالبقط هدنة وليست جزية او خراج كما انها ليست معاهدة اذعان يفرضها غالب على مغلوب بل موادعة ومصالحة يتبادل فيها الطرفان الاخذ والعطاء على قدم المساواة ، ويستلفت النظر انه بعد اتفاق الجانبين على ما تقدمة النوبة الى بيت المال ، نصت البقط على اهداء عددا من العبيد لاشخاص فى الجانب المسلم ، بان يُهدى الى الوالى بمصر ٤٠ رأسا والى حاكم كورة اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرين راسا ، والى مبعوث الوالى الذى يجىء الى اسوان خمسة عبيد ، ولكل شاهد من الشهود العدول على المعاهدة وعددهم اثنا عشر ، عبدا واحدا لكل منهم (٢٤٩).

والمغزى من تقديم النوبة عبيدا على سبيل الهدية ، لدليل على اعتيادهم الامر ولا يلتزمون بالمسيحية ولا يقدرون البشر الانسان ، ولاحرج لدي نظام قائم على استعباد شعبه القيام بذلك ، انما هو نوع من الكرم من جانبها قابله الجانب المسلم بكرم مماثل كهدايا للسفراء ، وان كان بطريقة مختلفة كل باسلوبه وبما يعكس ثقافته وتقاليده .

ورغم تجاوز حكام المسلمين فى كثير من الاحيان عن مراوغة النوبة فى تنفيذ البقط مراعاة لصعوبة هذا الجانب على نحو ما فعله الخليفة العباسى عندما اعفاها من اداء البقط وقصرها على مرة كل ثلاثة اعوام ، الا انه لم يعف الجانب المسلم من التزاماته اليها سنويا لمساعدتها لعلمه بفقرها رغم عدم اسلامها ، و يبدو ان تمسك الدول الاسلامية المتعاقبة بالبقط وهى تعلم عجز النوبة عن ادائها استهدف الضغط عليها لقبول الاسلام لتحريرها من الاتفاق ، والدليل على ذلك ان الاتفاق الجديد الذى تم بين

---

[٢٤٩]) نذكر ثانية ببنود المعاهدة التى تقضى بان يحصل العرب على عدد ٣٦٢ من الرقيق سنويا مقابل تقديم مصر الف اردب من الغلال ويهادى السفراء بثلاثمائة اردب وتقضى بدفع ٤٠ رأسا للوالى بمصر و عشرين راسا الى حاكم كورة اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق و خمسة الى مبعوث الوالى الذى يجىء الى اسوان وعبدا واحدا لكل شاهد من الشهود العدول على المعاهدة وعددهم اثنا عشر ، وقضت ايضا بحرية المرور لا الاقامة لكل فى ارض الاخر " بدخول البلاد مجتازين غير مقيمين (كان هذا بسبب اشتراط القبط على المسلمين فى معاهدتهم عند فتح الاسكندرية " الا تساكنهم النوبة وحمايتهم من اهلها وسواهم من اعدائهم المصدر فتح العرب لمصر د. الفرد بطلر صـ ٢٣٨ و٢٤٩ " كما ضمنت الامن لمواطنى كل طرف فى ارض الاخر، و تضمنت نصا ينظم ايفاد كهان الكنيسة المصرية وحماية المسجد فى دنقلة ؛ والمعاهدة هى هدنة كما يقول خرداذبة ولم تكن معاهدة اذعان وانما مصالحة، كما ليست خراج ولاجزية كما يقول عنها البلاذرى (المسالك والممالك صـ٢ نقلا من الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ـ د حسن احمد محمود صـ٢٨٤.

بيبرس وشكندة ملك النوبة اخذ بنظام الجزية لرفض الاخير الاسلام .

وهناك نقطة يهمنا اضافتها ، فقد قضت البقط بحرية المرور لا الاقامة لكل طرف فى ارض الاخر (النص بـ " دخول البلاد مجتازين غير مقيمين ") ؛ وتضمين الاتفاق هذا النص جاء احتراما لاشتراط القبط على المسلمين فى معاهدة فتح الاسكندرية " الا تساكنهم النوبة وحمايتهم من اهلها وسواهم من اعدائهم " ، ولا نعلم لذلك سببا اختصاصهم النوبة بالذات رغم بُعد الشقة (٢٥٠).

ثالثا مملكة علــــــــــــــــــــــــــوة

هجرة القبائل العربية الى علوة

قامت علوة على انقاض مملكة مروى بعد ان خربتها جيوش اكسوم ، واكبر اقاليمها الابواب ، وعاصمتها سوبة تقع جنوب الخرطوم على ضفة النيل الشرقية ، انسابت اليها القبائل العربية على مر القرون عبر " مقرة " ، وتلاحق توافد هذه القبائل بكثافة فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى بفعل ضغوط الفوضى التى عمت النوبة الشمالية بعد اختفاء السلطه المركزية وانتشار القبائل العربية ، وكانت " جهينة " اسبق القبائل وصولا وانتشارا فى ممالك النوبة الثلاث وفى منطقة البجا (٢٥١) ، ومثلها قبيلة فزارة التى فى السودان الاوسط والغربى ، ومن بين الاسباب التى دعت القبائل العربية الى هجرة مملكة مقرة الى علوة هو فقر الاولى وثراء الاخيرة ، فقد كانت ارض علوة متسعة وخصبة ، مطرها غزير ، وفيرة المرعى يُوجد بها الذهب بوفرة ، ويتصف اهلها بقلة التدين ولا تعصب لديهم فى امور الدين وهى امور تثير الشحناء ، مسالمون بالطبيعة لا يضيقون بالغرباء ولا يتضررون من مزاحمتهم ، فهناك متسع من الارض لهم جميعا .

المملكة قبل اسلامها

ينقل المقريزى عن ابن سليم الاسوانى حال المملكة فى القرن ١٤ م فى اوائل عهد الفاطميين ؛ فيصف عاصمتها سوبة ، بأن بها دور حسان واسعة ، وبساتين وكنائس كثيرة الذهب وهو وفير فى البلاد ومتملكها(اى ملكها) يتوج به ، وهو اكثر مالا واعظم جيشا وخيلا مما لدى متملك مقرة ، وبلده اخصب واوسع وبها كثرة من المواشى والمروج الواسعة والعديد من المحاصيل وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ، يسترق ملكها من يشاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون عليه ذلك ، ويسجدون له ولا يعصون له امرا ويرضون بالمكروه الواقع بهم .

ويصف المقريزى اهل علوة بانهم اقل فهما من اهل مقرة وهم يقول اى اهل علوة نصارى على مذهب اليعاقبة ، اساقفتهم قادمون من قبل صاحب الاسكندرية وكتبهم بالرومية ، وبعض اهل البلاد شاب عقيدته الوثنية ، يعترفون بوحدانية الله ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لايعرف الخالق ويعبد ما استحسنه من الجماد والشجر ، ويُرجع المقريزى ما شاب العقيدة المسيحية من وثنيه "الى انقطاع الصلة بين المملكة والكنيسة المصرية لفترات طويلة دون سبب واضح" ، ويشير المقريزى الى الوجود العربى فيقول وللمسلمين رباطا فى العاصمة .

ويؤكد فرنسيسكو الفاريز البرتغالى فى اوائل القرن ١٦ م ما قاله المقريزى عن الخالة الدينية فيقول "بأنهم يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين او اليهود ، ويقال انهم كانوا على النصرانية وفقدوا الدين ولم يتبق لهم عقيدة ويأملون ان يكونوا مسيحيين ، ولما حاولوا فى عام ١٥٢٢م الحصول على قساوسة من الحبشة اعتذر لهم النجاشى قائلا انه يعتمد على البطريق فى بلاد المسلمين لارسال " أبونا " ، فكيف يعطيهم من يتفضل به عليه غيره " ، ويبدوا ان اهمال الكنيسة المصرية لهم ورفض نجاشى الحبشة ارسال "ابونا " قد يكون مرجعه عدم الرضا على جهود ملوك البلاد فى نشر المسيحية او لخلاف معهم لسبب لانعرفه .

ومن الناحية الثقافية والاقتصادية ، لم يختلف الحال فى المملكة عما كان عليه الحال فى مقرة ، فلم يكن بعلوة نهضة ثقافية قبل اسلامها ويؤخذ على اهلها ما ذكره المقريزى على لسان ابن الاسوانى بأنهم اقل فهما من اهل مقرة ، و حالها الاقتصادى

---

[٢٥٠]) فتح العرب لمصر د. الفرد بطلر صـ ٢٣٨ و٢٤٩ "

[٢٥١]) انشأت بطونها في ارض البجا مدينة " أربجى " فى غرب النيل الازرق سنة١٤٧٤ م.

كان صعبا فى اواخر عهدها ، و السياسى كان حالة من الضعف العام لعدم تمكن ملوكها من السيطرة على القبائل العربية التى تكاثرت وازدادت عددا ، فاضطروا الى التقرب إلى زعماء جهينة بالأصهار اليهم للحصول على مساعدتهم فى السيطرة على الاوضاع ضد اغارات الزغاوة الذين جاءوا من بورنو عبر دارفور ليستقروا فى الاقليم ، وفى تلك الاثناء وفد الى الاقليم بعض قبائل البربر وبفضل هذه القبائل مجتمعة إتسع إنتشار الإسلام ونفوذه فى علوة .

ظهور دولة الفونج المسلمة (مملكة عمارة دونقس)

وفي مستهل القرن السادس عشر الميلادي ؛ تعرضت المملكة لإنقسامات كبيرة وانفلت الصراع وانتشرت الفوضى وظهرت دولة اسلامية تحت حكم عمارة دونقس ملك " الفونج " ذوى الاصول البرنوية ، فتمكن وحليفه "عبد الله جماع" شيخ عرب القواسمة من الإستيلاء على "سوبه" عاصمة علوة عام ١٥٠٥م واقاموا على أنقاضها مملكة اسلامية ، وبقيام تلك المملكة إنطوى تاريخ الممالك المسيحية الثلاث فى النوبة كلها .

كان اسلام علوة مختلفا عن اسلام مقرة فبينما استعصت الاخيرة على الاسلام عدة قرون ، كان الامر سهلا ويسيرا بالنسبة الى علوة بسبب دعة شعبها وعدم تعصبه دينيا وعرقيا وقلة كثافتة السكانية وافتقاره الى الثقافة ، وكان تأثير الاسلام عليه اقوى واوضح منذ البداية فمع اعتناقه الاسلام تعرب واكتسب لغته لكثرة العرب الذين تجاوزا اهلها عددا على عكس مقرة التى اسلمت واسبغت لغتها على العرب وامتصتهم .

رابعا ممالك الاسلام فى الســـــــــــــودان

إمبراطورية الفونج

اصل الفونج ومملكة عمارة دونقس (مملكة سنار)

يحتسب الفونج انفسهم من سلالة الامويين الذين فروا الى المنطقة بعد زوال دولتهم فى الشام ، وهم كأهل السودان الشمالى والاوسط ينتسبون الى العرب ، وتأسست نواة المملكة فى الفترة من عام ١٤١٨ إلى ١٤٥٠م على يد " ماى عثمان " ويقال انه من اعضاء الأسرة الحاكمة فى بورنو ، فر مع اتباعه إلى ارض " الشلك " على النيل الابيض .

وفى عام١٥٠٠ م ، تمكن " عمارة دونقس " زعيم الفونج من إخضاع البدو في الشرق وفرض نفوذه على المنطقة ، وقام بالتعاون مع حليفه عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من القضاء على مملكة علوة عام١٥٠٥ م (٢٥٢) ، واقاموا على انقاضها مملكة اسلامية كبيرة فوض عمارة دونقس حكم جزئها الشمالى الى حليفه عبد الله جماع .

و في عام١٥٣٤ م إضطر لأسباب أمنية الى نقل حاضرته من سوبة إلى سنار ، ويصف داود رابينى اليهودى الذى زار المنطقة عام ١٥٢١م عمارة بأنه اسود اللون يحكم السود والبيض فى حاشيته بعض اهل البيت ، يمضى وقته فى التنقل بين ارجاء مملكته للسهر على شئونها فى حراسه كوكبة من ستين فارسا وتُبنى الاستراحات له على الطرق ، وعدد ما يملكه عمارة من ابل وماشية واغنام ، واشار الى وجود الذهب فى ارضه ، وتعرض لحُلى زوجاته والى ضخامة تجارة المملكة تدليلا على ثرائها ، ويذكر انه وصل البلاد فى قافلة من ثلاثة الاف بعير.

وبعد فتح الترك مصر عام ١٥١٧م واصبحوا فى الحد الشمالى لدولة الفونج ؛ ارسل الترك سرية من جند البوسنة بقيادة حسن قوسى عام ١٥٢٠ لنصرة قبيلة الغربية فى بلاد سكوت والمحس ضد قبيلة الجوابرة التابعة للفونج وارغموها على التقهقر الى دنقلة ، وأقلق عمارة تدخل الترك وتمركز القوة البوسنية فى النوبة بالقرب منه واستيلاؤهم على سواكن منفذ السودان للحج (٢٥٣)، فنصحه الامام السمرقندى حسب رواية نعوم شقير بأن يرسل الى السلطان سليم يعلمه بانهم ينحدرون من قبائل عربية صميمة تدين بالاسلام حتى يرد عدوانه .

تفتت السلطة المركزية

---

[٢٥٢]) يسميها السودانيون دولة العنج – دشبيكة صـ ٥٨ .

[٢٥٣]) اقام كوسى امارة عاصمتها الر خاضعة للاتراك على ان يرسل الجزية السنوية اليهم وعُرفت اسرة كوسى بالكشاف الغز .

انفرد القواسمة العرب بالجزء الشمالى المسمى " عبد اللاب " بحكم ذاتى عاصمته "قُرى" على ان يدفعوا الجزية لسلطان الفونج ، وقامت مملكة تقلى (تيجالى(فى جبال النوبة عام١٥٣٠ م على يد أحد الزاهدين الجعليين تعاقب عليها من بعده عشرين ملكا من سلالته ، واستمرت المملكةعلى استقلالها حتى الفتح المصرى ، كما ظهرت عدة مشيخات عربية لعدم امكانية دوام سلطة مركزية قوية قادرة للسيطرة على هذا الفضاء الهائل .

تمرد الشيخ عجيب على الفونج
(عهد عدلان ود آى ١٦١١م)

وفى عهد الملك عدلان ود آى ، تمرد الشيخ عجيب شيخ العبدلاب لما استشعر مكانته بين القبائل العربية التى تميزت بوعى نسبى وتزايد نفوذه على منطقته ، وعمل على النهوض بحكمه وحقق نهضة تعليمية بفضل رعايته للعلم والعلماء وابتعث الوفود الى الازهر وبنى فيه رواقا للسنارية وآخر فى المدينة المنورة .

وفى عام١٦١١م تمكن الفونج من هزيمته ، ومات قتيلا فى المعركة وفرت عائلته الى دنقلة ، ولكن الملك عدلان تصالح معها واقام اكبر ابنائها شيخا على "قرى" لارضاء القبائل العربية ، وبعد انتهاء المعركة وعودة القادة مظفرين ، خلعوا الملك عدلانا لتعسفه و كثرة مظالمه اثناء غيابهم فى ساحة القتال ، وأقاموا بدلا منه ابنه بادى سيد القوم ، وفر الملك المخلوع عدلانا الى الحبشة داعيا امبراطورها الى مساعدته فى استرداد عرشه.

بادى سيد القوم بن عدلان ود آى
(الحرب الحبشية الاولى ١٦١٨-١٦١٩م)

كانت علاقة بادى سيد القوم بالحبشة غير مريحة بعد فرار والده الى الامبراطور، وزاد الامر خشونة غضب الامبراطور لتجاهل بادى سيد القوم احتجاجاته بشأن التعديات التى قام بها عامله نايل ود العجيب على حدود الحبشة ، كذلك بعدم تعاونه فى رد النحاس الذى استولى عليه حاكما حبشيا فر به مع فرسانه الى ارض خاضعة لنفوذ سنار ، وقد مرت الامور بلا حروب .

وفى عهد رباط ابن الامبراطور قامت الحبشة بالاغارة على مناطق حدودية فى قضارف ودبركى والتاكا اغتنمت ورجعت ، ثم عاودت مهاجمة مملكة اروما التابعة للفونج لعدم دفعها الجزية ، وهى مملكة هامة تجاريا يتمركز فيها سوق مركزية لقبائل عطبرة ، كما هاجمت اقليم التاكا .

وفى مملكة اروما انذر قائد القوة الحبشية ملكتها الفارة فاطمة بتسليم نفسها والا بقى فى المملكة الشتاء كله ، فإستسلمت ومثلت امام الامبراطور الذى عاتبها لامتناعها عن دفع الجزية التى درج اسلافها على دفعها لبلاده ، وبعد تبريرها بعدم حضور احد من جانبه للمطالبة بها منذ زمن بعيد ، رأف بحالها لكبر سنها وضعفها وأطلق سراحها بعد قبولها الوفاء بما طلبه .

بادى ابو دقن ١٦٤٥م (غزواته واستقلال الشيقية)

تصفه مخطوطة الشيخ احمد كاتب الشونة الذى عاصر اواخر عهد الفونج ، بأنه متدين من ذوى الكرم والشجاعة غزى النيل الابيض وفتك بالشلك وبجبال تقلى الذى ذهب اليها لتأديب ملكها ، ولكن الملك المطلوب كان له موقف كريم ادى للمصالحة فقد كان يقاتل بالنهار ويرسل المؤن الاقوات ليلا لجيش الفونج الغازى ، الامر الذى اثر فى بادى وقبل الصلح والجزية السنوية ، ورجع بادى بسباياه واسكنهم فى قرى خاصة سميت باسماء جبالهم شرق وغرب النيل الازرق حول سنار ، واستخدمهم فى الجيش ، وفى عهده عام ١٦٩٠ م ، تمردالشيقية بزعامة " عثمان ود حماد واستقلوا عن " العبد اللاب" حكام الجزء الشمالى من مملكة الفونج .

وفيما يلى نستعرض سيرة بعض الملوك الذين جرت فى عهدهم بعض الاحداث الهامة تجنبا للاستطالة :

بادى الاحمر ١٦٩٢م (البعثات الفرنسية)

مرت بسنار ثلاث سفارات فرنسية فى طريقها الى الحبشة ، لبث نفوذها الدينى والتجارى والعسكرى وتحويلها الى الكاثوليكية ، وهى بعثة بونسييه الفترة ١٦٩٨-١٦٩٩م ، وبعثة كرمب عام ١٧٠١م ، وبعثة دى رول عام ١٧٠٥م ، وتمت البعثتين الاولتين فى عهد بادى الاحمر ؛ وكان احد اغراض التحرك الفرنسى اعداد الحبشة لمحاربة سنار والاتراك والاستيلاء على مصوع وسواكن وهما املاك تركية وقامت فرنسا من اجل ذلك ، بإنفاذ مدربيين عسكريين الى الحبشة.

وقاد المخطط القنصل الفرنسى فى القاهرة فأرسل الطبيب" بونسييه " لعلاج ابنة ملك الحبشة عام ١٦٩٨ – ١٦٩٩م ومعه مبشر من الجزويت ، استتبعه بأعداد أخرى من المبشرين وصلوا سنار عام ١٧٠١ م رفقة الرحالة كرمب **Krump** .

وإتبعها دى ميليه القنصل الفرنسى بسفارة دى رول **Du Roule** عام ١٧٠٥م والتى كانت مهمتها الى الحبشة تنفيذ الاستيلاء على مصوع وسواكن ، وفى الوقت نفسه ارسل دى ميليه الى ملك سنار رسالة تهديد ، ولم يُكتب لهذه السفارة ان تصل الى مقصدها بعدما كشفت الكنيسة القبطية فى مصر لملك سنار غرض البعثة المعادى فى محاولة لافشال المخطط التبشيرى لفرنسا لخلع الحبشة من المذهب اليعقوبي التابع للكنيسة المصرية ، فقام ملك سنار بالقبض علي دى رول وانتهى الامر بمقتله (٢٥٤).

وصف السفارات الفرنسية لحال المملكة

يقول بونسييه ان عدد سكان مدينة سنار يبلغ مئة الف نسمة وبها تجار مصريين يشترون عدد كبير من العبيد ، ويستخرج اهل سنار اللؤلؤ من سواكن ويتاجرون مع اليمن والهند ، وتعرض بونسييه لعادة وحشية يتبعها حكام البلد فعند انتقال السلطة يتشكل مجلس خاص يقوم بقتل اخوة الملك الجديد لمنع المنافسة على السلطة حفاظا على الاستقرار .

ويتضح من وصف بونسييه ان ثقافة المملكة محدودة ، ومعرفة كثير من الناس بعقيدتهم الاسلامية هشة لم تتجاوز حدود " الشهادة " وان العادات منذ عهد الوثنية ما زالت قائمة ورغم ذلك يتمسكون بدينهم ويتسمون بالسماحة مع من خالفهم فى العقيدة ، وضرب مثلا بإختلاف عدد من اعضاء بعثته مع اهل البلاد حول امور الدين فى حضور الملك الذى كان يتدخل لوقف احتداد المناقشة دون ان يغضب .

وتحدث كرومب عن مشاهداته فى سنار عام ١٧٠١م ، فيتحدث عن استقلالية المنجل ملك "قرى" التابع للفونج وسلطته فى اعلان الحرب بعد موافقة ملك سنار ، وتحدث عن اتساع مُلكه الذى شمل كل بلاد النوبة من الشمال الى اريحى جنوبا والى مشارق سواكن ، ويشير كرومب الى تصرف المنجل بوضع رسالة ملك الفونج على رأسه قبل قراءتها كرمز للخضوع ، لكن الامر فى رأيه مسألة رمزية لما لمسه من قوة واستقلالية المنجل ، وهو ما يشير الى تفتت السلطة المركزية.

ويصف كرومب سنار بأنها تأتى بعد القاهرة من ناحية الازدحام السكانى ، تتردد عليها القوافل التجارية من القاهرة ودنقلا والنوبة والهند ودارفور وبرنو وفزان وغيرها ، ويقطنها جميع الاجناس وهم امنون مطمئنون وسوقها منظم ومقسم حسب السلع واورد الذكر عما ذكره بونسييه حول قتل اخوة الملك عند وفاته ، واشار الى ما يملكه ملك سنار من البنادق التى لا تتجاوز مئتى بندقية ومدفع واحد .

بادى ابو شلوخ ١٧٢٤م

(الحرب الحبشية الثانية١٧٤٤م)

اغار الامبراطور اياسوس الثانى على حدود مملكة سنار وارسل حملة فى مارس ١٧٤٤م توغلت فى سنار احرقت القرى وقتلت الناس واغتصبت الغنائم من الماشية والابل ، وبعد ثمانية ايام من التخريب واجهت الحملة مقاومة عنيفة على ضفاف الدندر ؛ وتمكن جزء كبير منها من مواصلة السير على ضفة النيل الازرق حتى قبالة سنار .

تملك اهلها الرعب وكاد الملك ان يُخلى المدينة لولا نصيحة احد افراد عائلة دارفور الملكية الذى كان لاجئا لديه يُدعى خميس فقد نصحه بعبور النهر وقتال الاحباش على الضفة المقابلة ، ونجحت الخطة وتمكن الجيش من حصر الاحباش داخل مثلث النيل الازرق والدندر ودحروه ؛ ولما بلغ الامر قوات الحبشة الاخرى قبل وصولها ورأى الامبراطور الا امل فى انقاذ القوة

---

[٢٥٤]) السودان عبر القرون- د مكى شبيكة.. دار الجيل بيروت١٩٩١.

المحاصرة تراجع ، وتذكر مخطوطة الشيخ احمد ان الامبراطور كان موجودا فى المعركة ، وان اخبار النصر افرحت السلطان العثمانى واذاعت صيت سنار .

الحملة على كردفان (خلعه وتولى ابنه)

بعد انتصاره على الحبشة ارسل الملك بادى حملة الى كردفان بقيادة ود تومة ومعه زعماء العبدلاب ومحمد ابو لكيك وخميس قادة النصر على الحبشة لكن الحملة اندحرت وقُتل قائدها ود تومة ومعه زعيم العبدلاب فى معركة قحيف عام ١٧٤٧م ؛ وانفرط عقد الجيش الا ان ابو لكيك نجح فى اعادة تنظيمه وهزم به جيش امارات المسبعات (فى كردفان- اقارب سلطان دارفور) وضمها الى سنار بعد ان راقه خيرات المنطقة وامكانياتها الضخمة من الرجال والخيل ، وضم قوات كردفان بفرسانها الى جيشه .

وعندما علم ابو لكيك والزعماء الذين معه بطغيان بادى ونوابه فى غيابهم ونفور الرعية منه لتجرؤه على النهب والقتل وغيرها من مظالم وتغيير القوانين وتبديل العوائد وسوء التصرف بإستعانته بالانواب (بالنوبة) فى الرئاسة بدلا من اهل الاصول ؛ فلما عاد زعماء من الحملة خلعوا الملك بادى واقاموا بدلا منه ابنه ناصر .

فرالملك المخلوع الى الحبشة وقبل الارض بين يدى الامبراطور وإرتضى ان يكون تابعا له ، وطلب المساعدة لاسترداد عرشه فطالبه الامبراطور بالتريث ومنحه مقاطعة رأس الفيل للاقامة فيها ، ولما علم السناريون بخيانته استدرجوه الى داخل السودان بحجة حشد الجيوش لاسترداد العرش واغتاله الشيخ ولد حسن حاكم تيوة وقتله غيلة .

سيطرة الهمج على السلطة

اصبح ملوك سنار العوبة فى ايدي الهمج (٢٥٥) يقيمونهم ويخلعونهم متى شاءوا ، فخلع ابو لكيك الملك ناصر ثم اغتاله ومعه بعض الفونج الذين حاولوا استرداد الحكم ، وولى الحكم من بعده اخوه اسماعيل ؛ وبعد موت ابو لكيك تولى اخوه بادى ود رجب المشيخة ، وقام بعزل الملك اسماعيل الذى تأمر مع الفونج لقتله ، واعقبت هذا فترة من القلاقل السياسية والحروب الاهلية وتردى الوضع الإقتصادى ، واستمر هذا الوضع حتى فتح محمد على السودان عام ١٨٢٠م .

الوضع الثقافى فى مملكة سنار

اضحت سنار برعاية بعض ملوكها مركزاً ثقافياً هاماً فإنتشرت المدارس وإزدهرت تجارة الكتب ونالت ديار ثقافتها شهرة عظيمة فى بربر وكورتى (كعبة الشايقيةالثقافية) ، والدامر(كعبة الجعليين الثقافية) ، و"الفاشر " ، وتشير مخطوطة الشيخ احمد (على سبيل التأريخ)الى النهضة الدينية في البلاد فى عهد عدلان ود أي ، وفى عهد الشيخ عجيب شيخ العبدلاب الذى شجع العلوم الدينية وبنى رواقا للسنارية في المدينة المنورة واخر في الازهر الشريف واكرم العلماء واقطعهم الاراضى .

وفى مجال الدعوة يسجل للملك بادى ابو دقن كثير من الفضل فقد عرف بتدينه واكرامه لاهل العلم والدين ، ومن صور الجهاد العظيمة جهاد الفقيه البدوى " أبو صفية البديرى " ضد الوثنيين في جبال النوبة رداً على هجومهم على كردفان ، ونجح فى نشر الإسلام بينهم حتى تمكن من المنطقة ، وأبو صفية البديرى سبق له المجاهدة مع المجاهد أحمد جُرى المجاهد الأكبر ضد الحبشة .

ولا نغفل ما قامت به المملكة لدفع المخاطر عن الاسلام وارضه من مجهادة الحبشة فى الحربين المشار اليهما ومحاربة مملكة البلو ؛ وتشجيعها الدعاه أمثال الشيخ إسماعيل الوالى في جبال كندكرو .

النظام الادارى والتجارى

يشير بونسييه وكرمب الى وجود نظام ادارة جيد كالذى استحدثه الملك دكين وغيره مما اخذوه عن الاتراك من نظم ،

---

[٢٥٥]) وهم من ذرارى العرب المتناسلين من الانواب (النوبيون) الذين اسكنهم بادى ابو دقن قرى خاصة حول سنار و منهم محمد ابو لكيك ، و قيل انهم فرع من الجعليين العوضية المتصلة بالعباس ابن عبد المطلب ، المرجع د. مكى شبيكة صـ ٨٧ .

وللمملكة علاقات تجارية واسعة مع العالم الإسلامي وصلت اليمن والحجاز والعراق وسورات بالهند رغم بعد المسافة مع الاخيرة التى كانت الرحلة اليها تستغرق عامين .

وكانت للمملكة علاقات وثيقة مع تونس والمغرب بحكم الإرتباط بالمذهب المالكى ومع الأتراك حكام موانى البحر الأحمر الذين كان لهم وكلاء دائمين في " سنار" ، وكان لسنار علاقات متميزة مع مصر في مجال التجارة والثقافة فكان أبناؤها يفدون إلى الازهر لتلقى العلم و كان لهم رواق بالازهر.

ســــلطنة دارفور

أقام الداجو المهاجرون من مصر القديمة مملكة " مروى " بالجبل المعروف باسمها ، وفي الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر انضمت اليهم عناصر مهاجرة من البربر والعرب ، وادى تصاهرهم الى ميلاد شعب " الطنجور " وأول سلاطينهم " أحمد المعقور ".

الفور وسليمان سولون

وظهر لاحقا شعب "الفور" المخلط بهجرات عربية واول سلاطينهم " سليمان سولون " ، وسولون في لغة الفور تعنى العربي ؛ وإدعى سولون نسبه الى بنى العباس عن طريق والدته الجعلية ؛ وإستعان بالعرب الوافدين لإخضاع متمردي جبال " مرة" ، وهذا الرجل يشبه في كثير الفاتحين العظام أمثال منسى موسى وإسكيا محمد في غرب إفريقيا ، وعمارة دنقس في سنار ، ففي عهده اتسعت المملكة حتى " كردفان " ، التى أقام فيها إمارات "المسبعات " وأوقع الهزيمة بجيوش " العبد اللاب " و كاد أن يعبر النيل لمهاجمة " سنار" عاصمة الفونج ، وإمتدت حدوده ما بين بئر الفترون في الصحراء الكبرى حتى بحر الغزال جنوباً ومن النيل فى الشرق حتى واداى في الغرب ز

وفى عهد عبد الرحمن الرشيد الفترة ١٧٧٨ -١٧٩٩ م ، إتخذ من " الفاشر " عاصمة ، واقام علاقات واسعة مع العالم الإسلامي وإعترف بسيادته السلطان العثمانى ومنحه لقب " الرشيد " فإكتمل سلطان المملكة الذى إنتهى فى عهد الادارة الانجليزية للسودان التى قتلت السلطان على دينار على يد هندلسم باشا على نحو ما سيرد فيما بعد .

ومن الناحية الثقافية سارت النهضة على نفس النهج الذي سارت عليه قبلها ممالك الإسلام الأخرى فأصبح للمملكة مراكزها الثقافية وأرسلت البعوث إلى مصر واصبح لها رواقا خاصا فى الازهر (رواق دارفور) ؛ و كان لها إقتصاد مزدهر وتجارة كبيرة مع العالم الاسلامى وكانت مواكبها التجارية محملة بخيرات البلاد لبيعها في أسواق مصر وإرسال حصيلة البيع في " صرة " مع ركب الحجاج المصريين إلى الحجاز(٢٥٦).

الباب الخامس

محمد على وفتح السودان

الفصل الاول

---

[٢٥٦] **) نعوم شقير – جزء ٢ –ص ١٤١**

فتح السودان وتوحيده

تقدم الجيوش بقيادة اسماعيل

لم ينقطع تطلع مصر للسودان ، فعقب مذبحة القلعة فر اليها المماليك وحاولوا فى ظل الفوضى التى سادته الإستيلاء على دنقلة بمساعدة ولاة "الكاشفية" ، ولما فشلوا استقروا فى بعض مدنه ؛ وتطلع محمد على الى فتحه وتجنيد اهله فى الجيش والتنقيب على ذهبه لخدمة توسعه الامبراطورى ، والانطلاق من ارضه الى منابع النيل فى عمق القارة الافريقية التى يمتلك السودان مفاتيح قلبها ويؤمن بابا للتوسع فيها بعيداً عن محاذير التوسع في منطقة المتوسط التي قيد الأوروبيون حركته فيه.

وفي عام ١٨٢٠م إنطلقت جيوش محمد على الى السودان بقيادة ولده اسماعيل وهو فى الخامسة و العشرين من العمر ؛ فقضى على الإمارات والمشيخات وأخضع سلطنة " سنار" عام ١٨٢١م ، ثم تقدم الى غرب السودان فإستولى على كردفان في نفس العام و" فازوغلى " في الجنوب عام ١٨٢٢م ، وتم فتح السودان عام ١٨٢٥م بعد إخضاع شرق البلاد .

اولويات محمد على فى السودان

كان تجنيد السودانيين اهم اهداف محمد على ، وتظهر رسائله الى ولديه اسماعيل وابراهيم حرصه على تحقيق هذا الهدف وضرورة الاهتمام به ؛ فبعد فتح سنار بأربع اشهر بعث بإبراهيم الى السودان لمعاونة أخيه اسماعيل بحنكته ومهارته الحربية ، وطلب منه فى رسالة يقول " ان جلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود ... " ؛ فقرر ابراهيم فى ربيع الاول سنة ١٢٣٧هـ تعديل اتجاه الفتح لتحقيق هدف ابيه فى الحصول على المجندين ، فبدلا من اخضاع القرى و الجبال القريبة من سنار قرر القيام بحملتين يقود احداها الى الدنكا على النيل الابيض وتتجه الاخرى بقيادة اسماعيل الى جبال الصعيد بالسودان ؛ ولكن مرضه حال دون اتمام حملته فعاد الى القاهرة بينما تمكن اسماعيل من الحصول على ٤٧٧ من الصالحين لتجنيد .

وفى رسالة اخرى عاتب محمد على ابنه اسماعيل لتقاعسه عن ارسال المجندين يقول فيها " ان المقصود الاصلى من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا اليكم مرة بعد الاخرى وانما الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لاعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا " ؛ وكرر التأكيد فى رسالة تالية على اهمية الموضوع فقال " ان الغرض من انتدابكم الى تلك الديار واختبار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمات ....هو عبارة عن الحصول على العبيد ... وايصالهم الى ثكنات اصوان غير معرضين للضياع والتلف وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية اعز من هذا الامل .... وان قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر ... بل هو اعز من ذلك واجل كما هو بديهى وظاهر" (٢٥٧).

وحتى يجبر محمد على اسماعيل على الاهتمام بالامر ، إرتهن ارسال المدد الذى يطلبه من الجند من مصر بعدد ما يرسله من المجندين السودانيين الى مصر ، فكان محمد على يرسل له الف جندى كلما وصله ثلاثة الاف منهم ؛ ولتوفير الاعداد المطلوبة لاغراض التجنيد ، امر محمد على بمنع الجلابة من تصدير الرقيق خارج السودان وان تُؤخذ الضرائب رقيقا للجندية لو امكن ، وخاطب سلطان دارفور للمعاونة فى هذا الغرض ، وكان غرض محمد على الحربى من تجنيد هؤلاء الرقيق (حسب قوله فى رسالته لابنه) ، هو مساس الحاجة اليهم لردع هجمات ايران على حدود الدولة العثمانية ولسد احتياجات قواته فى الحجاز ، وكان مطلوبا للتجنيد اربعون الفا .

كان يتم فرز المجندين لاستخلاص من يصلح منهم ويرسلوا على دفعات من عدة الاف الى اسوان ثم تلحق بهم اسرهم ، وكان يتم افهامهم انهم احرار يتقاضون اجرا مقابل تجنيدهم ، ولما علم محمد على بموت البعض منهم فى الطريق امر ببناء ناقورات (مراكب مخصوصة) لترحيلهم لضمان سلامتهم ، وعين لهم الائمة لتعليمهم الدين الاسلامى ، وفى نهاية الامر كف محمد على عن تجنيد السودانية لعدم نجاح التجربة ، نظرا لعدم قدرتهم على التأقلم مع المناخ فى منطقة المتوسط ولجأ الى تجنيد المصريين بدلا منهم .

الادارة بين القسوة والاعتدال

---

[٢٥٧]) د. شبيكة صـ ١١٤-١١٧ .

لم تمض على الفتح سنتان الا وبدأ التمرد والعصيان بسبب ثُقل الضرائب التى فرضها عمال الادارة فى غياب اسماعيل وبدون موافقته لانشغاله فى حملته على جبال الصعيد ، فكانت النتيجة هروب الناس من عبء الضرائب فهجروا مزارعهم الى الجبال والى مناطق الحدود مع الحبشة ؛ ولما علم اسماعيل بفداحة االضرائب اوصى بالرفق بالاهالى وامر بتخفيفها الى ما يطاق ؛ وكان معروفا عنه عدم استباحة اعراض الناس وممتلكاتهم واموالهم ، فقد كان يدفع ثمن ما يحصل عليه ، ومما يؤخذ عليه شعوره بالتسامى وشدته التى استثارت الشايقية.

كانت شدة اسماعيل محل انتقاد والده فى رسالة له محذرا ومعلما ، يعلمه إصول الحكم والقيادة والحرب ، فحذره من الاستبداد ونصحه بالمشورة والا يستبد برأيه فى الحرب ، وطالبه بتوحيد الكلمة وحذره من جسامة مسئولية حربه على المماليك ، وان تغلب المرء على مثل هذه المسئوليات العظيمة لا يتحقق الا بالعدالة وخبرة الرجال المجربيين (٢٥٨) ، وخروجا على نصيحة والده اهان اسماعيل نمر زعيم الجعليين لما عجز عن الوفاء بما فرضه عليه من ماشية وجمال ومال ؛ فكانت هذه الاهانة سببا فى مقتله عندما احرق الجعليون خيمته انتقاما لزعيمهم وهو فى معسكره بشندى عام ١٢٣٩هـ .

اعقب الحادث حملة انتقامية ، تطرف فيها الدفتردار حاكم السودان فتجبر فى إخماد ثورة الجعليين فنشر الرعب والذعر وفرت الخلائق من وجهه على حد وصف د. شبيكة ، وفى حملته الثانية اخمد الثورة بعد هزيمة نمر فى النصوب عام ١٢٣٨ م ، واستمرت الشده مع خلفه عثمان وكان فظا اتسم عهده بالقسوة ، تزامنت قسوته مع قسوة الطبيعة من قحط وجدب وامراض ، ولم يدم عهده لحسن الحظ الا ٨ شهور مات بعدها مريضا بالسل .

وبسبب هذه الشدة كره السودانيون الاتراك وحكمهم (كانت الادارة وقواد محمد على من اصل تركى ، بينما كان جنود جيشه من المرتزقة من غير المصريين) ، وبموته انقضى عهد الشدة بمجئ سلسلة من الحكام المعتدلين أمثال محو بك حالفته الطبيعة فى يمنه خيرا فهطل المطر وفاض النهر وعم الرخاء فإطمأن الناس بحكمه ؛ وخلفه خورشيد فلم يجور فى حملاته الا على العاصين واهتم بتطوير الزراعة والرى والثروة الحيوانية وجلب الخبراء من مصر وارسل الفلاحين السودانيين الى مصر لتعلم اساليب الزراعة الحديثة ، ولمحبة الناس له حزن الاهالى على انتهاء خدمته بعد اثنتى عشر عاما من الحكم العادل ، انساهم فيها ما لحق بهم قبلا من ظلم وجور.

اعقبه احمد باشا ابو ودان الجركسى وكان عادلا حازما فتح بلاد التاكة واخمد مقاومة عربانها ، ولكن الشائعات اطاحت به فاعفاه محمد على من منصبه لافكاره الانفصالية بإلحاق السودان بالسيادة التركية بدلا من السيادة المصرية ، لحرمان محمد على منها الذى فتحها باسم السلطان العثمانى ؛ ومات احمد باشا فى السودان قبل عودته قيل مسموما بدسيسة محمد على ، وبرحيله كانت نهاية عهد الحكمدارية العظام لاتجاه محمد على لاخضاعها لسلطته المباشرة ، فلم يشأ ان يترك السودان لقادة قد تساورهم مثل هذه الاحلام ، فأقام حكما لامركزيا تحت اشرافه المباشر.

محمد على وتطوير السودان

كان اهتمام محمد على بتطوير السودان واضحا ، وكان عهد خورشيد علامة بارزة فى هذا الاتجاه فاقام الطرق الحديثة وارسل السودانيين الى مصر لتعلم الحرف والصناعة وجلب الخبراء المصريين فى الرى والزراعة والثروة الحيوانية ، وحفر الترع وأقام نظاما للرى المستديم وعلم السودانيين صناعة السواقى نقلا من مصر ، وقام الزراعيون المصريون بتطوير الزراعة والثروة الحيوانية .

وفى مجال تعدين الذهب مطمع محمد على الذى قام بنفسه بإفتتاح منجم الذهب فى فازوغلى حرصا على حضور المناسبة ، واقيمت له سريعا مدينة صغيرة ضمت قصرا لسكناه ومساكن ومستشفيات للعمال وثكنات للجند ، ولما لاحظ اثناء الزيارة حاجة السودان للكتبه ، أرسل الى مصر طلبا لاحتياجات الادارة منهم ، ولم يبخل فى تخصيص الاموال اللازمة لذلك الامر فيقول فى خطابه الى مصر " ..... لترقية البلاد واصلاح حال العباد و لا اهمية للمال اذا انفق فى هذا السبيل(٢٥٩) " ، وفى اواخر عهده (محمد على) اختفت الشدة التى سادت بداية العهد التى استلزمتها إحكام سيطرته على البلاد ؛ وتوفى محمد على باشا عام ١٢٦٥ هـ بعد ٢٩

---

[٢٥٨]) د. شبيكة صـ ١٠٠
[٢٥٩]) المرجع السابق صـ ١٣٥

عاما من فتح السودان ، قضى منها الست الاولى فى الفتح والاضطرابات.

ومن محاسن الفتح المصرى اللافتة إقامة حكم مركزى قوى على اتساع ارض السودان لاول مرة بعد ان قضى على الممالك الصغيرة المتناحرة وانهى حروب القبائل التى لا تنتهى ، وانتشر الامن وتأمنت المواصلات وانفتحت البلاد على المدنية الحديثة بتطبيق سياسة عمرانية وزراعية وتعليمية عظيمة، فتولد شعورا بوحدة البلاد.

ادارة عباس الاول

ادار عباس بن طوسون حفيد محمد على السودان فى اواخر ايام جده الذى يعيش حالة من غياب الوعى ، بإعتباره اكبر افراد الاسرة بعد وفاة عمه ابراهيم ولى العهد ، وفى عام ١٨٤٨م تولى الحكم رسميا .

شهد السودان فى عهده نشاط التجار الاوروبيون وافتتاح القنصليات الاجنبية وبدء النشاط التبشيرى ، وكانت تجارة العبيد النشاط الرئيس للتجار الاوروبيين ، الذين اقاموا لها المحطات وانشأوا لها حرسا مسلحا من العبيد ، وتوغلوا فى النيل الابيض الى نهر السوباط وبحر الغزال وغندكرو ، واصبحت لهم مظاهر وسطوة الحكام .

اثارت سطوة الاوروبيين عبد اللطيف باشا حاكم السودان فتشدد معهم ، فشكوه الى الخديوى عباس مع ادعاؤهم اساءته للرهبان الكاثوليك فى الخرطوم ، فإستدعاه تحت ضغطهم الى مصر ، رغم انه كان معروفا عن عباس كراهيته للاجانب ، ومن اعماله اقامة مدرسة بالخرطوم عين بها رفاعة الطهطاوى مديرا للتخلص منه فكان هذا من حُسن الطالع للسودان .

ادارة سعيد المحب للسودانيين

تولى سعيد الحكم عام ١٨٥٤ م ، وكان معجبا بالسودانيين وإتخذهم حرسا خاصا فى رحلاته لمطاردة العربان فى الوجه القبلى ، ورقاهم الى مراتب الضباط وابطل غزوات صيد السود ومنع تجارة الرقيق ، والغى الجمارك بين البلدين ، وتابع احوال السودان وراقب سلوك ولاته بها لضمان حُسن معاملة الاهالى ، فطرد على سرى من حكمدارية السودان بعد تحققه من ارتشائه وفساده .

ومنع الجيش من جباية الضرائب والتسلط على الاهالى وجعل جبايتها من اختصاص الاهالى انفسهم ، وخفف منها وربطها بمقدرة الاهالى حتى يسكُن روعهم ويعمروا اوطانهم ؛ وقرر كسبا لود سكان الجبال الا تزيد الضرائب عليهم على ثلث المحصول وان يفهموا انهم احرارا وليسوا بعبيد ، وكون مجالس للاهالى للمشاركة فى الادارة ، ووضع نظاما للبريد وعين اخيه الامير عبد الحليم باشا حكمدارا عليها لضمان رعاية افضل للسودان ، لكن الامير لم يمكث بها كثيرا لظهور وباء فتاك فغادرها ولم يعد .

ادارة اسماعيل

فى ضوء ضياع هيبة الحكمدارية وانتشار الظلم وفساد مشايخ القرى وانتشار الفوضى ، اضطر اسماعيل الحاكم بالانابة (لمرض عمه سعيد) لاعادة الحكم المركزى ، وبعدما ارتقى العرش استهل سياسته بإستخدام العنصر الوطنى فى ادارة السودان اسوة بمصر ، فعين الشيخ احمد ابو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار حكمهما عشر سنين الى ان وافته المنية وكان نزيها امينا ، قامت سياسته على التوفيق بين القبائل وحفظ الحدود مع الحبشة .

كانت سياسة اسماعيل تقضى " بتعمير واصلاح القطر السودانى وادخاله فى عداد المديريات المصرية الاكثر عمرانا وازدهارا وبذل اقصى الجهد لزيادة عمرانه وتوسيع نطاق تجارته ، ومعاملة سكانه بالعدل والحقانية ، وايصاله لغاية الكمال من جهة الامن والانضباط العام ".

تجنيد السودانيين ومحاربة تجارة الرقيق

استمر تجنيد العنصر السودانى من الرقيق ، وزاد موسى باشا اول حكمدار فى عهد اسماعيل بالسودان جهوده فى هذا الشأن ، فإتفق مع قبائل الشلك والدنكة وفازوغلى على توريد العدد المطلوب نظير ٥٠٠ قرش عن كل رجل ؛ ونبه الخديوى الى افهام الجميع انهم احرارا (لا عبيدا) ، حيث انه لا يجوز قبول الانفار فى الاورط بصفة ارقاء نظير الاموال ، وان ما يقوم به شيوخ القبائل (تزويدهم بالانفار) ما هو الا خدمة حسنة للحكومة يجب مقابلها التنازل لهم عن الاموال المقررة عليهم ، وان يجرى

تفهيمهم بأن هؤلاء الانفار سيكونون احرارا مثل سائر العساكر .

قام حمدى موسى بتنفيذ الاوامر الخديوية فى محاربة تجارة الرقيق ، بتشديد دوريات البوابير النهرية فى النيل واقام فاشودة وعزز حاميتها لهذا الغرض لاحكام الرقابة على النهر ، وتعرض للتجار ففرض الضرائب على الزرائب ووضع التحجيرات (القيود) على توريد الاسلحة لهم ، وطُلب من القناصل عدم حماية التجار الاوروبيين .

وفى ضوء هذا التشديد إضطر التجار لبيع زرائبهم الى الحكومة التى باشرت الشراء لتشجيعهم وغيرهم من التجار المحليين على اخلائها ، وبلغ ما دفعته الحكومة فى زمن جعفر باشا لشراء هذه الزرائب ، ما يربوا على المائة الف جنيه وهو مبلغ ضخم فى ذلك الزمن .

ولما لم تقض هذه الاجراءات على تجارة الرقيق ، اصدر اسماعيل امرا بضم اراض التجار الى الحكومة إحكاما للرقابة على تجارة الرقيق وتمكن اسماعيل من الحصول على تنازل السلطان التركى عن مصوع وسواكن بصفة دائمة بحجة احكام الرقابة على هذه التجارة لاتصالهما بالسودان.

ثورة الجند السود فى كسلا

لم تشهد السودان فى تلك الفترة ثورات الا التى قام بها الجند السود فى كسلا ، لسوء اوضاعهم وسوء معاملة قادتهم واستخدامهم لشهور طويله فى اعمال الجباية ، وتم القضاء علي هذا التمرد بفضل النفوذ الدينى للسيد حسن الميرغنى ، وعلى اثر ذلك أمر الخديوى بالغاء الفرق السودانية وإستبقاء اورطة واحدة منها يُسرح منها العجزة ويُرسل الباقين الى مصر على الا تضم الاورطة المستبقاة احدا من قبيلة الدنكا او الذين كانوا فى المدفعية لتمردهم ، على ان تجرد الفرقة من المدفعية ويشدد عليها الانضباط العسكرى.

شهد السودان فى عهده نهضة عمرانية ، فقامت الحكومة بتشجيع السكان على البناء فباعت مواد البناء بتكلفتها الفعلية دون تربح ، وخططت لاقامة الخرطوم على الطرز الحديثة حسب توجيهات الخديوى " بإن تكون شوارعها واسعة منظمة وان تقام المبانى وفقا لقواعد الصحة وفن الهندسة وتُحفر مصارف السيول لمنع تراكم الامطار وان تُقام القشلاقات بعيدا عن البلد ويجب اشادة المستشفى فى مكان طلق الهواء له حديقة " .

اتبعت الاداره المصرية سياسة زراعية كبيرة للنهوض بهذا القطاع فواصلت حفر الترع وادخلت زراعة القطن ، ومن الناحية الثقافية ارسلت البعوث الى مصر لدراسة الصناعات الميكانيكية والطب والصيدلة ، وفى السودان اقامت خمسة مدارس فى عواصم المدريات تضم كل منها تسعمائة تلميذ ، وقدمت المنح للمدارس الدينية وطلابها واساتذتها ، واهتمت بتجديد المساجد ، وفى مجال الخدمات والاتصالات مدت خطوط البرق والسكك الحديد ، ولما راى الخديوى صعوبة السيطرة على السودان من الناحية الادارية لاتساعه الكبير ، امر بتقسيمه اداريا الى عدد اكبر من الوحدات حتى يتسنى حكمه بفعالية .

الفصل الثانى

محاربة تجارة الرقيق والفتوح المصرية

فى المنطقة الاستوائية واعالى النيل

عرف السودان تجارة الرقيق قبل محمد على بزمن بعيد ، فقد كانت عصبا إقتصادياً مستشريا في منطقة النيل الأبيض مصدر هذه التجارة بوجه خاص وكانت منطقة منعدمة التحضر ، فموروثها الثقافى وثنى ونُظم حكمها استبدادية تتعدد قبائلها وحروبها واشتغل زعماء القبائل فيها بالرق وهو ما اتاح الفرصة لاستشراء هذه التجارة .

وفى المرحلة الاولى من الفتح المصرى ، شارك محمد على بطريق غير مباشر فى هذه التجارة للحصول على المجندين على النحو السابق التعرض له فليس الامر عبودية واستعباد بقدر ما هو استئجارا لخدماتهم بمقابل مادى فهم فى الحقيقة " اجراء " لمدة معينة لاداء وظيفة معينة هى الخدمة العسكرية ، وهى مهنة يشرف من يلتحق بها وتُعلى من قدره بما فيها من فروسية وفضائل ، وبعد انتهاء التجنيد يعود هؤلاء المجندون الى اوطانهم ، دون ان يفقد المجند كرامته او حريته وكان يتم التأكيد علي ذلك له ولقبيلته ولم يكن يُحرم من اسرته التى كانت تلحقه الى مصر ، وكانت قبيلته تحصل على مقابل مادى لكل فرد تقدمه .

وفى مرحلة لاحقة توقف محمد على عن ذلك ، واتخذ بادرة طيبة للحد من نظام الرق بخطوة تدريجية ، فأمر خورشيد حكمدار السودان (ولايته من يناير ١٨٢٦ الى ابريل ١٨٣٨) ، بالغاء استخدام الرقيق كعملة لدفع رواتب الجند والضباط بعدما نما الى علمه ذلك من القنصل البريطانى ، وكانت كلماته بليغة اذ قال فى رسالته الى الحكمدار ان كانت الحجة فى ذلك انه يعود على الميرى بفائدة فانه مستعد لقبول الضرر والخسارة فى هذا السبيل .

استمرت سياسة محمد على فى محاربة هذه التجارة ، ولما ماطل التجار واستمروا فى تجارتهم دون خوف معتمدين على قوتهم الاقتصادية والعسكرية ونفوذهم بمناطقهم ، فالزبير زعيم التجار كان ملكا غير متوج فى بحر الغزال ومثله سليم قبطان ملكا فى النيل الابيض ، فإقترح احمد باشا المنكلى المشرف على حكمدارية السودان (ولايته من اكتوبر ١٨٤٣ الى ديسمبر ١٨٤٥) احتكار الحكومة لهذه التجارة لاضعاف التجار، ولكن محمد على رفض منعا لاحتجاج الاوروبيين .

فى عهد عباس الاول (١٨٤٨ الى ١٨٥٤) تولى القناصل منذ قيام قنصلياتهم حماية مواطنيهم من تجار البشر فى مواجهة السلطات المصرية فى السودان ، فتوغل تجار النخاسة الاوروبية مستندين لمساندة القناصل صاعدين فى النيل الابيض واقاموا المحطات الى نهر السوباط وبحر الغزال وغندكرو واخذوا يجندون الاهالى لحماية متاجرهم .

وفى عهد سعيد (من ١٨٥٤ الى ١٨٦٣) كان فى خدمة التجار الاوروبيين عدد كبير من الاهالى الفارين من اراضيهم بسبب الضرائب الباهظة خاصة فى دنقلة ، اما الخديوى اسماعيل(١٨٦٣- ١٨٦٧) فتشدد فى محاربة تجارة العبيد ، ولم يتورع عن عزل وإعتقال مدير البحر الابيض فى فازوغلى ومعاقبته بالاشغال الخسيسة ليكون عبرة للاخرين لتهاونه فى التصدى لغارات النهاضة على الدنكة والشلك (مصدر الرقيق) وقيامه بإعادة بيع الرقيق المُصادر من التجار لحسابه ؛ وحكم بإسترداد الرقيق الذى باعه واعادتهم الى أوطنهم بالراحة ، واكد على عدم وقوع ذلك مرة اخرى " ، وفيما يلى مقطتفات من رسالة الخديوى الى حكمدار السودان بتوجيهاته حيال هذا الامر فيقول " ان اهم ما نفكر فيه ونسعى الى تحقيقه هو ادخال السودان بما فيه جهات البحر الابيض فى دائرة المدنية والعمران كما هى الحالة فى اقاليم الحكومة الاخرى ، ويستطرد قائلا " ومع ان السودان لا ايراد له فى الوقت الحاضر فاننا لمجرد ادخاله فى هذا الطريق ورغبة فى اسعاد اهاليه قد انشأنا مديرية البحر الابيض التى كلفتنا انشاؤها الكثير من النفقات ، ونسعى لعمران تلك الارجاء ، وان من اهم واجبات المدير حفظ الامن ... وقطع دابر الاشقياء .... والسعى الدائم لعمران مديريته واسعادها ، وبينما الغت الحكومة بيع الرقيق الذى يُسترد من الاشقياء اذ هو يعيد بيعه لحسابه " .

وقد قام موسى حمدى (ولايته من مايو١٨٦٢ الى مايو ١٨٦٥)بتنفيذ الاوامر الخديوية فى محاربة تجارة الرقيق بتشديد دوريات البوابير النهرية فى النيل وأسس فاشودة وعزز حاميتها لاحكام الرقابة على النهر وفُرض الضرائب على الزرائب ووضع التحجيرات (القيود) على توريد الاسلحة للتجار وطُلب من القناصل عدم حماية التجار .

وفى ظل هذا التقييد إضطر الاوروبيون لبيع زرائبهم الى الحكومة التى باشرت الشراء لتشجيع التجار على اخلائها وبلغ ما دفعته الحكومة لشراء الزرائب فى زمن جعفر باشا الى ما يربوا على المائة الف جنيه ، ولما لم تقض هذه الاجراءات على تجارة الرقيق اصدر اسماعيل امرا بضم اراض التجار الى ملكية حكومة السودان ليحكم سيطرته عليها ، فاثار المشاكل مع التجار ورفض الزبير التخلى عن سلطته ونفوذه بسهولة وتصدى بقوات التجار للشيخ محمد البلالى مندوب اسماعيل المعين على المنطقة ، وانتهت المعركة فى جولتها الثانية لصالح التجار ومقتل المندوب .

ومع ادراك الزبير عدم مقدرته على التصدى للحكومة لمدة طويلة ، وخوفا من العواقب وإتهامه بالثورة سعى للتصالح مبررا تصديه لمندوب الحكومة بالادعاء بأنه هو الذى ابتدره بالقتال ، ولما احس الخديوى بقوته التى يمكن ان تدعم سلطة الحكومة عفى عنه وعينه مديرا لبحر الغزال ، وحاول الزبير ان يُثبت ولاؤه للخديوى ، فلما علم باعتداء قطاع الطرق فى منطقة نفوذه بالقرب من دارفور على رسول الخديوى توجه لتأديب الرزيقات والقبض على زعمائهم اللاجئين لدى دارفور ، ولما رفض سلطانها

تسليمهم بعدما اقروا بالخضوع لسلطانه بعد مرور٣٠ عاما من الانفصال عن مملكته ؛ غزى الزبير دارفور وفتحها وارسل الى الادارة فى طلب التعزيزات تأكيدا لولائه وانتمائه الى الحكومة ، وبعدما علم الخديوى بنصر الزبير رقاه الى رتبة لواء اقرارا بفضله فى فتح دارفور بجهوده الذاتية وماله وعبيده وبدون ان يُكلف الحكومة مالا او رجالا ، واعفاه من تبرير هجومه على دارفور وقرر انه جاء ردا لعدوان اميرها على الحكومة المصرية الذى هو فى الوقت نفسه اعتداء على مشروع منع تجارة الرقيق .

وفى برقية تالية امتدح الخديوى الزبير وطالبه بالتشدد فى القضاء على هذه التجارة ، وفى رسالة اخرى دعاه لاخماد ثورة دارفور لوفرة قواته الخاصة ، فقد كان لديه ٦ الاف مسلح نصفهم من العبيد الخصوصيين مزودين بالاسلحة النارية ، ولما استشعرت الحكومة خطره طالبته بحل قواته من العسكر والعبيد والبحارة وتحويلهم الى الجندية بماهيات ، وان يسلمها نصف رصيده من مخزون سن الفيل المقدر بحوالى ٦٠٠ قنطار ، فلم يمانع ، لكنه غضب من مضايقات الحكمدار المستمرة له فرحل الى القاهرة ليشكوا للخديوى الذى كان يتصرف الحكمدار بناء على تعليماته فاستقر بها .

فتوحات اسماعيل
فى المنطقة الاستوائية
(بيـــكر وغوردون وأعالى النيل)

اولا صموئيل بيـــكر

ارتبطت الفتوحات المصرية بمحاربة تجارة الرقيق او كانت كلاهما سببا للاخر ، ولرغبته فى الفتح وفى نفس الوقت القضاء على تجارة الرقيق ، عين الخديوى اسماعيل صموئيل بيكر الانجليزى عام ١٨٦٩ اثناء زياره الى القاهرة مع ولى العهد الانجليزى ، بعقد لمدة اربع سنوات براتب سنوى قدره عشرة الاف جنيه لفتح منطقة خط الاستواء ، وكان بيكر قد ذاع صيته بعد اكتشافه بحيرة البرت عام ١٨٦٤م(٢٦٠) ، وهذا ما اهلة لدى الخديوى للقيام بمهمة الفتوح فى المناطق الاستوائية ، لخبرته ومعرفته الجيدة بها وحدد امر الخديوى الى بيكر المهمة على النحو التالى فى " ديباجة تشير الى عدم وجود ادارة وانضباط فى المنطقة ، وسيادة الهمجية فيها ، وعدم وجود قوانين ولا شرائع تمنع النخاسة المنتشرة ، وان تأسيس تجارة شرعية خطوة مهمة لنشر المدنية وفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى يساعد على اقامة حكومة ثابته ...الخ " .

وجهزته مصر بما يلزم وانفقت بسخاء على البعثة التى تشكلت من ١٧٠٠ جندى وصلت غندوكرو بعد مشقة فى ابريل عام ١٨٧١ ، وأصدر الخديوى امرا لحكمدار السودان يشير فيه الى مأمورية بيكر بغرض توسيع الاقطار السودانية فى جهات النيل الابيض ... لسبق اكتشافه منابع النيل ولديه معلومات كافية عن تلك الجهات "

لقى بيكر منذ بداية حملته ، مقاومة تجار النخاسة خاصة ابو السعود وكيل شركة العقاد وممثل التجار، الذين رفضوا التعاون مع اى سلطة تهدد نفوذهم وتجارتهم ، ونجح ابو السعود فى اثارة الاهالى وتحريضهم على الامتناع عن بيع الزاد والمؤن للحملة ، وازاء هذا الموقف العدائى إغتصب بيكر متطلبات الجيش من المؤن عنوة من الاهالى حتى لاتنفق الجنود ، واستمر فى المسير حتى رفع العلم المصرى على غندوكرو ثم تقدم جنوبا حتى وصل فاتيكو وفويرا الفرع الذى يحمل مياة بحيرة فكتوريا ، ثم وصل مازندى عاصمة بلاد انيور الواقعةعلى بحيرة البرت ورفع العلم المصرى وسط ترحيب ملكها كباريجا ، واعلن ضمها الى مصر ، ولكن الامر انقلب الى عداء فهاجم الاهالى حصن بيكر وإمتنعوا عن تزويد الحملة بالمؤن ، وتركه كباريجا ولم يتدخل ليوقف اعتداء الاهالى على عساكر الحملة وادعى ان لا شأن له بذلك ، ولما وجد بيكر صعوبة السيطرة على الموقف بقواته القليلة وسط هذا الجو العدائى ، انسحب بعد ان احرق ما لم يستطع حمله من معدات ، وتعرض اثناء الانسحاب لهجمات الاهالى التى لم تنقطع ليلا ونهارا .

وفى طريق عودته القى القبض على ابو السعود بتهمة الخيانة العظمى لعرقلته الحملة والعدوان على جنودها وتحريض اهالى السودان على عدم تزويدها بالمؤن، وعاد الى مصر لانتهاء تعاقده وانتهت خدمته فى مايو عام ١٨٧٣ ، بعد ان تكلفت الحملة

---

(٢٦٠) The New Columbia Encyclopedia ١٩٧٥ , p٥٢ .

ثمانمائة الف جنيه حصيلة تأسيس ثلاث محطات جديدة غندوكرو وفاتيكو وفويرا .

ثانيا غوردون

الولاية الاولى

حاكم مديرية خط الاستواء

استقدم اسماعيل ضابطا انجليزيا اخر ، التقاه وزيره نوبار بالمصادفة بالسفارة الانجليزية فى الاستانة ، ليحل محل بيكر هو غوردن لفتح المناطق الاستوائية وادارة جنوب السودان ، وكان غوردون يعمل فى لجنة دولية للاشراف على الملاحة فى الدانوب وشارك فى حربى القرم و الصين ، والغريب انه رفض ان يتقاضى العشرة الاف جنيه التى كان يتقاضاها بيكر كمرتب سنوى وارتضى الفين فقط وكان لهذه اللفتة اثرها الايجابى على علاقته بإسماعيل فكان قريبا الى قلبه فمنحه سلطات واسعة خلصت له فيها حكم مديرية خط الاستواء مستقلا عن سلطة الحكمدارية العامة فى السودان فى ولايته الاولى ، ثم حكمدارية السودان ذاتها فى ولايته الثانية .

وكان عليه ان يستفيد بالخلاصات المستفادة من حملة بيكر للبناء عليها ، فإطلع على تقرير الحكومة عن المهمة المطلوبة ومضمونه يقول " بأن المديرية التى شرع الاميرالاى غوردون فى مباشرة تنظيمها وحكمها ، لا يُعرف من امرها سوى الشئ القليل ، ولغاية السنوات الاخيرة كانت واقعة بين مخالب قوم من الافاقين ، همهم الحصول على الارباح غير المشروعة ، يتجرون فى العاج والرقيق يديرونها بواسطة المسلحين " ، واشار لاستيلاء الحكومة على مكاتب اولئك التجار بعد ان دفعت تعويضات لهم مؤملة وضع حد لتلك التجارة الممقوته المنافية للانسانية " .

ولما لم تكن هناك وسيلة اخرى لابطال تجارة الرقيق التى ما زالت ترتكز الى قوة السلاح متحدية الشرائع والقوانين ، وعدم قدرة الحكمدارية على التواجد القوى فى المنطقة للسيطرة علي الامور ووضع حد لتلك التجارة ؛ قرر الخديوى فصل هذه الارجاء فى حكم منفصل ، وطالبت المذكرة بتحرير العبيد وتسليمهم لعشيرتهم ومن لم يهتد الى اهله يعمل فى الارض ، وفيما يختص بالعلاقة مع القبائل المقيمة على سواحل البحيرات نبهت الى ضرورة كسب ثقتهم والمحافظة على ممتلكاتهم واستجلاب رضاهم بالهدايا وعليه ان يجتهد فى اقناعهم بالكف عن الحروب التى يضرمونها بغية الحصول على العبيد .

وتوصى المذكرة برعاية الجيش ، فتدعوا الحكمدار الى اطعام الجيش طعاما جيدا وتوفير احتياجاته من الطعام بالزراعة حتى لا تكن هناك حاجة للاستيلاء على مخازن القبائل من الحبوب ، اذ ان مثل هذا العمل يدعوا لسوء الظن بالحكومة ، وهو عمل مناف لارادة الخديوى الذى يود كسب ثقة الاهالى (٢٦١) ، كما تعرض التقرير لجهود الحكومة فى عهد بيكر فى محاربة تجارة الرقيق فى الاقليم .

محاربة تجارة الرقيق وانفصال اوغندة

بدأ غوردون مهمته عام ١٨٧٣م تقريبا ، وبدأ فى محاربة تجارة الرق ونجح فى شهرين فى تحرير ١٢ قافلة محملة بالعبيد والعاج ، واقام العديد من المحطات لضبط التجارة ، ثم توجه للفتح لكن مسيرته فى النيل واجهت صعوبات طبيعية وعدوانية عندما إعترضت القبائل المتوحشة طريق الحملة ، لصعوبة إستحضار المعدات اللازمة لحملته من مصر .

طلب غوردون من الخديوى ارسال حملة بحرية الى ممباسا تتجه منها الى داخل افريقيا ليقابلها هو بمسيرته شرقا ليفتحا معا طريقا سهلا يمتد من البحيرات الى الساحل الشرقى بعيدا عن النيل تجنبا لمشاق الملاحة فيه وتكاليفها ، فإستجاب اسماعيل وبعث حملة بقيادة ماكلوب باشا رست فى خليج ممباسا الامر الذى استثار انجلترا فأوعزوا لسلطان زنجبار بالاحتجاج وضغطوا على اسماعيل لسحب الحملة ، ففعل .

الطريق الى اوغندا

---

[٢٦١]) يظهر هذا حرص الحاكم على محكوميه على عكس الاستعمار الذى يأخذ ولا يعطى .

عند وصول غوردون الى مقره فى غندكرو فى بداية ولايته عام ١٨٧٧م ، وجد فى انتظاره بعثة من متيسا METESA ملك اوغندا ، قادمة للقاء بيكر محملة بهدايا الى الباب العالى وبطلب عالمين من الازهر يهتدى بهما متيسا الى الاسلام (استجاب له الخديوى فورا) ، فإنتهز غوردون المبادرة لتوثيق العلاقات مع الملك الافريقى ، فبعث له بسفارة ردا على سفارته تحمل بعض الهدايا برئاسة الضابط الامريكى لونج الذى يعمل معه .

نجح غوردون فى تأسيس محطات عسكرية عديدة حتى البحيرات ، فأسس حاميات فى انيور واوغندة ونقطة عسكرية فى روباقا عاصمة متيسا بناء على طلب الاخير كدلالة على الحماية ، وتشكلت القوة من ١٦٠جندى بقيادة النور محمد .

واثناء انتظار غوردون المدد من عن طريق ممباسا عبر الطريق الساحلى ، حاول توثيق العلاقات مع متيسا فأرسل اليه سفارة من ثلاثين جنديا بقيادة ارنست دى بلفون الذى بقى فى روباقا فترة ليست بالقصيرة ، وهنا بدأت المتاعب برفض دى بلفون طلب متيسا مساندته ضد خصمه كباريجا قبل الرجوع الى غوردون ، وقفل عائدا الا انه مات وهو فى طريق العودة .

إنقلب متيسا على الحامية المصرية فقطع عنها الامدادات واطلق عليها النار ليلا وحاصرها ؛ وكاد غوردون ان يقوم بعمل عسكرى ضده لما علم بالامر لكنه تراجع وقرر سحب القوة دون سبب مفهوم ، وطلب من الدكتور امين مندوب مصر فى بلاط متيسا التوسط لفك الحصار وتم سحب الحامية بدون الرجوع للخديوى ، الذى غضب وطلب من غوردون ارجاع القوة لكن الامر كان قد انتهى .

ويُرجع البعض انقلاب متيسا على مصر الى اعجابه بالحضارة الاوروبية وقوة ممالكها التى نبهه اليها المستكشف هنرى ستانلى الذى وصل اوغندا عام ١٨٧٥م ، لاستكشاف الاقليم ونجح فى اقناع متيسا بفتح الباب امام التبشير لضمان عدم مهاجمة مصر لمملكته .

اعتقد متيسا بالخطأ (على حد قول الموسوعة) ان التبشير سيدعمه عسكريا ضد اعدائه(٢٦٢) ، وكان ستانلى قد سارع بعدما اقنع متيسا بفتح الباب امام التبشير باعداد رسالة الى انجلترا يهيب بها لإستغلال الفرصة المتاحة لنشر المسيحية فى المنطقة بارسال بعثات تبشيرية لاواسط افريقيا لفتح مجاهلها امام المسيحية .

وسلم ستانلى الرسالة الى ارنست ممثل غوردون لما علم بعودته الى السودان لتوصيلها الى مقصدها ، ولما مات فى طريق عودته ، استخرج غوردون من متعلقاته الرسالة وإرسلها الى انجلترا التى استجابت وارسلت بعثة التبشير البروتستانتية (الانجليزية) عام ١٨٧٧م ، واستتبعتها بعثات كاثوليك الفرنسيسكان عام ١٨٧٩م (٢٦٣) .

الولاية الثانية

حكمدارا للسودان

الفترة من فبراير ١٨٧٧ الى اخر ١٨٧٩ م)

بعد انسحابه من اوغندا ، عاد غوردون الى القاهرة عازما على الرحيل نهائيا الى انجلترا لغضب الخديوى منه ، واثناء وجوده فى لندن تنازعته الرغبة فى العمل مبعوثا فى بلغاريا للخارجية البريطانية ولكن الظروف حالت دون تحقيق رغبته ، فإتجه الى تنفيذ المشروع الذى اقترحه على الخديوى بفتح الطريق الذى يربط ممبسة بساحل شرق افريقيا بالبحيرات بالتعاون مع شركة شرق افريقيا الانجليزية .

وفى طور اخر فكر فى العمل لدى ملك البلجيك فى الكونغوا ، وإنقلبت خططه لما وصلته رسالة من الخديوى يذكره فيها بوعوده له قبل السفر بالعودة ؛ فإستجاب لمعزة الخديوى عنده وعاد الى القاهرة فى فبراير عام ١٨٧٧ ؛؛ وفى مقابلته للخديوى إشترط قيامة بمسئولية حكم السودان كله ، فأجابه الى طلبه وعينه حكمدارا عاما على السودان بسلطات لم تكن لاحد قبله ، وحدد له الخديوى اسماعيل مهامه فى الغاء الرق وتحسين الموصلات داخل هذا الاقليم المتسع لضمان السيطرة عليه وحل مسألة الحدود مع الحبشة .

وفى طريقه الى السودان واثناء وجوده بمصوع بلغه هجوم الزغاوة وميدوب على حاميات الحكومة ونجاح الثوار بقيادة

---

(٢٦٢) The New Columbia Encyclopedia ١٩٧٥ , p. ٢٨١٦. .

(٢٦٣) The New Columbia Encyclopedia ١٩٧٥ , p. ٢٨١٦. .

هارون احد امراء دارفور فى عزل الحاميات المصرية بعضها عن بعض ، وبلغه ان الحامية مكونة من اتراك ومولدين وشايقية ومغاربة وعشرين مدفعا غير قادرة على مواجهة الموقف ؛ ووصلته رسالة من الخديوى يطلب اليه الاستعانة بجماعة الزبير فى شكا وبحر الغزال وقبائل حمر وكبابيش فى كردفان لاخماد التمرد ؛ ففعل متضررا استجابة لامر الخديوى لاقتناعه بان الامر ما كان فى حاجة للاستعانة بمدد من هؤلاء بقدر ما كان فى حاجة الى قيادة رشيدة.

مشروع غوردون لالغاء الرق
ومواجهة ثورة دارفور

تلقى وهو ما زال فى مصوع برقيه من الخديوى يذكره بما ابلغه به اثناء المقابلة عن نية الشركة الانجليزية فتح الطريق ما بين زنزبار ومنطقة البحيرات ، وطالبه بالمحافظة على ما تم فتحه فى خط الاستواء والتوسع فيه ، وامره بتعيين حاكم للمنطقة يتولى تلك المسئولية ففعل ؛ وعندما وصل غوردون الخرطوم فى مايو ١٨٧٧ ، بعد مسيرة شهرين من مصوع ، وضع مشروع الغاء الرق بناء على تعليمات اسماعيل يقضى بالغائه تدريجيا مع إعتراف الحكومة بوضع الملكية الحالية للرقيق بشرط قيام الملاك بتسجيل العبد باوصافة لدى الحكومة ويُحرر العبد بعد ١٢ سنة ، ويُعتق فى حالة الاساءة اليه قبل ذلك المدى ، وهو ما تضمنته الاتفاقية الموقعة بين مصر وانجلترا لالغاء الرق عام ١٨٧٧.

اختلف غوردون مع خالد باشا الحكمدار بالانابة منذ وصوله كما اختلف مع عثمان رفقى وكيل خالد باشا لفساده وغضب الاهالى عليه ونقلهما الى القاهرة (٢٦٤) ، وعالج بعض الشكاوى واجرى بعض الاصلاحات ، ثم توجه بنفسه لاخماد ثورة دارفور لتباطؤ سليمان الزبير فى نجدة حاميتها ، الامر الذى اوغر صدره على سليمان الذى رأه فتى صغير طائش غير موال للحكومة وطلب اعتقاله واحضاره فإعترض الخديوى حتى لا تتفاقم الامور .

تراجع غوردون حتى لا يُغضب الخديوى ورأى ان يعمل على إضعافه ورفع شأن خصومه ، ورأى ان الاصلاح يقتضى تخفيف الضرائب لانها سبب ثورة دارفور ، واقترح تجنيد السودانيين بدلا من المصريين والعناصر الاخرى فهم اهل البلاد وعلى معرفة بها واكثر تواؤمة مع البيئة والمناخ.

وقف الفتـــــــــــــــــــــوح

بعد استقرار غوردون فى الخرطوم بقليل ، استدعاه الخديوى الى القاهرة لرئاسة لجنة الايرادات لمعالجة الديون الخارجية لاقتناع الخديوى بقدرته على اقناع الجانب الاوروبى بوجهات نظر مصر ومنها تعزيز ميزانية الانفاق على السودان ، لكنه تنحى عنها لتعقد الامور وعاد الى الخرطوم واتخذ الاتى لتعزيز ميزانيته:

- حاول الخروج من مأزق الديون الخارجية لمصر بفصل ميزانيتها عن ميزانية مصر حتى لا تتحمل عبئ الدين ، ونجح فى ذلك .

- تخفيف الاعباء المالية لعدم توفر فائض لدى مصر للانفاق على السودان وقرر فصل الصومال اداريا عن الحكمدارية باعتباره عبئا ماليا .

- واوقف الفتوح داخل القارة فجعل اخر محطة للحكومة المصرية نقطة " مرولى " التى تبعد عن منطقة البحيرات ١٠٠ ميل ، ونهى الدكتور امين المصرى المقيم فى بلاط متيسا عن الاستمرار فى اتصالاته مع كل من متيسا ملك اوغندا وكباريجا ملك انيور ، لبسط السيادة المصرية على المنطقة .

- واوقف مد السكك الحديدية لاكثرا من الخمسين ميلا التى وصلتها جنوب وادى حلفا ، واتجهت نيته الى ان يعطى دارفور الى احد ابناء سلاطينها حتى يتخلص من مصاريفها ، وكلها اجراءات قلصت من النفوذ المصرى او تؤدى اليه فى النهاية .

وانشغل تلك الفترة بمحاربة تجارة الرقيق وتعقب سليمان بن الزبير

تمادى غوردون فى اذلال سليمان ، وانتهى العناد بينهما الى عصيان سليمان فتحامل غوردون عليه وعلى الزبير والده ،

---

[٢٦٤]) اصبح عثمان رفقى وزيرا للحربية فيما بعد وقامت فى عهده الثورة العرابية

وإتهمه وهو فى القاهرة بتحريض ابنه على الثورة ، ولما فوضه الخديوى للتصرف فى امر سليمان ، صادر املاك والده وقبض على زوجاته وابنائه وحاكمه غيابيا فى الخرطوم وقضى باعدامه هو وابنه اسماعيل .

رفض مجلس الاحكام فى مصر التصديق عل قرارات المحاكمة لرفض الخديوى ان يؤخذ الاب بجناية الابن ، والغى الاجراءات الصادرة فى حق الزبير امرا بإعادة ما صُودر من ممتلكاته، فأرسل غوردون قوة بقيادة صديقه جيسى لمطاردة سليمان قبل انضمامه الى هارون الثائر فى جبال المنطقة ، فتمكن منه واغتاله ومن معه بعد ان استسلموا .

استبدال المصريين والعرب
فى الادارة بالاوربيين

عين غوردون السودانيين فى الادارة فى بداية عهده كنوع من الإصلاح ، لكنه انصرف عن ذلك بدعوى انهم وبالذات العرب يعرقلون جهوده فى مكافحة تجارة الرقيق ، واصر على التخلص من السودانيين والمصريين من الادارة واستبدالهم بالاوربيين وهدد بالاستقاله اذا لم يُجاب طلبه فوافق الخديوى .

وبعد الموافقة عين غوردون الاوربيين فى الاصقاع النائية بالجنوب ، واكثر منهم فى المناصب العليا فى الحكمدارية فعين من الاوروبيين وكيل الحكمدارية (جتلر) ، وقام بإخلاء الجنوب من التجار المسلمين عربا وسودانيين وكان ذلك التصرف الغريب بداية المخطط التأمرى لعزل الجنوب تمهيدا لضمه الى الكونغو خدمة لملك بلجيكا الذى يأمل فى العمل معه ، وفى نهاية ولايته هذه كانت بوادر الثورة المهدية قد بدأت .

تولى توفيق واستقالة غوردون

كان غوردون يُقدر اسماعيل وعلى علاقة قوية به وكان يُعبر عن قوة تلك العلاقة بإعلانه تكرارا ودائما نيته إعتزال الخدمة برحيل اسماعيل ، وفعلا بعد وفاة اسماعيل ومجئ ابنه توفيق الى السلطة وتولى مجلس النظار الامور وتشدده مع كبار الموظفين بما فيهم غوردون سافر الاخير الى القاهرة واستقال ، وقبلها المجلس على ان يقوم بسفارة الى امبراطور الحبشة قضى فيها ثلاثة اشهر كاد ان يموت فيها .

تقويم
الدور المصرى في السودان
مد الاسلام

إهتم محمد على بنشر الإسلام وشجع الطرق الصوفية وخصص المساعدات للزوايا ؛ وبجهوده واصلت الدعوة تقدمها بين القبائل الوثنية فى السودان وبين المجندين فى الخدمة العسكرية فى مصر ، واعادت مصر الحياة الى رواقً " السنارية " بالأزهر ، وخصص له أهل الخير الإعانات والأوقاف كبرلنته هانم .

واكب الفتح المصرى فى المناطق الاستوائية تقدم مد الاسلام ، وكاد ان يُسلم متيسا ملك اوغندا لولا تدخل ستانلى وتشدد مبعوثا الازهر الشريف الذين اوفدتهما مصر ورفضهما الصلاة خلفه لاسباب غير معلومة كما تشير الرواية (٢٦٥) ، وفوت تشدد رجلا الدين الفرصة على دعم الوجود الاسلامى المبكر فى المنطقة بإيجابياته السياسية بإستبقاء اوغندا ومنابع النيل فى عباءة مصر واستغلال وجود جالية مسلمة فى اوغندا للبناء عليه فى دعم الاسلام ، وكانت الجالية من القوة لدرجة انها شاركت فى خلع وتبديل الملوك كما حدث فى عام ١٨٨٨ على نحو ما سنفصله لاحقا .

التعليـــــــــــــــــــــم

اعتنى محمد على عناية فائقة بنشر التعليم بمختلف مراحله ولم يبخل فى سبيل ذلك بأى شئ ، فألحق ستة من السودانيين كبداية بمدرسة القصر العينى التجهيزية تم اختيارهم على اساس الصلاحية ، ولندرة الصالحين من السودانيين للدراسة انذاك فرض

---

[٢٦٥]) وان صحت نذكر بما تضمنه فصل فن الدعوة انفا من اهمية مراعاة عقلية المدعو .

على اولئك دراسة مجالات إضافية كالزراعة ، وتمادى بتكليفم بعدها بدراسة الألسن ليتذوقوا المعارف التمدنية لينشروها في بلادهم على حد قول رفاعة الطهطاوى ، وتزايد عدد الطلاب السودانيين بمصر ليصلوا عام ١٨٢٥م إلى مائة في مدرسة المبتديان .

كانت وفاة محمد على نكسة على التعليم فى السودان ، فقد تباطأ النشاط التعليمى فلم يشهد السودان سوى انشاء مدرسة واحدة عام ١٢٦٩ هجرى فى عهد عباس الاول الذي قرر تطبيق التعليم الحديث في السودان وانشأ مدرسة زج فيها برفاعة الطهطاوى لإدارتها للتخلص منه ، وضمت المدرسة ٢٥٠ طالباً لكنها أُغلقت بعد إفتتاحها بعام احد مع وفاة عباس.

وفي عهد إسماعيل انشئت سبع مدارس إلتحق بكل منها مائة طالب ؛ عُين بعض خريجيها بوظائف الحكومة ، والبعض الآخر بمدارس الهندسة والبرق وهندسة البواخر والطب والصيدلة ، وإبتُعث آخرون للدراسة بالمدارس الفنية كما بُدىء فى تعليم السودانيين اللغات الأجنبية ، وفى عهد ممتاز باشا حكمدار السودان فى الفترة سبتمبر ١٨٧١- نوفمبر ١٨٧٣م خطط لإرسال مائة من خريجي مدرسة الخرطوم لإتمام دراسة الميكانيكا والزراعة بمصر .

وفى عهد توفيق استمر التوسع في بناء المدارس رغم الضائقة المالية التي مرت بها مصر بسبب الديون الأجنبية فأقام مدرسة للطب ، ووجه الخديوى " بتعليم سكان الجهات المذكورة ، وبذل الاعانات لهم و للمساجد التى تدرس العلوم الشرعية وأغلقت هذه المدارس أبوابها خلال الثورة المهدية عام ١٨٨١ .

لم يقتصر إهتمام مصر على بعض المناطق دون الاخرى فوصل اهتمامها الى القاصى والدانى ، فاولت اهتماما بنهضة الجنوب كنهضة الشمال ، فاهتمت بالتعليم في مديرية خط الإستواء منذ عام ١٨٦٤ فأقامت به المدارس وبعثت اليه بالمعلمين وإهتمت بنشر اللغة العربية ؛ كما اهتمت بتعليم أبناء العبيد المحررين فأقامت لهم المدارس في "سواكن " و "سنار" ن وقد ادت المدارس النظامية خدمات لامثيل لها للادارة السودانية فقد زودتها بالكُتاب والمحاسبين وعمال التلغراف الامر الذى كان له اثرا بليغا فى النهضة العامة فى ربوع السودان .

العمران والتنمية العامة

راى محمد على ان توطيد ملكه يقتضى العمل على رفاهية السكان ، فعمل على زيادة الانتاج بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات واستحضار الخبراء وتدريب السودانيين فى مصر وتعليمهم ، واهتم بالتعدين ، واقام المدارس، واتخذ بادرة طيبة للحد من نظام الرق.

أما حقبة اسماعيل فقد كانت عمرانية لم يعرف السودان لها مثيلا فى كل العهود التركية السابقة على حد وصف د شبيكة ؛ فقد وجه الولاة الى " تعمير البلاد واصلاحها وادخالها في عداد المديريات المصرية التي هى اكثر عمرانا وازدهارا ، وكذا توسيع نطاق التجارة ومعاملة اهل البلاد بالعدل والحقانية وان تبذل اقصى الجهود في تزييد عمرانيته وايصاله الى غاية الكمال من جهة الامن والانضباط العام " (٢٦٦).

فقد عُنى المصريون فى عهد اسماعيل بتطوير الزراعة فأنشأوا نظاما للرى وحفروا الترع وأدخلوا تطبيقات الزراعة الحديثة ومحاصيل جديدة ووزعوا البذور مجانا وادخلوا نظام السواقى فى الرى ؛ ولاسماعيل الفضل فى اقامة خطوط البرق وادخال السكك الحديد ، وهو الذى ولى اهل البلاد الادارة وأنشأ المصانع والمحالج والسكك الحديدية وشجع التجارة.

وانشأ اسماعيل المدن فأُقيمت مدينة الخرطوم عام ١٨٣٠ على قواعد التخطيط الحديث حيث نبه اسماعيل الى مراعاة "ان تكون الشوارع متسعة منظمة وان تنشأ المبانى بطريقة تتفق وقواعد الصحة وفن الهندسة " كما اشار لمعالجة هجوم السيول وبناء المستشفى فى مكان فسيح طلق الهواء له حديقة وان يقام معسكر الجند بعيدا الخ ، وقد لاحظ بيكر على النهضة فى الخرطوم وبربرة فى العهد المصرى وأطرى عليها.

الوضع السياسي

ساعد الفتح المصرى على بلورة مفهوم الوطن الواحد بعد دمج الكيانات الصغيرة فى كيان كبير شكل اساسا لدولة مركزية

---

[٢٦٦]) د شبيكة صـ ١٦٠ .

كان محمد على يطمح فى ان يجعلها جزء لايتجزأ من امبراطوريته ومفتاحا لتوسعه فى قلب القارة ؛ فعمل بحق ومن بعده اسرته على إنهاض السودان ، والدلالة القوية على اخلاص نية الاسرة نلتمسها فى العرض السابق .

ورغم ما شاب ادارة الاسرة بالاصالة او بالوكالة من سلبيات ، فقد كانت تترصد وتباشر الادارة بالتوجيه والعقاب ، ولم تتسم الادارة بطابع استغلالى يأخذ ولا يعطى ، وانما فى الحقيقة كان يعطى ولا يأخذ ، وهو ما ينفى عن مصر ان فتوحاتها كانت بقصد الاستعمار والاستغلال ، ففقر هذه المناطق وقسوة مناخها وما تكبدته مصر من اعباء مالية وبشرية لفتحها وتطويرها ينفي هذا الطرح ، ولكنه لا ينفى عنها روح التوسع الامبراطورى التى تملكت كبريات دول ذلك العصر وقادت محمد على الكبير الى فتوح وحروب فى كل الاتجاهات لم يبخل فيها بالتضحية بأبنائه (٢٦٧) .

ومن هذا المنطلق كانت علاقة الاسرة بالسودان علاقة خاصة فالاسرة العلوية جعلت تلك البلاد وكأنها ملكية خاصا ؛ تحرص على متابعة اوضاعها بكل تفصيلاتها والعمل على حل مشكلاتها وضمان حُسن معاملة شعبها ، وكثيرا ما تضمنت الاوامر الملكية الى الادارة حسن معاملة السودانيين ، فالخديوى سعيد يوجه الى " اجراء ما فيه المنافع العمومية وعمار البلاد ورفاهية العباد .. ومعاملتهم بالرفق والرحمة .. ويقوم بزيارة الى الاقاليم السودانية للاطلاع على احوال من فيها .." ، ويستهجن فى موضع اخر ما شاهده من ضنك الاهالى ومضايقتهم بكثرة المطاليب (الضرائب) " ؛ ويوجه " بمراعاة ربط الضرائب على قدر الطاقة " .

ومن بعده حدد الخديوى اسماعيل الخطى لتأمين شعبه فى السودان من الشرور وفساد الادارة فيقول لحكمدار السودان بعدما علم بتهاون مدير منطقة النيل الابيض فى مواجهة غارات النهاضة على الدنكة والشلك " ان اهم ما نفكر فيه ونسعى الى تحقيقه هو ادخال السودان بما فيه جهات البحر الابيض فى دائرة المدنية والعمران كما هى الحالة فى اقاليم الحكومة الاخرى ؛ ويستطرد قائلا ؛ ومع ان السودان لا ايراد له فى الوقت الحاضر فاننا لمجرد ادخاله فى هذا الطريق ورغبة فى اسعاد اهاليه قد انشأنا مديرية البحر الابيض التى كلفتنا انشاؤها الكثير من النفقات ، ونسعى لعمران تلك الارجاء .. " .

وجه الخديوى بمعاقبة المدير ليس فقط لاهماله امن المواطنين وانما ايضا لقيامه ببيع الرقيق المحررين لحسابه الشخصى واوصى " ألا يكتفى بعزله وانما يجب ان يُرسل ايضا الى فازوغلى ليعتقل هناك ويستخدم بالاشغال الخسيسة ليكون عبرة للاخرين ، واما الرقيق الذى باعه فيجب استرداده واعادته الى اوطانه بالراحة واسكانه فيها .. " .

وهذا موقف كريم ورحيم للخديوى بمواطنيه السودانيين ، وهذه الوقائع تبرز روح الاخوة التى حكمت تصرفات مصر فى السودان فى معظم الاحيان ، كما تعكس الفرق بين الاستعمار وبين الفتح ، فمصر رغم نضوب مواردها تحملت العبء المالى للفتوح وتكاليف نهضة تلك البلاد المعروفة بفقرها دون مقابل .

ولا ننكر معاناة السودانيين من عبْ الضرائب التى فرضتها ادارة الاسرة للانفاق على الادارة وتطوير البلاد ؛ وأضجرتهم شدة جُباة الضرائب من الشايقية والأكراد والمغاربة ، فلم يطق العرب هذه المعاملة وهجروا مزارعهم وهاموا سائحين في أرض السودان كما عانوا من تعسف الادارة وفسادها ومعظمها من الترك والجركس ، وزاد الامر سوءا اقتحام المعادلة المصرية السودانية عنصر دخيل في إدارة السودان عندما فوض الخديوى إسماعيل الإنجليز فى الادارة ومنح غُوردن باشا سلطات واسعة .

فأساء إطلاق أيديهم في أمور الرعية المسلمة فى السودان إلى مصر ؛ وكان له أسوأ الأثر في بث الفرقة ليس فقط بين البلدين الشقيقين وانما ايضا بين السودانيين أنفسهم بتطبيق الانجليز سياسة فرق تسُد وروافدها من سياسات تمييزية على البعض دون البعض الآخر ، ففى مجال الضرائب وجيعة السودانيين اعفوا الشايقية من الضرائب دون غيرهم مما أغضب الجعلية وميزوا الميرغنية فآثاروا بقية الطوائف، وفرقوا بين الشمال والجنوب وفصلوا بينهما فأوقفوا تطورهما الطبيعى نحو الاندماج واستعدوهما ضد بعض .

ويقوم د. شبيكة المرحلة المصرية بانها قامت على المنافع المتبادلة بالاستفادة من البلاد وفى الوقت نفسه افادة اهلها ، وفى رأيه ان الحكم على العهد بأكمله امرا عسيرا ، فهناك فترات طمأنينة واستقرار تُعلى من شأن عهد ما ، وهناك فترات من الشدة

---

[٢٦٧]) وتلك الروح المتأصلة فى الاسرة هى التى دفعت الخديوى سعيد باشا ليقذف بـ كتيبة مصرية / سودانية من ٤٥٣ جندي وضابط الى المكسيك لمساعدة القوات الفرنسية فى حربها هناك تلبية لنداء نابليون الثالث أمبراطور فرنسا.

والفوضى تُنزل من شأن عهد اخر الى الحضيض ، و فيه من الحكام من كان نظيف اليد وعفيف النفس بينما هناك منهم غير ذلك .

الفصـــــــــــــــــــل الثالـــــــــــــــث
الـثـــــــــورة المهـــــديـة
نـهاية غوردون والادارة المصرية وبدء حكم الانجليز

الثورة المهدية

أسس الحركة المهدية محمد أحمد المعروف بالمهدى وهو من مواليد دنقلة عام ١٨٤٣م (١٢٦٠ هـ) ، وينتمى لأسرة

كنزية من العرب المخلطين مع النوبيين ، عمل ابوه فى صناعة المراكب واتسم بالزهد والتقشف ، وساعده امتداد نسبه الى آل البيت على لم شمل الفصائل المتنافرة حوله المتضررة من الوضع العام ، ومع تصاعد الغضب الشعبى ، بدأ يستثير همم الشعب السودانى ، وإتسم فكره بالإصلاح ذى الطابع الجهادى ، ونادى بابطال الرق وأتسع نطاق دعوته لتتحول الى ثورة عامة مع تطبيق الادارة للقوانين الفرنسية الوضعية التى تخالف الشريعة ، و تزامنت حركته مع الثورة العرابية فى مصر .

ابتدات دعوة المهدية سرا ثم بالمنشورات ولما علمت الحمدارية بذلك ارسلت ابو السعود لتقصى الامر ومعه بعض قرابة المهدى لاقناعة بترك دعوته ، لكن المهمة فشلت واكد له المهدى انه لن يتراجع عنها ولما ذكره ابو السعود بالاية الكريمة اطيعوا اولى الامر رد بأنه ولى الامر فى هذه الاوان ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

فى ضوء هذا الموقف ارسلت الحكمدارية بتاريخ اغسطس ١٨٨١م قوة مسلحة بالبنادق ومزودة بمدفع الى جزيرة آبا للقبض على المهدى الذى استعد للمواجهة واعلن لاول مرة مهديته وفاجأ القوة بمائتى رجل مسلحين بالسيوف والحراب فى مكان موحل لم تتمكن فيه من استخدام اسلحتها ، وقتل منها ١٢٠ رجلا وفر الباقون ، وتحسبا لرد فعل الحكومة ؛ سار المهدى الى جبال تقلى بعد ان اعلن ملكها الولاء له ، وتحصن بمكان يصعب اختراقه يُدعى "بطن امك" بناء على نصيحة الملك ، وهو مكان اعتاد اهل المنطقة فى ثوراتهم التحصن به هروبا من المطاردة ، وحاول مدير كردفان ملاحقته بقوة كبيرة من الأبيض وصلت المنطقة بتاريخ ٨ اكتوبر ، لكنها لم تتمكن منه لتضييق الاهالى وملك تقلى عليها فإنسحبت فى ٢٣ منه بعدما ادركت ان قوتها لا تسمح لها بالمواجهة ، فسقطت فريسة لهجمات الانصار الذين غنموا بعض اسلحتها فى تراجعها .



فى اخر عام ١٨٨١م توجهت قوة بدون موافقة الحكمدارية فى كتمان من فاشودة بقيادة راشد من ٣٥٠ جندى و ٧٠ من الخطرية والف من الشلك على راسهم ملكهم ، للقضاء على المهدى لكن الانصار علموا بها وإستعدوا لها وانتهت المعركة بنصر حاسم للمهدى ، وقُتلت اغلبية القوة بما فيه قائدها وملك الشلك ، ومع صمود المهدى تعززت مكانته وزاد انصاره وقواته وتدفقت عليه الامدادات وأدرك الحكمدار خطورة الموقف وضرورة استدعاء قوات من المحروسة ، فى هذه الاثناء تولى العرابيون السلطة واعتقدوا ان ما يحدث فى السودان لا يستوجب ارسال مدد من القوات لاحتياجهم اليها فى مصر تحسبا لهجوم انجليزى ، ورأوا ان حكمدارا جيدا يستطيع اعادة الامور الى نصابها ، وعينوا لهذه المهمة عبد القادر باشا لكفاءته وكان يشغل منصب وزير السودان فى الحكومة ، وهو منصب مستحدث .

وصل عبد القادر باشا الخرطوم فى مايو ١٨٨٢م ، فوجد جتلر القائم باعمال الحكمدارية قد ابتعث جيشا من ١٣بلوكا من الجند النظامية والفى وخمسمائة من الخطرية الشايقية بقيادة يوسف باشا الشلالى وهو من الكنوز وحاكم بعض الاقاليم ترقى فى مناصبه لذكائه وكان مساعدا لجسى قائد تجريدة الحكومة على الزبير .

سار الشلالى الى المهدى فى عرينه بقدير لكن حملته تعثرت فى الطريق بعد ان ترصدته جواسيس المهدى ، فقبض عليهم وأعدمهم لما خاطبوه بشدة بطريقة وحشية بتقطيع الاعضاء دون ان يقره القاضى المرافق للحملة على ذلك ، وكانت مثل هذه الاعمال تزيد الغضب على الحكومة وتضعف تعاون اهل البلاد معها ، وانتهت الحملة بمعركة اعتبرها د. شبيكة من اشد المعارك بين المهدية والحكومة باندحار الشلالى الا القليل (يمكن تتبع تحركات المهدية على الخريطة التالية).

ادى نصر المهدى على الشلالى الى مزيد من تعزيز مكانة المهدية فإشتعلت ثورات التأييد والدعم فزادت الامور تفاقما مع

الغضب المستمر من اعباء الضرائب ، وتسبب تنكيل الحكومة بـ عامر المكاشفى لانضمام اخيه الشيخ احمد المكاشفى الى المهدية فى قدير ؛ فى ثورة اخيه فى الجزيرة واقتحامه والثوار سنار ومحاصرة قوات الحكومة التى دخلتها اثناء غياب المكاشفى ، وفك حصارها جتلر ـن وثار اخرون مثل الشريف احمد طه ومحمد زين التكرورى فى شرقى النيل الازرق وتمكنوا من هزيمة قوات الحكومة فى عدة معارك ، ولكن قوة بقيادة جتلر ودعم من الشكرية ، تمكنت من قتل الشريف وانتصرت على محمد زين التكرورى فى ابى شوكة ، ولما عاد جتلر الى الخرطوم وجد عبد القادر باشا قد وصل وتولى المسئولية وأرسل قوة طاردت عامر المكاشفى وتمكنت من هزيمة عرب عامر وفر عامر الى المهدى ، كما ثار ود الصحابى فى الجبلين وتغلب على قوة الحكومة ، وهاجم حامية الداعية الاكبر احمد المكاشفى و سار الى سنار ، وهزم فضل الله ود كريف جند الحكومة فى ام سنيطة .... و استمرت المقاومة حتى نهاية عام ١٨٨٢ ولم تخمد ، فإضطر عبد القادر فى يناير ١٨٨٣ لمطاردة الثوار فإنتصر على ود كريف ودحر ود المكاشفى ، ودخل سنار وواصل مسيرته جنوبا ليطارد الحاج احمد عبد الغفار وشتت جمعه وعاد منتصرا .

قوى الثورة فى كردفان ودارفور

بعد انتصار المهدى فى قدير على الشلالى فى مايو ١٨٨٢ ، سقطت حاميات كردفان واحدة تلو الاخرى ما عدا بارة والابيض ، وبعد شهرين تحركت قوات المهدى الى الابيض وطلبت الى الحامية الاستسلام لكنها ردت بقتل الرسولين ولم يتمكن



الانصار منها وخسروا المعركة وقتل منهم عشرة الاف من ضمنهم اخوا المهدى .

ترك المهدى الحامية محاصرة وحاصر معها حامية بارة وقطع الطريق على الامدادت للحاميتين وارسل لاحضار الاسلحة النارية ، وترجع ضخامة خسائر قوات المهدية الى اعتمادها فى القتال على السيف والرمح وعدم استخدامها الاسلحة النارية القليلة

التى غنموها من قوات الحكومة ، لكنهم خلفوها ورائهم لسبب غير معروف، ومع تدهور الاحوال طلب عبد القادر مددا لردع الثورة ، فلم يوافق عرابى على واكتفى بارسال الاسلحة فغضب وطلب اعفاؤه من الحمدارية ، ولكن الخديوى رفض مدللا اياه بانه يرغب فى ان يكون النصر على يديه .

وبعد احتلال الانجليز مصر ارسلوا الكولونيل ستيوارت للتعرف على الاحوال فى السودان وكان معجبا بإدارة عبد القادر للامور وغضب على جتلر لضعف خططه ، وطالب بتعيين ضباط انجليز فى السودان ، فأرسلت انجلترا هكس لرئاسة اركان الجيش فى السودان ، وفى ذلك الوقت الذى استسلمت فيه حاميتا الابيض وبارة للمهدى والغت مصر نظارة السودان التى كان يشغلها عبد القادر استدعته القاهرة رغم توصية ستيوارت بإستمرار وجوده.

احرزت قوات الحكومة بقيادة هكس نصرا فى الجزيرة على احمد المكاشفى واخيه من انصار المهدى ، واعدت الحكمدارية العدة لاسترداد الابيض من يد الانصار ، وكان الاهالى يسبقون حملة الحكومة بهجر القرى وعدم ترك ما يفيد الحملة فلم يجد الجيش زادا ولا ماء ولم يجد من يعاونه ، وانهكته مناوشة عصابات المهدى وعندما جاءت المواجهة انتهت التجريدة التى ضمت عشرة الاف جندى بهزيمة منكرة فى غابة شيكان فى ٤ نوفمبر ١٨٨٣ ، وخلصت بذلك كردفان للمهدى وانقطع المدد عن حاميات دارفور .

غوردون فى السودان

الولاية الثالثة

مع استمرار تدهور الحال ، رأت بريطانيا عدم التدخل ونصحت مصر بالانسحاب من السودان الغربى والاستقرار فى جزء محدد تستطيع الدفاع عنه منفردة ، وفى نوفمبر ١٨٨٣ ، وهى تستعد لترحيل قواتها من مصر وكانت قد قطعت شوطا كبيرا فيه ، اصرت على انسحاب مصر من السودان لكن ابادة حملة هيكس كانت نذيرا بتضخم خطر المهدية ، فأوقفت الترحيل وقررت استبقائها للدفاع عن مصر ضد خطر زحف المهدية .

راى بيرنج المندوب البريطانى فى مصر الثبات فى الخرطوم لتأمين انسحاب القوات المصرية ، وكانت دوائر المتمسكين بالبقاء فى السودان يرون ارسال الزبير من القاهرة على رأس حملة من ستة الاف جندى سودانى لقتال المهدية والاستعانة بالترك او بقوات هندية من الجيش البريطانى لدعمه ، وكانت بريطانيا متردده بالنسبة للاستعانة بالاتراك .

ولما استقر الامر على اخلاء السودان باكمله ، وقع الاختيار فى البداية على غوردون للقيام بالعملية ، لكن شريف باشا رفض ذلك خشية تخلى القبائل التى ما زالت على ولائها للحكومة عن دعمها ، اذا ما عينت مصر مسيحيا فى هذا المنصب الكبير ، وانتهى الامر الى ابتعاث ضابط انجليزى لسحب الحاميات وتأسيس نظاما للحكم يلائم الوضع فى السودان وهو ما لم يعجب شريف لايمانه بالاحتفاظ بالسودان فاستقال فى يناير ١٨٨٤.

ومن الجدير بالذكر انه عند مناقشة عملية الاخلاء أُستُبعد غوردون من قيادة العملية واستقر الامر على عبد القادر وزير الحربية الذى سبق ان خدم فى السودان ، ولكن خلافه مع بيرنج حول مسألة الاعلان من عدمة عن الاخلاء ، اجعلهم يستبعدونه .. فالاول يرغب فى الا يتم ذلك بينما يرى الاخر مصلحة فى ذلك واخيرا استقر الامر على قيام غوردون بالمهمة .

غوردون والاخلاء

وبعد اجتماعات بين الحكومة المصرية وغوردون وبيرنج فى القاهرة ، تم الاتفاق على سحب القوات واقامة حكومة اتحادية من الملوك والسلاطين ، واقترح غوردون الاستعانة بالزبير ، لكن بيرنج رفض لانه يرى ان الزبير يعرقل المهمة ولا يعينه ، و سافر غوردون فى يناير ١٨٨٤ الى السودان ، وفور وصوله بربر بعث بكسوة الى المهدى وابلغه بأنه سيصبح ملكا لكردفان ، واعلن غوردون للاهالى العزم على الاخلاء واعادة السلاطين ، وكان قد اصطحب معه من القاهرة الامير عبد الشكور من سلالة سلاطين دارفور ، ولكنه رده من اسوان لعدم كفايته وكثرة سُكره ، ولكن تنازعت غوردون الافكار بشأن مستقبل السودان وتردد ففكر فى تسليم بحر الغزال الى ملك البلجيك لتوجيه ضربة قاضية لتجارة الرقيق فى منابعها ، وكتب الى الملك بذلك ، وفكر ايضا فى حكم ذاتى للسودان تحت اشراف مصر ثم استبعد الفكرة ، وفكر فى حكومة برئاسة الزبير ، ولكنه فى النهاية استقر على الاخلاء ، فأصدر اوامرة بوقف العمليات الحربية والاعداد للاخلاء ، لكن المهدى لم يمهله وارسل لتطويق الخرطوم .

ثورة السودان الشرقى

هزيمة بيكر و جراهام

فى اغسطس ١٨٨٣ اثناء تجريدة هكس على الابيض اشعل المهدية الثورة فى السودان الشرقى بقيادة ابى دقنة والشيخ الطاهر المجذوب وتمكنوا من قطع الطريق الى البحر الاحمر طريق انسحاب القوات ، واستمر الانصار فى مناوشة قوات الحكومة وتمكنوا من دحر قوة كبيرة من ستة الاف جندى بقيادة فلنتين بيكر الذى فر ومن بقى معه الى الوابورات (السفن النيلية) الراسية فى مرفأ ترنكات ، ونتيجة هذه الهزائم طلبت لندن من غوردون وهو فى طريقه الى السودان لتنفيذ الاخلاء العودة اذا ما كانت الهزائم تؤثر على مهمته فرفض حرصا على سمعة بريطانيا ، كما اعترض على تفكير لندن ارسال حملة من اربعة الاف جندى الى السواحل الشرقية لتأمين ميناء سواكن وفك الحصار عن حامية طوكر وتسهيل انسحاب بقية الحاميات، مبررا رفضه على اساس ان مهمته سلمية ، والتى كان يروج لها على الاساس السلمى.

حملة جراهام وقوات الصحراء بقيادة ولسلى

تقرر فى النهاية ارسال حملة بقيادة الجنرال جراهام لفك الحصار عن حامية طوكر وحماية سواكن ، وكان غوردون يروج لمهمته السلمية متمسكا بالاخلاء على ان تكون هناك حكومة قوية برئاسة الزبير تساعده فى هذا ، وطلب قيام قوة بفتح طريق سواكن لتسهيل وصول الزبير ، وقد ادى تناقض السلوك البريطانى بين ارسال قوات وادعاء غوردون الانسحاب ، لعدم الثقة فى نية بريطانيا الاخلاء ، خاصة وان الرأى العام البريطانى لا يقبل بالزبير وهو اكبر تاجر نخاسة فى افريقيا فى ان يقوم بدور تحت المظلة البريطانية حتى لا تتأثر صدقيتها فى محاربة الرقيق .

اشتبكت الحملة مع الانصار فى المنطقة الشرقية فى عدة معارك ثم عادت الى سواكن ، ولم يكن لديها المقدرة على الفعل او فك حصار الخرطوم ، فى ذاك الوقت هب اهل الجزيرة لدعم الثورة وحاصر الانصار الخرطوم وقطعوا خطوط البرق من حولها فى ١٢ مارس ١٨٨٤ ، و تمكن الانصار من الاستيلاء على بربر، وفى ٢٢ من الشهر ارسل ابو قرجة قائد الحصار الى غوردون برد المهدى على رسالته ، بدعوته للاسلام والاستسلام ومع الرسالة جبة هدية فلم يجبه .

ومع تأزم الموقف وتأخر الرد بخصوص اقتراحه تعيين الزبير ، بدأ غوردون الحديث عن استقالته (فى حالة عدم تعيين الزبير) والتوجه عبر الجنوب الى الكونغوا للخدمة لدى ملك البلجيك ، وان تنسحب حامية الخرطوم الى بربر انقاذا لها ، وفى هذه الاثناء كانت المناقشات تدور فى لندن حول انقاذ غوردون ، وفى ابريل تقرر ارسال حملة الانقاذ بقيادة اللورد ولسلى عن طريق النيل ، وكان غوردون صامدا ونجح فى رفع الحصار عن الخرطوم فى اواخر يوليو ١٨٨٤ ، وتعقبت قواته الانصار الى ام دبان حيث استدرجوها الى ارض مشجرة داخل الاحراش وقضوا عليها ، وبعد هزيمة ام دبان تراجع غوردون عن عزمه ارسال قوة لتحرير بربر ، وانتظر قدوم قوة الانقاذ البريطانية ، وارسل ستيوارت الى مصر عن طريق النيل لينقل اليها الوضع فى الخرطوم ، الا انه قُضى عليه ومن معه بعد ان اصطدمت باخرته بصخرة فى ارض المناصير الذين قضوا على ركابها .

وفى ٢١ سبتمبر بلغ امر حملة الانقاذ الى غوردون فابتهج وقام باستئجار البيوت على النيل لايواء القوات عند وصولها ، لكن الامر لم يسر كما اشتهى فقد واجهت الحملة مشكلات عديدة لعدم تعاون القبائل التى اعتقدت ان الحملة جاءت بدون رضاء الخديوى من ناحية ، وخوفا من الانصار من ناحية اخرى ، فتحاشت مساعدتها فلم تزودها بالجمال وعرقلت تقدمها .

تقدمت الحملة من كورتى فى ١٦ ديسمبر ١٨٨٤ والتقاها الانصار عند النهر ، لكنها نجحت فى اجلائهم من ابى طليح ، وعندما التقت القوة بالوابورات التى سبق ان ارسلها غوردون لاستقبال طلائع الحملة ، ارسلت الحملة قوة انقاذ سريع عن طريق النهر للوصول الى الخرطوم ، لكنها تراجعت عندما اكتشفت سقوط المدينة عند وصولها مشارف الخرطوم فى ٢٤ يناير ١٨٨٥ .

سقوط الخرطوم ومصرع غوردون

قاد عبد الرحمن النجومى حصار الخرطوم ، وارسل الى غوردون يطلب منه التماس الامان من المهدى عند وصوله ، فأبى رغم تدهور الروح المعنوية فى المدينة ، التى زادها تدهورا وصول المهدى وتجرؤ مؤيديه داخل الخرطوم على الناس ، فحاول احمد العوام احد المنفيين من ثوار العرابية حرق مخزن ذخيرة القوات الحكومية فتم اعدامه .

لم يتعجل المهدى فى مهاجمة المدينة لرغبته فى استسلامها دون اراقة دماء ، فكاتب غوردون من جديد فى الاستسلام دون جدوى مجاء رد غوردون بمحاولة كسر الحصار ومناوشة الانصار ، ففى اول عام ١٨٨٥ خرجت قواته مرتين للتصدى للانصار .

وفى هذا الوقت استسلمت حامية ام درمان لنفاذ الاقوات فضمها المهدى الى قواته وكاتب غوردون من جديد للاستسلام واردفه بكتاب اخر دون جدوى ، وفى ٢٠ يناير ، وصلت اخبار موقعة ابى طليح بين الانصار وقوة الصحراء البريطانية التى نجحت رغم المقاومة فى التقدم نحو النهر فقرر المهدى عدم الانتظار ، وهاجم المدينة فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ واستولى عليها وقُتل غوردون برماح الانصار ، وغضب المهدى لمقتله وقيل انه كان يرغب بمبادلته بعرابى ، ولما علم المهدى بوجود قوة الصحراء فى القبة ، ارسل النجومى لمطاردتها ، ولكنها كانت قد تقهقرت الى ابى طليح لسوء حالتها ، وواصلت التراجع تحت غارات الانصار حتى كورتى ، وحدث نفس الشئ للحملة النيلية وفقدت قائدها ولحقت ببقية القوات فى كورتى فى ١٦ مارس .

وفى الوقت الذى حاولت القيادة الانجليزية فيه اعادة ترتيب الاوضاع طلبت الحكومة الجديدة فى لندن من ولسلى فى ٣ ابريل ، صرف النظر عن العمليات الحربية لعزمها الجلاء وفعلا اصدر امره للقوات بذلك فى ١١ مايو ورحل عائدا الى لندن .

تقدم الانصار الى دنقلة فى صيف ١٨٨٥ ، فوجدوا الانجليز قد اخلوها فضموها الى اراضى المهدية ، وفى منطقة الخرطوم اسس المهدى ام درمان واقام فيها و بعث قواته للقضاء على التمردات واستكمال اسقاط الحاميات ، وفكر المهدى فى مواصلة فتوحه نحو مصر فأرسل الى الخديوى توفيق خطابا يطالبه بالتسليم للمهدية ، يقول فيه ها انا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب انشاء الله تعالى ، وكان فى نية المهدى الجهاد فى كل مكان يمكنه الوصول اليه من اجل الدعوة والوحدة الاسلامية ، فبعث الكتب والدعاة للبلاد الاسلامية وعين اسيرا شاميا عاملا من قبله عليها ، و استقبل البعض ثورته بالترحيب فإستنهضه اهل المغرب المقيمين فى مصر ليقيم فيهم اميرا ، ويقول فيه تشرشل الذى حارب ضد الثورة المهدية فى كتابه " حرب النهر " " لو كان المهدى حيا (توفى عام ١٨٨٥) ، لامكنه بقوة عزيمته احتلال العالم الاسلامى " ، وهو ما تنبه اليه ايضا غوردون فذكر فى حديثه الصحفى اواخر عام ١٨٨٣ اثناء مداولاته فى لندن وقبل حضوره لتنفيذ مهمة الاخلاء ان ثورة المهدى تنتشر بسرعة البرق وسوف تتطاير شراراتها الى الجزيرة العربية عبر البحر الاحمر والى صعيد مصر شمالا وليس فى استطاعة النقط البحرية ان تحبس تيار هذه الثورة (٢٦٨) .

استغل المهدى الفترة التالية فى العمل على تنظيم البلاد واستقرار الامر فيها الى ان ادركته المنية فى يونيو ١٨٨٥ قبل ان يستكمل حلمه .

الخليفة عبد الله بن السيد

تولى عبد الله بن السيد وهو من ابناء دارفور الخلافة بعد موت المهدى ، ولم يستقر الامر فقد انفجر الخلاف بين المهدية وطال ابناء المهدى ، وعصف باهل الاقليم انحباس المطر والمجاعة عام ١٣٠٦ هـ فحصد اعداد فاقت ما حصدته الحرب المهدية ، وتفشت الحروب الاهلية و الفتن والثورات فكلما اخمد احداها فى جهة الا ونشبت فى جهة اخرى واعتصم المتمردون بالجبال ؛ فتمرد زعيم الرزيقات فى دارفور وتمرد الشيخ صالح كبير الكبابيش وحاول الاستعانة بالحكومة المصرية ، واعلن الامير يوسف سليل سلاطين دارفور استقلالها ، فقتله الانصار فأمر الفور ابا الخيرات سلطانا عليهم ؛ واعلن ابو جميزة العصيان فى درتامة واجتمعت حوله قبائل غربى دارفور احتجاجا على سد الخليفة طريق الحج امامهم وتفاقم امر ثوار دارفور ولكن الانصار تمكنوا من الانتصار عليهم فى موقعة عظمى فى فبراير ١٨٨٩، وطاردوا اتباع الامير يوسف بعد مقتله الى وداى لفتحها بعد مراوغة سلطانها وايوائه اعداء المهدية.

التقدم نحو مصر

تابع المهدية قوة الصحراء الانجليزية الى مصر لكنها إنهزمت ونجحت القوة الانجليزية فى إنسحابها الى حلفا ، وبعد فترة

---

[٢٦٨]) د. شبيكة صـ ٣٠٩ .

تقدم النجومى فى ٣ مايو ١٨٨٩ بقوة لتعقب الانجليز تعرضت لمصاعب جمة لاخلاء القائد الانجليزى القرى حتى لايجد الانصار من يمدهم بالمؤن ، وعندما احتشدت القوات برئاسة جرانفيل فى اسوان ، طلب الى النجومى الاستسلام لكنه رفض وكانت موقعة توشكى فى ٣ اغسطس ١٨٨٩ ، إنهزم فيه الانصار لسوء حالهم ؛ وكان هذا الهجوم سببا فى تحول مصر ومعها بريطانيا عن سياسة الاخلاء والعودة الى السودان من جديد ، خصوصا ان قطاع من السودانيين طالب مصر تخليصهم من الخليفة ، فقد تقدم وجهاء وتجار مديرية كردفان بتقديم عريضة عام ١٨٨٦ فى هذا الشأن ، ومثلهم الجعليون الذين طلبواالى قائد حامية حلفا انهاء حكم الخليفة .

الحرب مع الحبشة

اثناء القتال مع الانجليز فى الشمال ، كانت حامية القلابات تناوش الاحباش فى الشرق وقتل قائدها فقام الامير الدكيم القائد الجديد باعتقال تجار الحبشة وارسلهم الى ام درمان ، فأرسل الخليفة خطابا الى يوحنس الرابع ملك الحبشة (١٨٧٢ – ١٨٨٩) يدعوه للاسلام (٢٦٩) ، فقام الملك باستعدادات لاجلاء المهدية عن القلابات (٢٧٠) ؛ ولما علم الخليفة بإستعداد الاحباش للقتال ، ارسل ابى عنجة لقيادة الجيش فى المنطقة ومعه خطاب الى يوحنس الرابعينذره ، ولما لم يرد ملك الاحباش تقدم ابى عنجة فى اراض النُقش (النجاشى) بعد مسيرة تسعة ايام واشتبك مع الاحباش فى فجر اليوم العاشر ، ولما اشتد القتال فر الاحباش والقوا بانفسهم فى النهر .

توجه ابو غنجة الى قندرGondar ام مدائنهم يوم السبت ٧ جمادى الاول ، فجاءه كبراء المسلمين فى جبرت طالبين الامان فدخل المدينة واعجبته قصورها ثم رجع الى القلابات ، وبعد اربعة اشهر خرج الى الاحباش فلم يجد من يتصدى له فعاد؛ ولما كان الوجود الايطالي قد ثبت اقدامه فى مصوع ويهدد بالتقدم فى المنطقة (٢٧١) ، طلب يوحنس الرابع ملك الحبشة الصلح من المهدية للتفرغ للخطر الايطالى (٢٧٢) ؛ فأرسل الى القائد حمدان ابى عنجة (ابو عنجة) رسالة صُلح يقول فيها " اذا انا حضرت الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جئتم انتم واهلكتم المساكين فما الفائدة من ذلك ، والواقع ان الافرنج اعداء لنا ولكم فإذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل خربوا دياركم واذا ضربوكم وكسروكم فعلوا بنا ذلك ، فالرأى الصواب ان نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم " .

وتحدثت الرسالة عن تبادل المنافع التجارية بتبادل اعمال التجارة فى ارض كل للاخر " فاذا صار كذلك فهو غاية المنعة لنا ولكم لانكم انتم ونحن فى الاصول السابقة اولاد جد واحد فاذا قاتلنا بعضنا بعضا فماذا نستفيد فالافضل والاصوب لنا ولكم ان نكون ثابتين فى المحبة وجسدا واحدا وشخصا واحدا متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين فى الشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بلاد الافرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا اولئك اعداؤكم واعداؤنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم " (٢٧٣) ، ولما لم يرد الخليفة ، حشد الاحباش جيشا ضخما يفوق قوة الانصار وتوجه الى القلابات وكان ابو عنجة قد توفى(٢٧٤) ، وقامت معركة شديدة جُرح فيها امبراطور الحبشة يوحنس الرابع جرحا مميتا عام ١٨٨٩ وانفرط عقد جيشه وطارد الانصار قوات الحبشة وكان من بين الغنائم تاج الامبراطور .

كتشنر واستعادة السودان

تولى كتشنر قيادة حملة الاسترداد ، لمعرفته الجيدة باللغة العربية وبالسودان منذ ان كان محافظا لسواكن وقيامه بدور ضابط اتصال بين غوردون وحملة الانقاذ ، و بعد معارك عديدة تمكنت الحملة من هزيمة الخليفة فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ ، و بدأ عهد من الادارة المشتركة بين مصر وبريطانيا باتفاقية يناير ١٨٩٩ التى وقعها من الجانبين كتشنر وبطرس غالى ، وكان الحكم

---

[٢٦٩]) هددت القوات المصرية الحبشة فى ايامه .

[٢٧٠] اعتقد ان اصرار الخليفة فى رسالته على اسلام يوحنس يجئ ردا على تنصيره جبرا اهالى ولو.

[٢٧١]احتلت ايطاليا بعد ذلك اريتريا وبعدها ، كسلا فى يوليو ١٨٩٤باتفاق مع بريطانيا.

[٢٧٢]) تمكنت الحبشة من الحاق هزيمة ساحقة بايطاليا فى موقعة عدوة فى مارس ١٨٩٦ .

[٢٧٣]) د شبيكة صـ ٤١٢ .

[٢٧٤]) كان ابو عنجة وعثمان ادم وابو دقن من احسن قادة الانصار .

لمصر اسميا بينما انفردت انجلترا بالامر فعليا ، وكان منليك الثانى ملك الحبشة ، اول المهنئين بسقوط دولة المهدية فأرسل الى كتشنر يشكره على اطلاق سراح اسرى الحبشة من سجن ام درمان ، ويهنئه بزوال الدولة الاسلامية من السودان .

ولرغبة منليك الثانى فى التوسع لاستكمال ما بدأه الامبراطور ثيودور(١٨١٨-١٨٦٨) فقد راوغ الانجليز عند ترسيم حدود الحبشة مع السودان ، فكان مندوبوه يرفعون الاعلام على فازوغلى وجميلة على اعتبارهما ارض حبشية ، ولما استطالت المفاوضات فى هذا الشأن اضطر هارنجتون معتمد بريطانيا فى الحبشة الى التساهل بحكم الامر الواقع والتعاطف الدينى ، فترك للاحباش اقليم بنى شنقول بالرغم من انه جزء من السودان (٢٧٥).

التكالب الاستعمارى

على الاملاك المصرية

فى السودان الكبير

بعد جلاء مصر ، تعرض السودان للنهش فاحتلت انجلترا طوكر حتى لا تمتد اليها يد ايطاليا ، وقد تكبدت فى سبيل ذلك خسائر فادحة فى قتالها قوات المهدية بقيادة عثمان دقنة فى فبراير ١٨٩١ ، ووافقت بريطانيا لحكومة دى رودينى فى ايطاليا بإحتلال كسلا مؤقتا فى يوليو ١٨٩٤ لحمايتها من المهدية بعد اعتراف الحكومة الايطالية بسيادة مصر على اراضيها السابقة فى السودان ، وحاول ملك البلجيك فى زياراته الثلاث لانجلترا فى الفترة من عام ١٨٩٥ وحتى عام ١٨٩٦ الحصول على موافقتها دون جدوى على تنازل الخديوى عن الاراضى السودانية من جنوب الخرطوم نزولا الى بحيرة نيازا عن طريق الايجار ، لكن انجلترا فى مرحلة لاحقة بعد دخولها الخرطوم وافقت على تأجير اللادو لملك البلجيك طوال حياته على ان تعود بعدها للسودان ، وحاولت فرنسا التقدم الى فاشودة للضغط على انجلترا للانسحاب من مصر ، كما تساهلت بريطانيا مع الحبشة وتركت لها بنى شنقول بالرغم من انها جزء من السودان (٢٧٦).

دعوة الخليفة للدول الى المهدية والاسلام

سار الخليفة على درب المهدى فتوجه برسائل الى ملكة انجلترا و امبراطورالحبشة يدعوهما الى الاسلام ، كما ارسل الى العالم الاسلامى لاستنهاض الامة فكاتب السلطان العثمانى " عبد الحميد " في تركيا ، وانذر الخديوى في مصر بنيته فتح مصر وارسل منشورا لشعب مصر ، وراسل قبائل نجد والحجاز وسلطان وداى والسنوسى وسلطان سكوتو في نيجيريا.

ثورات ما بعد المهدى

(ثورات صوفية المهدية ومدعو النبوة المسيحية)

واجه الانجليز بقوة اى محاولة للثورة من جانب الصوفية من فلول المهدية ؛ فعندما ثار الشريف محمد الامين عام ١٩٠٣ واعلن انتسابه لال البيت وجاهر بالدعوة وتحصن فى جبال تقلى بعث اليه الانجليز قوة اقتادته اسيرا واعدم ، كما اعدموا الثائرعبد القادر ود حبوبة عام ١٩٠٨ فى الحلاويين ، وكان مجاهدا فى جيوش المهدية ولم يعجبه تساهل اخوانه مع الانجليز ، فباع ارضه واقام الخلوات وتجمع انصاره ولما كثروا تم القبض واعدم ، وادعى ثلاثة من السودانيين انهم نبى الله عيسى عليه السلام ، عام ١٩٠٤ فى سنجة وإتبعه قليل من الناس ، وفى ١٩٠٧ قبض على رجل من اهل برقو فى القضارف ادعى نفس الامر لم يتبعه احد ، وفى نيالا بدارفور ادعى شخص من مدنى نفس الامر ، وفى عام ١٩٢١ ادعى الفكى السحيمى نفس الامر واحتشد خلفه خمسة الاف شخص وتم سحق ثورته

ثورة جبال النوبة

ثار سكان النوبة اثناء حروب المهدية مرتين ، الاولى فى جبال الثما بمركز الدلنج بقيادة عجبنا وكان الاهالى يعطونه

---

[٢٧٥])د شبيكة ص ٤٧٦.

[٢٧٦])د شبيكة ص ٤٧٦.

الضريبة واخمدتها قوة مشتركة من الانجليز والمصريين والسودانيين بعد محاصرة الجبال عدة اشهر واعتقلت زعيمها فى ١٩١٧ ، والثانية فى جبال ميرى بزعامة الفكى ولم تكن بخطورة الاولى وتم اخمادها .

استقلال ابن دينار بحكم دارفور

وفى دارفور بلد الثورة الدائمة التى كلفت ثوراتها مصر فى العهد المصرى اموال طائلة ، رأى كتشنر ان حكم الخرطوم المباشر غير مجدى معها والمهدية ما زالوا يقاتلون ، ففكر فى تطبيق الحكم غير المباشر ، فبعث ابراهيم على وهو يمت لسلاطين دارفور السابقين وهارب من المهدية ، ليتسلم السلطة الى ان يفرغ الانجليز من استرداد السودان ، ولكنه وجد السلطان على دينار بن السلطان محمد الفضل قد وصل قبله وعاد الى حكمها ، وهو كان حاكما لها فى عهد المهدية واعتقلوه اواخر ايامهم فى ام درمان ، وتمكن من الفرار قبل سقوطها بيوم وعاد لحكم دارفور، ولما علم كتشنر طالب مبعوثه بالانتظار لحين اتمام الفتح ولكنه تنازل عن الامر لابن دينار لقوة مركزه .

وتمكن ابن دينار من تحقيق استقلال فعلى ، فقد مارس السيادة ودفع الجزية وطارد القبائل لاخضاعها وكان دائم الشكوى من ايواء الحكومة للفارين ، وكان السلطان يريد الاستقلال الفعلى ، لكن الفرنسيون لم يمهلوه ، فقبل الحرب العالمية الاولى وصلوا الى حدوده الغربية واحتلوا اراض من اصل اراضيه ، فطلب اليه الانجليز عدم مفاوضة الفرنسيين لان ذلك من شأن الادارة الانجليزية ، وطالبوه بمدهم بالمستندات التى تثبت حقه .

ومع اشتعال الحرب العالمية الاولى ارسل ، ابن دينار الى الخليفة العثمانى " يشكوا الانجليز الكفار لمنعهم اهل دارفور من زيارة الاراضى المقدسة ، وانه تارة يشاحنهم وتاره يمالئهم " ، وردت عليه تركيا تُخبره بانها اعلنت الجهاد بين المسلمين لدعم دولة الخلافة ، فرد ابن دينار بخطاب اخر يقول فيه انه جاهر الان بعداوة الانجليز والفرنسيين غيرة ، فى دين الله ، ولما علم الانجليز بعصيانه ونيته السير الى الشرق ، سيروا اليه قوة هزمته فى برنجية فى ٢٢ مايو ١٩١٦ ، ففر الى جبل مرة الحصين حيث داهموه هناك بعد تخلى مماليكه عنه وقتل فى ٦ نوفمبر من نفس العام واصبحت دارفور بعد ستة عشر عاما من فتح كيتشنر جزء من السودان .

تعقـــــــــــــــــــــــــــــــــيب

تثبت تفاصيل العرض السابق ان تاريخ السودان سفر من اسفار الحروب والثورات التى لا تنقطع وبالذات النوبة ودارفور حيث الاماكن الحصينة التى تشجع على الثورة ، ومن الواضح ان دارفور كانت نزاعة الى الاستقلال ولعل هذا هو جوهر تمردها الاصيل فى الاونة الاخيرة وان تعددت الاسباب .

وتُثبت احداث الثورة المهدية مدى قوة وصلابة الحركات الدينية وقوة الروح الدينية بين السودانيين ، التى بسببها رفض جنود القوة الحكومية السودانية فى اولى معاركهم مع المهدى اطلاق النار عليه لمكانته الدينية وهو ماعرضهم للقتل والهزيمة ؛ وبهذه الروح احرزت المهدية بايمان الرجال انتصاراتها بالسيف والرمح على جيوش اكثر تنظيما وتدريبا وتسليحا ، ويرى البعض أنه لو قُدر لهذه الثورة النجاح لكان ذلك في صالح مد الإسلام في جنوب السودان والحبشة .

كان تخلى مصر كُرها عن ادارة السودان للارادة والادارة الانجليزية خسارة لانتشار الاسلام ، فقد كثف الانجليز الضغط على الجنوب اضعف نقاط الهوية الاسلامية فى جسد السودان ، فإجتهدوا فى إجتثاث اللغة العربية والاسلام فى الاقليم وإستبدلوها بالثقافة الإنجليزية والعقيدة المسيحية لاهدار عناصر التماسك والوحدة بين الجنوب وبين الشمال .

و التوافق الزمنى بين الثورتين المهدية " و " العرابية " كان تعبيرا صادقا عن إلتقاء سخط الشعبين الشقيقين ضد خنوع الخديوات لإرادة الإنجليز ، وإهدارهم لإرادة الأمة في الأرضين ، وكانت الاخوة بين الشعبين بخلفيتها الدينية هى التى جعلت عرابى كازهرى يتردد فى ارسال الجنود الى السودان واستبقاهم بمصر بدعوى مواجهة الانجليز .

وهى نفس الاخوة التى كانت وراء رغبة المهدى فى اسر غوردون لمبادلته بعرابى باشا ، بفك اسره من الانجليز ، وحزن لضياع الفرصة بمقتل غوردون على ايدى الثوار ، وروح الاخوة هى التى حركت الوحدات السودانية للوقوف بجانب الوحدات المصرية التى تمردت فى عام ١٩٢٤ احتجاجا على قيام الانجليز بترحيلها من السودان لانهاء الادارة المصرية .

الباب السادس
مد الاسلام فى شـرق افريقيا
بين الساحـل والهضبة
(اريتريا – الصومال – زنجبار – ساحل كينيا – الحبشة)

الفصل الاول
جذور العرب العرقى والحضارى
فى شـــــــــرق افريقيا

التداخل الجغرافى والعرقى والثقافى
بين شرق افريقيا وعرب الجزيرة

كان شرق افريقيا وجنوب الجزيرة العربية على علاقات وثيقة ممتدة الجذور فى القدم ، وكادتا أن تصبحا من الناحية الفعلية جزءا واحدا ، فقد جمعهما تراث مشترك ووشائج عرقية وثقافية وتبادلتا النفوذ السياسى ؛ ولعبت الجغرافيا الدور الرئيسى فى هذا التقارب ، فمضيق باب المندب فى عُقب البحر الاحمر سهل الاتصال واختصر المسافات ، كما أن التكوين الجغرافى للسهل الساحلى فى شرق افريقيا بسلسلة مرتفعاته الغربية حالت دون تدفق اتصاله مع الداخل ، وجعلت منه عالما منفصلا أقرب الى الجزيرة العربية منه الى قلب افريقيا ، فحسم هذا الوضع توجهاته لتكون بشكل كثيف عبر المضيق والبحر ، فانصرف اهتمامه الي جنوب جزيرة العرب.

واذا ما تقصينا جذورالوجود العربى فى شرق افريقيا نجدها تعود الى فترة سحيقة قبل الميلاد ، فقد ثبت وجود سلالات سامية قديمة في القرن الإفريقي وأثيوبيا، كانت أكثف هجراتها بين ٣٠٠٠ الى ١٥٥ ق.م على عهد دولتي معين وسبأ ويعتقد البعض بين ١٠٠٠ الى ٤٠٠ ق.م ، ومن أشهر القبائل العربية التى هاجرت قبيلتا سهرت (سحرت) والجعز (الأجاعز) ؛ والأخيرة هيمنت على الحبشة وأصبحت لغتها أصلاً للغات المنطقة التجراي الحديثة (٢٧٧) ، ومن القبائل العربية المهاجرة قبائل "حبشت" التي أسبغت اسمها علما على الحبشة ، التى أسست فيما بعد مملكة أكسوم الحبشية، وكان لهذه القبائل السلمية نظامها الاجتماعي المتميز ولغتها التي طغت على سواها وأدخلت المؤثرات السبيئية للبلاد ، ثم لحقت بهم مجموعات حميرية بهدف الغزو اتجه بعضها الى شمال إفريقيا .

ووفدت مجموعة من الحضارمة في اوآخر القرن السادس الميلادي يعرفون في شرق السودان بالحداربة وهم ومجموعة "البلو" المعروفة في شرق السودان يرجعون إلى أصل واحد من احد افخاذ حمير مواطنهم الأصلي إقليم شحر في الجزيرة العربية ، وكلمة بلوا مشتقة من بيلاويت"Belawiet " وتعني في لغة التبداوية التحدث بلغة أجنبية (٢٧٨) .

كانت أول هجرة اسلامية الى افريقيا ، عندما لجأ المسلمون الاوائل الى النجاشى ملك الحبشة فى السنة الخامسة من الهجرة اعتصاما بعدله من عدوان قريش عندما قال الرسول (ص) لأصحابه "تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم، قالوا إلى أين نذهب؟ قال هاهنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة وقال: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله فرجا مما أنتم فيه، ثم تبعتها هجرة ثانية ، ولم تكونا الهجرتان هجرة استقرار وانما هجرة فرار الى الله .

ومن بعد توالت الهجرات من الأحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن بشكل واسع لغرض الاستيطان ، وهى فى معظمها هجرات سياسية فرارا من الحروب والاضطهاد الذى يعقب تغير الدول ، ففى العصرالاموى (عام ٦٩٥) نزلت اعداد كبيرة على الساحل الافريقى يقدرون بعشرة آلاف من العُمانيين بقيادة الأخوين سليمان وسعيد بن عباد الجلندي من شيوخ قبيلة الأزد العربية االحاكمة فى عمان فرار من بطش " الحجاج بن يوسف " الذى سلطه عليهم الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان لتضامنهم مع خلافة عبد الله بن الزبير فى مكة ؛ واقتحموا ميناء " ويونى " الحصين وأقاموا امارة " لامو " شمال " ممبسة " .

وبعد انقسام شيعة اليمن وفدت هجرة " زيدية " فى ١٢٢ هـ / ٧٢٩ م والفترة ١٤٠-١٤٣هـ/ ٧٥٧-٧٦٠م ، وانتشروا

---

(٢٧٧) ابن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير صـ٢٢، الطبعة الثانية، بيروت لبنان .
(٢٧٨) الدكتور عبد الحافظ الأصم ، أبحاث ملتقى خادم الحرمين الشريفين، جوهانسبرج جنوب إفريقيا، ١٤٢٣هـ، صـ ١١٨- ١١٩.

على ساحل بنادر وتوغلوا الى خط الاستواء (٢٧٩) ، استتبعتها هجرة كبيرة من ٢١ قبيلة عام ١٤٩ هـ من قبائلها الشاشبيين والاهول من حضرموت ، وفى عام ٩٢٠م نزل لساحل بنادر هجرة سنية من الاحساء تحالفوا مع الاهالى المحليين و طردوا الزيدية الى الجنوب واسسوا مقدشو ، ثم تبعتهم هجرات زيدية اليمن في الفترة من ١٤٠-١٤٣هـ ٧٥٧-٧٦٠م على ساحل بنادر ايضا وتوغلوا الى خط الاستواء (٢٨٠) .

وفى عام ٩٠٠ هـ وصلت هجرة ضمت جماعة من قبيلة حاتم الطائى (ابو الكرم العربى الشهير) ، وحتى عام ١٠٥٥م وصلت بنادر عناصر شيعية بقيادة الحسن بن على احد ابناء سلاطين " شيراز " فرارا من ارطغرل السلجوقى بعد فتحه بلادهم ، وتجاوزوا المنطقة السنية وواصلوا الابحار حتى رسوا على ساحل كينيا وتنجانيقا حيث أقاموا امارة كلوة، وفى عام ١٣٠٣ اندمج جنوب الجزيرة وجزء من المشرق الافريقى فى امارة عربية أفريقية تحت سلطان عربى كانت نواة لاول وحدة عربية افريقية ، وهذه الامارة لم تقم بالحرب وانما جاءت حصيلة للمصاهرة بين سليمان النبهانى صاحب عُمان وبين اسحق حاكم باتاPate ، فآل حكم الجزء الافريقى الى التبهانى إرثا من زوجته بعد وفاة ابيها ، فإنتقل اليها بحاضرة ملكه من عُمان فى وحدة سياسية ضمتهما تحت حكم الاسرة النبهانية ، وكانت جسرا بين البلدين لانتقال واندماج عرقى وثقافى ممتد. وبالمقابل تسربت عناصر افريقية الى الجزيرة واستقرت وانتشرت وكثير من كبار عرب الجزيرة ينحدرون من اصول حبشية فقد اندمجت شعوب المنطقتين على مدى العصور (٢٨١) .

التداخل اللغوى

ثبت من النقوش القديمة للطور الأول من تاريخ الحبشة ؛ وجود أثر للغة والكتابة السبئية وأسماء أماكن في الحبشة لها نظائر في اليمن مثل أوم التي وردت في النقوش السبئية للدلالة على حرم بلقيس أو أحد هياكل القمر ، وثبت ان لغة الجعيز (Geez) لغة الحبشة القديمة انتقلت اليها مع قبيلة الأجاعز العربية ، واستمرت هذه اللغة مسيطرة حتى القرن الثالث عشر الميلادي الى ان فرض الحكام الامهرا لغتهم .

ومن لغة الجعيز خرجت الامهرية والتيجرينية ولغتا الجواراجواي ولغة هرر سليلتا الامهرية ، ويتناول باسيل دافيدسون العلاقات بين الجانبين فيقول " غزت شعوب جنوب الجزيرة العربية السامية أرض اثيوبيا قبل ظهور المسيحية بمئات السنين ، واقاموا حضارة اثيوبية جديدة عكست مقومات حضارة الشعوب الوافدة ، فشعبا اكسوم و الامهرى كانا القناة التى انتقلت عبرها الافكار والخبرات من جزيرة العرب الى داخل افريقيا حتى زيمبابوى " .

وبعد انهيار سد مأرب عام١٢٠ م ، تدفق اليمنيون الى الساحل الافريقى واقاموا عددا من المدن ، ويشير الى ما ذكره الرحالة الصينى " تشاو جوكوا " فى سجلاته عام ١٢٢٦ عن الشعوب الاجنبية يشير فيها الى وجود عرب فى جبل عظيم من المرجح ان يكون كلمنجاروا ؛ يسكنه التاشى (العرب) ويتبعون ديانتهم ويلبسون ملابس قطنية زرقاء واحذية من الجلد الاحمر .

---

[٢٧٩]) الزبيدي، محمد حسين ، هجرة العرب المسلمين إلى شرق إفريقيا ، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٢٣) صـ ٧.

[٢٨٠]) الزبيدي، محمد حسين ، هجرة العرب المسلمين إلى شرق إفريقيا ، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٢٣) صـ ٧.

[٢٨١]) اورد أبو الفرج بن الجوزي في كتابة تنوير الغبش في الباب الخامس والعشرين أبناء الحبشيات من قريش وهم : نضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، نفيل بن عبد العزى العدوي، عمرو بن ربيعة بن حبيب، الخطاب بن نفيل العدوي، الحارث بن أبي ربيعة المخزومي، عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى، صفوان بن أمية بن خلف الجُمَحي، هشام بن عقبة بن أبي معيط، مالك بن عبد الله بن جدعان، عبيد الله بن عبد الله بن أبي ملكية، المهاجر بن قنفذ بن عمرو، مسافع بن عياض بن صخر التيمي، عمرو بن العاص بن وائل [السهمي] فرظة بن عبد، عمرو بن نوفل بن عبد مناف، مالك بن حسن بن عامر بن لؤي، عبد الله بن قيس بن عبد الله بن الزبير، سمرة بن حبيب بن عبد شمس عبد الله بن زعمة من بني عامر بن لؤي، عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، عبد الله بن عبد الله بن عامر بن كريز، محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عبيد الله بن حمزة بن موسى بن جعفر، محمد وجعفر ابنا إبراهيم بن حسن بن حسن وأبوهما سليمان بن حسن من بني عقيل بن أبي طالب، محمد بن داود بن محمد من بني الحسن بن علي، أحمد بن عبد الملك من عثمان بن عفان، أحمد بن محمد بن صالح المخزومي، العباس بن المعتصم، هبة الله بن إبراهيم بن المهدي، محمد بن عبد الله بن إسحاق المهدي، عيسى وجعفر ابنا أبي جعفر المنصور، العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد ، وذكرالسيوطي في أزهار العروش ذكر أبناء الحبشات من قريش ومن الصحابة رضي الله عنهم ؛ صفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، عمرو بن العاص ، ومن غيرهم عبد الله بن قيس بن عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن عامر بن كريز ، محمد بن علي ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عبيد الله بن موسى بن جعفر ، إبراهيم بن حسن بن حسن وولداه محمد وجعفر، سليمان بن حسن عقيل بن أبي طالب، يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عيسى وجعفر ابنا أبي جعفر المنصور، هبة الله بن إبراهيم بن المهدي ، العباس بن المعتصم، وممن لم يذكره ابن الجوزي الخليفة المقتفي لأمر الله.

الفصل الثانى
الامارات الاسلاميـــــة فى
الهضبـــــــــة والســـــــاحل
(البحر الاحمر و شرق افريقيا)

الامارات الاسلامية
فى شرق افريقيا

تدفق التجار العرب على مر العصور على المنطقة واقاموا محطات تحولت بمرور الزمن الى " مستعمرات " غلب عليها الطابع العربى ؛ كانت خاضعة من الناحية السياسية لسيطرة اليمن وعُمان لقربها الجغرافى بدية من عصر حمير وأمراء سبأ والاوزان وقطبان ؛ وهاجر من اليمن العديد بعد انهيار سد مأرب ؛ ونقلوا معهم الخبرة فى زراعة الجبال ولغتهم المكتوبة ونظمهم السياسية الى الحبشة.

وتبعهم بعد الاسلام مهاجرون من عمان وحضرموت وفدت في مجموعات صغيرة انتشرت في بعض الجزر ثم المراكز الساحلية واستطاعت أن تُؤثر فيما حولها بلغتها ودينها، وتدفقت هجرات المعارضين المؤيدين لخلافة عبد الله بن الزبير فى مكة ضغط الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان ، واسس المهاجرون امارات اسلامية ، واذا ما اخذنا مقدشو التى تأسست عام ٩٢٠م ، مركزا جغرافيا لتحديد المدن شمالها وجنوبها ، فنجد فى شمالها على ساحل البحر الاحمر حتى مضيق باب المندب مدن سواكن - زيلع - مصوع- جزيرة دهلك وهى ما يسميها المؤرخون العرب مدن الطراز الاسلامى .

ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى ان المؤرخون القدامى أطلقوا على الممالك الساحلية في القرن الإفريقي مسمى ممالك الطراز الإسلامي ، وهي البلاد المسماة ببلاد الزيلع المقابلة لبر اليمن عند تلاقى أعالى بحر القلزم (البحر الأحمر) ببحر الهند (المحيط الهندي) ، وهى كالطرز (التطريز) على جانب البحر وقال العمرى أنها بلاد الزيلع كما يُطلق عليها بمصر والشام ، وحدد طولها برا وبحرا نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك (٢٨٢) ، ويقول المقريزى فى تحديد نطاقها الجغرافى أن جبرت (إفات) جزء من البلاد ؛ وتقع سلطنة هديه في أقصى حدودها الغربية جنوبى أديس أبابا الحالية..

وكانت سواكن ودهلك تحت حكم المماليك لبعض الوقت وجرد كل من الظاهر بيبرس والناصر قلاوون حملات عسكرية لتأكيد السيادة المصرية عليها ، وتداولت كل من اليمن والحبشة السيادة على دهلك وكان لها ملك حبشى مسلم .

واذا ما نزلنا جنوبا من " مقدشو" على ساحل افريقيا الشرقى ؛ نجد امارات فركة ولامو تأسستا ما بين عام ٦٨٤م/ ٦٩٥م ، مالندة ، ممبسة، وفى الداخل من البحر الى هضبتا الصومال والحبشة سلطنات إفات، دوارو، أرابيتي، هدية، شرخا، بالي وداء الخ وسنتعرض للبقية بالتفصيل
فى الاتى :

اولا سلطنات شرق افريقيا

١- إمارة لامــــــــــو(٦٥هـ -٦٨٤) ، وهي أقدم الأمارات الإسلامية في المنطقة أنشأتها قبيلة أُزد عمان بزعامة سعيد وسليمان أبناء عبد الجلندي سنة ٦٥هـ فى منطقة أرخبيل لامو ، إثر فرارهم من وجه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الى بلدٍ من بلاد الزنج ، ويقول عنها فرج بن حمد الباقري فى كتابه " أخبار لامو" انها شمال ممبسة (٢٨٣).

---

[٢٨٢]) رجب محمد عبد الحليم ، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، صـ ١٦/١٧.

[٢٨٣]) نور الدين عوض الكريم إبراهيم ، أبحاث الندوة العالمية عن التعليم الإسلامي ، جامعة الملك فيصل، أنجمينا ١٤٢٥هـ ٢..١م.

٢- أمارة بات(Pate) ، وهى امارة محلية خلت بها قبيلة النبهانية بقيادة سليمان بن مظفر النبهاني الذى تزوج ابنة إسحاق حاكمها ثم ورث ملكها بعد وفاة صهره ونقل بلاطه من عُمان إليها ، وشهد عهد النبهانية نشاطا تجاريا من كل مكان ، وسارت قوافلهم التجارية من ممبسي مارة بموشي ونيروبي حتى وصلت إلى بحيرة فكتوريا وغربي إفريقي ، وللأمارة دور بارز في نشر الإسلام مدفوعا بالانتعاشً الاقتصادى الكبير الذى حققته الاسرة في شرقي أفريقيا مما كان له أثر كبير في اسلام الشعب الإفريقي.

٣- مملكة شوا (٢٨٣-٦٨٨هـ/ ٨٩٦ -١٢٨٩م) ، وهي أقدم مملكة اسلامية بهضبة الحبشة ، أسسها مهاجرو قبيلة بني مخزوم العربية القرشية سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م فى احدى ألامارات المحلية حيث تقع مدينة أديس أبابا الحالية ، وبدأ بني مخزوم نشاطهم بالتجارة فأثروا ثراء عظيما واختلطوا بأمراء المملكة وتصاهروا مع الأسرة الحاكمة فآل الحكم إليهم .

واستمروا فى حكمها قرابة أربعة قرون من الأمن والاستقرار، ولكنها عاشت فى عزلة عن العالم ليسر الحياة فيها ووفرة متطلباتها ، وظل أمر تلك المملكة الإسلامية مجهولاً إلى أن استدل عليها المستشرق الإيطالي الدكتورروسيني شيروللي فى وثيقة عربية سنة ١٣٥٥هـ تعرضت لاواخر عهد المملكة من سنة ٦٢٨هـ إلى سنة ٦٨٨هـ ، وانتهى امر المملكة للخلافات الداخلية وتنازعهامع الأمارات المسلمة المجاورة ((٢٨٤.

٤- سلطنة مقديشو ٢٩٥ هـ - ٩٨م ، وهى سلطنة أسستها مجموعة من قبيلة بني الحارث نزلت بساحل الصومال أواخر القرن الثالث الهجري وأنشأت مدينة مقديشو وتحالفوا مع سكان البلاد الأصليين وأنشأوا مدن برادة ومركة التي تقع عند نهر ويبى وقرفاوة والنجا وغير ذلك ؛ وكانت المملكة مركزا تجاريا هاما ذات رخاء وقوة ونفوذ وسادها الأمن متسعة العمران ، يصفها الرحالة بأنها مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع كثيرة المساجد عظيمة العمران ، يأتيها المسلمون في مواعيد معينة من السنة ليقيموا صلاة الجمعة فى مسجدها الكبير مما عظم الإسلام في نفوس الوثنيين .

وأضحت صاحبة السيادة على سكان الساحل جميعاً زهاء سبعين عاماً حتى قامت أمارة كلوة في الجنوب فنازعتها السيادة ، ويصفها ابن بطوطة فى زيارته لها سنة ٧٣١هـ ؛ فيقول انها متناهية الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينجرون الطين في كل يوم ولهم أغنام كثيرة وهم تجار أقوياء وفيها تُصنع الثياب وتحمل إلى ديار مصر (٢٨٥) ، ويتحدث عن نظامهم فى استقبال تجار المراكب الوافدة فيقول " ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصناديق (القوارب الصغيرة) إليه ويكون في كل صندوق جماعة من شبان أهلها ، ويأتي كل منهم بطبق مُغطى فيه طعام فيقدمه لتاجر من تجار المراكب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ، ولا ينـزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد وعرف أهله فأنه ينـزل حيث شاء فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى منه .

ويصف ابن بطوطه طريقة التفتيش الجمركي المتبعة في ذلك البلد فيقول بمجرد وصول المركب الميناء يصعد إليه صندوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وما وصفه (حمولته) ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ، فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق أن ينـزله عنده أنزله.

٥- سلطنة كلوة ٩٧٥-١٤٩٩م

أسسها مهاجرون في عهد عبد الملك بن مروان ؛ ونزل بها الشيرازيون عام ٩٧٥- ١٤٩٩م بقيادة على ابن الحسن بن علي

[٢٨٤]) رجب محمد عبد الحليم: العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤،٥هـ ١٩٨٥م، ص ١٧/١٦.

[٢٨٥]) العمري: مسالك الأبصار، الجزء (٢) نقلاً عن د. نور الدين عوض الكريم .

الشيرازي وذويه واقتسم أبناؤه الستة الساحل الشرقي لإفريقية والجزر المواجهة له كل بموضع معين مع التبعية لأبيهم ، ولما استشعر على بن الحسن قوته وعزة جانبه أخذ يمد سلطانه على الأمم المجاورة ، فأرسل أبنا من ابناؤه إلى جزيرة انجوان بجزر القمر وآخر إلى جزيرة منفية ، واستطاع احدهما شاب أن يؤسس مملكة قوية حكمها أربعين عاماً سيطرت على جزء كبير من الساحل الشرقي لإفريقيا وجزره من ممبسة شمالاً إلى سفالة جنوباً ، وضمت بمبة وزنجبار ومافيه وجزر القمر وموزمبيق.

وكان حكام الأمارات العربية الممتدة على طول الساحل من مقديشو شمالاً إلى سفالة جنوباً يعترفون لسلطانها بأنه أعظمهم مقاماً ورفعة(٢٨٦) ، وعم كلوة القوة والرخاء بفضل سيطرتها على مناجم الذهب والحديد في روديسيا الحالية فكان وضعها وثرائها سببا فى انتشار الإسلام بتلك الأنحاء .

ويصفها ابن بطوطة قائلاً " مدينة كلوا مدينة عظيمة أكثر أهلها من الزنج المستحكمي السواد ولهم شرطات في وجوههم ، وهى من أشهر المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في برٍ واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب ، وسلطانها عند دخولي أبو المظفر حسن ويكنى أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه

وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها فيصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة لوحده ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة ، وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف" ؛ ويذكر المؤرخون أن بها ثلاثمائة وستون مسجدا ، وتعاقب على حكمها ثلاثون سلطاناً آخرهم فضيل بن سليمان الذي تولى الحكم سنة ١٤٩٨م قبل مجيء البرتغاليين .

ثانيا ممالك ساحل البحر الاحمر والهضبة (الصومالية والحبشية)

هى الممالك الساحلية في القرن الإفريقي ذكر القلقشندي في صبح الأعشى ان المؤرخون القدامى أطلقوا عليها ممالك الطراز الإسلامي لانها كالطرز (التطريز) على جانب البحر ، وهي بلاد الزيلع المقابلة لبر اليمن عند تلاقى أعالى بحر القلزم (البحر الأحمر) ببحر الهند (المحيط الهندي وطولها برا وبحرا نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك (٢٨٧) ؛ ويقول المقريزى فى تحديد نطاقها الجغرافى أن جبرت (إفات) جزء من البلاد وتقع سلطنة هديه في أقصى حدودها الغربية جنوبى أديس أبابا الحالية ؛ وسكان بلاد الزيلع من عناصر حامية وعربية ، وأغلب الحاميين هم من قبائل الصومال والجالا والأعفار(الدناكل).

ويتركز الاعفار شمال نهر عواش والصوماليون والجالا جنوب النهر والهضبة الشرقية لأثيوبيا التى تسمى ايضا هضبة الصومال تميزا لها عن الهضبة الغربية المعروفة باسم هضبة الحبشة ؛ والزيالعة من الصوماليين وجميعهم مسلمون يختلفون عن جيرانهم حتى الصوماليين في برالحبش أو في بر الزنج (كينيا وما وراءها) ، وعن بقية المسلمين من الأعفار (الدناكل) والجلا والجماعات العربية ، فرغم إطار الإسلام الواسع الذي يجمعهم بثقافته العربية وحضارته الاسلامية الا ان لكل منها لغاتها ، ولم يكن لهؤلاء الزيالعة مملكة واحدة في العصور الوسطى وتوزعوا بين سلطنات الإسلامالتى لم تكن متحدة أو متعاونة في معظم الأحيان (٢٨٨) ؛ وسنبدأ بعرض مختصر عن امكانيات ومكونات كل مملكة للتعرف على قدرتها فى الحشد والمواجة لنتعرف على اسباب فشلها فى التصدى للحبشة ثم نستعرض العلاقات بينها وبين الحبشة من خلال جهاد السلطنات الكبرى التى تصدت لهذا العمل الجليل .

---

[٢٨٦]) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، حققه مرزوق علي إبراهيم، طبعة دار الشريف، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م - الرياض ص ٢٤٦.

[٢٨٧]) رجب محمد عبد الحليم ، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، صـ ١٧/١٦.

[٢٨٨]) العمري: مسالك الأبصار، الجزء (٢) ٤٨٥ ، نقلاً عن د. نور الدين عوض الكريم ، أبحاث الندوة العالمية عن التعليم الإسلامي، جامعة الملك فيصل، أنجمينا ١٤٢٥هـ ٢٠٠١م .

١- مملكة فطجار٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م

لم يتطرق الى ذكرها ايا من المؤرخين العرب الا عرب فقيه ، وتقع المملكة شمال وجنوب الجزء الأوسط من نهر عواش يمتد نصفها الشمالي الى قرب مدينة لال بلا (لاليبالا الحالية)، وتفصل بين سلطنة إفات وبين إقليم أمحرا (أمهرا) الحبشى وشوا الاسلامية فى الهضبة ؛ أما نصفها جنوب النهر فيتصل بمعظم الممالك الإسلامية ، ويحدها من الشرق سلطنة عدل وإقليم هرر ومن الغرب مملكة هدية وشرخة ، ومن الجنوب الشرقي مملكة دوارو، ومن الجنوب الغربي مملكة بالي ، واهم بين اهم مدنها شمبركرى ، ويُقدر عدد فرسانها بما لا يقل عن عشرة آلاف ومشاتها كثيرون ومن اهم المعارك التى وقعت على ارضها معركة شمبركري الشهيرة التي كانت أول نصر كبير لمسلمي عدل (الزيلع) على الحبشة عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م (٢٨٩).

٢- مملكة دوار

وتقع جنوب سلطنة إفات وجنوب شرق مملكة فطجار، ومساحتها أقل من بقية الممالك الاسلامية فطولها حسب العمرى يبلغ مسيرة خمسة أيام وعرضها مسيرة يومين، ورغم ذلك فقد كانت تملك جيشا قويا لا يقل عن جيش إفات في عدد الفرسان والمشاة، وبها عدد كبير من المدن ويمر بها بعض روافد نهر الوبى شبيلى والتي كانت تسمى نهر بور ونهر بوس ونهر زميت.

٣ - ملكة بالى

وتقع جنوب مملكة فطجار ويفصلها عن مملكة دوارو نهر وبى شبيلى، وتقع فيها منابع وروافد نهر جوبا الذي يصب في المحيط الهندي جنوب الصومال ، ويقول عرب فقيه ان أحد روافد هذا النهر وسماه نهر (ونبات) كبير كثير الماء مثل ويبى ، وتضم أرضاً واسعة بقدرها البعض بمسيرة عشرين يوماً طولا وستة أيام عرضا وبها عدد كبير من المدن ، وأشار الرحالة إلى غناها ووفرة خيراتها وطيب هوائها وخصب أراضيها وسكانها كثيرون وجيشها كبير العدد يضم ثمانية عشر ألف فارس ومشاتها أكثر من ذلك.

٤ - مملكة داره

وتقع جنوب مملكة بالى فى موقع متطرف بعيدا عن بقية الممالك الاسلامية ، ولم يذكر عنها العمرى أو غيره كثيرا من المعلومات، ولكنه حدثنا عن ضيق مساحتها وعن ضعفها بالنسبة لغيرها من ممالك الطراز الإسلامى فقال أن طولها يبلغ مسيرة ثلاثة أيام ومثلهاعرضا ، وهي أقل بلاد الطراز خيلا ورجالا فعسكرها لا يزيد عن الفي فارس وألفين من المشاة .

٥ - مملكة شرخ

تقع جنوب هدية جنوب هضبة شوا ايضا فيما يعرف الان بإقليم جوراجيا كمباتا ومساحتها محدودة ضيقة، فطولها يبلغ مسيرة ثلاثة أيام وعرضها مسيرة أربعة أيام ، ويضم جيشها ثلاثة آلاف فارس وضعفه من المشاة .

٦- مملكة هدية

كانت معروفة فى الفترة الزمنية ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، تقع الشمال الغربى لبحيرتا Zway و Langanoوعلى نهر ابى Abbay ، جنوب هضبة شوا ، وجنوب إقليم الداموت وشمال إقليم كمباتا فيما يعرف الآن بإقليم جالاتلما ومساحتها مسيرة ثمانية أيام طولا وتسعة أيام عرضا، ويقدرها Richard Pankhurs بحوالى ١٨٠ فى ١٦٠ كم ، وهى ان كانت أقل مساحة من إفات - كبرى ممالك الطراز- الا ان جيشها كان أكثر عددا (٤٠٠٠٠ من الفرسان وضعفه من المشاة

---

[٢٨٩]) شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٧٤ .

بينما كان جيش إفات ٣٥ الفا من الخيالة والمشاة) (٢٩٠) ؛ ورغم قوتها العسكرية رضخت هدية لنفوذ الأحباش منذ وقت مبكر عندما غزاها عمدا صيون (١٣١٤- ١٣٣٤)لما رفض سلطانها **Amano** الخضوع ودفع الجزية بتحريض من الامام **Bel'am**؛ فإجتاحها بعدما اجتاح فى الطريق اليها سلطنة الداموت فى الفترة ١٣١٧/١٣١٦ ، وقتل من اهلهما الكثيرواستعبد البعض وهجرالكثير من اهلهما ، وفى عام ١٣٣٢ او ١٣٢٩ ضم هدية الى اثيوبيا واستخدم اهلها فى جيشه.

وفى عهد ابنه زارا يعقوب او " زرع يعقوب " (١٤٣٤- ١٤٦٨) **Zara Yaqob** رفض السلطان مُحق **Mahiko** الخضوع ولكن البعض خلعوه واقاموا عمه **Bamo** سلطانا تجنبا للصدام مع هذا الملك المختل ، وفر السلطان المخلوع الى عدل ولكن سلطانها مبارك تحت ضغط زارا يعقوب اغتاله وارسل رأسه واطرافه الى الاخير ، ومن غرائب " زرع يعقوب " فرضه علي هدية تقديم عذراء مسلمة سنويا مع الجزية الى امبراطور الحبشة لتنصيرها ، والا يلبس المسلمون لباس الحرب ولايستخدمون السيوف فيما يعتبر نزعا للسلاح ؛ ولايركبون الخيل بسروج كنوع من الامتهان والتمييز ضدهم ، وينقل " عربى فقيه " مشهد تسليم هذه العذراء عن لسان اهل البلد فيقول " اذا أرسل الينا من يتقبل البنت والمال اخرجنا له البنت على سرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلى عليها ونحتسبها ميتة ونعطيها له فأنا وجدنا أباءنا يفعلون ذلك "(٢٩١).

والغريب ان كثير من ملوك ورجال البلاط الحبشى كانوا يفضلون الزواج من بنات هدية فزاريا نفسه حسب الروايات تزوج من ابنة السلطان محمد وتنصرت بعد الزواج هى الامبراطورة **Eleni** (الميلاد؟؟-الوفاة١٥٢٢– حكمت (٢٩٢)١٤٧٨-١٤٦٨، وكان لها نفوذ قوى فى اروقة البلاط الاثيوبى على مدى ثلاثة عهود لثلاثة اباطرة زارا يعقوب وابنه من زوجة اخرى الامبراطور **Baeda Maryam I** والامبراطور **Na'od** ، والينا هى التى ارسلت الى ملك البرتغال عمانويل الرسالة المشار اليها سابقا وتعرض المساعدة فى مهاجمة سيناء والاعتداء على مكة .

٧- السلطنة الثلاثية إفات - عَـدَل- هــرر (سلطنة الجهاد)

وهى فى حقيقتها سلطنة واحدة مرت بأطوار ثلاث بدأت بإفات التى استغرقت الفترة ٦٦٩ هـ - ٨٠٥هـ / ١٢٧٠- ١٤٠٢م ؛ ثم عَـدَل واستغرقت الفترة ٨٠٥ هـ - ٩٢٧هـ (١٤٠٢م) ، ثم هــرر واستغرقت الفترة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م ، بدأت السلطنة كبيرة وانتهت صغيرة ؛ تقلصت على مر تاريخها تحت ضغوط الحبشة ، ولهذه السلطنة ريادة الجهاد وزعيمة ممالك الطراز التى كادت ان تقضى على الحبشة ، ولنبدأ بـالسلطنة الاولى :

إفـــــــــــات (الفترة ٦٦٩ هـ - ٨٠٥هـ / ١٢٧٠- ١٤٠٢م)

أسسها مهاجرون من قريش قيل من بني عبد الدار وقيل من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب من الحجاز ؛ استوطنوا مدينة إفات غرب زيلع وهي من أكبر مدن الحبشة اشتهر قومها بالصلاح والتقوى ، وفى منتصف القرن السابع الهجري ولى الحُطى حُكم الامارة (مدينة إفات وأعمالها) الى عمر والى أسمع (يُلقب ولشمع) من بني عبد الدار أحد تجار إفات الأقوياء ، وحكمها مدة طويلة قويت بها شوكة الامارة .

وتنسب السلطنة إلى عاصمتها إفات ؛ ويُطلق ُعلى مدينة إفاتَ جبرة أو جبرت ، وتُقدرمساحة السلطنة بمسيرة خمسة عشر يوما بالسير المعتاد طولا ، وتضم جيبوتي والجزء الجنوبي من أريتريا وسهول الدناكل والجزء الشرقي من حوض نهر عواش والهضبة الصومالية بما فيها هرر والأوجادين ، وشرقاً تشتمل على جزءً كبيرً من الصومال الشمالي (الانجليزي سابقا) بما فيه مينائى بربر وزيلع .

ويوفر لها موقعها الاستراتيجى الحاكم بين الهضبة والبحر والسيطرة على ميناء زيلع مركز التجارة الدولية للمنطقة ،

---

[٢٩٠]) المقريزي: الإلمام، صـ ١٤، و فتحي غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٩-١٤.

[٢٩١]) النشاط العربى فى افريقيا – د/ حسن احمد ص٣٩٤ _ صـ ٤١٧ .

[٢٩٢]) كانت ايلينى امرأة قوية وتمكنت من ان يصبح نفوذها قوى داخل البلاط والقصر على مدى ثلاث اباطرة متعاقبين ، اما انها ابنة سلطان هادية تنصرت بعد الجواز اشك فيها وقد تكون من الفتيات التى تقدمهن السلطنة كل عام لتتنصر ، فهى كانت نتبحرة فى علم اللاهوت وكتبت كتابين فيه وهذا لا يتأتى الا للمتحرين الدارسين وقد تكون الحقت بدير منذ طفولتها منذ تسلمها الامبراطور.

السيطرة على منافذ ومعابر التجارة الدولية للمنطقة بما فيها الحبشة وبها نهر عواش وروافد مثل كوب والدير ، وبها مدن عديدة عامرة مثل شوا، وعدل، وجبا، ولاو، وزيلع، وأنطوكية، وبازملي، وجندبلة، وأبونة ، وهي أقرب بلاد الزيلع إلى مصر وتسيطر على مدخل البحر الأحمر من الجنوب الغربي فى مواجهة اليمن.

والسلطنةكانت قوية اقتصاديا وعسكريا فقد وفر لها وادي نهر عواش والهضبة الصومالية الارض الخصبة والمياة للزراعة وتربية الحيوان والدواب ؛ ومن وفرة المحاصيل انحطت الأسعار فكان حمل الحنطة يُباع بدرهم ، بخلاف دخلها من سيطرتها على مقاليد تجارة العبور الى الدخل ، وامارة بهذا الثراء لابد وان تكون ذات قوة عسكرية لا بأس بها ، فضم جيشها خمسة عشر ألف فارس وأكثر من عشرين ألف من المشاة (i) ، وصعُب على الحبشة السيطرة عليها ؛ فقد كان جيشها كبيرا واقتصادها غنيا وفيرا ، ولما كانت إفات أقوى سلطنات المنطقة بما تهيأ لها من مقومات اقتصادية وطبيعية فقد زادها قوة علاقاتها المتينة بمصر والحجاز واليمن ؛ فتهأ لها أن تتزعم سلطنات الهضبة والزيلع وتتحمل أعباء الكفاح والجهاد ضد الحبشة .

نجح ولشع ١٢٧٠ الى ١٢٨٥ أن يوحد امارات الساحل والهضبة بعد ان استهلكتها الخلافات المذهبية والعرقية لفترة طويلة ، فى جبهة واحدة ؛ فضم " شوة " بعد ان سقط حكم بنى مخزوم ، وسيطر على عدل ، مورة ، هوبت ، جداية ، وأقام على انقاضها جميعا أمارة " إفات " ؛ انضمت اليها هدية – فطجار- دارة – بالى – ارابينى – شرخا ، فى حلف اسلامى كبير زادت رقعته على رقعة الحبشة .

استشعر التحالف بالوحدة قوة فهب للتصدى للاسرة السليمانية التى تولت الحكم فى وقت متزامن وسعت بخلفيتها المتعصبة لمد نفوذها على المنطقة فدار الصدام مع يكونوا ملاك (٦٦٩- ٦٨٤هـ/ ١٢٧٠- ١٢٨٥) ملك الحبشة ، وكاد أن يقضى على إفات لولا تدخل الظاهر بيبرس سلطان المماليك المصرية بناء على طلب الاهالى لعقد الهدنة.

ورغم خضوع ملوك السلطنات للحبشة فى حالات ضعفهم ، إلا أنه كان دائما ما يحدث ان يرفض احدهم الإذعان في بعض الفترات ويخرج على طاعة الحبشة ، وكانت إفات بقوتها وتأثيرها على الولايات الإسلامية المجاورة تتولى الزمام كلما عن عان ، وتنتهز الفرص لتنتفض ضد الأحباش وتحرض على جهادهم فحاول سلطانها حفيد ولشمع الخروج على طاعة الحبشة ، غير أنه لم يلبث أن تراجع حين أجبره أنصاره على ذلك ؛ وحاول محمد عبد الله التمرد على الحبشة و مهاجمة اطرافها .

ثم جاءت مرحلة جديدة من الصراع بوصول عمدا صيون الى الحكم ، فهذا الملكهو الذى بدأ بالتوسع الامبراطورى على حساب جارات الحبشة من الدويلات الاسلامية وضم معظمها الى الحبشة ووصل بحدوده فى القرن ١٤ الى البحر الاحمر ، ويجدر ان نتعرض لهذه الفترة الحاسمة فى تاريخ السلطنات بالمنطقة ، ففى الفترة ١٣١٦ - ١٣١٧ هاجم **Hadiya** لتمردها وامتناعها عن دفع بالجزية ؛ وفى الطريق استولى على **Damot** واشارت سجلاته الى انه قتل النساء والاطفال والرجال وسبى ونهب من ثروات هذه البلاد الغنية وهجرعدد كبيرمن اهاليهما ، وانه قتل ونهب من ثروات السلطنة ما لا يُحصى ، واتخذ منها جندا فى جيشه حاربوا الى جانبه إفات فيما بعد ، وهاجم **Gojjam** فى المنطقة الشرقية ، ثم تحول عمدا صيون الى ولايات الشمال التى تحاول الاستقلال لتثبيت وضعه فى اندرتا **Enderta** المتمردة وتثير عليه من حولها ، وفى عام ١٣٢٩ قام بحمله اوصلته الى البحر الاحمر فى اريتريا هذه الحملات عبرت بالنفوذ الحبشى لاول مرة نهر اواش وسيطر على **Dawaro, Bale** وبقية السلطنات المسلمة.

سلاطين إفـــــــــــــــات ومعاصريهم مت ملوك الحبشة

سلاطين إفـــــــــــــــات	ملوكلحبشة المعاصرون	الفترة الزمنية للحكم
١- عمر والى أسمع (ولشمع) (من بني عبد الدار من قريش)	يكونوا ملاك	٦٦٩ -٦٨٤هـ/١٢٧٠- ١٢٨٥
٢- بزو بن عمر ولشمع	يجبيا صيون	٦٨٤-٦٩٤هـ/١٢٨٥- ١٢٩٤

٣- حق الدين بن عمر(عاصر ملكين)	١- ودم أرعد	٦٩٩- ٧١٤هـ/ ١٢٩٩-١٣١٤م
	٢- عمدا صيون	١٣١٤- ١٣٤٤
٤- صبر الدين محمد بن عمر عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م	عمدا صيون	٧١٤- ٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م
٥- جلال الدين بن عمر	عمدا صيون	١٢١٤-١٣٤٤م
٦- على بن صبر الدين محمد	سيف أرعد (عاصره ملكين عرب)	٧٤٥- ٧٧٤هـ/ ١٣٤٤-١٣٧٢
٧ - أحمد بن صبر الدين حرب أرعد بن علي		٧٤٥- ٧٧٤هـ/ ١٣٤٤-٣٧٢م
٨- حق الدين الثاني بن أحمد٧٦٦ - ٧٧٦هـ/ الموافق ١٣٦٤-١٣٧٤		
٩- سعد الدين محمد بن أحمد: ٧٧٦- ٨٠٥هـ/ الموافق ١٣٧٤- ١٤٠٢م		
(فترة ضعف وهجرة أولاد سعد الدين إلى اليمن فترة استمرت حوالي ١٢ سنة)		

وبات الوجود الاسلامى مهددا فى المنطقة لاول مرة فتوحدوا فى تحالف لم يكن قائما من قبل ؛ بفضل جهود الائمة الذين حشدوا المجاهدين والملوك والسلطنات ضد عمدا صيون وحرضوا على قتاله منذ سقوط هدية ، فإمتنع السلطان " حق الدين " عن دفع الجزية وتشجع بوحدة السلطنات فغزى الحبشة ، ومما يؤسف له انه قام بالقبض على Ti`yintay مبعوث امدا صيون الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أثناء عودته للحبشة عام ١٣٢٢ وقتله لرفضه الاسلام ، كما قام اثناء غزوته بأعمال خارجة على الاسلام باحراق الكنائس وحمل البعض على الاسلام عنوة (٢٩٣) ؛ فهاجم عمد صيون افات ودمرها ونهب ثرواتها ، واستمر فى مهاجمة الاقاليم المسلمة فى جواره (هى Kuelgore, Bequlzar, Gidaye, Kubet, Fedsé Qedsé, Hargaye,Shewa) , وكان سكانها انذاك من المسلمين ، وثارت Gebel المعروفة حاليا بـــ Werjih ؛ وأهلها اهل قتال مهرة فى فنون الحرب فإقتحموا الاقاليم المسيحية فقمعها عمدا صهيون بعنف .

وفى فترة بين عامى ١٣٢٩- ١٣٣٢ م انطلقت السلطنات المسلمة فى جهاد عنيد ضد محاولات عمدا صيون السيطرة عليها ؛ فإنتهز تمرد بعض حكامها وعدم دفع الجزية للقيام بحملة عليها إستغرقت عاما تقريبا من فبراير الى ديسمبر فضم هدية مما اتاح له السيطرة على جزء هام من تجارة الداخل التى تتكسب من ورائها الامارات المسلمة فى المنطقة الشرقية ، ثم تقدم الى إفات لتمرد حاكمها صبر الدين الاول ومصادرته بضائع خاصة بعمدا صيون قادمة عبر زيلع .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فتقول يوميات عمد صيون ان صبر الدين كان يطمح الى حكم الحبشة واسلمتها وإخضاع عمدا صيون ، وأنه فى غزوته الاولى عين حكاما لاقاليم تابعة للحبشة هى:

Gojjam Angot, Inderta, Begemder , Amhara ,Damot, Alamalé, “ Fetegar ، وانضمت اليه مملكتا Medra Zega و Haydera ولحق بهم اهل Manzih وكلهم انذاك من المسلمين ، وهزمهم عمدا صيون وقتل قائدهم دادادير Dedadir ابن حق الدين ، ودمر إفات وغنم ما لا حصر له من الذهب والفضة وقتل الاطفال والنساء والرجال .

---

[٢٩٣]) حمل Ti`yintay رسالة من عمدا صيون الى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣٢٠/١٣٢١ وهدده بتحويل مجرى النيل والاضرار بالمسلمين فى بلاده اذا لم يُحسن معاملة الاقباط.

ولما سلم صبر الدين نفسه الى عمدا صيون سجنه وعين اخاه جلال الدين الاول حاكما ، وفى الطريق الى عدل هاجمت الامبراطور قوة مشتركة من Adal, Gebela, Lebekela, Mora, Paguma, Tiqoولحق بهم جلال حاكم افات المعين من قبل عمدا صيون ؛ فهزمهم الامبراطورفى معركة Das وتوجه الى عاصمة عدل Talag ثم عاد الى افات وطلب من جلال الدين تسليمه المرتدين عن المسيحية من اهل البلد فسلمه الجنود والقسس فجلدهم واستعبدهم ، ولما رفض جلال الدين تسليمه البقية خلعه وعين اخوه.

وبعد معركته مع إفات توجه الى Gu'ét وارض الصومال الحالية وDilhoya لتأديبها لخلعها حاكمه وطردها المسيحيين وسار الى Degwi و Werjih لنفس الغرض وفى ديسمبر هاجم شارخة وسجن حاكمها يوسف ، وفى سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م جاء السلطان حق الدين الثاني الى الحكم وكوّن جيشاً قوياً حقق به نصراً مؤزراً بعد كفاح مرير على ملك الحبشة سيف أرعد (١٣٤٤- ١٣٧٢م) واستطاع أن يهزمه وأسر كثير من عسكره ، ولكنه هُزم وقُتل عام ١٣٦٨م (هناك تباين فى التاريخ مع الجدول علما بأن هناك خلط فى تاريخ الحبشة لعدم تسجيله على نحو دقيق) ، وهُزم خليفته سعد الدين محمد بن أحمد (٧٧٦-٨٠٥هـ/ ١٣٧٤- ١٤٠٢) الذى تمكن من الفرار الى " زيلع " حيث حُوصر وقتل و فشلت محاولة الامارات الاخرى نجدة إفات .

وفى عام ١٤١٥ ضم الإمبراطورِ اسحاق الاول (١٤١٤-١٤٢٩) إفات وجَعلها محافظة إثيوبيةً ، وفي ١٤٤٥ دمرْ الإمبراطور زارا يعقوب (١٤٦٨-١٤٣٤) إفات وضم البلاد حتى سيدامو Sidamo الحالية جنوبا .

جهاد عَـدَل (٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م)

بموت السلطان سعد الدين وفرار ابناؤه الى اليمن عادوا بعد اثنى عشر عاما ليؤسسوا امارة جديدة فى منطقة ميناء عدلوكانت تُعرف باسم "عدل الأمراء" ، وهى منطقة كانت من أقاليم سلطنة إفات حتى عام ٨٠٥هـ /١٤٠٢م ، وهى تضم مدنا هامة ونهرا (نهرشيخ) وعاصمتها دكر "بفتح الكاف مع التشديد" ؛ وتقع على رأس خليج تاجوراء وقرب جيبوتي الحالية ، تضم ميناء زيلع وهرر وجزءا من الصومال الشمالي وإقليم الأوجادين ؛ وأستأنفت السلطنة الجهاد فمُنيت بهزيمة بعد هزيمة ؛ فانهزم صبر الدين الثانى عام ١٤٢٢ (٢٩٤) ، ومن بعده المنصور عام ١٤٢٥ وجمال الدين عام ١٤٣٣ وبولاك بن منصور عام ١٤٤٥ ١٤٤٥ ، وانتهى الصراع فى هذه الفترة الزمنية التى تلاحقت معاركها فى زمن قصير ، بخضوع الامارات المسلمة ثانية للحبشة بشروط مهينة كما سبق الذكر بما فرضه " زرع يعقوب " ملك الحبشة (١٤٣٤- ١٤٦٨) علي المسلمين فى إمارة هدية تقديم عذراء مسلمة الى امبراطور الحبشة سنويا لتنصيرها وحرم عليهم لباس الحرب وعدته وإن ركبوا الخيل فبدون سرج .

أحبطت انتصارات الحبشة المتتالية وتعاظم قوتها روح الجهاد لدى " عدل " فجنحت الى الخضوع والتخاذل والاستسلام بدافع من المصالح التجارية ، فتهادن محمد بن بدلاى ١٤٤٥ مع الحبشة ودفع لها الجزية لظروف الاضطرابات فى بلده ، وتبعه فى نفس الخط محمد بن اظهر ١٤٨٨- ١٥١٨ .

جهاد الائمة

إستنفر تخاذل الحكام وتداعى روح الجهاد ائمة الصوفية فى سلطنات الطرز؛ فاقتنصوا السلطة واستقلوا بقطاعات صغيرة تابعة أسميا لسلطان عدل ؛ على ان يؤدون له ما يقررة عليهم من خراج سنوى على غرار الحكم الحبشى الفيدرالى( )؛ مقابل ان يطلق ايديهم فى أمور الجهاد وبذلك أصبحت القوه فى ايدى الائمة وتحول الحكم الى حركة دينية عميقة ، وبدأ عثمان حاكم " زيلع " الجهاد بعد وفاة السلطان محمد بن بدلاى عام ١٤٧٠ ، ومن بعده محفوظ حاكم " هرر" الذى استغرق جهاده الفترة ١٤٨٨-١٥١٨ (صهر الامام المجاهد احمد الغازى) ، وكاد ان يحقق نصرا حاسما على الحبشة لولا تدخل البرتغال وانتهى امره بالاغتيال عام ١٥١٨.

وجاهد الامير " أبون بن أدش " خليفة الامير محفوظ ؛ لكن سلطان " عدل " ابو بكر قتله عام ١٥٢٥ لعدم ارتياحه لسياستة ، وكان هذا سبب اقدام الامام المجاهد احمد الجُرى على قتل السلطان ابو بكر (بعد نقله العاصمة من دكر إلى مدينة هرر

---

[٢٩٤]) تخلط بعض المراجع بين تواريخ التقويم الميلادى والاثيوبى ؛ او عدم دقة التواريخ لفروق احتساب التأريخ الهجرى عن الميلادى، كما ان هناك غموض كبير فى التاريخ الاثيوبى لعدم وجود مؤرخين لديهم والاعتماد على بعض الرحالة البرتغاليين .

عام ٩٢٧هـ/ ١٥٣١م) ليبدأ عهد سلطنة هرر ، واعقبه فى حكمها اخية السلطان عمر دين بن محمد من ذرية سعد الدين الذى اختاره الامام المجاهد أحمد بن إبراهيم الغازي الجُرى.

سلاطين عدل
(جهاد الامام الغازى احمد بن ابراهيم)

١- صبر الدين الثاني على بن سعد الدين	٨١٧-٨٢٥هـ/١٤١٤-١٤٢١م.
٢- منصور بن سعد الدين	٨٢٥-٨٢٨هـ/١٤٢١-١٤٢٤م.
٣ - جمال الدين محمد بن سعد الدين	٨٢٨-٨٣٥هـ/١٤٢٤-١٤٣١م.
٤- شهاب الدين أحمد بدلاي بن صبر الدين على	٨٣٥-٨٤٨هـ/١٤٣١-١٤٤٤م.
٥- محمد بن شهاب الدين بدلاى(فترة أضطرابات)	٨٤٧-٨٧٥هـ/١٤٤٣- ١٤٧٠م
٦- محمد بن أظهر الدين بن أبي بكربن سعد الدين	٨٩٤-٩٢٤هـ/١٤٨٨-١٥١٨م.
٧ - أبو بكر محمد بن أظهر الدين (سلطان هرر بعد سقوط عدل والانتقال الى هرر)	٩٢٤-٣٣هـ/١٥١٨- ١٥٢٦م
٨ - عمر دين بن محمد بن أظهر الدين (عينه الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي سلطانا لهرر)	عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م
الامام الغازى احمد بن ابراهيم	

جهاد الشرق الاعظم

نُبذة عن الامام الغازى

هو المجاهد العظيم الامام احمد بن ابراهيم الغازى الملقب بـ " الجُرى" او "جران" Gragn وكلاهما يعنى الاشول الاولى باللغة الصومالية وهى الاشهر والثانية بالامهرية ، وتسمية بعض المراجع خطأ بـ " القرين " اشتقاقا من " Gran " نقلا عن كلمة جران بالانجليزية ؛ وُلد في هوبت بإقليم شوا في فبراير ١٥٠٧م (مراجع اخرى تقول وُلد عام ٩٠٨ هجرية الموافق ١٥٠٠م)، لأسرة اختلفت فيها الاقاويل فينسبه لانفسهم الصوماليون والعفريون والأوروميون وبعض الروايات تقول إنه من الأسر العربية التي قطنت هرر .

عملت اسرته بجيش هرر ؛ تلقى علوم القرآن والحديث فى صباه فى زيلع ، تزوج من ابنة الأمير محفوظ (من امراء الاقاليم) وبعد موت الامير ؛ الحقه الأمير أبون ابقيادة الجيش ، ولما قتل السلطان أبي بكر الامير ابون ، ترك الإمام أحمد مدينة هرر واستقر في مسقط رأسه ودعا يجمع الأنصار ويرتب المجاهدين لعدم رضاؤه عن خنوع السلاطين للحبشة ، واستطاع أن يقتل السلطان أبا بكر بن محمد(انتقلت العاصمة فى اخر عهده الى هرر وتسمت السلطنة بإسمها) وعين أخاه عمر دين بن محمد سلطانا .

دعى الى الوحدة وإستجابت لدعوته ممالك الطراز الإسلامي وتجاوزت زعامته منصب السلطان والتف الناس من

حوله لصلاحه وعدله، وقضى على قطاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وأحبوه وقالوا " لا تسموه السلطان ولا الأمير، ولكن سموه إمام المسلمين ، أو إمام آخر الزمان.. وأنه هو الذي يصلح الله تعالى به بلاد الحبشة" ولذلك اشتهر بلقب الإمام ولم يتسم بالسلطان أو الأمير( ).

الجهاد العظيم (٩٢٣- ٩٤٩هـ/ ١٥٢٦- ١٥٤٣م)

وفى عهد السلطان " عمر دين " تعرض السلطنة لعدوان الاحباش ؛ وتعرضوا لام الامير " أبو بكر فطين " بالسب والاهانة فإستثارت الامام احمد جُرى نخوته وكان عمره حينئذ واحدا وعشرون عاما ، فنادى بتوحيد الصف وامتناع "عدل" وبقية الامارات عن دفع الجزية الى الحبشة ؛ وإنضم الى جيشه الاعفار والصوماليون وهم بدو اشداء كان اسلامهم فى بداية القرن ١٦ نصرا كبيرا لمد الاسلام .

وتوجه الامام بقواته الى إفات ودخل بلدة انطوكية وهى اصلا من بلاد المسلمين ، وحرر بلدة جنديلة وعاد الى مدينة هرر ، ومنها كرر دعوته لكافة القبائل المسلمة الى الوحدة فتجمعت حوله القبائل وجاءته المساعدات من اليمن ومصر فتهيأ له جيشا كبيرا ، فخرج مجاهدا فأوقع الهزيمة بالاحباش لاول مرة عام ١٥٢٧ ؛ وبعدها بعامين تقريبا جاءته مساعدات حربية ومواد تموينية من اهالى حضرموت واليمن واسلحة من مصر فاوقع بالحبشة هزيمة حاسمة فى " شنبر كورى " Shimbra Kure" عام١٥٢٨ لما بلغه أن ملك الحبشة Lebna Dengel توجه بقواته الى إفات فتصدى له بجيش عرمرم شتت به الاحباش فى الغابات والاحراش ؛ واستتبع انتصاره سلسلة من الانتصارات الساحقة فى معارك كثيرة اجتاحوا فيها منطقة شوا بالهضبة وتقدم فى الحبشة غازيا عام ١٥٣١ .

وفى الفترة١٥٣١-١٥٣٤ ؛ تقدمت قواته فى كل حدب وصوب فى الساحل والسهل والشمال الغربى فإستعاد الامارات العربية القديمة واستولى على وسط وجنوب الحبشة ، وغزى تجراى ، واستقرت له الامور فى اكثر من نصف بلاد الحبشة وتوابعها فى ارض " البجا " ، واسلم الاحباش بالالاف ، وكاد جهاد هؤلاء البدو الاشداء بقيادته أن يأتوا على الحبشة لولا تدخل البرتغال ، فمع تواصل انتصارات المجاهد العظيم إستشعر الاحباش خطورةالموقف ؛ فاستنجد النجاشى لبينا دينجيل)١٥٠٨ - ١٥٤٠) بالبرتغال ؛ فأرسلت اسطول من الهند بقيادة Estêvão da Gama ابن فاسكو دا جاما البحار الشهير ؛ رسى فى فبراير ١٥٤١ فى Massawa بالساحل الافريقى للقاء سفير النجاشى للتعرف على احتياجاتهم ، وكان الامبراطور الجديد غالوديوس (١٥٤٠- ١٥٥٩) قد تولى السلطة .

وفى يوليو من نفس العام وصلت قوة من ٤٠٠ عسكرى من حملة البنادق بقيادة Cristóvão da Gamaالابن الرابع لـ فاسكو دى جاما وشقيق Estêvão وعدد من المدافع ، وتم تدريب الاحباش ونجحوا فى البداية فى وقف المد الاسلامى ، بعد ان أوقعوا الهزيمة بالامام وهو زاحف الى العاصمة فى معركة قرب بحيرة " الشانجى " عام ١٥٤٢ ، فما كان منه هو الاخر إلا ان استنجد بالاتراك الذين سارعوا الى نجدته لارتياعهم من النشاط البرتغالى فامدوه بقوة قوامها ٩٠٠ رجل من حملة البنادق وعشرة مدافع تمكن بها من هزيمة البرتغاليين فى معركة Wofla فى ٢٨ اغسطس ١٥٤٢ قُتل فيها دا جاما .

ولكن الإمام ارتكب خطأ تكتيكيا جسيما فدفع ثمنا غاليا عندما إستغنى عن النجدة التركية قبل أن يستتب له الامر فأصبح غنيمة سهله للاحباش والبرتغاليين ، فأوقعوا به هزيمة ساحقه فى ٢١ فبراير ١٥٤٣ فى معركة وينا ديجا Wayna Daga قرب بحيرة " تانا" حيث قُتل المناضل الامام ، واسُتشهد الامام العظيم والمجاهد الكبير ومعه كثير من المجاهدين ، وانتهى الجهاد العظيم الذى استغرق ثلاثة عشر عاما (من ٩٣٧- ٩٥٠ هجرية /١٥٤٠- ١٥٤٣ م) ، فتفرقت جموعة وأفلتت الحبشة من الانهيار وعانى الجهاد نكسة .

وظلت ذكرى هذا الرجل العظيم محفورة لدى الغربين ولم يتذكروا منها غير الصراع الدينى فيقول المؤرخ الفرنسى " رينيه باسه " أن اشهر فترات التاريخ الأثيوبى التى بقيت اخبارها محفوظة فى اذهان الغربيين هو أحمد جُرى الصومالى الذى كاد أن يسحق النصرانية الحبشية ويعيدها كبلاد النوبة الى الاسلام .

توابع جهاد احمد جُرى (الجهاد الاصغر)

وبعد رحيل العظيم جُرى ، تتابعت حركات الجهاد ولكنها كانت حركات صغيرة أخفقت جميعا فانتهت حركة الوزير عباس بهزيمته عام ١٥٤٥ ، ولقيت نفس المصير انتفاضة هرر التى قادتها أرملة الإمام جُرى أخذا بثأره ، ولكن الامير نور الدين بن الوزير مجاهد ابن أخت الامام جُرى الذى تولى حكم هرر والمعروف بصاحب الفتح الثانى نجح فى أن يقتل ملك الحبشة فى حملته الثانية عام ١٥٥٩ أخذا بثأر خاله الامام المجاهد ، الا انه انهزم واسفرت هزيمته عن قيام الاحباش بتخريب " هرر" فى نفس العام ، وبهزيمة محمد الرابع عام ١٥٧٧ ، انتهت هرر كقوة سياسية نتيجة سلسلة الهزائم التى تعرضت لها .

العلاقات السياسية بين الحبشة ودول الاسلام

وعندما قامت دولة الاسلام فى " المدينة المنورة " انصرف اهتمامها الى مدافعة الفرس والروم ولم تلتفت الى الحبشة بعد وفاة النجاشي أصحمة ، الا بمجئ النجاشى الجديد الذى لم يحفاظ على العلاقات الطيبة مع المسلمين التى ارساها سلفه مع الرسول (ص) ؛ فأرسل سفنا للإغارة على جدة ، فلما علم النبي (ص) أرسل علقمة بن مجزز المدلجى على رأس سرية من ثلاثمائة مقاتل للتصدي لهذه السفن فخاضت فى البحر حتى جزيرة فيه فهرب الاحباش دون قتال .

وفي عهد عمر بن الخطاب أغارت الحبشة على ساحل البحر الأحمر الشرقي فرد ابن الخطاب بحملة بحرية عام ٢٠هـ/٦٤٠م على رأسها علقمة بن مجزز المجدلي وهو نفس القائد الذي تصدى لهم من قبل في عهد الرسول(ص) ؛ وكان عدم توفيقها سببا فى تردد امير المؤمنين فى ارسال بعوث بحرية اخرى ليس فقط للمنطقة وانما الى اى وجهة اخرى .

وبعد ذلك بستين عاما في عهد بني أمية هاجم قراصنة أحباش جدة عام ٨٣هـ ونهبوا السفن التي تمر في البحر الأحمر، فرد خلفاء بني أمية بإحتلال القاعدة التي يغير منها القراصنة واستولت قواتهم البحرية على مصوع وجزر دهلك وخربت ميناء عدو ، وانسحبت القوة الاسلامية بعد ان تركت بعض المسلمين المحليين.

واذا ما استعرضنا التطور التاريخى لعلاقات الطرفين نرى انها مرت بمرحلتين تبعا لتغير الدول وتوجهاتها ما بين الموادعة والمواجهة ، الاولى تبنتها الحبشة النجاشية والثانية اعتنقتها الحبشة السليمانية بدعم عدوانى برتغالى ؛ فمع تولى الاسرة السليمانية المتعصبة دينيا الى الحكم عام ١٢٧٠ ، سعت لاخضاع تلك الامارات وتنازعتهما حرب طوال فترة القرون ١٣ الى ١٦ دعمت فيها البرتغال بخلفيتها المعادية للاسلام الحبشة بينما توحدت الامارات فى جبهة واحدة بقيادة " إفات" ، ومرت العلاقات الحبشية والامارات المسلمة بمرحلتين :

الموادعة (الفترة النجشية)

استغرقت هذه المرحلة ما بين القرنين ٧ -١٣م ، سارت فيها العلاقة على نحو معتدل تأسيسا على ما أبتدأه النجاشى الكبير بحُسن معاملة المسلمين الاوائل ، الامر الذى عصم معه النبى عليه الصلاة والسلام الحبشة من الجهاد عرفانا بهذه المكرمة (نص الحديث .. دعوا الحبشة ما ودعوكم .....) ، واستمرت الموادعة فترة لم يكن فيها فراغ للاصطراع فقد انشغلت الحبشة فيها بصراعاتها الداخلية والامارات المسلمة بصراعاتها البينية.

المواجـــــــــــــــــهة

التقاء الصليبية السليمانية و البرتغالية

اختلف الوضع فى القرن ١٣ بعودة الاسرة السليمانية للحكم بخلفيتها الدينية المتعصبة ، فبعد نجاح الاسرة فى القضاء على مشاكلها الداخلية واستعادة السلطة ؛ انتهجت سياسة متشددة دينيا فأطلقت حملة تنصير واسعة النطاق فى الداخل وعملت على استعادة وضعها كقوة محلية فى الخارج ، وكان استخلاص تجارة اكسوم الدولية من ايدى السلطنات المسلمة من الاولويات لاضعاف صمود هذه السلطنات وكسر تحديها ؛ فإنقلب الموقف الى التطرف والمواجهة .

وتواكب مع هذا التطور ، سعى اوروبى للزج بالحبشة او مملكة القديس يوحنس الرابع فى المواجهة مع العالم الاسلامى وتجاوبت الحبشة مع التحريض الصليبى دعما لمجهودهم الحربى فى فلسطين بالضغط على المصالح المصرية فى المنطقة لاستنفار مجهودها بعيدا عن الارض المقدسة ، فأرسل البابا نقولا الثانى سفارة لم تصل ابدا وتابع المحاولة يوحنس الرابعالثانى والعشرون

بارسال سفارة من الدومينيكان عام ١٣١٦ لم توفق هى أيضا فى ادراك مقصدها بسبب إحتجاز السلطات المصرية اعضاء البعثة قبل مغادرتهم الاراضى المصرية .

وكانت معادلة العلاقات المصرية الحبشية انذاك محكومة بإطار المسافات القاصية لا تخرج فى توترها المعتاد عن مجرد ملاسنات شفهية بإنزال العقاب بطرف ثالث يهم امره هذا او ذاك من الطرفين ؛ هما مسلمى الحبشة وسلطنات المنطقة بالنسبة للادارة المصرية واقباط مصرالذين يجمعهم بالاحباش المذهب اليعقوبي ، فأقامت الحبشة من نفسها راعيا لهم ففى عام ١٣٢٥ هدد ملك الحبشة بإنزال المجاعة بارض الكنانة (مصر) بتحويل نهر النيل عنها ، إذا لم تُطلق مصر سراح احد زعماء القبط وتُحسن اليهم مثلما يُحسن هو معاملة المسلمين فى بلاده ملمحا الى إمكانية الإنقلاب عليهم وانزال غضبه بهم.

وخرج التجاوب عن حدود القول الى الفعل ، فطال وعيد الحبشة التهديد كل حين بحرمان مصرمن انسياب مواردها المائية القادمة من الهضبة الحبشية والمشاركة فى مخططات العدوان الاوروبية عليها ؛ فأعدت الحبشة نفسها للمشاركة فى عدوان لوسينان الثانى lusignan ملك قبرص على مصر عام ١٣٦٥ (لا نعلم كيف الجنوب) ؛ لكن فشل الحملة فى اتمام مهمتها لم يعط الفرصة للحبشة للعمل المباشر ضد مصر ، وتبنى امبراطور الحبشة اسحق الاول (١٤١٨- ١٤٢٩م) Yeshakهذا النهج .

وتحسبا لاى مهمة من هذا النوع فنظم جيشه ودربه مستعينا بجركسى مسلم من مصر واستعان بتجار مسلمين لتسليحه بأسلحة حديثة ، وبادر بالاتصال بأوروبا عام ١٤٢٧م لتحريضها على القيام بهجوم مشترك على مصر أنتقاما لمقتل " جانوس " ملك قبرص على ايدى المماليك المصرية فى غزوهم قبرص عام ١٤٢٦ ؛ وارسل نورالدين التبريزى التاجر الفارسى مبعوثا الى اوروبا للحصول على دعمها فوافق ملك أرغونة (ألبرتغال) على تقديم اسطول بحرى ، ووافقت فرنسا على ارسال بعثة لبناء السفن الى الحبشة لم يصل منها سوى فرد واحد فقط عام ١٤٣١م ، ولكن الحروب الاوروبية الداخلية لم تساعد على تلبية هذه الرغبة ، ويتردد أن احد ملوك الحبشة المُعتقد انه الملك Naod (١٥٣٢ – ١٥٠٠) فكر فى تنفيذ اقتراح ملك اراجون (لبرتغال) (٢٩٥) مانويل الاول ١٥٢١) -١٤٩٥) Manuel I Aragon بتحويل مجرى النيل للضغط على مصر ، فأرسل مع " البوكرك " Afonso de Albuquerque قائد الاسطول البرتغالى عام ١٥٠٧ طلبا للفنيين والادوات اللازمة لهذا الغرض (٢٩٦) ؛ وبدأت الاستعدادات لولا تدخل الكهنة الاحباش الذين أثنوا الملك عن ذلك بدعوى أن تحويل النهر الى المحيط سيخلق الى جوارهم المباشر فى الصومال دولة اسلامية قوية لن تلبث أن تقوض أركان مملكته (٢٩٧) .

وكانت البرتغال بعدائها للاسلام وهو أنذاك خطا إستراتيجيا متجذرا فى فكرها السياسى لرغبتها العارمة فى الانتقام من الاسلام بعد زوال حكمه عنها ؛ قد جعلت نصب عينيها من دوافع كشوفها الجغرافية توجيه ضربة اقتصادية لعالمه بالتخلص من سيطرته علي دروب التجارة الدولية وإنتزاعها من يديه وسلبه مواردها بإستكشاف طرق جديدة بعيدا عن ارضه .

ولذا كانت البرتغال سباقة فى بناء تحالف قوى مع الحبشة التى لايغيب عدائها للاسلام عن مثلها ؛ يستوجب نُصرتها فأرسلت عام ١٤٦٠ بيريس كوفلهام Peres Covlham الى الحبشة حيث قضى ٣٣ عاما لرعاية التحالف ، وتبعه عام ١٤٩٤" بدرو " مبعوث الملك "جون الثانى " .

وكان وصول البرتغال الى السواحل الشرقية لافريقيا عبر الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ دعما استراتيجيا للحبشة فقد صب الاسطول البرتغالى على سلطنات ساحل شرق افريقيا والبحر الاحمر عنفا وحرقا وتدميرا وحشيا ، ومد لها الدعم العسكرى ونصرها فى نضالها مع الامام المجاهد احمد الجُرى الذى كاد ان يقضى عليها ، وتمثل تطرف عداء البرتغال فى حشيتها على شعوب الاسلام فى شرق افريقيا وعُمان ، وفرض التنصير الاجبارى على اهله على نحو ما حدث مع ابن حاكم مالنده وغيره وتنصير شعب المالديف المسلم بأكمله قسرا بعد احتلال جزيرتهم فى القرن ١٦(٢٩٨) .

وتمادى التحالف فى ظل الوجود البحرى للبرتغال فى المحيط الهندى والبحر الاحمر فى مخططاته بالتجرؤ على استهداف

---

[٢٩٥]) ارجون كما هى فى خريطة الاسترداد تمتد من شرق الى غرب الجزيرة الايبيرية ، لذا فهى تضم البرتغال وكان يُطلق عليها جميعا اراجون .

[٢٩٦] Afonso de Albuquerque ؛ كان نائبا للملك فى حكم الهند والممتلكات البرتغالية فى الخليج الفارسى والساحل الافريقى وقائدا للاسطول بها ١٥٠٣ - ١٥١٥ .

[٢٩٧])العالم الاسلامى المعاصر - صـ ١١١ جمال حمدان.

[٢٩٨]) استردت المالديف اسلامها بعد خمسة عشر عاما عندما تمكن الثائر محمد ذاكرفان من هزيمتهم وتحرير البلاد.

الاماكن المقدسة فى مكه ، فقد قامت "إلينى" ملكة الحبشة(٢٩٩) وعمانويل ملك البرتغال عام ١٥١٠م بتدبير السفن اللازمة لتلك المهمة وحضرا لاغلاق البحر الاحمر فى وجه البحرية المملوكية ، ولما استشعر البابا خطورة ما ينويانه طالب بوقف نشاط الاسطول البرتغالى فى المنطقة وتحسين العلاقات مع المماليك للتهدئة مع العالم الاسلامى لكن عمانويل رفض طلبه مؤكدا العزم على أن يجعل " مكه " هدفا لمدافعه ؛ وكان سواريز قائد اسطول البرتغال فى بحر الهند قد تقدم خطوة نحو هذا الهدف بمهاجمة جده عام ١٥٢٠،وفيما يلى نص رسالة ملكة الحبشة هلينا "إلينى" الى ملك البرتغال مانويل "عمانويل" ١٤٩٥ –١٥٢١، تعرض فيها المساعدة بمهاجمة مكة وطور سيناء وباب المندب والتعاون الاستريتيجى بينهما فى هذا الخصوص :

نص الرســـــــــــــــــــــــالة

" السلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة، تحياتي إليكم ودعواتي لكم ، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشًا ضخمًا ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند (تقصد معركة ديو البحرية التى انهزم فيها اسطول المماليك) ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا إلى البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندب، وإذا أردتم نسيرها إلى جدة أو الطور؛ وذلك لنقضي قضاءً تامًّا على جرثومة الكفر ، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك نصراني يستطيع في وقت قصير أن يبيد الأمم الإسلامية المتبربرة، ولما كانت ممتلكاتنا متوغلة في الداخل، وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان، فإن الاتفاق معكم ضروري؛ إذ إنكم أهل بأس شديد في الحروب البحرية".

الوحشية البرتغالية

ضد المدن الاسلامية

كان نجاح البرتغال فى الوصول الى الساحل الشرقى لافريقيا عام ١٤٨٧ عبر " رأس الرجاء الصالح " نذير وبال على المدن الاسلامية فى سواحل المنطقة (٣٠٠) ؛ بعدما إتخذتها اساطيلها هدفا متجددا للكراهية البرتغالية منذ ذلك الحين ، فأحرقوا " ممبسه " (فى كينيا حاليا) أكثر من خمسة مرات وقتلوا جميع المسلمين فيها ؛ ودمروا " باتا " و" لامو " و" مقدشو " عام ١٤٩٩.

وتلاحقت حملاتهم البشعة على " سوقطرة " و" زيلع (عام١٥١٧) وذبحوا أهل " برافا " ، ويقول باسيل دافيدسون أن دى جاما هدد في رحلته الاولى بحرق كلوة اذا لم يعترف حاكمها بسيادة البرتغال ودفع جزية سنوية لها ؛ وقام " دافازيو " بالعمل نفسه في زنجبار وبرافا ؛ وعصف " الميدا " قائد الاسطول البرتغالى بكلوة وممباسا واحرقهما وحطمهما تماما عندما قاومه الاهالى ، ونهب " سالدانها " بربرة ؛ وحطم " سواريز" زيلع وهاجم " داكونها " مدينة برافا ؛ وينقل عن " باربوزا " الذى كان شاهد عيان بالاسطول قوله " ان البرتغاليون حطموا برافا وذبحوا اهلها واسروا منهم الكثير ونهبوا الكثير من الذهب والفضة والبضائع ؛ ويصم دافيدسون البرتغاليين بالتخريب والوحشية فيقول " ... وكانوا ينشدون تدمير المدن الساحلية ونهبها ، ويميلون للوحشية واتسمت اعمالهم بالهمجية والحقد خصوصا عندما يقاومهم الاهالى ، ودائما ما خلفوا ورائهم الفوضى والخراب .

وضرب مثلا بما فعله البوكيرك من قطع انوف السيدات وايدى الرجال في ساحل جزيرة العرب ، واستشهد بمقتبس من رسالة حاكم ممبسة الى حاكم " مالندة " يصف له فيها ما أحدثه الميدا قائد الاسطول البرتغالى فى " ممبسه " ، يقول فيها " أن شعب السواحل والعرب عندما عادوا الى المدينة بعد هجوم الميدا ، لم يجدوا فيها أثرا للحياة فقد أحرق البرتغاليون كل من لم يتمكن من الهرب من الرجال والنساء والاطفال وهم أحياء " .

وتعرض دافيدسون لحادثة اخرى لنفس المدينة يقول فيها " لم يرحم البرتغاليون أهل " ممبسة " الذين فروا من آكلى لحوم البشر من قبائل " الوازمباة " الذين استغلوا الفزع الذى احدثه الهجوم البرتغالى فهاجموا المدينة والتهموا الناس فى الطرقات

---

[٢٩٩]) هى ابنة محمد سلطان هدية السابق الاشارة اليها .

[٣٠٠]) انزل البرتغاليون ٢٤٧ سفينة خلال ٢٥ سنة فى اساطيل صغيرة كانت تبحر الى الهند كل عام حطمت التجارة الشرقية وخلفت ورائها الفوضى والحطام دافيدسون ، صـ ٨٠.

وحينما القى سكان المدينة بأنفسهم فى البحر هربا من هذا الهلاك حصدتهم مدافع الاسطول البرتغالى دون رحمة "(٣٠١) .

ويقارن دافيدسون بين عقيدتا الحرب البرتغالية والافريقية ، فيقول " البرتغالية جاءت على نقيض اساليب الحرب الافريقية ، فبينما رغب البرتغاليون فى التدمير والقتل ؛ كان الافريقيون ميالون الى تقليل الخسائر البشرية فى الجانبين قدر الامكان (٣٠٢) ، فكل طرف منهما يحرص على الا يسد منافذ الهروب على عدوه ؛ حتى لا يضعه فى مأزق لا مخرج منه فيُحفزه على القتال بشراسة حتى النهاية مما يُطيل امد المعركة وتكثر خسائر الجانبين ، فلا يرغب من كانت له الغلبة فى ايغار صدرعدوه بتكبيده كلفة عالية فى الارواح لا يتقبل معها الصلح ويسعى للانتقام فى جولة اخرى.

وهى فى هذا قريبة فى بعض الجوانب من عقيدة الحرب الاسلامية ، فرسول الله اوصى اسامة بن زيد فى حملته ضد الروم " ألا يطارد موليا ...و... (نص الحديث .. لا تقتل طفلا لا تقتل امرأة لا تقتل شيخا لا تجهز على جريح لا تطارد موليا (دعه يهرب) لا تقطع شجرة مثمرة ، ستجدون اناسا جلسوا فى الصوامع يعبدون ربهم فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " ، وبمقارنة عقائد الحرب الثلاث نجد عقيدة الحرب البرتغالية وحشية حتى النهاية (إبادة) والاسلامية رُقى حتى النهاية والافريقية عقلانية من البداية حتى النهاية .

العودة الى الموادعة والعزلة

كانت اوضاع الحبشة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تنذر بالخطر فقد خرجت منهكة من حربها مع الامام الغازى ، ورأت استشراء الكاثوليكية بدعم من الوجود البرتغالى خطرا يتهدد عقيدتها اليعقوبية فإنشغلت بمحاربته بعد انتفاء الحاجة اليه بعد انهيار سلطنة عدل واختفاء عدد من السلطنات الاسلامية الذين ابتلعتهم فى الهضبة من قائمة الاعداء ، فسعت للاستعانة بدول الاسلام الكبيرة فى المنطقة فى اعانتها للتخلص من البرتغال فاثرت العودة لمهادنة الاسلام .

وصل الامر بـ فاسيليدس أمبراطور الحبشة فى تصديه للمد الكاثوليكى الذى ادى الى عزل والده سوسينيوس **susenyos** بسبب اعتناقه ، ان خطب (فاسيليدس) ود أئمة اليمن ليعينوه على البرتغال فاتصل " بالمؤيد" عام ١٦٤٠ وكرر نفس المحاولة مع خليفتة " المتوكل على الله " عام ١٦٤٧ ، فعاد الى سياسة الموادعة مع الإسلام والعزلة التى امتدت قرنين من الزمن ؛ تهيأت فيها فرصة سانحة لمد الاسلام بتدفق قبائل الجالا على الهضبة التى لم تستطع الحبشة وقف مدهم لضعفها وانشغالها بصراع امراء الاقاليم المتصرفون خلال تلك الفترة وحتى عهد الامبراطور **Tekla Haymonot** ١٧٠٦ - ١٧٠٨ ، وهذه القبائل اسلمت فيما بعد .

---

[٣٠١]) باسيل دافيدسون - افريقيا القديمة تُكتشف من جديد صـ ٨٠ .

[٣٠٢]) باسيل دافيدسون - افريقيا القديمة تكتشف من جديد صـ ٧٩ - ٨١ .

الفصل الثالث
نضال ممبسة
وجهاد الامبراطورية العُمانية
فى ساحل شرق افريقيا

انتفاضة ممبسة والاستنجاد بالترك والعُمانيين

فى اواخر القرن السادس عشر ؛ انتفض مسلمو ساحل شرق افريقيا متشجعين بوجود العثمانيين بالقرب منهم فى البحر الاحمر ؛ وكانت امارة " ممبسة " سباقة فى هذا الشأن فقادت فى عهد امارتها الجديدة التى قامت عام ١٥٨٣ الجهاد ضد البرتغاليين ولحقت بها الامارات المسلمة الواحدة تلو الاخرى ، لكن الإعتماد على الاتراك لم يحقق نتائج ملموسة فى المواجهة مع البرتغاليين بعد انهزام النجدة التركية فى معركة " ممبسة " .

على اثر ذلك إستنهضت " ممبسة " دولة عُمان الفتية لدعم جهاد الامارات المسلمة ، خاصة وان هناك روابط ممتدة بينهما وهى الاقرب ولديها خبرة فى قتال البرتغاليين برا فى اراضيها وبحرا فى الهند وثأرا لم ينتهى بخصوص اماراتها فى الساحل وعداء مستحكم ؛ فقد إستعدت البرتغال عُمان بإستهدافها امارات ساحل شرق افريقيا منذ عام ١٤٩٨ ، وإستشرى العداء بعد احتلال الاسطول البرتغالى بقيادة " البوكيرك " ساحل عُمان فى جنوب الجزيرة عام ١٥٠٧ (عام ميلاد المجاهد الاعظم جُرى) ، وإرتكابه الفظائع بأهله ومدنه بقطع انوف السيدات وايدى الرجال .

وبعد نجاح المقاومة العُمانية فى صد البرتغاليين وحصر وجودهم فى الساحل العُمانى ، بدأو فى توحيد الصف لطرد البرتغاليين ، فبايعوا ناصر بن مرشد بالامامة عام ١٦٢٤ ، وهو مؤسس دولة اليعاربة (١٦٢٤ – ١٧٤٣) ، وتمكن من هزيمة البرتغاليين فى عدة معارك قلصت وجودهم بشدة على الارض العمانية عام ١٦٤٩ عند وفاته ، ومن بعده استكمل الامام سلطان بن سيف (١٦٤٩ – ١٦٨٠) تحرير عُمان بعد أن هزم البرتغاليين قرب ديو غرب الهند فى اسيا .

نجدة العُمانيون ممبسة

بعد نصر الامام سلطان بن سيف على البرتغاليين فى ديو انقلب يلاحقهم فى شرق افريقيا عندما دعته ممبسة لنجدتها بعد اندحار النجدة التركية ؛ وتوالت إنتصارات العُمانيين على القوات البرتغالية فى " زنجبار" عام ١٦٥٢ ، وفى موقعة أخرى حاسمة قرب " ممبسة " عام ١٦٦٠ ، وتابع تقدمة فدخلت قواته " موزمبيق" عام ١٦٦٩ ، و كان وضع البرتغاليين فى نهايات القرن ١٦يسوء فوجودهم فى المنطقة المحيطة بالمحيط الهندى والبحرالاحمر تداعى تحت وطأة الانجليز والهولنديين فى الاولى وضغط العثمانيين فى الثانية ، وبدأت قواعدهم فى الساحل الافريقى تتداعى على يد سيف بن سلطان الاول (١٦٩٢ – ١٧١١) الذى استكمل تحرير ساحل شرق افريقيا بعد أن الحق هزيمة حاسمة بهم فى " ممبسة " عام ١٦٩٨ بعد حصار دام ٣٣ شهرا .

جهاد الامبراطورية العُمانية فى شرق افريقيا
ومطاردة البرتغاليين - وقيام دولة الوحدة العربية الافريقية الاولى

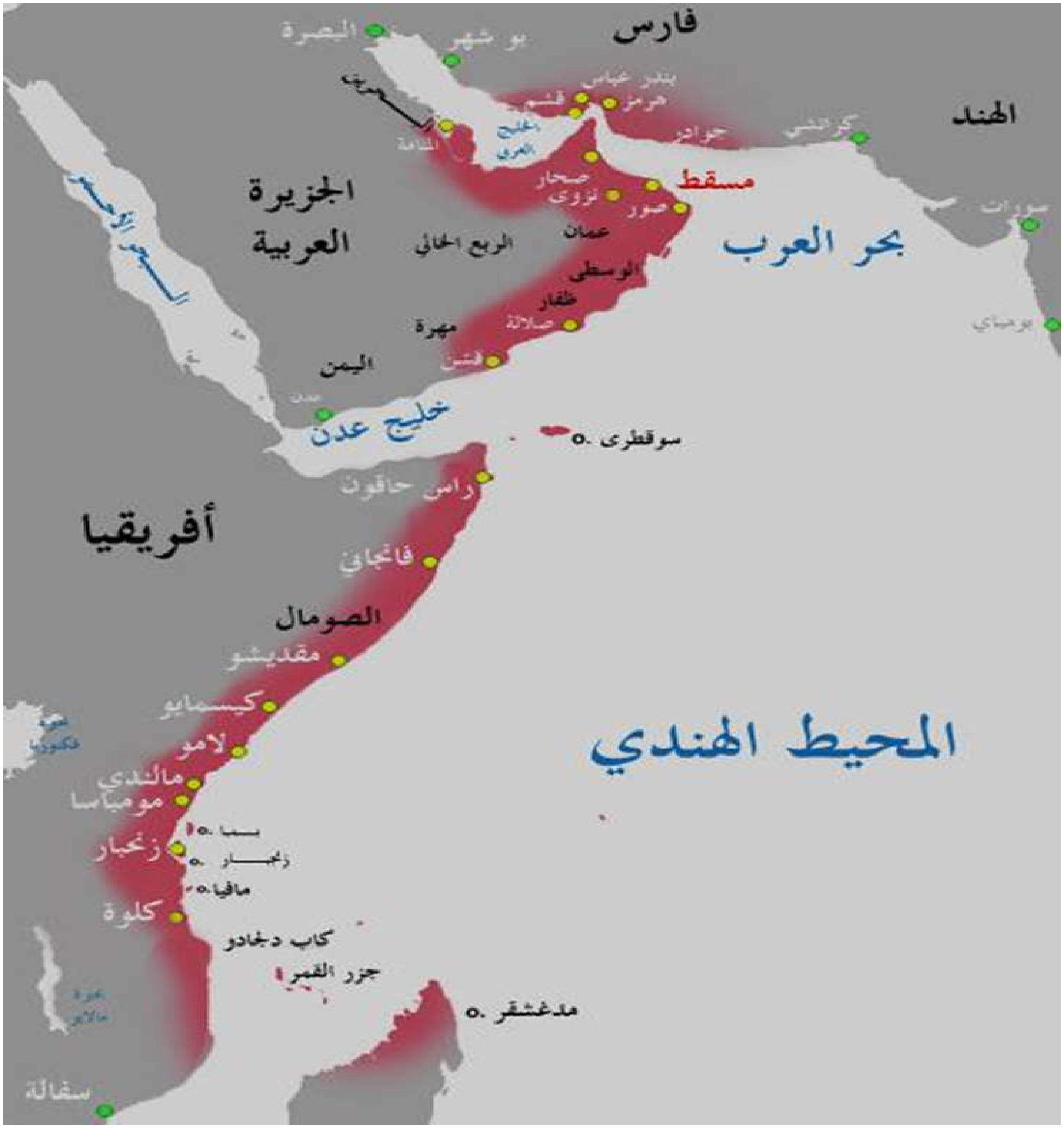
اصبحت عُمان قوة اقليمية يُعمل لها حساب ، هابتها قوى المنطقة ، واستقرلها الامر بعد ان فرض الامام سيف بن سلطان الثانى حمايته على " ممبسة " بناء على طلبها عام ١٧٢٨ ، وعين ابنه محمد بن سعيد العمرى حاكما عليها نيابة عنه ، فتابع الفتوح على الارض الافريقية فاخضع زنجبار ومعظم الساحل مابين مقدشو شمالا وحتى رأس " دلجاو " جنوبا وبذلك قامت دولة الوحدة العربية الافريقية الاولى .

دولة الوحدة العربية الافريقية الثانية

تأكلت سيادة عُمان فى المنطقة بسبب تراخ الائمة ؛ وبعد قرن تقريبا استعاد سلطان مسقط " سعيد بن سلطان " السيادة العمانية على المنطقة بعد أن حقق سيطرته على عُمان فى عام ١٨٢٤ ؛ فاستعاد " ممبسة " عام ١٨٣٠ ، وبعدها " كلوة " و" بمبا " و "مافيا" وزنجبار ، ونقل حاضرته من " مسقط " الى " زنجبار " عام ١٨٤٠، ثم ضم موزمبيق وبعدها مدغشقر بزواجه ملكتها مؤسسا بذلك دولة الوحدة العربية الافريقية الثانية على امتداد جنوب الجزيرة العربية فى مسقط وعمان وساحل شرقى افريقيا ، وبعد موت السلطان سعيد عام ١٨٥٦ إقتسم اولاده المُلك فحصل " توينى " على حكم عُمان واتخذ مسقط عاصمته ؛ وحصل " ماجد " على حكم شرق افريقيا وعاصمته " زنجبار " .

نبّذة عن سعيد بن سلطان

هو حفيد مؤسس الدولة البوسعيدية ، ولد في سمائل عام ١٧٩١ م، قام والده سلطان بن احمد قبل مقتله في عام ١٨٠٤ م بتعيين محمد بن ناصر الجبري وصيا على ابنيه ، سالم وكان يبلغ من العمر (١٥) عاما، وسعيد كان له من العمر (٣) عاما، وفي هذه الأثناء قام عمهما قيس بن احمد حاكم صحار بمحاولة للاستيلاء على السلطة في عمان ،فاجتمعت الأسرة البوسعيدية وارسل الوصي محمد بن ناصر الى بدر بن سيف بن الامام احمد بالدرعية منفاه الاختيارى بعد هربه من عمان اثر فشل الانقلاب الذي قام به ضد سلطان بن احمد عام ١٨٠٣ م ، فسارع بالتوجه الى مسقط ليمسك بزمام الأمور ، واستمر يحكم عمان لمدة عامين حتى مصرعه على يد الشاب سعيد بن سلطان بعد مبارزة رسمية بالسيف ، وبمقتله وطد سعيد بن سلطان حكمه في عمان والمناطق التابعة لها.



الامبراطورية العمانية وامتدادها الافريقى

الفصل الرابع
المد الاسلامى فى ساحل شرق افريقيا
بين القرنين ١٧ـــ ١٩

كانت مدافعة المسلمون البرتغاليين على مدى قرنين سببا فى تباطؤ مد الاسلام ؛ وإن كانت الحسنة الوحيدة لتلك الهجمة تغيير الاسلام مساره متجاوزا مناطق النكبة في مدن الساحل الى داخل القارة محمولا على اعناق القبائل التى فرت من عنف ووحشية الهجمة البرتغالية ، ومع تجارعُمان وزنجبار الى جبال كليمينياروا التى خبروا اسرار دروبها ؛ وساهمت سلطنات ساحل البحر الاحمر واهضبة فى مد الاسلام الى الهضبتين الحبشية والصومالية ، وهيأت عودة الحبشة الى اعتناق سياسة الموادعة مع الإسلام لتتفرغ لاحتواء المد الكاثوليكى الذى بات يهدد عقيدتها الارثوذكسية الفرصة واسعة من جديد امام الحركة المدية للاسلام ؛ عندما خطب " فاسيليدس " ملك الحبشة ود أئمة اليمن ليعينوه على البرتغال فاتصل " بالمؤيد" عام ١٦٤٠ ؛ وكرر نفس المحاولة مع خليفتة " المتوكل على الله " عام ١٦٤٧ ، وليست هذه السابقة الاولى فقد سبقه الى ذلك الملك سيفا أرعد الذى كان يراسل ملوك اليمن ويبحث عن علاقة ودية معهم (رغم سياسته العدوانية ضد المسلمين) ؛ فأرسل عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م وفداً يحمل الهدايا والتحف للسلطان الأفضل ابن المجاهد الرسولي.

حركة القبائل (الاعفار- الجالا- الصوماليون)

وساهمت حركة القبائل المسلمة كالعادة فى مد الاسلام ، فحركة الاعفار (الدناقل) والصوماليون دائما ما كانت تعنى حركة مدية للاسلام ؛ وساهمت قبائل " الجلا " او الجالا التى قطنت وادى العريبى ومنطقة جوبا حتى بحيرة " أبايا " ؛ بنصيبها هى الاخرى ؛ فهذه القبيلة تقدمت الى الهضبة وهى ما زالت على وثنيتها ؛ ولم تقوى الحبشة على صدها وهى منهكة فى حروبها مع المجاهدين ؛ وزادت الجلا قوة بإقتحام موجة ثانية منهم الهضبة فى القرن ١٧ وانتشروا فى ثلث البلاد ؛ واسلام هذه القبيلة كان حصادا لتعالى العنصر الامهرى عن مخالطة الجلا (الاورومو) ؛ فقاموا بعزلهم ولم يهتموا بتنصيرهم ، وكان هذا الموقف العدائى حافزا لتقارب الجلا (الاورومو) مع المسلمين المضطهدين مثلهم ؛ فجمعتهم هذه التفرقة بعلاقة مودة قوية مع التجار المسلمين فكانوا سببا فى اسلامهم وإخترق الاسلام الجلا (الاورومو) على نطاق واسع عندما إعتنقه بعض زعمائهم من ذوى النفوذ (٣٠٣).

وتعاظمت مكانة الجالا بالعمل مرتزقة فى جيش الحبشة وزواج ملك الحبشة منهم ، الامر الذى سهل انتشار الاسلام فى المناطق التى حكموها فـ" الرأس على " حاكم اقليم اورومو كان له فضل اسلام ثلث سكان البلاد التى حكمها فى منتصف القرن ١٩ (٣٠٤) ، و لعب القواسمة العرب دورا هاما فى اسلام البقليين فى القرن ١٠ وبعض قبائل الحبشة فى القرن ١٣ ، ولهم فضل مد الاسلام بأرض البجا غرب النوبة وبين حدود مصر الجنوبية والحبشة (٣٠٥) ، بفضل دولهم فقد كانت لهم دولة فى " وادى بركة " كانت خاضعة لمملكة " علوة " المسيحية ، وكانت لهم إمارة عربية خالصة فى القرن ١٣ فى منطقة " سواكن " تُسمى " الحدراب كانت خاضعة لدولة المماليك فى عهدى " الظاهر بيبرس " و " الناصر قلاوون " ساهمت فى نشر الاسلام بالمنطقة ، وحقق مد الاسلام بالسلم مالم تحققه المعارك فى قرون ، فقد تمكن الاسلام بهدوء فى الفترة السابع عشر حتى التاسع عشر من ثلث سكان الحبشة.

مد الاسلام تحت الراية العمانية فى افريقيا

هيأت عودة النفوذ العُمانى الى شرق افريقيا فى النصف الاول من القرن ١٩ ظروفا أفضل لمد الاسلام فهى أكبر دول المنطقة واقواها واكثرها حداثة وثراءا وازدهارا و بتفوقها البحرى إستتب امن المنطقة ، وفى ظل المناخ الجيد الذى اسبغته

---

[٣٠٣]) يرجع الفضل فى وجود التجار المسلمين بالحبشة الى سياسة " الموادعة " التى بفضلها إنفتحت امامهم ابوابها الحبشة للتجارة والتى كانت سببا فى اسلام الجلا ايضا .

[٣٠٤]) وهو نفس الوقت الذى اعتنقت فيه القبائل المسيحية الاريترية الاسلام.

[٣٠٥]) و القواسمة من القبائل الوافدة التى سبق ان لجأت الى ارض البجا فى أواخر العهد الاموى واندمجت فيها وكان لها فضل فى اسلام بعض القبائل فى الحبشة .

الامبراطورية العُمانية على المنطقة جابت قوافل تجار عُمان و "زنجبار " ، قلب افريقيا حتى بحيرات نياسا بتنجانيقا وفيكتوريا والاجزاء العليا من نهرى الكونغو والنيل فتدفقت الدعوة معهم حتى حدود الكونغو عبر اوغندا وكينيا وتنجانيقا (عام ١٨٢٥) ، كما قامت مراكز الايواء الدائمة لاقامة لتجار العرب على الطرق طوال الفصل المطير بدور عظيم فى نشر الاسلام .

دور الطرق الصوفية فى دعم الاسلام

قامت الصوفية بجهود عظيمة فى نشر الاسلام والمحافظة عليه سواء بجهاد الأئمة لدرء عدوان الحبشة السابق التعرض اليه او بالتصدى لعمليات تنصير أهالى الصومال بعد الاحتلال الانجليزى لها ، وبدأ انتشار هذه الطرق فى الفترة من القرن ١٦حتى القرن ١٩م ، فأقامت القادرية المدارس وإجتهدت فى نشر الاسلام منذ عام ١٥٠٣ فى الصومال والحبشة وكذلك بين بدو المناطق المجاورة بما فيها " الجلا " .

وأسهمت " الاحمدية " فى حركة الاحياء الدينى فى الصومال (١٨٧٠) ؛ وقامت " الخاتمية " بدور مماثل بعد وصول فروعها من السودان عام ١٨١٧ ، ومن اكثر الصوفية سمعة الامام المجاهد السيد محمد عبدالله حسن الذى قاد الصوفية فى الصومال ونستعرض دوره فى النبذة التالية :

جهاد الامام محمد عبدالله حسن

فى نشر الاسلام

ومواجهة التبشير (القرن ١٩)

ولد الامام عام ١٢٧٣ هجرية الموافق ١٨٥٦ م ؛ فى بلدة فوب فردوت باقليم الاوجادين شمال غرب الصومال (حاليا ضمن الحبشة) ، وهو من رجال البادية الاشداء ، حفظ القرأن الكريم وهو فى الثامنة من عمره ، ودرس اللغة العربية وعلوم الشريعة ؛ وبعد موت ابيه انتقل مع امه الى الاقليم الشمالى للعيش فى كنف اخواله ، واشتغل بالتدريس ولقب بالفقيه البارع ، وفى حوالى الرابعة والثلاثين من عمره قصد الى مكة لاداء فريضة الحج ، وهناك تأثر بثورية الشيخ صالح السودانى مؤسس الطريقة الصالحية ومتابعته للثورتين العرابية فى مصر والمهدية فى السودان.

وقرر الامام تشبها بزعيما الثورتين محاربة الانجليز فى بلاده ، وكانوا قُبيل ذهابه الى الحجاز قد إحتلوا ساحل بربرة عنوة بعد إجبارالسلطات المصرية على الانسحاب منها .

وبعد عودة الامام محمد حسن عام١٨٩٦ إستقر فى بربرة وكون مجموعة "الدراويش" على الطريقة الصالحية إستعدادا للثورة على الانجليز .

وجاءت الفرصة لما نزلت بعثات التبشير أرض الصومال الشمالى عام ١٨٩٧ فطلب الامام من السلطات البريطانية إبعاد المبشرين ، ولما ماطللت أعلن الجهاد وهزمهم هزيمة ساحقة فى " تالح " ، مما إضطر الحاكم العام البريطانى الى طلب التفاوض ، واجتمع الطرفان على مقربة من بلدة " لاس عانو " وعرض الوفد البريطانى على الشيخ وقف ثورته مقابل إعتراف الحكومة البريطانية به ملكا للصومال كله ؛ فرفض وواصل كفاحه على مدى عشرين عاما واجه فيها تكتلا من أربع دول هى انجلترا وفرنسا وايطاليا ومعهم الحبشة ولم يستسلم الامام أبدا الى ان لقى ربه فى عام ١٩٢١ .

الفصل الخامس
حضارة الاسلام فى
سلطنات ساحل البحر والهضبة وساحل شرق افريقيا

كانت مدن الساحل التى كانت عبارة عن مراكز تجارية في نشأتها ومراكز تجارية محصنة وتحميها قوة بحرية، قد أخذت تنمو وتتسع في داخل أسوارها حتى تحولت تدريجياً إلى مدن زاهرة محصنة تحصيناً قوياً وتحميها قوة بحرية ، وقد تبلورت سماتها الإسلامية الصرفة فى مقديشو، براوة، قسمايو، بات، لامو، زنجبار، موقيه، مكوة، موزمبيق، سفالة، ومدن مثل ميسه وكلوه وغيرها على مقربة من الساحل، وتجلت مظاهر الحضارة الإسلامية بها في فن العمارة وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والشبابيك ، وتطبيقاتها فى قصور (مكوة) ومساجدها.

ولفت رُقى إمارات الساحل المسلمة نظر العديد من الرحالة فى السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ، فقد إندهش " فاسكو دى جاما " وبحارته لما رأوى مدنا مزدهرة عامرة بالسكان مؤسسة على احسن الطرز تماثللها فى الروعة القليل من مدن اوروبا على حد تعبير دافيدسون ، وبات واضحا لهم ان مدن الساحل الشرقى لافريقيا كانت على قدر كبير من التمدن وعلى معرفة كبيرة بالعالم ، وأن مدنيتهم الاوروبية لا تتفوق على مدنية تلك المدن فى كثير ، فبحارة هذه المدن يعرفون جيدا طرق الملاحة الى الهند وما وراءها ، واجهزتهم وخرائطهم تماثل ما كان فى حوزة البرتغاليين وربما اكثر دقة ، فالبحارة العرب كانوا على معرفة اكثر بالعالم الخارجى في وقت كانت فيه الاكتشافات الاوروبية ما زالت في بدايتها ، ويقول " ساو جابرييل " مسجل سفينة فاسكو دى جاما ان اثنان من سادة البلاد زارا السفينة ، وكانا على جانب كبير من التعالى ونظرا بترفع لما قدمناه لهم من اشياء لاقيمة لها فى نظرهما (٣٠٦) ، وادهش ابن بطوطة عند زيارته للمنطقة فى القرن ١٥نفس ما أدهش البرتغاليين .

ومن الناحية الاقتصادية كانت المستعمرات العربية مركزا تجاريا دوليا هاما ، ومقصدا لسلع الصين والهند والجزيرة العربية وبقية العالم الاسلامى ، ويصف باربوزا البرتغالى المنطقة بأنها اعظم منطقة تجارية في العالم ، ويشير المؤرخ " عربى فقيه " فى كتابه " فتوح الحبشة " الى الثراء العريض والترف الذى تعيشه هذه المدن الارقى فى محيطها بما فيها مدن الحبشة فيقول " إن كثرة العملات الذهبية والفضية (كثرة النقود) فى يد الجنود والمسلمين عامة أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة فأصبحت الكماليات ضروريات فإرتفعت الاسعار فأصبح البغل الواحد يساوى أربعين أوقية من الذهب بعد أن كان ثمنه منذ عامين لايصل الى ربع اوقية وان السلع المصرية والاسلامية ملأت الاسواق" .

ومن ملامح النهضة الثقافية فى هذه المدن كثرة مراكز العلم من مدارس ومساجد والوافدين من العلماء والادباء والشيوخ وطلاب العلم ، فهناك معلمون من الحجاز ومصر واليمن لنشر اللغة وتعليم الفقه والسيرة والتشريع مما جعل " هرر " بحق كعبة تعليم ومركزا للمخطوطات والمدونات التى ليس لها مثيل فى شرق افريقيا كله ، وأصبحت (براوة) على ساحل إفريقيا الشرقي جزيرة عربية تجذب الطلاب من مختلف انخاء المنطقة الساحلية

ويلاحظ اثرالتهديدات التى تعرض لها الاقليم لقرون من كلا من البرتغال والحبشة المتعصبتين ؛ فى مغالاة هذه المدن فى التركيز على الجانب الدينى فى الحياة الثقافية ، التى تفردت فى شرق افريقيا بإندماج الشخصية العربية والافريقية بسوابق بعيدة فى الزمن وضعت اساسا لوحدة ثقافية انبثقت عنها الثقافة " السواحيلية غلبت عليها العربية على حد قول باربوزا البرتغالى " ، ثقافة عربية القلب افريقية القالب .

ومن الجلى تحضر مسلمى المنطقة وتفردهم من هذه الناحية على بقية عناصر الاقليم العرقية بما فيهم الحبشة ام حضارة الاقليم الغائرة فى التاريخ ويؤكد ترمنجهام هذه الحقيقة فى كتابه اثيوبيا المسيحية بقول " لاحظ الاوروبيون ان المسلمين فى الحبشة المسيحية عادة ماكانوا يشغلون الوظائف التى تتطلب خبرة ومستوى ثقافى خاص " ويضيف جوستاف لوبون فشاعت العربية بينهم (٣٠٧) ، ومن اهل العلم المؤرخ المشهور عبد الرحمن الجبرتي (١١٦٨هـ - ١٧٥٤م(، والفقيه الأصولي فخر الدين أبو عمر عثمان بن على بن محجن البارعي الزيلعي من أهالي زيلع والإمام العلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي (٧٦٢هـ) ومن أشهر مؤلفاته نصب الراية لأحاديث الهدايةفي أربع مجلدات.

---

[٣٠٦]) إفريقيا القديمة تكتشف من جديد صـ ٧٩.
[٣٠٧]) حضارة العرب ــ د جوستاف لوبون صـ ٢١٧.

وما يؤخذ على مدن ساحل افريقيا الشرقى ممارستها تجارة الرقيق ، وهى فى ذلك تختلف عن مسلمى غرب افريقيا الذين تصدوا بقوة لهذه التجارة ، وقد نجد مبررا فى اختلاف المنظور فى شرق افريقيا ؛ فالدويلات المدن فى الشرق كانت تفتقر للقوى العاملة لادارة نشاطها الاقتصادى الكبير فما كان منها الا اللجوء الي هذه التجارة لتدبير العمالة ، وان كانت النخاسة فيها ليست على نطاق واسع وبنفس وحشية مثيلتها فى الغرب .

الفصل السادس
الفتوح المصرية في شرق افريقيا
١٨٠٥ ـ ١٨٩٦ م

تعود العلاقة بين مصر والصومال الى ما قبل بُعوث حتشبسوت، فينسبهما علماء الاجناس الى جد واحد من العنصر الحامى ، وتحقق اول وجود مصرى فى الصومال فى العصر الحديث فى عهد محمد على عندما منح الباب العالى إبنه ابراهيم باشا (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م) باشوية الحجاز عام ١٨٢٠ م مكافأة له على نجاح حملته ضد الثورة الوهابية ، وضمت الباشوية سواكن ومصوع ؛ فقام ابراهيم باشا بإرسال جيشا واسطولا من ٨ سفن تأكيدا للسيادة المصرية على المنطقة ، وبعد وصول القوات المصرية عملت على التحالف مع الرأس على زعيم الجلا المسلم ، وواصلت تقدمها في المنطقة فإصطدمت بالحبشة ؛ لكن السلطان العثمانى اوقف تقدمها واضطرها الى الانسحاب من مصوع ، فبادرت الحبشة بملئ الفراغ الذى خلفه الانسحاب وتمادت بمهاجمة املاك العثمانيين فى " أركيكو" خرقا لهدنتها معهم مما إضطر الباب العالى الى تأجير المنطقة الى محمد على مدى الحياة للدفاع عنها ، ثم بالتنازل عن " سواكن ومصوع" الى الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٥ م وعن توابعهما عام ١٨٦٦م بناء على طلب الخديوى بدعوى انه لا يمكن السيطرة على تجارة الرقيق بدون احكام سيطرته على هذه الموانئ وعين الخديوى مختار باشا حاكما للساحل الافريقى من السويس الى جودفوى.

وفى إطار مسلسل المنح السلطانية حصلت مصر على زيلع عام ١٨٧٣ م ، ومنها تقدمت قواتها بقيادة رءوف باشا لتحرير هرر من حاكمها المتعسف محمد بن عبد الشكور الذى حرم على اهل البلاد أكل الارز والبلح والزبد بحجة انها أكل الملوك واحتكر تجارة العاج والبن لنفسه ، ودخلت القوات هرر فى ١١ اكتوبر ١٨٧٥ م وسط ترحيب اهلها ، وفى سبتمبر عام ١٨٧٥ م دخل الاسطول المصرى بربرة واقام فيها خزانا للمياة العذبة وشيد مسجدا وميناء ومنارة لارشاد السفن ، وتقدم بعد ذلك الى رأس جفوبه وبراوة من توابع سلطان زنجبار وسط ترحيب اهلها وتركت عليها مصر حاكما ؛ ثم تقدم الاسطول الى " كسمايو" حيث طلب اهلها ومعهم اهل براوة من القائد المصرى التدخل لتحقيق المصالحة بين القبائل.

تقدمت بعض سفن الاسطول فى نهر جوبا لمسافة ١٥٠ ميلا محاولة الوصول الى البحيرات الاستوائية كطلب غوردون كما سبقت الاشارة ؛ إلا ان تعذر الملاحة إضطرتها للعودة الى كسمايو التى أسموها بور اسماعيل ، واقبل سلاطين جزر القمر على كسمايو طالبين من القائد المصري قبولهم رعايا لمصر .

المد المصرى فى الحبشة (التصادم)

كان اول صدام حقيقى مع الحبشة عندما هزمت القوات المصرية قوات هايلوا كاسا حاكم قوارا (الامبراطور ثيودور الثانى فيما بعد ١٨٥٠م سنة) فى معركة دباركى عام ١٨٤٨ عند مهاجمتها الحدود السودانية رغم ضخامة اعداد القوات الحبشية الامر الذى تعلم منه هايلو كاسا اهمية التنظيم والانضباط الذى تتحلى به القوة المصرية وكان سبب انتصارها .

اثناء ذلك كان الحكام المحليين الاثيوبيين يقومون بغارات متكررة على الحدود مثل غارات دجاج هايلو حاكم إقليم هماسين وولد مراج حاكم عدى؛ عبر الحدود الممتدة من التاكة حتى القلابات وفازوغلي ، ورغم الانتهاكات المتكررة الا ان الخديوي إسماعيل حافظ من جانبه في بداية عهده على السلام مع امبراطورأثيوبيا تيودور الثاني الذى كان يواجه تمرد العديد من امراء الاقاليم .

مشروع بيسون

وفى ضوء الحرص على منع اسباب التوتر مع الحبشة رحبت مصر فى سبتمبر سنة ١٨٦٣م باقتراح الكونت الفرنسي بيسون Bisson لإنشاء منطقة عازلة بين البلدين قرب الحدود الأثيوبية فى شرق السودان على هيئة مشروع زراعي صناعي عسكرى ، وامر إسماعيل حكمدار السودان بتقديم العون الكامل لبيسون في حالة صدامه مع أثيوبيا إعتقادا منه بأن فرنسا تدعمه ، ولما انكرت فرنسا صلتها به تراجع الخديوى عن مساعدته وأمر حكمداره بألا يسمح له بإقامة تحصينات قريبا من الحدود ، وقصر المساعدة فى حال اغارته على أثيوبيا على تقديم الذخيرة دون الجنود ، وطلب منه احتجاز بيسون في الخرطوم أطول فترة ممكنة

لحين معرفة رد فعل بريطانيا حتى لا يُتهم بالتحرش بأثيوبيا.

ادعى بيسون عند وصوله وجماعته إلى السودان أن الحكومة المصرية وعدته بإرسال حملة لغزو اثيوبيا يتولى قيادتها على أن يبدأ بتدريب القوات المصرية طبقا للأسلوب الفرنسي ،وأشار على موسى حمدي حكمدار السودان أن يقترح على مصر غزو أثيوبيا في العام التالي سنة ١٨٦٤م ، وأوضح له أن فرنسا سوف تقوم بالغزو إذا أحجمت مصر عن ذلك فظروف غزو أثيوبيا أصبحت مهيئة فقد اعدت البعثة التبشير الكاثوليكية بالاتفاق مع الأب ستيللا رئيس الارسالية لثورة سكان تيجري فى بوجوس ضد الامبراطور تيودور (٣٠٨) ، وسببت تصريحات بيسون إرباكا للحكمدار الذى ارسل إلى القاهرة يستوضح الامر.

اهتمت بريطانيا بأنباء حملة بيسون وأجرت اتصالات مع فرنسا بشأنها فأنكرت الاخيرة علاقتها بالامر ، وفى نفس الوقت ابلغت بريطانيا مصر بأنها لا تسمح بألاعتداء على أثيوبيا أو تأييد الكونت بيسون لنفس الغرض ؛ وبالفعل أرسلت الحكومة المصرية تعليماتها إلى حكمدارها في السودان تؤكد له فيها عدم النية في غزو أثيوبيا وعليه ألا يقدم لبيسون أي مساعدة ويعامله كأي سائح عادي ولا يقيم وزنا لما يدعيه لنفسه ؛ ونبهت الحكمدار الى انه في حالة مطاردة الأثيوبيون لبيسون داخل الحدود المصرية على الحكمدارية أن تطردهم بالقوة ، كما ان عليه ان يعمل على اضعاف قوة الاب ستيلا وفض أنصاره .

فى تلك الاثناء التقي بيسون الأب ستيلا فى كسلا ؛ الذى حثه على غزو القوات المصرية لأثيوبيا للقضاء على تيودور عند قيام ثورة التيجراى ، ونصحه بعدم الذهاب إلى مستعمرته المقترحة والبقاء في نقطة كوفيت شرقي كسلا من الأملاك المصرية لقربها من الحدود للقيام بحملاته الحربية على أثيوبيا منها ، وكان بيسون قد تمكن من الاستيلاء على سهل ستث على الحدود مع تيجري بتنازلات من الأهالي واستمر في ضم باقي إقليم بوجوس وإرسال حملات إلى المناطق المجاورة يستولي فيها على الماشية والعمال ، ومن ناحية اخرى هول الخطر الاثيوبى على الحدود إلى حكمدار السودان ليورط السلطات المصرية مع أثيوبيا ، ولم تنجح خطط بيسون لعدم تعاون الإدارة المصرية معه فتخلي عن مشروعه وعاد في صيف سنة ١٨٦٤ م إلى فرنسا ، ولم يكن لهذه الحملة من نتائج سوى توتر علاقات مصر وأثيوبيا ، ورفضت مصر بعد ذلك طلب مغامر فرنسي آخر لغزو أثيوبيا .

استغل اسماعيل الوضع فى المنطقة وطلب من الباب العالى ضم مصوع وسواكن للسيادة المصرية لاحكام السيطرة على قبائلهما و قبائل إقليم التاكة منعا لاستغلال أثيوبيا للقلاقل الناتجه عن التدخلات الاجنبية ممثلة فى محاولات الارسالية الكاثوليكية وقنصل فرنسا في بوجوس فرض الحماية الفرنسية على المنطقة ، واكد ان خضوعهما لمصر يسهل توطيد الأمن والقضاء على تجارة الرقيق ، وكان هدف الخديوى من ضم المدينتين احكام السيطرة على منافذ الحبشة للعالم الخارجى ومراقبة تجارتها الدولية والاهم فيها حركة جلب السلاح من الخارج ، وسهلت بريطانيا الامر اسماعيل خشية تقدم النفوذ الفرنسى الى بالمنطقة بعدما احتلت أوبوك قرب مضيق باب المندب .

تسلمت مصر سواكن في مايو سنة ١٨٦٥ م وتأخر تسليم مصوع للعام التالي الى أبريل سنة ١٨٦٦م لثورة الجند في التاكه واحتلت مصر أركيكو فى نفس الوقت ، وتمركزت الحاميات المصرية في المواقع التركية على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ودفعت بقواتها على الحدود الأثيوبية السودانية عبر ميناء سواكن الذى سهل حشد القوات .

اصبحت اثيوبيا فى وضع حرج بعدما سيطرت مصر على مصوع منفذها الخارجى الطبيعي ونافذتها على العالم واتاحت لمصر السيطرة على إقليم بوجوس والطريق المباشر بين مصوع وكسلا وطريق الجمال إلى إقليم هماسين ، ويهدد إقليم الزنادقلي الخاضع لأثيوبيا والذي تصل حدوده إلى شمال غربي مصوع بنحو ستة أميال .

وتواكب مع الوضع الجديد تهديد أخر فقد عرض جوباز حاكم لاستا المناوئ للامبراطور تيودور أنضمام إقليمه الى مصر إلا أن الخديوى رفض لانشغال مصر بحرب كريت ولا يتوفر لمصر الإمكانيات لدعم المناوئين للامبراطور وتحمل ما قد ينتج عن ذلك ، بالاضافة الى مصر كانت تأخذ في الاعتبار رد فعل اثيوبيا لاى تحرك مصرى معادي على حياة رعايا بريطانيا القنصل والمبشرين

---

[٣٠٨]) يعنينا موقف الارسالية الكاثوليكية للتدليل على الارتباط العضوى بين التبشير والاستعمار والتحريض عليه فهذه الارسالية تركت سنة ١٨٥٢ عدوة فى الحبشة وانتقلت إلى أكالاكال جوزاى Akakal Gusay فى بوجوس هربا من الضغوط المعادية للكاثوليكية بعد مقتل حاميها الامبراطور نيجوسي حليف فرنسا بيد ثيودور الثانى الامبراطور المعادى للكاثوليكية ، وفى ظل الرغبة فى معاودة التبشير فى الحبشة فى ظل حماية مؤكدة فقد شجعت ودبرت ومهدت القنصلية الطريق امام بيسون لغزو المنطقة ، فقد عرض الأب ستيلا عليه قيام القوات المصرية بغزو أثيوبيا للقضاء على تيودور (يوليو ١٨٦٤- اغسطس ١٨٦٥) ، وهو ما استغله اسماعيل لدى الاستانه لتبرير طلبه ضم مصوع وسواكن اليه معتبرا تدخل قنصل فرنسا في بوجوس وفرضه الحماية على قبائلها امرا خطيرا .

البروتوستانت الذين اعتقلهم تيودور لاعتقاده أن بريطانيا تتواطأ مع مصر على غزو بلاده .

وفى ذاك الوقت تحالف الامبراطور تيودور مع أحمد شنا أحد زعماء دارفور على أن يزحف شنا وحاكم جبل الداير على كردفان ويزحف تيودور على الخرطوم فى نفس الوقت لغزو السودان ، ولكن هذه الخطة لم تنجح لأن تيودور انصرف الى متابعة تحركات الإنجليز المعادية لانقاذ اسراهم بعد فشل محاولات كل من الخديوى ووليام جيفورد بلجراف المبعوث الانجليزى لإطلاق سراح الأسرى (٣٠٩) .

وعندما فشلت الوسائل الدبلوماسية في الافراج عن الأسرى ، قررت بريطانيا استخدام القوة فأرسلت الكولونيل ميروزير حاكم عدن ليتقصى أحوال أثيوبيا الداخلية ودراسة الطرق التي تربط ساحل البحر الأحمر الأفريقي بالهضبة الأثيوبية ، وبالفعل قام في يناير سنة ١٨٦٧ م بجولة في مصوع وطاف بساحل سمهر وخليج انسلي لمعرفة الأماكن المناسبة لنزول قوات الحملة البريطانية إلى أثيوبيا ووقع اختيار ميروزير على طريق أمفيلا – عدوه.

أثار نشاط الإنجليز شكوك مصر فكلفت حكمدارها في السودان جعفر مظهر باشا بالقيام بجولة تفتشية على طول ساحل البحر الأحمر حتى باب المندب ؛ دعا فيها شيوخ القبائل للاعتراف بالسيادة المصرية وفى تقريره الى مصر دعاها الى ضم أثيوبيا فى ظل الفوضى الناشبة في أنحائها ، مبررا دعوته للغزو بتضامن سكان المناطق الحدودية مع مصر .

حلت الفوضى باثيوبيا بسب صراع الرؤوس(الامراء) للوصول إلى العرش وكان المتنافسون هم الرأس كساي هيله درگه في تيگراي ، وواجشوم في جوباز في أمهرة، ومنليك في شوا ، وكان إسماعيل يتابع هذا الصراع ولكنه لم يتدخل فيه، اما بشأن الغزو الانجليزى فقد احتاط الخديوي لما قد تتطور إليه الأمور في هذه المنطقة وجلب قواته من كريت وارسلها إلى الحدود الاثيوبية حتى تكون مستعدة ، ولم يدخر وسعا فى معاونة الحملة البريطانية على الحبشة سواء فى مرورها بمصر او السودان سنة ١٨٦٧ م ، وانتهت الحملة بإنتصار الانجليز وإنتحار تيودور الذى فضل ذلك عن الوقوع فى اسر الانجليز .

وقبل رحيل الحملة من أثيوبيا إختارت الرأس كساي هيله درگه امبراطورا (تُوج امبراطورا باسم يوحنس الرابع) خلفا لتيودور لما قدمه من خدمات للحملة ، وترك له الانجليز كمية ضخمة من السلاح والذخيرة يقدرها ماركوس بنحو نصف مليون جنيه استرليني هى ست مدافع مورتار، و ٩٠٠ بندقية، وكميات من الذخيرة تضم ٥٨٥٤٨٠ مقذوف صوت، وإمدادات وسلع أخرى ومعها أحد كبارالعسكريين بالحملة الجنرال كيركهام Kirkham لتدريب جيشه وهى تعلم ان كساى يرغب في طرد المصريين من كل السودان وساحل البحر الأحمر خاصة وان مخاوفه قد تزايدت مع تقدم الحملة المصرية بقيادة صمويل بيكر إلى أعالي النيل ؛ ومع هذا وافق الخديوى على إرسال مطران لتتويج كساى ولكنه رفض مساعدته عندما طلب منه ذلك عن طريق النائب محمد عبد الرحيم أمير مصوع وناظر سمهر ، فقد كان اسماعيل يرغب فى ضم منطقة بوجوس الواقعة بين إقليم التاكة ومصوع إلى مصر.

فى تلك الاثناء تصاعدت الأزمة بين الارسالية الكاثوليكية وكساى لثبوت تواطؤهم في اثارة الثورة فى المنطقة بعد العثور على رسالة من الأسقف توفيير فى متعلقات الثائر جوباز بعد هزيمته تذكر أنه إذا وافق على إعطاء المبشرين حرية العمل في اثيوبيا فانهم سيمدونه بالمدافع والبنادق وكل ما يحتاجه من السلاح والذخيرة ، وحاول Munzinger قنصل فرنسا (وهو نمساوي) في مصوع أن يُهدئ الامور مع كساى إلا أنه فشل ومن ثم فقد شجع الزعماء المناوئين له (لكساى) في طلب الحماية الفرنسية وكان من بينهم ولدميكا بيل حاكم هماسين الذي اتصل بنابليون الثالث امبراطور فرنسا .

ولما تفاقم الموقف بين كساى والكاثوليك ؛ أرسل كساى قواته إلى قرى بوجوس واحرقوا الكنائس وبيوت المبشرين ونهبوا القرى ، فهرب المبشرون الكاثوليك ، وكان لتصاعد العداء بين كساى والمبشرين أن طلب قنصل فرنسا في مصر من الخديوي إسماعيل الوساطة فى الامر ، ووعده الخديوي بأنه سوف يقنع البطريرك القبطى بأن يرسل تعليماته إلى مطرانه في أثيوبيا ومعها قس مصري إلى كساى لاقناعه بالكف عن أعمال الاضطهاد وترك المبشرين الفرنسيين يواصلون أعمالهم .

---

[٣٠٩]) حذر الخديوى فى رسالته تيودور من ان تمسكه باحتجاز الأسرى سوف يدفعه – أي الخديوي إسماعيل – إلى أن يسمح للقوات البريطانية بالمرور في أملاكه وصولا للحبشة ، ودعاه إن يستمع الى صوت العقل ويعمل بنصيحته ، وحمل اسماعيل أحد رجال الدين الأقباط رسالته هذه ومعها رسالتين أخريتين من بطريرك الأقباط ومن بطريرك الأرمن الأرثوذكس، وطلب من عبد القادر باشا الذي عين مندوبا فوق العادة في مصوع بسبب ظروف الحملة الإنجليزية ، بأنه في حالة الافراج عن الأسرى عليه ان يرحب بهم ويسلمهم إلى القنصل الإنجليزي في الحال ، أما في حالة عدم الافراج عنهم، فيعمل على توصيل القس القبطي حامل هذه الرسائل إلى الحدود ، ولم يهتم تيودور بهذه الرسائل واستمر في سجنه لهولاء الأسرى.

وأرسل الخديوي برسالته إلى كساى مع أحد رجال الدين الأقباط ، حثه فيها على التسامح المذهبي ، وقد عكس كتاب **Munzinger** الى مصر الصدى الطيب لموقفها تجاه الكاثوليك فى المنطقة بتطلعهم لإكتساب رعوية مصر وحمايتها ومساعدتها ، لم يرحب كساى برسالة الخديوى التى تسلمها بعد احتفالات تتويجه امبراطورا على اثيوبيا في يناير سنة ١٨٧٢ واعتبرها متعالية وكأنها اوامر صادرة من حاكم إلى أحد أتباعه بما تضمنته من تهديد إذ كان يطلب فيها الخديوى منه اعادة بناء الكنائس وعودة الكاثوليك ورد أملاكهم ومعاملة المبشرين معاملة حسنة، وتأزم الموقف بين البلدين وزاده تعقيدا موافقة إسماعيل على طلب مشايخ هذه المنطقة الحماية المصرية بعد غارات ولد مراج الاثيوبي زعيم العفر المسلمين على بوجوس ، التى ضمتها مصر ومعها ايليت في أواخر يونيو سنة ١٨٧٢م على يد **Munzinger** على رأس قوة مصرية ، وكان **Munzinger** قد استقال من وظيفته كقنصل لفرنسا في مصوع والتحق بخدمة مصر في أبريل سنة ١٨٧١ وعينه الخديوي محافظا لمصوع.

ولما كان يوحنس الرابع مشغولا بالقضاء على ثورة الجالا في الجنوب وتمرد بعض الرؤوس مثل هايلو ولد جورجيس وولد ميكائيل ، فلجأ الى الدبلوماسية فأرسل مبعوثا إلى الخديوي إسماعيل يدعي محمد ناصب الجبرتي في ٣١ يوليو سنة ١٨٧٢ حاملا رسالة يوضح فيها أن بوجوس أرض أثيوبية منذ زمن بعيد ، وأشار الى ملكية الامبراطورية الأثيوبية المنطقة الساحلية وشكا من أعمال **Munzinger** وطلب من الخديوى أن يسحب القوات المصرية من بوجوس كمقدمة لتحسين العلاقات .

احتجز إسماعيل المبعوث الأثيوبي لمدة عام حتى اغسطس سنة ١٨٧٣ ، فأرسل الامبراطور يوحنس الرابع مستشاره العسكري الانجليزى كيركهام إلى بعض الدول الأوروبية (النمسا – روسيا – ألمانيا – فرنسا – بريطانيا) في نهاية شهر اغسطس سنة ١٨٧٣ لتبذل جهودها لاقناع إسماعيل بالانسحاب من بوجوس ومساعدة أثيوبيا في الحصول على ميناء أمفيلا وسهول الملح .

وعندما استجلت انجلترا الامر من الخديوى هدد بأنه سينتقم للاعتداءات التي تقع على أقاليمه واذا لم يُعيد يوحنس خلال ثلاثة أشهر الأراضي التي استولى عليها ، ودفع تعويضات عن الاضرار الى مستحقيها فإنه سوف يحتل بوجوس ، فتدخلت بريطانيا لدى الباب العالى لوقف العمل الحربى والبحث عن حل منصف لهذه المشكلة ، ولما استفسر الباب العالى عن الموقف برر الخديوى فتحه منطقة بوجوس فى رده بأنها لحماية أتباع السلطان في هذه المنطقة ، وأوضح أن قواته لن تتخطى الحدود الأثيوبية فليس لمصر أطماع فيها وأنه يبغي تنشيط التجارة والزراعة بين البلدين .

استدعى إسماعيل **Munzinger** من مصوع وطالبه بمفاوضة يوحنس لتحديد الحدود بين البلدين بما يضمن ادخال بوجوس ضمن حدود مصر ، ورفض يوحنس الرابع التفاوض مع **Munzinger** ودفع بمجموعة كبيرة من الخيالة والمشاه المسلحة لمهاجمة ايماسا السودانية الواقعة على بعد يوم من المركز العسكري فى كوفيت ، فقتلوا عددا من الأهالي والضباط وأسروا عددا من النساء والأطفال وسرقوا الماشية ، وتكررت الغارات الاثيوبية على القرى السودانية، مما أدى إلى وقوع صدام بين القوات المصرية والاثيوبية فى اواخر سنة ١٨٧٢ واوائل ١٨٧٣ تقريبا ؛ وبعد ثمانية اشهر بعث يوحنس برده على رسالة الخديوى رافضا فيها طلبه وتمسك بإسترداد بوجوس وايليت ، وإدعى ملكية اثيوبيا لموانئ ساحل البحر الأفريقي .

هدد إسماعيل باحتلال إقليم هماسين الخصيب وكان سكان قد طلبوا من **Munzinger** أثناء فتحه بوجوس الخضوع للحكم المصري ، وكانت بوجوس تسهل عبور القوات ليس فقط الى إقليم هماسين وإنما الى شمال اثيوبيا ؛ وبرر إسماعيل تحركه باحتلال هماسين بأنه يستهدف إطلاق سراح الأسرى والحصول على التعويض اللازم للأهالي نتيجة للخسائر التي تكبدوها من جراء الغارات الاثيوبية .

مقدمات الحـــــــــــــرب

بين مصـــــــــــــر واثيوبيـــــــــا

كان هدف يوحنس الرابع من وراء حصوله على ميناء على البحر الأحمر تسهيل استيراد الأسلحة والذخيرة التي تساعده ضد الرؤس الثائرين ، واعتقد أن توريط بريطانيا بطريق غير مباشر قد يساعده في الحصول على هذا الميناء ، فأنشأ ولاية جديدة منحها الحكم الذاتي سميت ولاية جيندا ملاصقة للحدود المصرية ضم لها بعض الأجزاء الخاضعة لمصر ، وكانت تشمل الحافة الشمالية الشرقية من الهضبة الاثيوبية والساحل الممتد من شمال خليج انسلي في الشمال إلى خليج أمفيلا وسوهو في الجنوب وتضم ميناء زيلع المصري والقبائل النازلة حوله ، ومنحها الحكم الذاتي وولى عليها كيركهام الذى رفع عليها العلم البريطاني في ديسمبر ١٨٧٤ واعلنها منطقة محايدة لا تدخل في الصراع الدائر بين مصر واثيوبيا.

وإعتقد يوحنس أن تولي كيركهام حكم المنطقة المحايدة سيجعل بريطانيا تسارع بفرض حمايتها عليها وتحقيق مطلبه فى ميناء لها ، وبدأت الولاية فى تحصيل الضرائب التى كانت تحصلها مصر من أهالي زولا وجيندا وأمفيلا وملاحة أسالة، غير أن بريطانيا رفضت وضع هذه الولاية تحت حمايتها ، وكانت مصر تدرك هدف يوحنس الحقيقى من سعيه للحصول على ميناء على البحر الأحمر لجلب الأسلحة بعيدا عن تحكم مصر التى احكمت رقابتها على سواحل البحر الأحمر لمنعه من تحقيق هدفه بل حاول إسماعيل منع اتصال يوحنس بالدول الاجنبية خوفا من تدخلها فيما يحدث من صراع بين الدولتين .

مصر ومنليـــــــــــك

في ذلك الوقت كان منليك يبحث عمن يستقوى به فى صراعه مع يوحنس للمحافظة على استقلاليته المحدودة ، وقد نصحه أحد كبار الاثيوبيين بالتعاون مع مصر التى باتت فى جواره فى بوجوس ، فأوفد منليك احد أبناء الشيخ أبو بكر باشا حاكم زيلع إلى مصر لاقتراح التحالف معها ضد يوحنس فرحب الخديوى بذلك فإستغل منليك ترحيب الخديوى للحصول على بعض الحرفيين والفنيين كمساعدة مصرية لتحديث شوا ، ولم يمنع هذا التقارب إستثناء منليك من حظر السلاح الذي فرضه إسماعيل على اثيوبيا ولكنه غير موقفه مستقبلا .

محاولات الصلح

ومقدمات الحرب بين مصر والحبشة

تخوف يوحنس من محاربة مصر فإلتزم سياسة الترقب دون تصادم معها ؛ املا فى ان ينهك الانتظار القوات المصرية وتلعب الازمة المالية الحادة فى مصر دورها فى اقناعها بالتراجع عن التصدى لمخططاته ، وأخذ فى نفس الوقت يستعد للصدام بحشد الجيوش وتحصين عدوة عاصمته وشجع الوساطة الرامية للتصالح فأرسل الرأس قبرو حاكم هماسين إلى Munzinger طلبا للصلح ، ولكن الأخير رفض تلك المحاولة لعدم صدورها من يوحنس إلى الخديوي .

ولما علم الخديوي بالامر طلب من Munzinger مخاطبة يوحنس مباشرة برسالة من طرفه لا من طرف الخديوي يستفسر فيها عن الهدف من تحركات جيوشه ودعوته إلى سحب الجنود إلى داخل حدوده منوها بأن مصر ستدافع عن حدودها مع التأكيد على عدم نيتها فى الهجوم على اثيوبيا ، وأن ما تقوم به إنما هو صد المغيرين الاثيوبيين عن حدودها ، ووجه Munzinger بأن يشجع منليك على حرب يوحنس لإستنزاف الاخير عسكريا ، ولكن الرسالة لم تصل إلى يوحنس نتيجة خطأ من أراكيل بك حاكم مصوع ، واستمرت مناوشات الطرفين وقام يوحنس بغارات على رعايا الحكومة المصرية القريبين من أراضي أثيوبيا لبث الفزع وخلخلة ثقتهم فى حماية مصر لهم .

الحرب بين مصر واثيوبيا

اصبحت الحرب على الابواب وإستعدت مصر فأرسلت حملة بقيادة Munzinger زحفت الى إقليم عيسى الواقع بين اثيوبيا والممتلكات المصرية عند تاجورة على ساحل الصومال في الجنوب واحتلال اوسا التي يحكمها شيخ مستقل وتوقيع معاهدة مع منليك ملك شوا (اصبح امبراطورا فيما بعد ، وكان منليك قد أعاد اتصاله مع مصر)، والحملة الاخرى بقيادة الكولونل أندروب وهو امريكى من القادة الكونفدراليين المدحورين في الحرب الأهلية الأمريكية التي وضعت أوزارها قبل تسع سنوات .

ومع تصاعد الغارت الأثيوبية على الحدود المصرية صدرت الأوامر إلى Munzinger للقيام فورا بفتح الطريق المباشر بين الساحل وشوا لمد منليك بشحنة من الأسلحة ليناوئ يوحنس لمساعدة حملة Munzinger ، وعين الامبراطور يوحنس الرابع الكولونل جون كيركهام المستشار البريطانى قائدا للقوات الإثيوبية لمقاتلة الجيش المصري ، وفي ديسمبر ١٨٧٤ تقدمت قوة مصرية من ١٢٠٠ جندي بقيادة Munzinger باشا من كسلا عبر إقليم الدناقل(بإريتريا المعاصرة) إلى كيرين داخل إثيوبيا ، وامام إعتراض إثيوبيا انسحبت الفرقة المصرية تاركة خلفها حامية صغيرة لحماية الكنيسة الكاثوليكية بالبلدة .

وفي ٧ نوفمبر١٨٧٥، تقدمت من كسلا الحملة الثانية لMunzinger ومعه ٢٠٠٠ جندى عبر أكوردات وميريب بإقليم الدنـاقـل وقعت في كمين بالقرب من "عدوة" بقيادة السلطان محمد بن حنفضة سلطان الاعفار الدنقـلاويين المسلمين المتعاونين مع

يوحنس وأبادوا القوة المصرية بما فيها Munzinger ، وفي ١٤ نوفمبر ١٨٧٥ تقدمت حملة آرندوب المؤلفة من ٣٠٠٠ من المشاة المسلحين ببنادق رمنجتون و ١٢ مدفع جبلي تحت قيادة العديد من الضباط الأوروبيين والأمريكيين (الكونفدراليين) إلى جوندت في الطريق إلى عدوة ؛ فهاجمها الجيش الإثيوبي بقيادة الامبراطور يوحنس الرابع من المقدمة بينما قامت من قلعة أدي فرقة إثيوبية بقيادة الراس شلاقة علولة التفت تحت جنح الليل من فوق الجبل حول مؤخرة القوة المصرية المتمركز بالوادي السحيق فوقعت القوة بين طرفي كماشة صباح ١٥ نوفمبر فوقعت مذبحة للقوة المصرية لم ينج منها سوى ٣٠٠ جندي انسحبوا إلى مصوع تحت قيادة العميد الأمريكي دورنـهولتز و رؤوف بك ، وكان من بين القتلى آرندوب وأراكل نوبار ابن أخي رئيس الوزراء المصري نوبار باشا والكونت زيشي ورستم بك بينما قُتل لإثيوبيا ٥٠٠ جندى وغنموا ٢٢٠٠ بندقية و١٦ مدفع اثنان من تلك المدافع يزينان الساحة الكبرى لمدينة أكسوم العاصمة التاريخية للحبشة .

معركة جورا

(بإريتريا المعاصرة)

في ٦ نوفمبر ١٨٧٦ رضخ راتب باشا لرأي وليام لورنج باشا (أمريكي كونفدرالي) بمهاجمة الحبشة ، وقام في ١٠ مارس ١٨٧٦ بإرسال قوة خاصة من ٥٠٠٠ جندي على رأسها راشد باشا وعثمان بك نجيب بالهجوم على القوات الإثيوبية إلا أنها اندحرت وقُتل قائداها ، و٦٠٠ أسير مصري بدم بارد من ضمنهم د/ محمد علي باشا ونجيب بك محمد.

تراجع النفوذ المصرى

فى شرق افريقيا

وتقسيم المنطقة بين القوى الاستعمارية

إنزعج الانجليز من التحرك المصري فى شرق افريقيا وترحيب أهل المنطقة وسلاطينها به ورغبتهم فى الحماية المصرية (٣١٠) ؛ بالامر الذى يهدد اطماعهم بالمنطقة فاوعزوا الى سلطان زنجبار بالاحتجاج على وجود القوات المصرية فى براوة وكسمايو التابعتين له ، وايدته بريطانيا علنا فاضطر الخديوى اسماعيل الى سحب قواته منهما ، وتوالى إنسحاب المصريون من تاجورة، زيلع، بربرة عام١٨٨٤ بضغوط الانجليز (٣١١) ، وعندما جاء امر اخلاء القوات المصرية تمسك الاهالى بالوجود المصرى الى حد المطالبة بالتجنس بالجنسية المصر والارتباط برعويتها والانضواء فى عباءة حمايتها ، وهى سابقة ليس لها مثيل بين شعوب افريقيا التى رزحت تحت الاستعمار وكان جل املها ازاحته .

فأرسل أعيان بربرة وهرر عرائض الى مصر يعبرون فيها عن الاسى للانسحاب ويقولون فيها ‘‘من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميدانا للبربرية يحكمها ملوك صغار وكان اهراق الدماء واعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق ؛ وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد قبل ٩ سنوات فوطدت النظام والامن وجعلت مدينة هرر من اهم مراكز التجارة ؛ فاذا كان قرار الحكومة لا مرد له ، لم يكن لنا بد سوى الهجرة مع الجنود وترك املاكنا للنهب " ز

وتعبر احدى عرائض الاهالى عن تمسكهم بمصر للتماثل الدينى فتقول " بأننا مسلمون ولا ندين بالطاعة الا لمسلمين مثلنا " (٣١٢) ، هنا حدث ما يُعبر عن عمق الارتباط بين القوات والاهالى ، فقد رفضت الحامية المصرية فى هرر تنفيذ امر الاخلاء تعاطفا مع مطلب الاهالى فى البقاء ؛ واعلنت التمرد واستعدت للمقاومة ؛ لكن فصل الخديوى المتمردين من الخدمة ادى الى إنصياع الحامية وجلائها فى يونيو ١٨٨٥.

انشغلت مصر بالتصدى للثورة المهدية عن خططها فى الاقليم وتخلت الى بريطانيا عن السيادة فى السودان بوابتها الى قلب افريقيا ومعها مخططاتها الباهظة فى أفريقيا ؛ ومهد الخروج المصرى الى وقوع المنطقة غنيمة للاستعمار فإقتسمت القوى

---

[٣١٠]) محمد صبرى ـ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر صـ ٣٠ .

[٣١١]) المصدر محمد صبرى ـ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشرصـ ١٤٦- ١٤٧.

[٣١٢]) المصدر محمد صبرى ـ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشرصـ ١٤٦- ١٤٧.

الاوروبية المنطقة فى مؤتمر برلين فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فحصلت فرنسا على تاجورة وانجلترا على زيلع وبربرة وبلهار وحصلت ايطاليا على راس جود فرى و مصوع واريتريا بالتفاهم مع بريطانيا واستولى الاحباش على هرر عام ١٨٨٧ .

دور مصر الاسلامى
و الحضارى

قدمت مصر الى تلك المناطق الكثير من حضارة العصر بالاسهامات التى طبقها الجيش المصرى فى مجالات الزراعة والصناعة والثقافة على نحو ما تعرضنا للبعض منه ؛ فمصر كعهدها لم تتوان عن القيام بدورها فى المد الحضارى فى المناطق التى تواجدت على ارضها فى وسط القارة حتى اوغندة ؛ فعلى سبيل المثال اقامت القوات المصرية فى هرر حوضا للمياة العذبة واعتنت بالزراعة وادخلت أنواع جديدة من المزروعات جلبتها من مصر ؛ واقامت صناعة المنسوجات وانشأت المدارس واستقدمت الفقهاء من مصر لتعليم اصول الدين وإستتبع هذا النشاط تضخم الجالية المصرية فبلغ عددها ١٤٥٠٠ مصريا اندمج الكثير منهم عرقيا مع اهل البلاد.

وفى المجال الثقافى سواء قبل الوجود المصرى او بعده لم تنقطع البعوث فى أى وقت عن الازهر حتى أصبح لابناء هذه المناطق أروقة خاصة بهم كرواق " زيلع " و "جبرت" وغيرها ، كما لم ينقطع ايضا وفود العلماء المصريين الى شرق افريقيا ويشير ابن بطوطة الى وجود فقيه مصرى فى " مقدشو " فى القرن ١٤م .

ومن افضال الازهر على الثقافة فى افريقيا الشرقية ان أفرز علماء افذاذ أمثال الامام فخر الدين عثمان شارح " الكنز " والمتوفى عام ٧٤٢هجرية (١٣٤٢م) وجمال بن عبدالله بن يوسف المتوفى عام ٧٦٢هجرية وكلاهما من زيلع ، وهناك أيضا علماء افذاذ من " جبرت " أمثال العارف بالله الشيخ على الجبرتى المتوفى ٨٩٩هجرية (١٤٩٣م) وهو جد المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتى .

الفصل السابع
تحديات المد الاسلامى فى شرق افريقيا

موقف الحبشة من الاسلام

لم يكن موقف الحبشة على اطلاقه معاديا للاسلام خاصة تلك الفترة من القرن السادس وحتى القرن الثانى عشر التى إنعزلت فيها بسبب اوضاعها الداخلية ؛ فالحبشة التى إعتادت التعايش مع تنوع المعتقدات لم يكن لديها مشكلة وهى تؤمن بعقيدة سماوية ان تتعايش مع الاسلام أقرب الديانات الى المسيحية ؛ وتجلى هذا فى موقف النجاشى الكريم نحو مهاجرى الاسلام الاوائل والذى دعا الرسول من اجله إستثناء الحبشة من الجهاد اكراما لموقفه إذ قال ﷺ "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم" .

فالاصل فى موقف الحبشة نحو الاسلام الاعتدال فقد عاش وتعايش داخلها منذ عهد النجاشى الاكبر (٣١٣) ؛ ولم يكن التبشير سبب التصادم بين العقائد من أولويات الحبشة ؛ فالتبشير الذى تتعهده العقيدتان إذا ما كان اهله ضيقوا الافق هو ما يستنفر الصدام ولم يسبب المد السلمي للاسلام فيها او بجوارها توترا ، ولم يتغير هذا الموقف الا باعتلاء الاسرة " السليمانية " سبط يهوذا العرش بصبغتها المسيحية المتشددة وتبنيها دعاوى الصليبية الاوروبية المعادية للاسلام ، ومع ذلك لم تمارس هذه الاسرة طوال تاريخها التنصير قسرا على نطاق واسع ضد المسلمين كالذى مارسته الامة الايبيرية مع المورسكين او نحو ما فعله البرتغاليون فى افريقيا واسيا (٣١٤) .

ومن الناحية السياسية لم تتصادم الحبشة مع جيرانها المسلمين الا فى وقت متأخر مع تبنيها التوجهات الصليبية ، وما كان من صراع بينها وبين الامارات المسلمة تم فى معظم الاحيان فى اطاره الطبيعى بحكم الجيرة صراعا طبيعيا على النفوذ والمصالح وصدام ارادات لاثبات الذات بين طرفين افريقيين يختلفان فى العقيدة ولايتقاتلان على اساسها وانما تحت ظلالها ومظلتها لشحذ الهمم وجلب عون اخوة العقيدة الحلفاء الخارجيين ، فالامارات العربية فى ظل تطورها الطبيعى تطلعت للتخلص من سلطان الحبشة والاخيرة لم تكن لتتنازل عن وضعها كقوى اقليمية ، ولجأ الطرفان فى صدامهما الى كل الاسلحة بما فيها عناصر الاختلاف والتمايز على اساس التنافر مع الاخر والدين إحداها ، ولم يُخف ذلك حقيقة جوهر الصراع ؛ كونه صراعا بين البدو الصوماليين والجبليين الاحباش فى اطار الصراع التاريخى بينهما حول خيرات الهضبة ؛ ذلك الصراع الممتد بينهما منذ ما قبل زمن الديانات السماوية ؛ فالهضبة بخيراتها كانت مطمعا دائما لاهل البادية منذ ازمنة سحيقة.

فالصراع فى حقيقته لم يكن دينيا أبدا ففى بدايته كان صراعا بين وثنيين فى الجانبين ، ومع اعتناق الهضبة المسيحية أصبح صراعا بين مسيحيى الهضبة ووثنيى البادية ، ولما اعتنق البدو الاسلام وبقيت الهضبة على مسيحيتها تغيرت هوية الصراع ليصبح بين مسلمى البادية ومسيحيى الهضبة ، وبقى الصراع اقتصادى فى أصله ولا دين له وإن إتشح بظلاله ؛ ونستدل على ذلك بالانتشار العريض للاسلام بين الاحباش بعد القرن ١١ خاصة فى الجنوب والشمال الشرقى ، وهو الامر الذى حير القس ترمنجهام الذى اجتهد فى تبريره فنسبه الى جهود بعض الاباء الاقباط المصريين فيقول " أن الاباء الاقباط كانوا فى الحقيقة دعاة للاسلام " وضرب المثل بما فعله عبدون الذى وصفه بالمغامر الذى إرتقى بالتزوير على حد قوله مطرانية الحبشة عام ١٠٤٧ م .

ولم يُفصل ترمنجهام ما فعله عبدون على نحو ما فصل به اتهامه للاب " ساويرس " مطران الحبشة المصرى الذى اتهمه بالتواطؤ مع بدر الدين الجمالى وزير المستنصر الفاطمي (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥- ١٠٩٤م) عندما عينه مطرانا لها (عام

---

[٣١٣]) سنن النسائي [ج ١- ص-٣٥٥] الجهاد (٣١٧٦) ، سنن أبي داود الملاحم (٤٣٠٢).

[٣١٤]) هناك حالات استثنائية عندما فرض كاسا الامبراطور تيودورس على وولو التنصير ، وممن فُرض عليهم التنصير الامام حميدا حميدة Imam Amede (وهو ومينين ام الرأس من اسرة واحدة)وعمده وبعض النبلاء ، لما لقاه منهم وفرق المحدية الذين استعصوا عليه بعد دخوله Magdalla فى ١٢ سبتمبر١٨٥٥ من مقاومة شديدة (بعض المراجع تسميه السلطان محمد وقد تزوج شِوارگا ابنة الامبراطور منليك الثانى وهى التى انجبت منه الامبراطور Lij Lyasu الذى اوصى له جده منليك بالعرش بعد وفاته ، واعتلاه عام ١٩١٣ وتم عزله ١٩١٦ لميوله الاسلامية او لانه اعلن فعلا اسلامه .
وفرض الامبراطور يوحنس الرابع التنصير الاجبارى على مسلمى وُلّو خلال ستة أشهر أو تصادر أملاكهم ، ومثال جزية إمارة هدية الى " زرع يعقوب " ملك الحبشة (١٤٣٤- ١٤٦٨) ، فيقول علي المسلمين فى إمارة هدية تقديم عذراء مسلمة الى امبراطور الحبشة سنويا لتنصيرها .

٤٧٣هـ – ١٠٨٠م) لنشر الاسلام فى الحبشة (٣١٥) ، والاقرب الى المنطق هو ما اورده القلقشندي بأن بدر الجمالى طالب الاب برعاية المسلمين والاهتمام بأمورهم الدينية من بناء المساجد وغير ذلك ، وهو تكليف دبلوماسى يُمثل الاب ساويرس فيه مصر كلها كمبعوثا لها اعلى فيه كليهما الوطنية ؛ والكنيسة دائما وفى كافة الاحوال بابها مفتوح لكل التكليفات الوطنية .

وعندما تخلت الحبشة عن سياسة الموادعة وتبنت سياسة المواجهة ، كان ما إستنفر عدائها للاسلام الصليبية الدخيلة ؛ فإصطبغ الصراع بين البدو والجبليين بصبغة دينية ضيق من شططها غلبة الروح الافريقية التى ليس من طبيعتها التطرف بنفس منحى التطرف الاوروبى ؛ فلم تتعرض الحبشة بسوء لابنائها من المسلمين فى معظم الاحوال وإقتصر الامر على عزلهم فى احياء وقُرى منفصلة حتى لا ينشرون الاسلام في محيطهم ، ولم يخرج الصدام عن حدوده الضيقة المعتادة من مضايقات متبادلة فى شئون الحياة اليومية بين جهلاء المسلمين والمسيحيين ، وحوادث متفرقة نتيجة تطرف حاكم أو جاهل هنا وهناك ، او حملات تأديب تنسحب بعدها الحبشة تاركة الامارات " لحكمها الذاتى " مكتفية بالحصول على الجزية وفرض بعض الاحكام الجائرة احيانا .

ولم تخرج الحبشة عن هذا المنحى الا فى مرحلة التوسع الامبراطورى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما ضمت الامارات المسلمة فى عهد منليك الثانى وكذا فى عهد الامبراطور هيلاسلاسى ، ولا ترقى ممارساتهما الى عنف ووحشية الممارسات الايبيرية (البرتغالية والاسبانية) للمورسيكيين كما انها لم تمس حرية العقيدة بشكل متطرف على نحو ما حدث فى تلك الجزيرة .

فالحبشة الاقوى بالنسبة لجيرانها المسلمين لم تسع لفرض تنصير اجبارى على نطاق واسع واكتفت باخضاع الامارات المسلمة ، وأقصى تعسف مارسته هو فرضها التنصير الاجبارى على اهل بعض الامارات التى ضمتها الى اراضيها كما حدث مع اهل ولوا عندما ارغم كاسا (الامبراطور تيودورس)الامام حميدا والنبلاء على اعتناق المسيحية ؛ بالاضافة لما فرضه " زرع يعقوب " ملك الحبشة (١٤٣٤- ١٤٦٨م) علي المسلمين فى إمارة هدية من جزية من نوع غريب بأن عليها كل عام ان تُقدم بخلاف الاموال ؛ عذراء لتنصيرها وفرض عليهم ايضا الا يلبس المسلمون لباس الحرب ولايستخدمون السيوف فيما يعتبر نزعا للسلاح ؛ ولايركبون الخيل بسروج كنوع من الامتهان والتمييز ضدهم ، ويصف لنا " عربى فقيه " مشهد تسليم هذه العذراء فيقول نقلا عن اهل البلد " اذا أُرسل الينا من يتقبل البنت والمال اخرجنا له البنت على سرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلى عليها ونحتسبها ميتة ونعطيها له فإنا وجدنا أباءنا يفعلون ذلك "(٣١٦).

اختلف الامر فى تعامل الحبشة مع السودان الطرف المسلم فى الغرب ؛ فلم يتسم في عمومه بالتطرف فمعاملة إمبراطور الحبشة لفاطمة ملكة التاكة التابعة للعنج بالسودان إتسمت بحُسن المعاملة ، ورسالة يوحنس الرابع الى ابو عنجة قائد المهدية المغوار فى غزوته الحبشة نوه الإمبراطور رغم تجاوزاته العديدة الى ما يربط الشعبين من انتماء عرقى واخاء ومصالح واخوة افريقية .

وهذه النغمة مختلفة عن نغمة ملوك الحبشة تجاه ممالك الاسلام فى الشرق التى تُبرز تجذر العداء نحو الشرق محل اطماعها الدائم عما كان عليه بالنسبة للسودان فى الغرب رغم انهم جميعا مسلمون ، فمن الواضح ان الحبشة تطلعت شرقا طوال تاريخها بإعتباره مجالها الحيوى الطبيعى فهم الاقرب وشركاؤها فى الهضبة ن وهو ما يختلف عليه الحال بالنسبة للسودان الاقوى والابعد والاكثر كثافة سكانية ، وقد اظهر هذا الاختلاف ضم الحبشة الامارات المسلمة فى هضبتى الحبشة والصومال والاوجادين واريتريا ولم تُفكر او تتطلع لضم اى اقاليم اخرى خارج هذا الاطار ، اما ضمها لاقليم بنى شنقول السودانى فتم لما وجد الامبراطور منيلك الثانى تساهلا او تحريضا بريطانيا لضمه فإغتنم الفرصة لابتلاع الاقليم من الحكم المصري .

اما موقف الحبشة الاستثنائى الودى من الاسلام المماثل لموقف النجاشى الاكبر ، كان من الامبراطور Lij Lyasu (حكم من عام١٩١٣ الى ١٩١٦) (٣١٧) ، ابن السلطان محمد على (٣١٨) وحفيد منيلك الثانى وتذكر بعض الروايات انه كان مسلما اراد

---

[٣١٥]) المصدر ترمنجهام صـ ٦٣ - نقلا عن النشاط العربى فى افريقيا – د/ حسن احمد صـ ٣٩٤) لقلقشندي : سبح الأعشى ٣٣٣/٥ ؛ وانظر إبراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة، ص ٣٤].

[٣١٦]) النشاط العربى فى افريقيا – د/ حسن احمد ص٣٩٤ _ صـ ٤١٧ .

[٣١٧]) The New Columbia Encyclopedia ١٩٧٥ , p. ٢٨١٦. .

[٣١٨]) تسمى بميخائيل بعد تنصيره ، ولا نعرف ما اذا كان هذا الرجل اللغز الذى اختلفت المراجع بشأنه ، أهو نفسه الرأس على لتشابه تاريخهما انظر ما تقدم عنه فى الاشارة المرجعية رقم حول هذا الرجل اللغز .

اعلان اسلامه بينما تتهمه المراجع الغربية بميوله الاسلامية ومحاباة المسلمين ومساندة العثمانيين اعضاء المحور فى الحرب العالمية الاولى مما اغضب انجلترا وايطاليا وفرنسا عليه وتعاونوا مع الاحباش لخلعه ليس من منطلق سياسى فقط وانما من وشائج الارتباط الدينى وهو ما جعل بريطانيا تتساهل كما اسلفنا؛ فى التفريط فى ممتلكات مصر والسودان ممثلة فى اقليم بنى شنقول والتاكة الى الحبشة .

وقبل ان نُنهى هذا الفصل هناك شخصية تستوجب الاستفاضة حولها وهى الرأس على التى تحيطها الغموض ، فهناك من يتحدث عن فضله فى نشر الاسلام وتعاونه مع القوات المصرية وإقناعه منليك ؛ وكان وقتها حاكما لشوا بالتعاون مع مصر ضد الامبراطور وهو ما لم يرد فى المصادر الحبشية ، وما اوردته هذه المصادر بشأنه هو ما يتعلق بصراعه على السلطة فى اطار صراع ثلاثى بين اطراف يرتبطون بعلاقات قرابة ونسب ؛ دار فى عهد دولة الامراء او الاقطاعيات ، فالحبشة عادة ما كان يحكمها امراء الاقطاعيات او ما يُسمى بملوك الاقطاعيات او الرؤوس تحت السلطة المركزية فيما سُمى ملك الملوك او الامبراطور .

والرأس على ووالدته مينين **Menen Liben Amed** من اسرة **Yejju** الاوروموية حكام الاقليم وهم مسلمون فى الاصل ، وبلغت قوة الرأس على ان نفوذه كان كبيرا على مستوى الحبشة كلها حتى اصبح حاكمها الفعلى وصانع الملوك ، ورغم قوته وقدرته على الاستيلاء على الحكم الا انه كان يدرك اهمية رمزية وجود سليل الاسرة السليمانية على رأس الحكم بالنسبة للشعب ، ولذلك تزوجت والدته الامبراطور يوحنس الثالث **Yohannis III** سليل الاسرة السليمانية لدعم نفوذ اسرتها وكان الامبراطور العوبة فى يدها لا حول له ولا قوة .

والطرف الثانى ووب **Wube** حاكم امارة سمين ويدعى لنفسه مُلك الحبشة ، وهو فى نفس الوقت والد زوجة الرأس على التى انجبت منه ابنته **Tewabech Ali** التى اصبحت فيما بعد زوجة كاسا هايله جيورجس **Kassa Haile Giorgis** حاكم شوا (الامبراطور **Tewodros II** فيما بعد) وهو طرف الصراع الثالث.

حاول ووب **Wube** إستبعاد الرأس على من معادلة الحكم ؛ فوشى به الى ابونا سلامة موفد كنيسة الاسكندرية المرقسية واخبره ان اسرة يوجو رغم مسيحيتها فهى مسلمة الاصل وإسمها يدل على ذلك ، وانه ينوى عزله وتنصيب نفسه امبراطورا وكان ابونا ميالا لذلك لانه من سلالة سليمان ، وكان معاصروا ذلك الزمان يشككون فى مسيحية الرأس على ومنهم القس المؤرخ ترمنجهام الذى إتهم الرأس على بأنه دعى لاحياء الحج لمقبرة الامام الجُرى الزعيم الصومالى العدو اللدود للحبشة وقاهرها .

هرب الامبراطور يوحنس الثالث (زوج الامبراطورة مينين **Menen** والدة الرأس على) فى اوائل ١٨٤١ وإنضم الى ووب ، لما علم بنية الاخير عزل الرأس على ؛ فرد الرأس على على هروب الامبراطور بإعادة تنصيب الامبراطور السابق **Sahle Dingel** من فى الحكم ، ثم اتجه لحرب ووب وإخضاعه ، فى تلك الاثناء تصاعدت قوة كاسا هايلو (**Kassa Hailu**) وتجمع الناس حوله فإستولى على قوارا **Qwara** وهاجم القوات المصرية فى السودان ورغم هزيمته فى معركة دباركى عام ١٨٤٨ امام القوات المصرية رغم كثرة قواته ، الا ان الرأس على والامبراطور اعترفا به حاكما على كوارا بلقب **Dejazmatch** لتجنب خطره كما زوجته الامبراطورة **Menen** من حفيدتها **Tewabech** ابنة الرأس على فى نفس العام (عام ١٨٤٨) ، وتصاعد نجمه ليصبح نجاشيا وامبراطورا عام ١٨٥٤، وكانت زوجته ابنة الرأس على ذات حُظوة كبيرة لديه لاخلاصها وجمالها فقد وقفت معه ضد جدتها وابيها فى حربه معهما عندما خرجت الامبراطورة منين لقتاله انتقاما لقتله مبعوثها فهزمها وأُسرها هى وزوجها الامبراطور ؛ كما هزم جيشا ارسله الرأس على لتحريرهما عام ١٨٥٢ فى معركة**Gur Amba** ، وهزم جيشا مشتركا للرأس على و **Wube** ودخل **Gondar** عاصمة الحبشة واعلن خلع الامبراطور يوحنس الثالث وتنصيب نفسه امبراطورا .

و لما هاجمه الرأس على عا م ١٨٥٣؛ هزمه فى معركة **Ayshald** ، وهى الهزيمة التى فر على اثرها الى ييجى **Yejju** ولم يتتبعه كاسا إكراما لزوجته ابنة الرأس على ، وفقدت الاورومو منذ ذاك قوتهم التى مارسوها منذ عهد **Tekle Giorgis II** فى دعم الملوك ، وهنا يضطرب تاريخ الرأس على لدى المصادر الاثيوبية فمراجع تذكر انه اختفى بعد فراره ومنهم المؤرخ القس ترنجهام بينما بعض القصص تُشير الى انه تعمد بضغط وبرعاية الامبراطور يوحنس الرابع الذى جاء بعد انتحار الامبراطور تيودورس واتخذ اسما مسيحيا هو ولد ميخائيل وزوجه من ابنة منليك الذى اصبح امبراطورا فيما بعد .

واستمر كاسا فى ملاحقة ووب وهزمه فى **Dirasge** فى فبراير ١٨٥٥، وضغط على ابونا ليتوقف عن معارضته لامبراطور من خارج الاسرة السليمانية فوافق وأعلنه امبراطورا بإسم تيودورس الثانى فى فبراير ١٨٥٥، وبعد وفاة زوجته ابنه

الرأس على فقد الامبراطور توازنه لوجده عليها واصطدم بالانجليز فقاموا بغزو الحبشة وانتهى به الامر بالانتحار حتى لا يقع فى الاسر.

عمل كاسا الامبراطور تيودورس على توحيد السلطة وهاجم وولو مارس ١٨٥٥ ولقى مقاومة شديدة من فرق المهدية الذين استعصوا عليه رغم تشتتهم بين قتاله وقتال الامام حميدة (وهو ومينين ام الرأس على من اسرة واحدة) ، ولكنه نجح فى دخول **Magdalla** فى ١٢ سبتمبر١٨٥٥ وبعد فترة قبض على الامام حميدا وعمده والنبلاء على المسيحية (بعض المراجع تسميه السلطان محمد (تخلط بعض المراجع بينه والرأس على) ، وقد تزوج شِوارگا ابنة الامبراطور منليك الثانى وهى التى انجبت منه الامبراطور **Lij Lyasu** الذى اوصى له جده منليك بالعرش بعد وفاته ، واعتلاه عام ١٩١٣ وتم عزله ١٩١٦ لميوله الاسلامية او لانه اعلن فعلا اسلامه ، وهنا يضطرب تاريخ الرأس على لدى المصادر الاثيوبية فمراجع تذكر انه اختفى بعد فراره ومنهم المؤرخ القس ترنجهام بينما بعض القصص تُشير الى انه تعمد برعاية الامبراطور يوحنس الرابع الذى جاء بعد انتحار الامبراطور تيودورس واتخذ اسما مسيحيا هو ولد ميخائيل .

الباب السابع
مصــر وافريقيــا
فى العصر الحديث
الفصل الاول
روح مصر الافريقية

العصور القديمة

يمتد الحضور المصرى جنوب الصحراء بعمق التاريخ وعمق الارض وعمق الثقافات والاديان ؛ فقد بثت مصر حضورها سيلا لا ينقطع عبر الازمنة الفرعونية والقبطية والاسلامية ، فالعلاقات المصرية الافريقية معلومة منذ عام ١٩٥٠ ق م عندما أقامت الاسرة ٢٢ علاقاتها مع بلاد " بونت " عبر البحر الاحمر ، وقبلها اقامت الاسر الحاكمة قنوات الاتصال بأفريقيا عبر النوبة حتى الشلالات وما بعدها ؛ وعبر الكوشيين الذين ساهموا في نقل المؤثرات المصرية الى عمق افريقيا ويشير باسيل دافيدسون الى ادلة قوية على تاثير مصرى أصيل ومباشر فى اجزاء متفرقة من افريقيا على امتداد وادى النيل الاوسط والاعلى وابعد من ذلك عبر الكوشيين (٣١٩).

وفى عهد تحتمس الاول وصل بسلطانه (١٥٢٥ق م) حتى الحديقة العظمى لاعالى النيل فيما بعد الشلال الرابع ، ولم تكن العلاقة المدية من جانب مصر علاقة استقرار دائم وانما غلب عليها التقدم والانحسار غزوا اوإستكشافا أو للتجارة باستثناء حالات تسرب عرقى اندفعت تحت ضغط الغزو الاجنبى الى الهجرة فى مختلف الاتجاهات تركت بصماتها فى شعوب افريقيا مصطبغة بإصول نيلية مثل اليوروبا و شعوب جنوب نيجيريا و يؤرخ بيوباكو وصولها الى المنطقة فى سنه ٦٠٠ ق م مثل اسلاف اليوروبا الذين وصلوا بنين فى الفترة ٦٠٠- ١٠٠٠ م ووصل بعضها الى أوغندا وامتدت فروع اخرى الى الماساى فى كينيا والتوتس فى بورندى.

ووجود الكباش المقدسة (المصرية) كقاسم مشترك فى معظم الديانات الافريقية تعكس التأثير المصرى لدى الماندينجو ، وفى اله العواصف لدى اليوروبا (شانجو) وعند شعب نيانى ؛ واله السماء عند شعب الباوولى ؛ واله البرق لشعب فون بداهومى ويستمر ظهور الكباش المقدسة فى الكاميرون والكونغو و لدى الاسرة المالكة لشعب الاكان فى غانا ؛ كما وجدت تماثيل لاوزيريس فى الكونغو ترجع للقرن ٧ م واخر لاوزوريس فى جنوب الزمبيزى يحمل اسم تحتمس الثالث ١٤٥٠ ق م وعملات مصرية للاسرة ١٣ (١٧٨٠ ـ ١٥٨٠ ق م) فى مدغشقر

العهد القبطى

ان الكنيسة المصرية هى ام الكنائس العالمية وهى ايضا ام الكنيسة الافريقية الاولى فى النوبة والحبشة اخوة العقيدة الارثوذكسية اليعقوبية ،فالكنيسة المصرية ظلت لقرون طويلة ترعى الكنيسة الحبشية وتمدها بـ ابونا بطريركا لكنيستها وتمدهما بروح القدس ، ويُذكر للاباء المصريين وللكنيسة قيامهم بخدمة المتطلبات الوطنية لمصر فى اى وقت ، والقيام بتلبية احتياجات الدائرة الاسلامية للدبلوماسية المصرية فى اثيوبيا ومحيطها الاسلامى فى العهود المختلفة ، بالاضافة للتكليفات الاخرى التى تخدم الدبلوماسية المصرية واخرها ما تناولناه عندما كلفها الخديوى اسماعيل بحمل رسائل وتوصيات الى إمبراطور الحبشة لحماية الارسالية الكاثوليكية فى الحبشة والتخفيف عنها .

العصر الاسلامى

وعلاقة مصر بافريقيا بعد الاسلام استعرضناها انفا وغلب عليها البث الثقافى والتجارى ، وعندما ركب محمد على واسرته من بعده موجة التوسع الامبراطورى فى القارة تركز مد مصر فى محيطها الاسلامى المباشر السودان والصومال حتى حدود الحبشة ، وكان هذا التوسع المتجه جنوبا فى محيطه الاسلامى تحركا صحيحا فإذا ماقدر له أن يتم لكان للمنطقة حتى القرن الافريقى ووسط

---

[٣١٩]) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد صـ٢٢ ـــ ٢٥ ؛ باسيل دافيدسون .

افريقيا شأن آخر ؛ فالحكم المصرى ظلل هذه المناطق بروح الاخوة الاسلامية بعيدا عن اثقال الاستغلال الاستعمارى ، الذى جاء الى القارة بتعال عنصرى يستنزف ثروات قارة لا ينتمى اليها .

ولا يمكن ان نأخذ سلبيات الحكم المصرى فى اطار معزول عن سياقها فقد جاءت فى سعيه لبناء دولة عملاقة الاتساع تحتاج لنظام وحكم مركزى قوى لكيان لم يعرف نظاما مماثلا من قبل ، تتفشى فيه الفوضى والقبائلية وما كان يمكن ان تنهض به الا بالتنظيم والقوة كما تحملت مصر فى سبيل نهضته اعباء وتكاليف بدون تضرر او ضجر رغم ما اوقعه الفتح من اعباء مادية على كاهلها وهى تعانى من مديونيه جسيمة افقدتها استقلالها .

الفصل الثانى
البعدين الاسلامى والافريقى
فى سياسة مصر فى العصر الحديث

مصر وحركة القومية الافريقية
فى مطلـــــــع القـــــــرن ٢٠

لم يكن المصريين بعيدين عن الحركة الوطنية الافريقية جنوب الصحراء منذ فترات النضال المبكر ضد الاستعمار فى بدايات القرن العشرين ، وكان اقصى تعارف تم انذاك بين نشطاء الحركة المصرية والحركة الافريقية ؛ ما قام به محمد فريد وحافظ رمضان فى بروكسل عام ١٩٢٩ ، ولكنه كان تعارف عابر تم فى اطار الحركة المعادية للاستعمار ولم يكن الهدف منه ارتباط الحركتين او اقامة وشائج ارتباط قوى بينهما ضد الاستعمار لبُعد الشقة وصعوبة الاتصال فى عوالم معزولة عن بعضها ولا ارتباط بين قضاياها فى ظل فروق فادحة فى التعليم والوعى بين مصر والعالم الافريقى ،

فقد كان وعى العالم الافريقى محدودا يُعانى الفقر والتخلف الى حد غاب ومشاكله عن ضمير عالم ذلك الزمان الذى كان لاوروبا المستعمرة اليد الطولى في عوالمه ، فإنقطع تواصل الوعى السياسى بن مصر وافريقيا جنوب الصحراء وغاب عن الطرفان ان قضية النضال واحدة وان تعددت قوى الاستعمار ، ثم إنشغل كل طرف بقضاياه وانفصلا الا من نشاط محدود لبعض الرواد المصريين الذين تربطهم وشائج شخصية وعرقية بالقارة السمراء وهو المصرى السودانى محمد على دسوقى

رواد مصر فى الحركة الافريقانية
محمــــــــــد علـــــــى دســـــــــــوقى

كان أقوى إسهام تلاقت فيه مصر بالحركة الافريقانية ، تم بمبادرة فردية من المصرى محمد على دسوقى (٣٢٠) ، قادتها اسباب عرقية بسبب لونه الافريقى الذى اكتسبه من ام سودانية ، ولونه بالذات هو ما اهله لان يصبح فى اوائل القرن الماضى ولاكثر من نصف قرن واحدا من قادة حركة الجامعة الافريقية مارس فيها نشاطه في كل من اوروبا واميريكا ونيجيريا ، وهذا الاسهام من جانبه يعبر عن احساس بعناصر الانتماء المشترك واخوة الارتباط بين مصر والجنوب حتى ولو بقى فى اطار فردى .

فالسودان الكبير فى الحقيقة شد قلب كل مصرى الى قلب افريقيا ، وان ظل قلبها مجهولا لمعظم المصريين ، ولكن لون بشرة معظم اهلها السمراء يذكرهم بهذا الارتباط الذى جعلته الثورة المصرية مد حقيقيا كبيرا وملموسا.

نبذه عن محمد دسوقى
ونضاله السياسى الافريقى

ولد فى الاسكندرية فى ١٨٦٦/١١/١١ ، لضابط مصرى فى جيش عرابى وام سودانية ، امتدت حياته حتى عام ١٩٤٤ ، تلقى تعليمه فى لندن منذ كان فى التاسعة من العمر ، واتم دراسة التاريخ فى جامعة لندن ، وبعد استشهاد والده فى موقعة التل الكبير عادت والدته واخوته الى السودان وفقد الاتصال بهم .

اتسمت شخصيته بشمولية أبعادها فعكست انتماءاتها الافريقية الاسيوية الاسلامية ؛ فأصبح داعية صادقا لقضايا الشعوب الملونة عامة والافريقية خاصة ، ورائدا للحوار الافرواسيوى ومبشرا بجامعة اسلامية عالمية تعمل حلقة وصل بين المسيحيين والمسلمين فى افريقيا على حد وصف وسائل الاعلام النيجيرية ، وكرس حياته لقضايا التحرر وقضية الرجل الاسود ، وشغلته الحركة القومية الافريقية على وجه الخصوص واستهلكت وقته فأصبح قطبا من اقطابها (٣٢١) .

بدأ نضاله فى مطلع القرن ٢٠ فى لندن (الفترة ١٩١١ – ١٩٢٦) ثم فى الولايات المتحدة (١٩٢٦ – ١٩٣١) ؛ ونيجيريا (١٩٣١ – ١٩٤٤) ، وانشغل بالدفاع عن القضية المصرية ، وارتبط بحركة الجامعة الافريقية فى لندن ودافع عن قضايا الافريقيين .

---

[٣٢٠]) المعروف فى الغرب بإسم محمد على دوس .
[٣٢١])مقال السيدة إيزيس إسحاق مرقس باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات .

شارك فى الاعداد للمؤتمر العالمى الاول للاجناس بلندن عام ١٩١١ حيث أعداد برنامجه الفنى ، بعد ان ذاعت شهرته بكتابه الرائع فى تاريخ الفراعنة فى الصحافة الانجليزية ؛ وهو المؤتمر الذى وضع اساس العلاقة بين الافريقيين والافروامريكان من ناحية وبين الاسيويين ، وفى مؤتمر بلندن عن اوضاع الطلبة الافريقيين فى عام ١٩١٣ دعى لاقامة جامعة افريقية .

اصدر صحيفة التايمز الافريقية فى لندن (يوليو ١٩١٢) ، تناول فيها قضايا التحرر المصرى ، وفضح ممارسات الاستعمار فى شرق وغرب افريقيا ، ودافع عن قضايا الشعوب الملونة بما فيها اسيا وأُقفلت الصحيفة عام ١٩٢٠ .

ودعى لاقامة جامعة افريقية فى مؤتمر بلندن عن اوضاع الطلبة الافريقيين عام ١٩١٣، وشارك فى تأسيس جمعية التقدم الاثيوبية عام ١٩٢٦ ، وحصل على عضوية الجمعية الزنجية للابحاث التاريخية والاكاديمية الامريكية ، أعد الدليل السنوى لغرب افريقيا حول التجارة بالتعاون مع شخص من ساحل العاج ، وضمنه معلومات عن رموز الحركة الوطنية المصرية مثل على فهمى ومحمد فريد كما ضمنه جزء باللغة العربية .

وكان قريبا من " ماركوس جارفى " الزعيم الامريكى المعروف (٣٢٢) ، منذ ان التقاه فى لندن ١٩١٢ ، وكان جارفى يستقى منه الكثير من المعلومات التاريخية حتى قيل أن جارفى تلقى تعليمه على يد مسلم قومى .

وانتقل الى الولايات المتحدة ليعمل بالتعاون مع زنوجها فى اطار الحركة العملى والفعلى ، وعمل دوس سكرتيرا للتجمع الاسيوى الامريكى عام ١٩٢٦ ، وفى عام ١٩٢٨ أُوكلت اليه مهمة اصدار مجلة مصورة بإسم افريقيا ، وعمل كاتبا صحفيا لعمود ثابت فى صحيفة **Negro World** ، ودعا لاقامة كرسى لتدريس تاريخ الزنوج ، ونظم جمعية اسلامية عالمية حتى نال لقب المسلم القومى فى افريقيا ، واعتبره الافريقيون بعد زيارته افريقيا عام ١٩٢٠ حلقة وصل بين المسلمين والمسيحيين فى افريقيا ، وعندما استقر فى لاجوس عام ١٩٣١ اصدر صحيفة **Comet** وكان لها دور هام فى التاريخ القومى لنيجيريا خاصة وغرب افريقيا عامة .

وانغمس فى العمل الوطنى الافريقى واشترك فى اول مؤتمر قومى جماهيرى لافريقيا جنوب الصحراء ، وفى المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون **National Council of Nigeria and Camerons** ، الذى كان اول حزب وطنى فى جنوب الصحراء وكان له عمود متخصص فى **Nigeria Daily Times** ، وعمل محررا فى **Nigeria Daily Telegraph** عام ١٩٣٣.

وساهم فى اقامة مدرسة صناعية زراعية فى لاجوس ، ودافع عن قضايا سيراليون وجامبيا وساحل الذهب بخلاف قضايا نيجيريا فى المؤتمر القومى لافريقيا الغربية البريطانية ، ومن اراؤه المنشورة تأكيده على حتمية وحدة غرب افريقيا ، ونجح فى اقامة كلية " يايا " فى ليجوس إنطلاقا من فكرته التى روج لها فى مؤتمر بلندن عن اوضاع الطلبة الافريقيين عام ١٩١٣، لاقامة جامعة افريقية ؛ وكانت جهود محمد دسوقى فى نيجيريا خلال فترة إقامته من ١٩٣١ الى ١٩٤٤ ، محل تقدير الزعيم النيجيرى انتون انياهورو الذى قال أن بذور القومية بذرت ونمت فى نيجيريا مع مقدم دوس الى البلاد .

هاجم محمد دسوقى الرئيس الامريكى روزفلت دفاعا عن مصر وافريقيا ، فعند زيارة روزفلت القاهرة فى ٢٠مارس سنة ١٩١٠ دُعى لالقاء محاضرة في الجامعة المصرية ، وكان مبناها في موقع الجامعة الأمريكية حاليا بميدان التحرير حمل فيها القاهرة مسئولية اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى الذى أُغتيل قبل وصول روزفلت بشهر ، وكانت البلاد أنذاك حالة من القلق والاستقطاب بين المدافعين عن وطنية مرتكب الجريمة إبراهيم ناصف الورداني من ناحية وبين الذين يتهمونه بالإجرام والتطرف والتعصب الديني من ناحية أخري.

وهاجم روزفلت الشعب المصرى والحزب الوطنى الذى وصف فيها انتفاضة الحزب بانتفاضة الصبية والغوغاء ؛ وجاء خطابه تأييدا واضحا للاستعمار البريطاني وطعنا مكشوفا في استحقاق الأمة للحكم الدستوري إذ اتهم المصريين بالهمجية والتطرف وأكد

---

[٣٢٢]) وجارفى امريكى اسود ، عُرف بموسى الاسود لتبنيه الدعوة لعودة الزنوج الى افريقيا ، ارض الميعاد لزنوج العالم بعد شتاتهم فى الارض ، وعُرفت دعوته بالصهيونية السوداء ، وكان جارفى قد اسس شركة نقل بحرى للعوده الى افريقيا ، ونجح فى حشد ثلاثة مليون امريكى من اصل افريقى وراء الفكرة ، وهو الذى ابتدع فكرة مواجهة العنصرية البيضاء بعنصرية سوداء وداعية اقامة امبراطورية للزنوج وحاول فى عام ١٩٢٤ اقناع رئيس ليبيريا بالفكرة لكنه فشل وأُدع السجن ، ولم تتحقق احلامه بسبب الفضائح المالية .

أنهم غير مؤهلين لنيل الاستقلال أو الدستور وأنهم في حاجة إلي عدة عقود بل عدة أجيال قبل أن يستحقوا حكماً دستوريا.

وقبل مغادرة روزفلت القاهرة رد محمد فريد زعيم الحزب الوطني ببرقية الي روزفلت اعترض فيها علي ما جاء في خطابه وطالبه بتقديم الاعتذار للشعب المصري ، وعقد الحزب الوطني مؤتمرا شعبيا ألقي فيه علي فهمي كامل شقيق مصطفي كامل خطبة رد فيها علي مزاعم روزفلت ، واحتجت اللجنة التنفيذية للحزب الوطني علي إدارة الجامعة المصرية لسماحها بإلقاء هذا الخطاب في دارها ومنحها الخطيب درجة الدكتوراه ، ونظم طلاب الجامعة والمدارس الثانوية وأعضاء الحزب الوطني مظاهرة أمام فندق شبرد وكان موقعه انذاك في شارع الجمهورية حيث كان يُقيم روزفلت وهتفوا ضده واتهموه بالجهل بأحوال مصر وشئونها.

وزاد الطين بلة تصريحات روزفلت عند وصوله لندن قادما بالباخرة من الاسكندرية فقد هنأ بريطانيا بحسن إدارتها لمستعمرتها في مصر ومنحها أفضل حكومة في تاريخها، ودعا الانجليز الي معاملة المصريين بحسم وشدة ، كطريقة فُضلى لمعاملة الشعوب المتخلفة .

وكان رد فعل محمد دسوقى على خطب الرئيس الامريكى مماثلا لردود فعل المصريين لكنه اضاف اليها بُعدا افريقيا ، فهاجم النظام الامريكى وممارساته ضد الزنوج واتهم الولايات المتحدة وبريطانيا بإلتغاضى عن الحق ، وخواء ادعاءاتهما بالسعى لرفاهية الشعوب المتخلفه ذلك الادعاء الذى اصبح " مسرحية هزلية فارغة " ، ودعا روزفلت لتوخى الجديه فى معالجة الموضوعات طبقا لمفهوم " بيرل " فيلسوف الغرب الذى يرى في عدم التزام الجدية فى معالجة المشكلات الهامة مسلك لااخلاقى لايجدى معه الاعذار ولو بحسن نية "؛ وختم نداؤه الى الرئيس روزفلت بقوله " يامن تنادى بفعل الخير للعالم فلتبدأه فى وطنك وبين قومك " (٣٢٣).

[٣٢٣]) افريقيا كتاب غير دورى يعنى بالقضايا الافريقية – العدد الاول اكتوبر ١٩٨٦ مقالة ايزيس اسحاق مرقس باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات بعنوان محمد على دوس صـ ٦٤ ـ٧٤ .

الفصل الثالث
الروح الافريقية
لثورة يوليو ١٩٥٢
والبعدين الاسلامى والافريقى
فى سياستها الخارجية (فلسفة الثورة ـ الميثاق)

دوائر الحركة السياسية فى فكر الثورة

حددت ثورة يوليو ثلاث دوائر لنطاق حركتها الخارجية مبنية على انتماءات مصر ؛ وهذه الدوائر هى على التوالى الدائرة العربية فالافريقية فالاسلامية ، وترتيبها على هذا النحو جاء وفقا لاولويات الامن القومى فى فكر منظر الثورة وطموحات تحركه الخارجي ، ؛ فدائرتة العربية هى الدائرة الاساسية وقلب اهتماماته واوثقها ارتباطا بنا .

وتعدد فلسفة الثورة نواحى الارتباط العضوى الوثيق بين هذه الدائرة وبين البُعد الوطنى المصرى " فهى دائرة مصير وتحقيق الذات جمعنا بها الدين والجوار، نحن منها وهى منا امتزج تاريخها بتاريخنا ومصيرنا بمصيرها ؛ ارتباطنا بها واجب يحتمه علينا الدفاع عن النفس ، ويقضى نطاق سلامتنا ان ندافع عن حدود اخواننا فيها " .

وبهذا التوصيف ربطت فلسفة الثورة امن مصر بأمن المنطقة فى إطار من وحدة المكان (الامتداد الجغرافي وتواصله) ووحدة الكفاح ورباط الاخوة والتاريخ والمصير فتقول فى حديثها فى الفقرة التالية " فقوة الرابطة جعلت من ارضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن الكل ولا يمكن حماية مكان فيها كجزيرة منعزلة عن غيرها ، ولا مفر من الحركة عليها بكل طاقتنا وان وحدة الكفاح تحقق كل امانينا " ، وتواصل فلسفة الثورة الحديث بمرارة عن التأثير السلبى للاستعمار على وحدة هذه الدائرة وعدم ادراك العرب لعناصر قوتهم (٣٢٤).

والدائرة العربية بإرتباطها الوثيق بالبُعد الوطنى المصرى ، تُعتبر الاكثر اندماجا فى الوضع الداخلى ، وهو ما يعكس متانة العلاقة بينهما ، وتشير فلسفة الثورة الى هذه الحقيقة فتقول " ايمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ؛ وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، وفي موضع لاحق تؤكد فلسفة الثورة على الارتباط بين البعدين الوطنى المصرى و العربي القومى ؛ عندما اشارت لاشتباك حياة مصر بحياة الدول العربية الشقيقة اللصيقة بحكم الموقع .

والدائرة الثانية الدائرة الافريقية وهى حسب فلسفة الثورة " دائرة الجوار يربطنا بها النيل شريان الحياة والسودان الشقيق الحبيب الذى تمتد حدوده فى عمق القارة ، ولا نستطيع بحال ان نقف بمعزل عن الفوران الذى يجرى فيها ضد الاستعمار ، من صراع مروع حول مستقبلها ومواردها سوف تكون اثاره لنا أو علينا ، أردنا او لم نرد ، ولا يمكن ان نتصور انه لا يمسنا ولا يعنينا " .

ويستطرد صانع السياسة الخارجية فى فلسفة الثورة فيقول " اننا لانستطيع ان نتخلى عن مسئوليتنا فى المساعدة بكل ما نستطيع فى نشر الوعى والحضارة بالقارة الافريقية التى تتطلع الينا شعوبها "، ويحلم المنظر " باليوم الذى يصبح فيه فى القاهرة معهد افريقى ضخم يخلق فى عقولنا وعيا افريقيا يشارك مع كل العاملين فى انحاء الارض على تقدم القارة ورفاهيتها "(٣٢٥) .

و هذه الدائرة طبقا لفكر الثورة تقع فى موقع الاهمية الحياتية كمصدر للمياة والحياة ، وهو ما استلزم وضعها فى المرتبة الثانية رغم عدم وجود وعى افريقى لدى المصريين عامة فعبارة يخلق وعيا افريقيا في عقولنا دليل على ذلك ويتطلب الأمر خلق وعى بشأنها ليصبح هناك مبررا للارتباط .

والدائرة الاخيرة الدائرة الاسلامية دائرة اخوة العقيدة التى يقول عنها " التى تمتد عبر قارات ومحيطات ؛ تجمعنا واياهم روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب وانما تشدها حقائق التاريخ "؛ والتى جاء اهتمامه بها انطلاقا من خواطر والهامات واتته امام الكعبة لمنهجة الحج سياسيا باستغلاله على حد قوله " كبرلمان اسلامى عالمى دورى لفئات الامة ؛ يضع خطوطا عريضة لسياسة بلاد الاسلام وتعاونهم حتى يحين موعد اجتماعهم فى العام التالى " .

---

[٣٢٤]) فلسفة الثورة صـ ٥٨: ٦٤ .
[٣٢٥]) المرجع السابق صـ ٧٦ ؛.

وخلص منظر الثورة الى " الامكانيات الهائلة التى يحققها تعاون ملايين المسلمين فى ارجاء المعمورة ؛ تعاونا لايخرج عن حدود الولاء لاوطانهم الاصلية ؛ لكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة " .

وبذلك مزجت فلسفة الثورة الدائرة الاسلامية بالدائرة الوطنية على اساس الدين ، وقد اشار عبد الناصر فى تعرضه لهذه الدائرة فى فلسلفة الثورة " لحقيقة الارتباط القوي لمصر بعالمها الاسلامى ، الذى انطلاقا منه تحملت المسئوليه التاريخية بأعبائها المرهقه ومخاطرها فى التصدى للهجمات التى استهدفت الامة الاسلامية على مر العصور ، وأهلتها لان تكون حصنا لتراث هذة الامة بعد ان تداعت مناراته فى كل من الاندلس وبغداد عندما أصبح الازهر الشريف قلعة ومنارة هذا التراث بما اضافه وبثه فى ارجاء العالم الاسلامى " .

الدائرة الاسلامية

(التعاون الاسلامى - وضع الاقليات)

خلص التصور المصرى طبقا لفلسفة الثورة الى اهمية وجود صرح متين من التعاون يشد العالم الاسلامى ، الممتد على مساحات ساشعة من الارض ويضم شعوبا عديدة متنوعة لها جذور تاريخية وثقإفات عميقة ؛ تعاون يشد عالم الاسلام الى بعضه ، تعاون يمكنه من استخدام امكانياته الهائله ليجعل هذه الامه قوة سياسية ، تدرأ عن نفسها ما يتهددها من مخاطر .

و لم يغفل التصور المصرى فى دعوته للتعاون على هذه الساحة، التباين والاختلاف الطبيعى لتركيبة هذه الامة فأخذ فى الاعتبار خصوصية وحساسية وضع الاقليات المسلمة ليجنبها تناقضات ازدواج الانتماء على نحو ما افرزته الصهيونية من سلبيات على يهود الشتات ،فأكد فكر الثورة على أهمية الايخرج هذا التعاون عن حدود ومقتضيات الولاء الطبيعى لاوطانهم الاصليه تلافيا لإثارة مخاوف الدول التى ينتمون اليه ، وحتى لا تُجهض دعوته قبل ان تبدأ .

فأى منهج يخرج بهذه الاقليات عن حدود ولائها لاوطانها الاصلية سيؤدى الى نتائج سلبية مزدوجة تهدد سلام تلك الاقليات من ناحية وتستعدى الدول الحاضنة من ناحية اخرى لها ولعالم الاسلام الذى استقطبها بعيدا عن جذورها ، والدول الحاضنة للاقليات المسلمة فى حالة آسيا دول كبيرة فى مجملها تطلع اليها صانع السياسة المصرية لدعم طموحاته الداخلية والخارجية فى مواجهة الغرب .

وموضوع الاقليات موضوع شائك ومن اشدها خطورة ، ويقتضى الالتزام بنظرة موضوعية نابهة فى التعامل معه ؛ فهذه الاقليات بانتشارها على اتساع قارات ودول عديدة منها دول عملاقة ستؤدى فى حال التعامل معها بدون تلك النظرة الى استعداء العديد من الدول وبالتالى اتساع نطاق المواجهة وتبديد الطاقات وهو ما لايقدر عليه أحد.

وفِكر منظر الثورة بشأن الاقليات ؛ يحترم التعددية والخصوصية ويناسب حقائق العصر ومتغيراته فى وقت هيمنت فيه فكرة القومية على الحياه السياسية فى السواد الاعظم من دول العالم بما فى ذلك الدول الاسلامية ذاتها ؛ والتى جعلت الافكار التى تتحدث عن عالمية الخلافة ووحده الكيان الاسلامى غير مقبولة نظريا وغير صحيحة عمليا ولم تعد واردة على حد قول حمدان وأصبح الدور الاصيل للحركة على هذه الدائرة هو وحدة العمل لا وحدة الكيان.

وقد اثبت التاريخ ان وجود نواة اسلامية ممثلة فى الاقلية فى المجتمعات غير الاسلامية ، اكثر جدوى للدعوة ويُسدى اليها خدمة جليلة ؛ فالدعوة لاتخدمها العزلة بقدر ما يخدمها الانتشار والانفتاح ؛ وإن ألافضل للاسلام ودوله توظيف تلك الاقليات فى تعاون بناء وبدون استعداء احد للتأثير على دولهم لخدمة قضايا الامة ، فهذه الاقليات عندما يقوى انتمائها لمجتمعاتها تصبح قوة فعالة سياسيا وتفرز تأثير الايجابى فى مواقف دولها التى تصبح بدورها اكثر تفهما لانتماء الاقلية الاسلامى مع امتداداتها الثقافية والدينية بالخارج والتزاماتها نحوها، وهذه الاقليات فى النهاية قوة مضافة للامة الاسلامية .

ويؤخذ على فلسفة الثورة فى تصورها لحركتها على الدائرة الاسلامية ؛ انه جاء خواطر والهامات ولم يكن فكر اصيل فى حساباتها الاستراتيجية على نحو ما جاء فى الدائرتين الاخريتين ، فإستغلال الحج سياسيا فكرة غير سديدة ومستحيلة عمليا وغير مستساغه دينيا فلا الوقت ولا المناسبه ملائمتان لتحقيقها (٣٢٦) ، فالمناسبة بجلالها لا مجال فيها لضجيج الجدل السياسى وصخب

[٣٢٦]) وفكرة استغلال الحج كمؤتمر سياسي عالمي لمناقشة مشاكل العالم الاسلامى اقترحها ايضا الكواكبى فى كتابه "ام القرى" – المرجع كتاب الشيخ القرضاوى الوطن والمواطنة – صـ ٥١.

المناقشة فمن غير المعقول ان ينشغل الحجيج بأمور الدنيا والسياسة عن أمور الدين والعبادة فى مثل هذا الوقت القصير المشحون بالروحانيات ؛ ناهيك عن صعوبة التوفيق بين اتجاهات شتى ومتضاربة دينيا وقوميا وسياسيا يضيع معها جلال المناسبه وسط كل هذا الفوران والتناقضات.

ويلاحظ ان فلسفة الثورة تجاهلت عمدا أو بدون وعى الشعوب المسلمة فى افريقيا عندما تحدثت عن التعاون الاسلامى وأقلياته ، فقد ركز حديثه على آسيا فقط ، وعدد دولها حصرا بالصين والملايو وسيام وبورما والباكستان والشرق الاوسط والاتحاد السوفيتى ثم تعرض فى اشارة عامة لملايين اخري من المسلمين فى ارجاء المعمورة ؛ وقد يعنى هذا التجاهل اما عدم الاقتناع بفعالية التعاون مع مسلمى إفريقيا وهم ما زالوا فى ربقة الاستعمار ، ولم يكن منتظرا ان يتحرروا قريبا لينطلقوا فى التعاون الاسلامى ، وإما جهلا بهذا الامتداد الاسلامى فى القارة أصلا .

والبعد الاسلامى فى حقيقته عامل جامع للدوائر الثلاث لانتشار طوائف الاسلام فى مكونها ، فمضمون (الدائرة الاسلامية) يضم مسلمى المنطقة العربية (الدائرة العربية) ، ومسلمى افريقيا دولا واقليات (الدائرة الافريقية) ومسلمى اسيا دولا واقليات ، وتضم الفئة الاولى اندونيسيا وماليزيا وباكستان وايران وافغانستان وتركيا وبروناى ، والاقليات فى الصين والهند والاتحاد السوفييتى وهم جميعا مضمون الدائرة الاسلامية حسبما يُشير منظر السياسة الخارجية للثورة .

ومن الملاحظ ان فلسفة الثورة لم تُشر الى مسلمى اوروبا والولايات المتحدة ، فهم انذاك لم يكن لهم وزن او حجم يُعتد ليتناولها فى تضمينه به فدول الاسلام فى اوروبا البانيا والبوسنة كانتا تحت نظم شيوعيه تنكر الدين ودولها دول تقع بعيدا عن نطاق المواجهة مع الاستعمار بل يتطلع الى دعمها .

الارتباط بين الدوائر الثلاث

والدائرة الوطنية

وفى معرض الحديث عن ارتباط هذه الدوائر بالدائرة الوطنية خصت فلسفة الثورة ، الدائرتين العربية (الاولى) والاسلامية (الثالثة) بإرتباط مُميز بالدائرة الوطنية ، فالدائرة العربية دائرة مصير امتزج مصيرنا بمصيرها والدفاع عنها هو دفاعا عن النفس ، واشارت بصراحة للرابط القوى بين البعدين الوطنى والقومى العربى ، والدائرة الاسلامية فى فلسفة الثورة تراها " ان هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقر بها العقيدة فحسب ؛ وانما تشدها حقائق التاريخ (٣٢٧) .

اما بالنسبة للدائرة الافريقية التى لم تكن الامور في قارتها قد تبلورت بعد على نحو واضح فى ظل الاستعمار ، فإنصبت رؤية منظر الثورة لها من الجانب المعني بالصراع مع الاستعمار فقط فعلق عليها قائلا " ان ما يدور فيها من صراع مروع ؛ ستكون اثارة لنا او علينا سواء اردنا او لم نرد " ؛ وهو بهذا الربط البعيد الاحتمال يزج بالدائرة الافريقية في عمق الدائرة الوطنية دون ان يكون هناك ارتباط يضاهى ذلك القائم بين الدائرة الوطنية والدائرتين العربية والاسلامية (٣٢٨) ؛

ولم يُوف مسألة مياة النيل كرابط حقيقى بين الدائرة الافريقية والدائرة الوطنية حقه مكتفيا بالاشارة الى النيل كرابط مع دول القارة ، وقد نجد له عذرا فى ان تدفق امدادات مياة النيل من وسط القارة الى مصر لم تكن تُنبئ بالمشاكل ؛ ولكنه تجاهل كلية مسلمى القارة كرابط يشد الدائرتين الافريقية والوطنية .

ونستخلص من قراءتنا لفلسفة الثورة ان الحركة على الدائرة الاسلامية فى عمومها لم تكن بذلك الوضوح الذى اتسم به تناوله لحركته على الدائرتين العربية والافريقية ؛ فلم يتعامل على هذه الساحة بنفس الاصرار الذى تعامل به مع قضايا الدائرتين الاخرتين ، ولعله إرتكز فى ذلك على ان هناك اطراف عاملة اصيلة معنية اكثر منه وبشكل مباشر بمسئولية العمل على هذه الدوائر واكثر قبولا لدول هذه الدائرة ، فالسعودية لديها مقومات القبول لدول العالم الاسلامى والعمل بدونها فى هذا المجال لا معنى له ، ومكانة السعودية هى التى دفعت منسق السياسة الخارجية الى عدم اغفال التعاون معها فى بزوغ منظمة المؤتمر الاسلامى ، فى اجتماع مع ضم قادة الدول الثلاث جمال عبد الناصر والملك سعود والرئيس الباكستانى غلام محمد وكان اول امين عام لها انور

---

[٣٢٧]) فلسفة الثورة صـ ٥٨: ٦٤ .

[٣٢٨]) لم يقدم منظر الثورة الدائرة الاسلامية باتساعها وتناقضاتها العرقية والطائفية وتعدديتها اللغوية على الدائرة العربية بانسجامها وقلة تناقضاتها ، وإلا كان يعنى هذا إستبدال السهل بالصعب وتبديد اهداف واقعية واكثرعملية بما هو بعيد .

السادات .

الاسبقيات بين الدوائر

وإذا ما اتفقنا مع أسبقية التوجه العربي للسياسة المصرية للأسباب التي أوردتها فلسفة الثورة بإيمانها بفكرة العروبة في المقام الأول ، فجاءت طبقا لذلك في موقعها الصحيح في المركز الأول ، ويحتاج الأمر منا بعض التأمل للتوصل للأسباب التي أدت به لسبق التوجه الافريقى ؛ التوجه الاسلامى بالرغم من اصالة التوجه الاخير الذى يشكل مظلة اكثر شمولية ويغطى الدائرتين العربية والافريقية فى معظمهما .

وقد نجد تبريرا لأسبقية
التوجه الافريقى على التوجه الاسلامى
فى فكر الثورة فى الاعتبارات التالية :

* تبنى الثورة الاتجاه العلمانى منذ البداية ورفضها اى وصاية دينية على توجهاتها ، فرأت فى ضوء ذلك ان ينحصر دور الدين فى نطاقه الفردى دون ان تنسحب هيمنته على دور الدولة ؛ فرفضت الثورة وصاية الاخوان عليها ؛ او ان يكون لهم دور فى العمل السياسى يسلبها الانفراد بالسلطه وحرية الحركة داخليا وخارجيا لتحقيق اهدافها الضخمة التى تتعارض مع توجهات الاخوان، وفى هذا الاطار رفض عبد الناصر طلب الهضيبى تطبيق الشريعة مؤكدا ان الثورة جاءت لمواجهة الظلم الاجتماعى والطغيان والفساد السياسى والاستعمار الانجليزى ، ولكنه ادرك لاحقا فى عام١٩٦٠ ، اهمية إرتكاز السياسة الداخلية الاشتراكية على خلفية اسلامية ، مشيرا لاهمية الاسلام في بناء المجتمع مستلهما فى ذلك الجانب الاشتراكى للاسلام باعتبارة أول عقيدة اقامت أول دولة اشتراكية في العالم (٣٢٩) ، فقال عبد الناصر " نحن في حاجة لمجتمع يقوم على تعاليم الاسلام الذى يدعوا للحب والصداقة والتعايش ؛ اسلام اصلاحى اسلام يعبر عن حقيقة القومية العربية والاشتراكية العربية ، وسلم بإرتباط السياسة الخارجية بالدائرة الاسلامية فى سياق الاخوة الاسلامية بمضمونها العاطفى على نحو ما اشار عبد الناصر عام ١٩٦٠ .

ولما كانت السياسة الخارجية لاى نظام تنبع من فكره العام ، فلم يكن من المعقول ان تتبنى السياسة المصرية فى اولويات حركتها الخارجية مالم تؤمن اصلا بالتعامل السياسى معه داخليا ، فإكتفت بالارتباط بالاسلام على نحو هامشى اسمته الارتباط العاطفى .

* عدم وفاق الثورة مع لاعبى الدائرة الاسلامية الرئيسيين على الساحتين العربية والدولية ، فقد كانت باكستان وتركيا والعراق اعضاء حلف بغداد مُتحالفون مع قوى الاستعمار وبالتالى لم يكن هناك مجال للتعاون مع تلك الدول الاسلامية الكبيرة بعدما اضرت بالنظام الاقليمى العربي وأدت لإنقسامه.

* حتمية الصدام بين مصر والاستعمار فى النطاقين العربى والافريقى عند إنطلاق معركة التحرير التى تبنتها الثورة ، بينما لم يكن الصدام حتميا فى الدائرة الاسلامية ، بعدما تخلصت دولها الواقعة خارج الدائرتين العربية والافريقية من الاستعمار او ما زالت ترتبط به استراتيجيا.

* إيمان الثورة بأن التوجه الافريقى له جاذبية خاصة عند العنصر الافريقى غير المسلم من شعب السودان والتى يجد في التوجه الافريقى مظلة تجمعه والعنصر العربى من شعب السودان ، بما يخدم فكرة الوحدة بين مصر والسودان ، وان إمتداد حدود دولة الوحدة الى العمق الافريقى الذى مازال فى قبضة الاستعمار سيخلق نقطة تماس واشتباك مباشر معه ، يزيدها عمقا ان امن مياة النيل وارتباط مصر الابدى به على إمتداد مسيرته حتى منابعه لتامين تدفقه ، لا يمكن تحقيقه الا بالتعامل مع دول مستقلة وصديقة فى حوض النهر ، وهو ما يبشر بصدام مؤكد مع الاستعمار لدعم حركة التحرير بهذه الدول فى الدائرة الافريقية ويُزيد من حرارته ما يدور من صدام معه فى الدائرة العربية .

اصبحت المعركة مع الاستعمار فى فكر الثورة كل لا تتجزأ ؛ فنتائج الصدام معه من مكسب او خسارة تحسب لمصر أو

---

[٣٢٩]) خطاب عبد الناصر فى صنعاء فى إبريل عام ١٩٦٤.

عليها فى معركتها العامة ضده ، ومساندة مصر للنضال الافريقى هو فى الحقيقة امتداد لنضالها ضد محاولات الاستعمار اهدار اهداف ثورتها فى الداخل او اهدافها على الدائرة العربية ، وعبر عبد الناصر عن هذا المفهوم عندما برر موافقته على مساعدة نيجيريا ضد انفصال بيافرا عام ١٩٦٧ ، بعد النكسة التي مُنى بها نظامه في مصر بشهور قليله بقولة: " اننا لا نريد ان تنتكس افريقيا بنكستنا فتحرير سيناء يبدأ بصمود نيجيريا " ، وكان هذا الموقف تصدى غير مباشر لاسرائيل التى وقفت مع الغرب وراء انفصال بيافرا طوال الفترة ١٩٦٦ وحتى ١٩٧٠.

* اقتناع الثورة بأنها مدعوة الى قيادة العمل الثورى على الدائرتين العربية والافريقية وثقتها فى إقتدارها على ذلك ؛ فهى رأت فى نفسها حسب فلسفة الثورة ذلك البطل القادر فتقول " إن الدور التائه الذى الذى يبحث عنه (هذا البطل) ، أرهقه التجول فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان من حولنا ، استقر به المطاف على حدود بلادنا يستنهضنا فلا احد يستطيع القيام به غيرنا ؛ فنحن وحدنا بحكم المكان نستطيع القيام به " ، وهذا الدور الذى اصبح مطلبا للسياسة المصرية يقتضى الانفتاح على العالم فقد " مضى عهد العزلة " " على حد قول فلسفة الثورة التى ترى " أن العالم بمشاكله وازماته يقتحم علينا ابواب بلادنا ؛ ولم يعد مفرا امام كل بلد من ان يدير بصره ليتطلع الى مجاله الحيوى ودوره الايجابى فى هذا العالم المضطرب " ؛ وهو ما يمكن ان تلبيه الدائرتان العربية والافريقية فاصبحتا تمثلان أولوية للسياسة الخارجية .

" والدور التائه الذى يبحث عن بطل الذى نحن وحدنا بحكم المكان قادرين على القيام به " (٣٣٠) ؛ أوقع واظهر فى الدائرتين العربية والافريقية لإنطباق بُعد المكان فى العبارة السابقة عليهما عما هو علية بالنسبة للدائرة الاسلامية التى تنتشر عبر محيطات وقارات ، كما ان رغبته فى التفرغ للتصدى للاستعمار كان ظله اوضح على الدائرتين العربية والافريقية مما هو عليه فى الدائرة الاسلامية التى تحررت معظم دولها ، كما ان الاقليات فى اسيا والاتحاد السوفييتى لم تكن لتُهيء له هذا الدور الزعامى فهى ليست بالمكان المناسب لحركة سياسية فعالة .

فالمسلمون الذين اشارت اليهم فلسفة الثورة ينتمون لدول كبرى أو كبيرة ويمثلون اقليات فاقدة الحول والقوة فى الصين والاتحاد السوفيتى ؛ وكان التعامل مع طموحاتهم السياسية لابد وان ينتهى بصدام فادح تخسرة مصر بالتأكيد ؛ فى وقت كانت تركن فيه الى صداقة دولهم كسند قوى فى معركتها ضد الاستعمار .

ورأت مصر ان العلاقة القوية مع دول الاقليات اجدى وانفع للطرفين ، ويمكنها من خلال علاقات طيبة خدمة تلك الاقليات على نحو افضل ، وقد حسم عبد الناصر ذلك المنحى فى رده على عتاب وفد اسلامى لع لعلاقته الوثيقة مع الهند عما هى عليه مع الباكستان الشقيق على خلاف مُقتضى الاخوة الاسلامية ؛ فاجاب ان الباكستان دولة قوية وذات سيادة ولها كيان دولى وأمنها مكفول بقوتها الذاتية ومنزلتها الدولية ؛ وهو ما لا يتوفر لمسلمى الهند التى مصادقتها انفع لهم (٣٣١) .

نستخلص مما تقدم ان الدائرة الاسلامية بمفهوم ومنظور المخطط المصرى فى ظل اوضاع عصره ، لم تكن قادرة على ان تُلبى طموحاته الرئيسية وهو ما حدا به لوضعها فى أخر أولوياته فى فلسفة الثورة ومن بعدها ميثاق العمل الوطنى الصادر عام ١٩٦٢ ؛ فالدائرة الاسلامية فى الميثاق الوطنى احتفظت بالترتيب الاخير ايضا فى اولويات صانع السياسة ، لكنها تقهقرت الى المرتبة الرابعة بدلا من المرتبة الثالثة التى احتلتها فى فلسفة الثورة ، وجاء تزحزح الدائرة الاسلامية الى المرتبة الرابعة والاخيرة لتخليها عن المرتبة الثالثة لحركة عدم الانحياز الدائرة الجديدة فى السياسة المصرية .

ومن الملفت أن الميثاق تجاهل الاشارة الصريحة الى مسمى " الدائرة الاسلامية " التى عرفتها بها فلسفة الثورة ؛ وجاء ذكرها فى اشارة يتيمة فى جملة عابرة نصها " الايمان برباط روحى وثيق يشده الى العالم الاسلامى " دون استفاضة فى معالجة دوره على نحو ما سبق فى فلسفة الثورة ، بينما احتفظت الدائرتان العربية والافريقية فى الميثاق بنفس الاولوية والوضوح اللذين كانتا عليه فى فلسفة الثورة .

وبمقارنة التصور المصرى لحركته على الدوائر المختلفة ، نخلص الى ان تعاملة مع الدائرة الاسلامية يختلف تماما عن تعاملة مع الدائرتين الاولى والثانية (العربية والافريقية) ؛ فبينما جاء تعاملة مع هاتين الدائرتين واضح الملامح ومشتملا على

---

[٣٣٠]) المرجع السابق صـ ٧٨ .
[٣٣١]) تقديم الشيخ احمد حسن الباقورى لكتاب " ويسألونك عن ذى القرنين " صـ ٣٨ ـ تأليف مولانا أبو الكلام أزاد .

تفصيلات واضحة لطبيعة توجهاته فإنه على العكس تعامل مع الدائرة الاسلامية بعمومية ودون تفصيلات بما يعنى عدم تبلور موقفه منها وحركته عليها بطريقة واضحة .

كما ان مجئ الدائرة الاسلامية فى اخر هذه الدوائر من ناحية الترتيب عكس اولويات حركته السياسية ؛ ولعل هذا ما دعاه ليذكر صراحة فى كل دائرة على حده فى فلسفة الثورة حتمية حركتة على الدائرتين العربية الافريقية لتاثيرهما المباشرعليه ؛ بينما تجاهل تماما التذكير به فى الدائرة الاسلامية التى اقتصر طموحه فى حركته عليها فى استقاء العون منها .

حركة الدوائر الثلاث

بين التـــــــــوافق والتـــــــــعارض)

يرتكز الامن الوطنى المصرى الى الولاء المطلق للدائرة الوطنية ومصالحها هى المعيار الحاكم لاى تحرك علي دوائر السياسة الخارجية ؛ وبرغم الالتقاء الطبيعي والتداخل بين الانتماءات المصرية الثلاثة الوطنى والقومى العربى والاسلامى ، فإن التقاء الدائرة الوطنية بالدائرة الافريقية لا يرقى لنفس درجة التقائها بالدائرتين الاخرتين ؛ ورغم ان هذه الانتماءات القومى العربى الاسلامى تصب فى الدائرة الوطنية ، الا ان هذا لم يمنع وجود تضارب بينها ، اذا ماتطرف الولاء لاحدى الدوائر على نحو يتناقض ومصلحة دائرة اخرى او على حسابها ، ومن الطبيعى ان يكون هناك توافق وتعارض فى الحركة ازاء أُطر مختلفة المضمون تبعا لتوافق او تعارض مبادئها وتباين اهدافها وطبيعتها .

ويجىء التناقض مع خصوصية رؤى كل طرف من اطراف الدائرة لقضاياه التى فى ظلها يُعيد ترتيب اولوياته من منطلق خصوصية منظوره واهدافه ، فكل دائرة تسعى لفرض ارادتها المنفردة فى الحركة داخل نطاقها بما يتفق مع خصوصية اهدافها دون ان تعبأ بأى منظور غريب عنها يتطفل عليها من محيط دائرة أخرى، فالعروبة بعالمها العلمانى بأطيافه وطوائفه المختلفة تتعارض مع يمين تيار الاسلام السياسى الذي يتجاوز ولائه حدود الوطن ليستبدله بولاء فوق وطنى يتجاوز دائرة العروبة فى حدودها الجغرافية الى حدود جغرافية اوسع ومختلفة عرقيا ولغويا وان كانت تتحد معه فى العقيدة .

والتركيز على العروبة كعنصر غالب فى الدائرة العربية يجعلها تتجاوز البعد الدينى لتعارضه مع الاعتبار القومى فى ظل تعددية العقائد ؛ ومسالة الوحدة العربية الغالبة فى دائرتها اثارت حساسية قادة افريقيا (من غير المسلمين) المنادين بوحدة الكيان الافريقى (بإعتبارها متطفلة على الدائرة الافريقية) ، فنكروما المنادى بوحدة افريقية الشاملة فى صورة حكومة واحدة وجيش واحد على المستوى القارى تخوف من اهدار دعوته على يد فكرة الوحدة العربية عندما قامت تباشير المد العربى الوحدوى بين مصر وسوريا لتناقض الفكرتين وعدم امكانية الدمج بينهما الا بتخلى الطرف المعنى عن احداها لصالح الاخرى .

وإدارة هذه التناقضات هو محك النجاح في العمل على هذه الدوائر وهذا يقتضى اما تحييدها او تفعيل نقاط التوافق ، أو وضع ضوابط على الحركة فى دائرة معينة لصالح اهداف الحركة على دائرة اخرى بما لاينسخ فى الوقت نفسه اهداف حركته فى الدائرة الاصلية وان كان يحد منها او يجمدها مؤقتا حتى لا يستثير الامر التوتر ، وادراكا لكوامن التناقض عملت السياسة الخارجية على ضبط حركتها طبقا للمتغيرات السياسية ؛ فتجاوزت بعض الابعاد فى حركتها على دائرة لصالح دائرة اخرى ، فالانتماء العربى لم ينسخ فى اى وقت التوجه الافريقى ولم يستثر تناقضا معه وإنما جمعهما معا وحدة النضال ضد الاستعمار والعنصرية .

فالانتصار على الاستعمار فى دائرة يعنى اضعافه فى الدائرة الاخرى ؛ ولذا لم تجد الثورة صعوبة فى التوفيق بين الانتمائين فى تلك المرحلة التى استدعت المصالح المشتركة تعاونا عربيا افريقيا لدعم قضايا كُل للاخر فى تضامن اقتضته ضرورات الامن واستراتيجيات العالمين العربى والافريقى بينما كان التعاون الافريقى الاسرائيلى فى الستينيات من القرن الماضى يستثير التوتر على الدائرة الافريقية وينعكس على الدائرة العربية ؛ كما ان التركيز على العامل الافريقى فى دائرته يجعلها تتجاوز البعد الدينى لتعارضه مع الاعتبار القومى فى ظل تعددية العقائد حتى لا تستثير عداءات .

وهو ما ينطبق فى الحركة على الدائرة الافريقية فى نطاقها غير الاسلامى ؛ فاذا كانت مصر لاعتبارات القومية تجاوزت البعد الدينى فى دائرتها العربية الاصيلة رغم عدم استثارته تناقضا لاغلبيته المسلمة الكاسحة ؛ فكان من المنطقى عليها ان تتجاوزه ايضا فى القارة الافريقية وهى ما زالت تعيش بعد الاستقلال مباشرة أثار التغريب المعادى للاسلام والعرب وكان هذا جليا عند تحديد مصر موقفها من الطموحات القومية لعرب كينيا وزنجبار فى الاستقلال فقدمت الاعتبار الافريقى على العربى والاسلامى حتى لا يحدث شرخ فى التماسك الافريقى فى المعركة مع الاستعمار .

وليس من الضرورى ان يعنى ترتيب الدوائر فى شكل متعاقب ان تكون هناك مسافات فاصلة بين الواحدة والاخرى ؛ فقد تضيق المسافات لتتداخل بدرجات متفاوته حتى ينتهى بالتطابق الكامل والاندماج فتصبح الدائرتان او الثلاث وكأنها دائرة واحدة بطبقات متعددة .

ومع تزايد درجة التطابق تقل فرص التناقض ؛ فالدائرة الاسلامية على سبيل المثال تحتضن الدائرة العربية تماما بدون تناقض يُذكر ،وتضم معها الدول الاسلامية فى افريقيا جنوب الصحراء وفى آسيا ، فتتداخل بذلك دوائر الحركة المصرية الثلاث، فالدول المسلمة جنوب الصحراء لا حساسة لديها من العروبة التى تجمعهما الاخوة الاسلامية ؛ بل انها ترى فى نفسها شريك اصيل فى قضايا هذه الدائرة ؛ اما بالنسبة للدول الافريقية الاخرى ذات الكتل الاسلامية فيتوقف التطابق على مدى رد فعل هذه الدول تجاه دائرة أو اخرى من دوائر السياسة المصرية التى لا تنتمى اليها هذه الدولة .

ضوابط الحركة على الدائرة الاسلامية
فى افريقيــــــــــــــا

اوجز محمد فايق وزير الدولة للشئون الافريقية فى عهد عبد الناصر سياسة ثورة مصر الافريقية بقوله " ان مصر رغم ادراكها لاهمية انتشار الاسلام وامكانية استغلاله فى دعم العلاقات المصرية / الافريقية والعربية / الافريقية ايضا ؛ إلا أنها حرصت على ان تُبقى علاقتها التى توطدت بسرعة مع الطرق الصوفية ومشايخ الاسلام وجمعياته المختلفة فى افريقيا فى نطاقها الدينى والثقافى فقط ؛ وابقتها بعيدة تماماعن أى شكل سياسى ، كما نأت بنفسها عن اقامة تكتلات من الدول الاسلامية فى القارة حتى لا تضيف تقسيمات جديدة ترتكز على اسس دينية الى جانب تقسيمات اخرى كثيرة فُرضت على القارة ، وكان الهدف الا تنشغل الدول حديثة الاستقلال بمثل هذه التقسيمات الجديدة عن عدوها الحقيقى وهو الاستعمار .

ويستطرد سيادته فيقول ؛ كما امتنعت مصر كلية عن مساعدة أى فكرة انفصالية لاقامة دويلات مسلمة مثل محاولة البعض فى شرق افريقيا المطالبة باستقلال ساحل كينيا المسلم الذى حكمه العرب حتى استقلال البلاد عام ١٩٦٤ ؛ بل إنها أيدت إقامة دولة تنزانيا باتحاد زنزبار المسلمة والعربية الثقافة مع تنجانيقا الافريقية "(٣٣٢) ؛ وكان البعض يرى فى هذا الاتحاد مقتل دولة اسلامية فى زنزبار التى كان اهلها يتطلعون للوحدة مع مصر الناصرية فى تلك الفترة " (٣٣٣) .

وبرر سيادته تأييد مصر لقيام الاتحاد التنزانى بأن هذا الاتحاد يزيد من تأثير المسلمين فى شرق افريقيا ويجنبهم كثيرا من الحساسيات التى تتولد عن أنشاء دويلات اسلامية وينفى عنهم إتهامات التعصب الدينى ، وعن رفض مصر رغبة زنزبار فى الانضمام اليها أنذاك ذكر " أن الثورة رأت فى ذلك محاولة تفتقر للمنطق والنظرة الاستراتيجية " ؛ وعن المذابح التى تعرض لها شعب زنجبار التى راح ضحيتها ٢٠ الفا يقول " ان الامر فى حقيقته كان ثورة اجتماعية ضد أوضاع معينة " .

كانت الثورة مماثلة لثورة مصر فهى اشتراكية ضد الغرب متحالفة مع الشرق ، وزعت الاراضى على الشعب وقدمت خدمات اشتراكية عديدة لكنها ضد العرب . وهذه نقطة تحتاج تحليل اكثر سنعرض لتفصيلاتها فى تعرضنا لزنجبار، وعن إتهام البعض مصر بغض الطرف عن تلك المذابح ذكر " ان مصر قامت بمعالجة المسألة بالتدخل لوقف اراقة الدماء والحفاظ على سلامة الساسة القدماء الذين كانوا يرتبطون بمصر ، واضاف انه من منطلق هذا الفكر لم تؤيد مصر انفصال اريتريا عن الحبشة ولكنها ساعدت الشعب الاريترى فى مقاومة طغيان هيلاسلاسى الذى تنصل من النظام الفيدرالى الذى اقرته الامم المتحدة كشرط لانضمام اريتريا الي الحبشة .

---

[٣٣٢]) تتكون زنجبار من جزيرتا زنجبار وبمبا وتبعدا عن شاطئ إفريقيا الشرقي ٢٥ ميلا فى مقابلة تنجانيقا وهى ارض عربية إسلامية استوطنها العرب منذ قرون ، ومنها نشروا الإسلام في كثير من بلاد إفريقيا. ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠ألف نسمة، معظمهم من المسلمين ، استقلّت عن الاستعمار البريطاني عام ١٩٦٣م ؛ ورفضت حكومتها استقبال وزيرة خارجية اسرائيل جولدا مائير – التي أصبحت رئيسة وزراء إسرائيل فيما بعد – عند زيارتها دول إفريقيا الشرقية لإقامة علاقات دبلوماسية مع تلك البلاد ، قام عبيد كرومي بالتعاون مع نيريري بالاستيلاء على السلطة ثم قام بضم زنجبار إلى تنجانيقا فى دولة جديدة بإسم تنزانيا برئاسة القس نيريري ، وفي عام ١٩٦٤م دبّر كرومي بمساعدة نيريري مذبحة للمسلمين راح ضحيتها أكثر من خمسة عشر ألف مسلم في يوم واحد لوقوفهم فى وجه المد الماركسى .

[٣٣٣])ندوة العرب وإفريقيا ؛ ثورة يوليو وافريقيا صـ ١٢٨ و١٠٥و١١٠و١٤٥و١٤٦ – اصدارات مركز دراسات الوحدة العربية .

وذكر محمد فايق ان عبد الناصر عندما فكر في عرض قضية فلسطين على افريقيا تساءل من اى مُنطلق يعرضها الافريقى أم الاسلامى ، ورفض نصيحه بعض زعماء القارة المسلمين وعلى رأسهم أحمدو بللو زعيم نيجيريا بعرضها كقضية إسلامية حتى لا يقتصر التأييد على مسلمى القارة فقط ؛ واصر على عرضها كقضية افريقية تتعلق بالاستعمار الاستيطانى والتفرقة العنصرية ليضمن تأييد افريقيا كلها باعتبارها ادرى القارات بهذا اللون من الاستعمار.

وطبقا لأحكام السياسة أنفة الذكر وضوابطها أصبح التحرك المصرى فى الدائرة الاسلامية يقتصر بنص صريح على حماية التراث والتعاون بين المسلمين بالدرجة الاولى ؛ ولم تحاول مصر فى اى فترة استغلال الاسلام سياسيا بل وصل بها الامر لان تدعو فى تحركها بافريقيا بالتحذير من اتجاهات بعض الدول الاسلامية لتسييس الدعوة لكسب تأييد مسلمى افريقيا لوجهة نظر او طرف اسلامى ضد الاخر ، وهى نظره تستهدف حماية المسلمين انفسهم من مخاطر التحزب .

ولم تحدُ تلك الضوابط من تعاطف مصر الاخوى مع الدول المسلمة جنوب الصحراء ، فأخذت جانب الصومال فى صراعها مع اثيوبيا الامبراطورية رغم الاهمية التى تشكلها الاخيرة بالنسبة لمياة النيل ، فلم تمنعها من خدمة الدعوة ولا اقامة علاقات متميزة مع القيادات الاسلامية بأفريقيا ، ومما سهل الامر أن قيادات القارة جميعا الا اقل القليل (بصرف النظر عن إنتماءاتهم العقيدية) لم يكن لديها فى أى وقت حساسية ضد الاسلام ، بينما كانوا يتعاونون حول قضايا الدائرة الاسلامية فى المحافل الدولية.

وإجمالا للقول فرغم الموقع المتأخر للدائرة الإسلامية فى وثائق الثورة على اساس عملى بإعتبارها موروث عاطفى ، إلا أن الممارسة الفعلية أثبتت قوة هذا الجانب الاسلامى فى معظم الاحيان ، فالجانب العاطفى اقوى جوانب العلاقات الانسانية ، يطغى فى كل الاحوال على الجانب العقلى والعملى فى معظم الأحيان ؛ فالعاطفة عمليا لها تأثير قوى على التكوين النفسى والفكرى للعلاقات بشكل عام ، فعلى سبيل المثال لم تتراجع الدول الاسلامية فى افريقيا و آسيا عن موقفها الرافض لإسرائيل لحقب طويلة جدا رغم إغراءات وضغوط الغرب الهائلة ، وتأسس هذا الرفض الجماعى بتأثير هذا الدافع العاطفى الذى يحتشد خلفه القوى الهائلة للرأى العام ، وهو نفس ما حدث فى الحروب الصليبية عندما حشدت الكنيسة خلفها جموع الاوروبيين ضد الاسلام سواء بوعى ام بدونه .

وبرغم المكانه الكبيرة التى يحتلها الدين لدى العامة والمؤمنين لتأثيره العميق على سلوكهم الفردى ؛ الا انه فى الحقيقة ليس بالعنصر الغالب فى تحريك العلاقات بين الدول ؛ فالايمان بُعد عاطفى وليس بُعد مصالح ؛ لا يمكنه ان يكون البعد المسيطر فى ادارة العلاقات انما يقوم بدور داعم تكميليا بالدرجة الاولى ، يفرض نوع من التميز والتمايز فى العلاقة إذا ما تعاملنا مع دولة إسلامية ، فمصر افريقية فى علاقتها مع افريقيا اولا وبعدها يبرز الدين حسب مقتضى الموقف وطبيعة القضية أو طرف العلاقة الاخر .

والدين كظاهرة عامة لم يكن بالعنصر الغالب فى حركة مصر الخارجية فى أى من مراحل تاريخها ؛ فاولوية الامن القومى بقيت هى الغالبة ؛ فحروب صلاح الدين لاستئصال شأفة الوجود الصليبى بالمنطقة ومن بعده صرخة قُطز " وا اسلاماه " فى مواجهة المغول ما كانتا الا دفاعا عن الامن القومى لدولهما ، قبل ان تكونا دفاعا عن الدين الذى أُستخدم نداءا للتعبئة والمقاومة .

ولو كان الدين اسبق على الامن القومى ، لهبا وبادرا وما تأخرا فى نجدة الدول الاسلامية الافلة فى الاطراف البعيدة، وهى تحتضر تحت ضربات جحافل الاعداء ، فدولة المماليك تركت الخطر المغولى يعصف بدول الاسلام وهو فى طريقه اليها حتى اصبح الخطر قاب قوسين او ادنى من امنها القومى وفى جوارها المباشر ، فقطز لم يتحرك لنجدة ممالك الاسلام فى التخوم البعيدة لصد هجمات المغول الكاسحة قبل ان يدقوا باب مصر نفسها ويصبح الخطر داهما لا محالة قاب قوسين أو أدنى من امنها القومى ، فتحرك فى اللحظات الاخيرة وهو فى خطر اكيد .

ونتائج معارك اللحظات الاخيرة كارثية ففيها مصير الدول يكون على المحك الاخير لا فرصة بعدها وفى مهب العاصفة ، وماذا يتصور التاريخ لو انهزم المماليك فى عين جالوت ، وماذا لو سارعت مصر والدولة العثمانية بالانتفاض للفظائع الاسبانية التى إنهالت على مُسلمى الاندلس .

وصلاح الدين الذى خرج ليستأصل شأفة الصليبين من الشام ، نفث فيهم الحياة بعد ان كانوا قد اختنقوا عندما تصالح معهم وأعاد لهم يافا ، وخليفته الملك الكامل ملك مصر إستخدم ورقة الصليبيين في صراعه مع اخيه المعظم عيسى سلطان سوريا ، فهادن فريدرك الثانى امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، قبل وصوله الى الشام ؛ وفاجأ الجميع مسلمين وصليبيين بالتخلى

طواعية عن القدس اليه ؛ رغم موت اخيه وانتفاء الغرض من تهادنه مع فريدرك الذى دخلها في مارس ١٢٢٩ دون مقابل (٣٣٤) .

وفى التاريخ الحديث غلب محمد على المصالح الذاتية على الدين ؛ فعندما ساءت علاقة فرنسا بالجزائر عام ١٨١٩ وحاصر اسطولها الجزائر ٣ سنوات ، اثر مشاحنة صفع فيها حاكم الجزائر القنصل الفرنسى لرفض فرنسا سداد قيمة القمح الجزائرى الذى اشترته بالاجل ايام الحصار القارى عليها .

توجهت فرنسا الى محمد على ليقوم بحملة لتأديب الجزائر مقابل ٢٠ مليون فرنك وأربع قطع بحرية ، ووافق الرجل وأرسل ليستأذن الباب العالى مقابل جزية للسلطان عن الجزائر ، ولكن انجلترا التى كانت تخشي من تعاظم القوة البحرية لمحمد على فى المتوسط وإتساع نفوذه ، نصحت السلطان بالرفض ولما علم محمد على بموقف انجلترا التى كان يعول على رضائها لدعم مشروعاته التوسعية فى الشام ، اعتذر لفرنسا مبررا موقفة بخشيته من غضبة العالم الاسلامى !! أى عالم اسلامى هذا الذى يخشاه الرجل وهو الذى حارب الخليفة العثمانى خليفة المسلمين ذاته .

وفى عهد الثورة قدمت مصر الاعتبار الافريقى على الاعتبارين العربى والاسلامى عند تحديد موقفها من الطموحات القومية لعرب كينيا وزنجبار فى الاستقلال حتى لا يحدث شرخ فى التماسك الافريقى فى المعركة مع الاستعمار كما اسلفنا .

---

[٣٣٤]) المرجع :
Chronicles of the Crusades ;P ٢٥٨ – ٢٦١ ; by Elizabeth Hallam .

الفصل الرابع
اجهزة خدمة البعد الاسلامى
فى السياسة الخارجية المصرية

تقوم عدة مؤسسات اصيلة على خدمة البعد الاسلامى على رأسها الازهر الشريف ومعه وزاره الاوقاف والمجلس الاعلى للشون الاسلامية وتساهم بعض الاجهزة الفنية بطريق مباشر أو غير مباشر فى خدمة هذا البعد لوقوعه بين أهدافها العامه مثل الاذاعه الموجهه الى افريقيا و المؤسسات الاقليمية والمنظمات الاسلامية التي تساهم فيها مصر .

وهذه المؤسسات هى :

أولا مؤسسات مصرية

(١) الازهــــــــــــر الشــــــــــريف

وهو اعرق موسسات خدمة الدعوة والثقافة الاسلامية ؛ ولسنا فى حاجه للتذكير بتاريخ الجامع العتيق فى حمايه التراث ونشره فى ارجاء العالم ، ودور الازهر فى افريقيا موغل فى القدم فدعاته ومعلميه لم ينقطعوا عن القيام بدورهم في القارة فى احلك الظروف ، ولم يعدم مسلموهاا بدورهم الوسيلة للحضور للدراسه بالازهر في كل الاوقات متجاوزين محاولات الاستعمار عزلهم عن منارات العلم فى الشمال.

وفى بداية الخمسينات بادر الازهر على نحو غير مسبوق بالاتصال بالشعوب الاسلامية فى القارة فقام د . الفحام شيخ الازهر بزياره عدة دول افريقية للتعرف على احتياجاتها لاعداد خطة مساعدتها ، وفى زيارته نيجيريا عاملته السلطات الاستعمارية بعنت ووقاحة وقيدت من تحركه وأرغمته على مغادره البلاد .

وادراكا من الثورة لاهمية الازهر الشريف ، قامت بتطويره فأعادت تنظيمه بالقانون ١٠٣ لسنه ١٩٦١ " ليكون جامعة المسلمين فى كل بلد " حسبما نص القانون ؛ فتم تحديث كلياته وأضافت الى مناهجه أفرع العلم الحديث ، فأنشأت كليات العلوم التطبيقيه كالهندسه والطب الخ ؛ كما جرى تطوير مجمع البحوث الاسلاميه فانضم اليه اعضاء متخصصون فى سائر الدراسات ومن سائر الاقطار .

ويقدم الازهر للدول الافريقية ، المبعوثين والمنح بالاضافة لتدريب الدعاة المحليين ، نتناولها على النحو التالى :

* المبعوثون

يتمتع مبعوث الازهر بمكانة عظيمة لدى المسلمين في كل مكان بحكم مكانتهم الدينية وعلمهم وانتمائهم الى الازهر ؛ وهؤلاء الاجلاء لا يؤخذ عليهم سوى ضعف مستوى لغاتهم الاجنبية وانعدام الالمام باللغات المحلية ؛ واللغة اداة التواصل وعنصر إنجاح الدعوة ، ولم يعدم المسلمون فى افريقيا الوسيلة للتغلب على مشكلة التواصل مع مبعوثى الازهر فدائما هناك من يعرف العربية من المحليين الذين تعلموا فى الازهر او الدارسين بالمدارس الاسلامية الذين يقومون باعمال الترجمة والتواصل في المراحل الاولى حتى يُلم المبعوث بإحتياجاته من اللغة المحلية .

وهناك نماذج عظيمة من المبعوثين تركوا الخدمة فى الازهر بعد انقضاء مهمتهم الرسمية واستقروا فى القارة بدافع الايمان لخدمة الدعوة ، واقاموا برامج لتطوير المجتمع على نحو ما يقوم به التبشير و ما يعوزهم بإلحاح هو الموارد المالية التى تعينهم على ذلك فما يتحصلون عليه من بعض الدول الاسلامية لا يكاد يكفى كما ان الدولة الحاضنة لا تهتم بدعمهم رغم ان ما يقومون به جزء من مسئوليتها وواجبها .

ويُؤخذ على قلة من المبعوثين ، إفتقادهم مثابرة وصبر المبشرين فى تحمل شظف العيش بمناطق المسلمين الفقيرة او النائية التى تفتقد لوسائل الحياة المناسبة ، ولمعالجة ذلك يجب اعادة تقويم مناهج اعداد الدعاة ليكونوا مؤهلين نفسيا ولغويا وعمليا للعمل فى مناطق صعبة البيئة وتعريفهم بطبيعة المجتمعات التى سيعملون بينها ، وتوعيتهم بالمهمة الجليلة الموكلة اليهم في خدمة الاقليات المسلمة التى دائما ما تكون مناطقهم اشد تخلفا وصعبة معيشيا .

وهذا يقتضى اعداد فئات خاصة من الدعاة لهذا الغرض وتعزيز وضعهم المالى لتمكينهم من توفير اسباب معيشة مناسبة لداعية له قرناء من دول اخرى يقلون عنه علما ويبذونه ماديا.

*** تدريب الدعاة والائمة المحليين**

تحملت شعوب القارة فى معظم الاوقات عبء الدعوة ؛ فهى اقدر من غيرها للقيام بهذه المهمة ، يسهل لها الامر ونجاحه إلانتماء الاصيل الى المنطقة وحديثهم لغتها وعلمهم بطبيعة شعوبهم وسبل التعامل معها ويعرفون مداخل التأثير والاقناع ، ولاقتناع الازهر بهذا المنطق فقد أُعد دورات لتدريب الدعاه المحليين مدتها ثلاث اشهر على مدى ٤ دورات فى العام يتخرج منها فى المتوسط اربعمائة داعية سنويا لكل مناطق المسلمين ، بلغ نصيب افريقيا منها حوالى ٤٠% فى المتوسط قياسا على احصائيات الثمانينيات ، ومن المفيد أن يتوسع الازهر فى هذه الدورات على ان تكون على الارض الافريقية بما يسمح بتدريب اعداد اكبر بتكاليف اقل لتجاوز الاعباء على ميزانيته من احضارهم هنا وتكاليف اسكانهم .

*** المنح الدراسية**

يُخصص الازهر سنويا عدد من المنح لمسلمى العالم ؛ لافريقيا نصيب منها ، ومشكلة افريقيا الرئيسية هى محدودية استفادة الاقليات المسلمة بها فقد وصلت نسبه اشغالها فى الثمانينات بالنسبه لافريقيا ٤٠% ، بينما وصلت هذه النسبة فى أسيا الى ١٠٠% تقريبا ؛   ويرجع السبب فى ضعف استفاده افريقيا بها الى بعض المسائل الاجرائية تقع مسئوليتها على الازهر من ناحية وسلطات الدولة الافريقية من ناحية اخرى ، مثل تأخر وصول المنشور الخاص بالمنح المقرره للبعثات والذى يصل فى بعض الاحيان بعد بدء الدراسة فى الازهر ، الامر الذى يجعل من الصعب اخطار الجمعيات والمدارس الاسلامية بها فى وقت يتناسب وبدء الدراسة فى بلاد تعانى من سوء وصعوبه الاتصال البريدى والبرقى ان كانت هناك أصلا فرصه لاتمامها .

يُضاف الى ذلك الصعوبات الادارية والمالية التى يواجهها المرشح لاشغال المنحة ، فى توفير المستندات المطلوبه فى وقت مناسب لموافاه الازهر بها فى الوقت المقرر ، فمعظم المرشحون هم من فقراء المسلمون ولا تتوفر لديهم موارد مالية لاعداد الاوراق او استخراج جوازات السفر كما ان تخوفهم من عدم توفر السكن فى مدينة البعوث بالقاهرة وعدم كفاية البديل النقدى لتوفير سكن خارج المدينة ، يجعلهم يعزفون عن المنح لعدم كفاية مواردهم المالية ، والمطلوب تقديم الدولة المانحة مخصص كاف لتغطية نفقات مستندات السفر وتدبير الاقامة خارج مدينة البعوث .

وتساهم تعقيدات الادارية فى دول الاقليات المسلمة الافريقية بتبديد الفرص لعدم الاهتمام بشئون المسلمين ، اذا ما فُوضت السفارة الادارة المحلية للدولة ترشيح الدارسين ، فهى اما لا تولى الامر عناية كافية وهو ما يحدث فى معظم الاحوال لعدم اهتمامها بهذا النوع من المنح ، او لعدم حرصها على استفادة المسلمين بها ، كما ان بعض المرشحين لا يُقْبل على المنح لرغبته فى الحصول على دراسات عملية بالكليات التطبيقية التى تفتح امامهم فرص الترقى والازدهار الاجتماعى والاقتصادى .

(٢) المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

أنشأت الثورة عام ١٩٥٨ " ادارة الاتصال بالشعوب الاسلامية " لتحقيق هذا الغرض بعيدا عن القيود الرسمية وانعكاساتها السياسية ؛ وتغير اسم الادارة الى " المجلس الاعلى للشئون الاسلامي " بالقرار رقم ٢٠ لسنه ١٩٦٠ ، مجملا أهداف المجلس فى التعريف بالاسلام فى الداخل والخارج وتنميه العلاقات بين الشعوب الاسلامية واحياء التراث والدعوه وبث الوعى الدينى .

وقد قام المجلس بدوره خير قيام حتى عام ١٩٦٧ ، وكان يُعد الجهاز الاول المعنى بخدمة البُعد الاسلامى لسياسة مصر ، لكن للاسف تقلص نشاطه بدون سبب مفهوم ، وينحصر نشاط المجلس فى تقديم المنح الدراسيه بالجامعات ، وترجمة وتوزيع كتب التراث بعدة لغات عالمية ومحلية ؛ واقامه المعسكرات الدولية لشباب المسلمين واعداد والمؤتمرات الاسلامية ، ويتبع المجلس وزاره الاوقاف التى تساهم هى ايضا بذاتها فى العمل الاسلامى بتقديم اعانات لبناء المدارس والمساجد وتقديم بعض معلى اللغة العربية فى بعض بلدان القارة على نطاق ضيق.

(٣) الاذاعة الموجهة

وهى من اقوى الاجهزة التى استخدمتها مصر فى الخمسينات لاقتحام القارة ؛ حيث كانت تصل برامجها كل مكان دون قيود

، وتُعد اولى وسائل العمل المصرى فى توجيه الرأى العام الافريقى فقد بدأت نشاطها عام ١٩٥٤ لخدمة حركة التحرير الافريقية اتساقا مع فلسفة الثورة للعمل ضد الاستعمار فى القارة ، وكان للاذاعة الموجهة إسهاماتها الجليلة ليس فقط فى مكافحة الاستعمار وانما ايضا فى خدمة الدعوة الاسلامية ، وكانت البداية باللغه السوحيلية ثم اتسع عدد اللغات ليصل الى ١٤ لغة ولهجة بخلاف اللغات الثلاث العالمية العربية – الانجليزية – الفرنسية .

وفى عام ١٩٨٧ ، بدأ الاهتمام يتزايد بالبرامج الدينية ، فأصبحت تمثل ١٣ % من جملة المواد المذاعة ؛ وفى العصر الحاضر تفوقت الفضائيات على الاذاعات وهو ما يتطلب تطوير الاذاعة باستخدام القنوات الفضائية المذاعة والمرئية .

وحاليا تبث الإذاعة المصرية الموجهه برامجها الى افريقيا بسبع عشرة اذاعة تبث ٢٤ ساعة و ١٥ دقيقة يوميا منها خمس لغات وطنية الى غرب أفريقيا هي (الهاوسا - الفولانية - اليوربا - البمبرة - الاولوف) اضافة الى الانجليزية والفرنسية والعربية، وأربع لغات وطنية الى شرق أفريقيا هي (السواحيلي - الأمهري - الصومالي - العفرى) إضافة إلى اللغة الإنجليزية ، وبأربع لغات وطنية الى سط وجنوب أفريقيا هي (اللينجالا - الشونا - الاندبيلى - الزولو) .

(٤) الصندوق المصرى للتعاون الفنى مع افريقيا

أُنشىء الصندوق عام ١٩٨٠ ، فى قلب وزارة الخارجية ، لخدمة البعد الافريقى بما يقدمه من خبراء ومنح ومعونات فنية لمشروعات التنمية الاقتصادية – الاجتماعية – الثقافية ؛ ويقدم الصندوق أعداد من مدرسى اللغة العربية خريجى الجامعات يتحدثون الانجليزية للعمل ببعض المدارس الاسلامية ومعاهد اللغات بخلاف بعض المنح ، ودور الصندوق فى خدمة البعد الاسلامى محدود باعتباره نشاطا غير اصيل يتم فى اطار افريقى مرن قد يقدم بعض الاطباء لمناطق المسلمين او خبراء الزراعة .

ثانيا – مؤسسات العمل المشترك (المنظمات الاقليمية النوعية)

تسهم مصر فى خدمة الدائرة الاسلامية عبر المنظمات الاقليمية والنوعية ، فـهى كعضو فى منظمة المؤتمر الاسلامى تخدم الثقافة الاسلامية من خلال منظمتها للثقافة الايسيسكو (المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ISESCO) ، وهذه المنظمة نظمت العديد من الندوات فى أفريقيا لخدمة هذا الغرض ؛ و تبنت خطة بدأت ١٩٨٥ لاعادة كتابة اللغات الافريقية لاصلها بالخط العربى لتمكين هذه الشعوب من الاطلاع على تراثها المكتوب بهذا الخط لتعزيز وعيها الدينى ؛ وقد نجحت المنظمة فى إعادة كتابة ١٧ لغة افريقية بالخط العربى منها لغات الهوسا واليوربا والفولانى والولوف التى كانت تكتب فى الاصل بالحرف العربى حتى القرن ١٥ .

ويُعتبر هذا خطوة ايجابية على طريق احياء التراث الاسلامى الافريقى فـهذه اللغات واسعة الانتشار ومتأثرة باللغة العربية ، فـالهوسا اكبر اللغات انتشارا جنوب الصحراء وأولى اللغات التواصلية في غرب إفريقيا يتحدث بها أكثر من ثمانين مليون نسمة ، كثير منهم ينتمون عرقياً إلى قبائل أخرى من غير الهوسا ، وهى لغة اذاعية وتصدر بها صحف فى نيجيريا .

ولغة " الولوف "تنتشر فى موريتانيا والسنغال وجامبيا وتذاع بها برامج افريقية تمثل ٨٨% من المساحة الزمنية الموجهة لهذه الدول ؛ والسوننكى لغة متداولة فى النيجر والكونغوومالى والسنغال وجامبيا ، ولغتا " الصنغاى " و " ذرما " من اكثر اللغات الافريقية تأثرا بالعربية ؛ ومن الجهود المحمودة وضع ابجدية للغات القمرية التى يتحدث بها سكان جزر القمر (٣٣٥) .

.

قامت الاسيسكو بتوقيع عدة اتفاقيات مع عدد من الدول الافريقية منذ عام ١٩٨٤ ، لادخال اللغة العربية فى العديد من المراحل التعليمية هى مالى والسنغال والنيجر ونيجيريا (٣٣٦) ، وساهمت برصيد كبير فى اقامة المركز الدولى لحضارة البانتو "

---

[٣٣٥]) المرجع : ندوة افريقيا ةالثقافة العربية – إصدارات منظمة ألإسيسكو؛ والعلاقات الثقافية بين افريقيا والعرب صـ ٥٠٢ ـ محيي الدين صابر ـ و التعاون الثقافى العربي الافريقي صـ ٨١ ـ ثيوفيل اوبنغا ؛ اصدارات مركز المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة " اسيسكو" مجموعة بحوث عن افريقيا والثقافة العربية الاسلامية .

[٣٣٦]

سيسيبا " فى الجابون ، وقدمت له " أخصائيين لتدريس اللغة العربية فى اطار أتفاق اسلام أباد عام ١٩٧٥ ؛ وأهمية تأسيس المركز تعكس التوجه لاستخدام المراكز العلمية المتخصصة والتحليل العلمى للتقريب بين ثقافات وشعوب القارة لدحض المفاهيم الخاطئة ضد الاسلام ، التى روج لها المستعمر خلال تواجده بالقارة ، ويجرى المركز تحليلات للصلات القديمه بين البانتو والعالم الاسلامى ؛ تحليلا علميا قيما .

وفى اطار التعاون العربى الافريقى تم اعداد مشروع لانشاء المعهد العربى – الافريقى لاجراء بحوث تاريخية واجتماعية حول جذور التراث المشترك ، عُني بتصحيح صورة العرب المغلوطة التى بثتها الدراسات الاستشراقية لتخريب جذور الالتقاء ؛ كما ان هناك أيضا خططا لانشاء معاهد للمعلمين وتقديم منحا ، لاحياء التراث الاسلامى (٣٣٧) .

وساهمت مصر فى نشاط " الايسيسكو " بإتفاق مع الصندوق المصرى للتعاون مع افريقيا بتاريخ ١٩٨٥/٩/٩ ، تقوم بمقتضاه بأبتعاث خبراء فى مجال التربية والثقافة للعمل فى الدول الافريقية الاعضاء على ان يتحمل الصندوق مرتباتهم ، هذا بخلاف التنسيق فى مجال الاذاعه الموجهة طبقا لما تم الاتفاق عليه فى مايو ١٩٧٠ بمؤتمر بالقاهره لخدمه الثقافه الاسلامية الذى حضرته مصر ، ليبيا ، السودان ، وساهمت فيه كل من الجزائر ، المغرب ، فلسطين ، اليمن كمراقبين ، وللاسف لم ينعقد مره اخرى ، وهناك ايضا منظمه المدن العربية والاسلامية ، التى تضم عددا من دول افريقيا .

---

[٣٣٧]) المرجع السابق صـ ٣٨٧ نظرة افريقيا للصراع العربي الاسرائيلى - مدثر عبد الرحيم .

الباب الثامن
البعد الدينى فى صراعات القارة
الفصل الاول
النزعة الدينية فى الصراع

ان اصطراع اتباع العقائد لا علاقة له بإصولها ، إنما هو فى حقيقته صدام " سلوكيات " تابعيها المُترعة بالمصالح الذاتية الضيقة في معظم الأحوال ، فالمذاهب ليست هى مصدر عدم التسامح والاصطراع بل الاشخاص هم مصدر كل هذا الابتلاء ، وصدام اهل العقائد لم تخلوا منه العقيدة الواحدة المسيحية أو الإسلام والتاريخ حافل بصراعات من هذا النوع ، ولما كان الاصطراع بين مذاهب العقيدة الواحدة امرا طبيعيا لاختلاف التفاسير ووجهات النظر والسعى لكسب النفوذ بين البشر ؛ فمن الطبيعى من هذا المنظور ان تكون هناك صدامات بين اهل العقائد الرئيسية .

وينقلب الامر فى مرحلة ما الى الصدام بدافع من المصالح الذاتية والمستفيدين من ورائها ولن يُعجزهم سياقة العديد من المبررات الكهنوتية لتبرير الصدام تنطلى على الجهلاء لا غيرهم ، ومتى تصاعدت المصالح وتضخمت اولوياتها يتراجع الايمان وتنشط السياسة واساليبها حتى تجد اقتتال اخوة العقيدة فيما بينهم او تحالفهم مع أتباع عقائد كانوا اعداء الامس ضد اعداء اليوم إخوانهم فى العقيدة ؛ ومن هنا فتوافق المصالح يغلب اخوة الايمان ويعلوا ، مثال محاولات " فاسيليدس " ملك الحبشة بتحالـفه مع اليمن عام ١٨٤٠م ، لدفع خطر التبشير الكاثوليكى الذى إستشرى في بلاده بضغط النفوذ البرتغالى ، ناهيك عما يتضمنه تاريخ الأندلس والحروب الصليبية من أمثلة عديدة من هذا النوع ؛ وعند الصدام يحاول طرفا أى صراع حشد عناصر القوة وشحذ أسباب التمايز وإعلاء الخصوصية لاستثارة ولاء جماهيرها وإستنفار انحيازها فى مواجهة الخصم ، واذا لم يُحسم الصراع بما يرضى يحاول كل طرف إيجاد مبرر لإستمرار الصراع وتعزيز موقفه فى مواجهة المتخاذلين بما يقطع الطريق عليهم .

والجانب الروحى من اهم عناصر القوة فى أى خصومة يستنفر الدانى والقاصى ويطيل امد الصراع وكلما طال قد تتفجر الخصومة بشحنة من التعصب والكراهية تقطر عداء وعنفا ، تزيدها اشتعالا الممارسات المنفلته الجاهلة والمتعصبة ، فتخلق بمرور الوقت حاجزا نفسيا يصير جزءا من التركيبة العامة للصراع يغيب فيها المنطق وينفتح الباب لكل ماهو منفلت ولاحدود له .

البعد الدينى فى خلفية الصراعات بالقارة

لم يشهد جنوب الصحراء قبل مجئ الإستعمار الأوروبى صراعا بين العقائد السماوية إلا ما كان فى شرق القارة منذ القرن ١٣ عندما إستقطب الأوروبيون الحبشة ضد الاسلام ؛ أما بقية المنطق فلم تعرف صداما من هذا النوع الا بعد وصول الاستعمار وبدء المد التبشيرى .

وإذا ماتقصينا أثر الدين فى خلفية الصراعات نجد للإسلام ظلالاً على الفتوحات الكبرى فى غرب القارة وعلى جهاد الصوفية فى كل مكان ، كما تمثلت فى صمود المجتمعات الاسلامية فى مواجهة الاستعمار الغربى فى شرق وغرب القارة ، والمسيحية أيضا لها ظلالها فباسمها أطلق الاستعمار العنان لحملة لم يكن هدفها خالصا لوجه الله بقدر ماكانت شعارا يستر انتهازيته ؛ فالكشوف البرتغالية الاقتصادية المرمى فى الاصل اسبغت عليها مسحة دينية بالادعاء بأن هدفها استخلاص التجارة الدولية من يدالمسلمين والالتحام بمملكة القس يوحنس الرابع فى الحبشة ونشر المسيحية بين وثنى ومسلمى القارة (٣٣٨) ، وبسقوط قناع الدين تكشفت عن كم هائل من الكراهية واللاأخلاقية والتخريب فى آن واحد ؛ فيقول دافيدسون " ليس لقدوم البرتغاليين الى القارة من نتيجة سوى أنهم حطموا فى أيام قليلة مانسجته عشرات القرون ، وكان تحطيمهم مدن الساحل الافريقى المزدهرة بوحشية وبربرية يعنى أنهم فقدوا أول مصدر من مصادر الثروة التى إندفعوا الى القارة من أجلها ؛ فإنصرفوا للبحث عن الذهب لتعويض الخسارة ولما فشلوا لم يجدوا فى النهاية إلا أن يبدأوا بقذارة متناهية عهدا من تجارة الرقيق وصمهم بالخزى والعار " .

---

(٣٣٨) باسيل دافيدسون.

وعلى هدى النموذج البرتغالى سارت بقية القوى الاستعمارية فإحتلت المصالح الاعتبار الاول وبقى الدين داعما فى الخلفية ، ويتبين بجلاء أن تحالف الاوروبيون مع الحبشة جاء من منطلق انتهازى إستنفروا فى اطاره عوامل الاتفاق والتماثل (الدين) وكبحوا عناصر التنافر (العداء المذهبى) بين الكنيستين الشرقية والأوروبية ؛ وكان الدافع وراء هذا الكبح هو الرغبة المشتركة لتحقيق هدف كل منهما حسب مبتغاه) ، والحروب الصليبية طالت بالضر الشديد مسيحيين شتى مثل ما لاقاه مسيحيو القسطنطينية على ايدى الصليبيين فى مستهل حملتهم الاولى من وحشية لدليل على الكراهية (٣٣٩) ، ويشير كلود كاهن فى كتابه " الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية " الى " أن مسيحى الشرق كانوا اكثر تضررا من المسلمين من جراء الحروب الصليبية ، فهم كانوا كجيرانهم (المسلمين) أصحاب عقيدة هرطقية لايمكن التسامح معها " .

البعد الدينى والحركات الانفصالية
فى مناطق الاسلام التاريخية

عادة ماتستحوذ الاغلبية على النفوذ والتميز فى الدول ثنائية العقيدة ، وهذا حق طبيعى لايستثير حساسية أصحاب العقيدة الثانية إلا إذا اضر بحقها فى المواطنة ، وحرمان طرف من حقه الطبيعى فى المواطنة يلحق الضرر بالتوازن الداخلى ويخلق أوضاعا غير مريحة تنتهى الى تمرد الطرف المغبون وتصادمه مع بقية القطاعات الوطنية ، فيتحول الامر الى صراع بين طرفين احدهما لا يقبل بإهدار حقوقه الوطنية وهو الاقلية فى مواجهة طرف مسيطر لن يتنازل بسهولة عن اوضاع مريحة يعيشها .

والاسلام سواء فى عهد الاستعمار أو الاستقلال كان الجانب الاضعف فى التوازن الوطنى فى افريقيا ، ليس فقط فى الدول ثنائية العقيدة وانما ايضا فى دول الاغلبية المسلمة ؛ وهذا الخلل جاء من جراء الاستعمار بتأثير تداعياته على قادة هذه الدول بعد الاستقلال ، وهى فى معظمها زعامات مسيحية اقامها الاستعمار فى موقع القيادة عند الاستقلال ، فقيادات هذه الدول لم تحبذ منذ البداية أن يكون الدين قوة سياسية فاعلة ، حتى لا تخسر وهى من الاقلية مكانتها المكتسبة بفضل الاستعمار فى دول الاغلبية المسلمة فأبقت على الغبن القائم على الاسلام فى التوازن الوطنى بالضغط على الهوية الاسلامية وتشويهها كما فعل العديد من هذه القيادات على نحو نذكره فيما بعد .

وكان كوامى نكروما اكثر قادة افريقيا قلقا من دفع الدين فى السياسة رغم ان غانا انذاك لم تكن معنية فالمسلمون لم يكونوا الاغلبية فيها ، فقاوم فكرة قيام حزب إسلامى فى بلاده واعترض على فكرة الوحدة العربية التى تختزل دول افريقيا العربية من دولة الوحدة الافريقية حلمة القارى مشروع الولايات المتحدة الافريقية الذى دعى اليه فى مؤتمر منشستر عام ١٩٤٥ بالبدء بتكوين اتحاد فيدرالى لغرب افريقيا كنواة للمشروع ثم نظم مؤتمرا فى اكرا عام ١٩٥٨ للدول الافريقية المستقلة بما فيها دول القارة العربية للنظر فيه.

ومن مؤيدى مشروعه سكيتورى (غينيا) وموديبوكيتا (مالى) بينما عارضه (السنغال) وهوافيه بوانيه (ساحل العاج) وميلتون اوبوتى ، ومجموعة برازافيل الفرنسية ومجموعة منروفيا وهيلاسيلاسى وعبد الناصر ، لاقتناعهم بضرورة ان تسبق الوحدة تعاون اقتصادى ، وكان البديل امام هذه المعارضة انشاء منظمة الوحدة الافريقية التى وُلدت عام ١٩٦٣ بدلا من الاتحاد .

ونيجيريا ذات الاغلبية البسيطة (المسلمة) إعتنقت "العلمانية" فى دستورها ، ولم تغلب هويتها الاسلامية ؛ وأكدت ذلك فى توجهها السياسى فإختزلت نشاطها فى منظمة المؤتمر الاسلامى ومجموعة الثماني الاقتصادية الاسلامية D٨ الى الحد الادنى .

---

[٣٣٩]) يقول د لوبون ارتكب الصليبيون فى بداية مسيرة الحملة الصليبية الاولى بقيادة القديس الناسك والفارس الفقير جوتيه مذابح ونهب فى بلغاريا بحجة ان البلغار ضعاف الايمان لرفضهم استضافة الصليبيين وهو ما قابله البلغار بالانتقام فقتلوا فريقا كبيرا من الصليبيين الامر الذى دفع الحملة بالجد فى المسير هربا من هجماتهم ، فلما وصلت الحملة القسطنطينية انضموا الى من سبقوهم من الصليبيين وقاموا بأعمال وحشية تفوق الوصف ؛ فدفعهم البيزنطيون الى ما وراء البسفور ، وتقدر اعدادهم بمئة الفا اقترفوا من الجرائم ضد النصارى والمسلمين ما لا يصدر الا عن مجانين فكان من احب اللهو يقتل الاطفال ويقطعهم وشيهم على حد ما روته آن كومنين بنت قيصر الروم ، ويستطرد د. لوبون بأن الترك ترصدوهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة واقاموا من جماجمهم هرما عظيما ، ويقول " نرى فى كل صفحة من مؤلفات نصارى ذلك العصر امثلة كثيرة من الوحشية يشهد عليها الراهب روبرت فى من ذبح الالاف وبقر بطون الموتى بحثا عن الذهب فى مدينتى مارات والقدس وكانت الدماء تسيل انهارا فى طرق القدس المغطاةبالجثث على مدى يومى ١٢و١٣ ديسمبر راح فيها ستون الفا من اليهود والمسيحيون الشرقيون والمسلمين– حضارة العرب صـ ٣٢٣ ـ٣٢٥ .

الفصل الثانى
اهم الحركات الانفصالية
بمناطق الاسلام التاريخية

الغـــــــــرب الافريقى

نيجيريا

لم تكن نيجيريا بعيدة عن تأثير الدين عند الآستقلال وقيام الدولة ، فقد حاول الشمال المسلم تكوين دولة مسلمة مستقلة تضمه والنيجر على أساس الارتباط التاريخى والعرقى والجغرافى والدينى بدلا من الارتباط بالجنوب الوثنى المسيحى ؛ وفكر البعض فى الانضمام جميعا بما فيهم النيجر فى دولة واحدة يصبح المسلمون فيها اغلبية فى اطار الاتحاد النيجيرى وهو خيار تراجع عنه النيجيريون .

وبعد فرض النظام الفيدرالى استمر الشماليون ينظرون للوضع على أنه إستعمار جنوبى وبقوا مُصرين على الانفصال وإدعوا أن نيجيريا ليست دولة واحدة بل عدة دول تتناقض عرقيا وثقافيا وحضاريا ، وبلغ التصور الانفصالى قمته بإنقلاب وإنقلاب مضاد تعاقبا فى غضون أشهر فى عام ١٩٦٦ ، كانت فيه ظلال الدين واضحة عند كلا الطرفين ؛ فالانقلاب الاول قام به الاقليم الشرقى الوثنى فى معظمه بعدما دبر مذبحة لزعماء المسلمين وفرض الوحدة بالقوة كبديل للاتحاد ، والشمال (المسلم) بدوره قام بإنقلاب مضاد لينسخ نتائج الانقلاب الاول ويستعيد النظام الفيدرالى .

مالى (حركة الطوارق الانفصالية)

ينتشر الطوارق فى الصحراء وجنوبها ، ويتواجدون على ثلثا مساحة مالى ويتركزون فى شمالها ، وفى النيجر وبوركينا فاسو ؛ وعند استقلال مالى والنيجر عام ١٩٦١ دعى زعماء الطوارق فى البلدين بدعم من فرنسا الى قيام جمهورية الصحراء المستقلة لطوارق الدولتين تضم معهم العرب هناك ، وتبنى هذه الدعوة كل من الامير محمد على بن الطاهر والشيخ محمد محمود ولد الشيخ الازوانى ، ولكن موديبوكيتا بمساعدة بعض شيوخ الطوارق منهم محمد المهدى بن الطاهر شقيق الامير محمد على والطاهر أق ؛ تمكن من اقناع الطوارق برفض تقسيم الصحراء على ان تمنحهم حكومتا مالى والنيجر حقوق مواطنة متساوية ، لكنه (موديبوكيتا) لم يف بوعده وتركهم نهبا للاضطهاد والتهميش فتمردوا فى منطقة كيدال عام ١٩٦٣ قمعتها مالى بدموية.

وازداد الامر سوءا فى عهد تراورى (١٩٦٩-١٩٩١) خليفة موديبوكيتا لإهماله الطوارق فى كارثة جفاف التسعينيات وقيامه بتهجيرهم والتنكيل بالالاف منهم فى جاوا وتمبكتو فى ثورتهم الثانية عام ١٩٩١، وتفاوض الطرفان فى تامنغست بجنوب الجزائر برعاية جزائرية وبضغط دولى عام ١٩٩١ ؛ مثل الطوارق فى هذه المفاوضات الجيش الثورى لتحرير ازواد والجبهة الشعبية لتحرير ازواد والجبهة العربية الاسلامية للازواد وانتهت المفاوضات الى اتفاقية تامنغست الاولى بوقف الاعمال الحربية وانسحاب قوات مالى من مناطق الطوارق ومنحهم حكما ذاتيا وتطوير مناطقهم واطلاق سراح المعتقليين وتعويض المتضررين وتمكين الفارين من العودة وتشكيل لجنة دولية للتحقيق فيما تعرض له الطوارق من احداث دامية ، لكن الاتفاق لقى معارضة الجيش المالى ، فقام انقلاب بقيادة تومانى تورى اسقط موسى تراورى ، واتخذ تورى موقفا متشددا من الطوارق وفشلت وساطة كل من ليبيا والجزائر فإستأنف الطوارق العمل المسلح من جديد وواكب ذلك تدفق اللاجئون الى الخارج .

وفى عام ١٩٩٢ عقد الطرفان اتفاقية تامنغست الثانية ، واتفقا على إحياء الاتفاقية الاولى بالاضافة الى تخصيص عدد من مناصب الدولة الهامة بما فيها الجيش للطوارق ، ولكن عدم تحقيق تنمية مناطق الطوارق ادى لتمرد اتحاد جبهات ازواد فيما اسموه الثورة الثالثة فى مايو ٢٠٠٦ استولوا فيها على ثكنات عسكرية للجيش فى شمال البلاد للمطالبة بتنفيذ الاتفاقيات مؤكدين على عدم الرغبة فى الانفصال وطالبوا بـ ٢٨ منصبا وزاريا وادماج ٣٥% من الطوارق فى الجيش واتاحة فرص التعليم العالى بالخارج لهم ، ولم تنجح مصالحة يوليو ٢٠٠٦ فى بناء الثقة بين الطرفين ، ولم تتوقف المواجهة المسلحة بل اتسع نطاقها عندما إستنفرت مالى القوى الخارجية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ضد المتمردين بدعوى الارهاب لتعاونهم مع القاعدة والجماعات المسلحة القادمة من الجزائر ، وفى مارس ٢٠٠٨ عاود الطوارق التمرد وتدخلت ليبيا والجزائر للتوصل لهدنة ، وبعد سقوط نظام القذافى وتدفق كميات هائلة من الاسلحة على الجماعات المسلحة وبالذات القاعدة تمكنت الجماعات المتشددة من السيطرة على المنطقة

بشمال البلاد .

وإذا ما تتبعنا تأثير البعد الدينى والقومى على هذا الصراع يبدو البعد القومى مسيطرا ومتفوقا على البعد الدينى ، فالبعد الدينى الذى جمعهما فى دولة واحدة عند الاستقلال غاب وإنحسر دوره ليتقدم عليه بصورة غالبة البعد القومى ، فعدم تحقيق التوازن الوطنى للقوميات مع وحدة الدين جعل القوميات المغبونة تتمرد لتحصل على حقها الكامل فى المواطنة فالقومية اصبحت علامة فارقة .

شرق ووسط القارة

وقف الدين وراء دعاوى انفصال الاقليات المسلمة عن الدول التى تضمها فى وسط وشرق القارة ، بينما وقف البعد القومى لحركات الانفصال الاسلامية عند تقرير مصير الانفصال بين خيارين دولة مستقلة اسلامية تضم عرقين ام الالتحام بدول قومياتها الخالصة ، فكان خيار القومية لا الدين هو العنصر الحاسم ألاصيل ؛ فلم يوحد بينها الدين رغم ظلاله فى الانفصال عندما اندمج ضمن مركبات القومية الشاحذة فى المعركة الانفصالية مع الدولة غير المسلمة ، ففى حالة تشاد كان الشمال المسلم يهدف الى المحافظة على نفوذه فى التوازن الوطنى باعتباره الاغلبية الاكثر تفوقا ويرغب فى المحافظة على هويتيه " الاسلامية والعربية " ويرغب فى الارتباط بعالميهما فتصدت له بقوة القيادة المسيحية الحاكمة التى تمثل اقلية فى الجنوب الوثنى .

وبالنسبة لحركات القومية الصومالية فقد ادمت مشكلة الشتات الصومالى قلب الصومال واهله فى كينيا واثيوبيا ، ومشكلة هذا الشعب العريق المناضل الذى خضعت ارضه لسلطان زنجبار، ان سلاطينه لم يكونوا على مستوى الزعامات العُمانية التى قهرت البرتغاليين وطردتهم من المنطقة واسست لدولة الوحدة الافريقية العربية الاولى وحكمت من يومها المنطقة ولا هى حتى على مستوى الزعماء المحليين العظماء كالمجاهد الاكبر الامام احمد الجُرى ، فقد كان السلاطين المنعزلون فى جزيرتهم لا يدرون ما يدور حولهم وتركوا الامر لبريطانيا توجههم لما تشاء وترغب فتارة طالبتهم بضرورة رحيل الادارة المصرية عن قسمايو والمنطقة ففعلوا ورحلت مصر ، وكان املهم ان توفر لهم طاعتهم لانجلترا الحماية لانفسهم من اطماع القوى الاستعمارية الاوروبية الاخرى التى تتربص بأرضهم خاصة ايطاليا ، وبالتفاهم بين بريطانيا وايطاليا تم تقسيم ارض الصومال فى غيبة السلطان او تحت نظره لا بصيرته ، ففي عام ١٨٨٨ طلبت الحكومة الإيطالية من سلطان زنجبار التنازل عن نهر جوبا أو منطقة كسمايو أو ما يمكن التنازل عنه من الستين ميلاً الباقية من ساحل صوماليا التي تقع إلى الجنوب من خط الأستواء مباشرة بالشروط المعروفة التي حصلت عليها شركة ماكينون البريطانية ، لكن السلطان برغش **رفض مطالب الحكومة الإيطالية بتحريض من بريطانيا ، وأمام التهديدات الصريحة من جانب الإيطاليين لجأ السلطان إلى البريطانيين يطلب الحماية، فأعلنت بريطانيا تصريحاً مناسباً جاء فيه "أننا لا نقبل استخدام العنف مع السلطان، فالسلطان تحت حماية الدولتين الألمانية والإنجليزية " ، ولكن بريطانيا غيرت موقفها بتفاهمها مع ايطاليا وتراخت فى حماية السلطان الذى تراخى موقفه امام ايطاليا بالتبعية .**

ثار الشعب الصومالي على الامتيازات التى يقدمها السلطان الى الاوروبيين ، وهددوا السلطان بأنهم لن يعترفوا بأمامته و لا بالأمتيازات التي يمنحها للأوروبيين ، ولمردود ثورة الصوماليين على المستعمرات الأنجليزية والألمانية ، أعلنت المانيا تطبيق حصار بحري لساحل أفريقيا الشرقي لمنع إمتداد الثورة الصومالية أو تسرب الأسلحة الى شعب تنجانيقا ، ودعت بريطانيا الى الانضمام الى الحصار البحري لضمان وضع مستعمراتها بكينيا ولإستعادة نفوذ السلطان في صوماليا من ناحية أخري وأدركت بريطانيا أن نجاح الثورة الصومالية معناه القضاء على نفوذ السلطان وقيام اضطرابات و ثورات في المستعمرات القريبة منها وسقوط الأمتيازات والأتفاقيات التي أبرمها السلطان باسم الصوماليين لصالح البريطانيين، وإقتنعت بأهمية سياسة الحصار فى الحد من إمتداد الثورة الصومالية، ومنع تسرب الأسلحة الى المستعمرات، وقامت الدولتان بريطانيا و ألمانيا بدعوة إيطاليا للأشتراك في حصار السواحل الصومالية.

وتحت ضغط الحصار الأقتصادي وبريق الهدايا والوعود المعسولة بعقد معاهدات وإتفاقيات مع السلاطين والشيوخ المحليين باسم الحماية والمحافظة على الأستقلال ، كانت كل دولة تعمل في نطاق حصارها على أن تعقد معاهدات وإتفاقيات مع

سكانها من شأنها تصفية نفوذ السلطان على السواحل الصومالية وتقوية نفوذها ، وبذلك وضعت الحكومة الإيطالية يدهاعلى النصف الشمالي من صوماليا تقريبا أثناء فترة الحصار الأوروبي للسواحل الصومالية.

تساهلت السلطات البريطانية والألمانية بالنسبة لتحركات الإيطاليين في المناطق الممتدة الى الشمال من أملاك سلطان زنجبار حتي الصومال البريطاني ، رغم أن بريطانيا وألمانيا كانتا قد سبقتا إيطاليا في عقد معاهدات وإتفاقيات مع نفس الحكام الذين حصلت منهم إيطاليا علي معاهدات جديدة ، رغم ان القانون الذي وضعته الدول الأوروبية في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ ينص على أن الأستعمار في أي منطقة تثبته معاهدات أو إتفاقيات تعلن على الدول في منشور دوري حتي لا تقوم دولة أخري بعمل مشابة في نفس المنطقة.

ومن أهم هذه المعاهدات و الأتفاقيات:

معاهدة مع سلطان هوبيا - ٨ فبراير ١٨٨٩.
معاهدة مع مشايخ قبيلة سباخرون – ١٩ مارس ١٨٨٩.
إتفاقية مع سلطان مجرتينيا و سلطان هوبيا – ٧ أبريل ١٨٨٩.
إتفاقية مع السلطان أبيكر بن سلطان على ٧ – يونية ١٨٨٩.
تصريح بأعلان الحماية الإيطالية وقع عليه مشايخ مقدشوة – ٢٤ مارس ١٨٩١.
إعلان الحماية الإيطالية على النصف الشمالي لصوماليا

ومن بنود تلك المعاهدات النص على أن الشيخ أو السلطان أو رئيس العشيرة قبل الحماية على نفسه وأملاكه وعشيرته مقابل مبلغ من المال (نحو ٦٠٠ ريال سنوياً) للشيخ أو لرئيس القبيلة أو للسلطان و ٦٠٠ ريال أخري في العام لحاشيته و أفراد أسرته و شيوخ و علماء و عقلاء البلاد.

وبناء على المعاهدات و الأتفاقيات السابق ذكرها قامت إيطاليا بأعلان الحماية المباشرة على المنطقة التي تمتد من شمال وأرشيخ عند خط عرض ٣٠ ٥ درجة شمالاً حتي خط عرض ٣ ٨ درجة شمالاً حيث تبدأ سلطنة مجرتينيا التي تمتد حتي خط الطول ٤٩ درجة شرقاً.

الاتفاق الإيطالى الإنجليزى

بشأن إدارة ساحل بنادر(١٨٨٩)

ضعف نفوذ السلطان على السواحل الجنوبية لصوماليا بسبب الثورة العارمة التي قام بها الشعب الصومالي في مقدشوه و براوة ومركة وكسمايو ضد السلطان وإعلانهم العصيان لطاعته ومناهضة كل مستعمر أجنبي يدخل الى بلادهم ، مما أضطر السلطان تحت ضغط بريطانيا أن يكتب رسالة في ١٥ يناير ١٨٨٩ الى ملك إيطاليا يعلن فيها عن رغبته في الصداقة مع الدولة الإيطالية، و أنه يبارك أي إتفاق إيطالي يمكن الحصول عليه مع شركة شرق أفريقيا البريطانية (وكانت خاضعة للسياسة البريطانية في أعمالها وأهدافها) بخصوص الأستغلال الأقتصادي والأحتلال المشترك لإيطاليا و بريطانيا لمنطقة كسمايو ، ودارت المفاوضات بين السنيور كاتاليني نائباً عن جلالة ملك إيطاليا و شركة شرق أفريقيا الأمبراطورية (سميت بعد ذلك باسم الشركة البريطانية) و كانت هذه المفاوضات تدور حول أسس ثلاثةهي:

– بناء على طلب سيد خليفة سلطان زنجبار في خطابه المؤرخ في ١٥ يناير سنة ١٨٨٩ الى ملك إيطاليا بشأن التفاهم مع الشركة البريطانية للأحتلال المشترك لمنطقة كسمايو.

– تقوم الشركة البريطانية بأجراء مفاوضات مع السلطان سيد خليفة بشأن التنازل عن بعض الأراضي التي تقع الى الشمال من نهر جوبا بما في ذلك كسمايو متضمنة مواني براوه ومركة ومقدشو في نصف دائرة قطرها عشرة أميال و ميناء وأرشيخ في نصف دائرة قطرها خمسة أميال.

– تقوم الشركة البريطانية بالتنازل عن الأراضي السابقة التي ترغبها إيطاليا بمجرد أن يقوم السلطان بمنحها للشركة البريطانية.

و على هذه الأسس تم الأتفاق الإيطالي الأنجليزي في أغسطس سنة ١٨٨٩ على النص التالي:
مادة أولي أتفق الجانبان في حالة أعلان سمو سيد خليفة سلطان زنجبار بوعد منه لتسليم البلاد المذكورة للشركة البريطانية و هي الأراضي التي تمتد من نهر جوبا بما في ذلك كسمايو و تتضمن مواني براوة و مركة و مقدشوة و ملحقاتها في نصف دائرة قطرها خمسة أميال من البحر الى الداخل ؛ فأن الشركة البريطانية ستعمل على نقل ملكية هذه الجهات برضاء من السلطان و على نفقة الحكومة الإيطالية الى الوكلاء المعتمدين للحكومة الإيطالية بنفس الشروط المتضمنة في الأمتياز الممنوحللشركةالبريطانية أو بأحسن الشروط التي يمكن الحصول عليها من السلطان على أن يكون الأحتلال المشترك لمنطقة كسمايو من الجانبين بالطريقة التي يريانها.
مادة ثانية: تتعهد الحكومة الإيطالية بدفع التعويضات الملائمة للشركة البريطانية التي ظهرت نتيجة لعقد هذه الأتفاقية أو تنفيذها على حد سواه.
مادة ثالثة: احتلال كسمايو و ملحقاتها بالأشتراك بين الشركة والحكومة الإيطالية بأن يتولي إدارتها المتعاقدان بطريقة متكافئة و أمتيازات متساوية، و دفع النفقات بالتساوي، و كذلك تقسم صافي فوائد كسمايو و ملحقاتها بالتساوي ، ويكون تنفيذ هذا البند بالطريقة الودية بواسطة مندوبي الحكومة الأيطالية و مندوبي الشركة البريطانية و منها الحكومة الإيطالية.
مادة رابعة: تتعهد الحكومة الإيطالية بتحديد نفوذها في شرق أفريقيا و ألا تحدث أي تأثير سياسي أو تقبل فرض حماية أو احتلال أو تتدخل في منطقة النفوذ البريطاني على الأراضي أو القبائل الى الغرب أو الجنوب من الخط الممتد من شمال ضفة مصب نهر جوبا حتي يتلاشي الخط المذكور مع تقاطع خط عرض ٨ درجة شمالاً و خط طول ٤٠ درجة شرقاً بخط يرسم من هذه النقطة المذكورة و يمتد فوق خط متواز لخط طول ٣٥ شرقاً لدوائر جرينتش. كما تتعهد الشركة البريطانية بتحديد منطقة نفوذها في شرق أفريقيا بألا تمارس أي تأثير سياسي أو تقبل فرض حماية أو احتلال أرض ما أو تدخل في منطقة النفوذ الإيطالي على الأراضي أو القبائل التي تقع الى الشرق أو الشمال الشرقي من الخطوط المذكورة ، وفي حالة ما يثبت بالمقياس أن مجري نهر جوبا يفيض في نقطة ما الى الشمال أو الى الشرق من الخطوط المذكورة أعلاه فأن هذه النقطة ستقبل على أنها الحد لنفوذ الطرفين المذكورين ، وعلى أية حال بالنسبة للشرط الأضافي بأن الخط يمتد مع أنحراف النهر المذكور الى النقطة التي يتقاطع فيها عرض ٨ درجة شمالاً وخط ٤٠ درجة شرقاً كما يثبت ذلك على الخريطة الملحقة بالأتفاقية.

مادة خامسة: حرية الملاحة في نهر جوبا و روافده للجانبين الى أبعد نقطة ملاحية.

مادة سادسة: اتفق الفريقان على حل المنازعات التي تنشأ عن تفسير أو تنفيذ الأتفاقية بالطرق الودية و نهاية الأمر الى هيئة تحكيم يكون الطرفان ملزمين بنتيجة الحكم. و أعضاء لجنة التحكيم يختارون بأتفاق الطرفين المتعاقدين، ومن حق الطرفين تعيين عدد من أعضاء اللجنة بالتساوي على أن ينتخب من الحكام واحد ليكون حكماً فاصلاً.

مادة سابعة: للحكومة الإيطالية حق التخلي عن أمتيازاتها التي أكتسبتها بمقتضي الأتفاق الحالي الى الشركة الإيطالية المزمع أنشاؤها باسم شركة شرق أفريقيا الإيطالية الملكية أو ما شبه ذلك على أن تقوم الشركة المذكورة بتنفيذ الألتزامات والتعهدات التي تعهدت بها الحكومة الإيطالية كما جاء في هذه الأتفاقية ؛ ونسخت الأتفاقية من صورتين باللغتين الأنجليزية والإيطالية على أن يكون النص الأنجليزي ملزماً أمضاء. و. ماكينون ت. كاتاليني بحضور جورج س. ماكينيزي٣ أغسطس ١٨٨٩.

ملاحظة: - احتفظت الشركة بحقها في تعديل الحدود بأن ترسم خطاً في أتجاهشمالي شرقي يبدأ تقريبا من خط طول ٣٧ شرقا الىخط عرض ٨ درجة شمالاً الى نقطة على النيل الأزرق أو نهر أباي غرب خط طول ٣٧ درجة شرقا ومن ثم تكون الحدود الى الغرب و الشمال.

حركة التمرد الصومالي

ما أن طار خبر الأتفاقية الإيطالية الأنجليزية بشأن ترك السواحل الصومالية (بنادر) للإدارة الإيطالية وكسمايو للأحتلال الأنجليزي الإيطالي حتي تمرد الصوماليون وأعلنوا العصيان بسبب ما آلت اليه البلاد من تحكم الأجانب في وطنهم ، وأدركوا الخطر الداهم الذي تتعرض له الصومال من السياسة البريطانية التي أطاحت بالإدارة المصرية المسلمة من ساحل الصومال لكي تستبدلها بالإيطاليين .

وجه ماكينز المدير المسئول للشركة البريطانية نصائح للإيطاليين بأتخاذ سياسة الحذر والتيقظ في أعمالهم حتي لا يكون إندفاعهم للسيطرة على المراكز الصومالية سبباً في قيام ثورة حادة قد تطح بهم وبالأتفاقية، ونصح ماكينز الإيطاليون بأحتلال ميناء كسمايو ومقدشو بتعيين الشيوخ الصوماليين في المناصب الإدارية ولوصوريا، كي يتمكنوا بعد ذلك من موجهة أي حركة تمرد يقوم الشعب بها، و من ثم يمكن تثبيت أقدامهم في البلاد دون خوف أو خسائر تذكر.

غير أن الإيطاليين سلكوا طريق القوة ، فأرسل القنصل الإيطالي سفينة حربية الى وارشيخ (في أقصي حدود المنطقة التي تحت حكم السلطان ناحية الشمال) لمعرفة موقف الأهالي ، وأطلق الضابط عدة طلقات نارية يريد أن يرهب بها المدينة الهادئة غير أنه لقي حتفه على أيدي الصوماليين، فكان رد الفعل قوياً من جانب الإيطاليين الذين أطلقوا مدافعهم الثقيلة فترة طويلة من بارحة حربية استقدموها فدمروا المدينة بأكملها و اشتعلت فيها النيران.

و بطبيعة الحال وصلت أخبار وار شيخ الى كافة المدن الصومالية على طول ساحل بنادر، و أعلن سكانها الجهاد المقدس ضد الغزاة الأفرنج، و أعلنت بريطانيا متضامنة مع ألمانيا حمايتهما لأراضي سلطنة زنجبار مع مراعاة حقوق إيطاليا على ساحل صوماليا، حتي لا تكون ثورة الصوماليين و تمردهم سبباً في إيجاد مشاكل أخري متعددة متشابهة أو مختلفة في مستعمراتهما في شرق أفريقيا، ولم تستمر ألمانيا في سياستها الدفاعية مع بريطانيا إذ تخلت (لصالح بريطانيا) عن حمايتها و دفاعها عن المنطقة المجاورة لكسمايو وهي التي تقع الى الشمال من نهر تانا على جزر باتا و ماندا.

بروتوكول ١٨٩١ بين إيطاليا و بريطانيا:
خلال فترة الأضطربات على ساحل الصومال توصلت إيطاليا و بريطانيا الى توقيع بروتوكول ٢٤ مارس ١٨٩١ بشأن تحديد مناطق النفوذ لكلا الدولتين على ساحل أفريقيا الشرقي ، و قد أعتبر الخط الفاصل بين منطقة النفوذ الإيطالي شمالاً ومنطقة النفوذ البريطاني جنوبا هو البحر عند منتصف مجري نهر جوبا الى خط ٦ درجة شمالاً، لتبقي كسمايو وملحقاتها على الضفة اليمني في منطقة النفوذ البريطاني و من ٣٥ درجة شرق جرينتش يمتد الخط حتي النيل الأزرق ، و قد نص الأتفاق على امكانية تعديل خط الحدود بالأتفاق المتبادل كما نص على المساواة في المعاملة بين الرعايا الإيطاليين والبريطانيين، ومن يخضع لحماية كل من الدولتين في كسمايو، كما تم تحديد مناطق النفوذ لكل منها حسب بروتوكول ١٥ أبريل ١٨٩١؛ وعليه اعترفت الحكومة البريطانية بنفوذ إيطاليا على المناطق التي تقع الى الشرق من ذلك التحديد في مقابل اعتراف إيطاليا بنفوذ بريطانيا على المناطق التي تقع جنوب و غرب و شمال هذا التحديد و هي كينيا و أوغنده و أعالي النيل و السودان.

الاتفاقية الإيطالية البريطانية ١٨٩٢:

قامت الحكومة الإيطالية بمفاوضة السلطان للتنازل عن المواني الشمالية ؛ ولكن السلطان وإن كان قد وافق بصفة مبدئية إلا أنه وسط الشركة البريطانية ووافق على الذي تحكم به بريطانيا في هذه المسألة ؛ وهذا دليل على نفوذ بريطانيا على سلطان زنجبار.

وما أن أعلنت الحماية البريطانية على زنجبار حتي قامت إيطاليا بمفاوضات مع البريطانيين بشأن تحديد مناطق النفوذ لكليهما على ساحل صوماليا و أسفرت المفاوضات عن النتائج التالية في ١٢ أغسطس ١٨٩٢.

مادة ١: تنص على حق السلطة الكاملة لإيطاليا على مواني براوه ومركه ومقدشو مع نصف دائرة قطرها عشرة ميل لكل منها عدا مدينة وأرشيخ فأنها تكون مع نصف دائرة قطرها خمسة ميل ، ومن حق إيطاليا إدارة الجزر الساحلية باسم سلطان زنجبار وتحت علمه على أن تتحمل إيطاليا كافة النفقات، و خول للحكومة الإيطالية حق شراء الأراضي وامتلاكها وغير ذلك، و لكن ليس لها حقوق على رعايا السلطان أو الأجانب.

مادة ٢: تتعهد الحكومة الإيطالية بإدارة المواني والمدن عن طريق الشركة الإيطالية مع مسئولية حكومة إيطاليا أمام حكومة زنجبار.

مادة ٣: منح إيطاليا حق تنظيم الضرائب وجمعها والصرف على الإدارة المحلية والمحافظة على النظام وإدارة القضاء وبناء الطرق والمواني وغيرها من الأشغال العامة مع حق الحكومة الإيطالية في تعيين الحكام والموظفين والقضاة وما الى ذلك.

مادة ٤ : تختص بتنظيم المرافق العامة للبلاد و فرض الضرائب. مادة ٥: تختص بإستلام الرسوم على التجارة و منع التهريب و الجمارك. مادة ٦: بشأن إنشاء مصرف و إصدار العملة.

وهذه الأمتيازات التي وردت في الأتفاقية تكون سارية المفعول خمسة وعشرين عاماً أعتباراً من التصديق عليها في روما و لندن، و يمكن تجديدها مرة أخري بنفس الشروط و بعد هذا تصير كافة المنشآت من حق حكومة السلطان بعد تقدير قيمتها ؛ وكان على الحكومة الإيطالية أن تدفع أربعين ألف روبية عند استلام الجمارك في المواني، ثم تدفع مثلها بعد مرور ثلاثة أشهر من احتلال الجمارك، وأن تقوم الحكومة الإيطالية بعملها تحت علمه، ولا تغير من نظام الدفع المتفق عليه إلا بعد موافقة السلطان أو بريطانيا.

تعديل أتفاق ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٢:

وبعد أن توصلت حكومة إيطاليا الى الأتفاقية السابقة بدأت تراودها فكرة التخلي عنها خشية أن تتورط في صوماليا، بالأضافة الى ما تلاقيه من مشاق وخسائر حول عصب ، لذلك قامت إيطاليا بتقصير فترة عقد أتفاق ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٢ من خمسة وعشرين عام الى ثلاث سنوات، و ذلك في ١٥ مايو عام ١٨٩٣، وعهد الى شركة فيلوناردي الإيطالية بإدارة أعمال الحكومة في صوماليا لمدة ثلاث سنوات مع منحها أعانة سنوية قدرها ٣٠٠ ألف ليرة إيطالية، على أن تكون إيطاليا مسئولة عن تنفيذ الأتفاقية، و ما أشتملت عليه لوائح برلين ١٨٨٥ و لوائح بروكسيل ١٨٩٠ بشأن منع تجارة الرقيق.

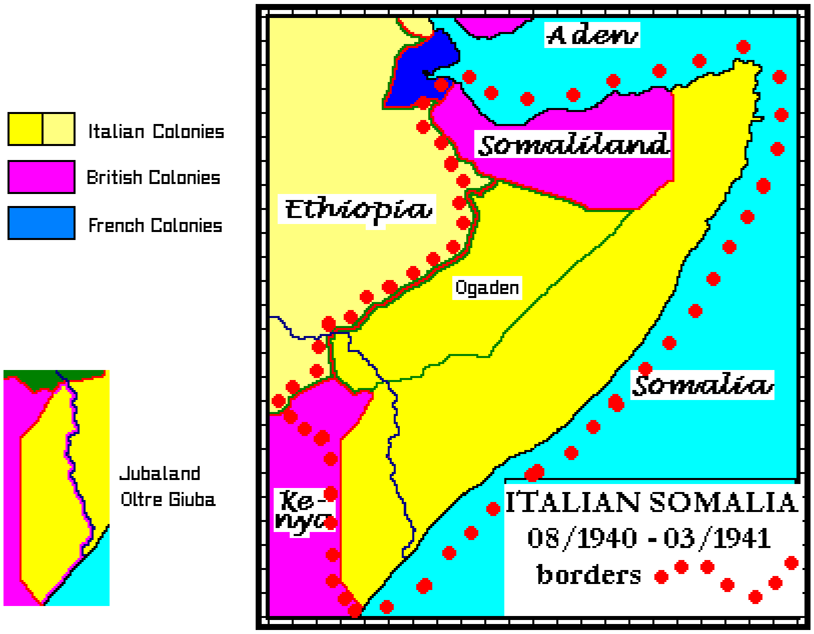
قيام شركة ف. فيلوناردي و شركاه

في ١٣ أكتوبر وصل فيلوناردي على ظهر السفينة ستافيتا الى بنادر ومعه الشيوخ والرؤساء أصحاب المواني والمدن الصومالية الذين تعاقدوا مع فياوناردي ونائب سلطان زنجبار الذي أعلن تنازل السلطان عن إدارة هذه المواني الشمالية للإيطاليين، وطلبوا من الأهالي طاعة ممثل حكومة إيطاليا في بلادهم ، وأعلن فيلوناردي أن المحمية الإيطالية ستديرها شركة فيلوناردي و شركاه ، وستقوم بإذاعة اللوائح والتنظيمات وممارسة السلطة في المواني بدأ من ١٦ يوليو ١٨٩٣ ؛ وقام فيلوناردي بعقد عدة إتفاقيات و معاهدت:

معاهدة مع سلطان قلدي و وعطاف – ٣ فبراير ١٨٩٤.
معاهدة مع رؤساء التن – ٣ فبراير ١٨٩٤.
معاهدة مع سلطان الأقبال – ٣ سبتمبر ١٨٩٤.
معاهدة مع شيوخ لقوله – ٢٣ سبتمبر ١٨٩٤.
معاهدة مع قبيلة قلوين بر – ٢٩ رجب ١٣١٢هـ.
معاهدة مع شيوخ طيطلة و مبارك و مرير و جوهر – ٩ جماد الثاني ١٣١٢هـ.
معاهدة مع الشيخ حاج على بن عيسى – ١١ ديسمبر ١٨٩٤.
معاهدة مع شيوخ ورؤساء قبائل لمدن مختلفة – ٢٨ جماد الثاني ١٣١٢ هـ.

إعلان الحماية الإيطالية على صوماليا

بعد أن أستطاع فيلوناردي تدعيم السلطة الإيطالية في البلاد عن طريق الحصول على معاهدات واتفاقيات من مجرتنيا شمالاً الى جنوب صوماليا قامت الحكومة الإيطالية بإنهاء إدارة شركته ، وقد قام فيلوناردي قبل رحيله عن البلاد بإعلان الحماية الإيطالية في



١٦ يوليةعام ١٨٩٦، وهذا نص إعلان الى كافة من يراه إنه في تاريخ ١٦ شهر يوليو ١٨٩٦ الموافق ٤ صفر ١٣١٤هـ قد صارت حكومة البنادر (مقدشوة وما حولها) تحت حماية دولة جلالة ملك إيطاليا بعد انقطاع مكاتبة الكمبانية فيلوناردي في الثلاث سنين الماضية وبيانها الى تاريخ ١٥ يوليو ١٨٩٦ ٣ صفر ١٣١٤........" ؛ بذلك اصبح الصومال الإيطالي Italian Somaliland مستعمرة لإيطاليا من ١٨٨٠ حتى ١٩٣٦ ، وأثناء الحرب العالمية الأولى إزدادت مساحته ، بتنازل بريطانيا إلى إيطاليا عن ٩٤,٠٥٠ كيلومتر مربع من محمية جوبالاند الصومالية (جنوب غرب الصومال) كجائزة على تحالفها معها في الحرب ضد ألمانيا ، وفي ١٩٢٤ تنازلت بريطانيا لايطاليا عما تبقى من جوبالاند ، وأطلقت عليها إيطاليا جوبا العليا وضمت اليها عام ١٩٣٦ منطقة الاوجادين بعد غزوها إثيوبيا ، وفي مطلع الحرب العالمية الثانية في ربيع ١٩٤١، غزت إيطاليا الصومال البريطاني.

وبعد ان استعاد البريطانيون السيطرة على شرق أفريقيا من تخوم الصومال الشمالية (خاضعة لـ كينيا حاليا) ، وباحتلال الصومال الإيطالي بما فيه الاوجادين، ظل الصومال تحت الإدارة البريطانية حتى ١٩٤٩ ثم إنتقل الى وصاية الأمم المتحدة لعشر سنوات من ١٩٥٠ حتى١٩٦٠؛ وبذلك جاءت مأساة الصومال الكبير بإقتسامه بين الدول الاوروبية بمقتضى مؤتمر برلين فتحصلت بريطانيا على اقليم " انفدى " (الحقته عند استقلال الصومال عام ١٩٦٣م بمستعمرتها فى كينيا)، وحصلت الحبشة على الاوجادين (وآل الى بريطانيا بعد هزيمة المحور فى الحرب العالمية الثانية لادارته تحت رعاية الامم المتحدة ، وعند انسحابها منه عام ١٩٥٤ م سلمت الحبشة اجزاء منه على غرار مافعلته فى فلسطين قبلا ؛ وحصلت فرنسا على الصومال الفرنسى ؛ وايطاليا على الجنوب المعروف بالصومال الحديث ، وتفرق الصوماليون بين الدول فبات حلم الوحدة سرابا ابديا ومسالة شائكة وشديدة الخطورة ، وبعد زوال الاستعمار اشعلت المسألة حربا طويلة على درب الصومال الكبير حاول فيها الصومال تحرير الاوجادين من اثيوبيا ، وسنتاولها فى الاتى :

اولا الصومال الغربي – اقليم الأوجادين

تضم الهضبة الصومالية أرض الأوغادين وأوروميا فى القطاع الاثيوبى ، وبها المنابع العليا للأنهار الرئيسية فى الصومال مثل نهر جوبا وروافده ونهر شيللي الذي يلتقى قرب المحيط الهندي بنهر جوبا ، والغالبية العظمى من سكان الاقليم من العناصر الصومالية واحداها قبيلة الأوجادين إحدى قبائل الدارود ويساكنهم جماعات الدناكل وجالية عربية استقرت بالمنطقة واختلطت بالسكان منذ عهد قديم ومعظمهم من اليمن ، .

والإسلام دين الأغلبية لهذه العناصر وصل المنطقة عن طريق التجار العرب ، وكان الأوجادين او"الصومال الغربي" ، جزءا من ارض الصومال احتله الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية واقاموا فيه قاعدة عسكرية عام ١٩٤١ ، وعند استقلال الصومال عن بريطانيا عام ١٩٦٠ قرر البريطانيون عدم تسليم منطقة أوغادين الى الصومال واهدوه الى "هيلاسيلاسي" ليصبح جزء من أراضي إثيوبيا بالرغم من انه لم يكن هناك ما يُغرى على هذا الاجراء لفقر الاقليم لكن الرغبة الدفينة فى عداء الاسلام هى التى دفعت بريطانيا لتسليم الاقليم الى الحبشة ، وسبق لبريطانيا ايضا التساهل مع الحبشة بتسليمها إقليم بنى شنقول السودانى (هنا يظهر البعد الدينى فى العلاقة بين البلدين) ، ونظرا لتهميش واهمال الحكومات الاثيوبية المتعاقبة للاقليم لفقره إنتابته روح التحرير وكادت بمساعدة الصومال فى عهد سياد برى ان يتحرر فى سبعينيات القرن الماضى بعد تحرير معظم أراضيه خلال فترة ١٩٧٧-١٩٧٨ وتوسعنا فى هذا الموضوع فى الجزء الخاص بعرقيات اثيوبيا.

ثانيا الصوماليون والعرب فى كينيا

بعد استقلال كينيا راودت صوماليوا كينيا الامال القومية فى الانضمام للصومال وهو توجه طبيعى فى مواجهة غلبة التوجهات القومية على ثورة " ماوماو " فى الخمسينيات ، ففكروا فى الانفصال بالصومال الكينى بشمال البلاد لينضموا الى جذورهم القومية فى الصومال الكبير ، ولكن الحركة لم يكتب لها النجاح.

عرب كينيا

تخوف عرب كينيا من التوجهات القومية الغالبة على ثورة " ماوماو " فى الخمسينيات لاثارتها ماضى تجار الرقيق العرب ، ففكروا فى الانفصال بدولة مستقلة فى " مإفاتباو " حول ممبسه أو الاندماج مع أصولهم العربية فى زنجبار باعتبار ممبسة فى الاصل محمية تتبع سلطان زنجبار بنص معاهدة ١٨٩٥م التى اعترفت فيها بريطانيا بسيادة السلطان على المنطقة الساحلية من كينيا ، ولم تنجح الحركة وانتهى بهم الامر بالذوبان فى كينيا المستقلة بعد أن ربطوا مستقبلهم بمستقبلها ؛ والحركتان غلبتا القومية على الدين ؛ فلم تربط العناصر العربية نفسها بنضال مسلمى كينيا من العرق الصومالى المتمركزين فى الصومال الكينى بشمال البلاد وكلاهما فضلتا الانضمام الى جذورهم القومية ؛ فالقومية كانت الفاصل بين الحركتين لسهولة اندماج كل منطقة بسكانها فى محيطها المجاور الاصيل وهو اتجاه منطقى يدعمه البُعد الجغرافى لاماكن تركز الاقليتين .

زنجبار

يقع أرخبيل زنجبار في المحيط الهندي فى مواجهة ساحل تنزانيا ، وتتكون زنجبار من مجموعة من الجزر تضم أنغوجا(جزيرة زنجبار)، وجزيرة أصغر بالشمال هي بمبا، وعدد من الجزر الصغيرة المحيطة تبعد عن شاطئ إفريقيا الشرقي ٢٥ ميلا شرق تنجانيقا وهى ارض عربية إسلامية استوطنها العرب منذ قرون حكموها حتى عام ١٩٦٤ ، وكانت تابعة لسلطنة عمان فى الفترة ١٦٩٨حتى سنة ١٨٥٨ ، وأضحت محمية بريطانية سنة١٨٩٠في عهد علي بن سعيد حتى استقلالها عام ١٩٦٣ ، وهي نموذج للتنوع العرقي بين اقلية كبيرة من العرب الاثرياء ملاك الاراضى وحكام البلاد و اغلبية افريقية فقيرة منهم قطاع مهجن بالشيرازيين (الخريطة بالملحق) ، وكانت زنجبار مركزا للمد الاسلامى في كثير من بلاد إفريقيا ، ويُذكر ان اهلها طلبوا الى عبد الناصر الاتحاد مع مصر بعد الاستقلال لكنه رفض مطلبهم وبرر السيد محمد فايق وزير الدولة للشئون الافريقية انذاك ذلك الرفض بأنها طلب الاتحاد رغبة تفتقر للمنطق والنظرة الاستراتيجية ، وقصة زنجبار تحتاج التفصيل .

قام النظام السياسى على الملكية الدستورية وتشكلت الأحزاب السياسية على أسس عرقية إلى حد كبير ، فالعرب يسيطرون على حزب زنجبار الوطني (ZNP) والأفارقة على حزب أفروشيرازي ؛ وساهم النظام الانتخابى الذى وضعته بريطانيا على توتر الحياة السياسية لعدم تمثيله قوة الكتل التصويتية فى البرلمان على نحو صحيح لصالح الاغلبية الافريقية .

وبدأت المشاكل في يناير ١٩٦١ عند إجراء الانتخابات العامة استعدادا للاستقلال بحصول الحزب الوطني والأفروشيرازي على عدد متساو من المقاعد ١١ لكل منهما اى نصف مجموع مقاعد البرلمان البالغة من ٢٢ مقعدا ، رغم فوز الحزب الوطنى الافروشيرازى بأغلبية الاصوات ، فأعيدت الانتخابات في يونيو مع زيادة مقاعد البرلمان إلى ٢٣ ؛ فحصل تحالف الحزب الوطني مع حزب شعب زنجبار وبمبا (ZPPP) على ١٣ مقعد مقابل١٠ مقاعد للحزب الأفروشيرازي رغم ما ناله الاخير من أغلبية الأصوات ايضا .

إندلعت الاضطرابات بدعوى تزوير الانتخابات قُتل فيها٦٨ شخصا ، فإتخذت الحكومة عدد من الاجراءات التعسفية وحظرت حزب الأمة الذي شكله نفس العام أنصار الاشتراكية الراديكالية العربية ، وتم طرد جميع أفراد الشرطة من ذوي الأصول الأفريقية وهم عصب القوة الأمنية الوحيدة في الجزيرة.

وفى الانتخابات النيابية فى يوليو ١٩٦٣أصاب الإحباط تحالف حزبا أفرو شيرازي (ASP) مع حزب الأمة اليساري لعدم حصولهما على تمثيل برلماني يعكس نسبة ٥٤% من الأصوات التى حصلا عليها في الانتخابات ، و في ١٠ ديسمبر ١٩٦٣نالت زنجبار استقلالها عن بريطانيا ، وتوقعت المخابرات البريطانية ان يقوم الشيوعيون بإضطرابات فى البلاد .

وفى صبيحة يوم ١٢ يناير ١٩٦٤ بدأت الثورة في الجزيرة الكبرى أنغوجا (٣٤٠) بقيادة جون أوكيلو عضو حزب أفروشيرازي الذى هاجم ومعه ٨٠٠ من الأفارقة الأعضاء بإتحاد شبيبة الحزب الأفروشيرازي والعاطلين عن العمل ومعهم المسرحين من الشرطة ؛ وهاجموا مراكز الشرطة واستولوا على أسلحتها ، ثم هاجموا العاصمة ستون تاون وسيطروا فى نفس الوقت على المباني الحساسة في العاصمة زنجبار القديمة بما فيها مهبط الطائرات الوحيد في الجزيرة ؛ وفر السلطان جمشيد ومعه رئيس الوزراء محمد شامتي حمادي والوزراء ومعظمهم من العرب على اليخت السلطاني ، وقد قتل خلال ١٢ ساعة حوالي ٨٠ شخصا وجرح ٢٠٠ أغلبهم من العرب ؛ وتم اعتقال ٦١ أمريكي بمن فيهم الموظفين الـ١٦ التابعين لمحطة ناسا لرصد الأقمار الصناعية الذين لجأوا إلى النادي الإنجليزي في زنجبار تاون ، واستقدم جون اوكيلو ؛ عبيد كرومي زعيم حزب أفروشيرازي الذى كان فى أفريقيا اثناء الثورة لضمان سلامته ، ونُصب رئيسا للدولة وتولى مجلسا ثوريا من حزبي الأفروشيرازي والأمة الحكم للفترة الانتقالية وكان أول أعمال الحكومة الجديدة الغاء النظام الملكى وطرد السلطان وحظر حزبا الوطني وشعب زنجبار وبمبا ، وتم تغيير اسم البلد إلى جمهورية زنجبار وبمبا الشعبية.

تخلص كرومي بهدوء من اوكيلو (٣٤١) صاحب المزاج المتقلب ، وكان رد الاخير القيام بأعمال انتقامية ضد سكان أنغوجا من العرب والآسيويين ، ودعا تابعيه في خطبه إذاعية إلى قتل وسجن عشرات الآلاف من الأعداء والعملاء ، ونفذ اتباعه عمليات اعتداء وقتل واغتصاب وهاجموا الممتلكات ؛ وقدرت إذاعة أوكيلو عدد القتلى بعشرين الفا بينما قدرتهم الصحف الغربية ما بين الفين الى اربعة الاف ، وقد وثق طاقم تصوير إيطالي طائر قتل الأسرى العرب ودفنهم في مقابر جماعية فى فيلم اسمه "Africa Addio"، وهو الوثيقة المرئية الوحيدة عن عمليات القتل تلك وقد فر الكثير من العرب إلى عمان ، ولم يُمس أحدا من الأوروبيين بأمر من اوكيلو.

عادت الامور لطبيعتها بحلول ٣ فبراير ولاقى كرومى قبولا واسعا من الشعب كرئيسا للبلاد ، وشكل اوكيلو ميليشيا عسكرية سماها قوة الحرية العسكرية قامت بدوريات في الشوارع ونهبت ممتلكات العرب ، وسببت تصرفات اوكيلو وأنصاره وديانته المسيحية نفور لدى كلا من أهالي زنجبار المسلمين والحزب الأفروشيرازي ، وبحلول شهر مارس قامت ميليشيا مؤيدة لكرومي وحزب الأمة بنزع سلاح أتباع أوكيلو ، ومُنع من دخول زنجبار عند محاولته العودة من رحلة إلى البر الرئيسى ، وقد رحل إلى تنجانيقا ثم إلى كينيا ثم عاد بعد ذلك معدما إلى وطنه الأم أوغندا ، بدأت الحكومة في أبريل بتشكيل جيش التحرير الشعبي وانتهت من نزع سلاح ماتبقى من ميليشيا اوكيلو .

وفي ٢٦ أبريل أعلن كرومى وهو اشتراكي معتدل عن مفاوضات للإتحاد مع تنجانيقا فى دولة جديدة بإسم تنزانيا لمنع التغلغل الشيوعي فى زنجبار وللحد من تأثير راديكالية حزب الأمة الاشتراكي اليساري ومع ذلك فقد اعتمدت الحكومة الكثير من سياسات حزب الأمة الاشتراكي وطبقتها على الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية وافرقت الخدمات المدنية بالكامل، وسحبت الأراضي الزراعية من العرب ووزعتها على الأفارقة ، وقامت بإصلاحات اجتماعية مثل الرعاية الصحية المجانية وفتح التعليم للأفارقة ، وكان بينا منذ البداية التوجه اليسارى للدولة بفكرها الاممى الاشتراكى العابر للقوميات الذى سمح بجمع قوميات مختلفة فى الثورة من الاوغندى اوكيلو وحملة البنادق التنجانيقى والشيرازيين والافريقيين الزنجباريين معا والدعم الكوبى ، وبتعينها يساريين فى المناصب العالية مثل بابو وزيرا الشؤون الخارجية وعبد الله قاسم هانجا رئيسا الوزراء ؛ وكليهما له صلات بالشيوعية ومن المقربين لـ أوسكار كامبانا وزير الشؤون الخارجية في تنجانيقا ، وكان الدعم الشيوعى واضحا من خلال الدعم الكوبى ومساهمة فيلق بنادق تنجانيقا (TheTanganyika Rifles) فى الثورة وما تلاه من اعتراف زنجبار بجمهورية ألمانيا الديمقراطية وهي أول حكومة أفريقية قامت بذلك) وبكوريا الشمالية ، وعقبت صحيفة نيويورك تايمز بعد الثورة بأن زنجبار على وشك أن تصبح كوبا الأفريقية ، وإنهال الدعم الشيوعي على زنجبار من مستشارين سوفييت وألمان شرقيين وصينيين خلال شهر فبراير .

---

[٣٤٠]) لم تتعرض بيمبا للعنف الطائفي الذي حدث بعد الثورة.

[٣٤١]) دخل أوكيلو زنجبار سنة ١٩٥٩ قادما من كينيا مدعيا بأنه كان برتبة مشير مع المتمردين الكينيين خلال ثورة الماو ماو وكان يدعى ان نداءا يسمعه يأمره كمسيحي أن يحرر شعب زنجبار من العرب.

ادى تقييد الحريات العامة (القيود على السفر) والمحسوبية في التعيينات بالمناصب السياسية والصناعية الى السخط الشعبي ، وبدت الحكومة التنزانية الجديدة عاجزة عن فعل شيء حيال ذلك فأُغتيل كرومى يوم ٧ أبريل ١٩٧٢ وانفجر القتال بين المناوئين والموالين للحكومة لأسابيع ، وفي سنة ١٩٩٢ أخذت زنجبار بنظام التعددية الحزبية.

يتضح من الاحداث انها ثورة اجتماعية حقيقية حسبما قاله الوزير محمد فايق ، جاءت فى اطار المد الثورى الاشتراكى الذى ساد افريقيا والشرق الاوسط انذاك بين المقهوريين والحكام فئة جامدة غير قابلة للتغيير لمصلحة الشعوب وكانت الاشتراكية هى مطلب الحركات للثورية كمدخل للعدالة الاجتماعية وعادة ما قاد الشيوعيون هذه الحركات لقدرتهم على الحشد والتنظيم والحصول على دعم دول الكتلة الشيوعية التى ما كانت تتوانى فى دعم ثورات الاشتراكيين فى العالم بإعتبارهم حلفائها الطبيعيين .

والنهج المصرى كان محقا فى رفضه مطلب زنجبار لارتفاع كُلفة الوحدة معها فعلاوة على انها بعيدة جدا واندماج نظامها الملكى المتخلف فى دولة الوحدة سيصطدم عند تطبيق الاشتراكية بملاك الارض العرب ، ويسئ للنظام المصرى واشتراكيته على نحو ما حدث مع سوريا وسيجعل الوحدة امرا شكليا على نحو ما كان مع اليمن اذا ماترك على ما هو عليه وكان الاوقع استقلالها ، اما اتحادها مع تنجانيقا فكان مُعد سلفا بين اشتراكى البلدين الذين دبروا الثورة مع تنجانيقا.

وحالة زنجبار حالة فريدة للتعدد العرقى لمجتمع صغير منعزل ، لا تغليب فيه لقومية على اخرى فالامور مستقرة على العروبة والاسلام وفى حالة انضمام مناطق العرب فى كينيا ممبسة اليها لكانت زنجبار دولة قائمة بذاتها حتى اليوم ؛ لكن تم تغييب الدين والقومية لصالح فكر اممى لا دينى ولا قومى عابر للقوميات والاديان والقارات ساد فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين لحشد قوميات مختلفة لدعم فكرة محددة .

وفى زنجبار كان الهدف القضاء على الهوية العربية للبلاد وخدع اوكيلو الاوغندى الكثير من المسلمين الذين جردهم الفكر الشيوعى من انتماءاتهم الدينية والقومية ليستغلهم اوكيلو لتنفيذ اغراضه الذاتية من منطلقه المسيحى الذى لم يتأثر بلا دينية الشيوعية الذى يأمره كمسيحي حسب قوله أن يحرر شعب زنجبار من العرب تجار الرقيق.

اثيوبيا والحركات الانفصالية

اغتصاب الاراضى ـ تعدد العرقيات الاثيوبية

جاء تعدد العرقيات فى اثيوبيا حصادا لتوسعها على حساب اراضى الامارات المسلمة فى الهضبة وساحل البحر الاحمر على مر العصور ، وكان التوسع الكبير فى عهد منليك الثانى ضم هرر فى الشرق وسيدامو فى الجنوب وكافا فى الجنوب الغربى وشنقالا من السودان (بتواطؤ انجليزى) وتوفى عام ١٩١٣ ؛ ولما جاء "هيلاسيلاسي" عام ١٩٢٨ عمل على توسيع حدود منيلك ، فضم اريتريا وضم الاوجادين عام ١٩٥٤بالتواطؤ مع حلفاؤه الانجليز .

العرقيات الاثيوبية ـ تشكيلتها العددية والدينية

تاريخ إثيوبيا (٣٤٢) منذ أواخر عام ١٩٥٠ حافل بحركات التمرد ، وهو امر طبيعى فى بلد إغتصب اراض شعوب اخرى ؛ ينقصها الانسجام العرقى والدينى والثقافى واللغوى ؛ و تضم اثيوبيا نحو ٨٥ مجموعة عرقية تنتمى الى كتلين رئيسيتين هما المجموعة السامية التى وفدت من الجزيرة العربية وينتسب اليها الأرتيريين والتيجراي والامهرا ؛ والكتلة الاخرى هى المجموعة الحامية العنصر الأصيل في المنطقة وتضم الأوروميين والعفر والصوماليين البني شنقول وهؤلاء الاربعة مسلمون ولهذه الكتلة الغلبة العرقية والدينية ، وهناك قوميات اخرى صغيرة كـ القمز ،الانواك ، النوير.

والاوروميون (الجالا) اكبر شعوب اثيوبيا عددا على الاطلاق وتشير بعض التقديرات الى ان عددهم ٣٤ مليون نسمة يشكلون ٤٠ % من سكان اثيوبيا البالغ عددهم ٧٧ مليون نسمة (تعداد عام ٢٠٠٧) ، بينما تقدرهم جبهة تحرير أورومو بنصف سكان البلاد وهو اقرب الى الصحة فعادة ما تحاول النظم اضعاف الكثرة العددية للطوائف المناوئة ، وهم كانوا مسلمون لكنهم الان

---

[٣٤٢]) الحبشة الامبراطورية بمستعمراتها الاسلامية تُسمى إثيوبيا ، اما الحبشة فهى الهضبة بسكانها الامهرا والتيجر.

يشكلون٨٠% حيث تم تنصير بعضهم جبرا ؛ ويتمركزون فى الشرق والجنوب والوسط ويشكلون اغلبية سكان هرر بنسبة ٦٠% ، ويجئ فى المرتبة الثانية من الناحية العددية الأمهرا بنسبة ٢٣% ثم سادامو بنسبة ٩% ثم الصوماليون (مسلمون بنسبة ١٠٠%) وهم ما بين ثالث ورابع اكبر المجموعات العرقية ويتركزون فى الاوجادين المعروف بالصومال الغربى ، ويقدر عددهم طبقا لتعداد عام ٢٠٠٧ بما لا يقل عن ٤,٦ مليون نسمة اى بنسبة ٦,٢ % من سكان اثيوبيا ثم يجى بعدهم شنقالا (بنى شنقول المسلمون - مغتصبة من السودان) بنسبة ٦% ثم العفر (المسلمون) بنسبة ٤% .

ومن ناحية الديانات تبلغ نسبة المسلمون ٥٠% ، ولكنها فى الحقيقة طبقا للنسب المتقدمة يبلغون ٧٦,٢ % وهى تتفق مع احصاء عام ١٩٩٣ الذى قدرهم بنسبة ٧٠% ، والمسيحيون ٣٨% والبقية ديانات طبيعية يتركزون في المنطقة الجنوبية الغربيةِ البعيدةِ والمناطق الحدوديةِ الغربيةِ ، ويُقدر احصاء عام ٢٠٠٧ اعداد المسلمين بنسبة اقل من احصاء عام١٩٩٣ ، حيث يشير إلى أن عددهم بلغ ٢٧ مليونًا من مجموع السكان البالغ عددهم ٤٥ مليونًا اى بنسة ٧٠ % تقريبا ، وهذه النسبة لا يمكن ان تنخفض ان لم تكن قد زادت خلال الاربعة عشر سنة التالية .

وبناء على التقديرات السابقة فإن إثيوبيا دوله ذات اغلبية مسلمة وبها أقاليم ذات أغلبيه مسلمه مطلقه مثل الإقليم العفري وإقليم بني شنقول واقليم بنى امير والإقليم الصومالي وإقليم أوروموا الذى يشكل مسلموه مايقارب ٨٠% وهم من ناحية العدد يعتبرون ثاني أكبر قبيله في القاره الأفريقيه بعد قبيلة الهوسا ، إذ يصل عددهم لما يقارب ٣٤ مليون نسمه وتعتبر لغتهم ثالث أكثر اللغات إنتشارا في أفريقيا بعد العربيه والهوسا .

ومن حيث المساحة تُعتبر اثيوبيا ارض مسلمين فألإقليم الصومالي أكبر الأقاليم مساحة إذ يبلغ ٢٥٩٧٠٠ كم٢ وهى مساحة اكبر من مساحتى إقليمى الأمهرا والتجراي وهما ارض الحبشة التقليدية ؛ واذا ضممنا اليه بقية اقاليم العرقيات المسلمة السابق الاشارة اليها فتتأكد هذه الفرضية ، وأكثر الأقاليم إعماراً هي على التوالي هرر - شوا - ولو (الذى تم تنصير اهله قسرا على يد الامبراطور يوحنس الرابع) وهى ارض الامارات الاسلامية ، وثانى اكثر الاقاليم كثافة إقليم شوا الاسلامى الذى يضم العاصمة أديس أبابا ، ويَمِيلَ المسلمون وأتباع الأديانِ الأفريقيةِ إلى سُكْنى المناطقِ السهليَّةِ في الشرقِ وجنوب البلادِ بينما يَعِيشُ المسيحيون عموماً في المرتفعاتِ.

الاوروموا (الجالا) وحركتهم الانفصالية

هم اكبر العرقيات فى اثيوبيا ويُطلق عليهم فى الاصل الجالا ، وهم يستنكرون هذا الاسم ويعتبرونه مسيئا لهم ، وهم لهم تاريخ عريق منذ تدفقهم على هضبة الحبشة فى القرنين ١٦و١٧ ، ويتركزون فى هرر بأغلبية بنسبة ٦٠% ؛ وكانت هرر اكبر الامارات المسلمة وتعهدت الجهاد ضد الحبشة طوال تاريخها وافرزت كبار المجاهدين ، وهذه الامارة بقيت على استقلالها قرابة ٣٠٠ سنة تعاقب عليها ٥٠ أميرا آخرهم الأمير عبد الله عبد الشكور الذي أطاح به التحالف الحبشي البرتغالي عام ١٨٨٧ .

وبعض اباطرة الحبشة له جذور اورومية مثل اسرة ييجو Yejju (القرن ١٧م)، وهى التى تعاظمت بمكانة الاوروموا عندما استخدمتهم مرتزقة فى الجيش ، والامبراطور يواس الاول ١٧٥٥ -١٧٣٠) Iyoas I) ينحدر من ام اوررومية وهو من فرض الاورومية لغة رسمية فى دوواوين الحكومة طوال عهده من ١٧٣٠ الى ١٧٥٥ ، ولعل ما اشار اليه القس ترمنجهام عن كثرة المسلمين فى الدواوين وانتشار اللغة العربية فى اثيوبيا يقصد هذه الفترة وهذا الشعب ، كما ان الامبراطور ليج ياسو حفيد مينلك الثانى من اب اورومى هو السلطان "محمد علي" كما سبق وان اشرنا .

إريتريا

وقعت اريتريا فى قبضة الاستعمار البرتغالى عام ١٥٢٠ ، وإستولى عليها العثمانيون عام ١٥٥٧ وتنازلوا عنها الى اسرة محمد على واصبحت جزءاً من مديرية " التكا" بالسودان فى عهد اسماعيل ، وفي عام ١٨٨٢م انسحبت مصر منها ، فتسلل اليها النفوذ الايطالى عام ١٨٨٦ مع طلائع التجار والمبشرين الايطاليين ؛ عندما اسس القس " سابيتو" شركة " روباتبنو" الايطالية لتموين السفن العاملة على خط الهند .

وتنازلت هذة الشركة الى الحكومة الايطالية عن ممتلكاتها فى اريتريا فتهيأ للاستعمار الايطالى موطىء قدم على الساحل الشرقى لافريقيا ، فاستصدر" امبرتو" الاول امبراطور ايطاليا مرسوما بتأسيس مستعمرة اريتريا بالمسمى القديم المأخوذ عن

تسمية البحر الاحمر " سينوس ارتريوس " ، واثار التواجد الايطالى حفيظة القوى الاستعمارية فقامت فرنسا بدفع قواتها الى المنطقة واستولت على " جيبوتى " وخليج " تاجوراء" .

اتخذت ايطاليا من اريتريا نقطة ارتكاز لتوسعها الاستعمارى فى افريقيا ، فاصطدمت بالحبشة فى معركة " عدوة" بقيادة الامبراطور يوحنس الرابع فى مارس ١٨٩٦ ، وقُتل لايطاليا فى يوم واحد عمر هذه المعركة ٦ الاف جندى ، وفى عهد خليفة المهدى استولى الايطاليون على " كسلا" بالتفاهم مع الانجليز على ان يُعيدوها الى السودان بعد عودة الحكم المصرى بعد سقوط المهدية ؛ وخلال الحرب العالمية الثانية فى الفترة ١٩٣٦- ١٩٤١ غزا الايطاليون الحبشة ففر الامبراطور " هيلاسلاسى" ؛ وتقدموا لغزو السودان ولكن الانجليز تمكنوا بقوه سودانية هندية من استعادة ما خسروه وطردوا الايطاليين عام ١٩٤١من اثيوبيا واريتريا .

وبعد هزيمة ايطاليا فى الحرب انتقلت اريتريا الى الادارة البريطانية لمدة ١٠ سنوات طبقا لاتفاق باريس الى ان تقوم الامم المتحدة بتقرير مصيرها ، وتنازعتها الدول خلال تلك الفترة ١٩٤١- ١٩٥٠ فطالبت بها الحبشة بإعتبارها جزءا من اراضيها ، واثارت مصر حقوقها التاريخية فيها ، اما ألاريتريون فإنقسموا بين مؤيد للاستعمار وفريق يحبذ الاتحاد مع اثيوبيا وهم المسيحيون بينما حبذ المسلمون الوحدة مع السودان ، وإنقسم اعضاء الامم المتحدة فعرض السوفيت وضع اريتريا تحت حمايتهم ؛ وطالبت مصر بضم مصوع بحكم سبق تبعيتها التاريخية الى المملكة المصرية ، وطالبت ايطاليا بحكمها بذريعة الوجود الايطالى حيث تشكل الاقلية الايطالية ٢٠ % من السكان وتسود اللغة الايطالية .

وتمسكت الحبشة بإريتريا باعتبارها حقا تاريخيا مبررة ذلك بأنه ليس من الممكن قيام دولة على كيان اقتصادى هش مثل اريتريا ، ، وايدت فرنسا رغبة اثيوبيا فى ان يكون لها منفذ بحرى فى اريتريا وتبنت بريطانيا فكرة تقسيم اريتريا بين الحبشة والسودان لاعتبارات دينية وعرقية ، ورأت الولايات المتحدة الامريكية وضع اريتريا تحت وصايه دوليه جماعية قبل تطبيق التقسيم .

وتشكلت لجنه فى الامم المتحدة لدراسة الموضوع استطلعت اراء كل من مصر واثيوبيا وايطاليا واقترحت وضع اريتريا تحت وصاية دولية تمهيداً لاستقلالها او ضمها الى اثيوبيا ، وفى عام ١٩٥٠ قررت الجمعية العامة للامم المتحدة بأغلبية ٤٦ صوتا ومعارضة ١٠ وامتناع ٤ دول ، الاخذ بالصيغة الفيدرالية بين اثيوبيا واريتريا ، ولم يحترم هيلاسلاسى قرار الفيدرالية وانتهج سياسة الدمج بهدم معالم الكيان الاريترى تمهيدا لابتلاعه ومحو هويته فحرم اللغة العربية وحارب الاسلام (٣٤٣) ، وفي عام ١٩٦٢م أعلن ضمَّ إريتريا للحبشة وهو ما أدَّى لدخوله في صراع طويل معها إعتمد فيه على الغرب واسرائيل فى مواجهة الدعم العربى للثورة الاريترية .

واستنزف هذا الصراع الممتد اثيوبيا وانتهى الامر بالإطاحة بهيلا سيلاسي عام ١٩٧٤م على يد "منجستو" الذى لم يُغير فى اسلوب التعامل مع المسلمين لا فى اثيوبيا ولا فى اريتريا بل استخدم أموال التبرعات الإغاثية المُقَدَّمة لهم في تنفيذ مخططاته ضدهم بتهجيرهم و بتوطين عناصر من القوميات الاخرى فى اراضيهم لاضعاف كثافتهم العددية وتركيزهم الجغرافى ، وكان من جراء عمليات التهجير والاضطهاد والقتال ان إنخفضت نسبة المسلمين من ٨٠% إلى ٦٠% فى اريتريا ؛ وقد بلغت حصيلة هذه السياسات ما يقرب من ١٠٠ ألف قتيل و حوالي ٧٥٠ ألف مشرد وحوالي ٩٠ ألف طفل يتيم.

العرقيات الصومالية

الصومال الغربي ـ اقليم الأوجادين

تقع أرض الأوغادين وأوروميا فى الهضبة الصومالية ، التى تأخذ انحدارها الطبيعي نحو الصومال جنوباً وشرقاً ، ومنها تنبع الأنهار الرئيسية جوبا وروافده ونهر شيللي الذي يلتقيان فى نهر جوبا قرب المحيط الهندي بالصومال ، والغالبية العظمى من سكان أوجادين من العناصر الصومالية وقبيلة الأوجادين إحدى قبائل الدارود ، ويساكنهم جماعات من الدناكل ، وهناك جالية عربية استقرت بالمنطقة واختلطت بالسكان منذ عهد قديم ومعظمها من اليمن ، والإسلام دين الأغلبية لهذه العناصر وصل إلى المنطقة عن

---

[٣٤٣]) فإنفجرت المعارضة الى ثورة اقامت لها جبهة تحرير اريتريا بالقاهرة عام ١٩٦١ ، وإرتكزت الحركة على جذورها العربية الاسلامية وإرتكزت الحركة على جذورها العربية الاسلامية وحظيت بدعم عربى عصبه الرئيسى مصر والسودان والسعودية .

طريق التجار العرب .

كان الأوجادين او"الصومال الغربي" ، جزءا من ارض الصومال احتله الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية واقاموا فيه قاعدة عسكرية عام ١٩٤١ ، وعند استقلال الصومال عام ١٩٦٠ قرر البريطانيون تسليم منطقة أوغادين الى "هيلاسيلاسي" ليصبح جزء من أراضي إثيوبيا رغم عدم وجود ما يُغرى على هذا الاجراء لفقر الاقليم ؛ لكنه مفهوم فى اطار الممارسات الانجليزية ضد عالم الاسلام لاضعافه وخلق المشكلات المستعصية امامه لاجيال .

ولم يلق الاقليم لفقره الا التهميش والاهمال من جانب الحكومات الاثيوبية المتعاقبة ، ولم يستسلم الاقليم لهذا المصير وإنتابته روح التحرير وكادت بمساعدة الصومال فى عهد سياد برى ان يتحرر فى سبعينيات القرن الماضى بعد تحرير معظم أراضيه خلال معارك الفترة ١٩٧٧-١٩٧٨.

توازن الاسلام الوطنى فى اثيوبيا

ورغم النسبة العددية الكبيرة للمسلمين في إثيوبيا التى كان من المفترض فى ظللها ان يحصل الاسلام على توازنه الوطنى ، والتى كان من المفروض ان تعكس تلك الحقيقة نظم ما بعد هيلاسلاسى ، التى شاركت حركات التحرير الاورومية والاريترية فى اسقاطه ، الا انه لم يحدث رغم ان قيام الفيدرالية الاثيوبية كان محاولة لايجاد حل لمعضلة التعدد العرقى ليشعر كل اقليم انه دولة مستقلة لها علمها وخصوصيتها ، لكنها لم تمنع احتكار اقليم التيجرللسلطة المركزية ، لانتماء زيناوى اليه ؛ فالرئيس "زيناوي" جعل نصيب المسلمين من مقاعد البرلمان ٢٢% فقط ونصيبهم من الوزارات ثلاث وزارات غير سياديَّة من أصل ثماني عشرة وزارة ، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل شنِّ الحملات العسكريَّة على اراضى القوميَّات الإسلامية من حين لآخر دون انقطاع وعمل على اضعاف كثافتهم العددية فى اقاليمهم بعمليات تهجير وتوطين واسعة النطاق جلبت الملايين من القوميات الاخرى الى اراضيهم .

اهم الحركات الانفصالية

اولا حركات حققت استقلالها اوتوازنها الوطنى :

- حركات تحرير اريتريا

بدأت حركة تحرير إريتريا عام ١٩٥٨ ، وقامت جبهة التحرير الاريترية كجماعة اسلامية عام ١٩٦١ وتحولت الى العمل المسلح بحلول عام ١٩٦٥ وبدأت نشاطها في المناطق الريفية بغرب البلاد ، ولخلافات بين كوادرها ، انشق القائد عثمان صالح سبي عن الجبهة الاسلامية لينضم الى مجموعة أفورقي الماركسية التى انشأت جبهة التحرير الإرترية – قوات التحرير الشعبية كمسؤل عن العلاقات الخارجية ، التى رغبت المجموعة فى استغلال علاقاته الواسعة بالدول العربية فى جلب السلاح والتمويل لهذا التنظيم .

وقد استعانت مجموعة افورقى " بالمسلمين فى هذه المرحلة لاجتذاب الدعم العربى والعناصر المسلمة للانضمام الى الجبهة نظرا لعزوف المسيحيون عن الانضمام الى العمل ضد اثيوبيا التى يتعاطفون معها دينيا ، وعينت البهة رمضان محمد نور كواجهة للجبهة التي انفرد أفورقي بقيادتها ميدانيا ، وبعد إغتيال الجنرال أمان عندوم قائد المجلس العسكري ذي الأصل الإرتري المسيحى الذي أطاح بهيلا سلاسي في ١٩٧٥ على يد منجستو هايلي ماريام ، إنضم آلاف المسيحيين الإرتريين الى تنظيم أفورقي بعد ان تحولوا عن ارتباطهم المتين بإثيوبيا بعد هذا الحادث .

وبعد أن وقف تنظيم أفورقي على قدميه غير توجهاته بعيدا عن العرب واعوانهم ، وتطلع الى الغرب واسرائيل لاستمداد العون وتحول افورقى الى الدوائر الغربية التى اصبحت ومنظماتها للإغاثة الممول الرئيسي للتنظيم ، وعمل أفورقي على التخلص من زملاؤه المسلمين داخل الحركة فتخلص من عثمان صالح سبي ، ودخل في نهاية السبعينيات في حرب أهلية مع جبهة التحرير الإرترية (الاسلامية) استمرت لعدة أعوام وتمكن بالتحالف مع الجبهة الشعبية لتحرير شعب تجراي العاملة فى المنطقة من طرد قوات جبهة التحرير الإرترية "١٢ ألف مقاتل " الى شرق السودان في عام ١٩٨١ ، قام النميري بتجريدها من أسلحتها والاحتفاظ بهم كلاجئين لا يسمح لهم بالعمل أو النشاط انطلاقا من الأراضي السودانية حرصا على علاقته مع اثيوبيا.

شكل هذا القرار ضربة قوية لجبهة التحرير الإرترية الاسلامية ،التي ما لبث أن تفتت لعدة فصائل خرجت جميعا من دائرة التأثير فى الساحة الإرترية ، وانفردت الجبهة الشعبية بالعمل وأصبحت هى الحركة الرئيسية على الساحة وتحولت الى منظمة قومية

فى اطار دعوتها بأن الساحة لا تحتمل أكثر من تنظيم واحد ، ورفض أفورقي بإصرار جهود الجامعة العربية (تونس) والسودان والعربية السعودية لتوحيد الجبهات والتنظيمات العاملة فى اريتريا ، بل دبر عدة محاولات لاغتيال قيادات المنظمات الاخرى ، ونجح في تصفية بعضهم بالخرطوم وكسلا ، واخذ فى تعزيز ارتباطه بالغرب ومنظماته الكنسية والإغاثية والابتعاد عن الدول العربية فلم تعد علاقاته بها جيدة بما فيها السودان (رئيس الوزراء زعيم حزب الأمة السيد الصادق المهدي بعد انتفاضة)١٩٨٥ .

اخذ أفورقي يعزز قبضته داخل الجبهة الشعبية فتولى منصب الأمين العام (المؤتمر الثاني عام ١٩٨٧) ، ومكن للمسيحيين من أبناء المرتفعات خصوصا أبناء إقليم "سراي" الذي ينحدر منه فسلمهم المواقع الحساسة مثل الأمن والمال ، وبدأت توجهاته الطائفية فى الظهور فأصبحت التقرنجة هي اللغة الرئيسية لتنظيم الجبهة الشعبية ، وابدى تخوفه من أي دور للدين مستقبلا لتهديده الوضع الطائفي ، واتخذ موقفا عدائيا من اللغة العربية وإعتبرها خاصة بقبيلة الرشايدة وساواها باللغات غير المكتوبة لقبائل البني عامر والعفر والساهو والحباب والبلين ، وانتهك التقاليد الاسلامية فى حملات التجنيد الإجباري للفتيات التي قامت فيها الجبهة الشعبية بالاغارة على اكثر من ٥٨ قرية جمعت خلالها خمسمائة مجندة ، وكانت هذه الانتهاكات وأسباب أخرى سببا للتصادم أدت لأن يتجه عدد كبير من المسلمون لتكوين حركة الجهاد الإسلامي الإرتري في منتصف العام ١٩٨٨ بمعسكرات اللاجئي ، وتوحدت جهود التحرير الإريترية مع كفاح شعب تيجراي لوجودهما فى نفس النطاق الجغرافى فتم التنسيق بين "الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا" مجموعة افورقى وجبهة تحرير شعوب التيجراي فى العمل المسلح الا انهما لم يتمكنا من تحقيق استقلال إريتريا .

وعقب قيام الثورة الشعبية في إثيوبيا تشكلت" الجبهة الديموقراطية الثورية لشعوب إريتريا (الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا) التي تضم جبهة تحرير شعوب التيجراي وجبهة تحرير الصومال الغربي وجبهة الأورومو التى قامت بدعم الجبهة الإثيوبية الموحدة في القتال ضد نظام الرئيس "منجستو هيلا ماريام ؛ وتمكنت الجبهة الإثيوبية الموحدة من تحقيق انتصارات سريعة ضد النظام ، خلال هذه الفترة نجحت الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا فى السيطرة على نسبة كبيرة من ارض الاقليم الاريترى وتمكنت من الاستيلاء على أسمرة عاصمة الإقليم يوم ٢٥ مايو ١٩٩١م.

عقدت الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمراً في لندن في ٢٧ مايو ١٩٩١م برعاية "هيرمان كوهين" مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشؤون الأفريقية وحضره من إثيوبيا الجبهة الموحدة والجبهة الشعبية لتحرير إريتريا اعقبه مؤتمرين أحدهما سياسي في لندن والآخر عسكري في الخرطوم ، واتُفق على تقسيم السلطة بعد إسقاط النظام ، بأن تسيطر الجبهة الشعبية لتحرير تيجراي على مقدرات الأمور في أديس أبابا وتسيطر الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا على إريتريا ، على ان يجرى التفاوض بعد النصر بينهما على استقلال إريتريا والحفاظ على مصالح إثيوبيا الإستراتيجية في حق الوصول إلى الموانئ الإريترية من دون تحمل أي التزامات ، واقرا الوضع فى معاهدات.

وعقب استيلاء جبهة تحرير شعوب التيجراي على أديس أبابا وهروب الرئيس الإثيوبي "منجستو هيلا ماريام" إلى زيمبابوي، وسيطرة الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا على أسمرة ، أعلنت الجبهة الإريترية تشكيل حكومة مؤقتة لإدارة البلاد وتحولت اللجنة المركزية للجبهة إلى هيئة تشريعية للحكومة المؤقتة وتولى رئاسة الحكومة "أسياسي أفورقي" رئيس الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا ، وأعلنت الحكومة الإثيوبية الجديدة اعترافها بحق تقرير المصير لإريتريا وحقها في الاستقلال إذا رغبت ذلك وطلبت الحكومة الإريترية المؤقتة ، تأجيل الاستفتاء حول مصير إريتريا، لمدة عامين، لتهيئة المناخ العام لإجراء استفتاء شعبى، جرى بين ٢٣ ـ ٢٥ أبريل ١٩٩٣م ، وجاءت النتيجة، لصالح الاستقلال بنسبة ٩٩,٨%، وأصبحت إريتريا دولة مستقلة ذات سيادة والعضو رقم ١٨٣ في الأمم المتحدة.

البعد الدينى كان مسيطرا فى المثال الاريترى فعند مناقشة الامم المتحدة فكرة ضم اريتريا الى اثيوبيا من عدمه رفضت الحركة الاسلامية الاريترية بقوة الانضمام الى اثيوبيا التى لم يكن وضع المسلمين فيها مريحا بينما مال المسيحيون الى الانضمام اليها لوحدة العقيدة ، ولكن الامر اختلف فى معركة التحرير فقد تغلب البعد القومى على البعد الدينى بتحالف المسلمين والمسيحيين معا لانجاح الهدف القومى فى الاستقلال ، مع ظلال للدين بميل افورقى رغم ماركسيته الى الغرب ومنظماته المسيحية الاغاثية ثم مواقفه التى شابها العصبية بمحاباته المسيحيين فى مناصب الجبهة .

- جبهة تحرير شعب تيجري
(الجبهة الديمقراطية الثورية (مايو)

تشكلت الجبهة عام ١٩٧٥ وسعت لتقرير المصير في إطار دولة الوحدة الاثيوبية وتمكنت بالتعاون مع جبهة تحرير أورومو والجبهة الوطنية لتحرير اوغادين والجبهة الشعبية لشعوب اريتريا من الاطاحة بنظام منغستو هايلي ماريام عام ١٩٩١ ، وبالتالى سيطر عنصر التجراى على السلطة بزعامة ميليس زيناوي زعيم الجبهة الديمقراطية الثورية (مايو) ، وكرئيس للوزراء فى حكومة الجبهة الشعبية الثورية الديمقراطية انشقت عليه الحركات الحليفة وتحولت الى النضال المسلح ، وأهم المنظمات المسلحة التي تعارضها هى جبهة تحرير أورومو، والجبهة الوطنية لتحرير اوغادين وجبهة تحرير الصومال الغربي (UWSLF) ، وهذه المنظمة لديها طموح فى اقامة تيجرى الكبرى على النحو المبين فى الخريطة.

ثانيا – حركات لم تحقق اهدافها وما زال حلم الاستقلال يراودها

وهى حركات تحرير الشعوب المسلمة ممثلة فى جبهة تحرير أورومو- جبهة تحرير أوروم حركة اجادنيا الوطنية - الجبهة الوطنية لتحرير وغادين - الجبهة المتحدة لتحرير الصومال الغرب (UWSLF) .

- جبهة تحرير أورومو

كانت اوروميا موطنا للامارات المسلمة واهمها هرر صاحبة الجهاد ضد الحبشة ، وقام الامبراطور منليك الثانى (الامهرى) بضمها الى اثيوبيا عام ١٨٤٣ ؛ وتحول الاوروميون طبقا للنظام الاقطاعى الاثيوبى الى مؤجرين لاراضيهم بعد ان كانوا ملاكا لها ، وعانوا من عسف الضرائب الباهظة ، وكانت معاناتهم من حكم الامهرى والتيجرى سببا دائما للعصيان ، وفشلت محاولات هيلاسلاسى استقطابهم ودمج قياداتهم فى النظام الامبراطورى فثار Azebo-Raya عام ١٩٢٨-١٩٣٠ وقامت حركة الاستقلال عام ١٩٣٦ ، وتأسست منظمة the Mecha-Tulema عام ١٩٦٥، ومن اخطر ثوراتهم ثورة بال Bale الفترة من ١٩٦٤ الى ١٩٧٠ حيث لجأ الثوار للعمل المسلح بمساعدة الحكومة الصومالية وكانت هناك محاولات لتنسيق عمليات الاوروميين مع جبهة تحرير الصومال الغربى ولكن الامور توقفت بما فيها الدعم الصومالى بعد وصول سياد بارى السلطة عام ١٩٦٩ ، فإضطروا للهدنة مع هيلا سلاسى عام ١٩٧٠ .

قامت الجبهة الاسلامية لتحرير اوروما عام ١٩٦٩ لنبذ السيطرة الاثيوبية واقامة الدولة الاسلامية ، واستطاعت جبهة تحرير اوروما اكتساب تأييد معظم قطاعات الشعب الاورومى وقامت بالكثير من العمليات المسلحة وتمكنت من السيطرة على ٢٤ الف كيلو متر مربع من اراضى الاقليم ، وترأس الجبهة الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم الملقب جارا ابا ثمدا وتقاوم الحركة محاولات منظمة الاغاثة الدولية التابعة للامم المتحدة لاعادة اللاجئين الاوروميين من البلدان المجاورة (السودان الصومال وجيبوتى) ولكن الجبهة تصر على الا يتم ذلك الا بعد زوال الممارسات الاثيوبية كمحاولة لتوليد ضغط دولى لتغيير هذه الظروف .

كون الاوروميون فى عام ١٩٧٣ جبهة تحرير اورومو Oromo Liberation Front (OLF) لإقامة دولة مستقلة فى كل وسط وغرب اثيوبيا باستثناء الاوجادين ، واقليم نهر اومو Omo ، وقامت بعمليات مسلحة هاجمت فيها Harerg عام ١٩٧٤ وويلجا Welega وارسى فى عام ١٩٧٦ واسوس على الحدود السودانية ، اصبح للجبهة فى ١٩٨٩قواعد دائمة فى بعض المناطق منها هاريرج ، وفى المجال السياسى شكلت الجبهة فى ١٩٨٨ المؤتمر الوطنى الذى انعقد فى Begi فى اقليم Asosa Region وندد الاجتماع بسياسة منجستو فى التهجير والتوطين التى تتهدد هوية الاقليم ، وفى خضم مرحلة الثورة الاثيوبية ساهمت الجبهة فى اسقاط نظام منجستو فى اطار تعاون جبهات التحرير ضد نظامة ، ولكنها انشقت على النظام الجديد فى اديس ابابا بقيادة زيناوى عام ١٩٩٢ ؛ ولجأت الى المنفى فى اريتريا لمواصلة النضال.

ويتهم الاثيوبيون اريتريا بدعم الجبهة وتدريب عناصرها ، والجناح العسكري للجبهة لا يشكل تهديدا قويا لقوات الحكومة الاثيوبية لافتقارها للتمويل الذى ضغط عملياتها منذ عام ٢٠٠٦ رغم انضمام بعض الاوروميون المنشقين عن الجيش الاثيوبى الى الجبهة مثل عميد كمال Gelchu قائد الفرقة الثامنة عشر ومعه عدد كبير من الجنود كانوا متمركزين على الحدود مع إريتريا .

وبسبب انقسام قيادلت الجبهة تعرقلت العمليات المسلحة فقبلت عام ٢٠٠٨ الدخول فى محادثات مع الحزب الحاكم في أمستردام أواخر عام استمرت حتى عام ٢٠٠٩ لكنها فشلت لاصرار الجبهة الديمقراطية الثورية الشعبية الحاكمة على تخلي جبهة

تحرير أورومو عن استخدام القوة المسلحة أولا وقبولها الدستور الاثيوبي .

الاوجادين

ففى الاوجادين نادوا بإقامة دولة اسلامية على مساحة شاسعة من جنوب اثيوبيا ، وقاد " مختل طاهر " ثورة مسلحة عام ١٩٦٣ من اجل ذلك.

- جبهات تحرير الاوجادين

(الجبهة المتحدة لتحرير الصومال الغربي (UWSLF)

حركة اجادنيا الوطنية - الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين).

أ- الجبهة المتحدة لتحرير الصومال الغربي (UWSLF).

تكونت الجبهة من ثلاث جبهات هى:

& جبهة تحرير الصومال الغربي WSLF .

& جبهة الشعب لتحرير الصومال الغرب .

& الإتحاد الإسلامي في أوغادين .

الاولى .. جبهة تحرير الصومال الغربى WSLF تشكلت عام ١٩٦٣ للنضال من اجل حق تقرير المصير الوطنى والوحدة مع الصومال ، وتمكنت خلال الفترة ١٩٧٧-١٩٧٨ من تحرير ٩٥ % من اراضى الاقليم ، الا ان المساعدات السوفيتية والكوبية مكنت النظام من القضاء على انتصارات الجبهة وهزيمة ثوار الاوجادين عام ١٩٧٧ وانسحابهم من معظم مناطق الاقليم الذى كادوا ان يحرروه .

الثانية.. "الجبهة الإسلامية لتحرير الصومال الغربي" تأسست عام ١٩٩١ و تعد الذراع العسكري لحركة الاتحاد الإسلامي (الاعتصام بالكتاب والسنة حاليا) ، ويرأسها الإسلامي الشهير إبراهيم حسين ، وفي ٢٩ يوليو ٢٠٠٩ دخلت فى مفاوضات مع النظام الإثيوبي بعد عشرين عاما من الحرب ، مقابل ممارستها الدعوة والخدمات الاجتماعية في الجنوب وهى الخطوة التى عارضها عدد كبير من علماء حركة الاعتصام الذين اعتبروها استسلاما للنظام الإثيوبي وتخليا عن قضية أوجادين.

وهناك الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين ONLF وقد تأسست عام ١٩٨٤ وتنشط في إقليم أوجادين ، أو ما تسميه "الصومال الغربي المحتل" ، بدأت العمل المسلح عام ١٩٩٤ بعد رفض النظام الحاكم منح الاقليم حق تقرير المصير ، وترأسها الأدميرال الصومالي محمد عمر عثمان الذى تلقى تعليمه في الكلية الحربية بالقاهرة والاتحاد السوفييتي وعمل في البحرية الصومالية ، وتعد الجبهة من أبرز الحركات المسلحة في إثيوبيا وهي جبهة وطنية هدفها تحرير إقليم أوجادين الصومالي الذى يذخر بثروات نفطية كما يراه البعض.

وبعد انهيار حكومة منجستو عام ١٩٩١ دخلت الجبهة المعترك السياسى فسجلت نفسها كحزب سياسي ، وشاركت في الانتخابات البرلمانية المحلية في الإقليم الصومالي وحصلت على ٨٤ في المائة من المقاعد ، وتولت الحكومة الإقليمية في الفترة من ١٩٩١ حتى ١٩٩٤ بالتحالف مع "جبهة تحرير غرب الصومال"، وصادق البرلمان الإقليمي في الأوجادين في عام ١٩٩٤ على إجراء استفتاء على استقلال الأقليم غير أن الحكومة الفيدرالية أجبرت الجبهة الوطنية لتحرير أوجادين على الخروج من الحكومة وهو ما فجر صراعا مسلحا في الإقليم.

وهذه الجبهة تعتبر نفسها حركة وطنية لا تمت بصلة للإسلاميين في الصومال ، وسبق أن طردت عناصر من حركة الشباب من الإقليم وهو ما أكسبها تعاطف بعض الدول الغربية التي لا تعلن صراحة تأييدها للجبهة ، وسجلت منظمات حقوقية غربية انتهاكات لحقوق الانسان فى الإقليم الصومالي.

محاربة القوميات المسلمة

إضعاف الكثافة السكانية والهوية الثقافية

لم تألو اثيوبيا جهدا فى محاربة الاسلام سواء فى اوروميا او الاوجادين او العفر، فقد حاربت اللغات القومية واعتبرت تعليم اللغة العربية جريمة يعاقب عليها القانون وأغلقت مكاتب تعليم القرآن واللغة العربية وحكمت اقاليمهم بالحديد والنار ، فثارت

الاقاليم ضد سيطرة الامهريين ونادى الثوار بحق تقرير المصير .

وبعد زوال الحكم الامبراطورى وقيام النظام الماركسى العسكرى حاول اضعاف النزعة القومية ؛ فقرر النظام الاثيوبى فى مواجهة هذه التمردات خلخلة الكثافة الاسلامية الصومالية بالاقليم فأطلقت الحكومة عام ١٩٧٨ برنامجا لتهجير وتوطين ٣ مليون امهرى الى الجنوب الاورومى والاوجادين .

وعجلت الحكومة بعد مجاعة ١٩٨٣ – ١٩٨٤ ببرامج التهجير لتصل بها الى ١,٥ مليون مستوطن شمالى الى وسط وجنوب البلاد قبل عام ١٩٨٥ ، والاسراع بعملية المزارع الجماعية فى اقليم Hargarie حيث تنشط جبهة تحرير الاوجادين .

وقبل نهاية ١٩٨٦ تم نقل ٣ مليون لتأمين الاقليم وتقدر Africa Confidential فى عدد ديسمبر ١٩٨٨ ، انه سيكون قد تم نقل ١٥ مليون قبل نهاية ١٩٨٩ ، ومن غير المعروف على وجه الدقة ما تم من تهجير منذ الانقلاب على منجستو مايو ١٩٨٩ .

الثالثة الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين

نشأت الجبهة عام ١٩٨٤ بعد هزيمة الجيش الصومالي وجبهة تحرير غرب الصومال (WSLF) في حرب أوغادين ١٩٧٧-١٩٧٨، وبعد انهيار الحكومة في الصومال عام ١٩٩١ عاد كثير من اللاجئين الأوغادينيين من الصومال ودعموا الجبهة ، وسجلت الجبهة نفسها كحزب سياسي وشاركت في الانتخابات البرلمانية المحلية في الإقليم الصومالي وحصلت على ٨٤ في المئة من المقاعد ، وشكلت الجبهة الحكومة الصومالية الإقليمية في الفترة من ١٩٩١ حتى ١٩٩٤ كما سبق القول ، في تحالف مع WSLF وصادق البرلمان الإقليمي قرارا في عام ١٩٩٤ لاجراء استفتاء على استقلال اوغادين وردت الجبهة الشعبية اجبار الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين الخروج من الحكومة، وإستبدلتها بمجموعات أكثر مرونة ونقلت العاصمة الاقليمية الي المدينة الشمالية Jigjiga ، ذات الأغلبية غير الأوغادينية .

حملت الجبهة السلاح ضد الحزب الحاكم في أعقاب اندلاع الصراع عام ١٩٩٨ بين اريتريا واثيوبيا ، وقامت الحكومة الاريترية بتمويل وتدريب والجبهة ، وفي أواخر عام ٢٠٠٦ علق محمد عمر عثمان أن هدف الجبهة اجراء استفتاء في المنطقة الصومالية ليقرر السكان ما اذا كانوا يريدون البقاء كجزءا من إثيوبيا او قيام دولة مستقلة أو الانضمام إلى الصومال ، وقاطعت الجبهة الانتخابات الاقليمية عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٤ التي فاز بها حزب SPDP الذى إضطر الى تأجيل الانتخابات البرلمانية في عام ٢٠٠٥ لانعدام الأمن في المنطقة الصومالية بسبب تكثيف الجبهة هجماتها المسلحة ، ولدى الجبهة كوادر ذات خبرة قتالية ممن تلقى تدريبا عسكريا اثناء خدمتها في جيش سياد بري كما دربت إريتريا ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ من مقاتلى الجبهة عام ٢٠٠٤ ، وتتلقى الجبهة دعما ماليا من اريتريا وبعض الدول العربية والسودان والأوغادينيين في المهجر) أمريكا الشمالية وأوروبا والشرق الأوسط) ،ومن غير المعروف تفصيلات وافية عن الموقف حاليا ، الجبهة متحالفة مع جبهة تحرير أورومو منذ عام ١٩٩٦ وانضم اليها خمس مجموعات منشقة اثيوبية أخرى عام ٢٠٠٦ كجزء من التحالف من أجل الحرية والديمقراطية.

البعد الدينى

لم يكن الدين عاملا مشتركا بين الحركات الاسلامية الانفصالية فالجميع غلب عليه الطابع القومى ، فلم تسع هذه الحركات لوحدة اسلامية فيما بينها او يدعم بعضها بعضا الا فى حالات محدودة ، وقد يكون السبب البعد الجغرافى بين مواقع الاقليات التى كانت تسعى فى الاصل للانضمام لامتداداتها العرقية الملاصقة ، فاغناها الامر عن التفكير فى وحدة مع غيرها.

حركة تحرير العفر

والعفر مسلمون عرب ينتسبون لاحدى اسر اليمن الحاكمة اسرة "انكلي" ومنها اكتسبوا تسمية الدناكل ، ويتوزعون بين دول القرن الإفريقي الثلاث اثيوبيا واريتريا وجيبوتى ، وأهم قبائلهم فى اثيوبيا داموهيتا ، موداايتو كراو، المعدينا، ورابتو ، اومنتو ، نوتو ، تهدتو ، وحورنبا وهي قبيلة عربية اندمجت مع قبيلة بلعسوة ؛ ولهم تاريخ عريق في الإسلام فهم اهل مملكة "إفات وتوابعها" ولهم ممالك اخرى اقيمت بعد ذلك ، ويسمون العدليون نسبة لامارة عدل ويُطلق عليهم الدناكل ، وكانوا من المجاهدين

فى جيش الامام الجُرى ، وعادة ما كان للعفر سلطنات مستقلة يحكم كل منها سلطان بعد انهيار عدل ؛ ففى عام ١٥٧٧ انقسمت عدل الى دولتين هرر الدولة المدينة والاخرى **The Aussa Sultanate** فى **Aussa** التى انتقل اليها محمد جاسا **Muhammed Jasa** من هرر واتخذها عاصمته ، وفى عام ١٦٧٢ تقريبا تلاشت السلطنة فى عهد عمر دين بن ادم .

وفى عام ١٧٣٤ استولى على السلطة القائد العفرى كيدافو **Kedafu** زعيم المودياتو **Mudaito** ، واسس فى المنطقة الشرقية لاثيوبيا قرب حدود كل من اريتريا وجيبوتى ، سلطنة على انقاض إمامة **Imamate of Aussa** عام ١٧٣٤ ؛ يُطلق عليها **Aussa Sultanate** وكانت تتزعم بقية السلطنات وبعد خمسة عشر عاما تولى محمد ابن كيدافو السلطة لمدة ٣٠ عاما كسلطان ، ثم ابنه **Ijdahis** ٢٠ سنة و السلطان محمد بن حنفضة **Mahammad ibn Hanfadhe** وهومن دهر القوة المصرية التى هاجمت الحبشة وقتل قائدها **Wernerr Munzinger** عام ١٨٧٥ .، ولما اشترى الايطاليون ميناء عصب (اريتريا١٨٩٠) من السلطان المحلى ، إضطر السلطان محمد لتوقيع الاتفاقيات مع الايطاليين ، الامر الذى اغضب منليك الثانى وارسل جيشا يعسكر قرب السلطنة كنوع من الضغط لمنع تعاونه مع الايطاليين فى الحرب ضد اثيوبيا .

وفى الحرب الحبشية الايطالية الثانية تعاون السلطان محمد يايو **Mahammad Yayyo** مع الايطاليين عند إحتلالهم الحبشة ، فلما عاد الاحباش للسلطة عام ١٩٤٣ أرسلوا قوة اعتقلته واقامت ابنه سلطانا ، وفى عام ١٩٧٥تفجر الصراع بين السلطة الاثيوبية وبين السلطان على مرح سلطان العفر فى دلتا نهر اواش فى اقصى شرق اثيوبيا على الحدود مع جيبوتى بسبب التضرر من سياسة الاصلاح الزراعى ؛ ونُفى **Alimirah Hanfere** الى السعودية عام ١٩٧٥ وعاد عام ١٩٩١ بعد سقوط النظام العسكرى وهو من مؤيدى الوحدة الاثيوبية ومات عام ٢٠١١ ، وتقلد ابنه حنفضة السلطنة بإقرار السلطنات العفرية السبع ذات الحكم الذاتى فى كل من اثيوبيا وجيبوتى واريتريا ولكن سلطته عليهم غير معلوم وجودها حاليا .

حصل الاقليم على الحكم ذاتي فى اطار الدولة الفيدرالية الاثيوبية نتيجة لمؤتمر لندن للمصالحة الذى وافقت فيه الجبهة الاثيوبية الحاكمة عام ١٩٩١ على حق القوميات المختلفة في إنشاء حكومات فيدرالية لها داخل اثيوبيا في أعقاب وصول الجبهة الديمقراطية الثورية لشعوب اثيوبيا (اهادق) الى حكم البلاد بعد إسقاط نظام هايلي ماريام الذى ساهمت جبهة التحرير العفرية فى اسقاطه ، ويشكل اقليم العفر خُمس مساحة اثيوبيا و٤% من سكانها وكلهم مسلمون متأثرون بالثقافة العربية ولديهم عدة أحزاب سياسية اندمجت في الوقت الحالي تحت حزب واحد هو الجبهة الديمقراطية المتحدة العفرية أما البرلمان الإقليمي للعفر فهو يتشكل من ٤٨ عضوا ينتخب هذا البرلمان من بين أعضائه ١٥ عضوا من المكتب السياسي ١٦ عضوا للحكومة المحلية لمجلس الوزراء الإقليمي ويتم اختيارهم بنسب متفاوتة من جميع الأحزاب التي تشكلها الجبهة القومية الفيدرالية الموحدة ؛ ويمثل الإقليم بعضوين في البرلمان الفيدرالي.

وضع العفر في جيبوتي

يشكلون إحدى أهم قوميتين في جيبوتي (العفر والعيسا) وهم القومية الأكثر عددا يقطنون جنوب البلاد على ساحل البحر الأحمر في إقليم دانكاليا الاريتري ، وهناك منهم يعيشون في إقليم - تيجراي - وولو - شو- في شمال جيبوتي وغربها ويحتل عفر جيبوتي مساحة قدرها ٢٠ ألف كم٢ من مجمل مساحة جيبوتي البالغة ٢٣ ألف كم مربع ومن أهم السلطنات العفرية في جيبوتي سلطنة رحيتا وسلطنة تاجورا وسلطنة اوبك وسلطنة غوبعد ؛ ووفقا للاتفاق المبرم بين الحكومة وحركة التمرد العفرية بقيادة جبهة الوحدة والديمقراطية يتقاسم السلطة العفر والعيسا ؛ وبموجب ذلك جاء تعيين محمد ديلتا من العفر رئيسا للحكومة الجوبيتية ، وفي اريتريا انخرط العفر فى الثورة الاريترية منذ انفجارها عام ١٩٦٠ م ، انب سلطات اريتريا .

حركة تحرير بني شنقول (اقليم سد النهضة)

ترجع اصولهم الي المجموعات العربية التي هاجرت الي اقصي جنوب النيل الازرق وذابوا فى القبائل المحلية وعرف جزء منهم باسم الوطاويط وهم المجموعات التي هاجرت الي اثيوبيا والمنطقة الحدودية في فترة متاخرة ، وفر البعض منهم من السودان هربا من ملاحقة قوات محمد علي باشا الى الاراضي الاثيوبية ولم يرضخوا لملوك الاحباش ؛ وقد استخدمهم الانجليز ايام ما كان جزءا من السودان في دعم الجيش الانجليزي (باندا فونج) فى حرب الايطاليين على الحدود السودانية وكانت مهامهم تتركز فى حمايةالحدود ؛ وتنازل الانجليز عن اقليمهم لاثيوبيا بعد سقوط المهدية مقابل انسحاب الاخيرة من منطقة القلابات المصرية الى جنوب فازوغلي والروصيرص عند منطقة(باردا – بمبدي) التي احتلها منليك عقب سقوط ام درمان .

بعد ضم الاقليم الي الحبشة عانوا من تهميش السلطات واستشعروا انتقاص دينهم ولغتهم العربية فتمردوا في بداية عام ١٩٣١م علي اساس انهم جزء لايتجزاء من السودان وطالبوا بعودة الاقليم الي الاراضي السودانية وقوبل طلبهم بالرفض والعنف ، وخلال حكم هيلاسيلاسى طالبوا بحكم ذاتي فقوبل طلبهم بالرفض فإستمر النشاط المسلح للحركة؛ ولم يُحقق لهم النظام العسكرى بقيادة منجستوا الاشتراكى الذى اطاح بـ هيلاسيلاسى طموحاتهم فخرجوا على السلطة المركزية في اديس ابابا وكونوا حركة تحرير شعب بني شنقول(BpLM) ، وإنفجر القتال بين الحركة والنظام من عام ٧٥- ١٩٩١م ، ونزح الكثير منهم الي السودان ، واستمر القتال وتحالفوا مع الجبهة الثورية لتحرير شعوب اثيوبيا بزعامة مليس زناوي الى ان انتهت الحرب الاهلية في ٢١مارس ١٩٩١م ووصول الجبهة الثورية الي السلطة وتم اعتماد النظام الفدرالي القائم علي اساس الديمقراطية القومية ، وتم تعيين بني شنقول اقليما بالشراكة مع قومية القمز ، وسمي اقليم (قمز بني شنقول الوطني) ولكن الطموحات لم تتحقق فإنقسمت الحركة فشارك بعضها فى الحكم وعادت مجموعة من بني شنقول الى التمرد على نظام مليس زناوي .

الوضع الاقليمى واثره على جهاد بني شنقول

فى يونيو ١٩٨٩م تولت حكومة الانقاذ الوطني السلطة فى الخرطوم وبتوجهاتها الاسلامية عملت علي مناصرة القضايا الاسلامية ومنها قضية بني شنقول بإعتبارها ذات جذور سودانية ، وفي عام ١٩٩١م وصل التجراي الي السلطة في اثيوبيا وفى اريتريا ايضا ممثلا فى اسياسي افورقي وهو من قومية التجراي ، وتضادت الانظمة لتباين الرؤي السياسية بين الانظمة في الدول الثلاث ، فإنضمت اسمرا واديس ابابا الى مشروع شد الاطراف الامريكي لاسقاط حكومة السودان ودعموا الحركات المسلحة المناوئه لها (الجيش الشعبي لتحرير السودان – التحالف السوداني – التجمع الوطني الديمقراطي – الاسود الحرة ......الخ) وبالمقابل دعمت السودان الحركات المناوئة لكلا البلدين حركة تحرير شعب بني شنقول – حركة تحرير الارومو – جبهة التحرير الارترية – الجبهة الاسلامية الارترية الخ) ، فاستخدمت حركة تحرير بني شنقول الارضي السودانية فى تحركاتها ضد القوات الاثيوبية وساندتها ايضا مجموعات بني شنقول في الدمازين – الكرمك – قيسان – الروصيرص كسند خلفي للحركة .

لكن انفجار الوضع بين اثيوبيا وارتريا حول مثلث بادمي الحدودى اضطر اثيوبيا الي التحالف مع السودان واليمن (حلف صنعاء) ضد اريتريا بفعل عدائيتها للدول الثلاث (مع اليمن علي جزر في البحر الاحمر – مع جيبوتي على مناطق الساحل – مع السودان بدعم الحركات المناوئة) ، وتطورت العلاقات الاثيوبية السودانية لتشمل المجالات (السياسية – اقتصادية – امنية) ، وادي هذا التحول لوقف الانشطة المسلحة في الشريط الحدودي ،وتفكيك الحركات المسلحة المدعومة والحد من انشتطها ٠

الحركة والاعتراض على سد النهضة

سيقام سد النهضة فى منطقة بني شنقول وقامبيلا ، وهى المنطقة الحدودية التى كانت جزءا من السودان ومصر حتى العام ١٨٩٦ م , عندما ضمتها إثيوبيا واعتبرتها واحدة من الاقاليم الثلاثة عشرة , والقبائل السودانية التى تسكن هذه المنطقة تعترض ومعها حركة تحرير بني شنقول الإثيوبية المعارضة علي تنفيذ هذا السد وأصدرت ثلاثة بيانات بتاريخ ١ / ٩ / ٢٠١٢ م فى هذا الخصوص نفت من خلالها الاعتراف بتوقيع الحكومة الإثيوبية اتفاقية مع بعض عناصرها بالموافقة على اقامة السد واعلنت فى بياناتها فصل الموقعين من الحركة وهم جعفر زروق , أحمد التوم بروزة , والبدري هاشم ، وإنذار الشركة الإيطالية (ساليني) القائمة على تنفيذ مشروع سد النهضة بمقاضاتها , مع تأكيدها على حقها في إيقاف التنفيذ بأي وسيلة لاضراره بسكان الإقليم من تهجير وحرمانهم من ثروات الاقليم مع التأكيد على الاستمرار في اتخاذ ما تراه مناسباً من أجل الحصول على حق تقرير المصير ، وتردد انه تم توقيع اتفاق توقيع اتفاق سلام بينهم وبين الحكومة الاثيوبية اواخر ٢٠١٢ .

ثالثا إنفصال جنـوب السودان

غوردون وجذورالمشكلة

وضع غوردون الخطوطه العامة لمشكلة جنـوب السودان فى ادارته الاولى على نحو ما اوردنا من تفاصيل ، بإضعاف ارتباطه بباقى السودان عندما حجب العرب والسودانيين عن ادارته بدعوى انهم يعرقلون الحرب على تجارة الرقيق واستبدلهم بحكام اوروبيين ، ودفعه التبشير الى المنطقة بحرصه على توصيل رسالة ارنست فى هذا الخصوص الى لندن يظهر نواياه فى ضمان عدم

انضمامها الى عالم الاسلام ؛ كما ان تفكيره فى مرحلة اخلاء السودان ضم الجنوب الى اوغندا او ممتلكات ملك بلجيكا فى الكونغو بدون اذن موكله ، استنادا لوجهات نظر شخصية ترعى مصالحه الخاصة وانتماءاته وتخالف المصالح الحقيقية لموكله ، وتبريره هذا المنطق بقربه جغرافيا الى المنطقتين اكثر منه الى السودان ، وكنوع من بناء الجسور مع ملك البلجيك كمقدمة لالتحاقه بخدمته لاحقا لما ادرك انتهاء مهمته فى السودان ، ما هو الا خيانة للامانة .

الادارة الانجليزية وتكريس المشكلة

ومنذ الاحتلال الانجليزى عام ١٨٩٩ ، اتخذت الادارة عددا من الاجراءات قوضت اندماج الجنوب فى السودان ، وحرمته تجانس هويته عندما كثفت الادارة الضغط على الجنوب أضعف اماكن الهوية الاسلامية فى جسد السودان ، وإجتهدت فى إجتثاث مظاهر الهوية العربية والاسلامية فيه وإستبدلوها بالثقافة الإنجليزية والعقيدة المسيحية لاهدار عناصر التماسك والوحدة بين الجنوب والشمال .

التبشير والجنوب

دفع الانجليز بمختلف اطياف التبشير من بروتستانت وكاثوليك للعمل فى الجنوب للحيلولة دون مد الاسلام ، وانطلق عنان التبشير فى " تنفيذ إستراتيجية مجلس الكنائس العالمى التى تبناها عام ١٩٢٦ بتعجيل تنصير جنوب السودان وكل من اوغندا ونيجيريا قبل تحولهم الى المحمدية تخوفا من مد الاسلام (٣٤٤) ، فقامت الادارة بالقضاء على بدايات التعليم التى كان النظام المصرى قد بدأ فى تطبيقها ، ولم يسمح الانجليز الا بالحد الادنى من التعليم بما يلزم لاعداد كتبة لاعمال الادارة ، واستمر حرمان الجنوب من التعليم حتى عام ١٩٢٤ ؛ ومنعت الدعوة الى الاسلام وألغت المحاكم الشرعية وحرمت الزى والاسماء العربية وأرغموا أصحابها على إستبدالها بأسماء إنجليزية ؛ وفى عام ١٩٢٤ اغلقوا الجنوب في وجه المسلمين فى اطار قانون الاراضى المغلقة ، بعدما اخلوه منهم بما فيهم التجار ومنعوا إتصال جزءا الوطن الا باذن خاص ، وعاقبوا كل من حاول من الجنوبيين الخروج إلى الشمال ، وأبعدوا الحامية الشمالية واستبدلوها بالفرقة الاستوائية .

وتردت اوضاع الجنوب فى جميع المجالات من جراء اعادة العمل بنظام الضرائب ؛ وزاد الطين بلة نظرة الادارة الانجليزية المتدنية الى الجنوبين التى على اساسها فرقت بينهم واخوانهم الشماليين فى المرتبات فكان الجنوبى يحصل على مرتب اقل من مرتب قرينه فى الشمال ، وفى موجة فوران حركة التحرر بعد الحرب العالمية الثانية فى اسيا والشرق الاوسط ، تبلورت حركة سياسية جنوبية وقفت مع الاحزاب السياسية فى شمال السودان ضد الاستعمار ، وتعاونا فى العمل السياسى وأفلحت الحركة الوطنية السودانية فى عقد مؤتمر جوبا عام ١٩٤٧ لمناقشة الاوضاع فى الجنوب ، وندد المؤتمر بسياسات المستعمر فى عزل الجنوب وحرمانه من التعليم وايد اشتراك الجنوبيين فى الجمعية التشريعية بالخرطوم وتحقيق المساواة فى الاجور بين الجنوبين والشماليين والتوسع فى التعليم .

واسفر المؤتمر ايضا عن تجمع الجنوبيون فى حركة سياسة باسم " الرفاهية ، واضطر الانجليز مرغمين على الموافقة على نتائج المؤتمر محاولين التنصل من سياسة الاماكن المغلقة بالقاء تبعتهاعلي الجنوبيين بالادعاء بأنها جاءت استجابة لرغبتهم ، ولما تقاعس الانجليز فى الوفاء بتعهداتهم نظم الجنوبيون اضرابا شاملا عام ١٩٤٨ ، فإستجاب الانجليز بإدخال ١٣ جنوبى فى عضوية الجمعية التشريعية وتحقيق المساواة فى الاجور ؛ ولكنهم عقدوا العزم فى الوقت نفسه على احتواء الحركة الجنوبية بتبديد قوتها وتشتيت قياداتها واستقطاب البعض منها لشق صفهم لعرقلة التطور السياسى للجنوب ضمانا لاستمرار وصايتهم عليه .

وفى محاولة لبذر الشقاق بين الجنوب والشمال لاضعاف تضامنهما حجب الانجليز الحكم الذاتى عن الجنوب فى الفترة ١٩٥٠- ١٩٥٣ بينما منحوه للشمال متعللين باختلاف مستوى التطور بين الاقليمين ؛ ولكن هذا المنطق لم يرض الشماليين الذين رأوا فى التفرقة اضرار بالنظام الدستورى قد تؤدى الى انهياره ؛ وبعدما استشعرت بريطانيا فى مرحلة ما اتفاق الجنوبيين والشماليين ضدها واحتمالات الاستمرار فى التماسك ، وتيقنت هى والتبشير من استقلال السودان شجعوا على بث الانفصالية فى

---

[٣٤٤]) " حشد المجلس فى اواخر القرن العشرين لخدمة اغراضه فى افريقيا وحدها ١٤ الف منصر و١٦ الف مركز تبشيرى و٥٠٠ مدرسة لاهوتية و٦٠٠ مشفى و٥٠٠ مستوصف ، الاهرام نقلا عن جريدة الاتحاد الضبيانية بقلم يوسف خاطر .

وعى الجنوبيين وروجوا الى ضم الجنوب الى اوغندا او كينيا ، واخطر ما افرزه ذلك المخطط وضع نواة لإنقسام السودان ليستمر نزيف طاقاته تشتيتا لجُهده واختزالا له من احتياطى الاسلام والعرب .

اثر الثورة المصرية على توجهات الجنوبيين

وفى عام ١٩٥٣ اقامت الثورة المصرية علاقات وطيدة بالجنوبيين ، فرفعوا بتأثير الثورة ، شعار التحالف مع حركة التحرير الوطنى فى الشمال بقيادة اسماعيل الازهرى ومعاداة الانجليز ، ولكن امالهم خابت فى الازهرى لعدم وفائه بتعهداته بعد وصولة للحكم عام ١٩٥٤ ، الامر الذى اضعف التيار الجنوبى الداعى للتحالف مع الحركة الوطنية فى الشمال فى مواجهة التيار الداعى للتحالف مع الاستعمار .

الكنيسة الكاثوليكية ومساعدة التمرد

اصطدمت ارادات الشمال والجنوب ، فإتخذ الازهرى اسلوب القمع فى مواجهة تمرد الجنوب وتفجر الموقف عام ١٩٥٥ ، واستمر التناقض بين الطرفين مواكبا لقدوم كل حكومة عسكرية ، ففى عهد عبود وقعت احداث تمرد عام ١٩٦٢ طردت فيه الحكومة عددا كبيرا من المبشرين لتجاوزهم حدود العمل الدينى بتهمة التحريض وتهديد وحدة البلاد ، وأصدرت قانون الهيئات التبشيرية للحد من نفوذ المبشرين الاوروبيين وتجريد التبشير من مسئولية التعليم ، وأحالت ادارة كنائس التبشير الى الكنيسة الوطنية فثارت بعثات التبشير ؛ وهذا دليل على أن موقف الحكومة لا يستهدف العقيدة ذاتها بقدر ما كان موجها للنفوذ الاجنبى وبقايا الاستعمار (٣٤٥) ؛ وقد واكب هذه الاحداث فرار العديد من المتمردين الى الدول المجاورة حيث اقاموا رابطة السودان المسيحى لتحرير الجنوب للترويج لقضيتهم لدى الراى العام العالمى بدعم من الكنيسة الغربية ، وقاموا بالإغارة على الجنوب بمساعدة بعض المرتزقة الاوروبيين ؛ وتفاقم الوضع عام ١٩٧١ بتبنى الكنيسة الكاثوليكية مساعدة المتمردين على نطاق واسع ، وبوصول سر الختم خليفة الى الحكم تهيأت فرصة لعقد مؤتمر مائدة مستديرة فى مارس ١٩٦٥، طالب فية الجنوبيون بتقرير المصير وتفاوت موقفهم مابين مطالب بالانفصال ومطالب بالحكم الذاتى ؛ بينما تمسك الشماليون بوحدة البلاد ومنح الجنوب حقوقه السياسية بالمشاركة فى الحكم وخصصوا لهم منصب نائب الرئيس ، وأن تكون للجنوب حكومة اقليمية فى اطار السودان المتحد وتحقيق نهضة الجنوب وتكافؤه الاقتصادى مع الشمال .

جاءت هذه التفاهمات بلا مضمون حقيقى لثبات كل طرف على اهدافة وتمسكه فى قرارة نفسة بالا يسمح للطرف الاخر بان يحقق هدفه ، وكانت النية مبيتة لدى الجنوبيين فى الاستقلال كهدف نهائى مع تبنى استراتيجية استهلاك الوقت ترقبا بما تسمح به الظروف لانتزاع هذا الهدف .

وكانت هذه الاستراتيجية واضحة امام الشمال الذى اخطأ بعدم المبادرة بتحقيق مطالب الجنوب لدعم التيار المعتدل فى مواجهة التيار الانفصالى الذى اتخذ من تلك المطالب ذريعة لذلك ، وبجمود الموقف اصبح المناخ العام مدفوعا باطراف خارجية مهيا للحلول العسكرية ؛ فقامت جماعة " انيانا " بإغارات على الحكومة وتمكنت من فرض هيمنتها على ريف الجنوب ، وتبنت الجبهة السياسية للمتمردين فى الخارج الدعوة لقيام دولة مستقلة باسم " أزانيا " (٣٤٦) .

حدثت إنفراجة فى الموقف بوصول النميرى الى الحكم فى مايو ١٩٦٩ ؛ فبعد ١٥ يوم قرر بتاثير حلفائه الشيوعيين منح الجنوب الحكم الذاتى ؛ لكنه غير موقفه بعد الانقلاب الشيوعى ضده فى يوليو ١٩٧١ بتأثير تحالفه مع الاخوان المسلمين معارضوا سياسة التساهل مع الجنوب ولم يفى بتعهداته ، ولما استشعر النميرى معارضة الجنوبيين لسياساتة ، ومطالبتهم بنصيب الاسد من عائدات البترول المكتشف فى اراضيهم نقض بنود الاتفاقيات المعقودة معهم واستبعد الجنوب كمقر للمنشأت البترولية ، وتمادى فأصدر فى يوليوعام ١٩٨٠ قانون تقسيم الجنوب الى أقاليم ثلاثة وحل الحكومة والمجلس التشريعى للاقليم بالمخالفة لاتفاق اديس ابابا .

---

[٣٤٥]) **لم تفلح عمليات التبشير سوى في تنصير ١٠% من مجموع السكان حتى الاستقلال عام ١٩٥٦ الذين بقى معظمهم على وثنيتهم .**

[٣٤٦]) **تشكلت الجبهة باتحاد حزب " سانو " مع جبهة تحرير السودان الافريقى**

وفى سبتمبر١٩٨٣ قدم النميرى ذريعة اخرى للانفصاليين الجنوبيين بتطبيق الشريعة الاسلامية على الجنوب ، وقدم لهم دعما بشريا وعسكريا سهلا من مقاتلى الجنوب الذين فاضوا عن احتياجات الجيش السودانى وفشل فى استيعابهم فى المشروعات الاقتصادية لعدم تنفيذ مشروعات التنمية فتحولوا بسبب الاحباط الى قوى الإنفصال ، وزاد الامر سوءاً خطة الحكومة لنقل جنود الجنوب الى الشمال مما ادى الى تمردهم فى اكتوبر ١٩٧٥ وفرارهم الى اثيوبيا حيث اقاموا حركة " التحرير الشعبية لجنوب السودان " وجناحها العسكرى "آنيانا" ، وهى استقطبت المقاتلون السابقون الذين القوا السلاح عقب اتفاقية اديس ابابا ولحقت بهم ايضا عناصر الجنوبيين المُرحلين من الخرطوم فى عام ١٩٨٢ فيما يعرف بـ " الكشة" .

وفى الفترة من اكتوبر١٩٨٢ وحتى فبراير ١٩٨٣ تتابع عصيان الوحدات الجنوبية بسبب التحقيقات التى يجريها الشمال فى الاتهامات المالية ضد قادتها ؛ وفى اخر تمرد إنحاز العقيد جون جارنج الى المتمردين الذى تمكن بقدرته على التأثير فيهم ، من تشكيل الحركة الشعبية لتحرير السودان وجيشها .. وبقى الانفصال على رأس الاولويات المعلنة بين الحركات الجنوبية وكان يختفى ويعود للظهور حسب تحالفات المنظمة بما يضمن لها الدعم المستمر والدائم دون توترات.

تبنت الحركة اليسار وعادت الغرب وتجاهلت مسألة الانفصال ، وتحالفت مع قوى اليسار فى اثيوبيا وليبيا وهيأ لها هؤلاء الحلفاء السلاح والتدريب والمال لتوسعة نشاطها ضد مصالح الغرب ، فتمكنت من تعطيل نشاط شركات البترول الامريكية والفرنسية بالمنطقة ولم تستثنى الحركة الشركة الفرنسية العاملة فى تنفيذ قناة " جونجلى" ، واستغلت ما توفر لديها من اموال فى إقامة اذاعة موجهة ومكاتب فى لندن وروما ونيروبى ، وتزايدت قوتها بعدما استطاعت فى ١٩٨٣-١٩٨٤ استيعاب مقاتلى المنظمات الاخرى .

فى هذه المرحلة تبنى برنامج الحركة مطالب عامة بدءا بتصفية الحكومة العسكرية ومرورا بتقسيم ثروة الجنوب مناصفة مع الشمال والغاء الشريعة الاسلامية ، وتجاهلت الاشارة الى الانفصال وهو الهدف الاصيل لحركات الجنوب بلا استثناء وكان هذا التجاهل مراعاة لتحالفها مع ليبيا.

تطور المنظور الانفصالى للحركة

تعامل الجنوب مع هدف الانفصال بمرونة تأخذ فى الاعتبار التطورات فى الوضع الاقليمى والدولى وتطوعها لمصلحتها ؛ فإتبع اسلوب التدرج فى تحقيقه ، فحتى عام ١٩٥٦ عند الاستقلال لم يُثير الجنوبيون موضوع الانفصال وتمسكوا بالحركة فى اطار السودان العربى الموحد ؛ تحدوهم الرغبة فى سرعة نيل الحرية تحت ضغط موجة حركة التحرير العربية البازغة بقيادة مصر التى لها قول فصل فى الشأن السودانى أنذاك ، وكان الهدف من وراء ذلك تفويت الفرصة على محاولات الاستعمار تأجيل منح الجنوب الحقوق السياسية بدعوى عدم تأهلهم لهذا ؛ وكانت مناداتهم بالانفصال أنذاك ستؤدى الى عرقلة تحريرهم لتخلى الخرطوم ومعها التيار العربى الضاغط عنهم .

وبعد الاستقلال ظهر تيار الانفصال بوضوح فإتجه الجنوب للتحالف مع النظم الغربية و الإفريقية المعادية للعرب ، مثل اثيوبيا الامبراطورية وتشومبى علاوة على إسرائيل ، وهى نظم أيدت فكرة انفصال الجنوب إنطلاقا من عدائها للعرب ، وعندما سقطت هذه النظم ضعف تاثير قوى الغرب فى الساحة الافريقية فتوجه الجنوب للتحالف مع ليبيا واثيوبيا المتمردتين على الغرب ، وكان لابد مع هذا التطور إعادة ترتيب اولوياتهم لتكون فى اطار السودان الموحد وبدون الاشارة لموضوع الانفصال حرصا على تحالفها مع ليبيا فتجاهل برنامجها مسألة الانفصال .

ومع الحقائق الدولية الجديدة فى النظام الدولى عاد الجنوبيون للتحالف مع الغرب بمباركة امريكية لقضية الجنوب ، وقد عكس اتفاق مشاكوس الهدف الاستراتيجى الاصيل بوضوح عندما نص على حق تقرير المصير وهو ما يعنى الانفصال فى نهاية المطاف.

دور اسرائيل

لم تكن اسرائيل بعيدة عن هذه المشكلة ، فى اطار سعيها لتعزيز الانفصالية بين اقليات العالم العربى وبالذات جنوب السودان الذى كانت المخططات الغربية تعمل بأصرار وبلا كلل على فصله منذ ستينيات القرن الماضى ، تلك المخططات التى كان لاسرائيل دور فيها ومهد السبيل امامها اصدقائها فى زائير واوغندا وعلى رأسهم الرئيس الزائيرى موبوتو الذى كان اول من مد

المتمردين الجنوبيين بالاسلحة ثم تولت اسرائيل المسئولية بعد ذلك ، وقد اعترف جوزيف لاقو (٧٩ سنة) القائد العسكري لحركة أنيانيا أول حركة تمرد في جنوب السودان (يشغل حاليا منصب مستشار سلفاكير رئيس حكومة جنوب السودان)) نائب الرئيس البشير " بأن استقلال جنوب السودان كان حلمه الأكبر الذي عمل على تحقيقه منذ أن هرب من الجيش في ١٩٦٣ ليقود حركة تمرد "أنيانيا" ، وقال أنه تلقى أولى شحنات الأسلحة من الكونغو قبل الحصول على دعم إسرائيل التى زودته بالسلاح بعد رسالته إلى رئيس وزرائها بعد حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ امتدح فيها نصر اسرائيل على العرب العدو المشترك لإسرائيل والجنوب ، وقال فيها " أنا أيضاً أحارب العرب وتزويدكم لنا بالأسلحة سيمكننا من التغلب على القوات السودانية ويمنعها من دعم مصر ضدكم ، وحصلت الحركة من اسرائيل على المال والسلاح ، لدعم قوة من ١٨ ألف مسلح " (٣٤٧) .

تمركزت العناصر الاسرائيلية من اجل هذا الغرض فى زائير واثيوبيا واوغندا لترعى مخطط الانفصال ، وتزامن نشاطها مع الانقلاب العسكرى للجنرال عبود فى السودان فى ستينات القرن الماضى الذى شهد عهده نشاط الحركات الجنوبية بدافع من الخارج ، وفى بدايات السبعينيات تدفقت من اسرائيل الاسلحة والخبراء العسكريين ، وبدأت تتعاظم قوى التمرد فى ظل هدنتها عام ١٩٧٣ مع النميرى ، وازداد تمرد الجنوبيون فى الجيش السودانى وفرارهم ، ففرت وحدة الضابط الفريد اجوان بجنوده وأسلحتهم وانضموا الى حركات التمرد فى اثيوبيا حيث التقاه العسكريين الاسرائيليين .

ومن ابرزالقادة الجنوبيين الذين ركزت عليهم الجهات الغربية والاسرائيلية جون جارنج الذى درس فى الولايات المتحدة على منحة امريكية وحصل على درجة الماجستير من جامعة ايفا وتلقى بها تدريبا عسكريا وحصل على دورة عسكرية فى كلية الامن القومى فى اسرائيل ثم انضم الى حركة هينانيا وتصارعت حركته مع اينانيا حتى تمكن من ان ينفرد بالساحة وفى مرحلة ما سيطر على اغلب الجنوب (٣٤٨).

وقد بلغ حجم الدعم الاسرائيلى للجيش الشعبى لتحرير السودان بقيادة جون جارانج فى الفترة من ١٩٩٠ الى ١٩٩٩ حوالى خمسمائة مليون دولار حسبما ذكرته مجلة معرخوت ، غطت الولايات المتحدة الجانب الاكبر منه ، وكان هذا الدعم الذى زاد من قوة جارانج ، سببا فى رفض الجنوبيون محاولات التهدئة من جانب الخرطوم والميل الى الانفصال عكس حركة اينانيا التى لم تُفصح عن اتجاهها بشكل واضح.

ظلال الدين فى الصراع

يتضح مما سبق ان الدين ليس هو العامل الغالب فى الانفصال ، فنسبة المسيحيين فى الجنوب لاتتجاوز ١٠% من إجمالى الخمسة ملايين الذين هم كل سكان الجنوب (احصاء عام ١٩٨٨) الذين تغلب عليهم الوثنية ، ويرجع الانفصال فى الاساس الى عوامل قبائلية وتحريض المنظمات الغربية والمسيحية واسرائيل التى كان لها دور كبير فى إطالة أمد هذه القضية للفوز بالانفصال فى نهاية المطاف (٣٤٩) .

اثار الانفصال

والانفصال وان كان ليس فى صالح السودان الا انه ايضا ليس فى صالح الجنوب ، ففك الارتباط بعد قرنين ليس بالامر السهل لاوضاع ترتبت واستقرت لمئات السنين ، فإنفصال الجنوب سيسفر عن دولة هزيلة حبيسة جغرافيا ضعيفة سياسيا تفتقر للهوية الوطنية وعوامل الخلاف كثيرة ولا يجمعها جامع ، تتنازعها ستون قبيلة تتحدث العدد نفسه من اللغات ، قد تنفجر قبائلها فى حرب اهلية بدت بوادرها مبكرة إثر محاولة قادة من قبائل الشلك والنوير الاطاحة بجون غارانغ في ١٩٩١ ، واحتكمت الفصائل فيه وفى غيره للسلاح واستقطبت بامتدادتها العرقية دول اخرى ، وهناك من يتخوف من قيام نظاماً تطغى فيه قبيلة الدينكا "

---

[٣٤٧]) المصدر- وكالة الانباء الفرنسية - أ.ف.ب – ويشير الحديث الى الهدف الاستراتيجى وهو الاستقلال الذى اخفته الحركة الى ان اصبحت الظروف مواتية ، وبعد ذلك وقع لاقو مع حكومة الرئيس الأسبق جعفر نميري اتفاقية سلام أديس أبابا عام ١٩٧٢ وتولى منصب نائب رئيس الجمهورية ورئيس الإقليم الجنوبي.

[٣٤٨]) اسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان – نقطة البداية ومرحلة الانطلاق ، العميد المتقاعد موشى فرجى — نقلا من مقالة الدكتور رفعت سيد احمد ، الدستور العدد ١١٤٤ فى ١٣ نوفمبر ٢٠١٠ .

[٣٤٩]) تصدت السلطة لممارسات التبشير الاجنبى الهدامة على وحدة البلاد بتجريده من مسئولية التعليم وأحالت ادارة كنائس التبشير الى الكنيسة الوطنية ؛ وهذا دليل على أن موقف الحكومة لا يستهدف العقيدة ذاتها بقدر ما كان موجها للنفوذ الاجنبى وبقايا الاستعمار.

دينكاقراطية " حسبما يسميه المعارضون ، فهناك نحو ثلاثون قبيلة جنوبية تتوجس من هيمنة الدنكا من بينهم جيش جوزيف كوني المنتشر في جنوب السودان (٣٥٠) ، كما ان فك الارتباط فى حالة الانفصال قد يتحول لمأساة اجتماعية واقتصادية تخلف وراءها كم هائل من اللاجئين ، يتعرضون للترحيل بين الجانبين ويقدر عدد الجنوبيين المقيمين فى الشمال بحوالى اربعة مليون جنوبى فى مناطق وادى حلفا والخرطوم ، بخلاف تكاليف اعادة تأهيلهم وتسكينهم فى ظل اقتصاد هش ينهشه الفساد وينهش عائداته النفطية، كما ان دولة حبيسة لا موانئ لها ، تعتمد كليا على الاستيراد من كينيا وجنوب أفريقيا تتحمل عبئا كبيرا كرسوم مرور فى اراضى الغير لوارداتها وصادراتها بخلاف المبالغ الباهظة لوارداتها من تلك الدول ، ومشاكل التداخل العرقى مع الدول المحيطة ، وما ينتظرها من مشاكل مع الشمال بالنسبة لترسيم الحدود بتحدياته الكبيرة خاصة فى المناطق التى تتداخل فيها العرقيات الشمالية والجنوبية ، بخلاف العبئ الاقتصادى الهائل لاقامة دولة واستمرارها ، وقد ينتهى جنوب السودان بإمتصاصها فى احدى الدول المجاورة دون ان تهنأ ومعها من صنعها بحلم الاستقلال .

الخلاصــــــــــــــــــــــــــــــــــة

نخلص مما تقدم الى:

أن الدين وحده لايكفى كأساس لشحذ الافكار الانفصالية ولكنه يساهم بقدر فى الاطار القومى ؛ وقد يكون من المفيد للاقليات المسلمة وللآسلام والمسلمين الا يطالبوا بكيانات اسلامية منفصلة تجنبا للحساسيات واستعداء الآخر فى وقت يكون وجودهم داخل المجتمع نواة قوية لمد الاسلام .

ويؤكد دكتور " جمال حمدان " هذه الحقيقة فى كتابه " الاسلام المعاصر " فيقول " انه رغم تحفظ الدول الافريقية سياسياً على الإسلام إلا أنها لاتحارب امتداده وإن استمرار وجود أقلية مسلمة داخل كيان الدولة نقطة فى صالح الاسلام تلعب فيه دور المبشر ، وآجلا أوعاجلاَ لابد وأن يحقق الإسلام توازنه الوطنى وتشير الدلائل إلى أنه يسير فى هذا الاتجاه المدى وأياً كانت الظروف فأوضاع الديانات لم تستقر بعد فى القارة وهذه نقطة أخرى فى صالح الإسلام ومازالت إفريقيا باتساعها مفتوحة بقوة أمامه .

---

[٣٥٠]) مارك لافيرني مدير مركز البحوث والتوثيق الاقتصادي والقضائي والاجتماعي في السودان ومصر، عن «ليبراسيون» الفرنسية، ٢٠١١/١/١٣ .

الباب التاسع
تحديات العمل الاسلامى والتعاون الاسلامى الافريقى
جنوب الصحراء

١) الانقسامية بين شمال وجنوب الصحراء

بث الاستعمار لدى مثقفى القارة انها منقسمة الى جزئين مختلفين جغرافيا وعرقيا وثقافيا ، تفصل بينهما الصحراء فهناك شمال عربى مسلم و جنوب زنجى تغلب عليه الوثنيه والمسيحية ، وتأسيسا على هذا التقسيم بالعرق الزنجى واللون الداكن الذى يميز الافريقى ، قامت دعاوى زنوج المهجر بتأكيد الاعتزاز بالانتماء للعنصرالزنجى فى مواجهة تعالى العنصرية البيضاء ، فاطلق زنوج المارتينيك فكرة الزنجية واطلق زنوج اميركا فكرة الافريقانية ، والفكرتين دارتا حول قضايا الانسان الزنجى واعتزازه بقارته الام افريقيا التى اتخذها وطنا مطلقا لا يعرف له فيها وطنا محددا ؛ ومن منظور هذة الفكرة جاء ارتباطه بافريقيا الزنجية جنوب الصحراء.

ورغم القاسم المشترك لقضايا شمال الصحراء وجنوبها على ارض القارة فى مصيبة الاستعمار والنضال من اجل الاستقلال ، كانت قضايا افريقيو المهجر مختلفة فهى قضايا مكافحة العنصرية البيضاء ومثالب قضية الرق ، وهى هم اخر تحمله ايضا شعوب جنوب الصحراء مع اخوتهم فى المنفى ، فإتسع نطاق قضايا الجنوب عن قضايا الشمال العربى ، وحالت ضغوط الاستعمار القوية دون تلاقى الطرفين لافشال تضامنهما ضده ، وظل نضالهما من اجل الاستقلال منفصلا لا رابط بينه الا فى اطار ما قدمته دولة عُمان ومصر والدولة العثمانية فى شرق افريقيا ودول الاسلام والطرق الصوفية لجهاد مسلمى جنوب الصحراء ، وظل الحال على هذا النحو الى بدايات القرن العشرين ، فلم يستطع التواصل الهش بين الشمال والجنوب فى اطار الحركة المعادية للاستعمار ببروكسل عام ١٩٢٩، برعاية محمد فريد وحافظ رمضان ان يجمع قضايا الطرفين ، وكان أقوى إسهام فى جمع قضايا الطرفين ما تم على المستوى الفردى على يد المصرى محمد على دسوقى السابق التعرض لدوره ، وهذا الاسهام من جانبه يعبر عن احساس بعناصر الانتماء المشترك ، واخوة الارتباط بين الشمال والجنوب ومغزاه كبير وان ظل فى اطاره الضيق حتى قيام الثورة المصرية التى جعلت هذا الانتماء مد حقيقيا كبيرا.

ولما كانت الهوية الافريقية والزنجية لا تعنى مسلمو جنوب الصحراء لان لا عنصرية فى الاسلام ، فقد شجع الاستعمار غيرهم على فكرة الافريقانية والزنجية كأساس للهوية القومية ، ليضمن انقسام شعوب جنوب الصحراء بين مسلم يتخذ الاسلام هوية ويرفض العرقية ، وغير مسلم يبنى هويته على اساسها وربطها بالغرب ، فيؤكد انقسام جنوب الصحراء بتوزيع ولاءات شعوبه ، ، فإن وحدتهم الزنجية قسمتهم الهوية الاسلامية بإمتداداتها الاخوية خارج العرقية ، وفى نفس الوقت إنفصال زنوجة غير المسلمون عن بيض شمال العرب المسلمين.

وحالة ليوبولد سنجور الفيلسوف السنغالى ومنظر الزنجية واول رئيس مسيحى فى دولة اغلبية مسلمة بعد الاستقلال ، تعبر حالته عن تأثير الانقسامية التى بثها الاستعمار والانفصالية التى بثتها الافريقانية فى فكر الافريقيين ، فأخذ يعادى تراث الماضى الاسلامى لبلاده وهو يروج للزنجية فى غرب افريقيا المسلم فى عمومه ، فهاجم سنجور الاسلام موروث شعبه الثقافى امام احدى الجامعات الفرنسية عندما وصف ثقافة الاسلام فى بلاده " بأنها استعمار ثقافى ، هو اسوأ اشكال الاستعمار ، وان الاستقلال الثقافى شرط لايمكن اغفاله لتحقيق الاستقلال " ؛ وفى كلمته فى جامعة السربون بمناسبة منحه الدكتوراة الفخرية اعرب عن تقديره للحضارة الاوروبية وإنتقد التراث الاسلامى دون مراعاة لمشاعر الاغلبية المسلمة التى يحكمها فيقول " اهتدينا بتوجيهاتها (

الحضارة الاوروبية) القيمة لكيفية التميز والرقى بحضارتنا الزنجية عن اولئك الذين احتوونا (يقصد المسلمين)" ؛ وهذا النقد يعنى ايمانه بالافكار التغريبية المناوئة للاسلام والانفصال عن عرب القارة ومسلميها من السود الذين ينتمى اليهم شعبه .

وهذه التقسيمات العرقية لا سند لها فى تاريخ القارة ولا ضمير الاسلام الذى جب ظاهرة اللون والعرق ؛ ولا يمكن ان تُقيم فاصلا بين شعوب شهدت حركه كبيرة من الانصهار والتمازج البشري والثقافى فى معظم الاحوال ، فاللغة العربيه وابجديتها كانت لغه الادارة والتجارة والثقافة فى معظم افريقيا جنوب الصحراء .

وفى شرق القارة استمرت هى اللغة السائدة فى العديد من مدن الساحل وتركت اثارا واسعة على اكثر اللغات المحليه شرقا وغربا بما فيها لغات الشعوب الهوسا والفولانى غربا والسواحيلى فى الوسط والشرق ، فهذه اللغات غنيه بالمفردات العربية بنسبه تتراوح ما بين ٤٠ – ٦٠ % وكانت تُكتب بالابجدية العربية.

فعوامل التواصل تجب عوامل التناصل ، تفرغ التقسيم المصطنع من مضمونه ، فلا يمكن للصحراء التى جعل منها الاسلام همزة اتصال بين الشمال والجنوب ان تكون حاجزا يحجب حقائق التاريخ والجغرافيا ومصالح الحاضر والمستقبل.

تاثير الانقسامية على العمل العربى والافريقى

بعد نُضج العمل العربى الافريقى تخلص العديد من الافريقيون هذا العداء ، فسنجور نفسه إنضم فيما بعد لحركة الافريقانية القارية القائمة على الانتماء الى الشخصية الافريقية وليس للزنجية القائمة على العنصرية ، وهو المنحى الذى تبناه معظم زعماء القارة أمثال موديبوكيتا ونكروما وسيكوتورى الذين رأوا أن الزنجية التى كانت وسيلة تجمعهم للاتحاد لمكافحة الاستعمار لم يعد لها محل فى اطار الوحدة الافريقية الشاملة بعد الاستقلال ، وإلا أصبحت دعوة تقسيم تبعث الفرقة وتضعف الجبهة المناهضة للاستعمار وتخدم مصالحه .

ولم يمنع هذا التطور الايجابى بعض زعماء جنوب الصحراء من التشكك فى مدى اخلاص الشمال العربى بتوجهاته نحوالقومية العربية ؛ لقضايا القارة وإيمانها بالوحدة الافريقية ؛ فنكروما عبر صراحة عام ١٩٥٨ عن تشككة فى دور مصر الافريقى بسبب تبنيها فكرة القومية العربية ، رغم علمه بدور الثورة المصرية العظيم فى دعم حركة التحرر الافريقية ؛ هى التى الهبت روح النضال واحدثت فى القارة تاثيرا لا يقل بحال عما احدثته الثورة الفرنسيه فى اوربا .

وعند أنشاء منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ ، انقسم الاعضاء الافريقيين حول انضمام دول الشمال العربية ؛ فقطاع من القادة الافريقيين طالب العرب بالإنسحاب من جامعة الدول العربية لتعارض تيار القومية العربية مع تيار الافريقانية ، منعا لانقسام ولاء الاعضاء ومنعا لانغماس المنظمة فى قضايا عروبية وغير افريقية على حساب قضايا القارة ، وانتصر فى النهاية التيار المطالب بإنضمام تسع دول عربية افريقية الى منظمة الوحدة الافريقية تشكل فى مجموعها ما يزيد على ثلثى الامة العربية وثلث سكان افريقيا .

والعالم العربى افريقى الهوية فحوالى ٧٨ % من مساحته و٧٣% من سكانه يقعوا فى افريقيا ، ويربط دوله الاسيوية فى جنوب الجزيرة روابط وعلاقات تاريخية وثيقة مع شرق افريقيا وحتى وسط القارة ممتدة الجذور ، وهو ما يجعل الدائرة العربية فى معظمها افريقية الملامح ، ومن المؤسف ان تاثير الجذور التغريبية ظلت تفرض ظلالها على توجهات البعض داخل المنظمة فكانوا حساسين من مناقشة موضوعات عربية صرفة داخل المنظمة ، بحجة تشتيت جهودها فى قضايا غير افريقية تزج بهم فى علاقات لا شأن لهم بها ، ويتحمل العرب جزءا من المسئولية فى تلك الحساسية ، بإصرارهم على الزج بالخلافات العربية الصرفة التى تخصهم فى المنظمة ، كمحاولة بعض الدول العربية الافريقية طرد مصر من عضوية المنظمة بعد كامب ديفيد ، وخلاف المغرب مع الجزائر حول مشكلة الجمهورية الصحراوية ذلك الخلاف الذى هدد كيان المنظمة ، والخلاف حول انعقاد القمة الافريقى فى طرابلس بسبب رفض رؤساء بعض الدول الذهاب الى ليبيا لخلافات معها ، وكانت المرة الاولى التى تفشل فيها المنظمة فى عقد قمتها السنوية .

وحاولت بعض الدول الغربية تأجيج الحساسية القديمة مستغلة تركيز صناديق التنمية لبعض الدول العربية تعاملها مع دول القارة الاسلامية دون غيرها ، موحية الى الدول الافريقية غير المسلمة بأن العرب يميزون فى تعاملهم مع دول القارة على اساس دينى لصالح الدول الاسلامية.

موبوتو والجامعة الافريقية السوداء

كان موبوتو بعدائه الصريح للعرب من اشد دعاة التفرقة بين شمال القارة وجنوبها ، فانتهز الخلاف المغربى الجزائرى عام ١٩٨٤ حول انضمام الجمهورية الصحراوية ، ليعلق عضوية بلاده داعيا لاقامة منظمة بديلة تقتصر عضويتها على دول جنوب الصحراء ، واستند فى تبرير دعوتة لاختلاف مشكلات دول جنوب الصحراء عن مشكلات الدول العربية شمال الصحراء ، التى فى رأية افسدت جو منظمة الوحدة بخلافاتها حول موضوعات كان من الممكن التعامل معها فى اطار الجامعة العربية وترك افريقيا للتركيز على مشكلاتها الخاصة ، وعلى رأسها مشكلة التفرقة العنصرية وناميبيا ؛ وموبوتو بدعواه تجاهل الاضرار التى يُلحقها استبعاد دول شمال القارة بقضايا افريقية الرئيسية وعلى رأسها قضية العنصرية ، فالدول العربية كانت اكثر دول افريقيا تشددا فى معارضة النظام جنوب افريقيا العنصرى بينما تراخت كثير من دول جنوب الصحراء فى تطبيق المقاطعة الجماعية الافريقية للنظام العنصرى وتعاملت معه بشكل او بأخر .

وباءت دعوة موبوتو بالفشل لتمسك الاعضاء بمنظمتهم التى اعتبروها افضل صيغ الوحدة التى امكن التوصل اليها ، واصبحت هذه المنظمة رمزا لنضال القارة ضد الاستعمار ؛ ورفضت دول القارة الثورية الاشتراكية دعوة موبوتا باعتبارها فكرة غربية استعمارية لا يخفى الغرض من ورائها ، وشاركتها فى معارضتها دول جنوب الصحراء الاسلامية .

٢) حساسية بعض القيادات الافريقية تجاه العمل الاسلامى

وامتدادا لجذور الانقسامية كانت هناك حساسية من العمل الاسلامى رغم ان اكثر من ثلثى افريقيا من المسلمين ، فيرى بعض القادة من غير المسلمين ذوى النوايا الحسنة اوغيرهم من القادة الذين ما زالوا لم ينفصلوا عن الاستعمار ويعملون فى خدمته ، يرون ان اقامة تكتلات اسلامية يؤدى لانقسام الهوية الافريقية للقارة بين مسلمين وغير مسلمين ، ويؤدى حتى الى إنقسام المجتمع الواحد فى دول الاقليات المسلمة ؛ وهو ما يهدد السلامة الاقليمية والوطنية ، فإنقسام المجتمع الواحد على اساس دينى يؤدى الى انصراف الولاء الوطنى للقطاع المسلم خارج حدود انتماءه الطبيعى للوطن وقضاياه ، ويصبح الامر خطيرا اذا ما انساق وراء قضايا هذه التكتلات التى تتعارض وقضايا الوطن وامنه .

وانا لنتفق معهم فى الشق الخاص بالاقليات ولا نتفق فى الشق الخاص بتكتل الدول ، فإنفصال الاقلية بتوجهاتهاعن توجهات بقية المجتمع أو الدولة الام يحمل الكثير من المخاطر للوضع الداخلى فى وحدته وسلامتة الوطنية ، خصوصا اذا ما تفرق هذا القطاع المسلم شيعا وأحزابا تتوزع ولاءاتها على دول اسلامية عدة تتنافر توجهاتها فيما بينها أو بينها وبين الدولة الام ؛ ويبلغ الخطر منتهاه اذا ما فكر القطاع المسلم فى الانفصال ، اما الشق الخاص بتكتل الدول فلا خطر من طالما يتعلق بقضاياها المشتركة وليس حشده ضد الاخر ، ففى العالم العربى تكتل دول الخليج لخدمة امنها الوطنى لظروفه الخاصة ، كما ان المغرب العربى لديه خطط شابهة ، وهناك اكثر من تكتل مشابه فى الشرق والغرب ، كما ان منظمة المؤتمر الاسلامى التى قامت بعد ذلك ضمت الدول الاسلامية من كل القارات بما فيها بعض دول الاقليات الاسلامية (كمراقبين) ، يعملون فى تعاون كامل لخدمة الاهداف المشتركة للجميع دون ان تهدد امن احد القومى .

ولكنا ايضا نتحفظ على استغلال بعض الدول الاسلامية الدين فى خدمة اهدافها السياسيه الضيقة من خلال عمل فردى ؛ وهذه السياسات النفعية تبدد جُهد وطاقات الشعوب الاسلامية فى عمل غير مُجد بعيدا عن مجال الحركه الحقيقية لخدمة الامة الاسلامية ، فالميدان السياسى المحدود بمصلحة دولة عادة ما يكون متقلب المزاج طبقا لتقلبات السياسة ومزاجها ، ونتيجتة النهائية خسارة محققة للامة الاسلامية الدعوة .

ومنذ السبعينيات هناك ؛ العديد من أوجه التعاون الناجح بين افريقيا ومنظمات اسلامية أصيلة كألمؤتمر الاسلامى بددت مخاوف المتخوفين ، فهى تضم فى عضويتها احدى وعشرون دولة من دول جنوب الصحراء البالغة خمسون كيانا ودولة.

ودول جنوب الصحراء الاعضاء هى من الدول الكبيرة التى تشكل معظم جنوب الصحراء اذا ما استثنينا الكيانات القزمية ، وهذه الدول هى اوغندا – بنين- بوركينافاسو- تشاد- توجو- السنغال- سيراليون- الصومال – الجابون – جامبيا – جويانا – غينيا – غينيا بيساو – القمر الاتحادية – الكاميرون – كوت دى فوار – مالى – موزمبيق – النيجر- نيجيريا الاتحادية - بالاضافة الى افريقيا الوسطى المراقب الوحيد علاوة على الاتحاد الافريقي (ملحق٢) ، كما تتعاون افريقيا مع كيان مسلم اخر هى جامعة الدول العربية ومع العديد من الدول المسلمة للدفاع فى أُطر دولية مختلفة عن قضايا العالم الاسلامى كالامم المتحدة وحركة عدم الانحياز

كقضية القدس وفلسطين ، ولم يلحظ احد ان هذا التعاون تهدد الامن الوطنى الافريقي بل على العكس استفاد منه وتعززت بفضله قضاياه التى تحصلت فيها عن دعم المنظمات الاسلامية غير الافريقية ، ولا ننسى الدلالات العظيمة التى يمثلها الموقف الافريقى الجماعى فى اطار تعاونه مع العالم العربى بالمبادرة بقطع العلاقات بين هذه الدول واسرائيل لعدوانها على مصر الدولة الافريقية الشقيقة .

٣) دعم المنظمات الغربية

للطائفية الاسلامية والفرق المنحرفة

تنشط العديد من منظمات الإغاثة الإنسانية الغربية بما فيها التبشيرية فى إفريقيا بصفة مستمرة ، لظروف الكوارث التى لا تنقطع عن القارة كالحروب والجفاف والقحط والتصحر والفقر والمرض والاوبئة والفيضانات الخ من ظروف صعبة ، وقد أتاحت هذه الظروف الفرصة أمام تلك المنظمات للتواجد بمناطق إسلامية ، ولكن الخطير هو ما تقوم به العديد من هذه المنظمات بأمور تخدم مخططات غامضة تتجاوز اعمال الاغاثة البحته ، تستثير بمحتواها المعادى للاسلام حساسية وتوتر المجتمع المسلم ، وهذه المخططات للعارفين والخبراء تمتد جذورها فى عمق مخططات قديمة للاستعمار ، وهى مخططات حية لا تموت تسعى وراء كل الفرص للاضرار بالاسلام بوجوه مختلفة حتى وان استخدمت احتياجات الانسان المسلم الفقير ، والامه فى الحروب ، والمنحرفين من دعاته.

فالنزاعات الداخلية فى الدول المسلمة تترصدها منظمات وجماعات اجنبية غريبة من كل الانتماءات ، تستعدى طرف على اخر تأجيجا للعرقية والطائفية والانفصالية ، وهى إفات تنخُر فى كيان هذه المجتمعات وتدمر قيم اخوة الاسلام عانى منها المسلمون دائما ، وينساقون ورائها بوعى او بدون وعى ، ويتحمل مسلمى هذه الدول قيادة وقبائل قبل غيرهم مسئولية ذلك وابرز مثل ما يحدث فى دارفور الذى تفجرت فيه النزعات العرقية بين المسلمين بفعل التدخلات الاجنبية التى اطالت امد النزاع ومعاناة اهله لصالح فئة قليلة من الناس من ابنائة ومن الخارج ، دفع ثمنها اهل الاقليم قبل غيرهم .

والمذاهب المنحرفة عن الاسلام لها تاريخ فى تقويض العقيدة بين البسطاء من المسلمين ، يدمغها تاريخ طويل من التعاون ان لم يكن من التبعية مع الاستعمار ، فالاحمدية إستغلت سطحية فهم الشعوب الافريقيه المسلمة لاصول الدين للتغلغل بينهم بكل الاغراءات لاحداث الانقسام والفتنة حول موضوعات تافهة لا قيمة لها ولا طائل من ورائها سوى تبديد طاقات الامة ، واموال هذه الطوائف الضخمة تفضح انتماءاتها ومن ورائها واهدافها .

٤) الوضع المتردى للمجتمعات الاسلامية

من اصعب الامور التى تواجه المسلمين دولا واقليات فى افريقيا هى تردى اوضاعهم فقرا وتخلفا ، وانتزاعهم من واقعهم المرير عبء كبير على من يتصدى له ، فمجتمعات الاسلام فى افريقيا جنوب الصحراء تضم أكثر من ١٢٠ مليون مسلم من دول واقليات طحنها التخلف والفقر ، يتطلعون من منطلق الاخوة الاسلامية لدول الاسلام المركزية لمساعدتهم ، وقد يكون مناسبا ان تخصص دول الاسلام الكبرى نسبة سنوية من دخلها القومى للعمل الاسلامى ، للنهوض بهذه الدول والاقليات ، هم الافقر بين دول الصحراء وجنوبها.

فالاقليات تتدنى اوضاعها داخل اوطانها بمرور الوقت لسو تأهيلها الثقافى والاقتصادى والاجتماعى الناتجة عن افرازات عهد الاستعمار، وينعكس هذا الوضع الضعيف على التوازن الوطنى للاسلام فى وطنه فيُحرم اهله من الفرص وانقطاع الامل فيصبحون عرضة لمخاطر التطرف والاستقطاب وينقسم ولاء قطاعات منهم بعيدا عن الاعتدال الدينى وحدود الولاء الطبيعى لاوطانها ؛ او تستغلها زعامات جامدة تتقمص لباس الدين تستغلها لمصالح خاصة وتعرقل بجهلها تطورها ، ويزيد الامر صعوبة قلة عدد المنظمات الاسلامية وميزانياتها الضعيفة المخصصة لخدمة العمل الاسلامى ، التى تغطى عدد من المنح الدراسية وبناء القليل من المدارس والمساجد وبعض عمليات الاغاثة .

٥) المشاعر السلبية للشعوب الافريقية
ضد الاقليات العربية المتوطنة

يستثير ثراء الاقليات العربية ومركزهم الاجتماعى المتميز وتميزهم الثقافى الذى قربهم من الحكام ، يستثير حسد المجتمع الافريقى من هؤلاء الغرباء البيض الذين جاءوا فقراء وكونوا ثرواتهم فى بلادهم ويتسيدونهم ، ففى غرب افريقيا جاليات لبنانية كبيرة وثرية ، ترى قطاعات المجتمع الافريقى فى ثرائها استغلالا اقتصاديا تستثير لدية ذكريات الماضى الاستعمارى واستغلاله للبلاد و ثرواتها دون ان يعود ذلك بالمنفعة على شعبها ، برغم ما تقوم به هذه الاقليات النافذة فى الاقتصاد من دور هام فى خدمة النشاط الاقتصادى للدولة ، وعادة ما تكون هذه الجاليات محل تنكيل فى حالات الفوضى السياسية التى تتعرض لها الدول الحاضنة مثال ما حدث فى غانا أثناء الانقلاب الاول لـ رولنجز عام ١٩٧٩ ، وفى سيراليون عده مرات فى النصف الاول من القرن الماضى ، وفى ليبيريا وساحل العاج والتوجو ، وتعى هذه الجاليات تلك المخاطر وتتحوط لها بنقل ثرواتها اول بأول خارج البلاد وهو ما يؤثر بالسالب على التطور الاقتصادى للدولة الافريقية نتيجة حرمان اقتصادها من اعادة تدوير هذه الاستثمارات داخلها .
ويجب على هذه الجاليات بمساعدة من الدول العربية التعاون مع الدولة الام لاحتواء هذه السلبيات باعداد خطة للمساهمة فى مساعدة الدول الافريقية الحاضنة فى اطار صناديق التنمية أو صندوق ابناء المهجر العربى الافريقى تتولى المساهمه فى المشروعات التنموية بالدول التى استقروا بها وهو اجراء يعزز وضعية هذه الجاليات و يخفف من استهدافها .

دور الدول الافريقية فى العمل الاسلامى
دول الاغلبية المسلمة

هى شريك أصيل فى العمل الاسلامى من منطلق انتمائها للاسلام وعضويتها فى منظمات العمل الاسلامى ، ويمكن التعاون والتنسيق معها فى الاطارين الثنائى والجماعى لخدمة القضايا الاسلامية أقليميا ودوليا ؛ ومن هذه الدول السنغال وغينيا ومالى والنيجر وسيراليون وتشاد ؛ فهذه الدول قادرة على تفهم أهداف الدائرة الاسلامية والعمل فى خدمتها .

دول اسلامية خاضعة لسلطه غير اسلامية

وهذه الحالة الخاصة لم تعد سائدة حاليا فى كثير من دول الاغلبية المسلمة الا فى نيجيريا السنغال وسيراليون وكينيا وتنزانيا ، وإنما ممكن حدوثها فى ظل الديمقراطية والانقلابات التى تأتى بروٴساء من اى عرق ودين الى السلطة فى دول الكثافة الاسلامية ؛ ومثل هذه الدول يجب التعامل معها من المنطلق الافريقى فوجود سلطة غير اسلامية يحد من قدرة هذه الدول على المساهمة الفعالة فى العمل الاسلامى لانعدام الحماس العاطفى لقضايا الاسلام لدى قياداتها ؛ فيسهل التاثير عليها واستقطابها من قبل القوى الخارجية المعادية للعمل الاسلامى ، فعند الاستقلال سلم الاستعمار قياد البلاد لقيادات غير اسلامية فى بلاد اغلبيتها من المسلمين مثل ، فجاء بـ " سنجور" فى السنغال ، و "سياكا ستيفنز" فى سيراليون و " فرانسوا تيبنى " فى تشاد ، وانعكست غربتهم عن الاغلبية والاسلام على سياسة البلاد خاصة فى قضية محورية اجتمع عليها كل المسلمون وهى عدم اقامة علاقات مع اسرائيل .
فـ " سنجور" كانت له علاقات قوية بإسرائيل التى كان لها فى عهده نفوذ كبير فى السنغال ، فاقامت عام ١٩٦٣ (فى عهده) منظمة الشبيبة السنغالية على غرار منظمة النحال (٣٥١) ، و" سياكا ستيفنز" ابتعد بسيراليون عن العمل الاسلامى لصداقته القوية بأسرائيل والغرب و " فرانسوا تيبنى " فى تشاد الذى اعتراف بإسرائيل عام ١٩٦٣ ، متجاهلا انتماءات وهوية الاغلبية من شعبه ، وقام اثر مقابلة جافة من وزير الخارجية المسلم للسفير الاسرائيلى المعين لاول مرة عام ١٩٦٣ ، بطرد جميع الوزراء المسلمين من الحكومة (٨ وزراء من بينهم وزير العدل ووزير الدولة) ، وطرد رئيس الجمعية الوطنية ، وامر بإعتقال قاضى القضاة ونفيه ومصادرة امواله بحجة انه من غير سكان البلاد الاصليين ، وكانت التهمة المدان بها الجميع هو تهييج الوزراء

---

[٣٥١])- نعيم قداح ـ افريقيا الغربية فى ظل الاسلام .

المسلمين ضد السفير الاسرائيلى (٣٥٢) .

ويجب التعامل مع مثل هذه القيادات عند التعامل مع قضايا الدائرة الاسلامية من منطلق افريقى ، وفى الوقت نفسه توثيق التعاون مع القواعد الشعبية لاسخدام رأيها العام للضغط لتحييد العداءات المحتملة للعمل الاسلامى وقضاياه ، ويعن لنا الاشارة الى ان بعض القيادات المسيحية ذات الجذور المسلمة مثل مومو رئيس سيراليون الاسبق (فى الثمانينيات) ، كان يسهل تجاوبها مع القضايا الاسلامية لموروثه العاطفى تجاهها ، بينما لا يمكن استقطاب قيادات لا انتماء لها مع لاسلام الى قضاياه ، على نحو ما اوردناه فى حالات " سنجور" و " سياكا ستيفنز" و " فرانسوا تيبنى "، فتأثير الارتباط العاطفى بالاسلام للقيادات ذات الاصل المسلم جرد الرئيس مومو من عداء العمل الاسلامى او قضايا عالمه عند معالجة القضايا الاسلامية ، ومثله الرئيس عبده ضيوف فى السنغال وهو كاثوليكى من اصل مسلم متزوج بمسلمة لبنانية.

دول غير اسلامية خاضعة لقيادة مسلمة

ويتم التعاون معها فى اطار الدائرة الافريقية وبُعدها الاسلامى فلا حساسية لقيادتها فى التعامل من هذا المنحى ، مثال الجابون فى ظل حكم عمر بونجو واوغندا فى عهد عيدى أمين .

دول غير اسلامية او بها اقلية مسلمة كبيرة

ويتم التعامل معها من خلال الاطار الافريقى ، اما الدول غير الاسلامية ذات اقلية مسلمة كبيرة مثل تنزانيا وكينيا واوغندا فالتعاون مع هذه الدول لخدمة قضايا الدائرة الاسلامية يتم فى الاطار الافريقى الثنائى والاسلامى الجماعي ومن خلال التعاون العربى / الافريقى وبمساعدة زعماء الاقلية الاسلامية .

---

[٣٥٢]) نعيم قداح ـ افريقيا الغربية فى ظل الاسلام .

خلاصات عامة

لو قدر لمد الاسلام أن يتأخر فى الوصول الى شمال افريقيا لتأخر بالتبعية مده قرونا أخرى الى جنوب الصحراء ، ولتأخرايضا دخول المنطقة دائرة الحضارة ، وكانت نواة مده الفعالة مجتمعات الاسلام الصغيرة التى أسسها تجار الاسلام وركيزته الاساسية فى نشر مكونات حضارته وإتساع دائرته بدخول ممالك الاقليم الاسلام وإجتذبهم المهاجرين والمعلمين والموظفين والعلماء.

أثبتت مجتمعات الاسلام صلابتها وتحديها لمخططات إمتصاصها وتخريب هويتها التى قام بها الاستعمار ؛ وهذه طبيعة الاقليات الدينية الاسلامية التى عادة ما تستميت من منطلق ايمانى فى المحافظة على هويتها ، فاحساس الاقلية بخطر الاجتياح فى وقت تعتز فيه بهويتها يعزز تماسكها.

اتسعت دائرة الجهاد فى عصر كانت سُنته الفتح والتوسع من قبل كل القوى الدولية المعاصرة ، ولم يكن توسع ممالك الاسلام استثناء من ذلك لكنها اسبغت عليه ظلالا من الدين ، فإمتطى صهوة الفتح فى زمن كانت فيه الارض واحة فضفاضة ومفتوحة تتحرك فيها القبائل بحرية بلا حدود توقفها ولاسلطان يتملكها.

ان الاسلام فى مده السلمى على متن التجارة وفى ركب القبائل حقق مدا بعد مد ؛ فإجتازوا الصحارى وعبروا الغابات التى عجز المجاهدون عن اجتيازها ، و يُثبت هذا أن الاسلام بذاته وجوهره هو وحده المجاهد الاعظم ويبطل الفرية القائلة بأنتشاره بحد السيف ؛ فالسيف لا يخيف المؤمنين حقا فلم يُحارب الاسلام دينا سماويا ولا وثنيا وانما دعى الناس الى الله فمن قبل قبل ومن رفض فهو امن على نفسه وفكره ، وما حدث ويحدث بين اتباع الاسلام والمسيحية ليس صراعا بين اعقيدتين ، وانما صدام سلوكيات التابعين ، عبؤها باهوائهم ومصالحهم الضيقة مستغلين الدين والتعصب له لخدمتها .

ان الهوية الدينية لبعض دول القارة تتغير فى اتجاه الهوية الاسلامية امع استمرار مد الاسلام الهادئ ، وأبرز مثال على ذلك " اثيوبيا " التى تشير الاحصائيات الى تزايد اعداد مسلميها الى نسبة ٧٠% وكينيا مثلها .

أن العمل الاسلامى فى افريقيا يتجاوز مقدره أى دولة اسلامية منفردة ويقتضى الامر تعاون وثيق بين دول عالمه ، بتخصيص نسبه من الدخل القومى للدول الاسلامية الرئيسية ، وبتخصيص عدد مناسب من المنح للاقليات لدراسة العلوم التطبيقية لفتح الطريق امامها للترقى وتحقيق التوازن الوطنى ، بتمكينهم من الحصول على الوظائف العالية والنمو الاجتماعى والاقتصادى .

الخلاصـــة

ان مد الاسلام لم يتوقف ولن يتوقف فى افريقيا سيصمد امام محاولات النيل منه ، ككين ان يسترشدوا بنتائج الدراسات والبيانات اللاحقة رغم انها تُعبر فقط عن جزء من الحقيقة الساطعة .

بيانات المد الجغرافى للاسلام

اوردنا مضمون بحث البروفيسور فرنسوا جورج دريفوس عن الديانات فى افريقيا وعدد من تعليقاته ، وكذلك مجموعة خرائط متعلقة بنسبة المسلمين فى الدول الافريقية وتبين انتشار الاسلام الجغرافى فى العالم ، واود التوضيح بوجود تضارب بين بيانات الباحثين وخرائطهم ، لكنها لا تُخفى حقائق ساطعة لا يمكن اخفائها يحاول الغربييون إخفائها او لا يعرفونها على وجه الحقيقة وهو ما لاحظناه فى الاتى :

١-اغفل البروفيسور فرنسوا جورج دريفوس تضمين جدوله البيانات المتعلقة بتنزانيا رغم اغلبيتها المسلمة الساطعة ونفس الشئ بالنسبة لكينيا التى تضم اغلبية كبيرة من المسلمين العرب والصوماليين ؛ وهى بيانات ترجع الى تسعينيات القرن الماضى ، وبالتأكيد بعد مرور اكثر من عشر سنوات تقريبا فلابد وان تكون قد تجاوزت ارقامه الاعداد الفعلية الا انه فى ظل عدم افصاح الدول عن حقيقة اعداد المسلمين خوفا او هروبا من اعطائهم حقوقهم فى التوازن الوطنى ، فهذه الارقام تبقى مؤشرا يُعتد به لاظهار الاتجاه العام لمد الاسلام .

٢- وجود هوة فى بيانات الخريطة رقم (١) عن انتشار الاسلام فى افريقيا ، فتذكر على سبيل المثال ان المسلمون يتراوحون ما بين ٤١الى ٨٠ % وهى هوة واسعة ، ولا تقدم مؤشرا دالا عن الوضع .

٣- الخريطة رقم (٢) عن الاسلام فى العالم ، اغفلت الوجود الاسلامى فى الهند واثيوبيا ، رغم ان السلمون كتلة كبيرة تصل ٢٠% من السكان فى الاولى ، واغلبية فى الاخيرة .. على نحو ما افادت الاحصاءات .

٤- الخريطة رقم (٣) عن العالم الاسلامى اخطأت فيما يتعلق بباكستان وهى الدولة المسلمة فجعلتها ذات اقلية مسلمة تصل فيها نسبتهم الى ٢٥% .

بيانات تقريبية لتوزيع الديانات في جنوب الصحراء

الدولة	السكان (مليون نسمة)	إحيائيون %	مسلمون %	كاثوليك %	بروتستانت تاريخيون %	إنجيليون %

كوت ديفوار	٨	٣٥	٣٥	١٥	٩	٦
بوركينا فاسو	١٣	٢٠	٥٠	١٠	١٠	١٠
توجو	٥	٣٥	١٥	٢٥	١٥	١٠
غينيا	١٠	٥	٨٥	٥	٢	٣
غانا	٢٥	٢٠	١٠	٢٠	٢٠	٣٠
نيجيريا	١٥٠	٣٠	٤٠	٢٠	٥	٥
بنين	٧	٢٠	٢٥	٣٠	١٠	١٥
إثيوبيا	٧٥	-	٤٥	٤٠ أرثوذكس	٥	١٠
كينيا	٣٥	٣٥	٢٠	١٥	١٥	١٥
الكاميرون	١٦	٣٠	٢٥	٢٠	١٥	١٠
الجابون	١,٥	٣٠	٥	٤٠	١٠	١٥
الكونغو الديمقراطية	٧٢	٣٥	-	٤٠	١٠	١٥

أوغنـــــدا	٢٧	١٥	١٥	٣٥	٢٠	١٥
أنجــــولا	١٣	٢٥	-	٤٠	١٥	٢٠
زامبيـــــا	٥	٢٠	٥	٤٥	١٠	٢٠
بتسوانـــا	٢	٤٠	١٠	١٠	٢٠	٢٠
مـــالاوي	١١	٢٠	٥	٣٥	٢٥	١٥
موزمبيق	٢٠	٥٠	١٠	١٥	١٠	١٥
مدغشقر	١٨	٣٠	-	٣٠	٢٥	١٥
جنوب إفريقيا	٨	٢٤	١	٢٥	٣٥	١٥
الكونغــــو	٩	٥٠	-	٢٥	١٠	١٥

ولاستكمال فهم فكر المؤلف فيما يلى مقتطفات من بحث البروفيسور فرنسوا جورج دريفوس الأستاذ بجامعة السوربون ومدير مركز الدراسات الألمانية ومعهد الدراسات الأوروبية العليا ورئيس معهد الدراسات السياسية في ستراسبورج سابقا ، وتعليقاته على بيانات جدوله عن الديانات الطبيعية ويصفها هو بالاحيائية :

الإحيائية: ينظر الأنثروبولوجيون إلى الإحيائية (أو الأرواحية) على أنها الدين التقليدي في إفريقيا ، والإحيائية هي ديانة تضمينية شاملة تقوم على الاعتقاد بوجود نفس أو روح (anima باللاتينية) في كل ما له مظهر مادي مفرد سواء كان بشرا أو حيوانا، نباتا أو جمادا ، فالإحيائيون ينسبون روحا لكل الظواهر الطبيعية ومن عادة الشعوب الإحيائية قبول المعتقد الديني الجديد بعد توفيقه مع معتقداتهم القديمة التى تنصهر فيها الديانات فى اطار من وحدة الوجود ؛ وإذا كانت هناك اختلافات فى الشعائر

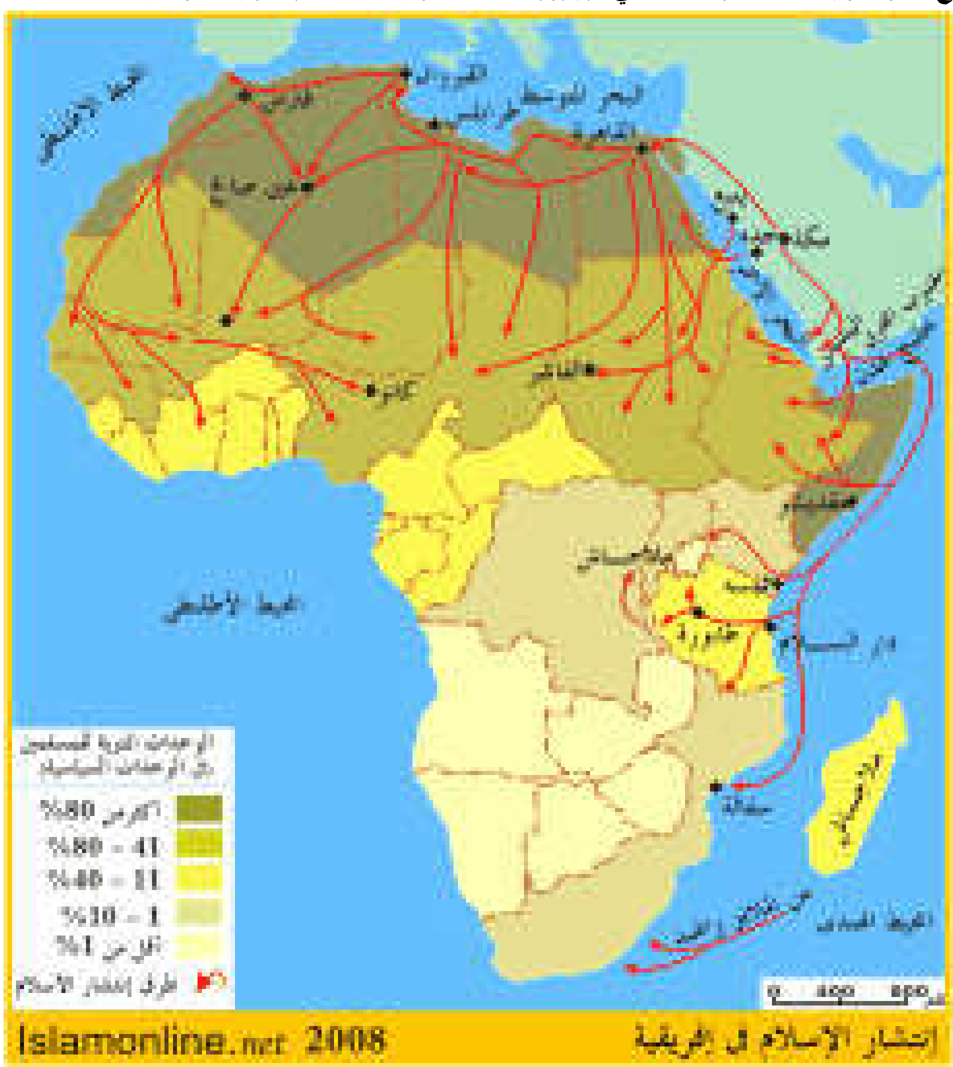
والتطبيقات بين الإثنيات والقبائل فإن جوهر الروحانية ، يبقى هو نفسه عند الجميع .

تعليقاته عن المد الاسلامى

" ...... و يغفل البعض هذا الثقل الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء ؛ فعلى الرغم من وجود مستعمر مسيحي بالدرجة الأولى فإن الإسلام لم يكف عن التطور منذ قرن في إفريقيا فأصبح هو الغالب في السنغال وغينيا ونيجيريا وحتى في إثيوبيا، بفضل حملات الطرق الصوفية (هي ممارسات متسامحة وتقية للإسلام) التي عملت على ترسيخ الإسلام بقوة في غرب إفريقيا " ، ويستطرد قائلا " .. وزادت فرق الصوفية في الفترة بين ١٩٠٦ و١٩٩٦ في إفريقيا الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، رغم تعرضهم لضربات قوية ، وبما أنهم يمثلون الأغلبية في دول مثل السنغال وبوركينا فاسو ومالي وغينيا فقد كانوا عنصر استقرار هناك ، ونجحوا في التأقلم مع الهجوم الذي تشنه النخبة ذات الميول الغربية، وساهمت هذه الفرق في تطوير إسلام معتدل أصبح اليوم موضع اتهامات حادة في الأوساط المسلمة التقليدية .... ".

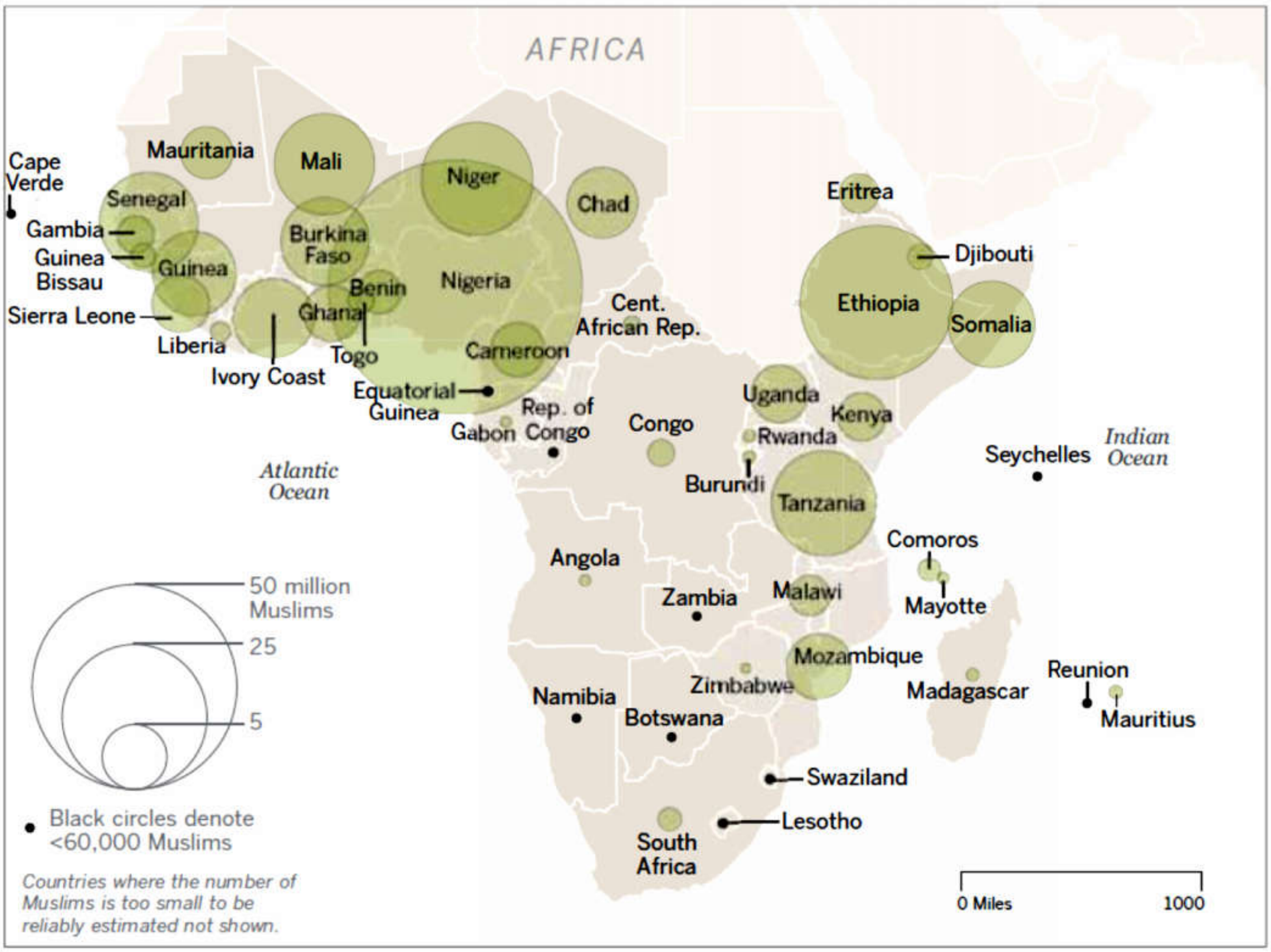
يذكر ان إثيوبيا وإريتريا صاحبتا أغلبية مسلمة ، ويؤكد على ان نسبة المسيحيين في إريتريا حوالي ٢٠ الى ٢٥% من إجمالي السكان والبقية من المسلمين ، وعن نيجيريا يناقض نفسه ففى الفقرة السابقة يقول ان الاسلام هو الغالب فيها ، وفى موضع اخر يقول انهم لا يمثلون سوى ٤٠% ثم يعود فى نفس الفقرة ليقول انهم الاغلبية فتقول الفقرة " وفي الدول التي يسود فيها الإسلام يكون الوضع أكثر حرجا مثلما هو الحال في نيجيريا؛ فالمسلمون هناك لا يمثلون أكثر من ٤٠% من الشعب ولكن الظاهر أنهم يشكلون الأغلبية (لم يستطع ان يخفى الحقيقة كونهم يتجاوزون الاغلبية اى ٥٠% .

مجموعة خرائط بالتوزيع النسبى والجغرافى والعددى للمسلمين فى افريقيا مد الاسلام فى افريقيا :



Sub-Saharan Africa is also home to a number of countries that have very large Muslim majorities. Countries with the highest percentages of Muslim populations are: Mauritania (99%), Niger (99%), Somalia (99%), Mayotte (98%), Comoros (98%), Djibouti (97%), Senegal (96%), Gambia (95%), Mali (93%), Guinea (84%) and Sierra Leone (71%). The combined Muslim population of all these countries is about 67 million, or about 4% of the global Muslim population.

Distribution of Muslim Population in Sub-Saharan Africa



Pew Research Center's Forum on Religion & Public Life • *Mapping the Global Muslim Population, October 2009*

نسبة المسلمون فى موريتانيا ٩٩%- نيجر ٩٩%- الصومال ٩٩% – مايوت ٩٨% – جزر القمر ٩٨%- جيبوتى ٩٧% – السنغال٩٦%- جامبيا ٩٥% – مالى٩٣%- غينيا٨٤%

World Muslim Populati

بيان بتوزيع مسلمي جنوب الصحراء

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population	Source and Year
Sub-Saharan Africa	240,632,000	30.1%	15.3%	
Angola*	190,000	~1	<1	Pew Global 2002
Benin	2,182,000	24.4	0.1	Census 2002
Botswana	8,000	0.4	<0.1	Census 2001
Burkina Faso	9,292,000	59.0	0.6	DHS 2003
Burundi*	180,000	~2	<1	InterMedia 2007
Cameroon	3,498,000	17.9	0.2	DHS 2004
Cape Verde*	1,000	<1	<1	AfroB 2005
Central African Republic	395,000	8.9	<0.1	DHS 1995
Chad	6,257,000	55.8	0.4	DHS 2004
Comoros	664,000	98.3	<0.1	WRD 2005
Congo	943,000	1.4	0.1	DHS 2007
Djibouti	838,000	96.9	0.1	WRD 2005
Equatorial Guinea	27,000	4.0	<0.1	WRD 2005
Eritrea	1,854,000	36.5	0.1	DHS 2002
Ethiopia	28,063,000	33.9	1.8	Census 2007
Gabon	140,000	9.5	0.1	DHS 2000
Gambia*	1,625,000	~95	<1	InterMedia 2004
Ghana	3,787,000	15.9	0.2	Census 2000
Guinea	8,502,000	84.4	0.5	DHS 2005
Guinea Bissau	680,000	42.2	<0.1	WRD 2005
Ivory Coast	7,745,000	36.7	0.5	DHS 2005
Kenya	2,793,000	7.0	0.2	DHS 2003
Lesotho	1,000	<0.1	<0.1	WRD 2005
Liberia	483,000	12.2	<0.1	Census 2008
Madagascar	215,000	1.1	<0.1	DHS 2004
Malawi	1,955,000	12.8	0.1	Census 1998
Mali	12,040,000	92.5	0.8	DHS 2006
Mauritania	3,261,000	99.1	0.2	WRD 2005
Mauritius	214,000	16.6	<0.1	Census 2000
Mayotte	191,000	98.4	<0.1	WRD 2005
Mozambique	5,224,000	22.8	0.3	DHS 2003
Namibia	8,000	0.4	<0.1	WRD 2005
Niger	15,075,000	98.6	1.0	DHS 2006
Nigeria	78,056,000	50.4	5.0	DHS 2003
Republic of Congo	59,000	1.6	<0.1	DHS 2005
Reunion	34,000	4.2	<0.1	WRD 2005
Rwanda	182,000	1.8	<0.1	Census 2002
Sao Tome and Principe	--	<0.1	--	WRD 2005
Senegal	12,028,000	96.0	0.8	DHS 2006
Seychelles	1,000	1.1	<0.1	Census 2002

World Muslim Population (cont.)

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population	Source and Year
Sierra Leone	4,059,000	71.3	0.3	Census 2004
Somalia	8,995,000	98.5	0.6	WRD 2005
South Africa	731,000	1.5	<0.1	Census 2001
St. Helena	--	<0.1	--	Census 1987
Swaziland	2,000	0.2	<0.1	DHS 2006
Tanzania	13,218,000	30.2	0.8	DHS 2004
Togo	809,000	12.2	0.1	DHS 1998
Uganda	3,958,000	12.1	0.3	Census 2002
Zambia	58,000	0.4	<0.1	Census 2000
Zimbabwe	109,000	0.9	<0.1	DHS 2006

يلاحظ عدم توحيد سنة القياس (فالتوجو عام ١٩٩٨ ونيجيريا عام ٢٠٠٣ الخ .. وحتى ٢٠٠٧ فى بقية الدول واذا اخذنا فى الحسبان ارتفاع نسبة المواليد بين الافارقة فالعدد اكبر مما ورد فى البيانات عاليه ، كما تكشف الحقائق ارتفاع نسبة المسلمون فى موزمبيق واوغندا وفى ساحل العاج والاخيرة بوجه خاص تُظهرانتخابات عام ٢٠١٠ ان نسبة ٥٤% التى حصل عليها الحسن واترا مرشح الرئاسة حصل على معظمها من المسلمين وبالتالى فنسبتهم اعلى مما هو مُشار اليه فى الجدول السابق .

اكبر دول جنوب الصحراء اسلاما وعددها خمسون

Sub-Saharan Africa (50 countries and territories)

Sub-Saharan Africa has about 241 million Muslims, which is about 15% of the world Muslim population. Nigeria has the largest Muslim population in Sub-Saharan Africa, with about 78 million Muslims (about 50% of Nigeria's total population). Almost one-in-three Muslims (about 32%) in Sub-Saharan Africa live in Nigeria. Western Africa is the only area in Sub-Saharan Africa with a Muslim majority. In contrast, the southern part of Africa has the smallest Muslim population.

Countries in Sub-Saharan Africa with the Largest Number of Muslims

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population
Nigeria	78,056,000	50.4%	5.0%
Ethiopia	28,063,000	33.9	1.8
Niger	15,075,000	98.6	1.0
Tanzania	13,218,000	30.2	0.8
Mali	12,040,000	92.5	0.8
Senegal	12,028,000	96.0	0.8
Burkina Faso	9,292,000	59.0	0.6
Somalia	8,995,000	98.5	0.6
Guinea	8,502,000	84.4	0.5
Ivory Coast	7,745,000	36.7	0.5
Rest of region	47,618,000	11.3	3.0
Regional Total	240,632,000	30.1	15.3
World Total	1,571,198,000	22.9	100.0

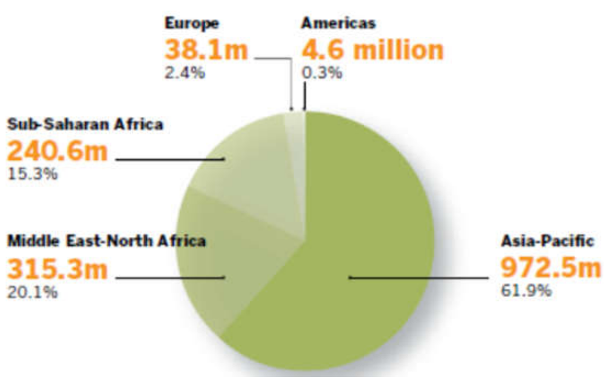
Note: Figures may not sum to totals due to rounding.

Pew Research Center's Forum on Religion & Public Life • *Mapping the Global Muslim Population, October 2009*

نسبة المسلمون بجنوب الصحراء مقارنة باقاليم العالم

Muslim Population by Region

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population
Asia-Pacific	972,537,000	24.1%	61.9%
Middle East-North Africa	315,322,000	91.2	20.1
Sub-Saharan Africa	240,632,000	30.1	15.3
Europe	38,112,000	5.2	2.4
Americas	4,596,000	0.5	0.3
World Total	1,571,198,000	22.9	100.0



المصدر

MAPPING THE GLOBAL MUSLIM POPULATION

A Report on the Size and Distribution of the World's Muslim Population

October 2009

ملاحـــــــــــــق
الكتـــــــــــــــــاب

ملحق الحواشى
(١)المشروع الصهيوني لتفتيت الأقطار العربية
بعضا من ندوات المركز الاخيرة:

١ - ندوة حول التركيبة السكانية لدول المغرب العربي ، وهى تسعى للتوصل لإمكانية اختراقها وبث الانفصالية فيها على غرار ما حدث فى شمال العراق وجنوب السودان ، وقد دُعى الي الندوة ١٨ شخصية أمازيغية مغربية ، كما تم عقد ندوة حول مشكلة الأمازيغ في دول المغرب فى الجزائر والمغرب .

٢ - ندوة بعنوان " تقويض الدولة والمجتمع في العالم العربي" غطت الدراسة معظم دول المشرق العربى ومنطقة المغرب ومصر والسودان والعراق وسوريا والمملكة السعودية واليمن، الجزائر والمغرب والجماهيريةالليبية

٣ - ندوة حول حركات التمرد في الدول العربية الحاضنة للجماعات الأثنية والطائفية الحالتين (العراقية والسودانية) وغيرها من حالات يمكن أن تنتج وتولّد توجهات مماثلة.

٤ - ليبيا - المواجهة بين تيارين الأصولية والوطنية وتطورات المستقبل ، تحديات التقسيم والتشطير على غرار الحالة السودانية .

٥ - الدول العربية الصراعات الداخلية والانزلاق إلى التفتيت(السودان - العراق اليمن الصومال ولبنان).

أنجز المركز مئات الأبحاث منذ ستينات القرن الماضي تمحورت حول الجماعات الأثنية والطائفية في العالم العربي التى يمكن تفكيكها في نطاق نظرية إضعاف العدو وتفتيته مجتمعيا وبشريا ، بما يؤدى محصلته النهائية الى تعظيم عناصر القوة في الجانب" الإسرائيلى حسب المنطق الذى ظلّ يردده دافيد بن جوريون أول رئيس لحكومة إسرائيلية عندما عرض عليه مستشاره للشؤون العربية أوري لوبراني مهندس مشروع تقسيم الأقطار العربية مشروعه فى هذا الشأن.

ويستند النشاط الاسرائيلى فى تفتيت المجتمعات والدول من الداخل الى دعامتين:

١- الأولى إثارة الفتن وتأجيج حالات التمرد والصراع داخل المجتمعات العربية.

٢ - التحالف مع الجماعات الأثنية والطائفية ودعمها لتكثيف نشاطها الانفصالى.

تأسس المركزعام ١٩٥٩ بتعليمات من رؤوفين شيلواح مؤسس الموساد ورئيسه لإنشاء مركز لدراسة العالم العربي ، وقد تسمى المركز بإسم شيلواح ، وتم ربطه ظاهريا بجمعية الاستشراق" الإسرائيلية" ثم ربط في عام ١٩٦٥ بجامعة تل أبيب .

وفى البداية تكون المركز من أقسام مصر والعراق وسوريا وتركزت أبحاثه على إعداد المشاريع البحثية الأساسية وغلب عليها الطابع المعلوماتي ثم التحليلي لصالح الموساد ، وكان هو مركز الأبحاث الوحيد في" إسرائيل" حتى حرب يونيوعام ١٩٦٧ ، فكان التعويل عليه كبيرا في صناعة القرار الأمني ، وفي عام ١٩٨٣ تم تغيير اسمه ليصبح معهد ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا ، وعلى إثر ذلك وبشكل تلقائي تمّ توسيع نشاطه وأقسامه البحثية وتطوير بنيته الأرشيفية المعلوماتية.

كان أول مسؤول في إدارة المركز هو البروفيسور (شمعون شامير) المسؤل عن قسم مصر فى المركز والذي أسندت إليه مهمة تغطية مجمل الأوضاع المصرية العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل شنّ حرب يونيو ١٩٦٧ ، وبعد كامب ديفيد عُين شامير مديرا للمركز الأكاديمي في القاهرة ثم سفيرا لإسرائيل فيها .

وهو يُعتبر واضع سياسة "تحييد دور مصر من ساحة المواجهة" فى عهد أنور السادات .

كرّس المركز منذ البداية الجهد والوقت لدراسة أوضاع عدد من الدول العربية التي تعيش فيها جماعات أثنية وطائفية ومذهبية لتقدّم إلى الموساد توصيات واستخلاصات تفيد في جهود عمليات اختراق تلك الجماعات ، وقد اسهمت دراسات المركز في تمهيد التحرك الإسرائيلي في كردستان العراق وجنوب السودان بنسج علاقات بحركة التمرد الكردية بقيادة البرزاني الأب ثم الابن وحركة التمرد في جنوب السودان برئاسة جون جرانج منذ سبعينات القرن الماضي.

ورغم وجود بؤر اخرى محط اهتمام المركز مثل لبنان وسوريا ومصر لكنّ التأكيد جرى انذاك على البؤرتين العراقية

والسودانية بوصفهما "بؤرتين مختمرتين لإنجاز عملية التفتيت" بعد فشل الجهود فى البؤرة اللبنانية على إثر اندلاع الحرب الأهلية في عام ١٩٧٥.

ومنطقة المغرب العربي من أولويات نشاط المركز بإيعاز من عدّة هيئات أمنية إسرائيلية ، وعلى ضوء هذا التكليف بدأ مركز ديان منذ عام ٢٠٠٥ بأنشطة وسلسلة من الدراسات والأبحاث والندوات عن أوضاع المنطقة تصب كلّها في خدمة المشروع التفتيتي "الإسرائيلي" يلخصها الباحث العربي من الداخل الدكتور علي سلمان.

١- إعداد سلسلة من الأبحاث والدراسات والندوات وورش البحث عن المغرب.

٢ - الاستقطاب داخل ليبيا بين نظام القذافي القومي والبرجماتي وبين الاصولية.

٣ - الشرق الليبي وحركة تحرير التبو هل هي بداية التمرد على غرار حركات التمرد في جنوب السودان ودارفور؟.

٤- ماذا ومن بعد القذافي ؟

٥- هل تواجه ليبيا تحديات داخلية من دول الجوار؟

٦- تعثر النظام السياسي في الجزائر.

٧ - المشكلة الأمازيغية في المغرب والجزائر أبعادها وتطوراتها المحتملة.

٨ - العلاقة التاريخية بين اليهود والأمازيغ في منطقة شمال إفريقيا.

وحول المشكلة الامازيغية يعمل المركز :

١ - إقامة لجان صداقة أمازيغية "إسرائيلية "في كل من "إسرائيل" والمغرب.

٢ - تنظيم ندوات وفعاليات حول ما سمّي بالمشكلة الأمازيغية يدعى إليها مشاركون أمازيغ من المغرب ومن الجزائر ممن يعيشون في فرنسا وبلجيكا وليبيا.

٣ - تنسيق جهود المركز مع منظمات يهودية ومحلية في فرنسا وإسبانيا وبلجيكا والولايات المتحدة وكندا لرعاية مناسبات ثقافية وحتى سياسية في الخارج.

٤ - تسويق مواد دعائية كتيبات وكراسات ومنشورات تحرض على التمرد والعنف وتتحدث بكثير من المبالغة عن وجود استياء عام في الجزائر والمغرب وليبيا، ووجود ثغرات يمكن أن توظف ومشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية يمكن أن تستغل لتبرير التمرد والعصيان.

و يستمد لمركز العون من :

١ - الهيئات الأمنية والسياسية "الإسرائيلية "و من منظمات المجتمع المدني" الإسرائيلي" والجامعات والأحزاب.

٢ - الدعم الأمريكي الهائل لنشاط المركز من كافة الجهات على مستوى الإدارة و مراكز البحوث والأحزاب والحركات الإيديولوجية والدينية المهتمة بإضعاف العالم العربي وتفتيته .

ويُبين ضخامة اعداد مراكز البحوث الاستراتيجية الاسرائيلية في السنوات الأخيرة التى تجاوزت الثلاثون مدى الاهتمام بدراسة العالم العربى لاستخلاص السياسات ومن بين تلك المراكز التى ظهرت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ مركز يافيه للدراسات الإستراتيجية بجامعة "تل أبيب" برئاسة الجنرال (أهارون ياريف) رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية وهو مركز منافس لكنه لم يبغى على دور مركز ديان لان مركز يافيه يخصص نشاطه البحثي لخدمة المؤسسة العسكرية .

وأهم مراكز الابحاث والدراسات الاستراتيجيةالتي ظهرت خلال العقدين الأخيرين وتتعامل مع العالمين العربى والاسلامى :

- مركز بيغن / السادات للدراسات الإستراتيجية جامعة بارإيلان
- معهد أبحاث الأمن القومي وهو يحتل المكانة الأولى من حيث أهميته وأهمية دوره..
- معهد ملام لأبحاث الاستخبارات مركز القدس للشؤون العامة والدولة.
- معهد الدراسات العربية بجامعة حيفا.

(٢) المسلمون

في الأمريكتين قبل كريستوفر كولومبس

المبحث الاول

محاضرة للأستاذ الدكتور علي بن المنتصر الكتاني (المغربى)مؤسس علم الأقليات الإسلامية، ورائد الدعوة الإسلامية في أوروبا

وأمريكا، القاها في جمعية الشرفاء الكتانيين للتعاون والثقافة، أكتوبر من عام ٢٠٠٠ ؛ والمقال منقول من ملتقى اهل الحديث

hIntroduction

Numerous evidence suggests that Muslims from Spain and West Africa arrived in the Americas at least five centuries before Columbus١. It is recorded, for example that in the mid-tenth century during the rule of the Umayed Caliph Abdul-Rahman III (٩٢٩-٩٦١), Muslims of African origin sailed westward from the Spanish port of Delba (Palos) into the "Ocean of darkness an fog." They returned after a long absence with much booty from a "strange and curious land." It is evident that people of Muslim origin are known to have accompanied Columbus and subsequent Spanish explorers to the New World .

The last Muslim stronghold in Spain, Granada, fell to the Christians in ١٤٩٢ CE, just before the Spanish inquisition was launched. To escape persecution, many non-Christians fled or embraced Catholicism. At least two documents imply the presence of Muslims in Spanish America before ١٥٥٠ CE. Despite the fact that a decree issued in ١٥٣٩ CE, by Charles V, King of Spain, forbade the grandsons of Muslims who had been burned at the stake to migrate to the West Indies. This decree was ratified in ١٥٤٣ CE, and an order for the expulsion of all Muslims from overseas Spanish territories was subsequently published. Many references on the Muslim arrival in the Americas are available. They are summarized in the following notes :

Historic Documents

I. A Muslim historian and geographer Abul-Hassan Ali Ibn Al-Hussain Al-Masudi (٨٧١ - ٩٥٧ CE) wrote in his book 'Muruj Adh-dhahab wa Maadin al-Jawhar' (The Meadows of Gold and Quarries of Jewels) that during the rule of the Muslim Caliph of Spain Abdullah Ibn Muhammad (٨٨٨ - ٩١٢ CE), a Muslim navigator Khashkhash Ibn Saeed Ibn Aswad of Cordoba, Spain sailed from Delba (Palos) in ٨٨٩ CE, crossed the Atlantic, reached an unknown territory (Ard Majhoola) and returned with fabulous treasures. In Al-Masudi's map of the world there is a large area in the ocean of darkness and fog (the Atlantic ocean) which he referred to as the unknown territory (the Americas .(

٢. A Muslim historian Abu Bakr Ibn Umar Al-Gutiyya narrated that during the reign of the Muslim Caliph of Spain, Hisham II (٩٧٦ -١٠٠٩ CE), another Muslim navigator Ibn Farrukh of Granada sailed from Kadesh (February ٩٩٩ CE) into the Atlantic, landed in Gando (Great Canary Islands) visiting King Guanariga, and continued westward where he saw and named two islands, Capraria and Pluitana. He arrived back in Spain in May ٩٩٩ CE .

٣ . Columbus sailed from Palos (Delba), Spain. He was bound for Gomera (Canary Islands) - Gomera is an Arabic word meaning 'small firebrand' - there he fell in love with Beatriz Bobadilla, daughter of the first captain General of the island (the family name Bobadilla is derived from the Arab Islamic name Abouabdilla). Nevertheless, the Bobadilla clan was not easy to ignore. Another Bobadilla (Francisco), later as the royal commissioner, put Columbus in chains and transferred him from Santo Domingo back to Spain (November ١٥٠٠ CE). The Bobadilla family was related to Abbadid dynasty of Seville (١٠٣١ -١٠٩١ CE .(

On October ١٢, ١٤٩٢ CE, Columbus landed on a little island in the Bahamas that was called Guanahani by the natives. Renamed San Salvador by Columbus, Guanahani is derived from Mandinka and modified Arabic words. Guana (Ikhwana) means 'brothers' and Hani is an Arabic name. Therefore the original name of the island was 'Hani Brothers.' [Click here for corrupted names of Arabic origin, such as those starting with Guad-, al-, Medina and others [.

Ferdinand Columbus, the son of Christopher, wrote about the blacks seen by his father in Honduras: "The people who live farther east of Pointe Cavinas, as far as Cape Gracios a Dios, are almost black in color." At the same time in this very same region, lived a tribe of Muslim natives known as Almamy. In

Mandinka and Arabic languages Almamy was the designation of "Al-Imam" or "Al-Imamu," the person who leads the Prayer, or in some cases, the chief of the community, and/or a member of the Imami Muslim community .

٤ . A renowned American historian and linguist Leo Weiner of Harvard University, in his book Africa and The Discovery of America (١٩٢٠) wrote that Columbus was well aware of the Mandinka presence in the New World and that the West African Muslims had spread throughout the Caribbean, Central, South and North American territories, including Canada, where they were trading and intermarrying with the Iroquois and Algonquin Indians ....

(ترجمة جزء من المحاضرة عاليه)

الموضوع حقيقة في غاية الأهمية، وشيق جدا، وأنا ابتدأت في التعرف عليه منذ كنت مقيما في أميركا ؛ وبصفة عامة فالتاريخ – كما يقول الأميركان أنفسهم – هو قصة المنتصرين: "History is a story of the rankers"، اى انهم يفرضون ما يريدونه ولولا ان الأوروبيون بصفة عامة هم المهيمنين على العالم بعد اكتشاف امريكا لما صدق احدا ان كريستوف كولومب هو من اكتشف أميركا ولكانت قصة اكتشاف الأوروبيين لها خرافة بديهة ؛فكريستوف كولومب، لم يكتشف امريكا لانها كانت معروفة من لدن كثير من الشعوب خاصة الشعوب الإسلامية ، وعرضي هذا سوف أبنيه على ثلاثة كتيبات:

الكتاب الأول: كتاب مهم جدا سيصدر قريبا ، وما عندي منه هو نسخة من الإنترنت، مكتوبة بالإسبانية: " Africa versus America"، وكتبته لويزا إيزابيل أل فيريس دو توليدو، "Luisa Isabel Alvarez de Toledo"، وهي دوقة مدينة سيدونسا "Cedonia"، وهي سليلة إحدى أكبر العائلات الإسبانية، ولا زالت تعيش في قصرها قريبا من مدينة سان لوقا دو باراميدا "San Luca De Paramida"، قرب نهر الوادي الكبير في الأندلس، وعندها مكتبة ووثائق فريدة من نوعها عن تاريخ الأندلس، وبصفة خاصة عن الوجود الإسلامي في أمريكا قبل كريستوف كولومب، فقد كان أجدادها جنرالات في الجيش الإسباني وأميرالات فى البحرية الإسبانية وحكاما فى مقاطعات إسبانية والأندلس ، وما لديها من وثائق هامة جدا.

والكتاب الثاني: هو مجموعة مقالات استكتبتها أنا والدكتور مختار امبو بتمويل من رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، ضمن موسوعة الوجود الإسلامي في عالم اليوم ومنها مجلدان عن الإسلام في أمريكا ، أول مقال فيها كتبه عبد الله الحكيم كويك، وهو أمريكي مسلم أستاذ في جامعة تورنتو، وله تاريخ نضالي في أمريكا ، كان من مجموعة بلاك تايجرز " Black Tigers"، ومن المشهورين ، وله مقالات هامة موثقة ومهمة جدا عن الإسلام في أمريكا قبل كريستوف كولومب.

الكتاب الثالث: بالإنجليزية هو المالينجر "The Malingers"، يسمونهم أحيانا " The white of the Appalachians" ، بيض جبال الأبالاش وتقع في شرق الولايات المتحدة، ويسمونهم "ميلونجونز"، أحدهم اسمه: "براند كينيدي" "Brand Kennedy"، كتب كتابا عن أصول الميلونجونس بتمويل من جامعة فرجينيا الغربية، وتبين أن أصولهم إسلامية من أندلسيي البرتغال، وبقيت فيهم عادات إسلامية إلى الآن، ومن أهم الشخصيات التي تنتمي إلى هذه الطبقة من الناس: "أبراهام لينكولن"، "Abraham Lincoln"، وتحرير أبراهام لينكولن للعبيد كان انتقاما للأندلس من النصارى بطريقة غير مباشرة، إذ إن التاريخ لا يمسح بهذه السهولة. ، وبهذه المقدمة الشيقة أريد أن ألخص لكم أهم نقاط محاضرتي، وهي:

أولا: ما هي البراهين التي تثبت الوجود الإسلامي في أمريكا قبل كريستوف كولومب؟

ثانيا: هل هذا الوجود قبل كريستوف كولومب مازالت له آثار إلى الآن، أم مسحت؟. وهذا السؤال ناتج عن اهتمامي بمستقبل الإسلام حول العالم، وهو ما أسميه: "Residual Islam around the world"، توجد شعوب بأكملها وهي من بقايا الإسلام في مختلف بقاع القارات الخمس، ومعنى ذلك: أن رجوع الإسلام إليهم يعتبر من أسهل ما يكون، ونأتي بأمثلة عن أمريكا.

بعد هذه المقدمة أريد أن أرجع إلى القول بأن اكتشاف أميركا من قبل كرستوف كولومب إنما هو كذبة صريحة، لأن الآن هناك براهين مستفيضة بأن الإسكندنافيين وصلوا إلى أمريكا ألف عام قبل كريستوف كولومب، مثال ذلك تول هايير داليدا "Toll Hoyer Da lida"، الذي كما تعرفون خرج من مدينة آسفي بالمغرب بباخرة صفها بورق البردي "Papyrus"، وقطع المحيط إلى أميركا بسهولة، وبرهن بذلك أن قدماء المصريين ذهبوا كذلك إلى أميريكا.

إذا؛ فالعلاقات مع أميركا كانت متواصلة قبل الإسلام وبعده، وبصفة خاصة بعد الإسلام من طرف الشعوب الإسلامية. إذن فإن لفظة "اكتشاف"، كلمة تعتبر خرافة مرت علينا ونعلمها لأطفالها، وهذا الذي سأذكره لا يعلّم لأحد في المدارس الإسلامية ولا في غيرها، إذ إن معظم الوثائق الباقية هي الآن في الغرب، ومع الأسف الشديد فوثائقنا العربية ليس عندنا منها شيء، لأن باحثينا لم يبحثوا، ولو بحثوا لوجدوا.

طبعا؛ سيجد الباحث صعوبة في البحث، لأنه في الوثائق القديمة لن يقولوا "القارة الأمريكية"، إذ أنه لم يكن تقسيم القارات سابقا إلى قارات كما نقسمها الآن، ففي الماضي كانوا يقسمون العالم إلى مناخ، مناخ كذا وكذا. فعندما يتكلمون عن إفريقيا يتكلمون عن مناخها، ويعدون أمريكا من إفريقيا.

سأقسم حديثي عن الوجود الإسلامي في أمريكا قبل كريستوف كولومب إلى منطقتين اثنتين ، فالأولى من المغرب والأندلس ، والثانية من إفريقيا العربية الإسلامية، وكلها إسلامية طبعا.

المنطقة الأولى: المغرب والأندلس

أولا؛ القرائن والآثار الموجودة الآن في هذا الوقت، الكلمات، والآثار اللغوية: ففي لغة الهنود الحمر هناك كلمات عربية وأمازيغية بكثرة، ولا يمكن أن تكون موجودة إلا بسبب وجود عربي أو أمازيغي قديم هناك، القرائن التاريخية التي جاءت في الكتب القديمة – العربية وغير العربية – والآثار الموجودة إلى الآن رغم المجهود الكبير الذي عمل عليه الإسبان، بعد كريستوف كولومب لمسح أي أثر للإسلام أو الوجود الإسلامي في القارة الأميريكية، وذلك طبعا لتحريف التاريخ.

العرب قديما كانوا يسمون المحيط الأطلسي بحر الظلمات. إذا نظرنا إلى القرائن الأركيويوجية (الأثرية)، نجد أنه اكتشفت كتابات كوفية في أميريكا الجنوبية بالعربية، فمن أوصلها إلى هناك؟. واكتشفوا في عدة أماكن كنوزا تحوي عملات ذهبية رومانية وأخرى إسلامية. وفي العادة إذا اكتشف كنز في محل ما فإن تاريخ ضرب العملة الذي فيه يعتبر تاريخ وصول الكنز إلى المحل المذكور، وذلك طبيعي في البحث العلمي. وآخر عملة اكتشفوها كانت للقرن الثامن الميلادي، أي أن ثمة باخرة إسلامية وصلت في القرن الثامن الميلادي إلى ذلك المحل وتركت ذهبها هناك.

دعنا نقارن ما ذكرناه - وما وهو إلا غيض من فيض أمثلة أخرى كثيرة - بما جاء في بعض أمهات الكتب العربية. مثلا: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي؛ ذكر في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" المكتوب عام ٩٥٦ ميلادية، أن أحد المغامرين من قرطبة اسمه الخشخاش بن سعيد بن الأسود، عبر بحر الظلمات مع جماعة من أصحابه إلى أن وصل إلى الأرض وراء بحر الظلمات، ورجع سنة ٨٨٩م، ربما من قرأ هذا الكلام في زمنه اعتبر المؤلف مخرفا، وهنا عندي قطعة من كلام المسعودي ربما أترجمها لكم لاحقا، وهو كلام متعلق بمغامرة الخشخاش ؛ وقال الخشخاش لما عاد من رحلته بأنه وجد أناسا في الأرض التي وصلها، ووصفهم، بل لما رسم المسعودي خريطة العالم ، رسم بعد بحر الظلمات أرضا سماها: الأرض المجهولة.

فيكون رسم أرضا هناك ولم يدّع أنه ليس بعد بحر الظلمات أي أرض، كما كان يدعيه الأوروبيون في خرائطهم وكتبهم ، أي إنه في القرن التاسع الميلادي كان المسلمون يعرفون أن ثمة أرضا وراء بحر الظلمات، وليست هي الهند كما ادعاه كريستوف كولومب، والذي ذهب إلى تلك الأرض وعاد وعاش ومات، وهو يظن أنه إنما ذهب إلى الهند، لم يظن قط أنه اكتشف أرضا جديدة. ولذلك فإلى يومنا هذا بكل جهل يسمي الأوروبيون أمريكا بالهند الغربية "L'Inde Occidental. West India".

وثمة وثيقة تاريخية أخرى عندنا في التاريخ العربي؛ وهي قصة ذكرها عمر بن القوطية، وهي حديثه عن رحلة ابن فروخ الأندلسي عام ٩٩٩م، ومما يظهر من كلامه: أن ابن فروخ لم يصل إلى أمريكا، غير أنه زار جزر كناريا "Canaries"، في المحيط الأطلسي، وقطع منها إلى جزر أخرى في المحيط الأطلسي، ووصف أهالي كناريا ثم عاد إلى الأندلس.

وثمة قصة مفصلة أكثر من جميع ما ذكرت، وربما يعرفها جميعنا، وهي قصة الشريف الإدريسي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي بين ١٠٩٩-١١٨٠م، وهو من سبتة ، ففي كتابه "الممالك والمسالك" جاء بقصة الشباب المغرورين؛ وهم: جماعة خرجوا ببواخر من إشبونة "Lisbon"، وكانت في يد المسلمين وقتها، وقطع هؤلاء المغامرون بحر الظلمات، ورجع بعضهم، وذكروا قصتهم وأنهم وصلوا إلى أرض وصفوها ووصفوا ملوكها. والغريب في الأمر أنهم ذكروا أنهم وجدوا أناسا يتكلمون بالعربية هناك.

وإذا كان أناس يتكلمون بالعربية هناك فهذا دليل على أن أناسا كثيرين وصلوا قبلهم إلى هناك، حتى تعلم أهلها العربية ليكونوا ترجمانا بينهم وبين الملوك المحليين، وعلى أنه كان هناك وجود إسلامي في ذلك التاريخ على تلك الأرض. الوصف الذي أعطاه

هؤلاء المغامرون يظهر أنه وصف للجزر الكارابية، كوبا أو إسبانيولا، أو غيرهما من جزر البحر.

وهناك أمثلة أخرى في اللغة وغيرها. فأعطي في اللغة أمثلة كذلك: فالأوروبيون رسموا خريطة لأمريكا، ومنها خريطة لفلوريدا، وذلك عام ١٥٦٤م، ذكروا فيها مدنا ذات أسماء توجد في الأندلس والمغرب. ولكي تكون أسماء عربية هناك، فبالضروري كانت هجرة عربية قبل المائة أو المائتي عام على الأقل. مثلا: في الخارطة هناك مدينة ميارقة، وواضح أنها تحريف لميورقة، وهي جزيرة من الجزر الشرقية المسماة الآن بالبليار، ومدينة اسمها كاديكا، وهي تحريف لقادس الواقعة جنوب الأندلس. وأخرى اسمها "مارّاكو" تساوي: مراكش...إلخ.

دوقة مدينة سيدونيا، بناء على وثائقها كتبت كتابا في غاية الأهمية على إثر تشجيع مني، حيث إنني في دراساتي عن الموريسكيين اكتشفت شيئا غريبا جدا، ما هو؟.

اكتشفت بأنه عام ١٦٤٤م، قامت مؤامرة في الأندلس لتحريرها من إسبانيا، وإعادة الدولة الإسلامية فيها، دخلت في هذه المؤامرة فئات أربع:

أولا: ملك البرتغال، وذلك أول استقلالها الذي كانت أضاعته من قبل بعد هزيمتها في معركة واد المخازن، وانضمت إلى إسبانيا، وفي عام ١٦٤٤م، أعادت استقلالها.

ثانيا: شخصية من ولاية المرية اسمه "طاهر الحر"، لم تعط الوثائق اسمه النصراني، وهو ينسب نفسه إلى بيت بني الأحمر. ثار هو وجماعة معه.

ثالثا: موريسكيو الرباط، في الوثائق المغربية يظنون بأنهم أرادوا التعاون مع النصارى، غير أنهم في الحقيقة أرادوا تحرير الأندلس ، حيث كان المقرر أن يدخلوا مصب الوادي الكبير ببواخر ويحتلوا إشبيلية.

رابعها: وهذا هو الشاهد عندنا دوق مدينة سيدونيا، والذي كان الحاكم باسم ملك إسبانيا على منطقة الأندلس. فكيف دوق مدينة سيدونيا الذي يمثل السلطة النصرانية (المسيحية) على الأندلس يقوم بمؤامرة من أجل تحرير الأندلس؟. لم أفهم ذلك!!!.

فلما التقيت الدوقة الحالية لمدينة سيدونيا استدعتني في شاطوها (قصرها) قرب مدينة سان لوقا دو باراميدا، قرب مصب الوادي الكبير، فقلت لها: "ما سبب ذلك؟!". وإذا بجوابها كان أغرب مما كنت أتوقع، حيث أجابتني: "بديهي؛ لأن أصلنا – عائلة دوق مدينة سيدونيا – مسلمون، بل أكثر من ذلك أننا كنا مسلمين سرا". وقالت لي: "تعال أريك في قصرنا؛ كنت أدق حائطا وعندما أسقطته وجدت أسفله مسجدا داخل القصر"، وفعلا صليت – أنا المحاضر – في ذلك المسجد داخل القصر. فإذن؛ هذا الدوق - رحمه الله - قام بمجهود كبير لتحرير الأندلس.

والأهمية في دوقة مدينة سيدونيا؛ أن عندها مكتبة فاخرة مليئة بالوثائق منذ ثلاثمائة وأربعمائة وخمسمائة عام، من ضمنها وثائق مسلمي أميركا الجنوبية!، والبرهان على الوجود الإسلامي في أميريكا قبل أربعمائة عام من كريستوف كولومب. وأخبرتني أنها خائفة من أنها إذا ماتت – وهي تبلغ حوالي سبعين عاما – من أن تسرق وثائقها وتعدم، لأنها تقول بأنه: "لا ثقة في نصارى إسبانيا إلى يومنا هذا"، وهي تقول بأنه: "إلى يومنا هذا يعدمون الوثائق التاريخية المضادة لخرافاتهم التاريخية التي يحبون إقناع الناس بها".

قلت لها: "اكتبي كتابا وضعي هذه الوثائق فيه"، فكان ذلك السبب الأساس لكتابتها هذا الكتاب، فهذا الكتاب الذي سمته: "من إفريقيا إلى أميركا"، كتاب وثائقي رائع، موثق بالوثائق التي عندهم في مكتبة دوق مدينة سيدونيا، هذا الكتاب صدر في هذا الشهر (نهاية سنة ٢٠٠٠)، ومن الضروري أن يترجم للعربية، وإلى لغات أخرى، حيث هو مكتوب باللغة الإسبانية.

ومن المسائل المهمة التي لا نعرفها معاشر المغاربة، أن ياسين والد عبد الله بن ياسين – مؤسس دولة المرابطين – قطع المحيط الأطلسي وذهب إلى المناطق شمال البرازيل، وغينيا، ونشر فيها الإسلام. ذهب إلى هناك مع جماعات من أتباعه، وأسس منطقة كبيرة كانت تابعة للدولة المرابطية. أي: إن الدولة المرابطية لم تكن في شمال إفريقيا والأندلس والبرتغال فحسب، وإنما كانت أيضا فيما يسمى الآن شمال البرازيل وغينيا، وهذا موثق بالوثائق التي تملكها الدوقة المذكورة.

وفعلا، وإلى يومنا هذا؛ هناك مدن وقرى في تلك المناطق اسمها: فاس، مراكش، تلمسان، سلا...وقد كنت أظن أن تلك الأسماء جاءت مع الرحالة الإسبان، غير أنها قالت لي: "لا؛ بل كانت قبل مجيء الإسبان، إنما كانت مع وجود المسلمين قبل أربعمائة عام من كريستوف كولومب".

إذا؛ بصفة عامة وبتلخيص شديد: العلاقات بين المغرب والأندلس، وما يسمى اليوم بأميريكا كانت متواصلة، وحسب معظم

العلماء؛ فالآن – سواء من الطرف الإسباني أو من الطرف الأميركي – فإنهم يعتقدون أن قبل كريستوف كولومب كان الإسلام منتشرا في شمال أمريكا وفي جنوبها، وأن أول عمل قام به كونكيسادور "Conquistador" – الإسبان النصارى – هو متابعة هجومهم على الإسلام الذي كان في الأندلس، بالقضاء على الإسلام والقضاء على الوثائق التي تبرهن أي وجود إسلامي في تلك القارة.

ورغم هذا المجهود الكبير لم يستطيعوا القضاء على كل شيء.

المنطقة الثانية: علاقة الدولة العثمانية وإفريقيا مع أميركا

الآن نرى علاقة الدولة العثمانية مع أميركا قبل كريستوف كولومب، وسأكمل بذكر علاقات الممالك الإسلامية في إفريقيا الغربية مع أمريكا قبل كريستوف كولومب.

عام ١٩٢٩م، اكتشفت خريطة للمحيط الأطلسي رسمها بيري محيي الدين رايس، الذي كان رئيس البحرية العثمانية في وقته، وذلك سنة ٩١٩ هـ/ أي: حوالي: ١٥١٠-١٥١٥م، الخريطة الموجودة الآن: الغريب فيها أنها تعطي خريطة شواطيء أمريكا بتفصيل متناه غير معروف في ذلك الوقت بالتأكيد، بل ليس الشواطيء فقط، بل أتى بأنهار وأماكن لم يكتشفها الأوروبيون إلا أعوام: ١٥٤٠-١٥٦٠م، فهذا يعني – وكما ذكر بيري رايس – بأن هذه الخريطة مبنية على حوالي تسعين خريطة له وللبحارين الأندلسيين والمغاربة الذين قدموا قبله، فسواء هو أو المسلمون قبله سيكونون عرفوا قطعا تلك المناطق، وعرفوا اسمها قبل الأوروبيين.

ومن ضمن المسائل في هذه الخريطة التي تدل على تقدمهم على الأوروبيين بكثير في معرفتهم بالقارة الأمريكية: أنهم أظهروا جزرا في المحيط الأطلسي لم يكن يعرفها الأوروبيون، بما فيها: جزر الرأس الأخضر "Cap Verde"، وماديرا، وجزر الأزور، وبما فيهم جزر كناريا بالتفصيل، التي كنا نسميها "جزر الخالدات". والغريب في الأمر أنه أظهر بالتفصيل جبال الأنتس التي هي جبال تشيلي غرب قارة جنوب أميركا، التي لم يصلها الأوروبيون إلا عام ١٥٢٧م، وأظهر أنهارا في كولومبيا، ونهر الأمازون بالتفصيل، ومصبه الذيْن لم يكونا معروفين عند الأوروبيين ولا موجودين في خرائطهم. وأظهر نهر الأمازون بالتفصيل، بحيث رسم في مصب النهر المذكور بوضوح جزيرة يسمونها الآن "ماراجو"، وهي الآن موجودة في الخريطة الحالية التي ما وصلها الأوروبيون إلا آخر القرن السادس عشر.

من بعد ذلك هناك خريطة للحاج أحمد العثماني عام ١٥٥٩م، وهي تدل كذلك على معرفة واضحة بالقارة الأميركية متفوقة على معرفة الأوروبيين. والحقيقة أن الرعب الكبير الذي كان للأوروبيين في القرن السادس عشر أن تحتل الدولة العثمانية أمريكا وتطردهم منها كان هاجسهم، ونذكر أنه في القرن السادس عشر كان الوجود الإسلامي ما يزال في إسبانيا، كان المورسكيون مضطهدين محاربين، بيد أنهم كانوا ما يزالون مقاومين.

أما الأفارقة؛ فكما قلت لكم: أظهر تول هايير داليدا عام ١٩٦٩م، بالرحلة التي قام بها من مدينة آسفي المغربية إلى البحر الكاريبي أنه بالإمكان أن يكون قدماء المصريين قد أبحروا إلى أمريكا. لماذا؟. لأنهم وجدوا تشابها كبيرا بين حضارة الأزتك والحضارة المصرية.

وفعلا؛ يظهر أن أول من قطع البحر من مسلمي إفريقيا الغربية كانوا من مملكة مالي، لأن شهاب الدين العمري قال في كتاب "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالي من سموسة (كلمة غير واضحة) لما ذهب للحج عام ١٣٢٧م، ذهب يوزع الذهب في طريقه لحد أن ثمن الذهب رخص في مصر بسبب ما وزعه من الذهب، وأخبر بأن سلفه أنشأ مائتي سفينة وقطع المحيط الأطلسي نحو الضفة الأخرى وأنابه عليه في حكم مالي ولم يعد قط. وبذلك بقي هو في الملك.

ووُجدت كتابات في البيرو والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة تدل على الوجود الإفريقي من كتابات إما بالحروف الإفريقية بلغة الماندينك؛ وهي لغة لشعب كله مسلم الآن، يسمونهم: "الفلان"، أو بحروف كوفية عربية. وكذلك تركت اللغة الماندكية آثارا لها في الهنود الحمر إلى يومنا هذا.

والحقيقة؛ انتشر الماندينك من البحر الكاريبي إلى شمال وجنوب الأمريكتين، وهناك قبائل هندية إلى يومنا هذا مازالت تكتب بحروف لغة الماندينك.

هل طمس الإسبان جميع الوجود الإسلامي والوجود الماندكي وآثارهم ولم يبق من ذلك شيء؟!، هذا كثير، ولا يمكن. فإذا رجعنا إلى كتابات المكتشفين الأوروبيين الأوائل بمن فيهم كريستوف كولومب؛ نجد بأنهم ذكروا الوجود الإسلامي في أميريكا.

فمثلا؛ في كتاب كتبه ليون فيرنيل عام ١٩٢٠م، وكان أستاذا في جامعة هارفرد، اسم الكتاب "إفريقيا واكتشاف أمريكا"، "Africa and the discovery of America"، يقول فيه: "إن كريستوف كولومب كان واعيا الوعي الكامل بالوجود الإسلامي في أمريكا"، وركز في براهينه على براهين زراعية ولغوية وثقافية، وقال بأن المانديك بصفة خاصة انتشروا في وسط وشمال أمريكا، وتزاوجوا مع قبيلتين من قبائل الهنود الحمر، وهما: "إيروكوا" و"الكونكير" في شمال أمريكا، وانتشروا - كما ذكر - في البحر الكاريبي جنوب أمريكا، وشمالا حتى وصلوا إلى جهات كندا.

بل وذكر كريستوف كولومب نفسه بأنه وجد أفارقة في أمريكا. وكان يظن بأنهم من السكان الأصليين، ولكن لا يوجد سكان أصليون جنوز في أمريكا. فمن أين أتوا؟!.

"جيم كوفين" كاتب فرنسي ذكر في كتابه "بربر أمريكا"، "Les Berberes d'Amerique"، بأنه كانت تسكن في أمريكا قبيلة اسمها "المامي"، "Almami"، وهي كلمة معروفة في إفريقيا الغربية معناها: "الإمام"، وهي تقال عن زعماء المسلمين، وذكر بأن أكثريتهم كانت في الهندوراس في أمريكا الوسطى، وذلك قبل كريستوف كولومب.

كذلك في كتاب "التاريخ القديم لاحتلال المكسيك"، "Historia Antigua de la conquesta de Mexico"، لمانويل إيروسكو إيبيرا، قال: "كانت أمريكا الوسطى والبرازيل بصفة خاصة، مستعمرات لشعوب سود جاؤوا من إفريقيا وانتشروا في أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية".

كما اكتشف الراهب فرانسسكو كارسيس، عام ١٧٧٥م قبيلة من السود مختلطة مع الهنود الحمر في نيوميكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية "المكسيك الجديدة"، واكتشف تماثيل تظهر في الخريطة المرفقة تدل دلالة كاملة بأنها للسود. وبما أنه لا يوجد في أمريكا سود، إذًا كانوا قادمين من إفريقيا.

وزيادة على كل ما ذكر، هناك آثار للوجود الإفريقي الإسلامي في أمريكا، في شيئين هامين: تجارة الذهب الإفريقي، وتجارة القطن، قبل كولومبوس. ومعروف أن التجارة مع المغرب وإفريقيا كانت كلها على الذهب عبر الصحراء. وسيدي مولاي أحمد الذهبي السعدي – والذي لا يعجبني كثيرا – قطع الصحراء إلى تومبوكتو لضرب دولة إسلامية مسكينة كي ينهب ذهبها ويسكت طلبات المغاربة الذين كانوا يطالبونه بتحرير المورسكيين في الأندلس.

من السهل معرفة الذهب الإفريقي في أي مكان كان، لأنه يرتكز على التحليل التالي: لكل ٣٢قسمة من الذهب يوجد ١٨ من الذهب، و٦ من الفضة، و٨ أقسام نحاس، وهذه التركيبة من الذهب تدل على أن أصله إفريقي، وخاصة منذ القرن الثالث عشر. وجد هذا الذهب عند الهنود الحمر بأمريكا.

ولكن هناك قرائن أكثر من القرائن المبنية على الذهب؛ هناك قرائن لغوية، وقرائن شهود عيان، فالقرائن اللغوية ممثلة فى أن الكلمات التي تطلق باللغة العربية، أو اللغات الإفريقية على النقود، هي شبيهة بالكلمات التي تستعمل من طرف قبائل الهنود الحمر، وهذه الكلمات لا يمكن أن تكون جاءت عن طريق الغزوين الإسباني أو الأوروبي ؛ فمثلا: بالعربية: غنى، وغنية، وغنيمة. أصبحت بلغة الهنود الحمر: "غواني" "Guani"، معناها: الذهب. كلمة كنقود، ونقية، ونحاس، أصبحت بلغتهم: "نيكاي"، بمعنى: حلي من ذهب. كلمة "التبر"، صارت: "توب"، أي: الذهب. وكذلك لقبا للملك من ملوكهم. أي: أن هذه الكلمات العربية لا يمكن أن تصل إليهم لولا وجود عربي هناك ؛ فتجارة القطن مهمة كذلك؛ لأنه لم يكن قطن في أمريكا، بل جاء من إفريقيا الغربية، وتعجب كولومب نفسه في كتاباته حيث قال: "إن الهنود الحمر يلبسون لباسا قطنيا شبيها باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات". وابنه أكد ذلك الكلام كذلك.

والغريب في الأمر – وهو ما سأفصله من بعد إن شاء الله – أن قبيلة موجودة الآن في أمريكا الوسطى اسمها: "كاليفونا" "Galifona" في غواتيمالا، يسمونهم: "الهنود الحمر السود"، لأنهم هنود حمر غير أنهم سود الألوان، وهم من بقايا المسلمين الماندينكا الذين كانوا هناك، وكثير من عاداتهم لا زالت عادات إسلامية إلى الآن. سأتكلم عن هذا عند حديثي عن بقايا هذه الشعوب، ماذا فُعل بها، وكيف كان مصيرها؟.

وقال "ميبرا موس" في مقال في جريدة اسمها: "ديلي كلاريون"، "Daily Clarion"، في "بيليز"، وهي إحدى الجمهوريات الصغيرة الموجودة في أميريكا الوسطى، بتاريخ عام ١٩٤٦م: "عندما اكتشف كريستوف كولومب الهند الغربية، أي: البحر الكاريبي، عام ١٤٩٣م، وجد جنسا من البشر أبيض اللون، خشن الشعر، اسمهم: "الكاريب"، كانوا مزارعين، وصيادين في البحر، وكانوا شعبا موحدا ومسالما، يكرهون التعدي والعنف، وكان دينهم: الإسلام، ولغتهم: العربية!". هكذا قال.

نحن في المدرسة لا يعلموننا هذا الشيء، يقولون: "كان الكاريب وانقرضوا". لم ينقرضوا؛ بل أفنوهم!!. أفنوهم!. وإلى هذا اليوم تسمى تلك الجزر بالكاريبي، في البحر الكاريبي، سميت عليهم ، الذين بقوا – وذلك لمخالطتهم للهنود الحمر – هم "الكاليفونا"، وقد بقوا إلى يومنا هذا في أمريكا الوسطى ، ولا شك أن أصولهم إسلامية لأن الكثير من العادات الإسلامية لا زالت فيهم.

أين هي هذه الشعوب الآن؟ ، كثير من الشباب المسلم أنشأ علاقات مع الكاليفونا، وكثير منهم رجع إلى الإسلام، وأصبحت مساجد كثيرة تظهر في تلك الشواطيء بين هؤلاء الكاليفونا ، أما هؤلاء الميلونجونس، والذين هم مهاجرون من البرتغال في أوائل القرن السادس عشر؛ فقد هربوا من محاكم التفتيش إلى البرازيل، فلما جاء البرتغاليون واحتلوا البرازيل؛ تابعتهم محاكم التفتيش، فركبوا البواخر وهربوا إلى أمريكا الشمالية، قبل أن يصلها الإنجليز، واختلطوا مع قبائل الهنود الحمر. غير أن الإنجليز لما عادوا عاملوهم معاملة الهنود الحمر، قتلا وإبادة، فهربوا إلى جبال الأبالاش. واحد منهم اسمه: "برونד كينيدي"، "Brand Kennedy"، أخذ تمويلا من جامعة فرجينيا الغربية "West Virginia"، لدراسة أصول هؤلاء القبائل، ومن أين أتوا، لأنه واحد منهم.

وبدءا من دراسة عاداتهم؛ اكتشف بأن أصولهم - كما ذكرت - من المسلمين الأندلسيين. والغريب في الأمر أن التاريخ مخيف، فأي شعب يُضطهد إلا وينتقم لنفسه بطريقة من الطرق:

أحد زعماء الولايات المتحدة، الذي هو سليل هذا الشعب، هو "أبراهام لينكولن"، انظر إلى صورته وصورة أفراد الميلونجونز كيف يشبههم، وبذلك يظهر بأن الجذور في تحرير السود هي كأنه يحرر نفسه، فانتقم بتلك الطريقة من النصارى البيض.

وهذا الذي أهداني هذا الكتاب نفسه، والذي هو أستاذ في جامعة تورنتو"Toronto"، أصله كذلك: من جهة ينتمي للميلونجونس، ومن الجهة الأخرى للزنوج.

وخلاصة الأمر التي أردت أن أقولها بعد هذا التقديم الذي إنما أردت منه أن أفتح شهيتكم الفكرية: أن هذا المجال – ومع الأسف الشديد – نحن المغاربة نعاني من خصاص تجاهه، بالرغم من أننا نحن المعنيين بالأمر، وبهذه الحركة، تجاه أميركا الجنوبية، نعاني من نقص كبير في جامعاتنا، كيف نبحث في تراثنا عن هذا الشيء؟. ضروري أنه عندنا وثائق في هذا الشأن، وبالطبع لن يسموها بأمريكا، لأنه لم يكن ذلك الوقت شيء اسمه "أمريكا"، كان لها اسم آخر بلا شك، ما هو بالضبط؟. لا ندري. لكن كان من الممكن أن نبحث في وثائقنا لنعرف هذه العلاقة التي كانت تربطنا بأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية قبل كريستوف كولومب.

والموضوع الثاني: أنه بصفة عامة، وخاصة ما يخص التاريخ، يجب أن نعتمد على أنفسنا لمعرفة جذورنا. أنا أذكر أنه عندما كنت صغيرا كانوا يعلمونني في المدرسة الفرنسية بأن العرب ليس لهم تاريخ، وذلك ليحطمونا، لأن الشعب الذي لا تاريخ له لا هوية له، شعب فاقد لذكراه التاريخية. ولولا أن الوالد رحمه الله كان ينبهني بأن تاريخنا كذا وكذا، وكان لأمتنا من المفاخر كذا وكذا، لكبرت وعندي مركبات نقص فظيعة.

وإحدى الأسلحة القوية للشعوب المتغطرسة التي تريد أن تمحو وجود الشعوب المستضعفة الأخرى: هي تحريف التاريخ. ولذلك فإنه من العار علينا أن نعتمد في اكتشاف تاريخنا، أو تاريخ الإسلام، أو تاريخ المغاربة، أو غيره...على الوثائق الغربية، وإن كنا نحمد الله على بقاء آثار إسلامية في الغرب مثل ما عند دوقة مدينة سيدونيا، والتي أخرجت وثائقها وبرهنت على الوجود الإسلامي أربعمائة وخمسمائة عام في أمريكا الجنوبية قبل كريستوف كولومب. أو يأتي واحد مثل "براند كينيدي"، ليثبت بأن شعبا كاملا من أمريكا الشمالية ذو أصول إسلامية.

وبهذا أريد أن أوصي توصية واحدة؛ وهي: أنه واجب علينا أن نربط علاقات مع هؤلاء الناس، ونحيي الأبحاث في هذا المجال.

المغاربة (البرتغاليون)
فى جنوب الولايات المتحده

مصطفى الأزمورى (ستيبانيكو)
احد أعظم رواد جنوب الولايات المتحدة

احتلت البرتغال مدينة أزمور بالمغرب سنة ١٥١٣ وهى موطن مصطفى الازموري الذى وُلد عام ١٥٠٠ واختطفه الجنود البرتغاليون وهو فى سن المراهقة ضمن العديد من أبناء وبنات أزمور (٣٥٣) وبيعوا في سوق الرقيق باشبيلية ؛ وكان الازمورى من نصيب اندريس دورانتيس أحد النبلاء الأسبان الذي عمده وأسماه استيبانيكو (مصطفى) دورانتيس (٣٥٤).

وفى ١٧ يونيو ١٥٢٧ إبتعث الإمبراطور شارل الخامس رحلة بقيادة «بانفيلو دو نارفاييز» إلى العالم الجديد لإستكشاف أدغال شبه جزيرة فلوريدا تمهيدا لاستيطانها، وكان قوام البعثة ٦٠٠ مغامر من بينهم استيفانكو الأزموري وسيده أندريس دورانتيس وموثق الرحلة كابيزا دي فاكا وضمت اربعة مراكب وبسبب العواصف اضطرت البعثة إلى قضاء الشتاء فى كوبا حيث مكثوا عاما لسوء الاحوال الجوية .

وفي فبراير عام ١٥٢٨ انطلقت سفن الحملة الأربعة الأصلية بالإضافة إلى أخرى خامسة اشتراها بانفيلو دي نارفاييز لكن الحملة واجهت الأعاصير قبل الرسو يوم ١٢ ابريل من نفس السنة في فلوريدا فى شمال خليج بامبا حيث قابلت هنود حمرمن إحدى قبائل الصيادين الذين عثروا بشباكهم على قطع ذهبية مما كان دليلا على وجود الذهب بوفرة في هذه المناطق.

امضى الاسطول عام ١٥٢٨ في محن وكوارث وإنتهت بمقتل السواد الاعظم من افراد البعثة وتحطم مراكبه ؛ وانتهت مركب الازمورى حطاما على سواحل لويزيانا عندما طوحت بها الأعاصير على ساحل مالهادو/ كافيستون ولم ينجو من ركابها الا أربعة هم مصطفى الازموري ودورانتيس و كابيزا دي فاكا وألونسو مالدونادو ، حيث اعتقلتهم إحدى القبائل الهندية لمدة أربع سنوات فروا بعدها في اتجاه المكسيك في أبريل ١٥٣٤ في رحلة إستغرقتهم سنتين إكتسب فيها الأزموري شُهرة بمداواته السكان الأصليين جعلته يشتهر كقديس من السماء فلقبوه باسم أبن الشمس ، وأصبح يجيد بالإضافة إلى الدارجة المغربية الإسبانية والبرتغالية وخمس لهجات محلية ، فبدأت قوافل الهنود ترافقهم من قرية إلى أخرى وتهديهم الأكل والشراب وجلود الغزلان وأغطية القطن ولالئ المرجان وقطع الفيروز والزمرد والمنحوتات نحاسية ؛ وتصف رسالة من تلك الحقبة الازمورى خلال رحلته الأولى هذه إلى فلوريدا بأن " أعضاؤه ضخمة مزينة بنياشين الزهر والأجراس ، ولديه صندوق كبير مملوء بالتمائم ترافقه العديد من نساء الهنود اللواتي أهدتهن القبائل له .



وفى يوليو ١٥٣٦ وصل الأزموري المكسيك التى كانت تحت حكم وكيل الملك الإسباني أنطونيو مندوزا ؛وأخبره أن هناك مدنا ذهبية أهمها مدينة سيبولا الأسطورية ؛ أكد استفانيكو الأزموري رؤيتها بعينه وهو ما أدى بنائب الملك الأسباني في المنطقة إلى تعيينه مرشدا لحملة إنطلقت في فبراير عام ١٥٣٩ بقيادة المبشر الراهب الفرنسيسكاني فراي ماركوس دي نيزا لاكتشاف مدن الذهب وبرفقتهما عدد من الجنود للذهاب إلى سيبولا بحثا عن مدن الذهب السبع ؛ حاول خلالها الازمورى التخلص من الاسبان

---

[٣٥٣]) أورد الباحث شُعيب حليفى فى عرضة حكاية سعيد بن حدو الأزموري ابن الشمس الخالد استيبانيكو ان المغرب تعرض لسنوات من المجاعة القاتلة اعوام ١٥٠٠ و ١٥١٠ و١٥٢٠و١٥٢١، وان اسرة الازمورى قد باعته ايام مجاعة الفترة ١٥٢٠- ١٥٢١ التى كانت الاسوأ فى تاريخ البلاد ودفعت بالأهالي إلى بيع أبنائهم؛ وبيع سعيد بن حدو إلى برتغالي رحل به على متن أحد المراكب الخمسين التي كانت تغادر ميناء أزمور يومياً محمّلة بالعبيد إلى البرتغال ؛ وفي كاديس إنتقلت ملكية الأزموري الى أندريس دورانتيس الذي نسبه إليه فيما بعد ليحمل اسم إستبيان دي دورانتيس.

[٣٥٤]) فى نفس الفترة أُختُطف الأديب المؤرخ والرحالة المغربي الحسن الوزّان (ليون الإفريقي) بيد قراصنة أسبان وهو على سفينة قرب جزيرة جربة التونسية عائدا من سفارة من اسطمبول ١٨ يونيو ١٥١٨؛ ومن الملاحظ بروز المغاربة في أدب وفن الرحلات ووضعوا فيه مؤلفات بديعة ؛ وأشهر رحالة في العالم هم ابن بطوطة الطنجي والشريف الإدريسي السبتي اكبر جغرافي عرفته الحضارة الإسلامية واكبر جغرافي على الإطلاق حتى عصر الكشوف الجغرافية الأوربية أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين. وأن أعظم رحلة ألفت في العربية ألفها مغربي وهو الإمام ابن رشيد السبتي في ٧ مجلدات .



مستغلا شعبيته بين الهنود الحمر المؤمنين به " كقديس " ابن الشمس ؛ فسبق الحملة الى مدينة سيبولا حيث قبيلة زوني مخلفا وراءه دي نيزا بعيدا بحوالي ٤٠٠ كلم ، وكان برفقته (الأزموري) حوالي ٣٠٠ من المريدين الهنود ولكنه اختفى بعد ان أشيع أن قبيلة زونى قتلوه ، ويشكك د. شُعيب فى هذه الشائعة ويرى ان الاحتمال الأكثر قربا إلى الحقيقة هو لجوء الازموري إلي الهنود هربا من الإسبان وممارساتهم الاجرامية من قتل وتخريب ضد الهنود من أجل أطماع مادية ؛ ويدلل على هذا التحليل بأن قبيلة زوني حتى الآن ما تزال تتحدث عن مصطفى الازموري بأنه " ستيبانيكو القديس الملاك وتجعل من شخصيته رمزا دينيا في عباداتهم" .

ولكن للنهاية رواية اخرى تقول ان الحملة في شهر فبراير من سنة ١٥٣٩ وانقسم أفرادها إلى قسمين إلا أن هذه المرة تقدم فريق يقوده الازموري استيفانيكو، وبقي القسم الثاني الذي يتزعمه الراهب الذى كان يخبره استيفانيكو ابن ازمور باكتشافاته عن طريق رسل يحملون صليبا يدل حجمه على اقترابه من مدن الذهب الأسطورية مستخدما فى ذلك المئات من مريديه الهنود ليرشدوه إلى أكبر وأشهر مدن الذهب السبع الأسطورية وهي مدينة سيبولا .

وتقول وثيقة اسبانية تعود إلى سنة ١٥٤٠ " بعد أن انفصل استيفانيكو عن الراهب ظن ان باستطاعته الاستحواذ على شرف اكتشاف مدن الذهب بمفرده ولذا فقد ترك مسافة كبيرة بينه وبين باقي أفراد البعثة وحل في سيبولا برفقة الهنود محملا بكمية من أحجار الفيروز الكريمة التي أهداها له البويبلوس بالإضافة إلى عدد هائل من النساء الجميلات التي وهبه إياها الهنود المرافقون له وقد كان هؤلاء يلتحقون بركبه كلما عبر قبيلة معتقدين انه سيحميهم من كل الأخطار ، لكن سكان سيبولا كانوا متشككين فى الازموري ولهذا فرضوا عليه الإقامة الجبرية في كهف خارج المدينة ، واستنطقه حكماؤهم لمدة ثلاثة أيام لمعرفة أسباب وفوده عليهم ، ولكن اعترافات استفانيكو لمستنطقيه لم تكن مقنعة ولم يصدقا بأنه موفد من طرف نبيل يعرف ما في السماوات وأضاف بأن الراهبين مكلفان بتلقين الهنود أصول الدين، ولم يصدق زعماء سيبولا المغربي وظنوه جاسوسا لقبيلة تريد غزو أراضيهم كما لم يتقبلوا أن يكون رسول البيض ذو بشرة سوداء كما تسبب اصطحابه للنساء الهنديات غضبهم وكذا طلباته المتكررة للفيروز فقرروا قتله.

ولقبيلة زوني رواية اخرى تقول أن الأهالي قرروا قتله لانه كان يحمل نذير شؤم لان جِرابه الطبي كان مصنوعا من ريش البوم طائر الموت ونذيره ، وهناك رواية مشابهة تقول بأن الأزموري أرسل إلى صاحب مدينة سيبولا رسولين يحاملان آنية تحتوي على بعض الخيوط وريشتين ، واحدة بيضاء والأخرى أرجوانية اللون ولما مثلا أمام صاحب المدينة وقدما له الآنية رماها أرضا حينما شاهد محتواها وأمر الرسولين بالرجوع من حيث أتيا وانذرهما بأنه سيقتل جميع أصحابهما إن هم دخلوا المدينة ، ولما لم ينصاع الأزموري للأمر أُلقي القبض عليه هو وأصحابه ، ولما حاول الفرار مع رفاقه في اليوم التالي عام ١٥٤٠طاردوهم وقتلوا عددا منهم الأزموري ؛ وتُضيف رواية أخرى أن زعيم قبيلة سيبولا أمر بقطع أطراف استيفانيكو وأرسل قطعا منها إلى زعماء القبائل حتى يتأكدوا بان المغربي مجرد إنسان وليس ابنا للشمس.

يُعتبر الازموري أحد أول مستكشفي فلوريدا وتكساس والمكسيك وأريزونا والمكسيك الجديدة وكانت السنوات الإثنتي عشرة التي قضاها كافية لتجعل منه أحد أكبر مستكشفي تلك الانحاء ؛ وقد نجح بتركيبته الثقافية المتعددة وإجادته لغات الهنود الحمر واختلافه العرقى عن الاوربيين فى أن يرتقى بوضعه الضعيف كعبد إلى وضع قوي كوسيط ومترجم ورجل سلام بين الغزاة الأوربيين وهنود أمريكا ؛ فقد نجح فى إستغلال هويته الأجنبية عن الاوربيين ليكون وسيطا مفاوضا وداعية سلام وهو ما يجعله "دبلوماسيا حقيقيا" فإتخذ موقفا محايدا بين الغزاة الأوربيين وهنود أمريكا ويخبرنا كابيسا دي باكا بأنه لم يكن أمامهم من خيار آخر إلا أن يعينوه «ناطقا باسمهم» و«دليلهم» في تنقلاتهم لصفاته المميزة . وشهد له الذين عايشوه مثل كابيزا دي باكا وكورونادو إلى بيدرو دي كاستينيدا والراهب فراي ماركوس بقدرته على التكيف مع مختلف الاوضاع بفضل نزاهته وميله الكبير إلى الاطلاع والمعرفة، وفي هذا السياق يصفه كابيسا دي باكا سنة ١٥٤٢ "كان إستيبانيكو رجلا طويل القامة، قوي البنيان، يتمتع بذهن متقد وذكاء ثاقب فضلا عن مواهبه العلاجية "، ونوه كابيثا دي باكا بقُدرات الازموري اللغوية فيقول "كان الرجل الأسود يتحدث دائما إلى

الهنود ويتحرى عن الطرق والقرى وكل شيء كنا نريد معرفته "مؤرخون آخرون من نفس الحقبة قالوا إن الأزموري كان يتكلم أكثر من ٦ لغات أمريكية هندية أخرى تعلم البعض منها في ظرف سنتين فقط ، وبفضل كفاءاته اللغوية أنقذ حياة عدد من الأبرياء في بيئة كانت مطبوعة بالخوف والحذر والعنف ، وعندما أدرك سادته قيمة الأعمال التي قام بها وما أسداه من خدمات إلى إسبانيا حققوا له مبتغاه فمنحوه حريته سنة ١٥٣٦.

المبحث الثانى
الصــــــــــــــــــــــــور فى نهاية البــــــــحث

Islam and Muslims in America before Columbus

Date: Tuesday, November ٠٩ @ ٠٥:٤٥:٠٩ CST

Topic: Islam in History

Historical facts concerning many established information on diverse fields continue to be unraveled to the astonishment of us all. One of these facts, previously little-known by many, is that Muslims had actually set foot on American soil centuries before Columbus' illustrious expedition. We hope as you read ahead in this essay that some information and documents, excerpts from various sources, and the results of archeological excavations will demonstrate the truth of the aforementioned proposition.

Did the Companions of the Prophet go to America?

Research conducted in the West during the twentieth century has proven the existence of Muslims on the American mainland approximately seven centuries before Christopher Columbus. Similarly, archeological excavations, linguistic, and philological analyses of languages and settlement names in the region, the fact that coins, household tools and other utensils were discovered there that were similar to those of the Abbasids in the eighth and ninth centuries are all justifications of the theory that Muslims, beginning from ٦٥٠ CE, made their way to the continent for settlement, during which time they erected mosques and schools, leaving a prolonged impact on the natives, i.e. American Indians.

The Islamic sources carry no information as regards Muslim settlement in America, although research undertaken by Professor Barry Fell of Harvard University confirms that Muslims reached the continent at the time of Uthman, the third Caliph, concomitantly indicating the significant possibility that some of the Companions could have arrived there as well.

Many Western researchers acknowledge the famous map of Piri Reis as proof of Muslim presence in America long before the endeavors of Columbus, as it minutely comprises the map of America, as well as extremely accurate measurements of the distance between America and Africa.

According to Salvatore Michael Trento, former director of the Center for Archeological Research in Middletown, New York, before embarking on his first voyage to America, Columbus had read the book of Roger Bacon of Oxford University, which comprised information, compiled from a variety of Arabic resources, about geographical regions on the other side of the Atlantic; hence Columbus' previous knowledge of the islands in the Atlantic Ocean and other places.[١]

Proofs in Western sources

١. Professor Barry Fell, retired lecturer from Harvard University and also a member of the American Academy of Science and Arts, the Royal Society, the Epigraphy Society and the Society of Scientific and Archeological Discoveries, is adamant about the arrival of Islam in America in the ٦٥٠s,[٢] predicating this argument upon the Cufic calligraphy belonging to that era found in various diggings across America. If the words of Professor Fell have truth-value, then the Muslims had arrived in America during the era of Uthman, or at least that of Ali, the fourth caliph. Such information, however, is not found in Muslim sources.

Professor Fell again uses the results of various archeological diggings undertaken across many regions in the states of Colorado, New Mexico, and Indiana to assert the construction of Muslim schools during ٨٠٠-٧٠٠ CE. Writings, drawings, and charts inscribed on rocks discovered in the most remote and untainted terrains of Western America are relics bestowed by the elementary and intermediate systems of Muslim education at the time. These documents were written in the old Cufic letters of North African Arabic, covering subjects such as reading, writing, arithmetic, religion, history, geography, mathematics, astronomy, and navigation. The descendants of these settlers are thought to be the current native tribes of Iroquois, Algonquin, Anasazi, Hohokam, and Olmec.

٢. The second evidence offered by Professor Fell is that the inscription of "In the Name of God" (picture ١), found on a rock during archeological work in Nevada, belongs to the seventh century, when the haraka sign system had not yet been developed. Likewise, the stone bearing the inscription "Muhammad is the Prophet of God" (picture ٢) is pertinent to the same era. As seen by comparison of the two pictures, the inscriptions are not in the style of Modern Arabic; conversely they are in a Cufic style relevant to the seventh century.[٣]

The Arabs, according to the findings of Professor Fell, settled in Nevada during the seventh and eighth centuries. The earlier existence of a school, which taught Islam and science, particularly navigation, has come to light following

the archeological investigation undertaken by Professors Heizer and Baumhoff of California University around site WA ٢٥ in Nevada. The excavations in Nevada have uncovered writings in Naskhi Arabic and Cufic style that are inscribed on rocks which carry information about this school (picture ٣). The application of the mathematical formula "five diamonds equal an alif" (alif is the first letter of Arabic alphabet) may be seen in this picture (pictures ٣b and ٣c). The Arabic letters in pictures ٣b and ٣c, found amid excavations in Nevada, are in exactly the same style as North African Arabic. Again similarly, another rock was found in Nevada bearing the name "God", the style of which is yet again reminiscent of the prevalent technique of seventh and eighth-century North Africa. The calligraphical similarities between various writing styles of the Prophet's name over diverse periods, particularly those relating to Africa and America, found during archeological investigations are striking indeed. Figure A of picture ٤ was found in al-Ain Lahag, Morocco and figure B in East Walker River; both are currently at the University of California. Figure C was discovered in Nevada and figures C and D were located in Churchill County and are also currently preserved at the University of California; likewise figure F was discovered in al-Haji Minoun, Morocco, while figure G, inscribed on ceramic, was revealed in al-Suk, Tripoli, Libya and figure H, at the University of California, was discovered at Cottonwood Canyon, while finally figure I was located on the border of Morocco and Libya. All these inscriptions belong to the eighth and ninth centuries, clearly illustrating the resemblance in style between North America and North Africa, as well as overtly suggesting a migration that occurred from Africa to America.

٣. In the twelfth century the Athapcan Tribe, comprised of native Apaches and Navajos, raided the area inhabited by the Arabs, who either ended up fleeing or were exiled toward the South. These illiterate natives were spellbound by the schools founded by the Arabs, and, perhaps with the assistance of captives, attempted to imitate the same subjects, transforming the geometrical shapes into mythical beasts, which carried on for centuries.

٤. Picture ٥ is the Cufic writing found in ١٩٥١ in the White Mountains, close to the town of Benton on the border of Nevada. The words Shaytan maha mayan, i.e. the Devil is the source of all lies, have been written in a Cufic style peculiar to the seventh century.

٥. Once more, a rock inscription belonging to post-٦٥٠ CE, bearing the Cufic letters H-M-I-D of the word Hamid (picture ٦), is another Arabic script discovered on the Atlata rocks in the Valley of Fire in Nevada.

٦. While traveling from Malden to Cambridge in the state of Massachusetts in ١٧٨٧ (on what is now RT. ١٦), the Reverend Thaddeus Mason Harris noticed some coins discovered by workers during road construction. The workers, not putting much value on these coins, presented him with a handful. Consequently, Harris decided to send these coins to the library of Harvard College for examination (picture ٧). The study yielded that these were in fact Samarqand dirhams from the eighth and ninth centuries. As can be seen in the picture, the coins manifestly display the inscriptions La ilaha ill-Allah Muhammadun Rasulullah (There is no deity but God, and Muhammad is His Messenger) and Bismillah (in the name of God).

٧. Picture ٨ shows a piece of rock discovered in a cave in the region of Corinto in El Salvador, bearing the inscription Malaka Haji mi Malaya; this has been identified as belonging to the thirteenth century, suggesting a possible arrival of Muslims in South America, perhaps coming from somewhere near Indonesia.

٨. During his second voyage, Columbus was told by the natives of Espanola (Haiti) of black men who had appeared on the island before him and they showed him the lances that had been left there by these Africans to support their assertions. The tips of the lances were of a metal, an alloy of gold, which they called guanin, a word which is semantically remarkably similar to the Arabic word ghina, meaning richness. Columbus had in fact brought some of this guanin back to Spain, recording that it was composed of %٥٦,٢٥ gold, %١٨,٧٥ silver and %٢٥ copper, ratios that were prevalent in African Guinea as standards for the processing of metals.

٨. On his third voyage to the New World, Columbus visited Trinidad, where the sailors noticed the symmetrically patterned cotton and colorful handkerchiefs of the natives. Afterward, Columbus realized that the handkerchiefs, which the natives called almayzar, were all much the same in color, style, and use as the headscarves and waist bands used in Guinea. The word almayzar is Arabic, and denotes a cover, tie, apron, or skirt, and is a component of the regional costumes of the Moors, Arabs and, Berbers of North Africa, who had conquered Spain in the eighth century. Columbus observed that the local women wore cotton garments and wrote in astonishment that they had learned of the concept namus, i.e. chastity. In much the same vein, Hernan Cortes, another Spanish explorer, later recorded that the clothing of local women consisted of long veils and skirts decorated with ornaments that were similar to those of the Moors. Ferdinand, Columbus' son, was also quick to notice the resemblance between the cotton dresses of the natives and the ornamented shawls fashioned by Moorish women in Granada. The cradles used by the natives, furthermore, very closely resembled those of North Africa.

٩. Columbus recorded on ٢١ October ١٤٩٢ that he had noticed a mosque on top of a mountain while sailing around Cibara on the northeast coast of Cuba. Relics of mosques carrying Qur'anic inscriptions on their minarets have been found in Cuba, Mexico, Texas, and Nevada since these times.

١٠. Leo Weiner, a well-known Harvard historian and linguist, stated in his book The Discovery of Africa and America, written in ١٩٢٠, that Columbus was aware of the existence of Mandinka, an ethnic group of West Africa, in the New World. The same book also affirms that Columbus was aware that West African Muslims were living across North America, including the south, middle regions and Canada, as well as in the Caribbean, and that they had marital and commercial ties with the native tribes of Iroque and Algonquin.

١١. A preponderance of the voyages embarked upon by Columbus and other Spanish and Portuguese explorers toward the other side of the Atlantic were undertaken only in the light of the geographical and navigational knowledge prepared by Muslims. Al-Masudi's (٩٥٧-٨٧١ CE) work Muruj'uz-Zahab, for instance, was written with this sort of data compiled by Muslim traders from across Africa and Asia. Two of Columbus' captains on the first voyage, in actual fact, were Muslims: Martin Alonso Pinzon was in charge of the Pinta, while his brother Vicente Yanez Pinzon was the designated captain of Nina; both were from the Moroccan Marinid dynasty, descendants of Sultan Abu Zayan Muhammad III (r. ١٣٦٦-١٣٦٢). Formerly well-to-do ship riggers, they assisted Columbus in organizing his voyage of exploration, preparing the Santa Maria, the flagship, and covering all its expenses.

١٢. Christopher Columbus has recorded the custom of nose piercing, which used to be and still popular in the Middle Eastern and Arab countries, as being prevalent in some islands across the Atlantic also mentions the writing of letters in Arabic.

١٣. In the account of sixteenth century missionaries in America, the local copper mines, found particularly in Virginia, Tennessee, and Wisconsin were not operated by the natives, but instead by people from the Middle East, towards whom the natives nurtured a profound sympathy.

١٤. A sum of ٥٦٥ names, ٤٨٤ in America and ٨١ in Canada, of villages, towns, cities, mountains, lakes, rivers and etcetera, are etymologically Arabic, designated by locals long before the arrival of Columbus. Many of these names are in fact the same as names of Islamic places; Mecca in Indiana, Medina in Idaho, Medina in New York, Medina and Hazen in North Dakota, Medina in Ohio, Medina in Tennessee, Medina in Texas, Medina and Arva in Ontario, Mahomet in Illinois and Mona in Utah, are just a few noticeable names at the outset. A closer analysis of the names of native tribes will immediately reveal their Arabic etymological ancestry; Anasazi, Apache, Arawak, Arikana, Chavin, Cherokee, Cree, Hohokam, Hupa, Hopi, Makkah, Mohician, Mohawk, Nazca, Zulu, and Zuni are only a few.

House and building Structures

Archeological excavations conducted throughout North America and North Africa reveal a corresponding architectural resemblance between ninth century buildings. The structure of a Berber house of the Atlas Mountains, Morocco (picture ٩), for instance, is exactly the same as that of a house in New Mexico (picture ١٠). The same similarity can be traced between the Castle of Montezuma discovered in Arizona and the remnants found in Mesa Verde in Colorado and the general structure of Berber buildings (picture ١٢-١١).

The research undertaken by Professor Cyrus Thomas of the Smithsonian Institute shows that a small cabin built from piles of rock found in Ellenville, New York is virtually the same as the cabin, again of rock, found around Aqabah, Southern Arabia, both of which are thought to have been built around the start of the eighth century (picture ١٣).

Arabic words prevalent among natives prior to the arrival of Eu ropeans

The pervasiveness of many Islamic words across the continent prior to European influx is verified by the following terms discovered in the regions currently known as New England and Nova Scotia, in America and Canada respectively. Fell pointed to some words as example of Arabic influence on Native Americans. All of the words listed below are derived from the Arabic language. However, time had eroded their original meanings and most are not used in Arabic today.

The last Muslim stronghold in Spain, Granada, fell just before the Spanish Inquisition was established in ١٤٩٢. Non-Christians were forced to either convert to Catholicism to save themselves from the tyranny of the Inquisition or were exiled from the country. Documents exist which prove the existence of immigrant Muslims in Spanish America before ١٥٥٠. In ١٥٣٩ an edict from Spanish King Charles V was put into practice which forbade the immigration of Muslims to settlements in the West. This edict was later expanded to expel all Muslims from overseas Spanish colonies in ١٥٤٣. The existence of Muslims in overseas islands and regions was known along with the fact that the Spanish king issued such an edict. Again, in many Islamic sources, it is noted that Muslims living in Spain and North

Africa made overseas voyages during the Andalusia period. Scientific research on this subject will bring out many documents into the daylight, documents which have escaped the notice of both Muslims in America and those throughout the world, which will perhaps serve, in the future if not immediately, as a starting point for a re-evaluation of the history of America.

Notes

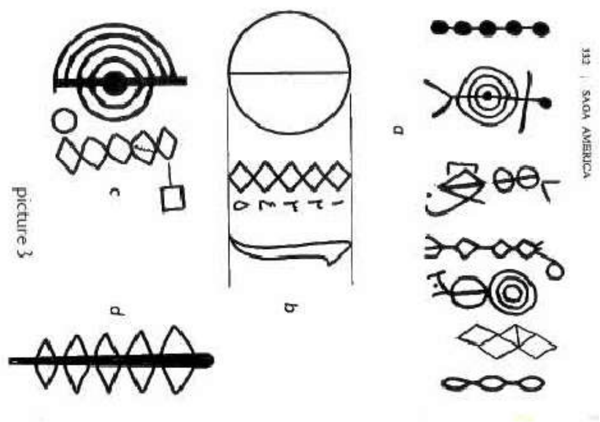
١. Trento, Salvatore Michael. The Search for Lost America, p.١٥ Penguin Books, New York: ١٩٧٨.
٢. Fell, Dr. Barry. Saga America, p. ١٩٠, Time Books, New York: ١٩٨٠.
٣. ibid. p. xiv.
٤. ibid. pp. ٣٣٣-٣٣٢.
٥. ibid. pp. ٣٣٤-٣٣٣.
٦ ibid. p. ١٨٢.
٧. ibid. p. ٢٤٣.
٨. ibid. p. ٢٦.
٦. ibid. p. ٢٧٦.
٧. Teacher, John Boyd. Christopher Columbus, p. ٣٨٠, New York: ١٩٥٠.
٨. Columbus, Ferdinand. The Life of Admiral Christopher Columbus, p. ٢٣٢ Rutgers Uni. Press, ١٩٥٩.
٩. Obregon, Mauricio. The Columbus Papers, The Barcelona Letter of ١٤٩٣.
١٠. The Landfall Controversy, and the Indian Guides, McMillan Co., New York: ١٩٩١.
١١. Weiner, Dr. Leo. Africa and the Discovery of America, Vol.٢ p. ٣٦٦-٣٦٥ Philadelphia: ١٩٢٠.
١٢. Obregon, ١٤٩٣.
١٣. Trento, ١٩٧٨, p. ٢٣.
١٤. ibid. p. ٢٩.
١٥. ibid. p. ٦٥.
١٦. Fell, ١٩٨٠. ٢٥٢-٢٥٠.
١٧. Trento, ١٩٧٨, p. ١٥.
١٨. Fell, ١٩٨٠. p. ٤٠٣-٤٠٠.

صور البحث الثانى

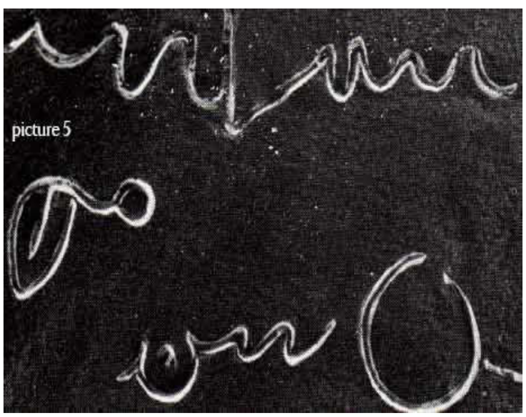
English	Arabic
a. Astronomy and Meteorology	
Dew	Naba saqt
Sunrise	Asbah
Immediate	Nitaij
Star	Allaq
Constellation	al-Kaukab
Falling rain	Saqlaba
Rainbow	Mantaqa
Tomorrow	Ghad
b. Justice and Administration	
False statement	Kabwa
Punishment	Kalal
Insolent, malicious	Majin
Authority, king	Melik
c. Medicine and Anatomy	
Affliction	Kalal
Coitus	L'am
Ill	Marad
Orgasm	Lau'a
Adolescent	Kabr
Libido	Qassa
Sneeze cough	Nakam
d. House and Household Utensils	
Belt	Tikak
Waist-cloth	Nazala-aniq
Drink-water	Naba
To enter	Nafadh

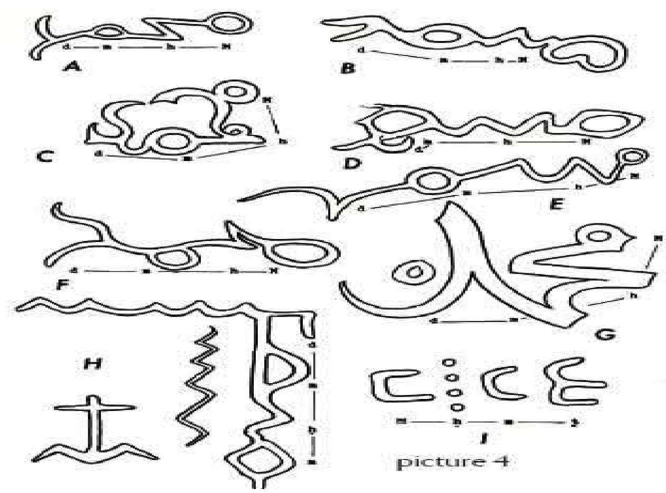


picture I

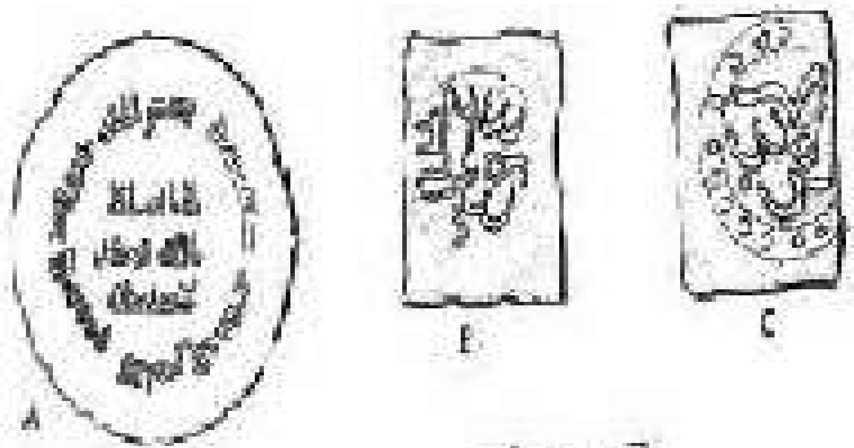

picture 3


picture 2

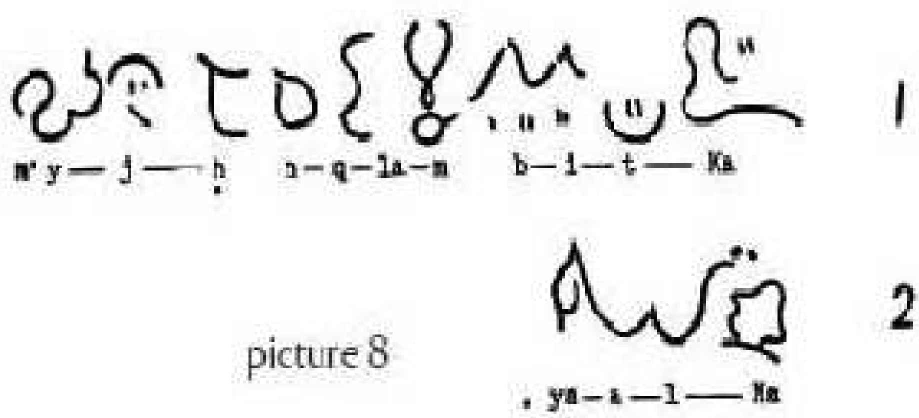

picture 5


A
B
C
D
E
F
G
H
J
picture 4

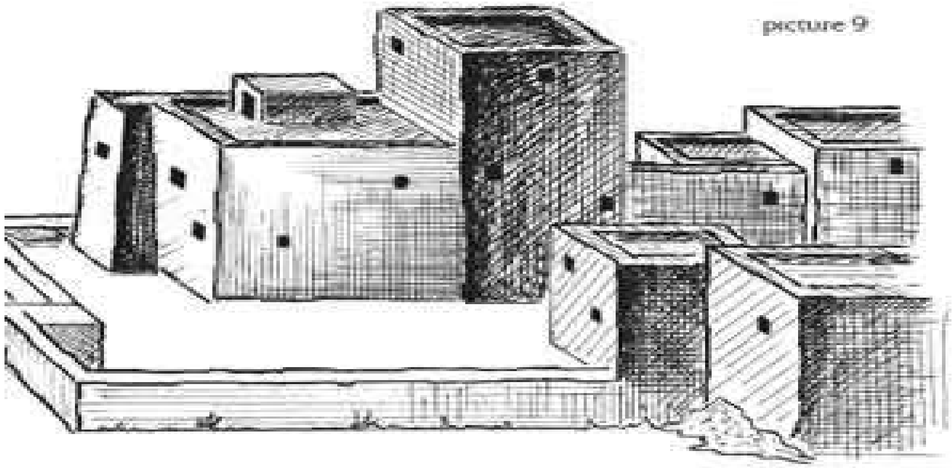

picture 6



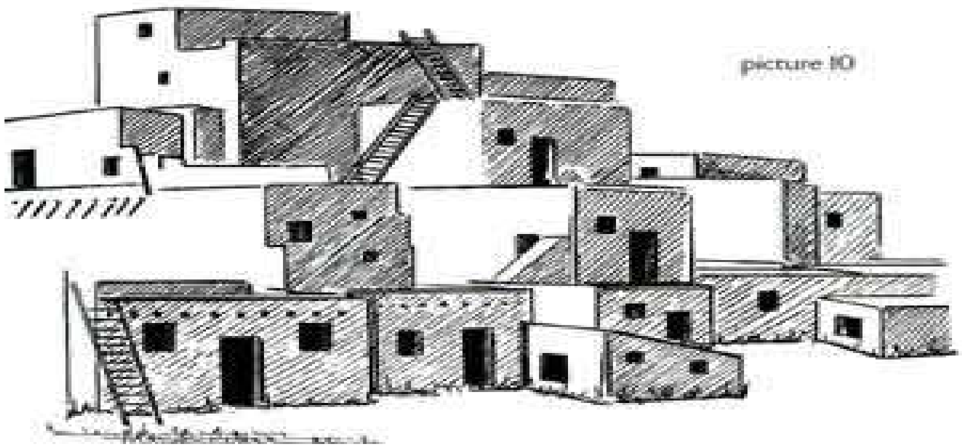
picture 7



picture 8



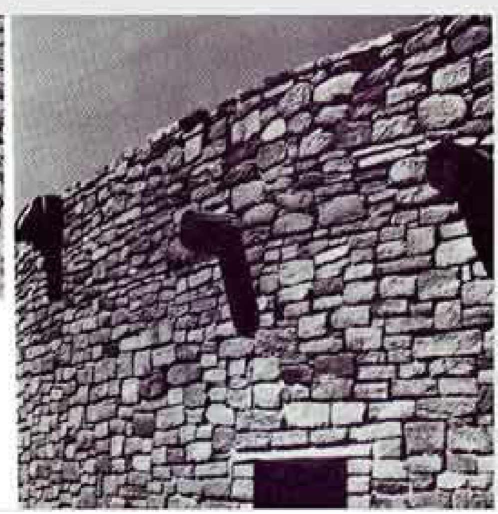
picture 9



picture 10

picture 11 picture 12






picture 13

المبحث الثالث

I stumbled across all this information by accident when researching facts to prove that there were Muslims in American when the Declaration of Independence was signed . Imagine my amazement to find all these riches describing HOW far back there were Muslims in America before Columbus even !I am posting snippets that will link you to the story/ articul itself for you to read .

"Native American Muslims

The Message, July ١٩٩٦

My name is Mahir Abdal-Razzaaq El and I am a Cherokee Blackfoot American Indian who is Muslim. I am known as Eagle Sun Walker. I serve as a Pipe Carrier Warrior for the Northeastern Band of Cherokee Indians in New York City .

There are other Muslims in our group. For the most part, not many people are aware of the Native American contact with Islam that began over one thousand years ago by some of the early Muslim travelers who visited us. Some of these Muslim travelers ended up living among our people ".

Islam in America before Columbus

Before the West declared themselves the great scientists of the earth, before their own Renaissance, Muslims already were making discoveries in science that took the West hundreds of years to even begin to imagine. What a shame that people in Europe were being persecuted by the Church for their suppositions that the earth was round; they should have come to the Islamic world--- an Afghan Muslim had proved that in ٧٩٣ C.E !.

However, the studying of the universe brought forth more questions, and more curiosity. The Muslims in West Africa were so intrigued by what was on the other side of the Great Sea, that they began their expeditions into the great unknown. Early reports of these travels are sketchy, but we can be sure that they crossed the Atlantic by ٨٨٩ C.E .

That was ٦٠٣ years before Columbus. And that is not counting the actual physical evidence in the United States today that dates back even further; however, we do know, as De Lacy O'Leary pointed out, that Muslims definitely had the scientific knowledge and skill to make journeys across the Atlantic ocean .

We were in the Americas, hundreds of years before Columbus, and of that we can be sure .

Here are some snippets for you read from the below articul . The secrets of the Nevada rocks

Posted on July ٢٦, ٢٠٠٩ by Moin Ansari

Here are some more snippets for you read from the below articul .

A mosque is as American as apple pie. The first mosques in America were not built in the ٦٠s but in the earliest times when African and a Cherokee Muslims prayed in small buildings.History is but a jig saw puzzle. The facts about Cherokee Muslims were initially brought out by Cherokees themselves. Ms. Sheila Musaji also has a website and has done research on the subject of Cherokee being Muslims.A preponderance of the voyages embarked upon by Columbus and other Spanish and Portuguese explorers toward the other side of the Atlantic were undertaken only in the light of the geographical and navigational knowledge prepared by Muslims. Al-Masudi's (٨٧١-٩٥٧ CE) work Muruj'uz-Zahab, for instance, was written withthis sort of data compiled by Muslim traders from across Africa and Asia. Two of Columbus' captains on the first voyage, in actual fact, were Muslims: Martin Alonso Pinzon was in charge of the Pinta, while his brother Vicente Yanez Pinzonwas the designated captain of Nina; both were from the Moroccan Marinid dynasty, descendants of Sultan Abu Zayan Muhammad III (r. ١٣٦٢-١٣٦٦). Formerly well-to-do ship riggers, they assisted Columbus in organizing his voyage of exploration, preparing the Santa Maria, the flagship, and covering all its expenses .

Islam in USA

Islam in USA١, By Tariq Mahmud Ashraf

Mr. Ashruf talks about how Islam is the fastest growing religion in America and the fears Americans have because of this in a post ٩-١١ world . He also discusses the history of a Islamic presense in America before Colimbus and much more . A interesting read .

Muslims had reached North America even before Christopher Columbus is credited with having discovered it.refers to Christopher Columbus having recorded in his diary regarding the sighting of a mosque in Cuba during his voyage to America.Columbus logged on October ٢١st, ١٤٩٢, that he was sailing past Gibara on the coast of Cuba he saw a mosque. He also logged that remnants of other masjids (mosques) have been found in Cuba, Mexico, Texas and Nevada.



ملحق الصور

جامع قرطبة

Mezquita وتنطق مِثكيتا باللغة الأسبانية) وهي تحريف لكلمة مسجد ، وهو احد أروع ما أنشأ المسلمون من معمار ، ويقع بالقرب من نهر الوادي الكبير في قرطبة بالأندلس (أسبانيا) ، وهو باعتراف مؤرخي العمارة الأوروبية قمة من قمم الفن المعماري العالمي على مر العصور ، و دليل قاطع على براعة الاموين والعرب في فن الهندسة والمعمارية .

بُنى الجامع خلال قرنين ونصف قرن تقريبا ، و يرجع تأسيس المسجد إلى سنة (٩٢ هـ) عندما اتخذ بنو أمية قرطبة حاضرة لملكهم في الاندلس ، شاطر المسلمون المسيحيون كنيستهم العظمى فى قرطبة ، فبنوا في شطرهم مسجداً وبقي الشطر الآخر للروم ، وحينما ازدحمت المدينة بالمسلمين وجيوشهم اشترى عبدالرحمن الداخل شطر الكنيسة من الروم مقابل أن يُعيد بناء ما تـهدم من كنائسهم وقت الغزو ، وأمر عبدالرحمن الداخل سنة ٧٨٥ ميلادي بإنشائه وكانت مساحته آنذاك (٤٨٧٥ متراً مربعاً) ، وسُمى بـجامع الحضرة أي جامع الخليفة ، واليوم يُسمى بـ (مسجد الكاتدرائية) بعد أن حوله الأسبان الى كاتدرائية.

كان الشكل الأصلي لمسجد عبدالرحمن في عام ١٧٠ ه يتألف من حرم عرضه ٧٣,٥ متر ، وعمقه ٣٦,٨ متر ، مقسم إلى ١١ رواقاً ، بواسطة ١٠ صفوف من الأقواس ، يضم كل منها ١٢ قوس ترتكز على أعمدة رخامية وتمتد عمودياً على الجدار الخلفي ، وهذه الصفوف تتألف من من طبقتين من الاقواس ، الأقواس السفلية منها على شكل حدوة الفرس ، والعلوية تنقص قليلاً عن نصف دائرة ، وهي تحمل سقفاً منبسطاً ، يرتفع مقدار ٩,٨ متر عن الأرضية وفوقهم ١١ سقفاً جمالونياً متوازياً ، بينها أقنية عميقة مبطنة بالرصاص .

والحرم ينفتح على الصحن بواسطة ١١ قوس حدوي ، ترتكز على عضائد على شكل T. والصحن عرضه ٧٣,٢١ متر و عمقه ٦٠,٧ متر. و يوجد له باب غربي و باب شمالي على المحور الشمالي الجنوبي ، كما له على الأرجح باب شرقي متوافق مع الأول. و كان للحرم باب واحد يعرف اليوم باسم (بوير تادي سان استيبان) ، وللحرم أيضاً ٣ دعائم للشرق و الغرب ، تبرز ١,٥ متر ، ودعامتان ركنتيان و على الأرجح ١٠ في الجانب الجنوبي ، لتتحمل ضغط صفوف الأقواس ، وسمك الجدران قدره ١,١٤ متر ؛ والصحن لم يكن محاطاً بأروقة ، و تزين واجهة المحراب آيات منها الاية السادسة من سورة السجدة (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) وكتب أيضا موقف الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم كما كتبت الآية ٢٣ من سورة الحشر : (هو الله لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) .

ومن أعمال الحكم في جامع قرطبة مد قنوات المياه إلى السقايات والميضآت التى أستحدثها ، و قد أوصل الماء إلى المسجد عبر قناة مدها من سفح جبل العروس قرب قرطبة كما أنشا الحكم عدداً من المقاصير ، منها مقصورة "دار الصدقة" غربي الجامع ، وقد جعلها مركزاً لتوزيع الصدقات ، ومقصورة أخرى أمام الباب الغربي كان الفقراء يتخذونها مسكناً.

كانت مقاييس الجامع الأول (٧٥ م × ٦٥ م) بالإضافة إلى صحن الجامع ، و في عهد الامير الأموي الأندلسي (عبد الرحمن الأوسط) توسع فيه أكثر ، ثم المحراب والقنطرة الموجودة فوق الشارع الرئيسي الذي يمر غرب الجامع ، والهدف منها انتقال الأمير

عليها من قصره دون أن يمر في الشارع.

في سنة (٩٥١ ميلادي) أنشأ ((عبد الرحمن الناصر)) ، مئذنة جديدة في أقصى صحن الجامع جهة الشمال ، وهي على هيئة برج ضخم له شرفتان للأذان يصعد إليها بسلم داخلي ، وهذه المئذنة لا تزال موجودة ، وقد حولت إلى برج أجراس ؛ و في عهد ((محمد بن أبي عامر المنصور)) في عصر الأمير هاشم المؤيد عام ٩٨٧ ميلادي زُيد في الجامع فأصبحت مقاييسه (١٢٥ متر × ١٨٠ متر) لتكون مساحته ٢٢٥٠٠ م٢ أي خمسة أفدنة.

تعرّض المسجد في سنة ٤٠٠ هجرية للنهب ، بعد أن ترك الناس قرطبة ، نتيجة القتال الذي نشب بين المهدي وبين سليمان بن الحكم ، وفى سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦ ميلادي اجتاح القساوسة ما في قرطبة من مساجد وقصور،وخربوه.

يعد صحن المسجد قطعة فنية فهو محاط بسور تتخلله سبعة أبواب ، و في جهته الشمالية توجد المئذنة ، وقد زرع الناس أشجار النارنج والليمون فيه ولهذا يُسمى صحن النارنج .

بعض مراثي الشعراء في تحويل المساجد الي كنائس قال أحدهـــــــــم :

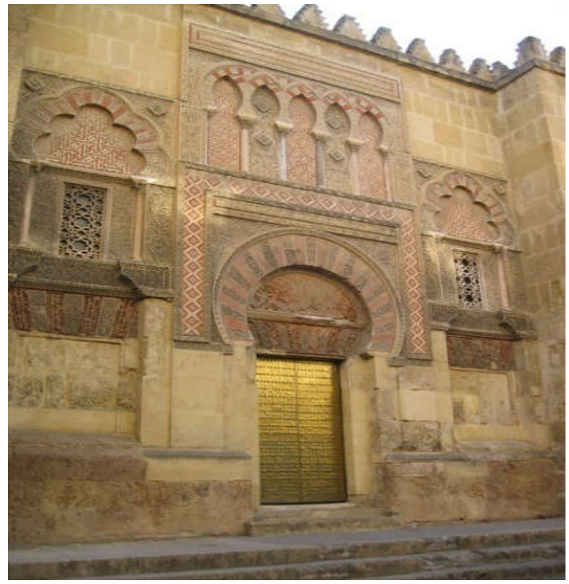
وآهاعلى تلك المساجد سورت ** مـــزابل للكفّار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع عُلقت ** ونواقيسهم فيها نظير الشهادة

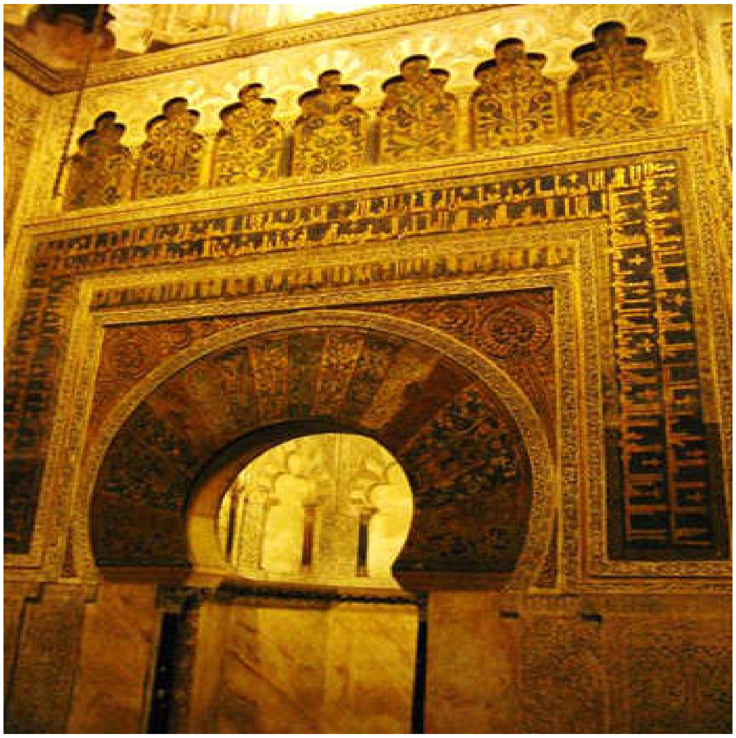
و قال أبو البقاء الرندي في نونيته الشهيرة

حيث المساجد صارت كنائس ما * فيهن إلا نواقيس وصلبان**
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة * حتى المنابر ترثي وهي عيدان**

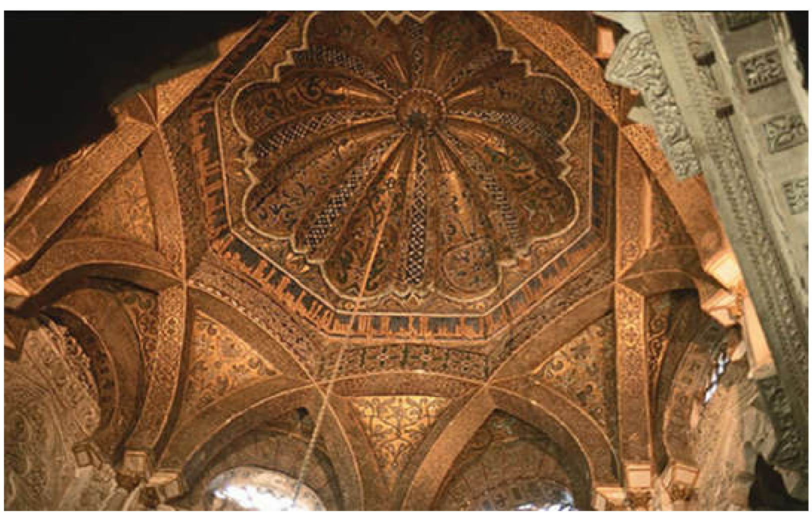








جامع قرطبة من الداخل





قنطرة قرطبة – جددها المنصور





قصر الزهراء



قصور الحمراء



جنة العريف – قصور الحمراء



الزهراء



قصر الجعفرية



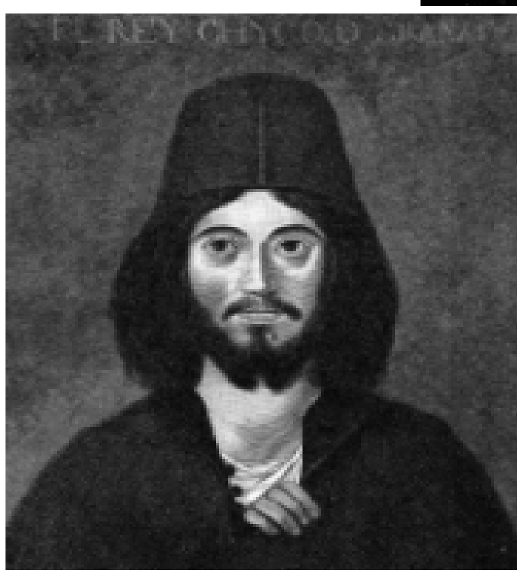


قصر المبارك مقر حكم المعتمد بن عبَّاد ، بإشبيلية





بطلا الاسترداد الملكة ايزابلا وزوجها فرديناند



ابو عبدالله الثانى عشر
ملك غرناطة- بطل السقوط



استسلام قرطبة



لوحة باديا - تسليم الحمراء



محمد على باشا - مؤسس مصر الحديثة وامبراطوريتها فى افريقيا



ابراهيم باشا - ابن محمد على والقائد العسكرى الفذ



اسماعيل باشا 1863-1867 م

الحداثة فى مصر والسودان



محمد سعيد باشا - مُحب السودانيين



المهدى

قائد الثورة المهدية بالسودان



غوردون

حكمدار السودان ومخطط انفصاله عن مصر



السلطان

العُمانى سعيد بن سلطان



البوكيرك

قائد الاسطول البرتغالى ومرتكب الفظائع فى افريقيا وعُمان



يوحنس الرابع – امبراطور الحبشة- أجبر مسلمى ولوا على التنصر خلال ستة اشهر أو مصادرة أملاكهم ، وبسبب ذلك قاتله المهدية وهزموه وقتلوه وأخذوا جثته إلى أم درمان.

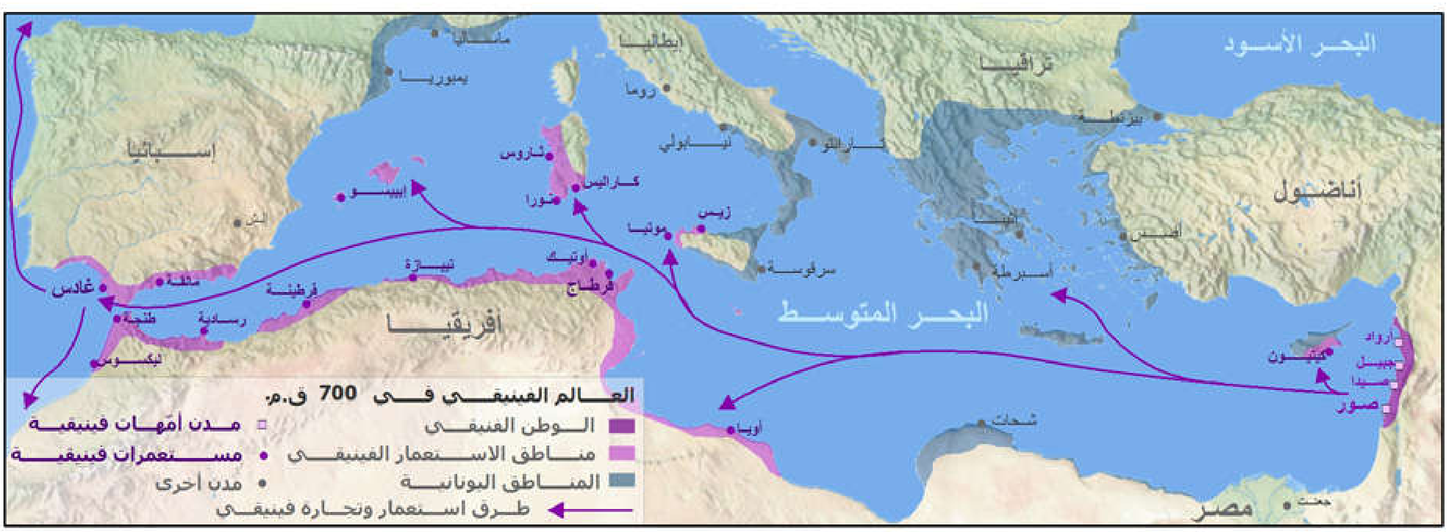


كاسا تُوج امبراطورا للحبشة بإسم جورجيس الثانى - زوج ابنة الرأس على وحفيدة WUBB انتحر بعد هزيمته امام الحملة البريطانية

ملحق الحضارات العربية فى الشام والعراق

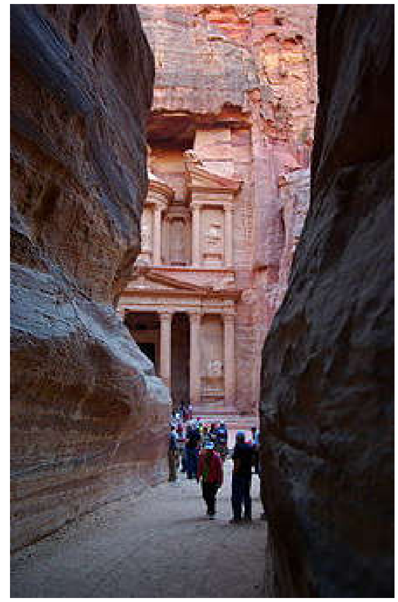
الفينيقيون – الكنعانيون
ومستعمراتهم فى حوض البحر المتوسط





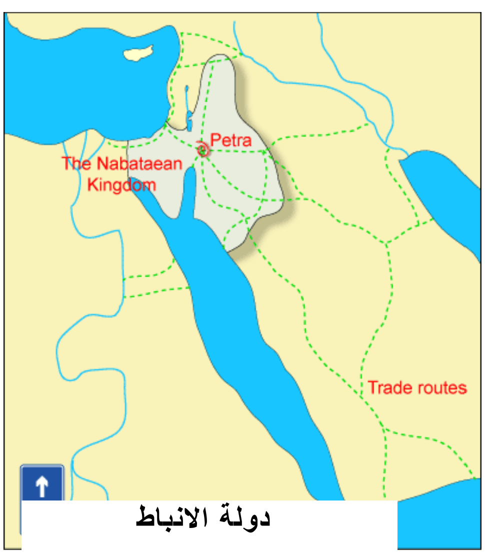


الانباط واثارهم

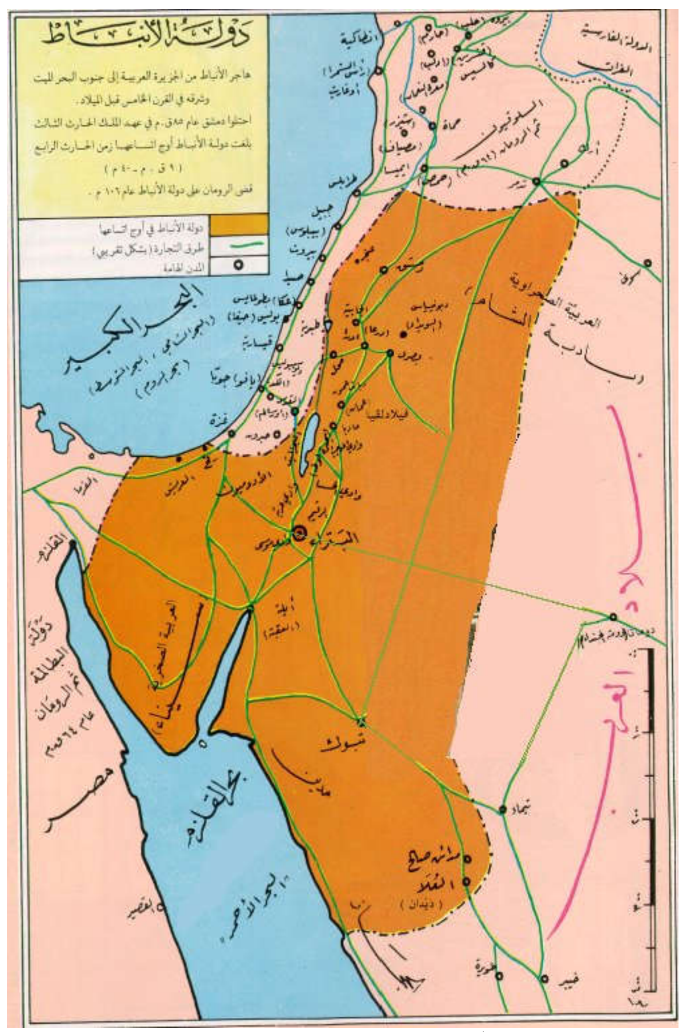


الخزنة - الاردن

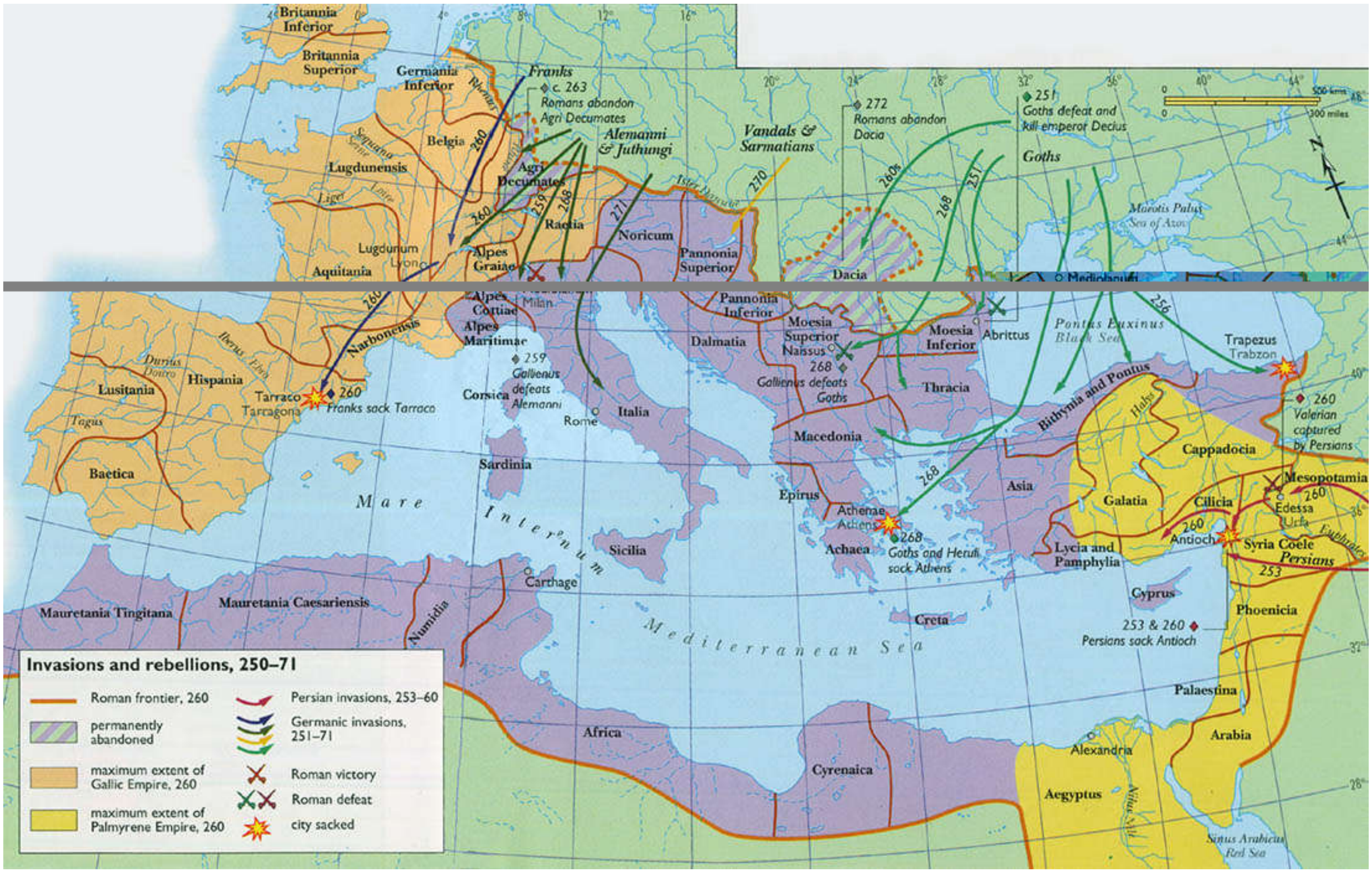


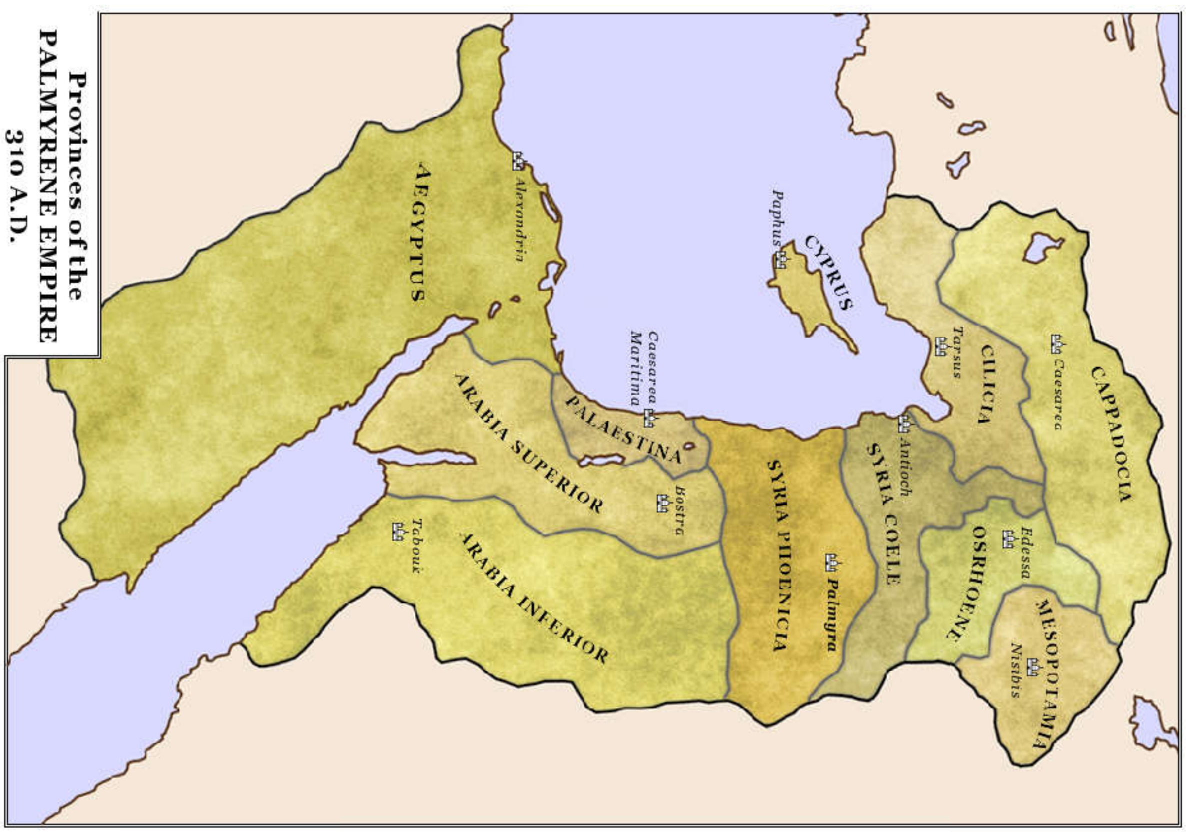


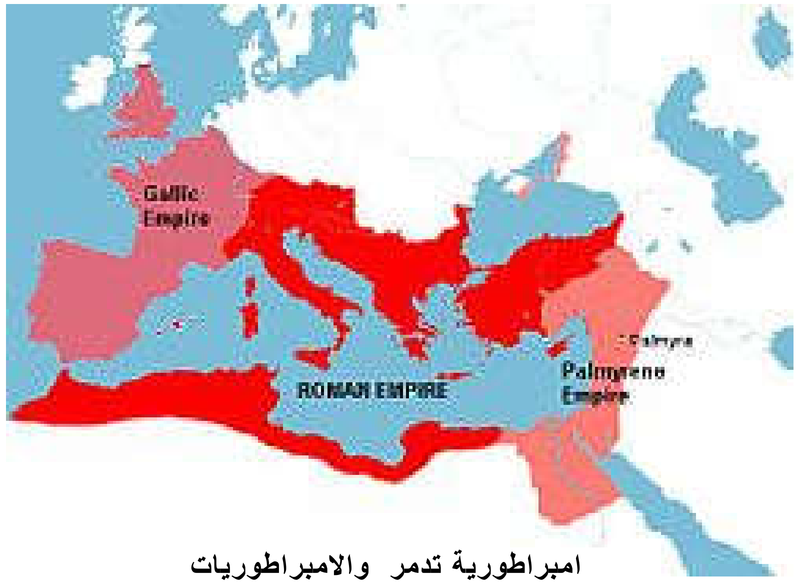
دولة الانباط
وطرق التجارة (النقط الخضراء)



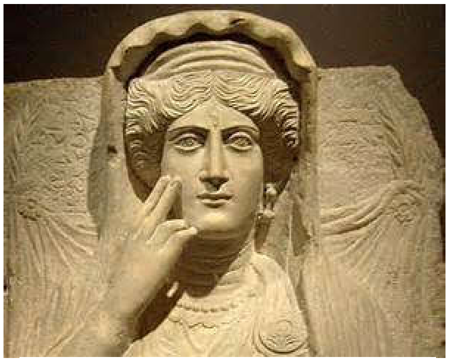
دولة الانباط فى اقصى اتساعها


Invasions and rebellions, 250–71
Roman frontier, 260
permanently abandoned
maximum extent of Gallic Empire, 260
maximum extent of Palmyrene Empire, 260
Persian invasions, 253–60
Germanic invasions, 251–71
Roman victory
Roman defeat
city sacked
Franks
c. 263 Romans abandon Agri Decumates
Alemanni & Juthungi
Vandals & Sarmatians
272 Romans abandon Dacia
251 Goths defeat and kill emperor Decius
Goths
259 Gallienus defeats Alemanni
268 Gallienus defeats Goths
260 Franks sack Tarraco
268 Goths and Heruli sack Athens
253 & 260 Persians sack Antioch
260 Valerian captured by Persians
Persians
Britannia Inferior
Britannia Superior
Germania Inferior
Belgia
Lugdunensis
Aquitania
Narbonensis
Hispania
Lusitania
Baetica
Agri Decumates
Raetia
Noricum
Pannonia Superior
Pannonia Inferior
Dacia
Dalmatia
Moesia Superior
Moesia Inferior
Thracia
Macedonia
Epirus
Achaea
Italia
Sardinia
Corsica
Sicilia
Africa
Numidia
Mauretania Caesariensis
Mauretania Tingitana
Cyrenaica
Aegyptus
Arabia
Palaestina
Phoenicia
Syria Coele
Mesopotamia
Cilicia
Cappadocia
Galatia
Asia
Bithynia and Pontus
Lycia and Pamphylia
Cyprus
Creta
Mare Internum
Mediterranean Sea
Pontus Euxinus
Black Sea
Maeotis Palus
Sea of Azov
Rome
Carthage
Milan
Lugdunum
Lyon
Tarraco
Tarragona
Athenae
Athens
Naissus
Abrittus
Trapezus
Trabzon
Edessa
Urfa
Antioch
Alexandria
Sinus Arabicus
Red Sea


Provinces of the
PALMYRENE EMPIRE
310 A.D.
AEGYPTUS
Alexandria
CYPRUS
Paphus
PALAESTINA
Caesarea Maritima
ARABIA SUPERIOR
Bostra
ARABIA INFERIOR
Tabouk
SYRIA PHOENICIA
Palmyra
SYRIA COELE
Antioch
CILICIA
Tarsus
CAPPADOCIA
Caesarea
OSRHOENE
Edessa
MESOPOTAMIA
Nisibis

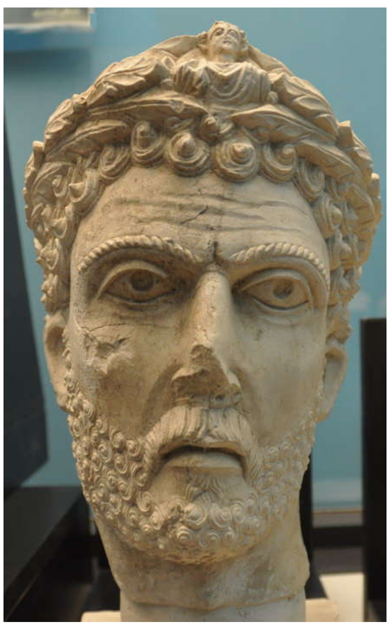


امبراطورية تدمر والامبراطوريات المعاصرة



زنوبيا

ملكة تدمر



اذينه ملك تدمر وزوج زنوبيا



منظر عام لموقع تدمر- سوريا

اثار تدمر





قوس النصر



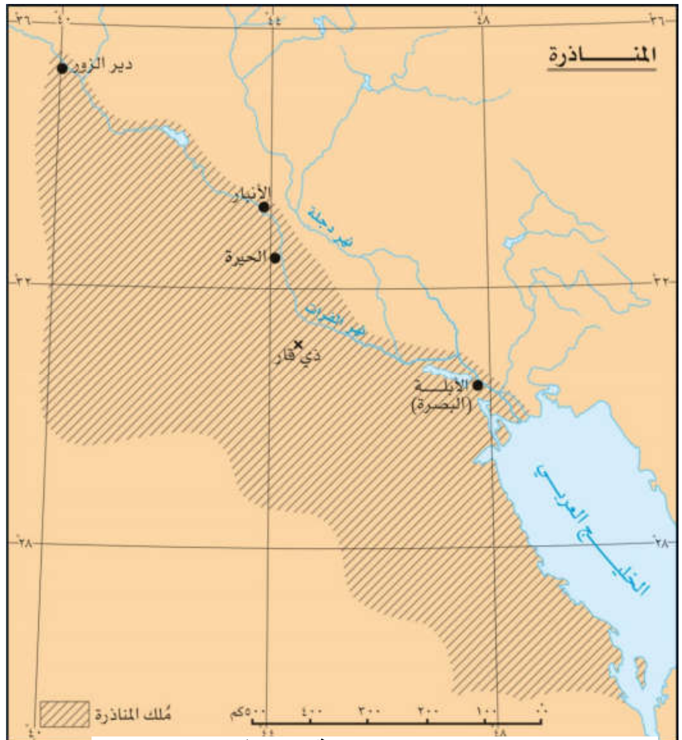
المسرح



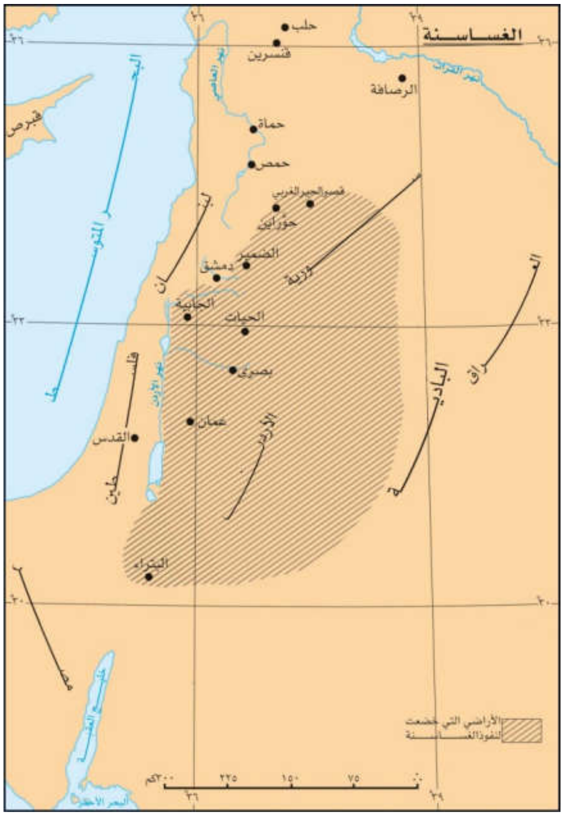




معبد بعل

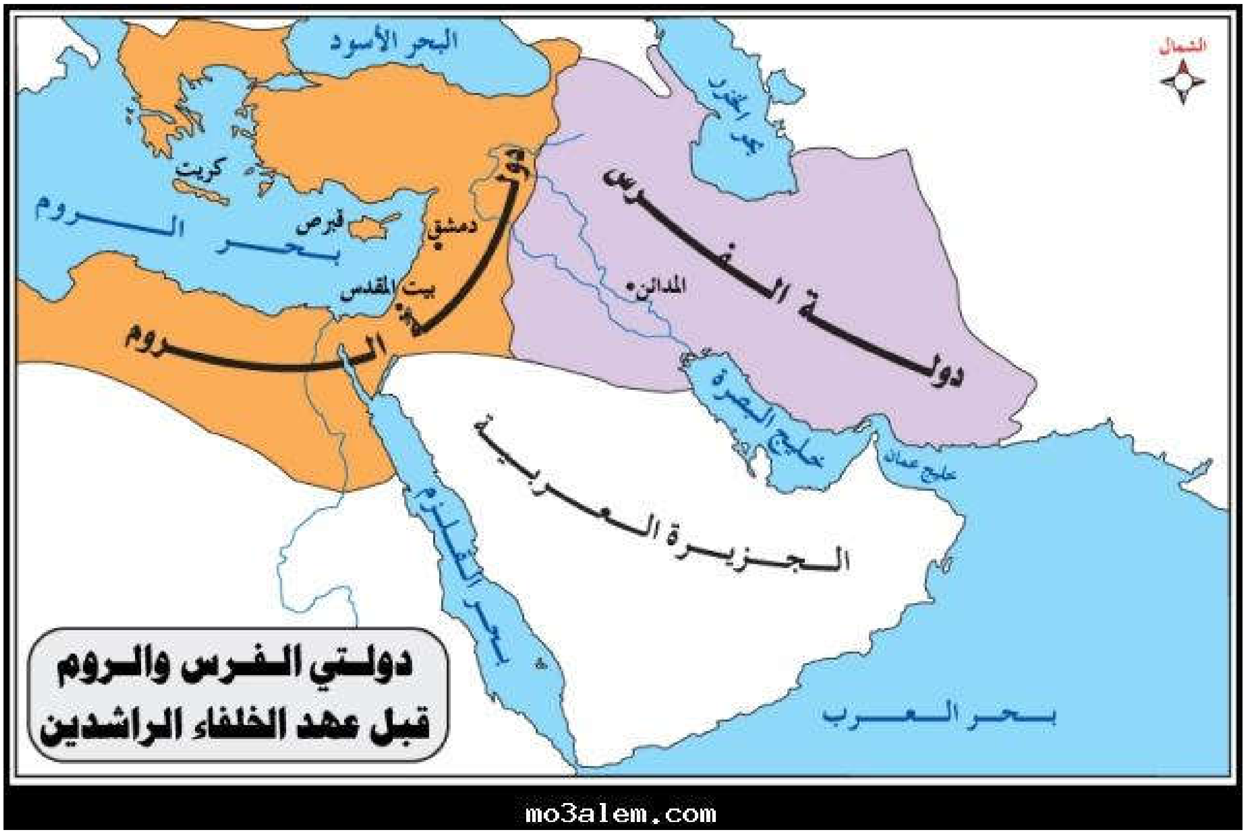


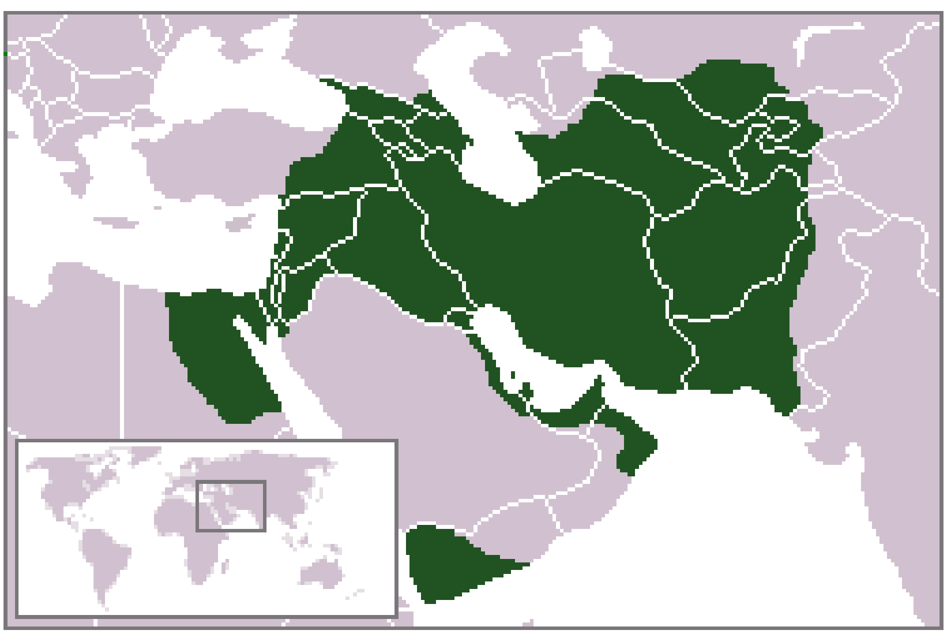
الاعلى والاسفل دولة المناذرة - الحيرة
بالعراق حليف الفرس



دولة الغساسنة بالشام
حليف الروم





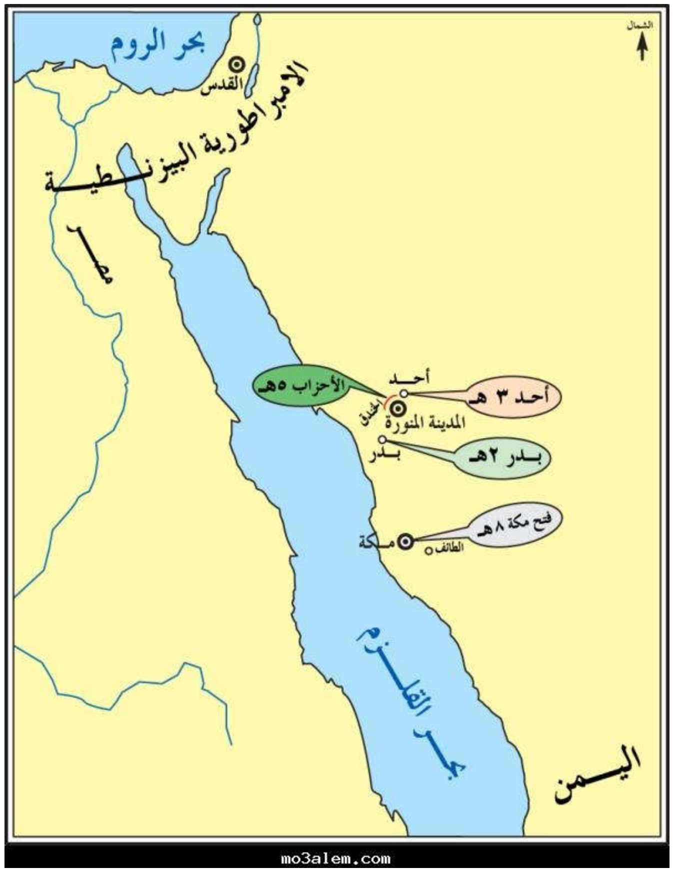


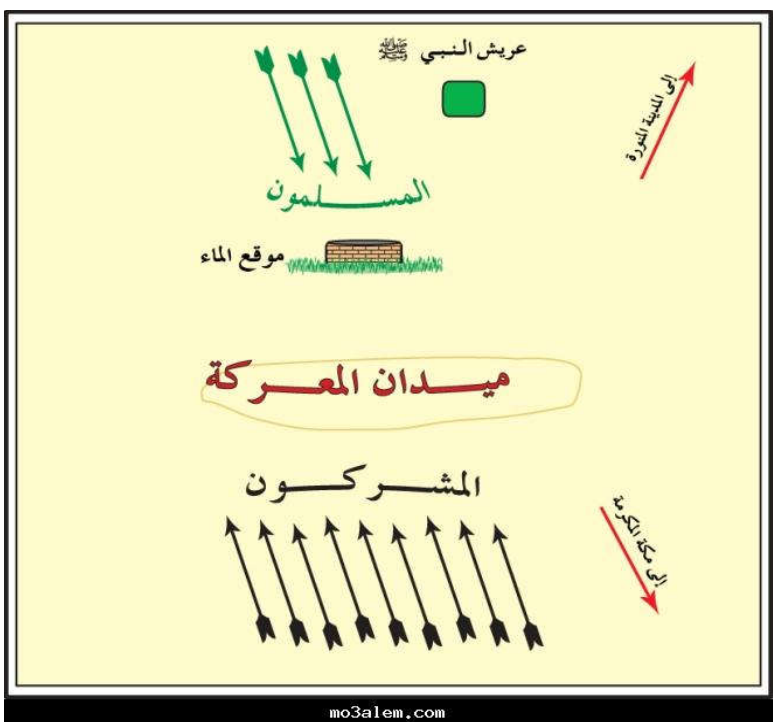
الامبراطورية الفارسيَةّ قبل ظهور الاسلام



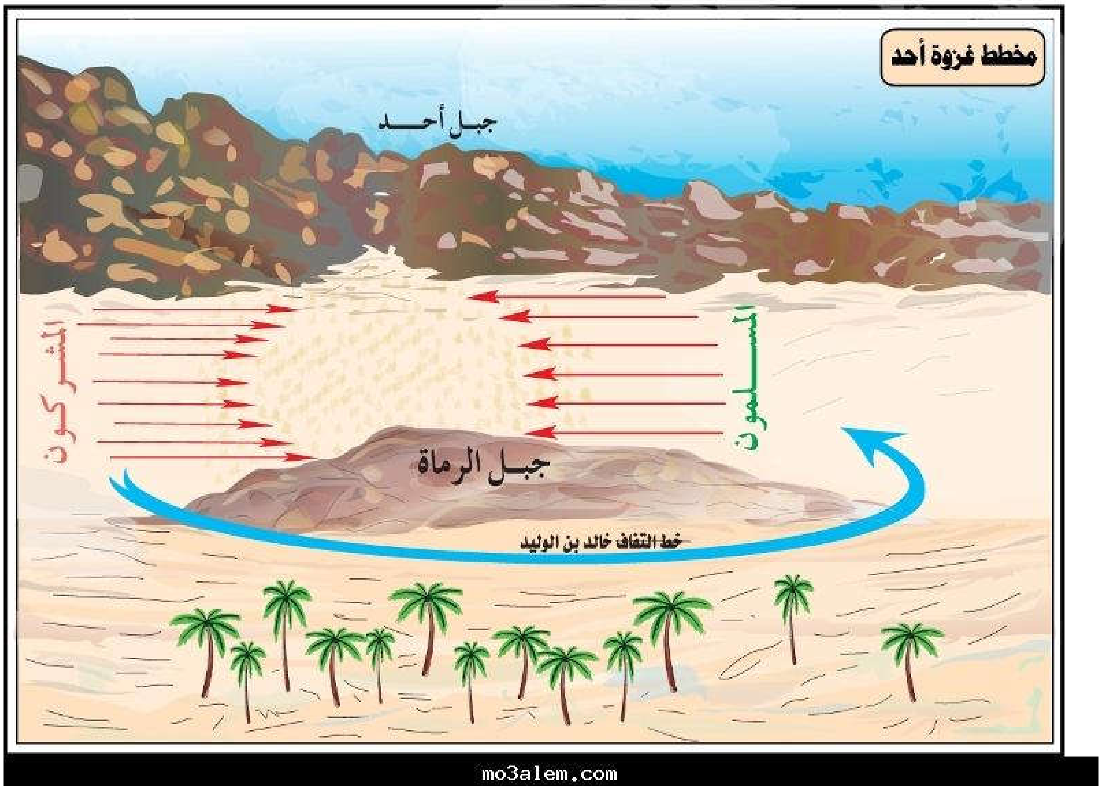
امبراطوريات شرق العالم القديم عام ٥٦٥ ميلادية

اشهر معارك الاسلام وغزوات الرسول (المصدر موضح عليها)

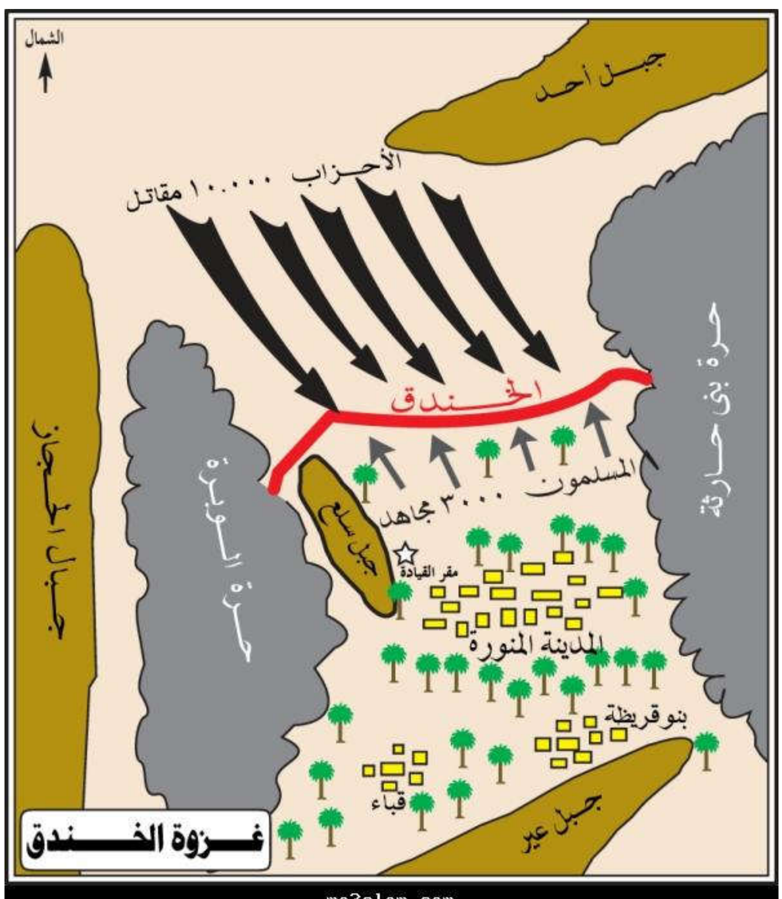




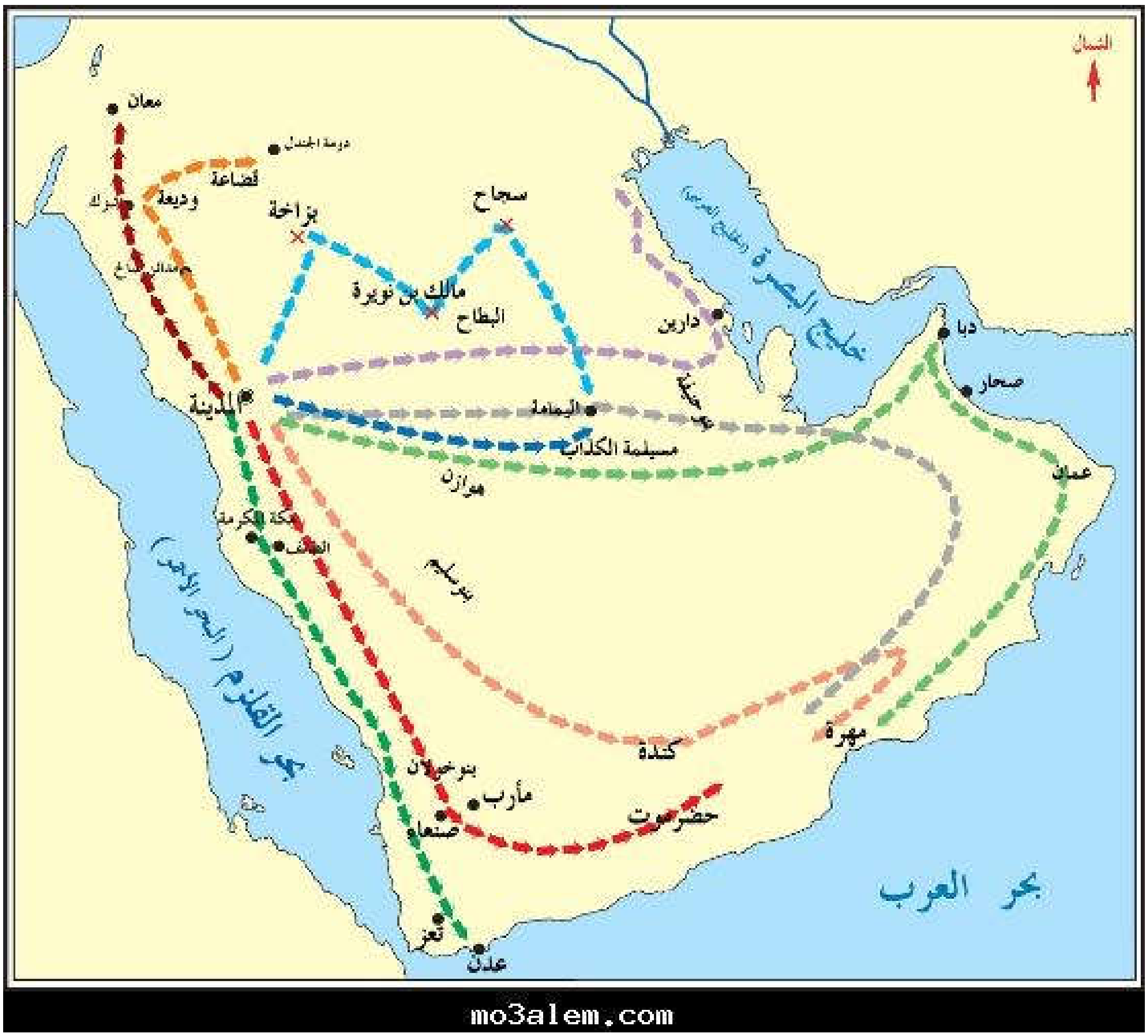
بدر



مخطط غزوة أحد
جبل أحد
المشركون
المسلمون
جبل الرماة
خط التفاف خالد بن الوليد
mo3alem.com



الشمال
جبل أحد
الأحزاب ١٠٠٠٠ مقاتل
الخندق
حرة بني حارثة
المسلمون ٣٠٠٠ مجاهد
جبل سلع
مقر القيادة
المدينة المنورة
حرة الوبرة
جبال الحجاز
بنو قريظة
قباء
جبل عير
غزوة الخندق
mo3alem.com

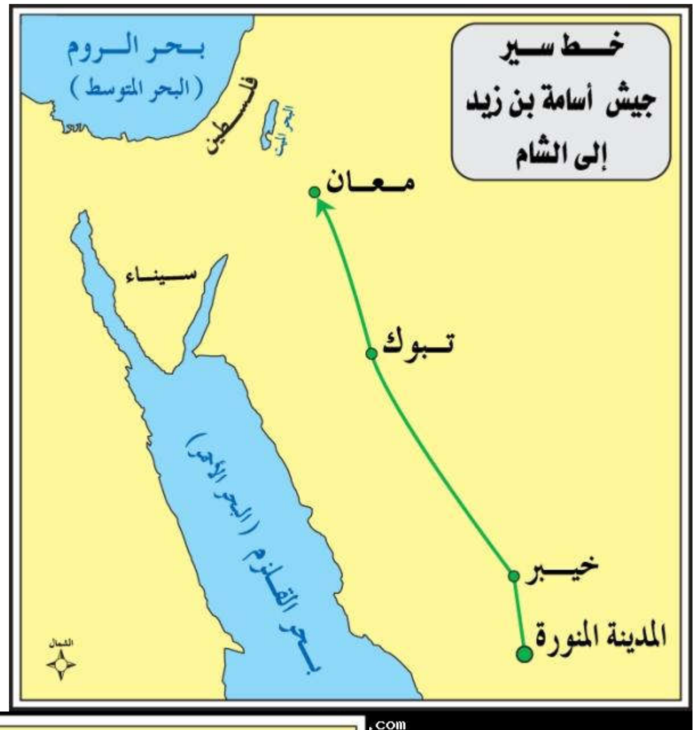

الشمال
معان
دومة الجندل
قضاعة
وديعة
بزاخة
سجاح
مالك بن نويرة
البطاح
دارين
خليج البصرة (الخليج العربي)
دبا
صحار
المدينة
اليمامة
مسيلمة الكذاب
هوازن
عمان
مكة المكرمة
الطائف
بنو سليم
بحر القلزم (البحر الأحمر)
كندة
مهرة
بنو خولان
مأرب
صنعاء
حضرموت
بحر العرب
تعز
عدن
mo3alem.com

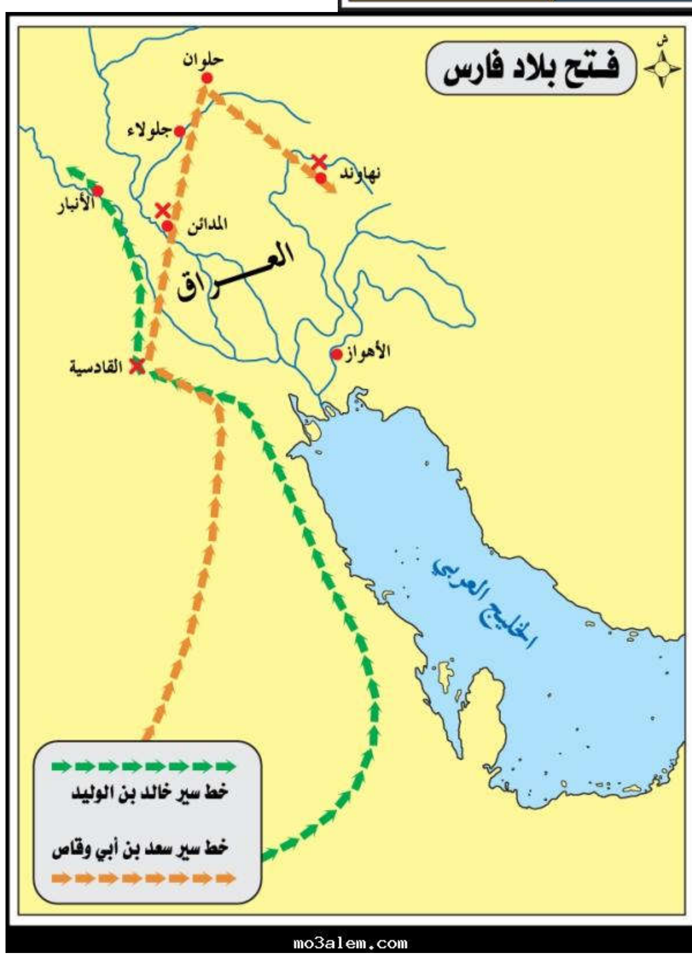
غزوة حنين

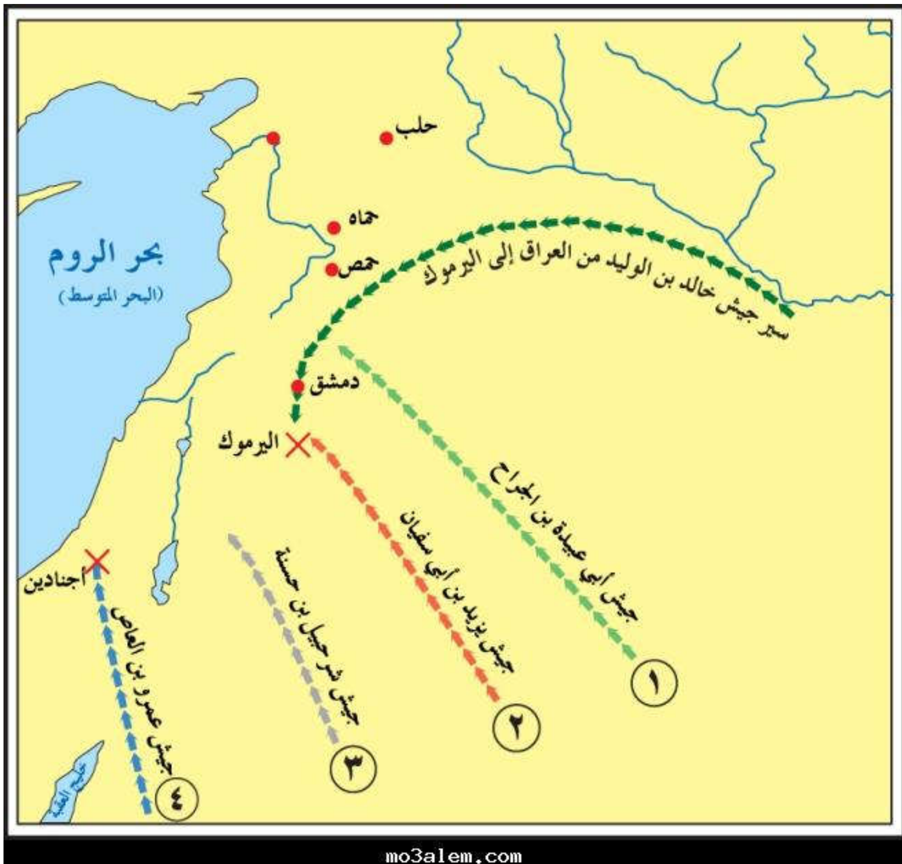


مسيلمة الكذاب

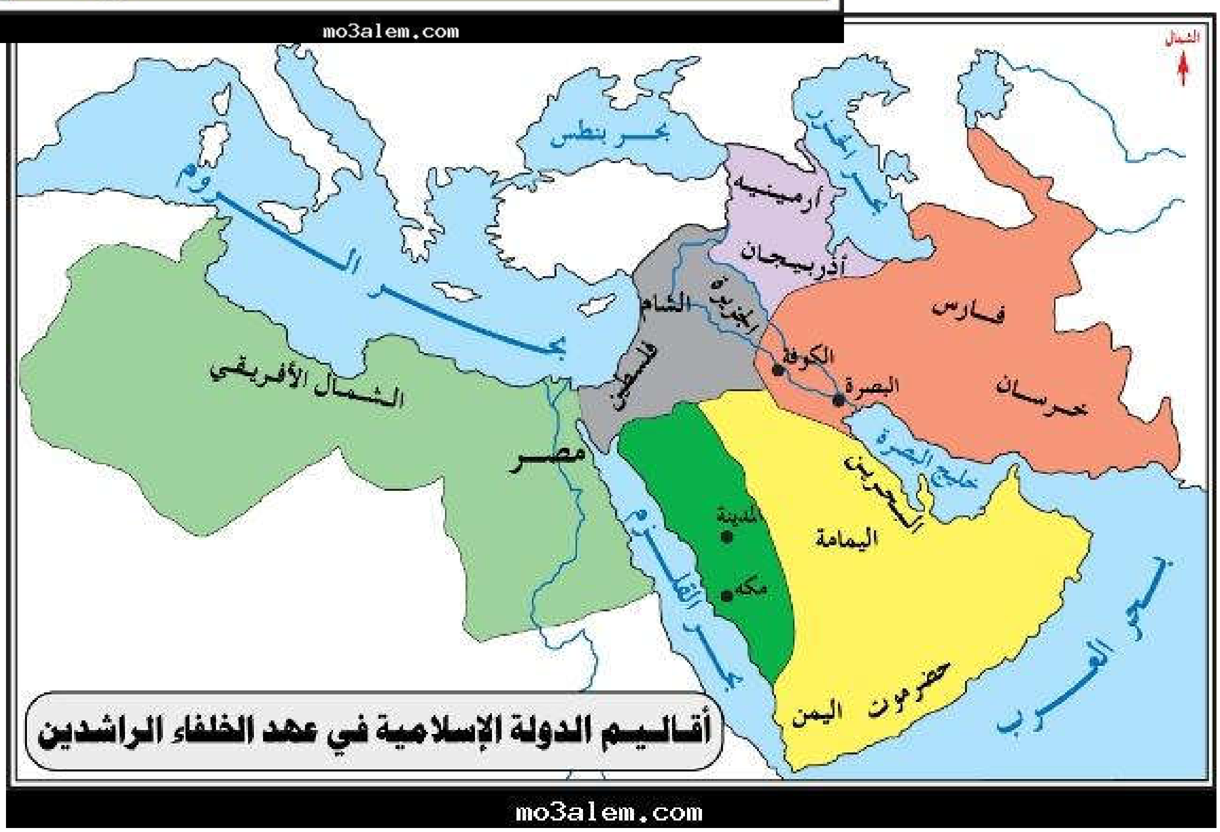
حملة اسامة بن زيد ضد الروم

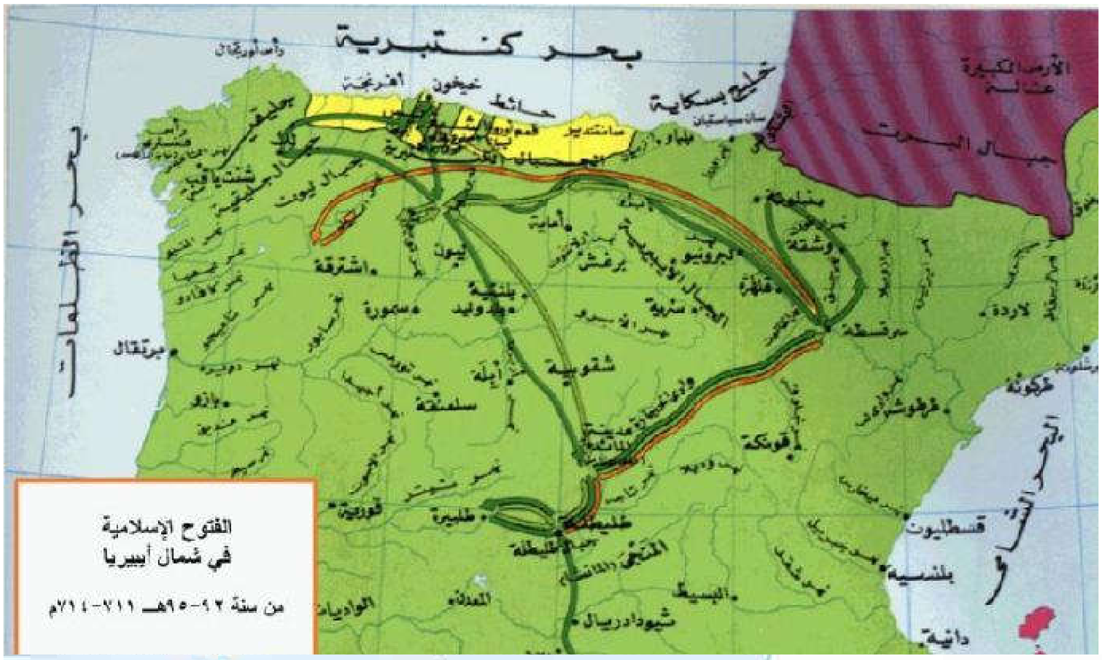






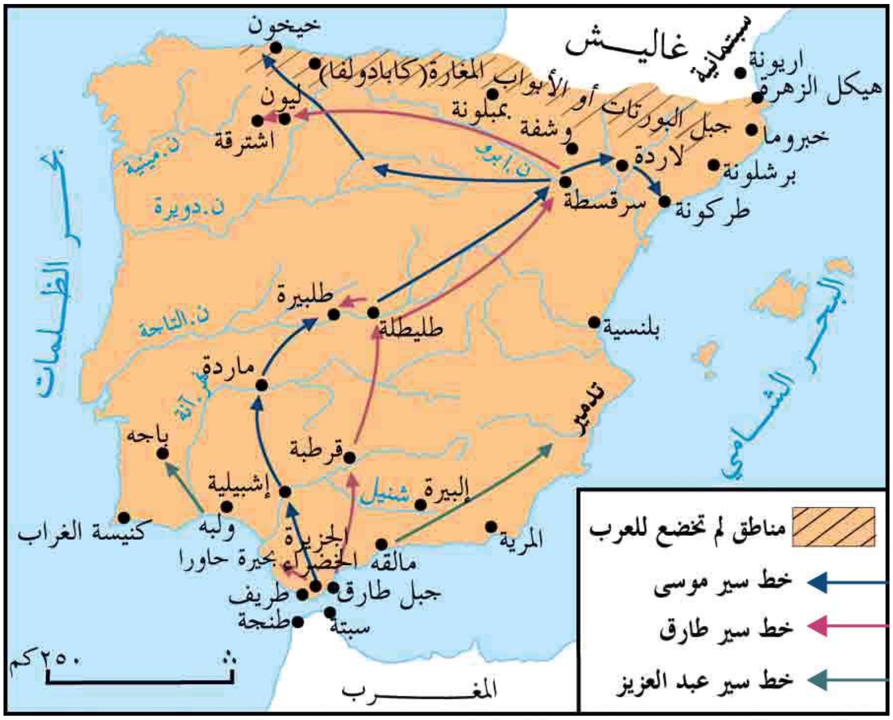
فتح الشام - خط سير خالد من العراق الى الشام استعدادا لمعركة اليرموك مع الروم



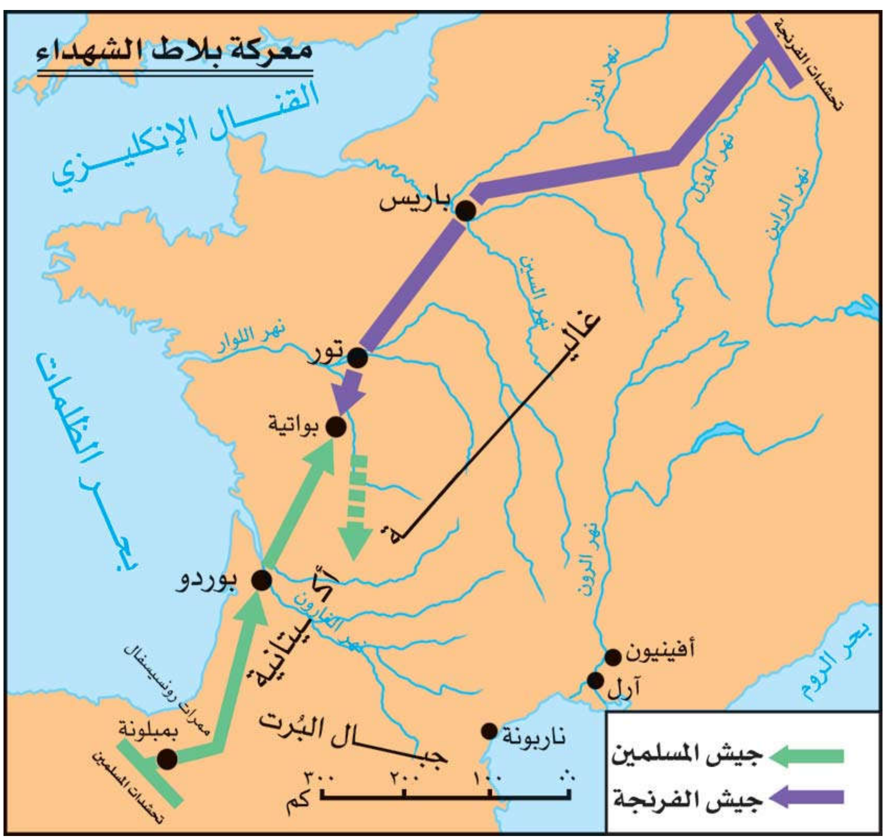




يلاحظ وجود اقاليم داخل الدولة الاسلامية غير خاضعة للمسلمين لدفعها الجزية (اللون الاخضر)

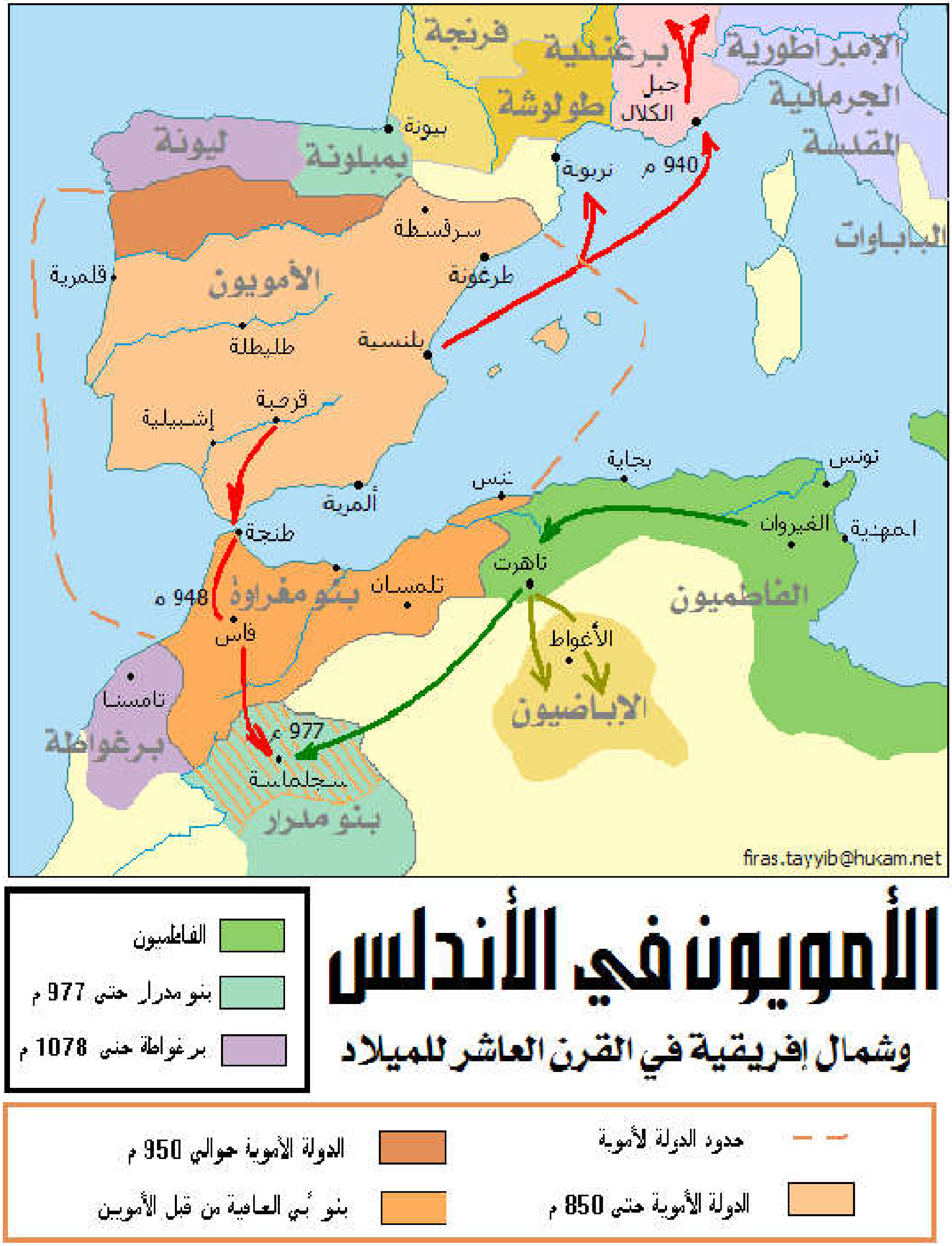


فتح الأندلس

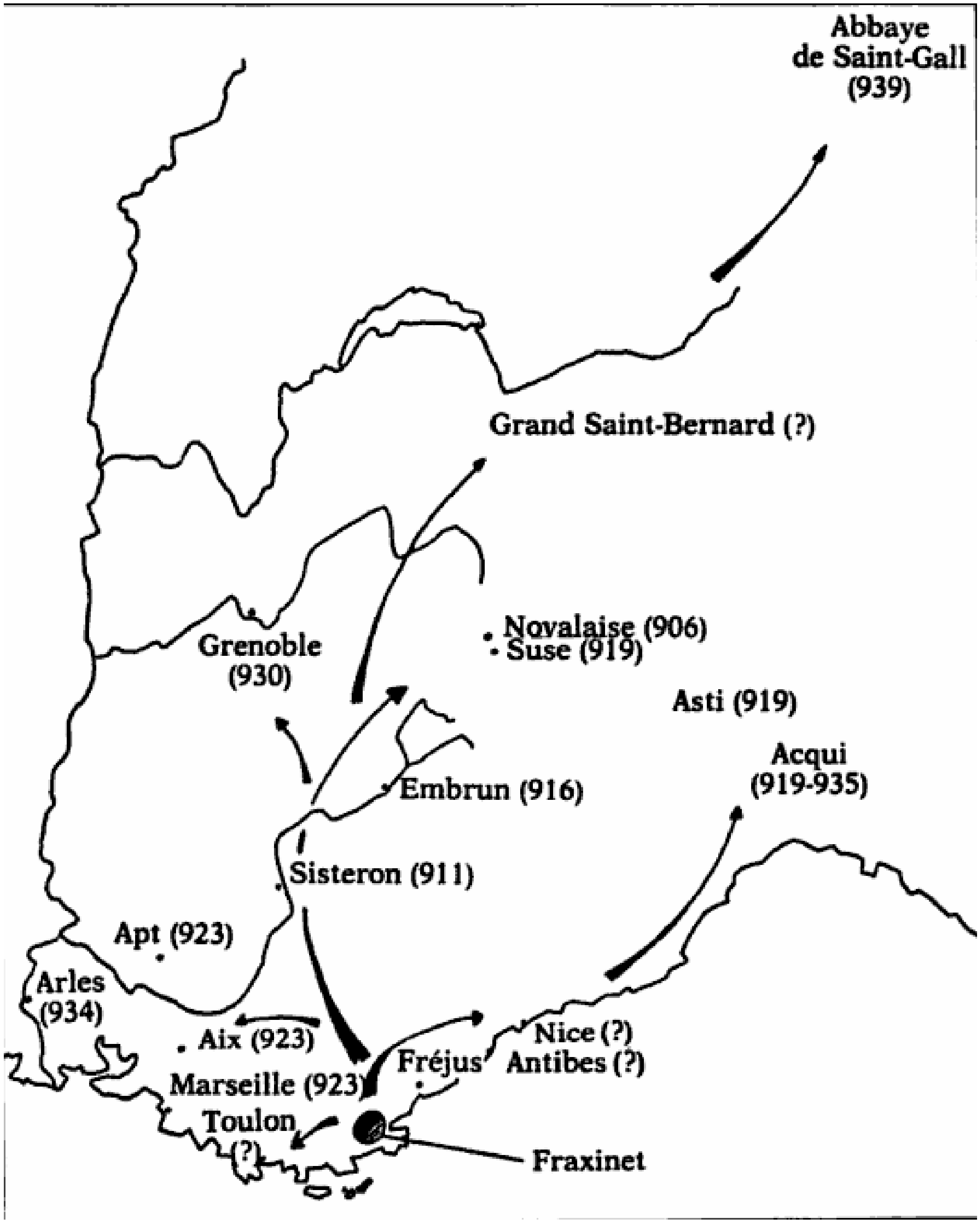


التغلغل الاسلامى - اوروبا فيما وراء الاندلس

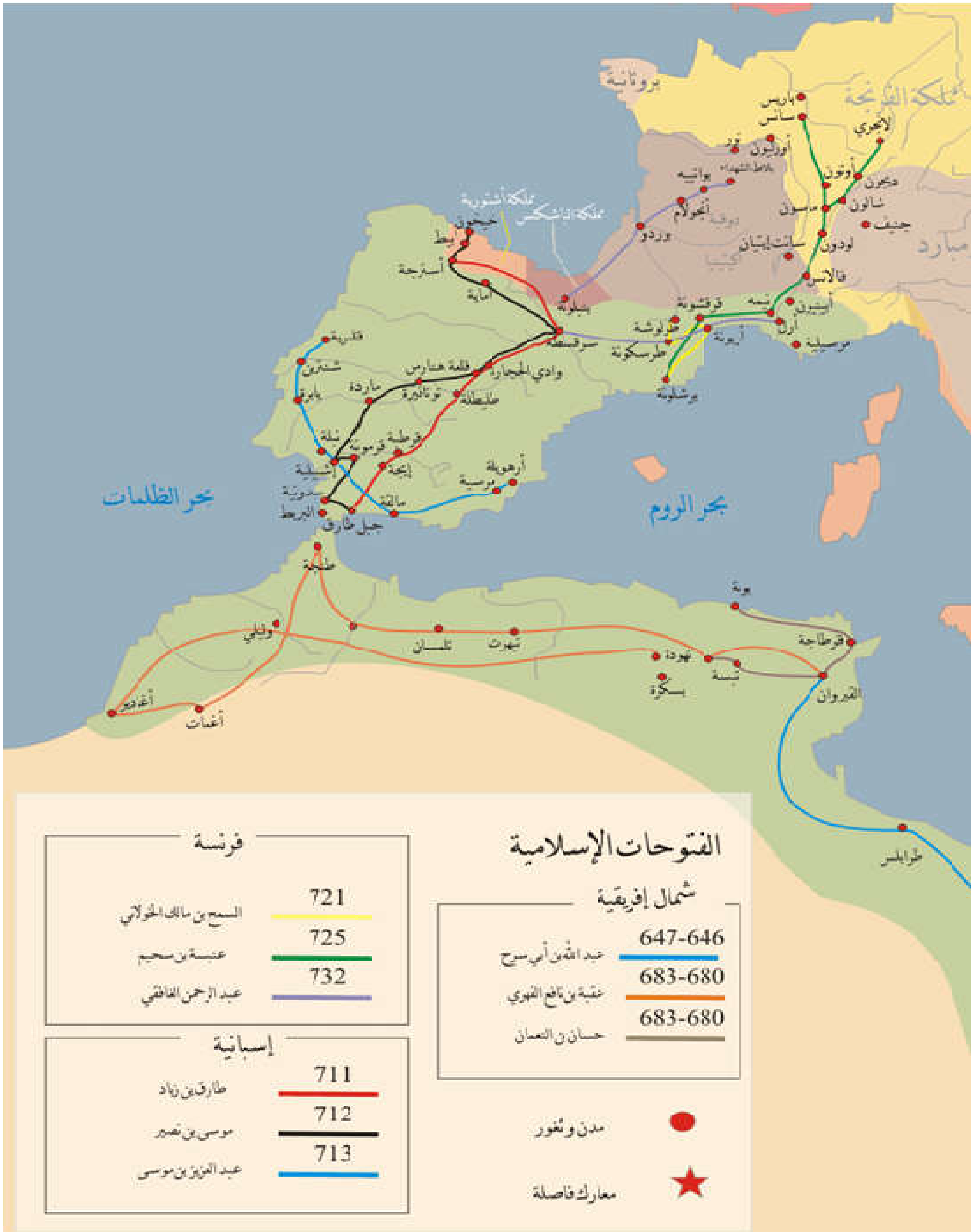
معركة بلاط الشهداء (بواتييه)



تقدم الاندلسيون (عهد الامارة الاموية والعمرية) فى فرنسا وسويسرا



منطقة توطن العرب فى جنوب فرنسا وموقع مستعمرة فراكسنت وخطوط تقدمهم فى سويسرا وشمال ايطاليا



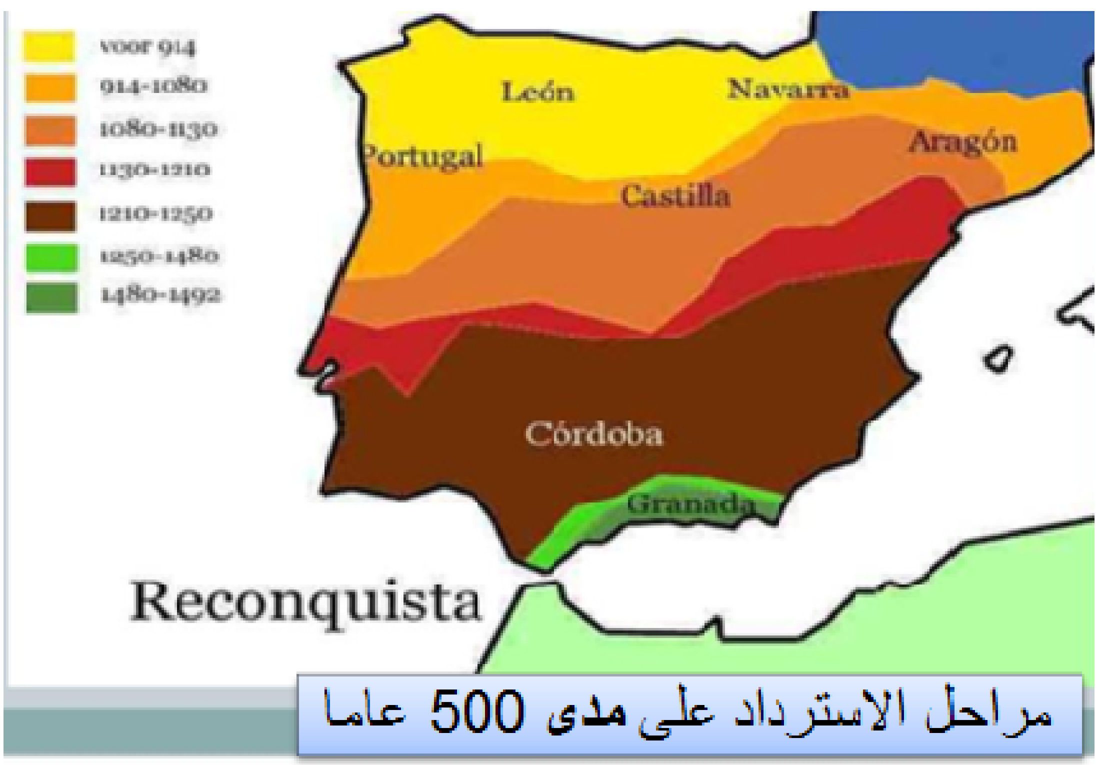
تقدم الاندلسيون فى فرنسا وسويسرا عبر العصور



تقدم الاغالبة (تونس) فى ايطاليا وسردينيا

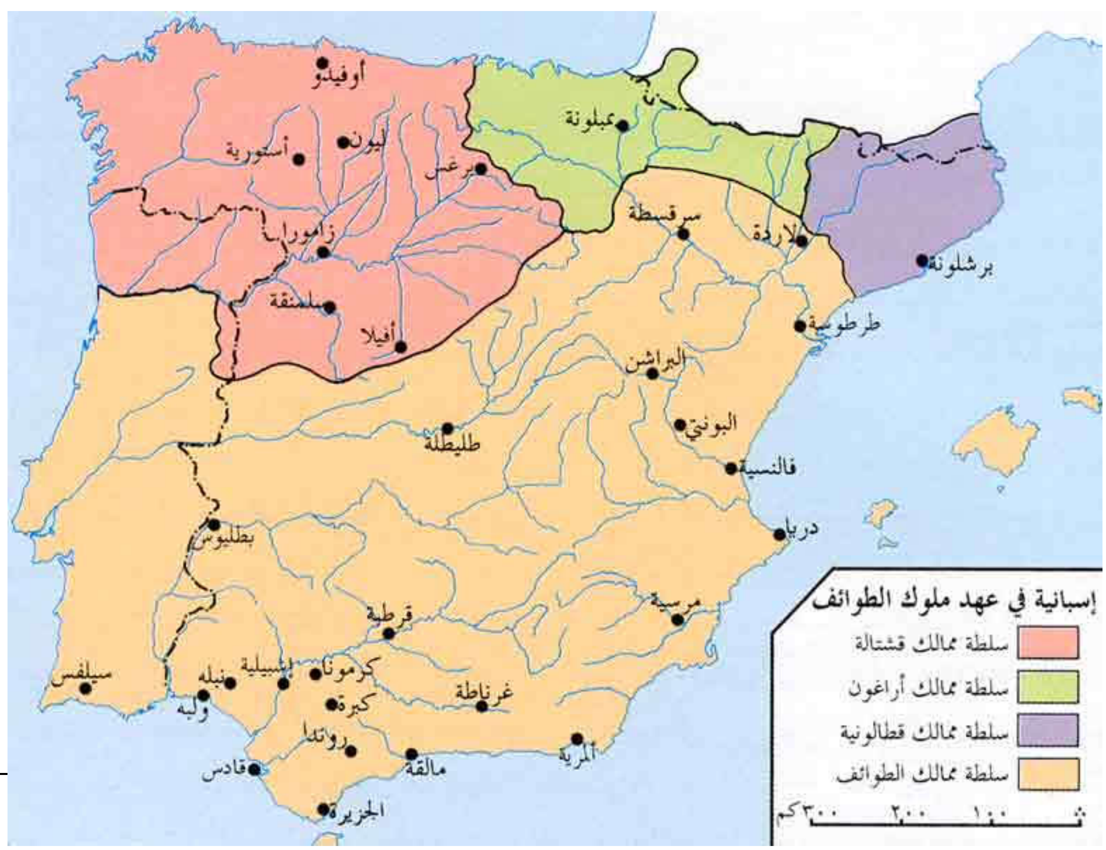
جدول رقم 1 : العصور التي توالت على حكم الأندلس

مسلسل	العصر	فترة العصر	كلمة موجزة عن العصر
1	عصر الولاة	95 – 138 هـ 714 – 756 م	بداية الدولة الأندلسية على يد طارق بن زياد بالتعاون مع موسى بن نصير . كان الوالي على الأندلس يعين من قبل الخليفة الأموي للمسلمين
2	الدولة الأموية بالأندلس	138 – 422 هـ 756 – 1031 م	اعتبارا من هذا العصر لم يعد لخليفة المسلمين سلطان على تعيين الولاة.. وإن كانوا يتبعون دولة الخلافة الإسلامية بالاسم فقط.
3	عصر ملوك الطوائف	422 – 484 هـ 1031 – 1092 م	ملوك الطوائف يحكمون الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . انقسمت الأندلس إلى 22 دويلة
4	المرابطون بالأندلس	484 – 540 هـ 1092 – 1146 م	أزال يوسف بن تاشفين حكم ملوك الطوائف . قام بتوحيد الدولة الأندلسية من جديد . انتصر على الصليبيين في معركة الزلاقة .
5	الموحدون بالأندلس	541 – 633 هـ 1147 – 1236 م	تنسب إلى محمد بن تومرت ، أسقط تلاميذه دولة المرابطين . انتصروا على الصليبيين في معركة الأرك ، هزمهم الصليبيون في معركة العقاب التي مهدت للسقوط الأخير .
6	دولة بني الأحمر – تكوين مملكة غرناطة	636 – 897 هـ 1239 – 1492 م	انحصر الوجود الإسلامي في جنوب أسبانيا فقط وعاصمتها غرناطة



مساحة التقهقر الإسلامي في الأندلس عبر العصور ([٣٥٥])

العصر	المساحة بالكيلومترات المربعة
عهد الولاة	٧٠٠,٠٠٠
عهد الأمويين أيام الناصر	٤٤٠,٠٠٠
عهد المنصور بن أبي عامر	٥٨٠,٠٠٠
عهد المرابطين	٢٥٠,٠٠٠
عهد الدولة النصرية	٣٠,٠٠







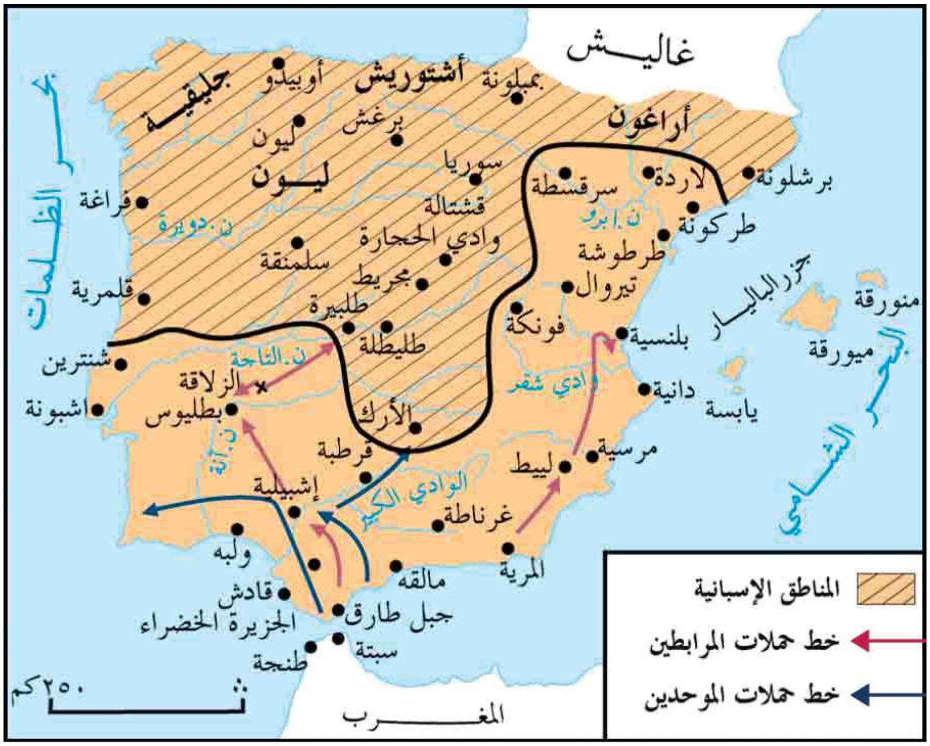
معركة الزلاقة - نصر



دولة المرابطون فى افريقيا والاندلس



معارك المرابطون والموحدون فى الاندلس



الأندلس في ظل المرابطين والموحدين

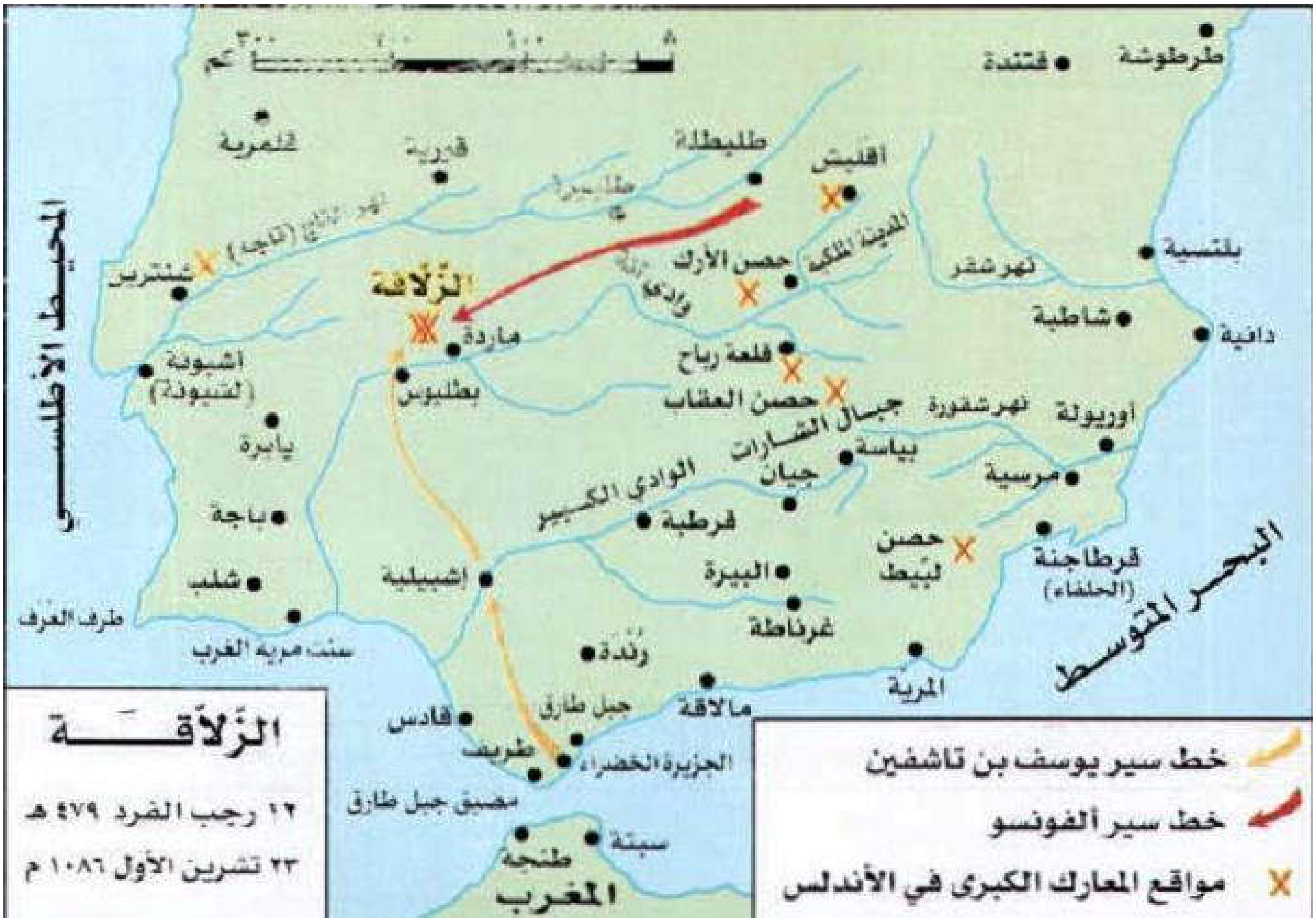


الموحدون و بنو غانية

الصراع بين الموحدين وبني غانية في شمال إفريقية
في القرن الثالث عشر للميلاد



الاندلس - النهاية فى غرناطة!



الزّلاّقـــــة
١٢ رجب الفرد ٤٧٩ هـ
٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦ م
خط سير يوسف بن تاشفين
خط سير ألفونسو
مواقع المعارك الكبرى في الأندلس
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
المغرب
طرطوشة
قتندة
قلمرية
قورية
طليطلة
اقليش
بلنسية
شنترين
الزّلاّقة
حصن الأرك
نهر شقر
شاطبة
دانية
اشبونة
(لشبونة)
ماردة
بطليوس
قلعة رباح
حصن العقاب
جبال الشارات
نهر شقورة
أوريولة
يابرة
الوادي الكبير
بياسة
جيان
مرسية
باجة
قرطبة
حصن لييط
قرطاجنة
(الحلفاء)
شلب
إشبيلية
البيرة
غرناطة
رُندة
المرية
مالاقة
قادس
جبل طارق
طريف
الجزيرة الخضراء
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة



أراغون
قشتالة
بطليوس
غرناطة



مملكة أراغون
مملكة ليون وقشتالة
مملكة البرتغال
مملكة غرناطة


الدولة الأموية
حدود الدولة حتى 661 م
حدود الدولة حتى 750 م
مناطق فتحها الأمويون مؤقتا
الدولة البيزنطية
معارك هامة
خط تقدم الفتوحات
firas.tayyib@hukam.net
بلاط الشهداء
فرنجة
بردیل
شنت يعقوب
سرقسطة
نربونة
طليطلة
بلنسية
قرطبة
إشبيلية
طنجة
بحر الظلمات
فاس
تلمسان
تاهرت
الأوراس
الورشيس
القيروان
تونس
تنس
تدلس
صقلية
سردينية
إفريقية
برقة
فزان
بحر الغزال
بحر الروم
إقريطش
البيزنطيون
البرغز
الخزر
بحر بنطش
القسطنطينية
أرمينية
أذربيجان
حلب
إنطاكية
الجزيرة
سامراء
الموصل
تبريز
أردبيل
جيلان
بحر الخزر
الديلم
طبرستان
خوارزم
خيوة
بخارى
سمرقند
ما وراء النهر
فرغانة
طلاس
خراسان
نيسابور
هراة
سجستان
السند
ملتان
كرمان
مكران
الديبل
الهند
شيراز
فارس
العراق
الجبل
الكوفة
البصرة
دمشق
الشام
القدس
الاسكندرية
الفسطاط
مصر
القلزم
أسوان
المدينة
الحجاز
مكة
الطائف
البحرين
اليمامة
مسقط
عمان
اليمن
صنعاء
عدن
حضرموت
ظفار
بحر الهند
الحبشة


الدولة العباسية
في
أقصى اتساعها
أوروبا
دولة الفرنجة
الأندلس
قرطبة
إيطاليا
صقلية
القسطنطينية
بحر بنطس
الدولة البيزنطية
بحر الخزر
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
القيروان
المغرب الأدنى
البحر المتوسط
دمشق
الكوفة
البصرة
العراق
فارس
كرمان
مكران
سجستان
خراسان
كابل
بخارى
فرغانة
نهر السند
الفسطاط
مصر
المدينة
مكة
شبه الجزيرة العربية
اليمن
البحر الأحمر
المحيط الهندي





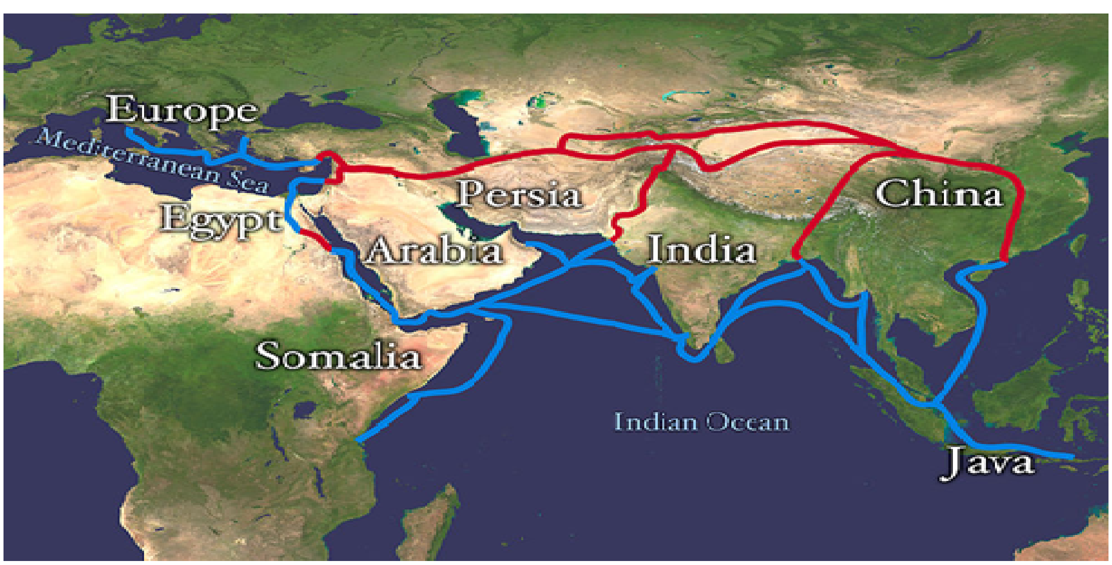


افريقيا جنوب الصحراء

تختلف المنظمات فى تعريف جنوب الصحراء- احيانا يستبعدون السودان بما فيه الجنوب ، ثم اعادوا اضافته الى جنوب الصحراء بعد انفصاله ، والامم المتحدة تعتبر السودان من جنوب الصحراء ، اما الخريطة السفلى فتعتمد التعريف الطبيعى الجغرافى وليس السياسى

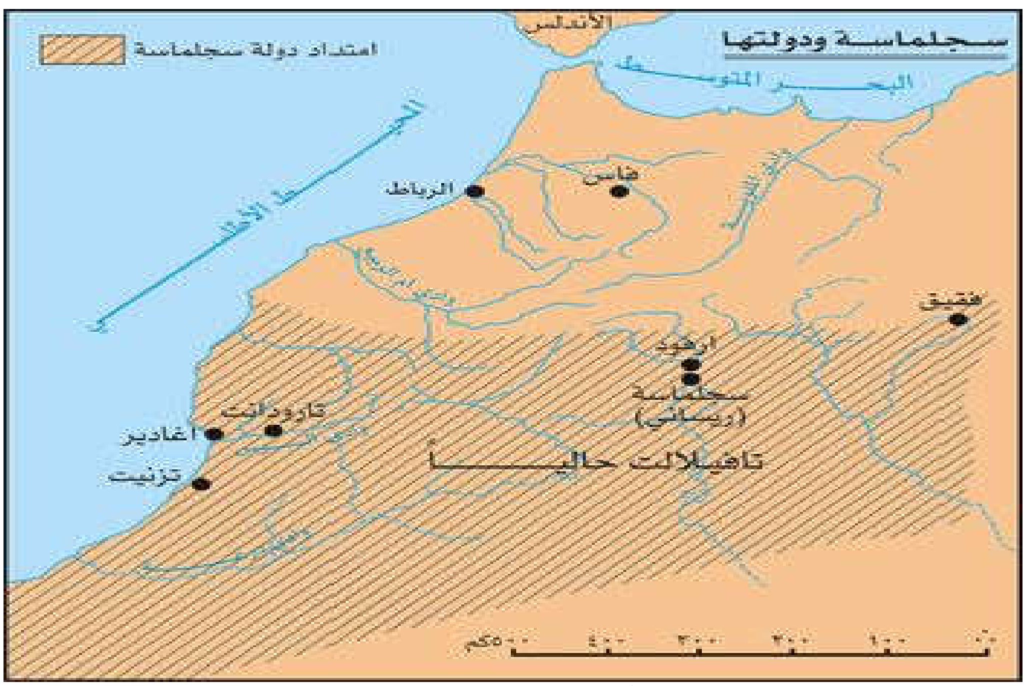


طرق التجارة العالمية المارة بارض الاسلام



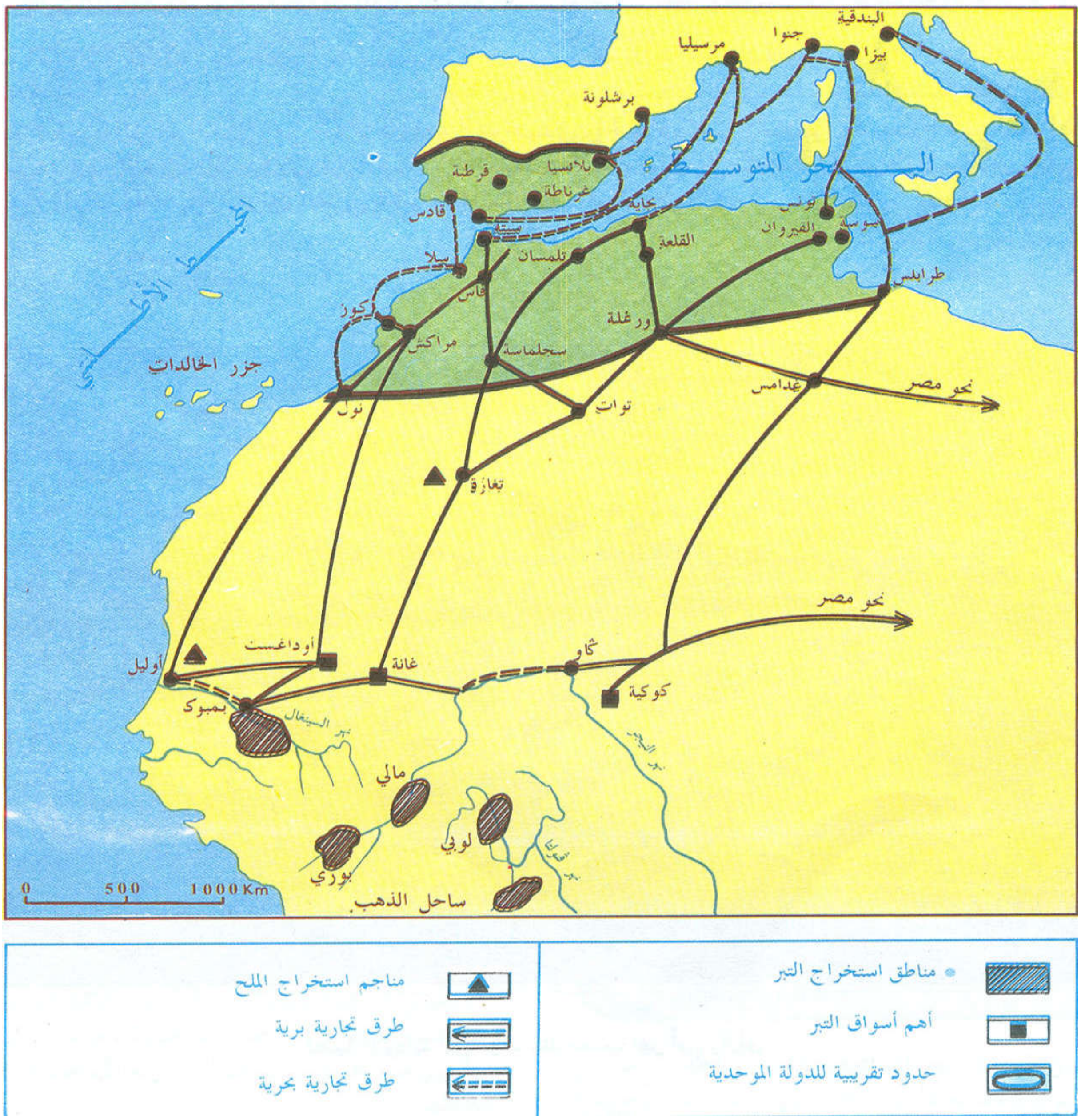


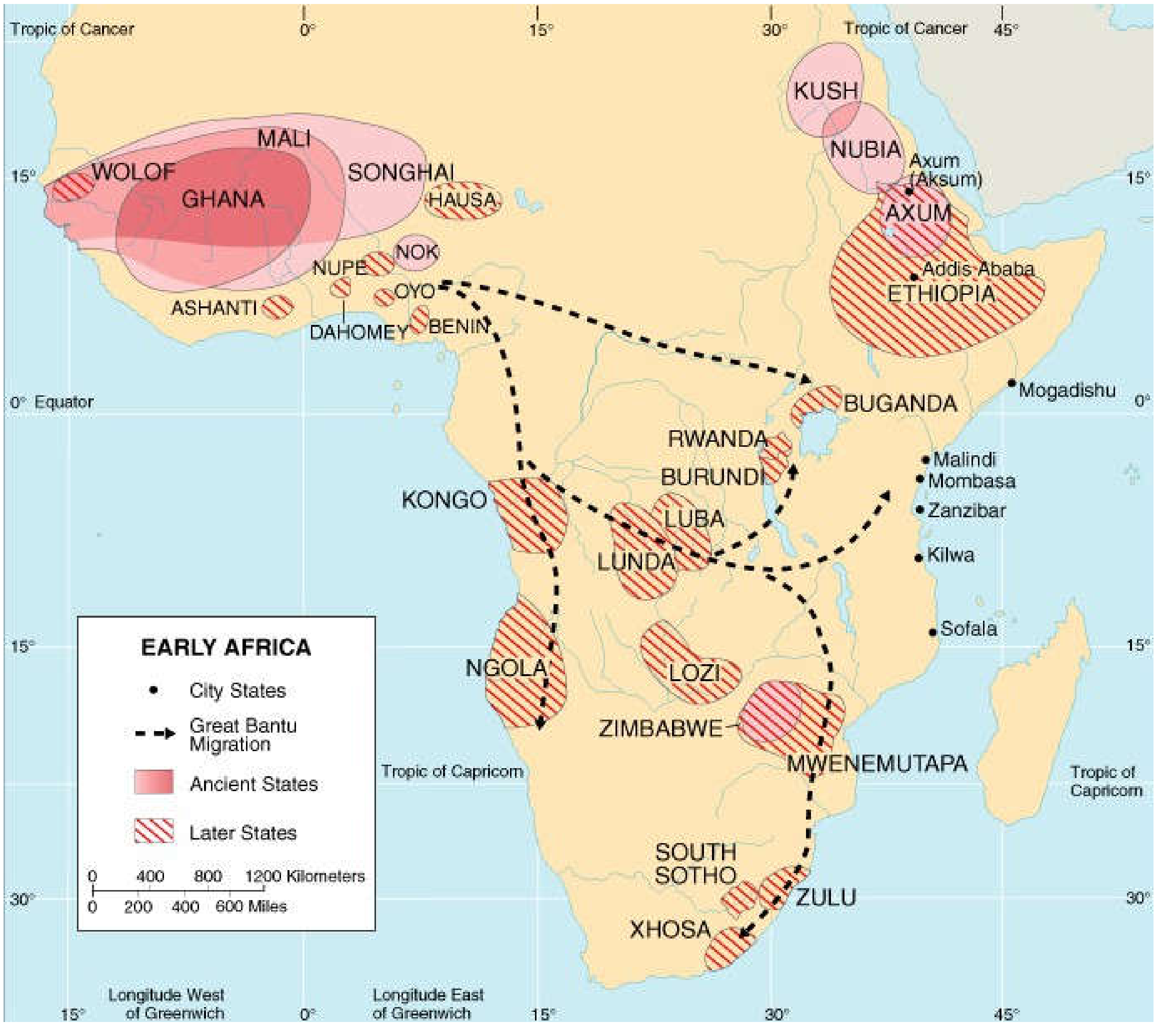
طرق التجارة فى غرب افريقيا



سجلماسة - طرق التجارة غرب افريقيا

طرق التجارة العابرة للأمبراطورية الموحدية عند منتصف القرن
السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي



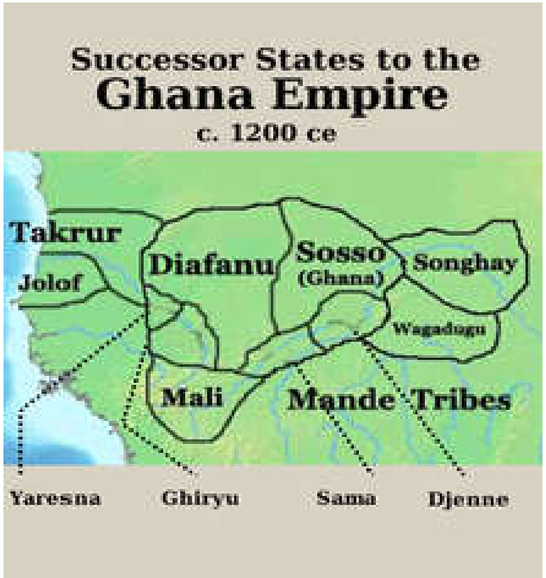


ممالك افريقيا القديمة فى الشرق :كوش – نوبيا – اكسوم .

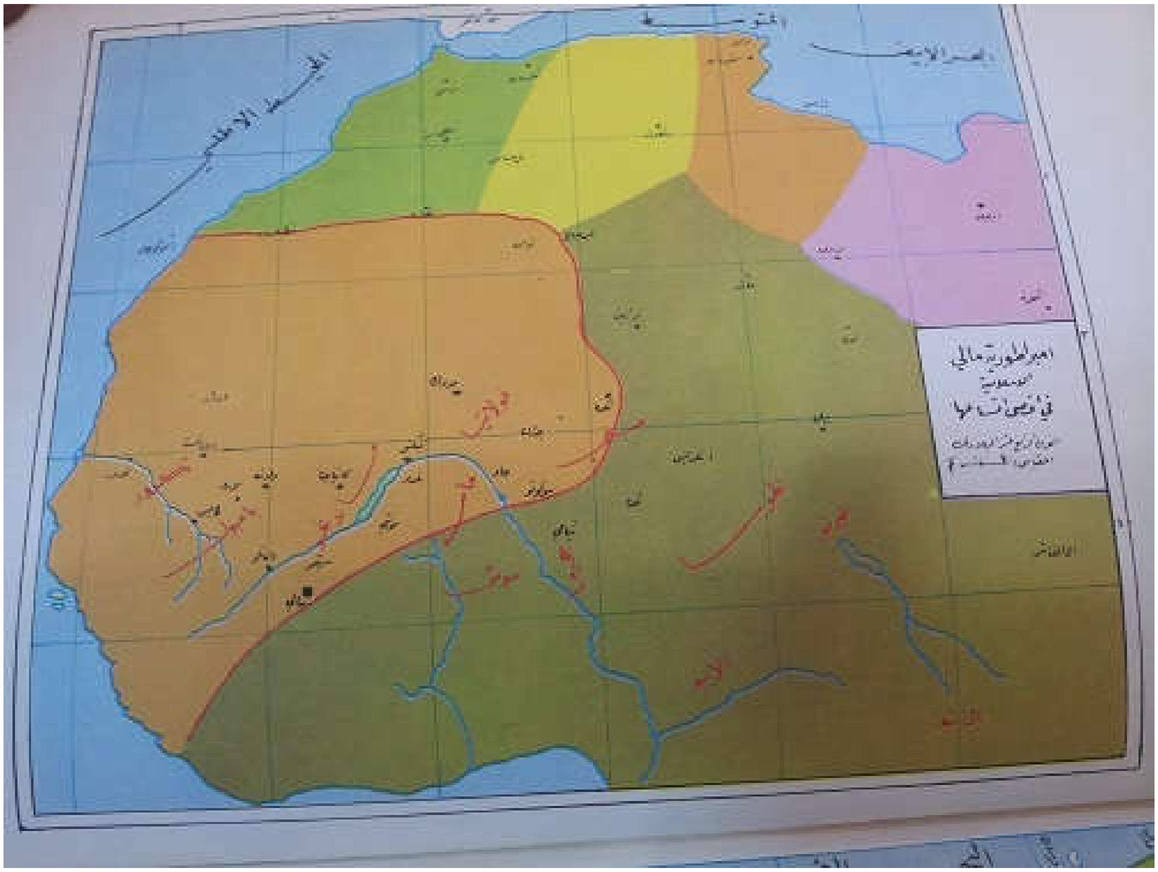
فى الغرب ممالك العصر الوسيط : غانة – مالى – صنغى ، ممالك امبراطورية فى القرن السادس عشر تقريبا : هاوسا ؛ الولوف



غانة الوثنية والاسلامية



ممالك ما بعد زوال غانة



امبراطورية مالى

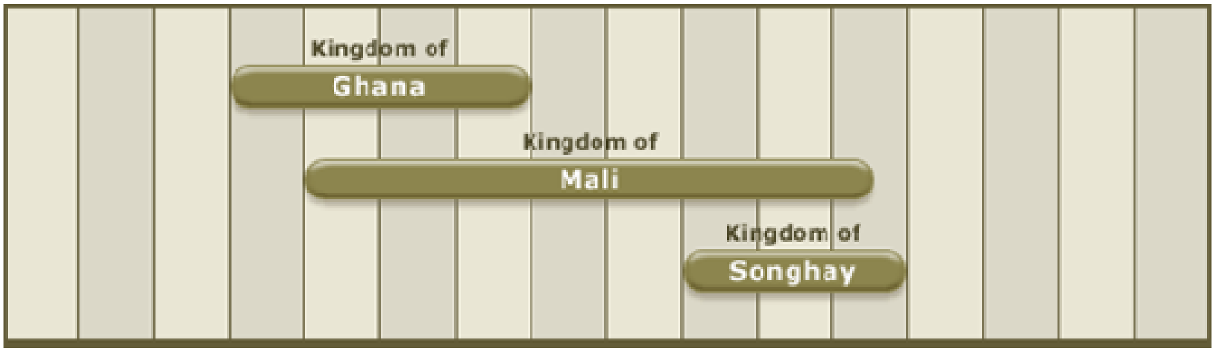




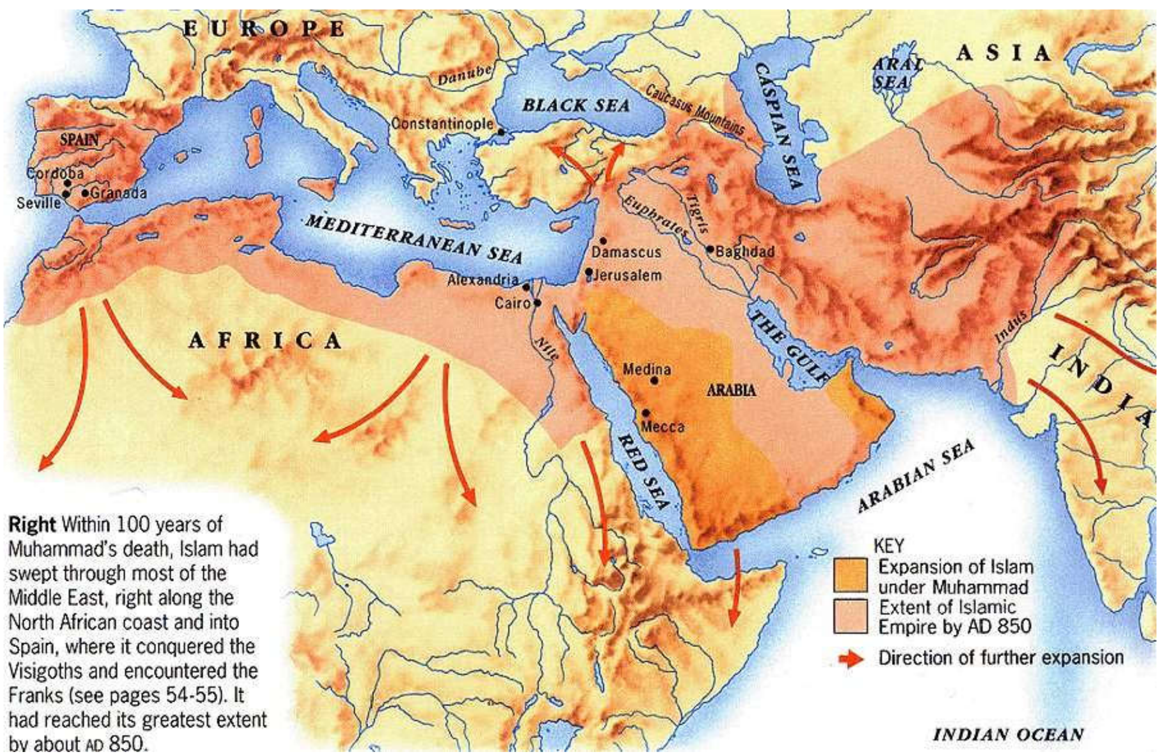
امبراطورية صنغى المسلمة



التداخل الجغرافى بين ممالك الاسلام غانة ومالى وصنغى   فى غرب افريقيا

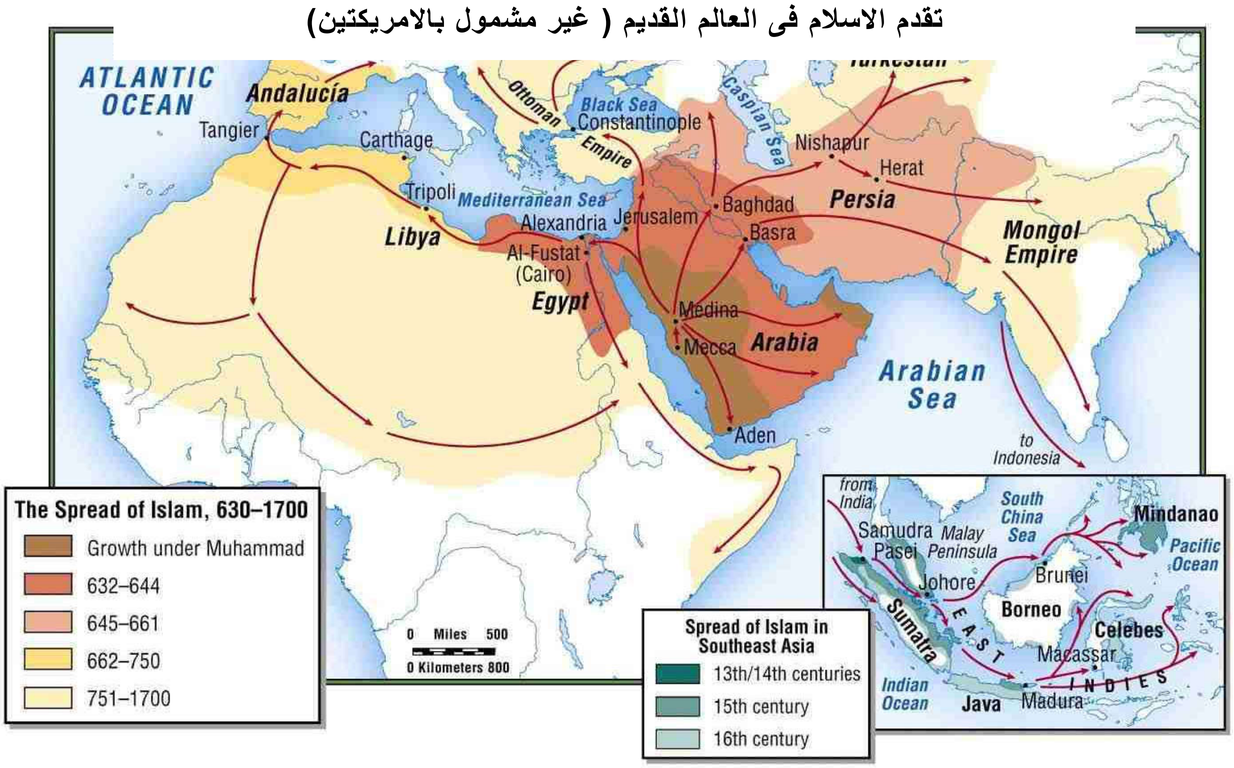


التداخل الزمنى بين ممالك الاسلام

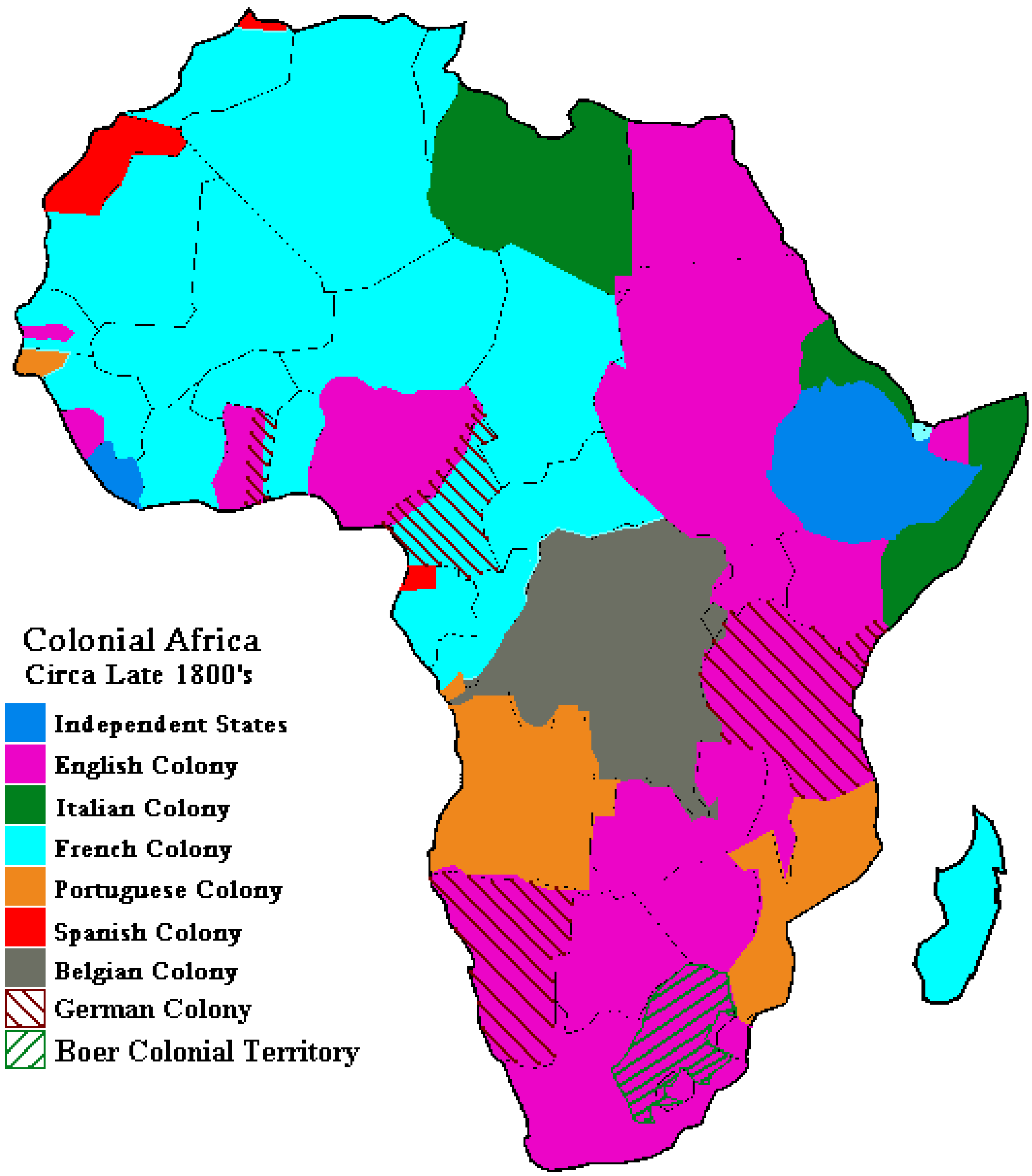


مد الاسلام فى افريقيا

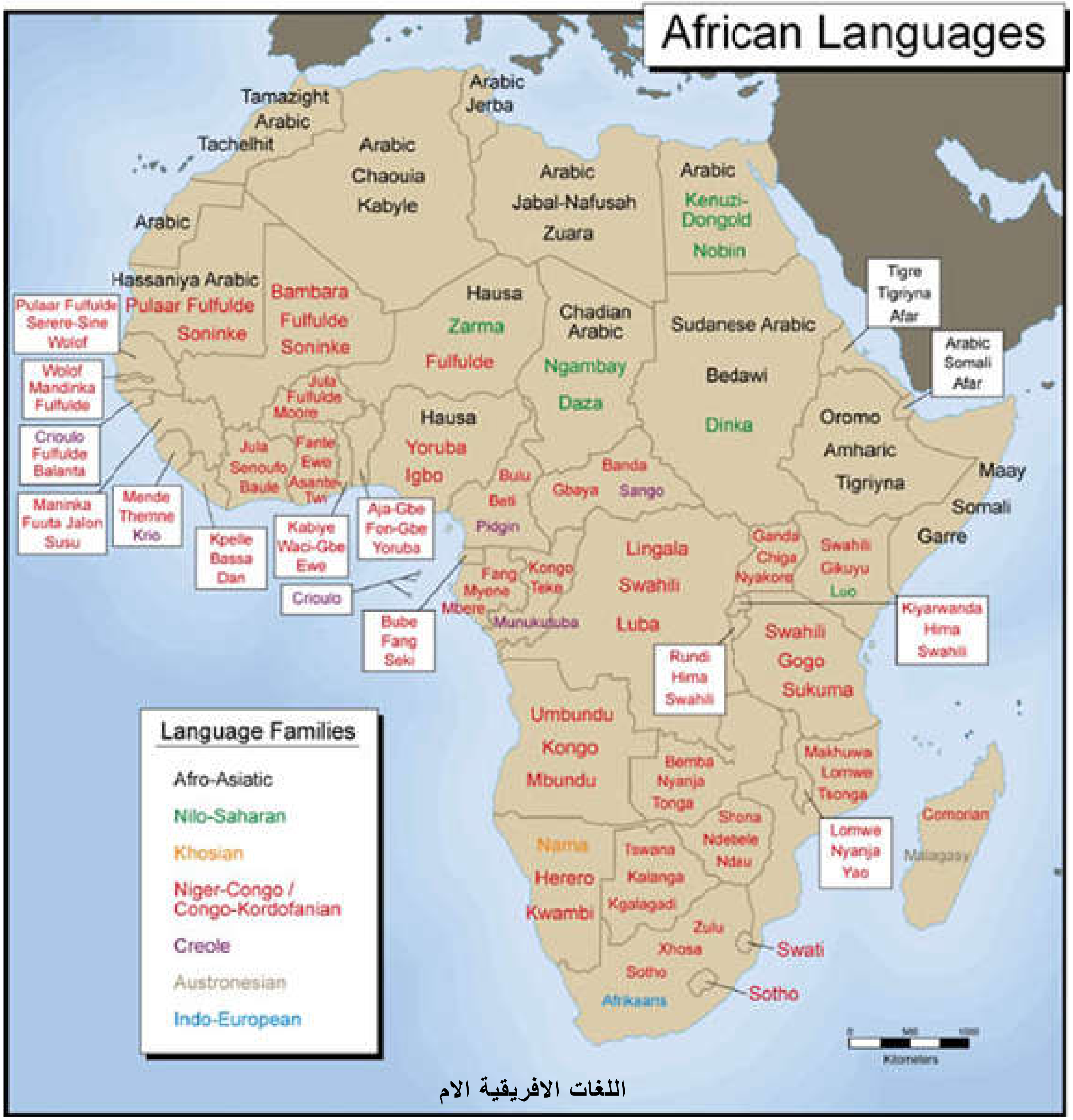
تقدم الاسلام فى العالم القديم (غير مشمول بالامريكتين)



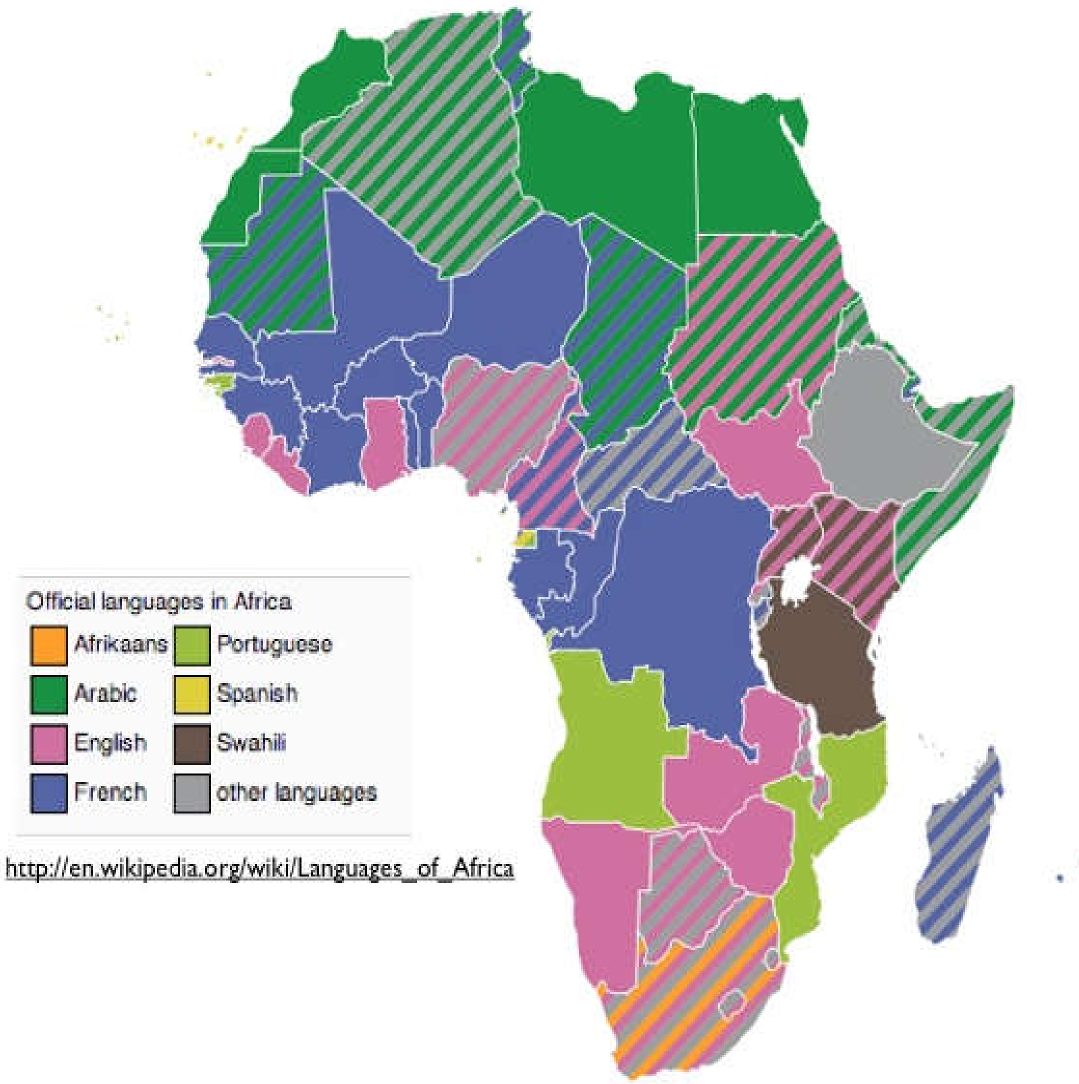
اثر السيطرة الاستعمارية على افريقيا دينيا وثقافيا ولغويا



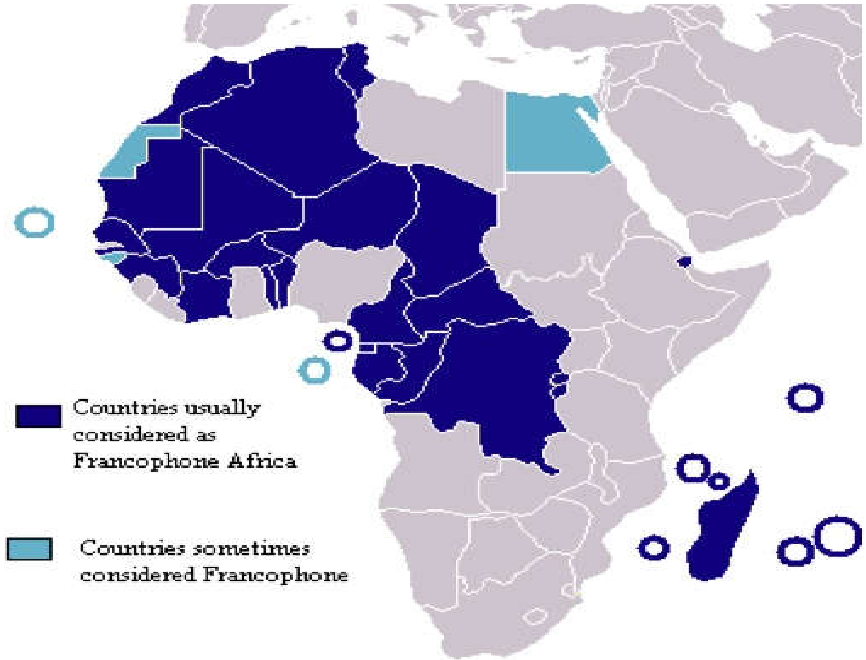
الاستعمار الاوروبى يغطى معظم القارة – توزيع المستعمرات بين المستعمرين



اللغات الافريقية الام



التأثير الثقافى للاستعمار – إنتشار لغاته



http://en.wikipedia.org/wiki/File:Francophone_Africa.png

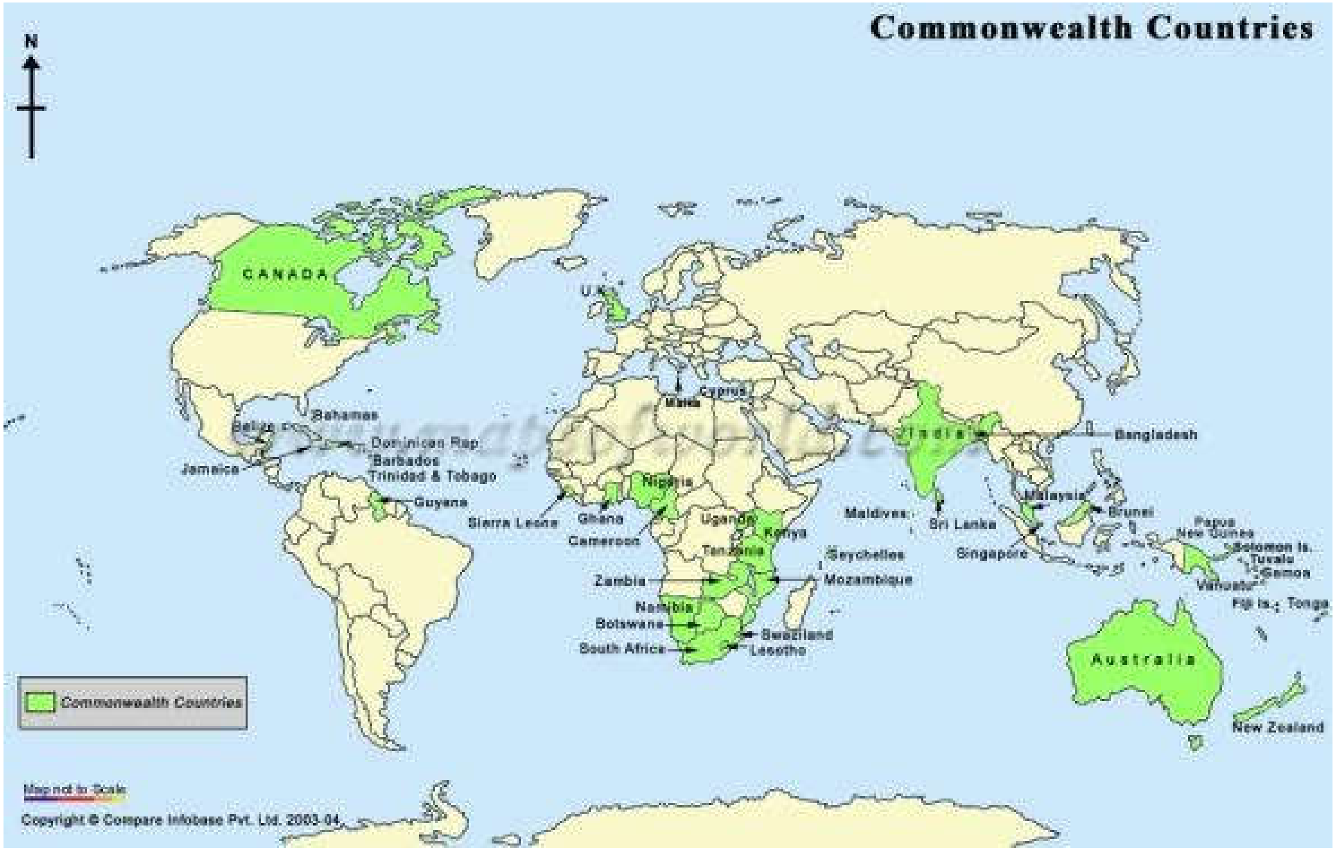
التوزيع الجغرافى للغات افريقيا الرئيسية والاكثر انتشارا - العربية - الانجليزية - الفرنسية - البرتغالية - الاسبانية - السواحيلى - الهوسا - لغات محلية اخرى

الانتشار الجغرافى للاستعمار الفرنسى فى العالم

(كتلته الرئيسية فى افريقيا)

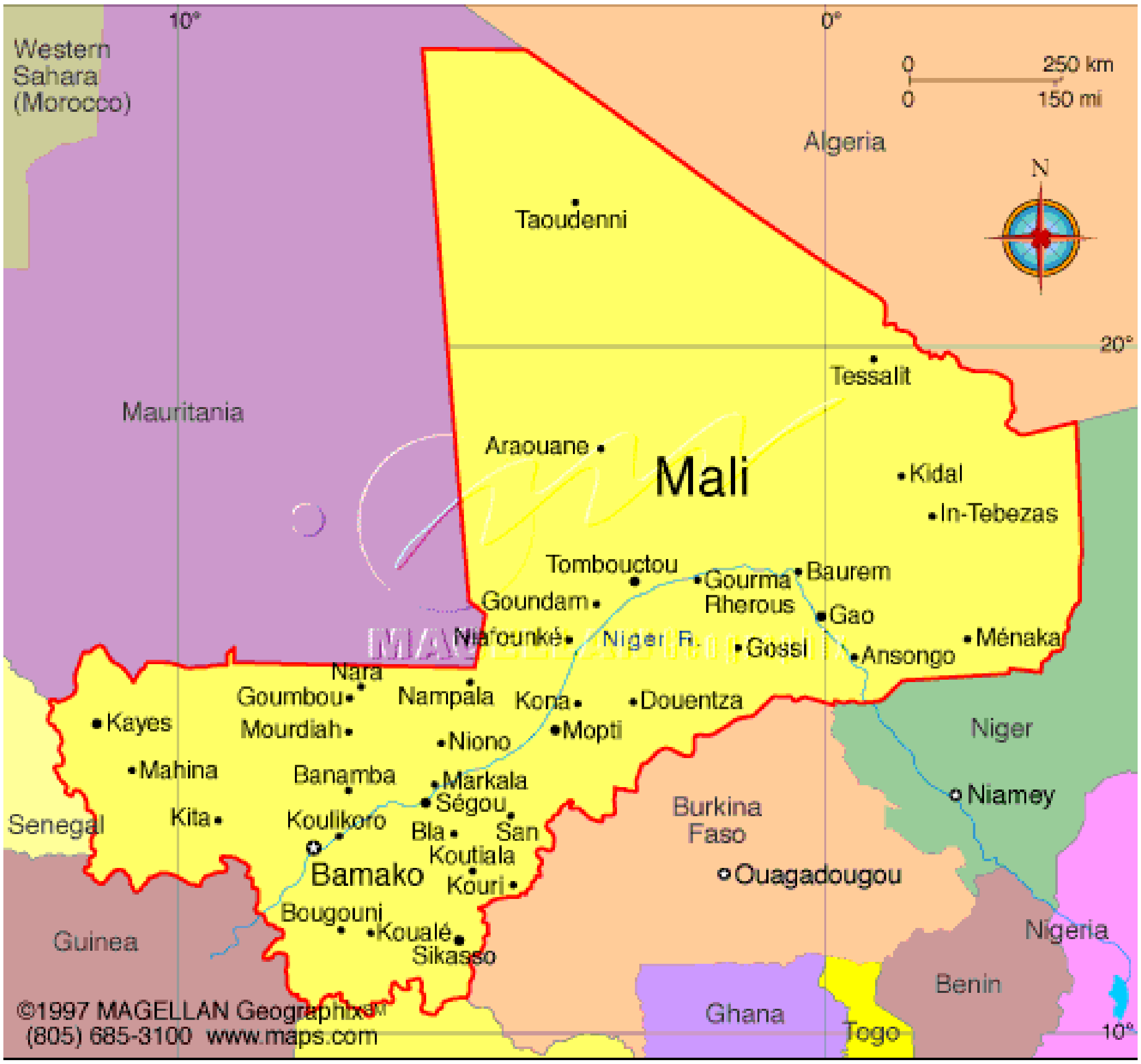
التأثير السياسى للمستعمر قيام تعاون جماعى بعد الاستقلال - جمعتهم مع فرنسا منظمة الفرانكوفونية وكتلتها الثقافية





الكومنولث جمع بريطانيا مع مستعمراتها السابقة ودوله:

Belize	Malaysia	Solomon Islands
Botswana	Maldives	South Africa
Brunei Darussalam	Malta	Sri Lanka
Cameroon	Mauritius	Swaziland
Canada	Mozambique	United Republic of Tanzania
Cameroon	Namibia	Tonga
Cyprus	Nauru	Trinidad and Tobago
Dominica	New Zealand	Tuvalu
Fiji Islands	Nigeria	Uganda
The Gambia	Pakistan	United Kingdom
Ghana	Papua New Guinea	Vanuatu
Grenada	Saint Kitts and Nevis	Western Samoa
Guyana	Saint Lucia	Zambia



موقع مملكة سيكاسو - باع الفرنسيون اهلها المسلمون عبيدا

تنكيلا بسلطانها وعناده فى المقاومة

ملحق

العلاقة الابدية بين فراعنة مصر وكوش

اثار الفراعنة النوبيون (فراعنة كوش) معابد جبل مروى





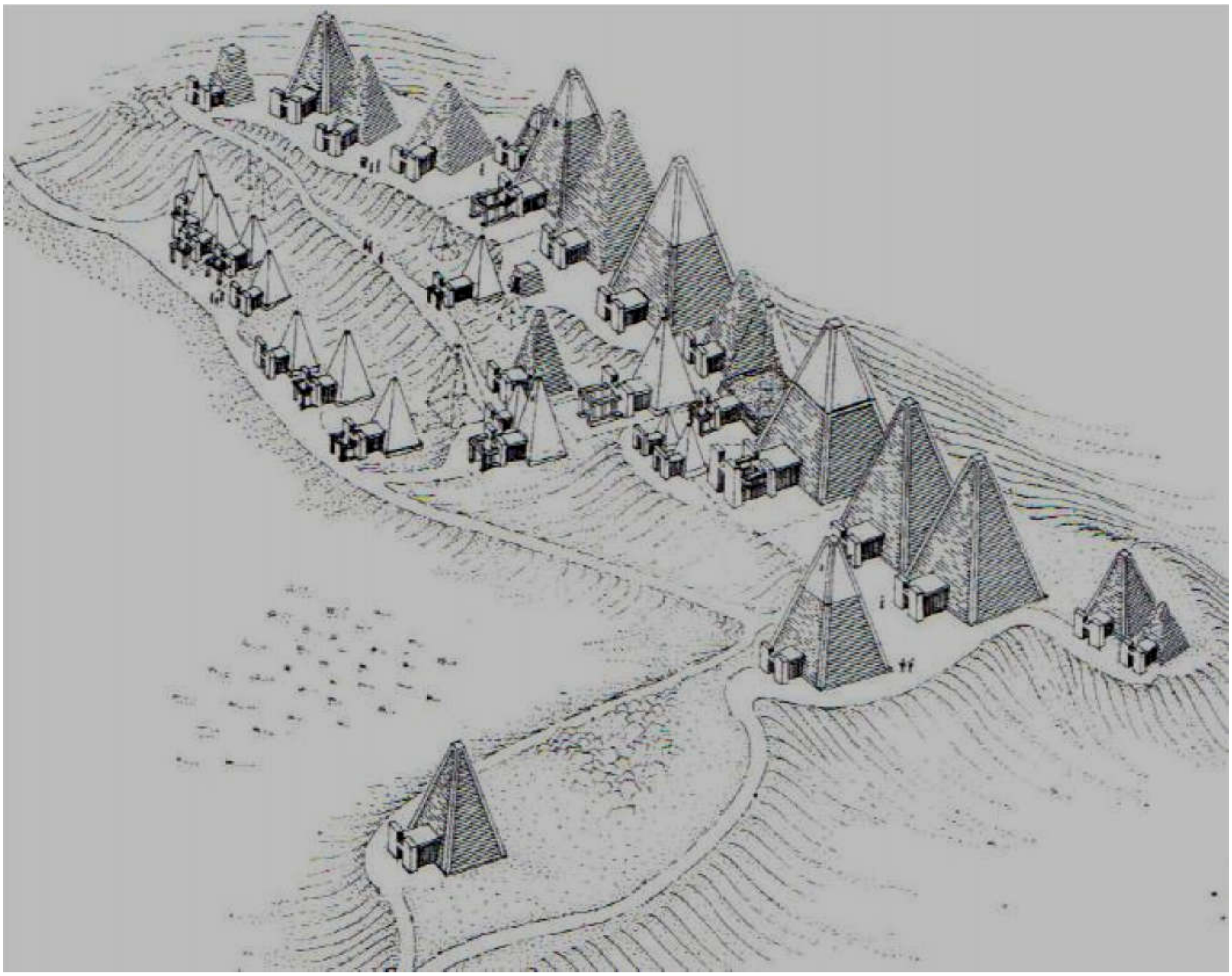


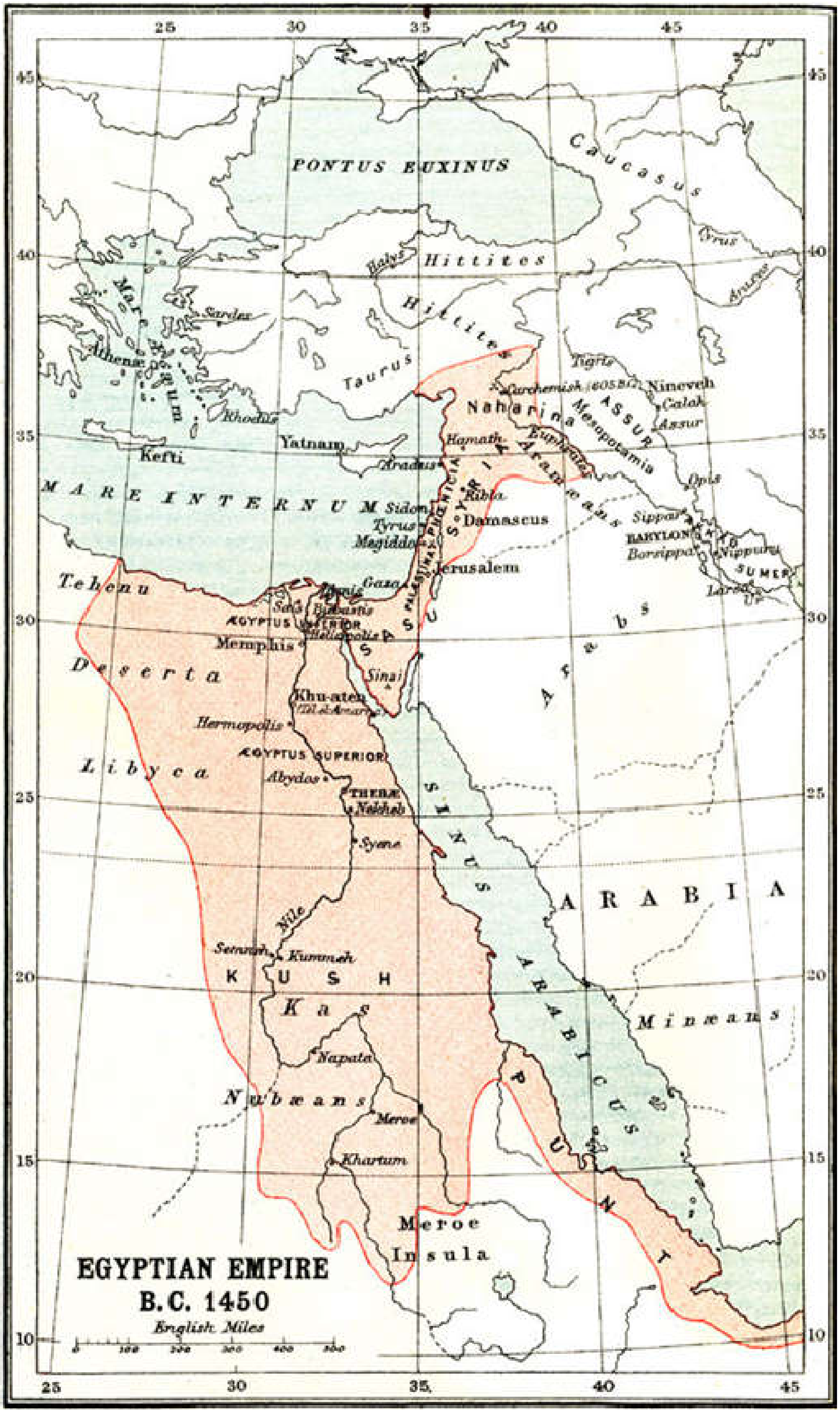


The Temple of Mut (Temple B300), carved partly into the rock base of Gebel Barkal, was built by the pharaoh Taharqa in the 680s BCE.









امبراطورية احمس الافريقية



امبراطورية الاسرة العلوية الافريقية عام ١٨٨٠

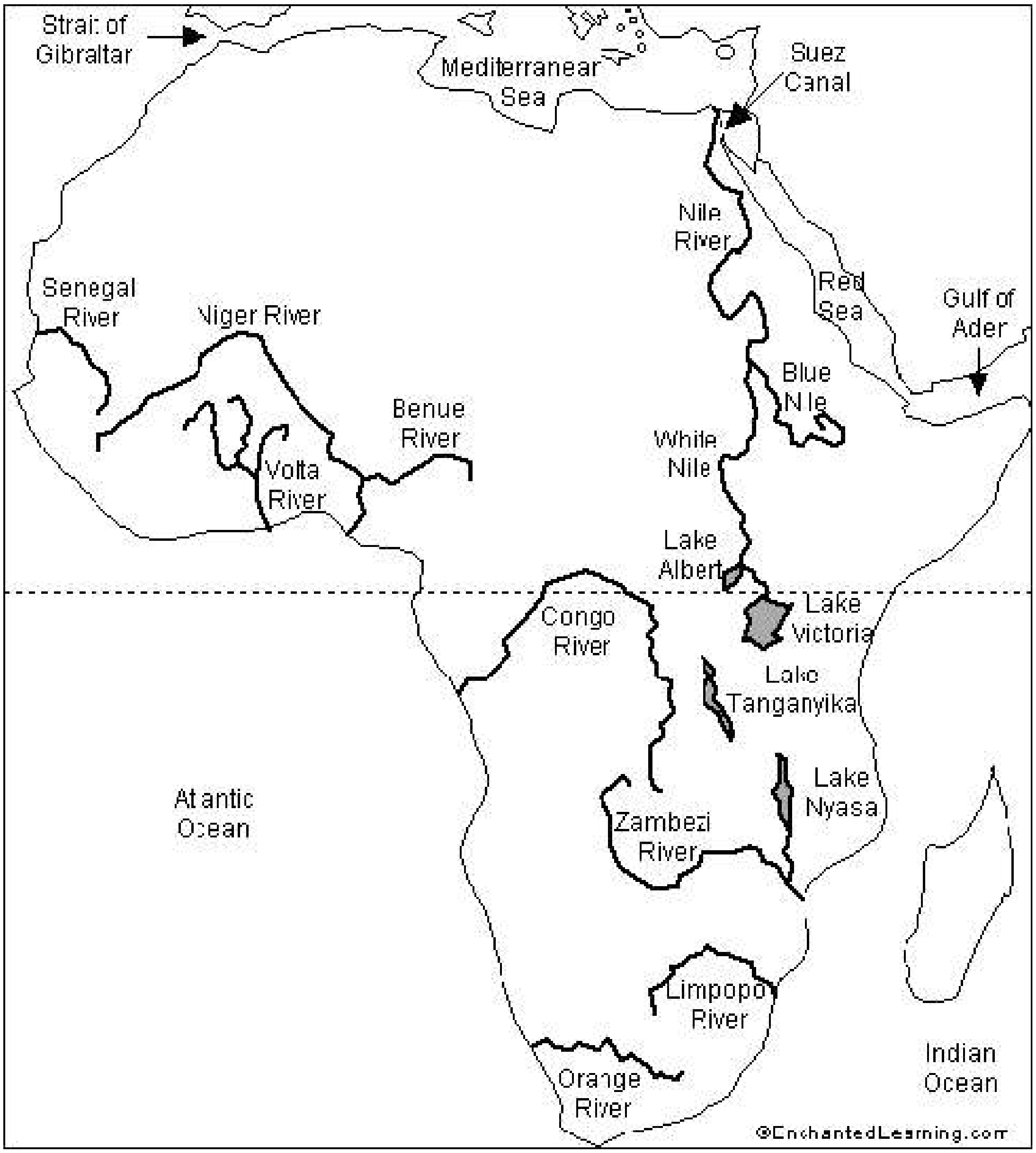


ممتلكات مصر الافريقية تحت الانتداب البريطانى

النيل الخالد

انهار افريقيا وبحيراتها

١



النيل عصب الحياة فى مصر وهدف التوسع المصرى - كادت مصر ان تستقر على منابعه لولا المخططات الاجنبية التى جردت مصر من ممتلكاتها ووضعتها تحت الحماية

ملحق
حضارة غرب افريقيا





مقبرة اسكّيا محمد









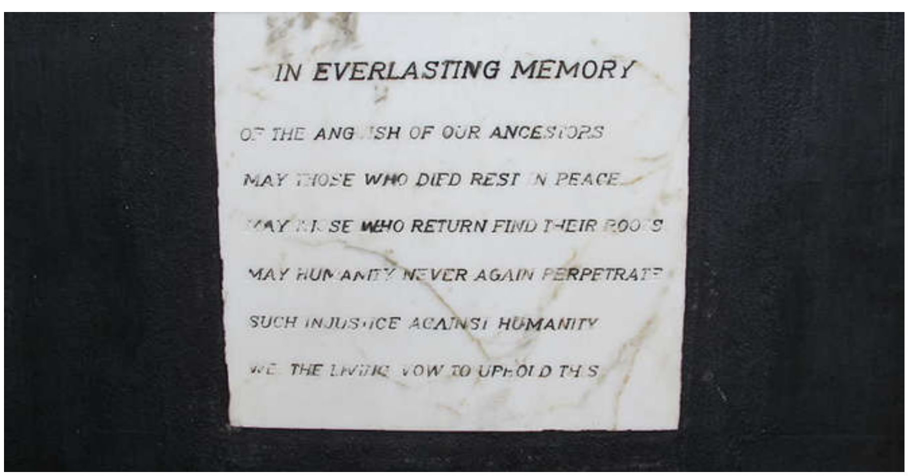
مسجد سنجور بتمبكتو





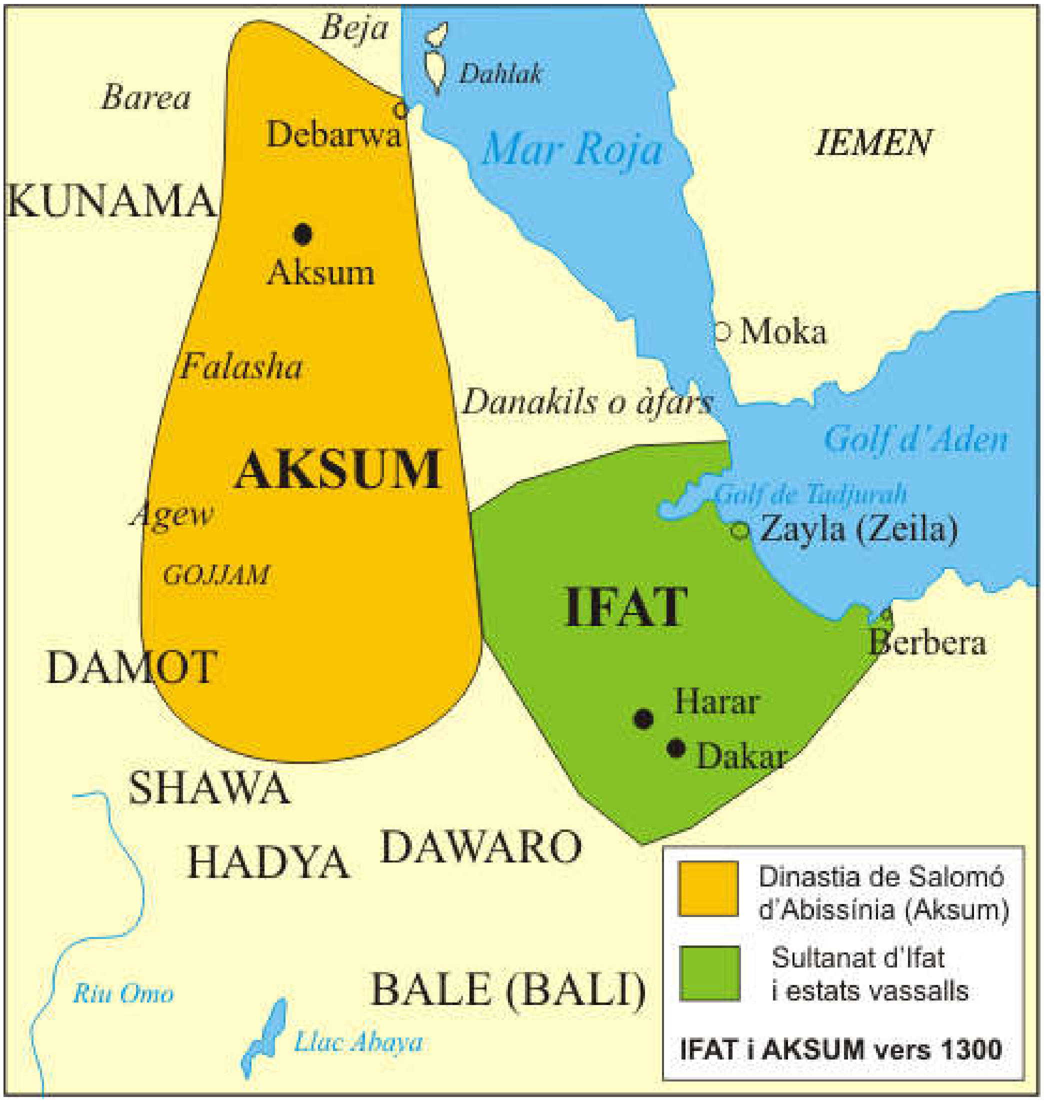


قلعة مينا البرتغالية لحبس العبيد قبل ترحيلهم من غانا - كنيسة قلعة مينا للعبيد – مدافع القلعة ثم كنيسة تعميد العبيد ثم المحابس ثم لوحة تذكارية

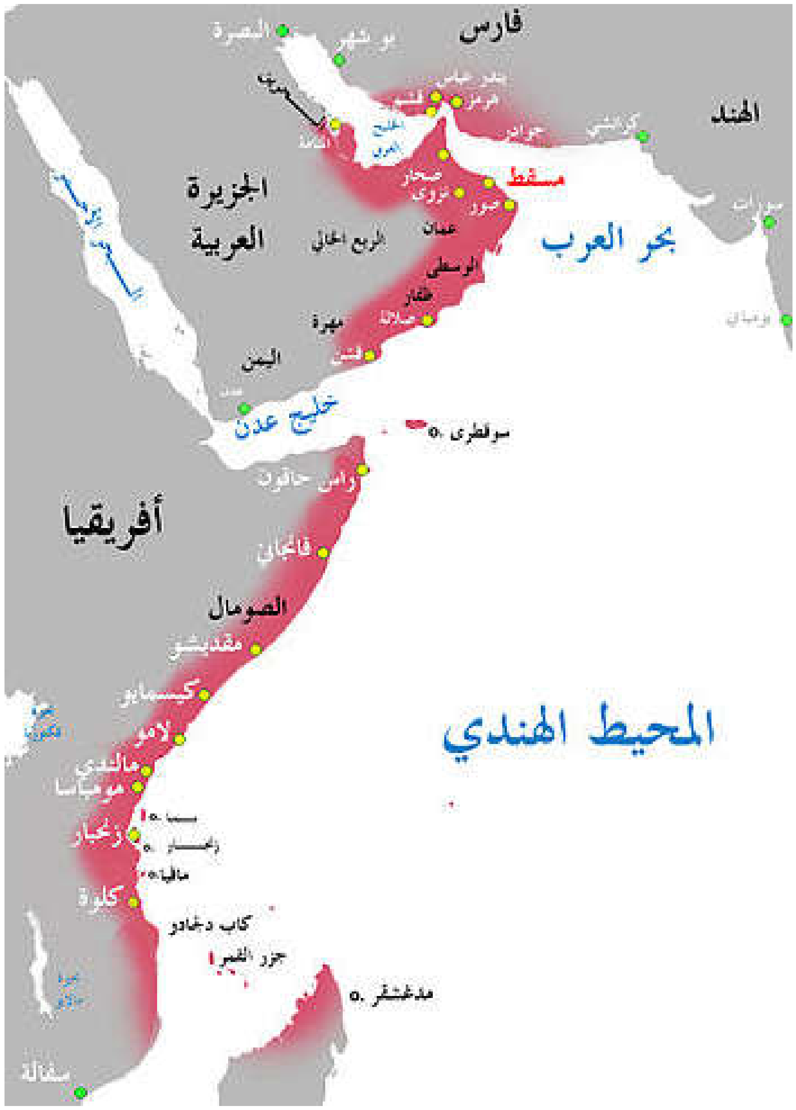


سلطنات الاسلام فى شرق افريقيا عام ١٣٠٠ تقريبا

الهضبة الحبشية والصومالية وساحل البحر الاحمر

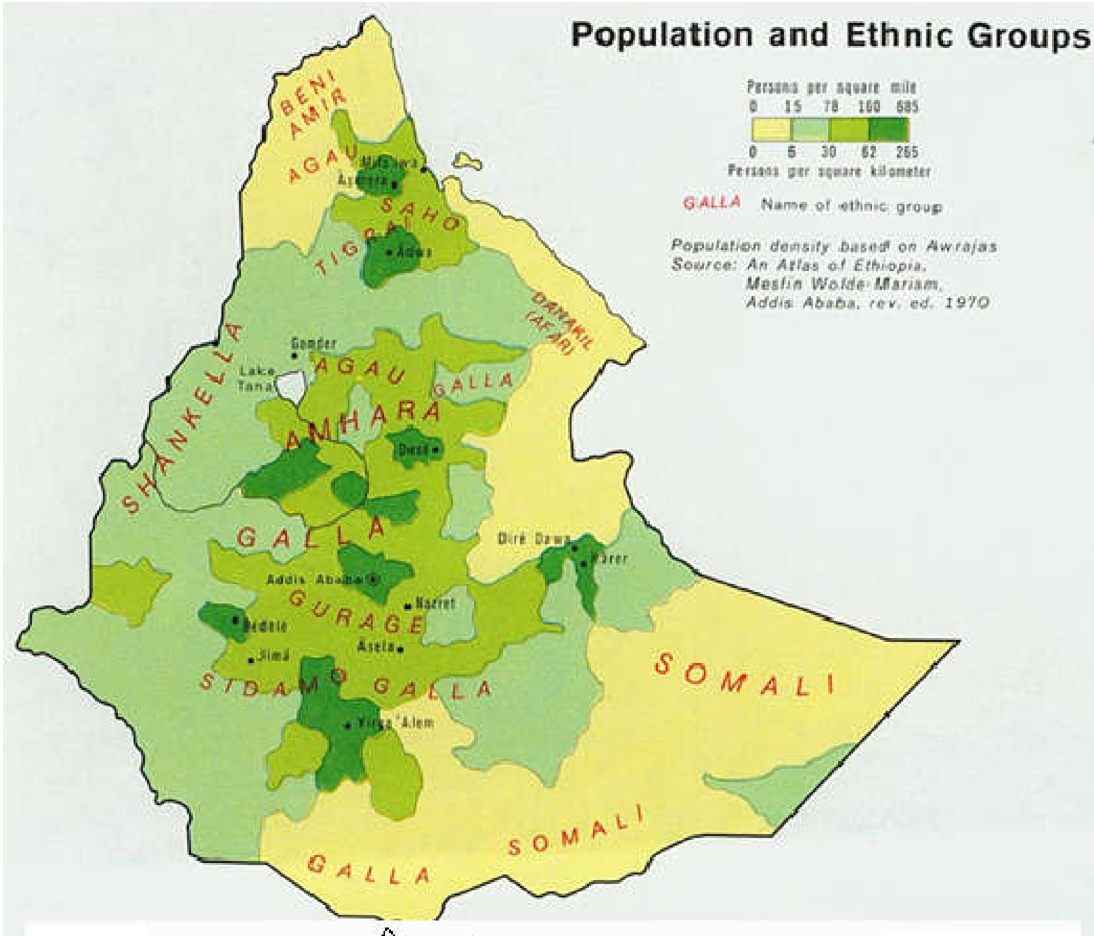


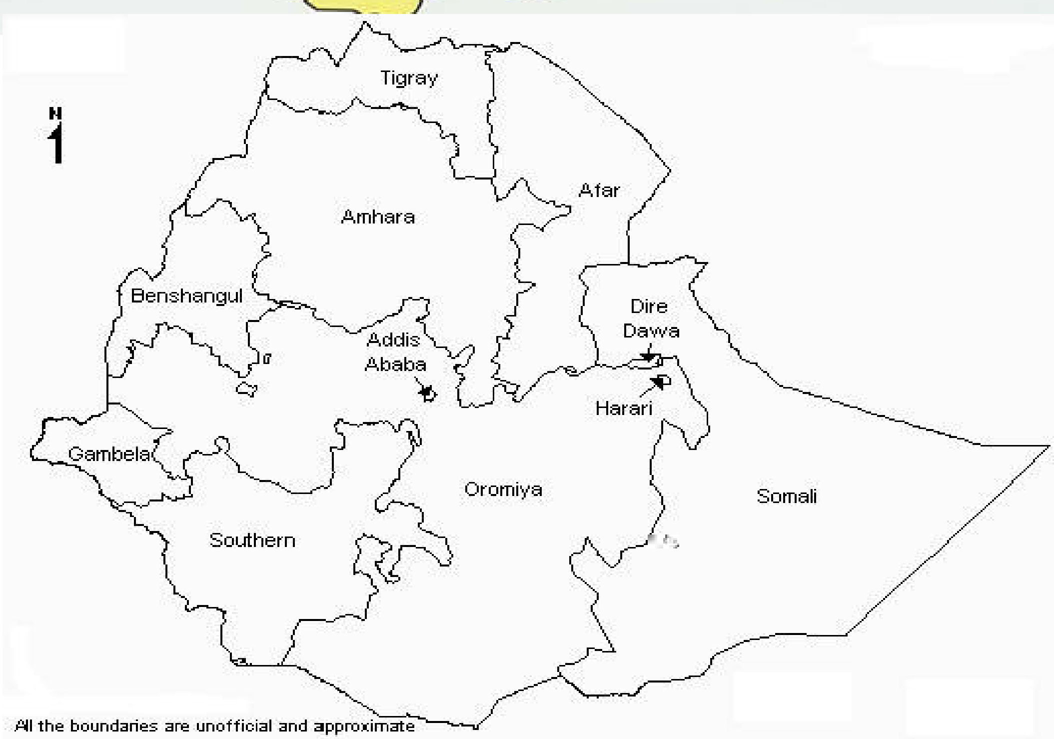
وهى إفات(تشمل هرر وزيلع)-داموت- شوا- هدية- داوارو – بالى –منطقة الدناكل او العفر المسلمة – وهى التى استولت عليها الحبشة لتصبح اثيوبيا الامبراطورية.



الامبراطورية العُمانية وامتدادها الافريقى - دولة الوحدة العربية ٣ الافريقية الاولى




Population and Ethnic Groups
Persons per square mile
0 15 78 160 685
0 6 30 62 265
Persons per square kilometer
GALLA Name of ethnic group
Population density based on Awrajas
Source: An Atlas of Ethiopia,
Mesfin Wolde-Mariam,
Addis Ababa, rev. ed. 1970
BENI AMIR
AGAU
SAHO
TIGRAI
DANAKIL (AFAR)
SHANKELLA
AGAU
GALLA
AMHARA
GALLA
GURAGE
SIDAMO
GALLA
SOMALI
SOMALI
GALLA
Gonder
Lake Tana
Addis Ababa
Nazret
Asela
Jima
Dire Dawa
Harer

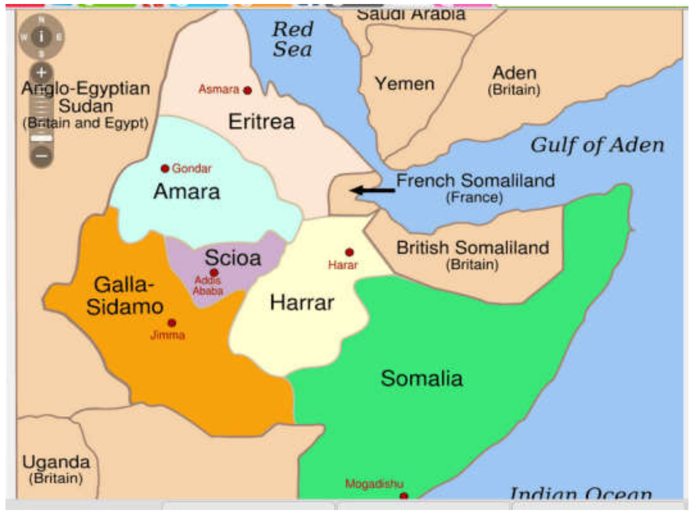

N
Tigray
Afar
Amhara
Benshangul
Dire Dawa
Addis Ababa
Harari
Gambela
Oromiya
Somali
Southern
All the boundaries are unofficial and approximate

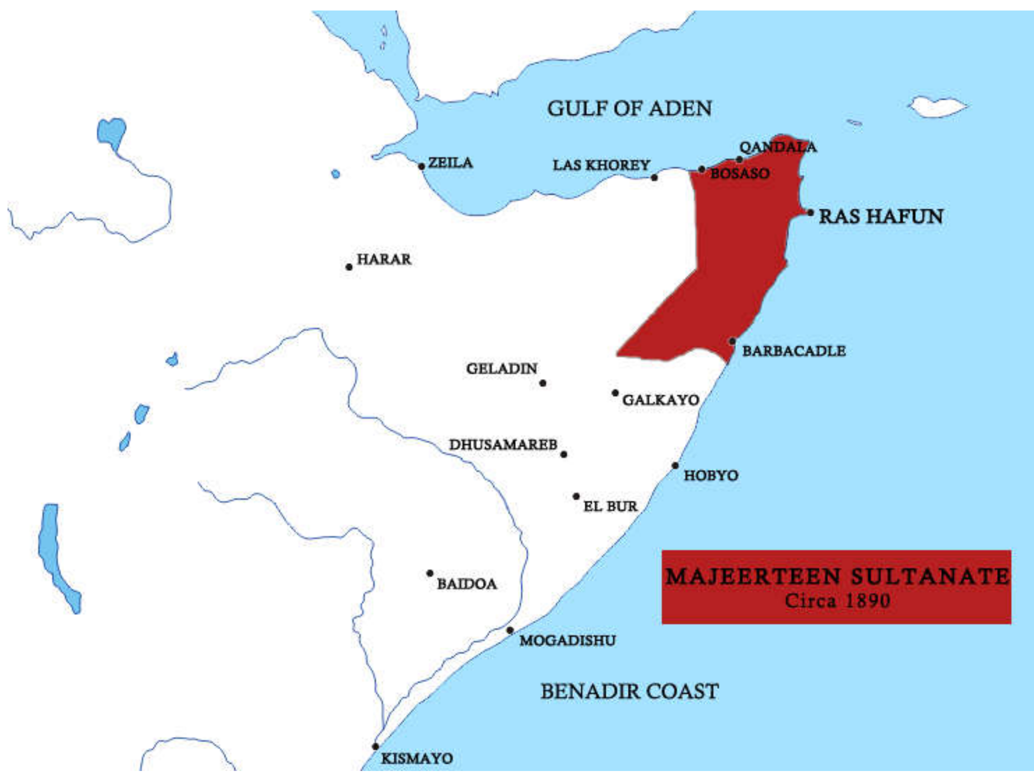


الثلاث خرائط عاليه تشمل التوزيع العرقى فى اثيوبيا

ومن مسمياتها يتضح الاقاليم المسلمة التى ضمتها من امارات الاسلام بالمنطقة ومن الصومال والسودان- كذلك تقسيم الصومال وفى الاسفل التقسيم الادارى

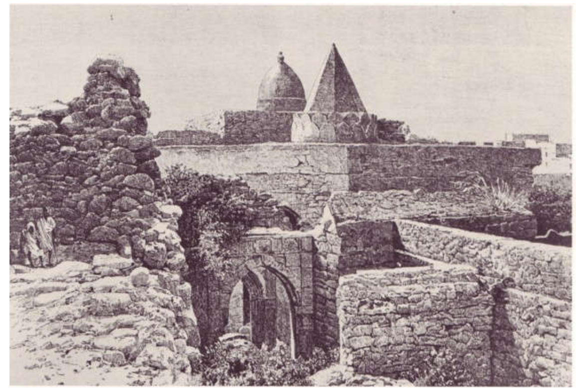






سلطنة مجارتين الصومالية ١٨٩٠

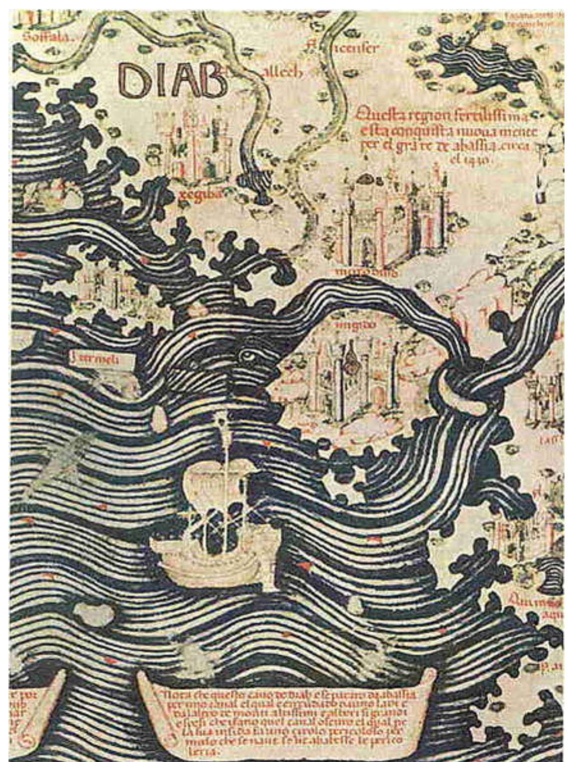
ملحق صور شرق افريقيا



مسجد فخر الدين - بناه الشيرازيون



زيلع



معركة بين امبراطور الحبشة

جيبا صيون وسلطان عدل



ممبسة

رسم لاحد البحارة الاوروبيون

ملحق ٢

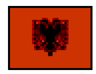
منظمة المؤتمر الاسلامى

الدول الاعضاء بمنظمة التعاون الاسلامى





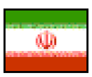
جمهورية العضوية أذربيجانالمملكة الأردنية الهاشميةجمهورية أفغانستان الإسلامية
سنة العضوية ١٩٩٢سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ٥/٢٨اليوم الوطني ٥/٢٥اليوم الوطني ٨/١٩



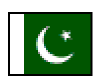
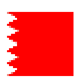


جمهورية ألبانيادولة الإمارات العربية المتحدةجمهورية إندونيسيا
سنة العضوية ١٩٩٢سنة العضوية ١٩٧٢سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ١١/٢٨اليوم الوطني ١٢/٢اليوم الوطني ٨/١٧

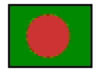
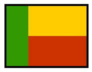
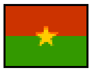




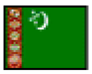
جمهورية أوزبكستانجمهورية أوغنداالجمهورية الإسلامية الإيرانية
سنة العضوية ١٩٩٦سنة العضوية ١٩٧٤سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ٩/١اليوم الوطني ١٠/٩اليوم الوطني ٢/١١

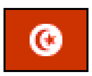

جمهورية باكستان الإسلاميةمملكة البحرينبروناي دار السلام
سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٧٢سنة العضوية ١٩٨٤
اليوم الوطني ٣/٢٣اليوم الوطني ١٢/١٦اليوم الوطني ٢/٢٣

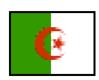
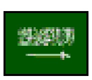
جمهورية بنغلاديش الشعبيةجمهورية بنينبوركينا فاسو(فولتا العليا سابقا)
سنة العضوية ١٩٧٤سنة العضوية ١٩٨٣سنة العضوية ١٩٧٤
اليوم الوطني ٣/٢٦اليوم الوطني ٨/١اليوم الوطني ١٢/١١

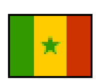
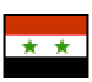
جمهورية طاجكستانالجمهورية التركيةتركمنستان
سنة العضوية ١٩٩٢سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٩٢
اليوم الوطني ٩/٩اليوم الوطني ١٠/٢٩اليوم الوطني ١٠/٢٧

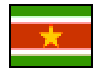
جمهورية تشادجمهورية توغوالجمهورية التونسية
سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٩٧سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ٨/١١ اليوم الوطني ٤/٢٧ اليوم الوطني ٣/٢٠

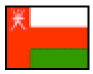
الجمهورية الجزائرية الديمقراطيةجمهورية جيبوتيالمملكة العربية السعودية
الشعبية سنة العضوية ١٩٧٨سنة العضوية ١٩٦٩
سنة العضوية ١٩٦٩اليوم الوطني ٦/٢٧ اليوم الوطني ٩/٢٣
اليوم الوطني ١١/١

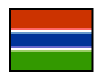
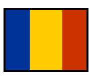
جمهورية السنغالجمهورية السودانالجمهورية العربية السورية
سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٧٢
اليوم الوطني ٤/٤اليوم الوطني ١/١اليوم الوطني ٤/١٧

جمهورية سورينامجمهورية سيراليونجمهورية الصومال
سنة العضوية ١٩٩٦سنة العضوية ١٩٧٢سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ١١/٢٥ اليوم الوطني ٤/٢٧اليوم الوطني ٧/١

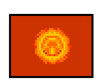
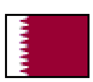
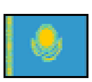
جمهورية العراقسلطنة عمانجمهورية الغابون
سنة العضوية ١٩٧٥سنة العضوية ١٩٧٢سنة العضوية ١٩٧٤
اليوم الوطني --/--اليوم الوطني ١١/١٨اليوم الوطني ٨/١٧

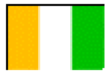
جمهورية غامبياجمهورية غوياناجمهورية غينيا
سنة العضوية ١٩٧٤سنة العضوية ١٩٩٨سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ٢/١٨ اليوم الوطني ٢/٢٣اليوم الوطني ١٠/٢

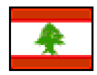
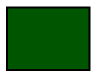
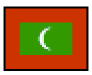
جمهورية غينيا بيساودولة فلسطينجمهورية القمر الاتحادية الإسلامية
سنة العضوية ١٩٧٤سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٧٦
اليوم الوطني ٩/٢٤ اليوم الوطني ١/١اليوم الوطني ٧/٦

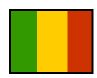
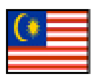
جمهورية قيرقيزيادولة قطرجمهورية كازاخستان
سنة العضوية ١٩٩٢سنة العضوية ١٩٧٢سنة العضوية ١٩٩٥
اليوم الوطني ٨/٣١اليوم الوطني ٩/٣اليوم الوطني ١٢/١٦

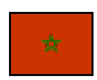
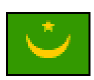
جمهورية الكاميرونكوت دي فواردولة الكويت
سنة العضوية ١٩٧٤سنة العضوية ٢٠٠١سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ٥/٢٠ اليوم الوطني ٨/٧ اليوم الوطني ٢/٢٥

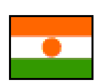
الجمهورية اللبنانيةالجماهيرية العربية الليبية الشعبيةجمهورية المالديف
سنة العضوية ١٩٦٩الإشتراكية سنة العضوية ١٩٧٦
اليوم الوطني ١١/٢٢سنة العضوية ١٩٦٩اليوم الوطني ٧/٢٦
اليوم الوطني ٩/١

جمهورية ماليماليزيا جمهورية مصر العربية
سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ٩/٢٢اليوم الوطني ٨/٣١اليوم الوطني ٧/٢٣

المملكة المغربيةالجمهورية الإسلامية الموريتانيةجمهورية موزمبيق
سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٩٤
اليوم الوطني ٧/٣٠اليوم الوطني ١١/٢٨ اليوم الوطني ٦/٢٥

جمهورية النيجرجمهورية نيجيريا الاتحاديةالجمهورية اليمنية
سنة العضوية ١٩٦٩سنة العضوية ١٩٨٦سنة العضوية ١٩٦٩
اليوم الوطني ١٢/١٨ اليوم الوطني ١٠/١اليوم الوطني ٥/٢٢

المراقبون بمنظمة المؤتمر الاسلامى

	العضو المراقب		تاريخ الحصول على مراقب
١	جمهورية البوسنة والهرسك		١٩٩٤
٢	جمهورية إفريقيا الوسطى		١٩٩٦
٣	مملكة تايلاند		١٩٩٨
٤	روسيا الاتحادية		٢٠٠٥
٥	دولة قبرص التركية		١٩٧٩
	الجماعات الإسلامية		
١	الجبهة الوطنية لتحرير مورو		١٩٧٧
	المؤسسات الإسلامية		
١	إتحاد مجالس الدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي		٢٠٠٠
	المنظمات الإقليمية والدولية		
١	منظمة الأمم المتحدة		١٩٧٦
٢	حركة عدم الانحياز		١٩٧٧
٣	جامعة الدول العربية		١٩٧٥
٤	الإتحاد الإفريقي		١٩٧٧
٥	منظمة التعاون الاقتصادي ECO		١٩٩٥

مراجع العربية

(١) الاسلام الفاتح - د . حسين مؤنس
(٢) الافريقيون والعرب - د . احمد سويلم العمرى.
(٣) مصر وافريقيا - د . زهران رياض.
(٤) سيراليون وليبيريا - محمد اسماعيل محمد .
(٥) زنجبار - د . صلاح العقاد وجمال زكريا .
(٦) الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا _ - د. عبدالرحمن زكى
(٧) موسوعة تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية(جزء ٦) - د . أحمد شلبى .
(٨) دولارات عربية لافريقيا (مترجم هيئة الاستعلامات) - إفرايم تشيامبى .
(٩) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد (ترجمة نبيل بدر و سعد زغل - باسيل دافيدسون
(١٠) نيجيريا عملاق افريقيا
(١١) المد الاسلامى فى افريقيا - محمد جلال عباس.
(١٢) الاسلام والحبشة عبر التاريخ - فتحى غيث
(١٣) اضواء على الحبشة (تقديم جمال عبدالناصر) - أمين شاكر ومصطفى امين وسعد الديان.
(١٤) العالم الاسلامى المعاصر - جمال حمدان .
(١٥) السودان عبر القرون دار الجيل - بيروت ١٩٩١ - د على شبيكة - جامعة الخرطوم.
(١٦) بحوث ندوة افريقيا - اصدارات مركز دراسات الوحدة العربية
(١٧) الامام ادريس مؤسس الدولة المغربية مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الاسلامى عدد ٣١ الصادر فى الرباط لعام ١٩٨٨
(١٨) بحوث ندوة افريقيا والثقافة العربية الاسلامية - اصدارات منظمة " الاسيسكو "
(١٩) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا - د. حسن أحمد محمود
(٢٠) تاريخ الاسلام السياسى - د. حسن ابراهيم حسن
(٢١) الحضارة - يوسف كمال
(٢٢) مستقبل أوروبا - كـــيرك.
(٢٣) عندما تغيرالعالم - جيمس بيرك.
(٢٤) مأساتنا فى افريقيا - عماد الدين خليل .
(٢٥) ألحواضر ألاسلامية ألكبرى - د. عصام الدين عبد الرؤوف.
(٢٦) الاسلام فى الصومال - الشيخ عبد الرحمن النجار .
(٢٧) فتح العرب لمصر تعريب محمد فريد ابو حديد الطبعة الثانية - د الفرد بتلر
(٢٨) حضارة العرب صدرعام ١٨٨٤ (طبعة ١٩٥٦ ترجمة عادل زعيتر) د جوستاف لوبون.
(٢٩) مقال السيدة إيزيس إسحاق مرقس باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات.
(٣٠)) فلسفة الثورة والميثاق الوطنى .
(٣١) ويسألونك عن ذى القرنين - تأليف مولانا أبو الكلام أزاد.
(٣٢) ندوة العرب وإفريقيا ؛ ثورة يوليو وافريقيا – اصدارات مركز دراسات الوحدة العربية .
(هناك العديد من المصادر تعرضنا لها فى المتن كما ان بعضها تضمنته الحرائط والصور)

المراجع الانجليزية

١.Abir, Mordechai (١٩٦٨). Ethiopia: The Era of the Princes; The Challenge of Islam and the Re-unification of the Christian Empire (١٧٦٩-١٨٥٥). London: Longmans.

٢. Rubenson, Sven (١٩٦٦). King of Kings: Tewodros of Ethiopia. Addis Ababa: Haile Selassie I University.

٣.J. Spencer Trimingham, Islam in Ethiopia (Oxford: Geoffrey Cumberlege for the University Press, ١٩٥٢), p. ١١١

٤. Abir, Era of the Princes, p. ١١١f

٥.Weld Blundell, H. (١٩٢٢). The Royal chronicle of Abyssinia, ١٧٦٩-١٨٤٠. Cambridge: University Press.

٦.Shiferaw Bekele, "Reflections on the Power Elite of the Wärä Seh Mäsfenate (١٧٨٦-١٨٥٣)"Annales d'Ethiopie ١٥ (١٩٩٠), p. ١٦١

٧.Rubenson, King of Kings, p ٣٧

٨.Rubenson, King of Kings, p. ٥٢.

٩. Chris Proutky, Empress Taytu and Menelik II: Ethiopia ١٨٨٣-١٩١٠ (Trenton: The Red Sea Press, ١٩٨٦), p. ٢٧n

١٠.Trimingham, Islam, p. ١١٠

١١)Islam and its holy prophet as judged by the none muslem world , P. ١٨٥ ; Nur Ahmed ; and K. M. A. Rab .

١٢)Report of The Commission of the missionary council of the church assembly in london " call from Africa "rational , rationality, and techniques of Christian missionary conversion of Africans, by Themba Sono, p. ١٧--٢٥ Christian missionarism and the alienation of the African mind - workshop by African society in libya ١٩٨٦.

١٣) Survey of international affairs,١٩٢٨.

١٤) The New Columbia Encyclopedia ١٩٧٥ .

١٥) Chronicles of the Crusades ; by Elizabeth Hallam ص ٣٥٨

) هناك حالات استثنائية كفرض الامبراطور يوحنس الرابع التنصير الاجبارى على مسلمى وُلتو خلال ستة أشهر أو تُصادر أملاكهم ، ومثال جزية إمارة هدية الى " زرع يعقوب " ملك الحبشة (١٤٣٤- ١٤٦٨) ، فيقول علي المسلمين فى إمارة هدية تقديم عذراء مسلمة الى امبراطور الحبشة سنويا لتنصيرها .

المصدر ترمنجهام صـ ٦٣ - نقلا عن النشاط العربى فى افريقيا – د/ حسن احمد صـ ٣٩٤

الفهرس

تقديم الكاتـــــــــب
صـ ٩ الكتاب الاول الحضارة الاسلامية
الفصل الاول موقع حضارة الاسلام من الحضارة الانسانية
مفهوم الحضارة وأنماطها .

الجذور العربية للحضارة الاسلامية -
حضارة الصحراء
عالمية الحضارة الاسلامية -
التراث العلمى وانجازات الحضارة العربية
- اولا مجال العلوم.
- ثانيا مجال الصناعـة

صـ ٣٢الفصل الثانى منـارة الاندلس وفضلها على اوروبا.
- النهضة فى عهد دول الطوائف
- النهضة فى عهد المرابطين
- النهضة فى عهد الموحدين
- غرناطة والحضارة (دولة بنى نصر)
- حواضر الاندلس ومراكز حضارتها
من قيامها الى سقوطها
أولا قرطبة
ثانيا إشبيلية
ثالثا غرناطة
رابعا طليطلة
- تفوق الاندلس الحضارى على اوروبا
- أخلاقيات الامة الاندلسـيـة
وانجذاب الاوروبيين للتعلم والاقامة الامنة
إقتباس اوروبا التراث العلمى للحضارة الإسلامية
حركة الترجمة الاوروبية للعلوم العربية
المرحـلة الاولى
القرن الثامن وحتى منتصف القرن ١١م
المرحـلة الثانية
عصر الترجمة الذهبى
المرحـلةالثالثة
طُليطلة كمركز للترجمة
امتصاص اوروبا للعلوم العربية
حصيـلة الترجمة
صـ ٤٤ ـ مكانة اللغة العربية كلغة للعلوم.
- تأثير الحضارة الاسلامية على عالم اليوم
(كيف غير المسلمون العالم)
- افضال الحضارة الاسلامية على أوروبا
(ما بين النُكران والعرفان)
صـ ٤٨ الفصل الثالث الامة والجهاد فى منظومة الحضارة الاسلامية
اولا - امة الاسلام
- اوضاع غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى - اهل الذمة
والتوصية المشددة بالقبط.
- تأمين اهل الذمة فى معاهدات صلح المسلمين الاوائل.
- معاملة اهل الذمة فى الدولة الفاطمية (مصر).
- مصر واليهود فى العصر الحديث.
- الحركة الصهيونية
واوضـاع اليهود فى مصر
- جـدلية الجـزية

قضـية بلا قضـية

صـ ٦٠ ثانيا- الجـــــــــــــــــــهاد
- نية السلام قبل نية الحرب
- قواعد الحـــــــــرب الاســـــــــــــــلامية
في معامـــــــــلة اهل البلاد المفتوحة
- انتفاء العدوانية في فتوح الاسلام
إسلام الشام ومصر إختياريا
- معطيات الحضارة الحديثة والدعوة
- تاثير المضمون الروحى للاسلام على الاوروبيين
- إخبار السماء بفتوح الاسلام
- الاسباب الاستراتيجية للفتوح
ودور عرب الشام والعراق
فى دعم الروم والفرس
٨٠صـ البـــاب الثانى البُعد الاسلامى(الجهاد)
فى تاريخ الاندلس جهاد ممالك الاندلـــــــــــــس
- أسلحة قوات الاسلام
الايمان بما فيه من نيات تُغنى عن كثرة العدد
وقلوب تُغنى عن حصانة الدروع
- الفتح والدعوة
- الجهـــــــاد - الحقيقة وافتراءات الدراسات الغربية
- الداعية وفنون الدعوة
ومعطيات الحضارة الحديثة
- المضمون الروحى للاسلام و تاثيره على الاوروبيين
صـ ٧٦ الباب الثانى البُعد الاسلامى فى تاريخ الاندلس
جهاد ممالك الاندلـــــــــــــس
الفصل الاول الاندلس وفتوحها
- الفتح العربى للاندلس
اولا العصر الأموي (الدمشقى - الاندلسى)
معركة شذونة (رمضان ٩٢هـ / يوليو ٧١١م)
- التطور التاريخى لعهود الاندلس
صـ ٨١ اولا ولاة الدولة الاموية (التبعية لدمشق)
فتوح الاندلس ومستوطناتها فى غرب ووسط أوروبا
تراجع المد الاندلسى فى أوروبا
والتخلص من مستوطناته
ـ معركة بلاط الشهداء - بواتييه وما بعدها
- مستوطنة فراكسينيت الإسلامية
وامتدادها فى جنوب فرنسا
- خروج المسلمون من جنوب فرنسا وغربى ايطاليا
- سقوط فراكسينيت
- تأثير المسلمون على جنوب اوروبا
(فرنسا – سويسرا)
صـ ٨٩ يوسف بن عبد الرحمن الفهري
أخر ولاة الخلافة الاموية بدمشق
و قيام الامارة الاموية فى غرناطة
إمارة عبد الرحمن الاموى (الداخل) واسرته
- التصدى لموالي العباسيين

- العهد الثانى إمارة وخلافة بنى امية القرطبية
إمارة عبد الرحمن (الداخل) صقر قريش
- الحركات العباسية
حركتا اليحصبى والصقلبي
- الدولة العامرية

ثالثا دويلات الطوائف
الانقسام الطائفى وضعف ملوك الطوائف
- المستعربون المولدون واضعاف الاندلس
- صراع ملوك الطوائف
- صراع طليطلة وقرطبة وتوسع اشبيلية
- إستيلاء إشبيلية على قرطبة
- توسع طليطلة وحربها على إشبيلية
وتحالفها مع قشتالة
- توسع إشبيلية (المعتمد) وتحالفه مع ملك برشلونة
فى محاولة غزو مرسية الفاشلة
- مسيرة الاسترداد
- قشتالة والاستيلاء على طليطلة الهدف الثمين الاول
- قصة تحالف قشتالة والمعتمد
- المرابطون ونجدة دول الطوائف
(يوسف بن تاشفين ونصر الزلاقة
عام ٤٧٩ هـ - اكتوبر ١٠٨٦م)
- عودة ابن تاشفين إلى المغرب ص ١٠٦
وفكرة الاستيلاء على الاندلس
- ألفونسو وإعادة الحشد
وعودة ابن تاشفين الى الاندلس
- معاودة الممالك الايبيرية عملية الاسترداد
- مملكة اراجون والاسترداد
- الموحدون ونجدة الاندلس انتصـــــار الارك
٩ شعبان سنة ٥٩١هـ / يوليو عام ١١٩٥م
- الموحدون والجهـــــــــاد فى الاندلس
- جهاد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
- جهاد أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور
ونصـــــــــر الارك
- هجمات الممالك الاسبانية
- موقعة العُقاب وهزيمة الموحدين
- الوضع فى الاندلس بعد موقعة العُقاب

اولا - نهاية دولة الموحدين وثورة الاندلس بزعامة ابن هود ودعوته للخليفة العباسى
ص ١١٧ ثانيا - ظهورابن الاحمر وتأسيس الدولة النصرية فى غرناطة ومناجزة ابن الاحمر قشتالة

- ضغوط الاسترداد ما بين قشتالة واراجون
- مهادنة ابن الاحمر قشتالة- التحالف المهين والخسران المبين
- تمرد ابن الاحمر على قشتالة والاستنجاد بمغرب بنى مرين
- شخصية الاحمر او ابن الاحمر
- جهاد بنى مرين فى الاندلس -(الجهاد العظيم) (ولاية ابن الاحمر الفقيه)
- أبو عبد الله محمد الملقب المخلوع والتمرد على بنى مري
- ثورة ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه وعزل المخلوع

واسترداد المغرب سبتة
وسقوط ثغرا المرية وجبل طارق فى يد الاسبان
- ابا الوليد اسماعيل والجهاد ضد قشتالة
- ابو عبد الله محمد واستعادة جبل طارق
- ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد وانتكاسة جهاد بنى مرين
- السلام مع اراجون وحصار قشتالة جبل طارق
- مراسلات المغرب ومصر بخصوص الوضع فى الاندلس
- انقطاع جهاد المغرب وترك غرناطة لمصيرها
- محمد بن يوسف بن اسماعيل الملقب بالغنى بالله (العلاقات مع مصر
- الجهاد ضد قشتالة - يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى)
- محمد بن يوسف (جهاده قشتالة وتهادنه مع اراجون)
- يوسف الثالث (ثورة اهل جبل طارق وخلافه مع المغرب والوفاق مع قشتالة
- الايسر (الانقلابات ودعم قشتالة وفتنها)
- الحجاج يوسف بن المول (اغتصاب الحكم بمساعدة قشتالة وخضوعه لها)
- عودة الايسر للحكم (مهادنة قشتالة ثم جهاده ضدها وطلبه معونة مصر)
- خلع الايسر والتنازع على المُلك
- تبدل ملوك غرناطة وسقوط جبل طارق وسقوط دولة بنى مرين
- إنحلال غرناطة السقوط ما بين ٨٦٨ -٨٩٧هـ /١٤٦٣-١٤٩٢م (
- انقسام غرناطة
اسرة المستعين بالله والتنازع على العرش
- النزاع حول العرش الغرناطى وانقسام غرناطة
- وحدة قشتالة واراجون ومحاولات ابو الحسن التفاهم مع قشتالة
صـ ١٤١ - إستغاثة الاندلس بدول الاسلام - هوان امة على امتها
* موقف سلاطين الحفصيين
* موقف ملوك الدولة الزيانية
* موقف مصر
* موقف الدولة العثمانية
فى عهدى السلطان محمد الفاتح

وابنه السلطان بايزيد الثاني
- تطويق غرناطة وسقوط اخر الثغور
- مفاوضات الاستسلام
صـ ١٤٧ - نهاية غرناطة وسقوط الاندلس وزوال حـــــــكم الاسلام
- سقوط الحمراء واستسلام ابو عبد الله
- رد فرديناند وايزابيلا على رسالة سلطان مصر.
صـ ١٥١ الفصل الثانى المأساة الاسلامية (الهوان الموركسى)
المأساة والنضال (٨٩٧ -١٠١٨هـ /// ١٤٩٢-١٦٠٩م)
(التنصيرالاجبارى ـ محاكم التفتيش ـ الخروج)
- معاملة الاسبان للمدجنين المورسكيين "الموروس"
- الخروج
ـ التنصير الاجبارى وديوان التحقيق " محاكم التفتيش
- فظائع ديوان التحقيق La Inquisition""
- الثورة ضد التنصير العام
- تحريم حمل السلاح
- الثورة المورسكية الكُبرى واعلان الاستقلال
- مفاوضة الاسبان الثائرمحمد بن امية واغتياله
- قتال الثوار الدون خوان اخو الملك فيليب

- تشتيت الاسبان للموريسكيين
- مفاوضة الاسبان الثائرمحمد بن امية واغتياله
- القتال والتفاوض
- تشتيت المورسكيين فى الداخل
- الثوار المورسكيون يستنهضون روح الجهاد فى المغرب
ورد فعل الاسبان (نفى المورسكيين و مآسي الرحيل والطريق)
- تمرد المورسكيين وترحيلهم
- الخروج الثانى الهروب عبر الاطلنطى
وطرد المورسكيين من المستعمرات الاسبانية فى امريكا .
- مأسى الطريق نهب المنفيين والاعتداء عليهم
المورسكيون - خصالهم ومقوماتهم
صـ ١٦٦ - هجرات الاندلسيين والمورسكيين الى المغرب
على مر التاريخ الاسلامى[٣٥٦]
- استقرار المورسكيين فى تطوان
- مساهمة العائلات الأندلسية في الحياة المغربية
- جهادالقراصنة (إستنقاذ المورسكيين من اسبانيا القرن ١٦ م)
- قضية المورسكيين اليوم (المطالبة بالحقوق)
- تعقيب صـ ١٧٢.

صـ ١٧٣ الكتاب الثانى
البعد الاسلامى فى تاريخ افريقيا جنوب الصحراء
الفصل الاول الحضارة والجهاد فى السودان الغربى (إفريقيا الغربية)
- إفريقيا الغربية قبل الاسلام
- عزلة الاقليم
- إحتجاب الاقليم عن الديانات السماوية الكتابية
- أزمة الحضارة بالاقليم
- دورة مد الاسلام ومكوناتها
(المداخل - أدوات المد الإسلامي)
- اسلام البربر ومد الاسلام عبر الصحراء
- مناجزة البربر غانا
- تجارة عبر الصحراء
- هجرات القبائل العربية والافريقية
(اهم الشعوب إسهاما في الدعوة)
- مسيرة مد الاســـلام .
ص١٦٨ الفصل الثانى إفريقيا الغربية قبل الاسلام
- الكيانات السياسية للاسلام
المرحلة الأولى
ممالك الإسلام (من القرن ١٣ وحتى بداية القرن ١٦م)
(١)مملكة غانة
(٢)أمبراطورية مالى .
(٣) مملكـــة صنغـــى .
(٤) مملكة كانم .

صـ ١٨٣ المرحلة الثانية

جهاد الصوفية من اجل الدعوة ومناجزة الاستعمارفى غرب افريقيا)

- التعريف بالطرق الصوفية
- جهاد الصوفية
- المرابطون (دولتهم فى الأندلس والمغرب وأجزاء من غرب إفريقيا)
- حركة الأمام" عثمان فودى ده " ـ جهاد أحمدو لمبو بن حمد بوبو
- كفاح عمر تال (عمر الفوتى التكرورى)
  في مالى وغينيا (حركه تيجانية)
- حركة موديبو أداما " الفولانية "
- طـــرق أخـــرى
- تقـويـم عام
- أثر حضارة الاسلام ـ الوجود العربى
- الثقافة العربية فى الاقليم
- تأثير الإسلام على المجتمعات الوثنية
- الفرق الحضارى بين المجتمعين الاسلامى والوثنى
- موقع حضارة الإقليم في حضارة الإسلام .

صـ ١٩٥ (تقـويـم عام) المد الإسلامى وتأثيره الحضاري على غرب افريقيا

صـ٢٠٣ المرحلة الثالثة

مد الاسلام فى كنف الاستعمار

تحدى المسلمون السلطة الاستعمارية

- سياسة الفرنسيين فى مواجهة الاسلام
- سياسة الانجليز
- وسائل الإستعمار فى محاربة الإسلام وتطويع الافريقيين

١- اعادة صياغة الهوية(مكوناتها اللغة والتعليم والعقيدة)
وإ جتناب المسلمين مدارس التبشير وسلبياته عليهم
٢- الأفكار التغريبية للدراسات العلمية للمجتمعات الافريقية
٣- التبشـــــير الأوروبى (محاربة الاسلام -- الهيمنة على الافريقيين)
- تطور المد التبشيرى حتى الحرب العالمية الاولى
- التبشير فى القرن العشرين
- علاقة التبشير بالاستعمار
- موقف التبشير من الاسلام
- مقارنة بين مد التبشير ومد الاسلام فى القرن العشرين
- الكنائس الافريقية الوطنية

صـ ٢٢٢ تقويم عـــــــــــــــام مد الاسلام فى ظل الاستعمار

صـ ٢٢٥ الفصل الثالث تجارة النخاسة الأوروبية وتجارة الرق العربية في إفريقيــا

النخاسة قضية عقيدة أم قضية سلوك ؟

- الاسلام والرق
- الاسلام وعتق الرقيق
- الرق بين جوهر العقيدة والسلوك الانسانى
- مقارنة بين تجارتا الرقيق الاوروبية والعربية .

صـ ٢٣٦ الباب الرابع مد الاسلام فى السودان الشرقى النوبة القديمة والتخوم الشرقية

اولا النوبة الشمالية (نوباديا ومقرة)

- العلاقات المتجذرة بين مصر والنوبة
- الاسرة الكوشية واهتمامها بمصر
- ممالك النوبة (نوباديا ـ مقرة – علوة)
- العهدين البطلمى والرومانى

- النوبة الشمالية
- الفترة المسيحية (تقدم العرب الى النوبة
- الصلح بين العرب والنوبة (معاهدة البقط)
- محاولات النوبة التنصل من البقط
- النوبة والسيادة المصرية (الدولة الطولونية - الدولة الاخشيدية - الدولة الفاطمية (تغلل القبائل العربية) - دولة المماليك.
- اسلام ملوك مقرة
- امارات القبائل وزوال السلطة المركزية
ثانيا التخوم بين الصحراء الغربية حتى مصوع وزيلع
- هجرات القبائل
- مصر وعرب البجة فى الصحراء الغربية
(حملة ابن الحبحاب ؛ وحملة المأمون العباسى بقيادةعبد الله بن الجهم
- هجرات القبائل العربية
- حملة المتوكل
- حكم المماليك سواكن وعيذاب
- ولاية الكُشاف قوصوة (كوسوفو) فى النوبة
- الوضع الثقافى
- الوضع الاقتصاد
- مد الاسلامى .
صـ ٢٥١ تقويم عـــــــــــــام المد الاسلامى فى النوبة الشمالية والتخوم
ثالثا مملكة علوة
- هجرة القبائل العربية الى علوة .
- المملكة قبل اسلامها
رابعا ممالك الاسلام فى علوة
- ظهور دولة الفونج المسلمة (مملكةعمارة دونقس)
إمبراطورية الفونج (مملكة سنار)
- تفتت السلطة المركزية
- تمرد الشيخ عجيب عبد اللاب (عهد عدلان ود آى ١٦١١م)
- بادى سيد القوم بن عدلان ود آى
(الحرب الحبشية الاولى ١٦١٨ -١٦١٩م)
- بادى ابو دقن ١٦٤٥م (غزواته واستقلال الشيقية)
- بادى الاحمر ١٦٩٢م (البعثات الفرنسية) ووصف حال المملكة
- بادى ابو شلوخ ١٧٢٤م
(الحرب الحبشية الثانية١٧٤٤م) و(الحملة على كردفان
(خلعه وتولى ابنه)
- سيطرة الهمج على السلطة - الوضع الثقافى فى مملكة سنار
- النظام الادارى و التجارى
- ســـلطنة دارفور - الفور وسليمان سولون .
صـ ٢٦٦الباب الخامس محمد على وفتح السودان
الفصل الاول فتح السودان وتوحيده
- تقدم الجيوش بقيادة اسماعيل
- اولويات محمد على
- الادارة بين القسوة والاعتدال
- محمد على وتطوير السودان
- ادارة عباس الاول
- ادارة سعيد المحب للسودانيين
- ادارة اسماعيل

- تجنيد السودانيين ومحاربة تجارة الرقيق
- ثورة الجند السود فى كسلا .
صـ ٢٤٧ الفصل الثانى
الفتوح المصرية فى المنطقة الاستوائيةواعالى النيل
و محاربة تجارة الرقيق
- فتوحات اسماعيل فى المنطقة الاستوائية
اولا - بيـــكر وأعالى النيل
ثانيا - غوردون الولاية الاولى
(مديرية خط الاستواء)
- محاربة تجارة الرقيق وانفصال اوغندة
ثالثا -غوردون الولاية الثانية
(حكمدارا للسودان الفترة من فبراير ١٨٧٧ الى اخر ١٨٧٩ م)
- مشروع غوردون لالغاء الرق ومواجهة ثورة دارفور
- وقف الفتوح
- تعقب سليمان بن الزبير
- استبدال المصريين والعرب فى الادارة بالاوروبيين
- توفيق واستقالة غوردون
صـ ٢٨٥ تقويم الدور المصرى في السودان
- مد الاسلام - التعليم
- العمران والتنمية العامة
- الوضع السياسي .
صـ ٢٩٠ الفصل الثالث الثـــــــورة المهـــــدية
- غوردون والادارة المصرية وبدء حكم الانجليز
- قوى الثورة فى كردفان ودارفور
- عودة غوردون الى السودان (الولاية الثالثة- اخلاء السودان)
- غوردون والاخلاء - ثورة السودان الشرقى (هزيمة بيكر وجراهام)
- حملة جراهام وقوات الصحراء بقيادة ولسلى
- سقوط الخرطوم ومصرع غوردون
- الخليفة عبد الله بن السيد
- التقدم نحو مصر
- الحرب مع الحبشة
- تقدم القوات الانجليزية بقيادة كتشنر لاستعادة السودان
- تكالب الاوربيون على الاملاك المصرية فى السودان الكبير
امبراطورية مصر الافريقية
- دعوة الخليفة الدول الى المهدية والاسلام
- ثورات ما بعد المهدى.
صـ ٣٠٥ تعقـــــــــــــــــــــــــــيب
صـ ٣٠٦ الباب السادس مد الاسلام فى شـرق افريقيا بين الساحـل والهضبة
(اريتريا – الصومال – زنجبار – ساحل كينيا – الحبشة)
الفصل الاول جذور العرب فى شرق افريقيا
- التداخل الجغرافى والعرقى والثقافى
بين شرق افريقيا وعرب الجزيرة
صـ ٣١٠ الفصل الثانى الامارات الاسلامية فى الهضبة والسواحل
(ساحل البحر الاحمر وساحل شرق افريقيا).
اولا سلطنات شرق افريقيا.
- جهاد إفات -عدل.

- العلاقات السياسية بين الحبشة ودول الاسلام
- الموادعة (الفترة النجشية)
- المواجهة (التقاء الصليبية السليمانية و البرتغالية)
-الوحشية البرتغالية ضد المدن الاسلامية
- العودة الى الموادعة والعزلة
صـ ٣٣٦ الفصل الثالث نضال ممبسة وجهاد الامبراطورية العُمانية فى ساحل شرق افريقيا
- انتفاضة ممبسة والاستنجاد بالترك والعُمانيين
صـ ٣٣٨ نجدة العُمانيون ممبسة
- جهاد الامبراطورية العُمانية فى ساحل شرق افريقيا
* مطاردة البرتغاليين وقيام دولة الوحدة العربية الافريقية الاولى
* دولة الوحدة العربية الافريقية الثانية
نبّذة عن سعيد بن سلطان

الفصل الرابع المد الاسلامى فى ساحل شرق افريقيا بين القرنين ١٧ــ ١٩
- حركة القبائل (الاعفار- الجالا- الصوماليون)
- مد الاسلام تحت الراية العمانية فى افريقيا
- دور الطرق الصوفية فى دعم الاسلام
- جهاد الامام محمد عبدالله حسن فى نشر
الاسلام ومواجهة التبشير (القرن ١٩)
صـ ٣٤٤ الفصل الخامس حضارة الاسلام فى سلطنات ساحل البحر والهضبة وساحل شرق افريقيا
صـ ٣٤٧ الفصل السادس الفتوح المصرية فى شرق افريقيا ١٨٠٥ ـ ١٨٩٦
-المد المصرى فى الحبشة (التصادم)
- مشروع بيسون
- مقدمات الحرب
- مصر ومنليك
- محاولات الصلح مقدمات الحرب
- الحرب بين مصر واثيوبيا
- معركة جورا (باريتريا المعاصرة)
- تراجع النفوذ المصرى فى شرق افريقيا وتقسيم المنطقة بين القوى الاستعمارية
- دور مصر الاسلامى و الحضارى - تقويم عام .
تقويم عام تحديات المد الاسلامى فى شرق افريقيا وموقف الحبشة من الاسلام
صـ ٣٦٢ الفصل السابع تحديات المد الاسلامى فى شرق افريقيا
- موقف الحبشة من الاسلام
- التبشير الاوروبى جنوب الصحراء
(نطاقى الوسط و الشرق)
صـ ٤١٠ الباب الباب السابع روح مصر الافريقية
الفصل الاول روح مصر الافريقية فى العصور القديمة
الفصل الثانى البعدين الاسلامى والافريقى فى سياسة مصر فى العصر الحديث
مصر وحركة القومية الافريقية فى مطلع القرن العشرون (محمد على دسوقى نبذه
عن محمد دسوقى ونضاله السياسى)
صـ ٤١٦ الفصل الثالث - الروح الافريقية لثورة يوليو (الروح الافريقية فى فكر ثورة يوليو ١٩٥٢)
صـ ٤١٢ - صـ ٤٣٣ والبعدين الاسلامى والافريقى فى سياستها الخارجية - من وثائق الثورة فلسفة الثورة لميثاق
دوائر الحركة السياسية فى فكر الثورة
- الدائرة الاسلامية و التعاون الاسلامى ووضع الاقليات
- الاسبقيات بين الدوائر
- التوافق والتعارض فى حركة الدوائر الثلاث

- ضوابط الحركة على الدائرة الاسلامية فى افريقيا
صـ ٤٣٣ الفصل الرابع اجهزة خدمة البعد الاسلامى
صـ ٣٦٩ الباب الثامن الفصل الاول البعد الدينى فى صراعات القارة النزعة الدينية فى الصراع
- النزعةالدينية فى خلفية صراعات القارة
- البعد الدينى لحركات الانفصال فى مناطق الاسلام
- امثلة تطبيقية لاهم الحركات الانفصالية بمناطق الاسلام التاريخية :
- الغرب الافريقى نيجيريا
- طوارق مالى
- التعدد العرقى والحركات الانفصالية فى اثيوبيا - بناء اثيوبيا المتحدة
- العرقيات الاثيوبية وتشكيلتها العددية و الدينية
- إريتريا - العرقيات الصومالية و اقليم الأوجادين "الصومال الغربي- زنجبار
الفصل الثانى اهم الحركات الانفصالية
اولا :حركات حققت استقلالها اوتوازنها الوطنى
- جبهة تحرير شعب تيجري الجبهة الديمقراطية الثورية (مايو)
ثانيا – حركات لم تحقق اهدافها و ما زال حلم الاستقلال يراودها
جبهة تحرير أورومو
الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين.
حركة تحرير بنى شنقول
حركة تحرير العفر
ثالثا – انفصال جنوب السودان
- غوردون و جذورالمشكلة
- الادارة الانجليزية وتكريس المشكلة
- التبشير والجنوب
- اثر الثورة المصرية على توجهات الجنوبيين
- الكنيسة الكاثوليكية و مساعدة التمرد
- تطور المنظور الانفصالى للحركة
- دور اسرائيل
- ظلال الدين فى الصراع
- اثار الانفصال على طرفى السودان
صـ ٤٠٩ الخلاصـــة
صـ ٤٣٩ الباب التاسع تحديات العمل الاسلامى والتعاون الاسلامى الافريقى جنوب الصحراء
الانقسامية بين شمال وجنوب الصحراء
صـ ٤٤٧ دور الدول الافريقية فى العمل الاسلامى دول الاغلبية المسلمة
صـ ٤٤٩ خلاصات عامة
صـ ٤٥١ الخلاصـــة (تقـويـم عام)
الملاحق الصور والخرائط

[i]) المقريزي: الإلمام، صـ ١٤، و فتحي غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٩-١٤.